

الحافظ ابن كثير

الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ



البداية والنهاية

الجزء الأول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دار نهـــر النيل للطبـاعة
٤٦ شارع الماوردى بالهرم
الـجــيزة
سجل تجارى ، ٤٥٨٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الامام عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير قرشيّ النسب دمشقيّ الدار توفي سنة ٧٧٤ هـ ، كان مقرئاً متقناً وراوية للحديث موثوقاً ، كما كان مفسّراً ومؤرخا معروفاً . وهذا النفس الموسوعي هو الذي نجده في كتابه الموسوم « البداية والنهاية » . وفيه يؤرّخ الامام ابن كثير للدول الاسلامية حتى زمانه . وهو يقسم مصنّفه الكبير الى ثلاثة اقسام :

الاول : يورد فيه بدء الخليقة ولمعاً من تواريخ الامم الغابرة حتى يبلّغه العربَ في الجاهلية ، ونشأةَ الرسول (ص) ، ثم الوَحي وظهور هداية الاسلام حتى الهجرة الى مدينة الرسول .

وهو في هذا القسم يعتمد على القرآن الكريم والسُّنة الشريفة ، ومَن تقدمه من كبار المؤرخين كالطبري وابن عمر والواقـدي، وعلى اصحاب السِّير .

والثاني : يؤرخ فيه للعهد الراشديّ فالدولة الأموية ، فالعباسية ، وما تفرّع عنها من ممالك ودولات أيام انحطاطها وتدهورها ، والى ما بعد ان قضى عليها المغول حتى وفاته سنة ٧٧٤ هـ .

اما الثالث : فهو ذكر للآخرة ومظاهر قروب الساعة وعلاماتها ووعظٌ ديني بمخافة الله ، وجعَل ذلك في المجلد الاخير فقط .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأول الآخر ، الباطن الظاهر ، الذى هو بكل شئ عليم ، الأول فليس قبله شئ ، الآخر فليس بعده شئ ، الظاهر فليس فوقه شئ الباطن ، فليس دونه شئ ، الأزلى القديم الذى لم يزل موجودا بصفات الكمال ، ولا يزال دائما مستمرا باقيا سرمديا بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال . يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء ، وعدد الرمال . وهو العلى الكبير المتعال ، العلى العظيم الذى خلق كل شئ فقدره تقديرا .

ورفع السموات بغير عمد ، وزينها بالكواكب الزاهرات ، وجعل فيها سراجا وقمراً منيرا وسوى فوقهن سريرا ، شرجعا (١) عاليا منيفا متسعا مقبيا مستديرا . وهو العرش العظيم – له قوائم عظام ، تحمله الملائكة الكرام ، وتحفه الكروبيون عليهم الصلاة والسلام ، ولهم زجل بالتقديس والتعظيم . وكذا أرجاء السموات مشحونة بالملائكة ، ويفد منهم فى كل يوم سبعون ألفا الى البيت المعمور بالسماء الرابعة لا يعودون اليه ؛ آخر ما عليهم فى تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم .

ووضع الارض للأنام على تيار الماء . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها

---

(١) – الشرجع : هو العالي المنيف

فى أربعة أيام قبل خلق السماء ، وأنبت فيها من كل زوجين اثنين ، دلالة للالباء من جميع ما يحتاج العباد اليه فى شتائهم وصيفهم ، ولكل ما يحتاجون اليه ويتلكونه من حيوان بهيم *

وبدأ خلق الانسان من طين ، وجعل نسله من سلالة من ماء مهين ، فى قرار مكين . فجعله سميعا بصيرا ، بعد ان لم يكن شيئا مذكورا . وشرفه بالعلم والتعليم . خلق بيده الكريمة آدم أبا البشر ، وصور جثته ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وخلق منه زوجه حواء أم البشر فآنس بها وحدته ، وأسكنهما جنته ، واسبغ عليهما نعمته . ثم أهبطهما الى الارض لما سبق فى ذلك من حكمة الحكيم . وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، وقسمهم بقدره العظيم ملوكا ورعاة ، وفقراء وأغنياء ، وأحراراً وعبيدا ، وحرائر وإماء . وأسكنهم أرجاء الارض ، طولها والعرض ، وجعلهم خلائف فيها يخلف البعض منهم البعض ، الى يوم الحساب والعرض على العليم الحكيم . وسخر لهم الأنهار من سائر الاقطار ، تشق الأقاليم الى الأمصار ، ما بين صغار وكبار ، على مقدار الحاجات والأوطار ، وأنبع لهم العيون والآبار . وأرسل عليهم السحائب بالامطار ، فأنبت لهم سائر صنوف الزرع والثمار . وآتاهم من كل ما سألوه بلسان حالهم وقالهم : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار » : فسبحان الكريم العظيم الحليم * وكان من أعظم نعمه عليهم . واحسانه اليهم ، بعد أن خلقهم ورزقهم ويسر لهم السبيل وأنطقهم ، أن أرسل رسله اليهم ، وأنزل كتبه عليهم : مبينة حلاله وحرامه ، وأخباره وأحكامه ، وتفصيل كل شئ فى المبدإ والمعاد الى يوم القيامة *

فالسعيد من قابل الاخبار بالتصديق والتسليم ، والاوامر بالانقياد والنواهى بالتعظيم . ففاز بالنعيم المقيم ، وزحزح عن مقام المكذبين فى الجحيم ذات الزقوم والحميم ، والعذاب الاليم *

أحمده حمدا كثيراً طيبا مباركا فيه يملأ أرجاء السموات والارضين ، دائما أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، الى يوم الدين ، فى كل ساعة وآن ووقت وحين ، كما ينبغى لجلاله العظيم ، وسلطانه القديم ووجهه الكريم * وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ولا ولد له ولا والد له ، ولا صاحبة له ، ولا نظير ولا وزير له ولا مشير له ، ولا عديد ولا نديد ولا قسيم *

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، المصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم ، خاتم الانبياء ، وصاحب الحوض الاكبر الرواء ، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة ، وحامل اللواء الذى يبعثه الله المقام المحمود الذى يرغب اليه فيه الخلق كلهم حتى الخليل ابراهيم صلى الله عليه وعلى سائر اخوانه من النبيين والمرسلين ، وسلم وشرف وكرم أزكى صلاة وتسليم ، وأعلى تشريف وتكريم . ورضى الله عن جميع أصحابه الغر الكرام ، السادة النجباء الأعلام ، خلاصة العالم بعد الانبياء . ما اختلط الظلام بالضياء ، وأعلن الداعى بالنداء وما نسخ النهار ظلام الليل البهيم *

﴿ أما بعد ﴾ فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدإ المخلوقات : من خلق العرش والكرسي والسموات ، والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين ، وكيفية خلق آدم عليه السلام ، وقصص النبيين ، وما جرى مجرى ذلك الى أيام بني اسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة الى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه . فنذكر سيرته كما ينبغي فتشفي الصدور والغليل ، وتزيح الداء عن العليل *

ثم نذكر ما بعد ذلك الى زماننا ، ونذكر الفتن والملاحم واشراط الساعة ، ثم البعث والنشور وأهوال القيامة ، ثم صفة ذلك وما في ذلك اليوم ، وما يقع فيه من الامور الهائلة . ثم صفة النار ، ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان ، وغير ذلك وما يتعلق به ، وما ورد في ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء وورثة الانبياء ، الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

ولسنا نذكر من الاسرائيليات الا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله ، وسنة رسوله (ص) وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب ، مما فيه بسط لمختصر عندنا ، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج اليه والاعتماد عليه . وانما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله (ص) ، ما صح نقله أو حسن وما كان فيه ضعف نبينه . وبالله المستعان وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة الا بالله العزيز الحكيم العلي العظيم *

فقد قال الله تعالى في كتابه (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا) وقد قص الله على نبيه (ص) خبر ما مضى من خلق المخلوقات ، وذكر الامم الماضين ، وكيف فعل بأوليائه ، وماذا أحل بأعدائه . وبين ذلك رسول الله (ص) لأمته بيانا شافيا ، سنورد عند كل فصل ما وصل الينا عنه ، صلوات الله وسلامه عليه . من ذلك تلو الآيات الواردات [1] في ذلك فأخبرنا بما نحتاج اليه من ذلك ، وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه ويتراجم في فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس اليه . وقد يستوعب نقله طائفة من علمائنا ولسنا نحذو حذوهم ولا ننحو نحوهم ولا نذكر منها الا القليل على سبيل الاختصار . ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا ، وما خالفه فوقع فيه الانكار *

فأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله (ص) قال « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، وحدثوا عني ولا تكذبوا علي ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » فهو محمول على الاسرائيليات المسكوت عنها

(١) أي بذكر الاحاديث عقب الآيات

عندنا. فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها، فيجوز روايتها للاعتبار. وهذا هو الذى نستعمله فى كتابنا هذا * فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلاحاجة بنا اليه استغناء بما عندنا. وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته، الا على سبيل الانكار والابطال *

فاذا كان الله، سبحانه وله الحمد، قد أغنانا برسولنا محمد، (ص) عن سائر الشرائع، وبكتابه عن سائر الكتب، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخلط، وكذب ووضع، وتحريف وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير *

فالمحتاج اليه قد بينه لنا رسولنا، وشرحه وأوضحه. عرفه من عرفه، وجهله من جهله. كما قال على بن أبى طالب «كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله» وقال أبو ذر، رضى الله عنه: «لقد توفى رسول الله (ص) وما طائر يطير بجناحيه الا أذكرنا منه علما» وقال البخارى فى كتاب بدء الخلق، وروى عن عيسى بن موسى غنجار عن رقبة عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال «سمعت عمر بن الخطاب يقول قام فينا رسول الله (ص) مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم. وأهل النار منازلهم * حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه» قال أبو مسعود الدمشقى فى اطرافه هكذا قال البخارى، وانما رواه عيسى غنجار عن أبى حمزة عن رقبة، وقال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله فى مسنده: حدثنا أبو عاصم[1] حدثنا عزرة بن ثابت، حدثنا علباء بن أحمر اليشكرى: حدثنا أبو زيد الانصارى، قال قال: صلى بنا رسول الله (ص) «صلاة الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى الظهر. ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى العصر. ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان، وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا»

انفرد باخراجه مسلم فرواه فى كتاب الفتن من صحيحه عن يعقوب بن ابراهيم الدورق وحجاج بن الشاعر، جميعا عن أبى عاصم الضحاك بن مخلد النبيل عن عزرة عن علباء عن أبى زيد عمرو بن أخطب بن رفاعة الانصارى رضى الله عنه عن النبى (ص) بنحوه

---

(١) - ابو عاصم رواية له

فصل

قال الله تعالى فى كتابه العزيز « الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل » فكل ما سواه تعالى فهو مخلوق له ، مربوب مدبر ، مكوّن بعد أن لم يكن محدث بعد عدمه . فالعرش الذى هو سقف المخلوقات الى ماتحت الثرى ، وما بين ذلك من جامد وناطق الجميع خلقه ، وملكه وعبيده وتحت قهره وقدرته ، وتحت تصريفه ومشيئته « خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام . ثم استوى على العرش . يعلم ما يلج فى الأرض ، ومايخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير »

وقد أجمع العلماء قاطبة لايشك فى ذلك مسلم أن الله خلق السموات والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام كما دل عليه القرآن الكريم . فاختلفوا فى هذه الأيام أهى كأيامنا هذه أوكل يوم كألف سنة مما تعدون ؟ على قولين كما بينا ذلك فى التفسير ، وسنتعرض لايراده فى موضعه . واختلفوا هل كان قبل خلق السموات والأرض شئ مخلوق قبلهما . فذهب طوائف من المتكلمين الى انه لم يكن قبلهما شئ وأنهما خلقتا من العدم المحض . وقال آخرون بل كان قبل السموات والارض مخلوقات أخر لقوله « وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء » الآية . وفى حديث عمران ابن حصين كما سيأتى « كان الله ولم يكن قبله شئ وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شئ ثم خلق السموات والأرض » وقال الامام أحمد بن حنبل حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو يعلى ابن عطاء عن وكيع بن حُدس عن عمه أبى رزين لقيط بن عامر العقيلى أنه قال « يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ قال كان فى عماء مافوقه هواء وما تحته هواء ثم خلق عرشه على الماء » ورواه عن يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة به . ولفظه أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ وباقيه سواء وأخرجه الترمذى عن أحمد بن منيع وابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هرون ، وقال الترمذى حسن . واختلف هؤلاء فى أيهما خلق أولا ؟ فقال قائلون خلق القلم قبل هذه الاشياء كلها ، وهذا هو اختيار ابن جرير ، وابن الجوزى ، وغيرهما قال ابن جرير ، وبعد القلم السحاب الرقيق . واحتجوا بالحديث الذى رواه الامام أحمد ، وأبو داود والترمذى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه : قال قال رسول الله (ص) « إن أول ماخلق الله القلم . ثم قال له اكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن الى يوم القيامة » لفظ أحمد . وقال الترمذى حسن صحيح غريب . والذى عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمدانى وغيره (أن العرش مخلوق قبل ذلك) وهذا هو الذى رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس كما دل على ذلك الحديث الذى رواه

مسلم في صحيحه . حيث قال : حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح حدثنا ابن وهب أخبرني أبو هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله (ص.) يقول « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة ، قال وعرشه على الماء » قالوا فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير . وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب الى ذلك الجماهير . ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم . ويؤيد هذا ما رواه البخاري عن عمران بن حصين : قال قال أهل اليمن لرسول الله (ص.) « جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال كان الله ولم يكن شئ قبله » وفي رواية معه ، وفي رواية غيره « وكان عرشه على الماء . وكتب في الذكر كل شئ وخلق السموات والارض » وفي لفظ : ثم خلق السموات والارض . فسألوه عن ابتداء خلق السموات والارض . ولهذا قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فأجابهم عما سألوا فقط . ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رزين المتقدم . قال ابن جرير وقال آخرون « بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش » رواه السدى عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله (ص.): قالوا « ان الله كان عرشه على الماء ، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء » وحكى ابن جرير عن محمد بن اسحاق أنه قال « أول ماخلق الله عز وجل النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلا أسود مظلما ، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً » قال ابن جرير وقد قيل « ان الذي خلق ربنا بعد القلم الكرسي . ثم خلق بعد الكرسي العرش . ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة . ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء » والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل

فيما ورد في صفة خلق العرش والكرسي . قال الله تعالى « رفيع الدرجات ذو العرش » وقال تعالى « فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » وقال الله « لا إله إلا هو رب العرش العظيم » وقال « وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد » وقال تعالى « الرحمن على العرش استوى » وقال « ثم استوى على العرش » في غير ما آية من القرآن ، وقال تعالى « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما »

وقال تعالى « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وقال تعالى « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » وفي الدعاء المروي في الصحيح في دعاء الكرب « لا إله إلا الله العظيم الحليم . لا إله إلا الله رب العرش الكريم . لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » . وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد حدثني سماك بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف ابن قيس عن عباس بن عبد المطلب قال كنا جلوساً مع رسول الله (ص.) بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله (ص.) « أتدرون ماهذا قال قلنا السحاب قال والمزن قال قلنا والمزن قال والعنان قال فسكتنا فقال هل تدرون كم بين السماء والارض قال قلنا الله ورسوله أعلم . قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء الى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء[1] مسيرة خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والارض . ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن واظلافهن كما بين السماء والارض ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء » . هـذا لفظ الامام أحمد . ورواه أبو داود وابن ماجه والترمذي من حديث سماك بإسناده نحوه . وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك ووقفه ولفظ أبي داود « وهل تدرون بعد مابين السماء والارض ؟ قالوا لا ندري » قال « بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنين أو ثلاثة وسبعون سنة » والباقي نحوه . وقال أبو داود حدثنا عبد الأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار ، وأحمد بن سعيد الرباطي قالوا حدثنا وهب بن جرير . قال أحمد كتبناه من نسخته وهذا لفظه . قال حدثنا أبي قال سمعت محمد بن اسحاق يحدث عن يعقوب بن عتبة عن جبير بن محمد بن جبير ابن مطعم عن أبيه عن جده قال أتى رسول الله (ص.) اعرابي فقال يارسول الله جهدت الأنفس وجاعت العيال[2] ونهكت الاموال وهلكت الأنعام . فاستسق الله لنا فانا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك » قال رسول الله (ص.) « ويحك أتدري ماتقول » وسبح رسول الله (ص.) فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله إن عرشه على سمواته لهكذا » وقال بأصابعه مثل القبة عليه وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب . قال ابن بشار في

---

(١) (قوله وكثف كل سماء) بالثاء المعجمة . والذي في مسند الامام أحمد المطبوع بمصر كيف بالياء التحية . وفي المبني على البخاري منسوبا الى كتاب العرش لابن أبي شيبة . وكثف كل سماء بالثاء المثلثة . وهذا هو الصواب (٢) قوله وجاعت العيال هكذا في النسخ التي بايدينا وفي نسخة أبي داود التي بايدينا وضاعت العيال (محمود الامام)

حديثه « ان الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته » وساق الحديث . وقال عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب بن عتبة وجبير بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده : قال أبو داود والحديث باسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح . وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن معين وعلى بن المديني ورواه جماعة منهم عن ابن اسحاق كما قال احمد أيضاً ، وكان سماع عبد الأعلى وابن المثنى وابن بشار فى نسخة واحدة فيا بلغنى . تفرد باخراجها أبو داود ، وقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقى جزءاً فى الرد على هذا الحديث . سماه (بيان الوهم والتخليط الواقع فى حديث الأطيط) واستفرغ وسعه فى الطعن على محمد بن اسحاق بن بشار راويه . وذكر كلام الناس فيه ، ولكن قد روى هذا اللفظ من طريق أخرى عن غير محمد بن اسحاق ، فرواه عبد بن حميد وابن جرير فى تفسيريهما ، وابن أبى عاصم والطبرانى فى كتابى السنة لهما ، والبزار فى مسنده والحافظ الضياء المقدسى فى مختارته من طريق أبى اسحاق السبيعى عن عبد الله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « أتت امرأة الى رسول الله (ص) فقالت ادع الله أن يدخلنى الجنة قال فعظم الرب تبارك وتعالى وقال « ان كرسيه وسع السموات والارض وإن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد من ثقله . عبد الله بن خليفة هذا ليس بذاك المشهور . وفى سماعه من عمر نظر . ثم منهم من يرويه موقوفا ، مرسلا ، ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة والله أعلم »

وثبت فى صحيح البخارى عن رسول الله (ص) أنه قال « اذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن » . يروى وفوقه بالفتح على الظرفية ، وبالضم . قال شيخنا الحافظ المزى وهو أحسن ، أى وأعلاها عرش الرحمن . وقد جاء فى بعض الآثار (أن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش وهو تسبيحه وتعظيمه) وما ذاك الا لقربهم منه . وفى الصحيح أن رسول الله (ص) قال « لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ . وذكر الحافظ بن الحافظ محمد ابن عثمان بن أبى شيبة فى كتاب صفة العرش عن بعض السلف « أن العرش مخلوق من ياقوتة حمراء بعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة » وذكرنا عند قوله تعالى « تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة » أنه بعد ما بين العرش الى الأرض السابعة مسيرة خمسين الف سنة واتساعه خمسون الف سنة . وقد ذهب طائفة من أهل الكلام الى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ولذا سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير . وهذا ليس بجيد لانه قد ثبت فى الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل ، وأيضا فانه فوق الجنة والجنة فوق السموات وفيها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فالبعد الذى بينه وبين الكرسى ليس هو نسبة فلك الى فلك . وأيضا فان العرش فى اللغة عبارة عن السرير

الذي للملك كما قال تعالى (ولها عرش عظيم) . وليس هو فلكا ولا تفهم منه العرب ذلك . والقرآن انما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات . قال الله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) وقد تقدم في حديث الأوعال أنهم ثمانية ، وفوق ظهورهن العرش . وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وقال شهر بن حوشب « حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك» وأربعة يقولون « سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك » فأما الحديث الذي رواه الامام احمد حدثنا عبد الله بن محمد هو أبو بكر ابن أبي شيبة ، حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن اسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله (ص) صدق أمية يعني ابن أبي الصلت في بيتين من شعره فقال

رَجُلٌ وثَورٌ تحتَ رِجلِ يمينه ... والنسر للأخرى وليثٌ مرصد

فقال رسول الله (ص) صدق ، فقال

والشمسُ تطلع كل آخر ليلةٍ ... حمراءُ مطلعُ لونها متوردُ

تأبى فلا تبدو لنا في رِسلها ... إلا معذَّبةً والا تجلد

فقال رسول الله (ص) « صدق » فانه حديث صحيح الاسناد رجاله ثقات . وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة ، فيعارضه حديث الأوعال . اللهم الا أن يقال إن اثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفي ما عداهم . والله أعلم . ومن شعر أمية بن أبي الصلت في العرش قوله

مجّدوا الله فهو للمجد أهلٌ ... ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء العالي الذي بَهَر النا ... سَ وسوّى فوقَ السماء سريرا

شَرْجعاً لا يناله بَصَرُ العيـ ... ـن ترى حوله الملائكَ صورا

صور جمع أصور وهو المائل العنق لنظره الى العلو[1] والشرجع هو العالي المنيف . والسرير هو العرش في اللغة . ومن شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته

شهدتُ بأن وعدَ الله حقٌّ ... وأن النارَ مثوى الكافرينا

وأن العرشَ فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش ربُّ العالمينا

وتحمله ملائكةٌ كرامٌ ... ملائكةُ الاله مسوَّمينا

ذكره ابن عبد البر وغير واحد من الأئمة * وقال أبو داود حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله حدثني أبي حدثنا ابراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله

---

(١) قوله لنظره الى العلو كذا بالاصول . والذي في كتب اللغة لثقل حمله (محمود الامام)

أن النبي (ص) قال «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام. ورواه ابن أبي عاصم[١] ولفظه مخفق الطير[٢] مسيرة سبعمائة عام

وأما الكرسي

فروى ابن جرير عن طريق جويبر وهو ضعيف عن الحسن البصري انه كان يقول الكرسي هو العرش وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا في قوله تعالى (وسع كرسيه السموات والأرض) أي علمه والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم في مستدركه. وقال إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من طريق سفيان الثوري عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره الا الله عز وجل. وقد رواه شجاع بن مخلد الفلاس في تفسيره عن أبي عاصم النبيل عن الثوري فجعله مرفوعا والصواب أنه موقوف على ابن عباس وحكاه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري والضحاك بن مزاحم واسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير ومسلم البطين وقال السدي عن أبي مالك «الكرسي تحت العرش. وقال السدي السموات والأرض في جوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش» وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال «لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن الى بعض ما كن في سعة الكرسي الا بمنزلة الحلقة في المفازة» وقال ابن جرير حدثني يونس حدثنا ابن وهب قال قال ابن زيد حدثني أبي قال قال رسول الله (ص) «ما السموات السبع في الكرسي الا كدراهم سبعة ألقيت في ترس» قال وقال أبو ذر سمعت رسول الله (ص) يقول « ما الكرسي في العرش الا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض » أول الحديث مرسل. وعن أبي ذر منقطع. وقد روى عنه من طريق أخرى موصولا فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني أنبأنا عبد الله ابن وهيب المقرئ أنبأنا محمد بن أبي سري العسقلاني أنبأنا محمد بن عبد الله التميمي عن القاسم بن محمد الثقفي عن أبي ادريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري أنه سأل رسول الله (ص) عن الكرسي فقال رسول الله (ص) « والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي الا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » وقال ابن جرير في تاريخه حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبي عن سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال

---

(١) وفي نسخة ابن أبي حاتم (٢) (قوله مخفق الطير) كذا بالاصول ولا ندري له معنى. ولعل الرواية مخفق الطير أو محلق الطير (محمود الامام) نقلناه عنه

سئل ابن عباس عن قوله عز وجل « وكان عرشه على الماء » على أى شئ كان الماء قال على متن الريح قال والسموات والارضون وكل مافيهن من شئ تحيط بها البحار ويحيط بذلك كله الهيكل ويحيط بالهيكل فيما قيل الكرسى. وروى [1] عن وهب ابن منبه نحوه . وفسر وهب الهيكل فقال شئ من أطراف السموات يحدق بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط * وقد زعم بعض من ينتسب الى علم الهيئة أن الكرسى عبارة عن الفلك الثامن الذى يسمونه فلك الكواكب الثوابت . وفيما زعموه نظر لأنه قد ثبت أنه أعظم من السموات السبع بشئ كثير ورد الحديث المتقدم [2] بأن نسبتها اليه كنسبة حلقة ملقاة بأرض فلاة وهذا ليس نسبة فلك الى فلك . فان قال قائلهم فنحن نعترف بذلك ونسميه مع ذلك فلكا فنقول الكرسى ليس فى اللغة عبارة عن الفلك وانما هو كما قال غير واحد من السلف بين يدى العرش كالمرقاة اليه . ومثل هذا لا يكون فلكا . وزعم أن الكواكب الثوابت مرصعة فيه لا دليل لهم عليه . هذا مع اختلافهم فى ذلك أيضا كما هو مقرر فى كتبهم والله أعلم

ذكر اللوح المحفوظ

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا ابراهيم بن يوسف حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس أن نبى الله (ص) قال « ان الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكتابه نور لله فيه فى كل يوم ستون وثلثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيى ويعز ويذل ويفعل ما يشاء » وقال اسحاق بن بشر أخبرنى مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال « إن فى صدر اللوح لا اله الا الله وحده دينه الاسلام ومحمد عبده ورسوله . فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة » قال « واللوح المحفوظ لوح من درة بيضاء . طوله مابين السماء والأرض ، وعرضه مابين المشرق والمغرب . وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله فى حجر ملك » وقال أنس بن مالك ، وغيره من السلف « اللوح المحفوظ فى جبهة اسرافيل » وقال مقاتل هو عن يمين العرش *

(١) قوله وروى اى ابن جرير (٢) (قوله ورد الحديث المتقدم) هكذا بالاصول وهو تعليل لما قبله فالصواب فقد ورد الخ

ما ورد في خلق السموات والأرض وما بينهما

قال الله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والارض ، وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقال تعالى (خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام) فى غير ما آية من القرآن وقد اختلف المفسرون فى مقدار هذه الستة الايام على قولين . فالجمهور على أنها كأيامنا هذه . وعن ابن عباس ، ومجاهد والضحاك ، وكعب الاحبار : ان كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . رواهن ابن جرير ، وابن أبى حاتم . واختار هذا القول الامام أحمد ابن حنبل فى كتابه الذى رد فيه على الجهمية، وابن جرير وطائفة من المتأخرين والله أعلم . وسيأتى ما يدل على هذا القول . وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم ، وغيره أن أسماء الأيام الستة « أبجد هوز حطى كلن سعفص قرشت » وحكى ابن جرير فى أول الايام ثلاثة أقوال ، فروى عن محمد بن اسحاق أنه قال « يقول أهل التوراة ابتدأ الله الخلق يوم الأحد ، ويقول أهل الانجيل : ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين ، ونقول نحن المسلمون فيما انتهى الينا عن رسول الله ص، ابتدأ الله الخلق يوم السبت » وهذا القول الذى حكاه ابن اسحاق عن المسلمين مال اليه طائفة من الفقهاء من الشافعية ، وغيرهم . وسيأتى فيه حديث أبى هريرة (خلق الله التربة يوم السبت) والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير عن السدى عن أبى مالك ، وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن جماعة من الصحابة ورواه أيضا عن عبد الله ابن سلام ، واختاره ابن جرير . وهو نص التوراة ، ومال اليه طائفة آخرون من الفقهاء . وهو أشبه بلفظ الأحد ولهذا كمل الخلق فى ستة أيام فكان آخرهن الجمعة فاتخذه المسلمون عيدهم فى الأسبوع وهو اليوم الذى أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتى بيانه ان شاء الله . وقال تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم) وقال تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء كما قال تعالى (الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) قال تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا الى ان قال وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا) وقال (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا

من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون) أي فصلنا ما بين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار وجرت العيون ، والأنهار وانتعش الحيوان . ثم قال (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) أي عما خلق فيها من الكواكب الثوابت : والسيارات والنجوم الزاهرات والاجرام النيرات ، وما في ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسموات كما قال تعالى « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) فأما قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم) فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض . فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين ولم يفهموا هذه الآية الكريمة فان مقتضى هذه الآية أن دحى الأرض واخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء . وقد كان ذلك مقدرا فيها بالقوة كما قال تعالى (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها) أي هيأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحى الأرض فأخرج منها ما كان مودعا فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار : ونبت الزرع والثمار ولهذا فسر الدحي باخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال (والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها) وقوله (والجبال أرساها) أي قررها في أماكنها التي وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها وقوله (والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) بأيد أي بقوة . وانا لموسعون : وذلك أن كل ما علا اتسع فكل سماء أعلى من التي تحتها فهي أوسع منها . ولهذا كان الكرسي أعلى من السموات . وهو أوسع منهن كلهن . والعرش أعظم من ذلك كله بكثير . وقوله بعد هذا (والأرض فرشناها) أي بسطناها وجعلناها مهدا أي قارة ساكنة غير مضطربة ولا مائدة بكم . ولهذا قال (فنعم الماهدون) والواو لا تقتضي الترتيب في الوقوع . وإنما يقتضي الاخبار المطلق في اللغة والله أعلم *

وقال البخاري حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا جامع بن شداد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين قال « دخلت على النبي ص . وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال اقبلوا البشرى يابني تميم » قالوا قد بشرتنا فاعطنا مرتين ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ان لم يقبلها بنو تميم » قالوا قد قبلنا يارسول الله قالوا جئناك نسألك عن هذا الأمر . قال « كان الله ولم يكن شئ غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شئ وخلق السموات والأرض » فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فاذا هي تقطع دونها السراب فوالله لوددت اني كنت تركتها » هكذا رواه هاهنا وقد رواه في كتاب المغازي

وكتاب التوحيد وفى بعض الفاظه « ثم خلق السموات والارض » وهو لفظ النسائى أيضا . وقال الامام أحمد بن حنبل حدثنا حجاج حدثنى ابن جريج أخبرنى اسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن ابى هريرة قال « أخذ رسول الله (ص) بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاث وخلق النور يوم الأربعاء وبث الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر خلق خلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل » وهكذا رواه مسلم عن سريج بن يونس وهرون بن عبدالله والنسائى عن هرون ويوسف بن سعيد ثلاثتهم عن حجاج بن محمد المصيصى الاعور عن ابن جريج به مثله سواء . وقد رواه النسائى فى التفسير عن ابراهيم بن يعقوب الجوزجانى عن محمد ابن الصباح عن أبى عبيدة الحداد عن الأخضر بن عجلان عن ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح عن أبى هريرة « ان رسول الله (ص) أخذ بيدى فقال ياأباهريرة « ان الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع ، وخلق التربة يوم السبت » وذكر تمامه بنحوه فقد اختلف فيه على ابن جريج وقد تكلم فى هذا الحديث على ابن المدينى والبخارى والبيهقى وغيرهم من الحفاظ قال البخارى فى التأريخ ، وقال بعضهم عن كعب وهو أصح يعنى أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقاه من كعب الاحبار فانهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث ، فهذا يحدثه عن صحفه ، وهذا يحدثه بما يصدقه عن النبى (ص) ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه ، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعا الى النبى (ص) ، وأكد رفعه بقوله « أخذ رسول الله (ص) بيدى » ثم فى متنه غرابة شديدة . فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات ، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها فى سبعة أيام . وهذا خلاف القرآن لأن الارض خلقت فى أربعة أيام ثم خلقت السموات فى يومين من دخان . وهو بخار الماء الذى ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذى خلق من ربذة الأرض بالقدرة العظيمة البالغة كما قال اسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله (ص) .

هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات » قال ان الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء « ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعل سبع أرضين فى يومين (الاحد والاثنين) وخلق الأرض على حوت وهو النون الذى قال الله تعالى « نون والقلم وما يسطرون » والحوت فى الماء والماء على صفات والصفات على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة فى الريح . وهى الصخرة التى ذكرها لقمان ليست فى السماء ولا فى الأرض فتحرك الحوت فاضطرب

فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت . وخلق الله يوم الثلاثاء الجبال وما فيهن من المنافع ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب وفتق السماء وكانت رتقا فجعلها سبع سموات فى يومين الخميس والجمعة . وانما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض وأوحى فى كل سماء أمرها . ثم قال خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد وما لا يعلمه غيره . ثم زين السماء بالكواكب فجعلها زينة وحفظا يحفظ من الشياطين ؛ فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش . هذا الاسناد يذكر به السدى أشياء كثيرة فيها غرابة وكان كثير منها متلقى من الاسرائيليات . فان كعب الأحبار لما أسلم فى زمن عمر كان يتحدث بين يدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه باشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفاً له ، وتعجباً مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذى ورد به الشرع المطهر فلستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا ؛ ولما جاء من الاذن فى التحديث عن بنى اسرائيل لكن كثيرا ما يقع مما يرويه غلط كبير وخطأ كثير *

وقد روى البخارى فى صحيحه (١) عن معوية أنه كان يقول فى كعب الاحبار (وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب) أى فيما ينقله لا أنه يتعمد ذلك والله أعلم *

ونحن نورد ما نورده من الذى يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين عنهم . ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ويبقى الباقى مما لا يصدق ولا يكذب وبه المستعان وعليه التكلان

قال البخارى حدثنا قتيبة حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشى عن أبى زناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش ان رحمتى غلبت غضبى » وكذا رواه مسلم والنسائى عن قتيبة به . ثم قال البخارى

ما جاء فى سبع أرضين

وقوله تعالى (والله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا ان الله على كل شئ قدير ؛ وان الله قد أحاط بكل شئ علما) ثم قال حدثنا على بن عبد الله أخبرنا ابن علية عن على بن المبارك حدثنا يحيى بن أبى كثير عن محمد بن ابراهيم بن الحارث عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وكانت بينه وبين ناس خصومة فى أرض فدخل على عائشة فذكر لها ذلك . فقالت يا أبا سلمة

---

(١) من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن انه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة . وذكر كعب الاحبار فقال انه كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وان كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب

اجتنب الارض فان رسول الله (ص) قال « من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين » ورواه أيضا فى كتاب المظالم ومسلم من طرق عن يحيى بن كثير به * ورواه أحمد من حديث محمد بن ابراهيم عن أبى سلمة به ، ورواه أيضا عن يونس عن ابان عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن عائشة بمثله . ثم قال البخارى حدثنا بشر بن محمد قال أخبرنا عبد الله عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال قال النبى (ص) « من أخذ شيئا من الارض بغير حقه خسف به يوم القيامة الى سبع أرضين » ورواه فى المظالم أيضا عن مسلم بن ابراهيم عن عبد الله هو ابن المبارك عن موسى بن عقبة به وهو من افراده : وذكر البخارى ها هنا حديث محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه : قال قال رسول الله (ص) « الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنى عشر شهرا » الحديث ومراده والله أعلم تقرير قوله تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أى فى العدد كما أن عدة الشهور الآن اثنى عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله فى كتابه الأول فهذه مطابقة فى الزمن كما أن تلك مطابقة فى المكان . ثم قال البخارى حدثنا عبيد بن اسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أنه خاصمته أروى (١) فى حق زعمت أنه انتقصه لها الى مروان فقال سعيد رضى الله عنه انا انتقص من حقها شيئا ؟ أشهد لسمعت رسول الله (ص) يقول « من أخذ شبرا من الأرض ظلما فانه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين » ورواه (٢).

وقال الامام أحمد حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عبدالله ابن لهيعة حدثنا عبد الله ابن أبى جعفر عن أبى عبد الرحمن عن ابن مسعود قال « قلت يارسول الله أى الظلم أعظم قال ذراع من الأرض ينتقصه المرء المسلم من حق أخيه فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد الا طوقها يوم القيامة الى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها الا الذى خلقها » تفرد به أحمد : وهذا اسناد لا بأس به . وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال « من أخذ شبرا من الارض بغير حقه طوقه من سبع أرضين » تفرد به من هذا الوجه وهو على شرط مسلم . وقال أحمد حدثنا يحيى عن ابن عجلان حدثنى أبى عن أبى هريرة أن رسول الله (ص)

---

(١) أروى بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الواو مقصورا وهى بنت أبى أوس .

(٢) (قوله ورواه) بياض بالاصول . وفى البخارى عقب ماتقدم . قال ابن ابى الزناد عن هشام عن أبيه قال قال لى سعيد بن زيد (دخلت على النبى (ص) انتهى) وهذا تعليق من البخارى يبين لقاء عروة لسعيد والتصريح بسماعه منه الحديث المذكور فلعل المصنف يريد . ورواه البخارى ايضا معلقا أو نحوه . نقلا عن (محمود لامام).

قال « من اقتطع شبرا من الأرض بغير حقه طوقه الى سبع أرضين » تفرد به أيضا وهو على شرط مسلم . وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال « من أخذ من الأرض شبرا بغير حقه طوقه من سبع أرضين » تفرد به أيضا وقد رواه الطبراني من حديث معاوية بن قرة عن ابن عباس مرفوعا مثله * فهذه الأحاديث كالمتواترة فى اثبات سبع أرضين والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتى تحتها فى وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهى الأمر الى السابعة وهى صماء لاجوف لها، وفى وسطها المركز وهى نقطة مقدرة متوهمة . وهو محط الأثقال ، اليه ينتهى مايهبط من كل جانب اذا لم يعاوقه مانع . واختلفوا هل هن متراكمات بلا تفاصل أو بين كل واحدة والتى تليها خلاء على قولين وهذا الخلاف جار فى الافلاك أيضا . والظاهر ان بين كل واحدة والتى تليها خلاء على قولين . وهذا الخلاف جار فى الافلاك أيضا . والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة لظاهر قوله تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) الآية وقال الامام أحمد حدثنا شريح حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة قال « بينا نحن عند رسول الله (ص) اذ مرت سحابة فقال « أتدرون ما هذه قلنا الله ورسوله أعلم قال العنان وزوايا الأرض تسوقه الى من لا يشكرونه من عباده ولا يدعونه أتدرون ما هذه فوقكم : قلنا الله ورسوله أعلم قال الرقيع موج مكفوف وسقف محفوظ أتدرون كم بينكم وبينها قلنا الله ورسوله أعلم . قال مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال أتدرون ما الذى فوقها قلنا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمسمائة عام حتى عد سبع سموات * ثم قال أتدرون ما فوق ذلك قلنا الله ورسوله أعلم قال العرش أتدرون كم بينه وبين السماء السابعة قلنا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمسمائة عام . ثم قال أتدرون ما هذه تحتكم قلنا الله ورسوله أعلم قال أرض أتدرون ما تحتها قلنا الله ورسوله أعلم قال أرض أخرى أتدرون كم بينهما قلنا الله ورسوله اعلم . قال مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبع أرضين ثم قال وأيم الله لو دليتم أحدكم الى الارض السفلى السابعة لهبط . ثم قرأ هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ، وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدب عن شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة، قال حدث الحسن عن أبي هريرة وذكره الا انه ذكر أن بعد مابين كل أرضين خمسمائة عام وذكر فى آخره كلمة (١) ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد ثم قال الترمذى هذا حديث غريب من هذا الوجه قال ويروى عن ايوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد

---

(١) (قوله كلمة) أى جملة . ونصها (والذى نفس محمد بيده لو انكم دليتم رجلا بحبل الى الارض السفلى لهبط على الله .

أنهم قالوا لم يسمع الحسن من أبي هريرة * ورواه ابو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم فى تفسيره من حديث أبي جعفر الرازى عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة فذكر مثل لفظ الترمذى سواء بدون زيادة فى آخره ورواه ابن جرير فى تفسيره عن بشر عن يزيد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلا. وقد يكون هذا أشبه والله أعلم . ورواه الحافظ أبو بكر البزار والبيهقى من حديث أبي ذر الغفارى عن النبى (ص) ولكن لا يصح اسناده والله أعلم *

وقد تقدم عند صفة العرش من حديث الأوعال مايخالف هذا فى ارتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له . وفيه وبعد ما بين كل سماء بن خمسمائة عام ، وكثفها أى سمكها خمسمائة عام * وأما ماذهب اليه بعض المتكلمين على حديث (طوقه من سبع أرضين) انها سبعة أقاليم. فهو قول يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح وصريح كثير من ألفاظه مما يعتمد من الحديث الذى أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة . ثم انه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم . وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتى تحتها من حديد والأخرى من حجارة من كبريت والأخرى من كذا فكل هذا اذا لم يخبر به ويصح سنده الى معصوم فهو مردود على قائله . وهكذا الاثر المروى عن ابن عباس انه قال فى كل أرض من الخلق مثل ما فى هذه حتى آدم كآدمكم وابراهيم كابراهيمكم فهذا ذكره ابن جرير مختصراً واستقصاه البيهقى فى الأسماء والصفات وهو محمول ان صح نقله عنه على أنه أخذه ابن عباس رضى الله عنه عن الاسرائيليات والله أعلم *

وقال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبى (ص) قال لما خلق الله الارض جعلت تميد فخلق الجبال فالقاها عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت يارب هل من خلقك شئ أشد من الجبال قال نعم الحديد . قالت يارب فهل من خلقك شئ أشد من الحديد قال نعم النار . قالت يارب فهل من خلقك شئ أشد من النار قال نعم الريح . قالت يارب فهل من خلقك شئ أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله تفرد به احمد *

وقد ذكر أصحاب الهيئة اعداد جبال الارض فى سائر بقاعها شرقا وغربا ، وذكروا طولها وبعد امتدادها وارتفاعها وأوسعوا القول فى ذلك بما يطول شرحه هنا . وقد قال الله تعالى « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود » قال ابن عباس وغير واحد الجدد الطرائق وقال عكرمة وغيره الغرابيب الجبال الطوال السود . وهذا هو الشاهد من الجبال فى سائر الارض تختلف باختلاف بقاعها وألوانها . وقد ذكر الله تعالى فى كتابه الجودى على التعيين وهو جبل عظيم شرقى

جزيرة ابن عمر الى جانب دجلة . عنـد الموصل امتداده من الجنوب الى الشمال مسيرة ثلاثة أيام
وارتفاعه مسيرة نصف يوم وهو أخضر لأن فيـه شجرا من البـلوط والى جانبه قرية
يقال لها قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا فى السفينة مع نوح عليـه السلام
فى موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسرين والله أعلم

فصل في البحار والأنهار

قال الله تعالى « وهو الذى سخر لـكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلـكم تشكرون . وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم » وقال تعالى « ومايستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلـكم تشكرون » وقال تعالى « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » وقال تعالى مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » فالمراد بالبحرين البحر الملح المر وهو الاجاج والبحر العذب هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد قاله ابن جريج وغير واحـد من الأئمة . وقال تعالى « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لـكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير » وقال تعالى « ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لـكل صبار شكور واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فنهـم مقتصـد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختال كفور » وقال تعالى « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليـل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بماينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » فامتن تعالى عـلى عباده بما خلق لهـم من البحار والأنهار فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض ومايتبت منـه فى جوانبها الجميع مالح الطعم مر وفى هـذا حكمة عظيمة لصحة الهواء اذ لوكان حلوا لأنتن الجو وفسد الهواء بسبب مايموت فيـه من الحيوانات فـكان يؤدى الى تفانى بنى آدم ولـكن اقتضت الحـكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة . ولهذا لما سئل رسول الله (ص) عن البحر قال هو الطهور ماؤه الحل ميتته *

وأما الأنهار فماؤها حلو عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد ذلك . وجعلها جارية سارحة ينبعها

تعالى فى أرض ويسوقها الى أخرى رزقا للعباد . ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة . وقد تكلم اصحاب علم الهيئة والتفسير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصول منابعها والى اين منتهى سيرها بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى ، وأنه فاعل بالاختيار والحكمة ـ وقوله تعالى « والبحر المسجور » فيه قولان أحدهما ان المراد به البحر الذى تحت العرش المذكور فى حديث الاوعال . وانه فوق السموات السبع بين أسفله وأعلاه كما بين سماء الى سماء ، وهو الذى ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه الاجساد من قبورها . وهذا القول هو اختيار الربيع بن أنس . والثانى أن البحر اسم جنس يعم سائر البحار التى فى الأرض وهو قول الجمهور *

واختلفوا فى معنى البحر المسجور فقيل المملوء وقيل يصير يوم القيامة نارا تؤجج فيحيط باهل الموقف كما ذكرناه فى التفسير عن على وابن عباس وسعيد بن جبير وابن مجاهد وغيرهم . وقيل المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى فيغمر الارض ومن عليها فيغرقوا . رواه الوالبى عن ابن عباس وهو قول السدى وغيره ويؤيده الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا العوام حدثنى شيخ كان مرابطا بالساحل قال « لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله (ص) قال « ليس من ليلة الا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله عز وجل أن ينفضح عليهم فيكفه الله عز وجل » ورواه اسحاق بن راهويه عن يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب حدثنى شيخ مرابط قال « خرجت ليلة لحرس لم يخرج أحد من الحرس غيرى فأتيت الميناء فصعدت فجعل يخيل إلى ان البحر يشرف يحاذى برءوس الجبال فعل ذلك مرارا وانا مستيقظ فلقيت أبا صالح فقال حدثنا عمر بن الخطاب ان رسول الله (ص) قال « مامن ليلة الا والبحر يشرف ثلاث مرات يستأذن الله أن ينفضح عليهم فيكفه الله عز وجل فى اسناده رجل مبهم (١) والله أعلم

وهذا من نعمه تعالى على عباده ان كف شر البحر عن أن يطغى عليهم وسخره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها الى الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها وهداهم فيه بما خلقه فى السماء والارض من النجوم والجبال التى جعلها لهم علامات يهتدون بها فى سيرهم وبما خلق لهم فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التى لاتوجد الا فيه وبما خلق فيه من الدواب الغريبة وأحلها لهم حتى ميتتها كما قال تعالى « أحل لكم صيد البحر وطعامه » وقال النبى (ص) « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وفى الحديث الآخر « أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال » رواه أحمد وابن ماجه وفى اسناده نظر *

---

(١) - قوله مبهم وفى نسخة متهم ونحن اميل الى « مبهم »

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده «وجدت فى كتابى محمد بن معاوية البغدادى حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رفعه قال « كلم الله هذا البحر الغربى وكلم البحر الشرقى فقال للغربى انى حامل فيك عبادا من عبادى فكيف انت صانع بهم قال أغرقهم . قال بأسك فى نواحيك وحرمه الحلية والصيد ، كلم هذا البحر الشرقى فقال انى حامل فيك عبادا من عبادى فأنت صانع بهم قال أحملهم على يدى ، وكون لهم كالوالدة لولدها فأثابه الحلية والصيد » ثم قال لانعلم أحدا . ماروا عن سهيل الا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر وهو منكر الحديث . قال وقد رواه سهيل عن عبد الرحمن ن ابى عياش عن عبد الله بن عمرو موقوفا . قلت الموقوف على عبد الله بن عمرو بن العاص أشبه فانه قد كان وجد يوم اليرموك زاملتين مملوءتين كتبا من علوم أهل الكتاب فكان يحدث منهما باشياء كثيرة من الاسرائيليات منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود . فأما المعروف فتفرد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المدنى قاضيها . قال فيه الامام أحمد ليس بشئ وقد سمعته منه » ثم مزقت حديثه كان كذابا وأحاديثه مناكير » وكذا ضعفه بن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والجوزجانى والبخارى وبو داود والنسائى وقال ابن عدى عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر »

قال علماء التفسير المتكلمون على العروض والاطوال والبحار والانهار والجبال والمساحات ومافى الارض من المدن والخراب والعمرات والاقاليم السبعة الحقيقية فى اصطلاحهم والاقاليم المتعددة العرفية ومافى البلدان والاقاليم من الخواص والنباتات وما يوجد فى كل قطر من صنوف المعادن والتجارات قالوا الارض مغمورة بالماء العظيم الامقدار الربع منها وهو تسعون درجة والعناية الالهية اقتضت انحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها وتنبت الزرع والثمار منها كما قال تعالى «والارض وضعها للانام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان فبأى آلاء ربكما تكذبان » قالوا المعمور من هذا البادى منها قريب الثلثين منه أو أكثر قليلا . وهو خمس وتسعون درجة . قالوا فالبحر المحيط الغربى ويقال له أوقيانوس وهو الذى يتاخم بلاد المغرب وفيه الجزائر الخالدات وبينها وبين ساحله عشر درج مسافة شهر تقريبا وهو بحر لا يمكن سلوكه ولا ركوبه لكثرة موجه واختلاف مافيه من الرياح والامواج وليس فيه صيد ولا يستخرج منه شئ ولا يسافر فيه لمتجر ولا لغيره وهو آخذ فى ناحية الجنوب حتى يسامت الجبال القمر [1] ويقال جبال القمر التى منها أصل منبع نيل مصر ويتجاوز خط الاستواء »

---

(١) ضبطه بعض أهل الجغرافية بفتح القاف والميم . والثقات منهم على انه بضم القاف وسكون الميم . افاده العلامة المحقق الاستاذ احمد زكى باشا فى طبعته لكتاب مسالك الابصار »

ثم يمتد شرقا ويصير جنوبى الارض . وفيه هناك جزائر الزابج وعلى سواحله خراب كثير * ثم يمتد شرقا وشمالا حتى يتصل ببحر الصين والهند * ثم يمتد شرقا حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة . وهناك بلاد الصين . ثم ينعطف فى شرق الصين الى جهة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين ويسامت سد يأجوج ومأجوج . ثم ينعطف ويستدير على أراضى غير معلومة الأحوال * ثم يمتد مغربا فى شمال الأرض ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها ويعطف مغربا وجنوبا ويستدير على الأرض ويعود الى جهة الغرب وينبثق من الغربى الى متن الأرض الزقاق الذى ينتهى أقصاه الى اطراف الشام من الغرب * ثم يأخذ فى بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم.

وينبعث من المحيط الشرقى بحار أخر فيها جزائر كثيرة ، حتى إنه يقال ان فى بحر الهند الف جزيرة وسبعمائة جزيرة فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة ويقال لها البحر الاخضر فشرقيه بحر الصين وغربيه بحر اليمن وشماله بحر الهند وجنوبيه غير معلوم*

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالا فاصلة بينهما وفيها فجاج يسلك المراكب بينها يسيرها لهم الذى خلقها كما جعل مثلها فى البر أيضا قال الله تعالى (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلكم تهتدون) * وقد ذكر بطليموس أحد ملوك الهند فى كتابه المسمى بالمجسطى الذى عرب فى زمان المأمون ، وهو أصل هذه العلوم أن البحار المتفجرة من المحيط الازرق والشرق والجنوبى والشمالى كثيرة جدا . فمنها ما هو واحد ، ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمة له . فمن ذلك بحر القلزم. والقلزم قرية على ساحله قريب من أيلة. وبحر فارس وبحر الخزر وبحر ورنك وبحر الروم وبحر بنطش وبحر الأزرق ، مدينة على ساحله وهو بحر القرم أيضا ويتضايق حتى يصب فى بحر الروم عند جنوبى القسطنطينية وهو خليج القسطنطينية ، ولهذا تسرع المراكب فى سيرها من القرم الى بحر الروم وتبطئ اذا جاءت من الاسكندرية الى القرم لاستقبالها جريان الماء . وهذا من العجائب فى الدنيا فان كل ماء جار فهو حلو الا هذا وكل بحر راكد فهو ملح أجاج الا ما يذكر عن بحر الخزر وهو بحر جرجان وبحر طبرستان أن فيه قطعة كبيرة ماء حلوا فراتا على ما أخبر به المسافرون عنه.

قال أهل الهيئة وهو بحر مستدير الشكل الى الطول ما هو * وقيل إنه مثلث كالقلع وليس هو متصلا بشئ من البحر المحيط بل منفرد وحده ، وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة وقيل اكثر من ذلك والله أعلم .

ومن ذلك البحر الذى يخرج منه المد والجزر عند البصرة وفى بلاد المغرب نظيره ايضا يتزايد الماء من أول الشهر ولا يزال فى زيادة الى تمام الليلة الرابعة عشر منه وهو المد * ثم يشرع فى النقص وهو الجزر الى آخر الشهر * وقد ذكروا تحديد هذه البحار ومبتداها ومنتهاها وذكروا ما فى الأرض

من البحيرات المجتمعة من الانهار وغيرها من السيول وهى البطائح *

وذكروا ماقى الارض من الانهار المشهورة الكبار، وذكروا ابتداءها وانتهاءها ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه وانما نتكلم على مايتعلق بالانهار الوارد ذكرها فى الحديث. وقد قال الله تعالى « الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ماسألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الانسان لظلوم كفار » فى الصحيحين من طريق قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن رسول الله (ص)، لما ذكر سدرة المنتهى قال فاذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران . فأما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات * وفى لفظ فى البخارى وعنصرها أى مادتهما أو شكلهما وعلى صفتهما ونعتهما وليس فى الدنيا مما فى الجنة الاسماؤه (١) وفى صحيح مسلم من حديث عبيد الله بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبى هريرة أن رسول الله (ص)، قال « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة »

وقال الامام احمد حدثنا ابن نمير ويزيد أنبأنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال رسول (ص)، « فجرت أربعة أنهار من الجنة الفرات والنيل وسيحان وجيحان » وهذا اسناد صحيح على شرط مسلم . وكأن المراد والله أعلم من هذا ان هذه الأنهار تشبه انهار الجنة فى صفائها وعذوبتها وجريانها ومن جنس تلك فى هذه الصفات ونحوها كما قال فى الحديث الآخر الذى رواه الترمذى وصححه من طريق سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله (ص)، قال « العجوة من الجنة وفيها شفاء من السّم » اى تشبه ثمر الجنة لا أنها مجتناة من الجنة ، فان الحس يشهد بخلاف ذلك فتعين أن المراد غيره وكذا قوله (ص)، « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » وكذا قوله « اذا اشتد الحمى فأبردوها بالماء فان شدة الحر من فيح جهنم » * وهكذا هذه الأنهار أصل منبعها مشاهد من الأرض *

أما النيل . وهو النهر الذى ليس فى أنهار الدنيا له نظير فى خفته ولطافته وبعد مسراه فيما بين مبتداه الى منتهاه فبتداه من الجبال القمر (٢) أى البيض ومنهم من يقول جبال القمر بالاضافة الى الكوكب وهى فى غربى الارض وراء خط الاستواء الى الجانب الجنوبى . ويقال انها حمر ينبع من بينها عيون * ثم يجتمع من عشر مسيلات متباعدة . ثم يجتمع كل خمسة منها فى بحر . ثم يخرج منها أنهار ستة . ثم يجتمع كلها فى بحيرة أخرى . ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل فيمر على بلاد السودان

(١) كذا بالاصول (٢) هذا يؤيد قول الثالث الذى نقلناه عن الاستاذ زكى باشا فيما تقدم

الحبشة ثم على النوبة ومدينتها العظمى دمقلة (١) ثم على اسوان ثم يفد على ديار مصر . وقد تحمل اليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها واجترف من ترابها وهي محتاجة اليهما معا لان مطرها قليل لا يكفى زروعها وأشجارها . وتربتها رمال لاتنبت شيئا حتى يجئ النيل بزيادته وطينه فينبت فيه مايحتاجون اليه وهي من أحق الأراضي بدخولها فى قوله تعالى « أولم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وانفسهم أفلا يبصرون » ثم يجاوز النيل مصر قليلا فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها شطنوف فيمر الغربى على رشيد ويصب فى البحر المالح * واما الشرقى فتفترق ايضا عند جوجر فرقتين تمر الغربية منهما على دمياط من غربيها ويصب فى البحر والشرقية منهما تمر على أشموم (٢) طناح فيصب هناك فى بحيرة شرق دمياط. يقال لها بحيرة تنيس وبحيرة دمياط. وهذا بعد عظيم فيما بين مبتداه الى منتهاه . ولهذا كان ألطف المياه * قال ابن سينا له خصوصيات دون مياه سائر الأرض * فمنها انه أبعدها مسافة من مجراه الى أقصاه . ومنها أنه يجرى على صخور ورمال ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال ومنها أنه لايخضر فيه حجر ولا حصاة وما ذاك الا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته . ومنها ان زيادته فى أيام نقصان سائر الأنهار . ونقصانه فى أيام زيادتها وكثرتها وأما مايذكره بعضهم من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع اطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولا عظيما وجوارى حسانا وأشياء غريبة وأن الذى اطلع على ذلك لا يمكنه الكلام بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين *

وقد قال عبد الله بن لهيعة عن قيس بن الحجاج عن حدثه قال « لما فتح عمرو بن عاص مصر أتى أهلها اليه حين دخل شهر بؤنة من أشهر العجم (القبطية) فقالوا: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لايجرى الابها فقال لهم وماذاك قالوا اذا كان لثنتى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر بين أبويها فارضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم القيناها فى هذا النيل ، فقال لهم عمرو ان هذا لا يكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ماقبله فأقاموا بؤنة والنيل لايجرى لا قليلا ولا كثيرا * وفى رواية فاقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهولايجرى حتى هموا بالجلاء. فكتب عمرو الى عمر بن الخطاب بذلك فكتب اليه عمر إنك قد اصبت بالذى فعلت وانى قد بعثت اليك ببطاقة داخل كتابى هذا فألقها فى النيل فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فاذا فيها « من عبد الله عمر امير المؤمنين الى نيل مصر (أما بعد) فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك (٣) فالقى عمرو البطاقة فى النيل فاصبح يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعا

(١) المعروفة الان باسم دنقلة بطريق التحريف * (٢) كذا بالاصول وفى معجم البلدان (أشموم طناح)
(٣) قوله فالقى عمرو البطاقة فى النيل الخ الذى فى حسن المحاضرة للسيوطى فالقى عمر البطاقة فى

فى ليلة واحدة وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر الى اليوم *

وأما الفرات فاصلها من شمالى أرزن الروم فتمر الى قرب ملطيه ثم تمر على شميشاط . ثم على البيرة قبليها ثم تشرق الى بالس(١) وقلعةجعبر ثم الرقة ثم الى الرحبة شماليها ثم الى عانة ثم الى هيت ثم الى الكوفة ثم تخرج الى فضاء العراق ويصب فى بطائح كبار اى بحيرات وترد اليها ويخرج منها أنهار كبار معروفة

وأما سيحان ويقال له سيحون أيضا فأوله من بلاد الروم ويجرى من الشمال والغرب الى الجنوب والشرق وهو غربى مجرى جيحان ودونه فى القدر وهو ببلاد الارض التى تعرف اليوم ببلاد سيس وقد كانت فى أول الدولة الاسلامية فى أيدى المسلمين * فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية وملكوا الشام وأعمالها عجزوا عن صونها عن الاعداء فتغلب تقفور الأرمنى على هذه البلاد أعنى بلاد سيس فى الحدود الثلاثمائة والى يومنا هذا والله المسؤل عودها الينا بحوله وقوته . ثم يجتمع سيحان وجيحان عند اذنه فيصيران نهرا واحدا . ثم يصبان فى بحر الروم بين أياس وطرسوس *

وأما جيحان ويقال له جيحون أيضا وتسميه العامة جاهان . وأصله فى بلاد الروم ويسير فى بلاد سيس من الشمال الى الجنوب وهو يقارب الفرات فى القدر * ثم يجتمع هو وسيحان عند اذنة فيصيران نهرا واحدا * ثم يصبان فى البحر عند اياس وطرسوس والله أعلم *

فصل

قال الله تعالى « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الأمر يفصل الايات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » وقال تعالى « امن خلق السموات والأرض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل اكثرهم لايعلمون» وقال تعالى

النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ اهل مصر للجلاء والخروج منها لانه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل فاصبحوا يوم الصليب وقد اجراه الله ستة عشر ذراعا . وقد زال تلك السنة السوء عن أهل مصر انتهى (١) بلدة بين حلب والرقة لها وقائع تاريخية مذكورة فى معجم البلدان (محمود الامام)

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

فذكر تعالى ما خلق فى الأرض من الجبال والأشجار والثمار والسهول والاوعار وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات فى البرارى والقفار والبر والبحار ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه وما سهل لكل دابة من الرزق الذى هى محتاجة اليه فى ليلها ونهارها وصيفها وشتائها وصباحها ومسائها كما قال تعالى « ومامن دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » وقد روى الحافظ أبو يعلى عن محمد بن المثنى عن عبيد بن واقد عن محمد بن عيسى بن كيسان عن محمد بن المنكدر عن جابر عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله (ص) يقول خلق الله ألف امة منها ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر . وأول شئ يهلك من هذه الأمم الجراد فاذا هلك تتابعت مثل النظام اذا قطع سلكه .

(عبيد بن واقد) أبو عباد البصرى ضعفه أبو حاتم وقال بن عدى عامة مايرويه لايتابع عليه وشيخه اضعف منه . قال الفلاس والبخارى منكر الحديث ، وقال أبو زرعة لاينبغى أن يحدث عنه . وضعفه ابن حبان والدار قطنى وأنكر عليه ابن عدى هذا الحديث بعينه وغيره والله أعلم *

وقال تعالى « ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شئ ثم الى ربهم يحشرون »

ذكر ما يتعلق بخلق السموات وما فيهن من الآيات

قد قدمنا ان خلق الأرض قبل خلق السماء كما قال تعالى « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم » وقال تعالى « قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » وقال تعالى « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها » فان الدحى غير الخلق وهو بعد خلق السماء * وقال تعالى « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور * الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق

الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير » وقال تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا » وقال تعالى « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » وقال تعالى (الله الذي خلق سبع سموات والارض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما) وقال تعالى « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو اراد شكورا » وقال تعالى (انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لايسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب . الامن خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وقال تعالى « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم . الامن استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » وقال تعالى « والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون » وقال تعالى « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون » وقال تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) وقال تعالى « فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وقال تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) والآيات فى هذا كثيرة جدا وقد تكلمنا على كل منها فى التفسير *

والمقصود أنه تعالى يخبر عن خلق السموات وعظمة اتساعها وارتفاعها وأنها فى غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء كما قال تعالى « والسماء ذات الحبك » أى الخلق الحسن وقال تعالى « فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » اى خاسئا عن ان يرى فيها نقصا أو خللا وهو حسير اى كليل ضعيف ولو نظر حتى يعى ويكل ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب لانه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكواكب افقها كما قال « والسماء ذات البروج » أى النجوم * وقيل محال الحرس التى يرمى منها بالشهب لمسترق السمع ولامنافاة بين القولين وقال تعالى « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم » فذكر انه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات (الشمس والقمر والنجوم الزاهرات) وأنه صان حوزتها عن حلول

الشياطين بها وهذا زينة معنى * فقال وحفظناها من كل شيطان رجيم كما قال (انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لايسمعون الى الملأ الأعلى)

قال البخارى فى كتاب بدء الخلق وقال قتادة (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) خلق هذه النجوم الثلاث جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لاعلم له به * وهذا الذى قاله قتادة مصرح به فى قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » فمن تكلف غير هذه الثلاث اى من علم أحكام ماتدل عليه حركاتها ومقارنتها فى سيرها وأن ذلك يدل على حوادث ارضيه فقد أخطأ . وذلك أن أكثر كلامهم فى هذا الباب ليس فيه الاحدس وظنون كاذبة ودعاوى باطلة . وذكر تعالى انه خلق سبع سموات طباقا أى واحدة فوق واحدة * واختلف أصحاب الهيئة هل هن متراكمات أو متفاصلات بينهن خلاء على قولين . والصحيح الثانى لما قدمنا من حديث عبد الله بن عميرة عن الاحنف عن العباس فى حديث الأوعال أن رسول الله (ص) قال اتدرون كم بين السماء والأرض قلنا الله ورسوله أعلم.قال بينهما مسيرة خمسمائة عام . ومن كل سماء الى سماء خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة * الحديث بتمامه رواه احمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه * وفى الصحيحين من حديث أنس فى حديث الاسراء قال فيه (ووجد فى السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فرد عليه السلام . وقال مرحبا وأهلا بابنى نعم الابن أنت الى أن قال ثم عرج الى السماء الثانية * وكذا ذكر فى الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) فدل على التفاصل بينها لقوله ثم عرج بنا حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا (الحديث) * وهذا يدل على ماقلناه والله أعلم .

وقد حكى ابن حزم وابن المنير وأبو الفرج ابن الجوزى وغير واحد من العلماء الاجماع على أن السموات كرة مستديرة * واستدل على ذلك بقوله كل فى فلك يسبحون . قال الحسن يدورون ، وقال ابن عباس فى فلكة مثل فلكة المغزل . قالوا ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع فى آخرها من المشرق كما قال أمية ابن أبى الصلت .

والشمس تطلع كل آخر ليلة * حمراء مطلع لونها متورد * تأبى فلا تبدو لنا فى رسلها * الامعذبه والأمجلد

فاما الحديث الذى رواه البخارى حيث قال حدثنا محمد ابن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن ابراهيم التيمى عن أبيه عن ابى ذر قال قال رسول الله (ص) لابى ذر حين غربت الشمس تدرى أين تذهب قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها . يقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك

قوله تعالى) والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)*

هذا لفظه فى بدء الخلق ورواه فى التفسير * وفى التوحيد من حديث الأعمش أيضا ورواه مسلم فى الإيمان من طريق الأعمش ومن طريق يونس بن عبيد وأبو داود من طريق الحكم بن عتبة كلهم عن ابراهيم بن يزيد بن شريك عن أبيه عن أبى ذر به نحوه . وقال الترمذى حسن صحيح * اذا علم هذا فانه حديث لايعارض ماذكرناه من استدارة الأفلاك التى هى السموات على أشهر القولين ولايدل على كرية العرش كما زعمه زاعمون . قد أبطلنا قولهم فيما سلف ولايدل على أنها تصعد الى فوق السموات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش بل هى تغرب عن أعيننا وهى مستمرة فى فلكها الذى هى فيه وهو الرابع فيما قاله غير واحد من علماء التفسير . وليس فى الشرع ما ينفيه بل فى الحس وهو الكسوفات مايدل عليه ويقتضيه فاذا ذهبت فيه حتى تتوسطه وهو وقت نصف الليل مثلا فى اعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبى والشمالى فانها تكون أبعد ما يكون من العرش لانه مقبب من جهة وجه العالم وهذا محل سجودها كايناسبها كما أنها أقرب ماتكون من العرش وقت الزوال من جهتنا فاذا كانت فى محل سجودها استأذنت الرب جل جلاله فى طلوعها من الشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق وهى مع ذلك كارهة لعصاة بنى آدم أن تطلع عليهم ولهذا قال أمية

تأبى فلا تبدولنا فى رسلها * الا معذبة والاتجلد * فاذا كان الوقت الذى يريد الله طلوعها من جهة مغربها تسجد على عادتها وتستأذن فى الطلوع من عادتها فلا يؤذن لها فجاء أنها تسجد أيضا ثم تستأذن فلا يؤذن لها ثم تسجد فلا يؤذن لها وتطول تلك الليلة كما ذكرنا فى التفسير ، فتقول يارب ان الفجر قد اقترب وان المدى بعيد فيقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فاذا رآها الناس آمنوا جميعا وذلك حين لاينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا ، وفسروا بذلك قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) قيل لوقتها الذى تؤمر فيه تطلع من مغربها * وقيل مستقرها موضعها الذى تسجد فيه تحت العرش * وقيل منتهى سيرها وهو آخر الدنيا . وعن ابن عباس أنه قرأ والشمس تجرى لامستقر لها أى ليست تستقر فعلى هذا تسجد وهى سائرة . ولهذا قال تعالى لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون أى لاتدرك الشمس القمر فتطلع فى سلطانه ودولته ولا هو ايضا ولا الليل سابق النهار اى ليس سابقه بمسافة يتأخر ذاك عنه فيها بل اذا ذهب النهار جاء الليل فى اثره متعقبا له كما قال فى الآية الأخرى يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين *

وقال تعالى « وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » أى يخلف هذا لهذا وهذا لهذا كما قال رسول الله «ص» اذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت

الشمس فقد أفطر الصائم » فالزمان المحقق ينقسم الى ليل ونهار وليس بينهما غيرها * ولهذا قال تعالى « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى » فيولج من هذا فى هذا ، أى يأخذ من طول هذا فى قصر هذا فيعتدلان كما فى أول فصل الربيع يكون الليل قبل ذلك طويلا والنهار قصيرا فلا يزال الليل ينقص والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع * ثم يشرع النهار يطول ويتزايد والليل يتناقص حتى يعتدلا أيضا فى أول فصل الخريف * ثم يشرع الليل يطول ويقصر النهار الى آخر فصل الخريف * ثم يترجح النهار قليلا قليلا ويتناقص الليل شيئا فشيئا حتى يعتدلا فى أول فصل الربيع كما قدمنا ، وهكذا فى كل عام . ولهذا قال تعالى « وله اختلاف الليل والنهار » أى هو المتصرف فى ذلك كله الحاكم الذى لايخالف ولا يمانع ولهذا يقول فى ثلاث آيات عند ذكر السموات والنجوم والليل والنهار « ذلك تقدير العزيز العليم » أى العزيز الذى قد قهر كل شئ ودان له كل شئ فلا يمانع ولايغالب العليم بكل شئ فقدر كل شئ تقديرا على نظام لايختلف ولا يضطرب . وقد ثبت فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص.) « قال الله يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » وفى رواية فأنا الدهر أقلب ليله ونهاره *

قال العلماء كالشافعى وأبى عبيد القاسم بن سلام وغيرهما يسب الدهر أى يقول فعل بنا الدهر كذا ياخيبة الدهر ، أيتم الأولاد ، أرمل النساء . قال الله تعالى (وأنا الدهر) أى انا الدهر الذى يعنيه فانه فاعل ذلك الذى اسنده الى الدهر والدهر مخلوق ، وانما فعل هذا هو الله فهو يسب فاعل ذلك ويعتقده الدهر . والله هو الفاعل لذلك الخالق لكل شئ المتصرف فى كل شئ كما قال وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب ليله ونهاره وكما قال تعالى (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب)وقال تعالى « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك الا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون » أى فاوت بين الشمس والقمر فى نورهما وفى شكلهما وفى وقتهما وفى سيرهما فجعل هذا ضياء وهو شعاع الشمس برهان ساطع وضوء باهر والقمر نورا أى أضعف من برهان الشمس وجعله مستفادا من ضوئها وقدره منازل أى يطلع أول ليلة من الشهر صغيرا ضئيلا قليل النور لقربه من الشمس وقلة مقابلته لها فبقدر مقابلته لها يكون نوره ولهذا فى الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان فى الليلة الأولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة * ثم كلما بعد ازداد نوره حتى يتكامل إبداره ليلة

مقابلته إياها من المشرق وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر * ثم يشرع فى النقص لاقترابه اليها من الجهة الأخرى الى آخر الشهر فيستتر حتى يعود كا بدا فى أول الشهر الثانى . فبه تعرف الشهور وبالشمس تعرف الليالى والأيام وبذلك تعرف السنين والأعوام ولهذا قال تعالى « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » وقال تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا » وقال تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج)

وقد بسطنا القول على هذا كله فى التفسير . فالكواكب التى فى السماء منها سيارات وهى المتحيرة فى اصطلاح علماء التفسير وهو علم غالبه صحيح بخلاف علم الاحكام فان غالبه باطل ودعوى مالا دليل عليه وهى سبعة . القمر فى سماء الدنيا وعطارد فى الثانية والزهرة فى الثالثة والشمس فى الرابعة والمريخ فى الخامسة والمشترى فى السادسة وزحل فى السابعة . وبقية الكواكب يسمونها الثوابت وهى عندهم فى الفلك الثامن وهو الكرسى فى اصطلاح كثير من المتأخرين . وقال آخرون بل الكواكب كلها فى السماء الدنيا ولا مانع من كون بعضها فوق بعض * وقد يستدل على هذا بقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين * وبقوله (فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب فان دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك والا فلا مانع مما قاله الآخرون والله أعلم. وعندهم أن الافلاك السبعة بل الثمانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت والسيا تدور على خلاف فلكه من المغرب الى المشرق . فالقمر يقطع فلكه فى شهر والشمس تقطع فلكها وهو الرابع فى سنة . فاذا كان السيران ليس بينهما تفاوت وحركاتهما متقاربة كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا ثنتى عشرة مرة وزحل يقطع فلكه وهو السابع فى ثلاثين سنة فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمائة وستين مرة *

وقد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاتها وتوسعوا فى هذه الاشياء حتى تعدوا الى علم الأحكام وما يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية ومما لاعلم لكثير منهم به . وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور لهم فى هذا كلام كثير يطول بسطه ، وهم الذين بنوا مدينة دمشق وجعلوا لها أبوابا سبعة وجعلوا على رأس كل باب هيكلا على صفة الكواكب السبعة . يعبدون كل واحد فى هيكله ، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم . وذكره صاحب السر المكتوم فى مخاطبة الشمس والقمر والنجوم

وغيره من علماء الحرنانيين (١) (فلاسفة حران فى قديم الزمان) . وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة وهم طائفة من الصابئين * ولهذا قال الله تعالى « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » وقال تعالى إخبارا عن الهدهد أنه قال لسليمان عليه السلام مخبرا عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ فى اليمن وما والاها (إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون . الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) وقال تعالى « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » وقال تعالى (أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين و الشمائل سجدا لله وهم داخرون *ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) وقال تعالى « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » وقال تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا » والآيات فى هذا كثيرة جدا

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة فى السموات والارض هى الكواكب وأشرفهن منظرا وأشرفهن معتبرا الشمس والقمر استدل الخليل على بطلان الهية شئ منهن . وذلك فى قوله تعالى « فلما جن الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين » أى الغائبين (فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برئ مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) فبين بطريق البرهان القطعى أن هذه الاجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شئ منها للالهية لانها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة فى سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيغ عنه الا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف *

---

(١) قال فى معجم البلدان (حران) بتشديد الراء وآخره نون يجوز أن يكون (فعالا) من حرن الفرس اذا لم ينقد ويجوز أن يكون (فعلان) من الحر . يقال رجل حران أى عطشان وأصله من الحر وامرأة حرى وهو حران يران . والنسبة اليها حرنانى بعد الراء الساكنة نون على غير قياس كما قالوا منانى فى النسبة الى مانى .

وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة ولهذا قال تعالى. « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم اياه تعبدون » وثبت فى الصحيحين فى صلاة الكسوف من حديث ابن عمر وابن عباس وعائشة وغيرهم من الصحابة أن رسول الله (ص) قال فى خطبته يومئذ إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته »

وقال البخارى فى بدء الخلق حدثنا مسدد حدثنا عبد العزيز بن المختار حدثنا عبد الله الداناج حدثنى أبو سلمة عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال (الشمس والقمر مكوران يوم القيامة) انفرد به البخارى * وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق : فقال حدثنا ابراهيم بن زياد البغدادى حدثنا يونس بن محمد حدثنا عبد العزيز بن المختار عن عبد الله الداناج سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد الله القسرى فى هذا المسجد مسجد الكوفة وجاء الحسن فجلس اليه فحدث قال حدثنا أبو هريرة أن رسول الله (ص) قال « إن الشمس والقمر ثوران فى النار يوم القيامة فقال الحسن وما دينهما فقال أحدثك عن رسول الله (ص) وتقول ومادينهما ثم قال البزار لا يروى عن أبى هريرة الا من هذا الوجه ولم يرو عبد الله الداناج عن ابى سلمة سوى هذا الحديث * وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى من طريق يزيد الرقاشى وهو ضعيف عن أنس قال قال رسول الله (ص) الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار . وقال ابن ابى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج وعمر بن عبد الله الازدى حدثنا أبو أسامة عن مجالد عن شيخ من بجيلة عن ابن عباس (اذا الشمس كورت) . قال يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ويبعث الله ريحا دبورا فتضرمها نارا . فدلت هذه الآثار على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله خلقها الله لما أراده ثم يفعل فيها مايشاء ، وله الحجة الدامغة والحكمة البالغة فلا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته النافذة وحكمه الذى لا يرد ولا يمانع ولا يغالب * وما أحسن ما أورده الامام محمد بن اسحاق بن يسار فى أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل فى خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك * قال ابن هشام هى لامية ابن أبى الصلت

الى الله أهدي مِدحتي وثنائيا ... وقولاً رضيا (١) لا يني الدهرَ باقيا

الى الملكِ الأعلى الذي ليس فوقَه ... إلهٌ ولا ربٌ يكونُ مُدانيا

ألا أيها الانسانُ إياكَ والرَدَى ... فإنك لا تُخفي من الله خافيا

وإياكَ لاتجعل مع اللهِ غيرَه ... فإن سبيلَ الرشد أصبحَ باديا

(١) قوله رضيا نعت لقولاً

حَنانيكَ إن الجنّ كانت رجاءهم ... وأنتَ الهي ربنا ورجائيا
رضيتُ بكَ اللّهم ربًّا فلن أرى ... أدين إلهاً غيرك اللهُ ثانيا
وأنت الذي من فضل منٍّ ورحمةٍ ... بعثتَ إلى موسى رسولاً مناديا
فقلتَ له إذهب وهرونُ فادعوَا ... الى الله فرعونَ الذي كان طاغيا
وقولا له آأنت سوّيتَ هذه ... بلا وتدٍ حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له آأنت رفّعتَ هذه ... بلا عمدٍ ارفق اذاً بك بانيا
وقولا له آأنت سوّيت وسْطها ... منيراً اذا ماجنّه الليل هاديا
وقولا له من يرسلُ الشمس غدوة ... فيصبح مامسّت من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبتُ الحبّ في الثرى ... فيصبح منه البقلُ يهتز رابيا
ويخرج منهُ حبّه في رؤسه ... وفي ذاك آياتٌ لمن كان واعيا
وأنتَ بفضلٍ منك نجّيتَ يونُساً ... وقد باتَ في أضعاف حوتٍ لياليا
وإنيَ لو سبّحت باسمك ربنا ... لأكثر الاما غفرت خطائيا(١)
فربَّ العبادِ ألقِ سَيْباً ورحمةً ... عليّ وبارِكْ في بنيّ وماليا

فاذا علم هذا فالكواكب التى فى السماء من الثوابت والسيارات الجميع مخلوقة خلقها الله تعالى كما قال (وأوحي فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم)

وأما ما يذكره كثير من المفسرين فى قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها على نفسها فأبت الا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته فرفعت كوكبا الى السماء فهذا أظنه من وضع الاسرائيليين وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بنى اسرائيل . وقد روى الامام احمد وابن حبان فى صحيحه فى ذلك حديثا رواه احمد عن يحيى ابن بكير عن زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر عن النبي (ص) وذكر القصة بطولها* وفيه فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها وذكر القصة . وقد رواه عبد الرزاق فى تفسيره عن الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن كعب

(١) قوله وأنى ولو سبحت الخ معنى البيت انى لأكثر من هذا الدعاء الذى هو باسمك ربنا الا ما غفرت الخ . ومابعد الا زائدة . وان سبحت اعتراض بين اسم إن وخبرها كما تقول إنى لأكثر من هذا الدعاء الذى هو باسمك ربنا الاوالله يغفرلى فعل كذا والتسبيح هنا بمعنى الصلاة اى لا اعتمد وان صليت الا على دعائك واستغفارك

الاحبار به. وهـذا أصح وأثبت. وقد روى الحاكم فى مستدركه وابن أبى حاتم فى تفسيره عن ابن عباس فذكره وقال فيـه وفى ذلك الزمن امرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب وذكر تمامه * وهذا أحسن لفظ روى فى هذه القصة والله أعلم *

وهكذا الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطى حدثنا يزيد ابن هرون حـدثنا مبشر بن عبيد عن يزيد بن أسلم عن ابن عمر عن النبى (ص). وحدثنا عمرو بن عيسى حدثنا عبد الأعلى حدثنا ابرهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله (ص) ذكر سهيلا فقال (كان عشارا ظلوما فسخه الله شهابا) ثم قال لم يرود عن زيد بن أسلم الامبشر بن عبيدوهو ضعيف الحديث ولا عن عمرو بن دينار الا ابراهيم بن يزيد وهو لين الحديث *وانما ذكرناه على مافيه من علة لأنا لم نحفظه الامن هذين الوجهين (قلت) أما مبشر بن عبيد القرشى فهو أبوحفص الحمصى وأصله من الكوفة. فقد ضعفه الجميع وقال فيه الامام أحمد والدارقطنى كان يضع الحديث ويكذب وأما ابرهيم بن يزيد فهو الخوزى وهو ضعف باتفاقهم* قال فيه احمد والنسائى متروك.

وقال ابن معين ليس بثقة وليس بشئ * وقال البخارى سكتوا عنه. وقال أبو حاتم وأبو زرعـة منكر الحديث ضعيف الحـديث. ومثل هذا الاسناد لا يثبت به شئ بالكلية. واذا أحسنا الظن قلنا هذا من أخبار بنى اسرائيل كما تقدم من رواية بن عمر عن كعب الأحبار. ويكون من خرافتهم التى لايعول عليها والله أعلم *

المجرة وقوس قزح

قال أبو القاسم الطبرانى حدثنا على بن عبد العزيز حدثنا عارم ابو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سـعيد ابن جبير عن ابن عباس أن هرقل كتب الى معاوية وقال إن كان بقى فيهم شئ من النبوة فسيخبرنى عما أسألهم عنه. قال فكتب اليه يسأله عن المجرة وعن القوس وعن بقعة لم تصبها الشمس الا ساعة واحدة * قال فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال إن هذا الشئ ما كنت آبه له أن أسأل عنه الى يومى هذا من لهذا؟ قيل ابن عباس فطوى معاوية كتاب هرقل فبعث به الى ابن عباس فكتب اليه « أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق. والمجرة باب السماء الذى تنشق منه الأرض. وأما البقعة التى لم تصبها الشمس الا ساعة من النهار فالبحر الذى أفرج عن بنى اسرائيل وهـذا اسناد صحيح الى ابن عباس رضى الله عنه * فاما الحديث الذى رواه الطبرانى حدثنا ابو الزنباع روح بن الفرج

حدثنا ابراهيم بن مخلد حدثنا الفضل بن المختار عن محمد بن مسلم الطائفي عن ابن أبي يحيى عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (ص) « يامعاذ إني مرسلك الى قوم أهل كتاب فاذا سئلت عن المجرة التي في السماء فقل هي لعاب حية تحت العرش » فهذا حديث منكر جداً بل الأشبه أنه موضوع وراويه الفضل بن المختار هذا أبو سهل البصري ثم انتقل الى مصر قال فيه أبو حاتم الرازي هو مجهول حدث بالأباطيل. وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي منكر الحديث جدا. وقال ابن عدى لا يتابع على أحاديثه لا متنا ولا اسنادا * وقال الله تعالى (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) وقال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) وروى الامام احمد عن يزيد بن هرون عن ابراهيم بن سعد عن أبيه عن شيخ من بني غفار قال سمعت رسول الله (ص) (يقول إن الله ينشئ السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك) وروى موسى بن عبيدة بن سعد بن ابرهيم أنه قال إن نطقه الرعد وضحكه البرق. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام عن عبيد الله الرازى عن محمد بن مسلم قال بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه وجه انسان ووجه ثور ووجه نسر ووجه أسد فاذا مصع بذنبه فذاك البرق * وقد روى الامام احمد والترمذى والنسائى والبخارى في كتاب الأدب والحاكم في مستدركه من حديث الحجاج بن أرطاة حدثني ابن مطر عن سالم عن أبيه قال كان رسول الله اذا سمع الرعد والصواعق قال (اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك * وروى ابن جرير من حديث ليث عن رجل عن أبي هريرة رفعه كان اذا سمع الرعد قال (سبحان من يسبح الرعد بحمده) وعن علي أنه كان يقول (سبحان من سبحت له) وكذا عن ابن عباس والأسود بن يزيد وطاوس وغيرهم * وروى مالك عن عبد الله ابن عمر أنه كان اذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول (إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض * وروى الامام احمد عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال قال ربكم لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتهم صوت الرعد فاذكروا الله فانه لا يصيب ذاكرا * وكل هذا مبسوط في التفسير ولله الحمد والمنة *

باب ذكر خلق الملائكة وصفاتهم

قال الله تعالى « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم و ماخلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين » وقال تعالى « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم » وقال تعالى « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم » وقال تعالى « فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون * وقال (ومن عنده لا يستكبرون . عن عبادته ولا يستحسرون (يسبحون الليل والنهار لا يفترون » وقال تعالى « ومامنا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » وقال تعالى وما نتنزل الا بامر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا » وقال تعالى « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » وقال تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وقال تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وقال تعالى « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى اجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شئ قدير » وقال تعالى « يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا * الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا » وقال تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى انفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا) وقال تعالى « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » وقال تعالى « ياأيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون ما يؤمرون » والآيات فى ذكر الملائكة كثيرة جدا يصفهم تعالى بالقوة فى العبادة وفى الخلق وحسن المنظر وعظمة الأشكال وقوة الشكل فى الصور المتعددة كما قال تعالى (ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات) الآيات فذكرنا فى التفسير ما ذكره غير واحد من العلماء من أن الملائكة تبدوا لهم فى صورة شباب حسان امتحانا واختبارا حتى قامت على قوم لوط الحجة وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر * وكذلك كان جبريل يأتى الى

النبي (ص) في صفات متعددة فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي وتارة في صورة أعرابي وتارة في صورته التي خلق عليها . له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب كما رآه على هذه الصفة مرتين . مرة منهبطا من السماء الى الأرض . وتارة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى . وهو قوله تعالى « علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى » أي جبريل كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة * منهم ابن مسعود وأبو هريرة وأبو ذر وعائشة « فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى الى عبده ما أوحى » أي الى عبد الله محمد (ص) ثم قال (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . اذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى) وقد ذكرنا في أحاديث الاسراء في سورة سبحان أن سدرة المنتهى في السماء السابعة * وفي رواية في السادسة أي أصلها وفروعها في السابعة فلما غشيها من أمر الله ما غشيها* قيل غشيها نور الرب جل جلاله * وقيل غشيها فراش من ذهب * وقيل غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة * وقيل غشيها الملائكة مثل الغربان * وقيل غشيها من نور الله تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعتها * أي من حسنها وبهائها. ولا منافاة بين هذه الأقوال اذ الجميع ممكن حصوله في حال واحدة * وذكرنا أن رسول الله (ص) قال . ثم رفعت لي سدرة المنتهى فاذا نبقها كالقلال * وفي رواية كقلال هجر واذا ورقها كآذان الفيلة واذا يخرج من أصلها نهران باطنان ونهران ظاهران . فأما الباطنان ففي الجنة . وأما الظاهران فالنيل والفرات * وتقدم الكلام على هذا في ذكر خلق الأرض ومافيها من البحار والأنهار * وفيه ثم رفع لي البيت المعمور واذا هو يدخله في كل يوم سبعون الف ملك ثم لا يعودون اليه آخر ماعليهم * وذكر أنه وجد ابراهيم الخليل عليه السلام مستندا ظهره الى البيت المعمور . وذكرنا وجه المناسبة في هذا أن البيت المعمور هو في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض * وقد روى سفيان الثورى وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة أن ابن الكوا سأل علي بن أبي طالب عن البيت المعمور فقال هو مسجد في السماء يقال له الضُراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها . حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض يصلي فيه كل يوم سبعون الفا من الملائكة لا يعودون اليه أبدا * وهكذا روى علي بن ربيعة وأبو الطفيل عن علي مثله * وقال الطبراني أنبأنا الحسن بن علوية القطان حدثنا اسماعيل بن عيسى العطار حدثنا اسحاق بن بشر أبو حذيفة حدثنا ابن جريج عن صفوان بن سليم عن كريب عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) البيت المعمور في السماء يقال له الضراح وهو على مثل البيت الحرام بحياله لو سقط لسقط عليه يدخله كل يوم سبعون الف ملك ثم لا يرونه قط فان له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة . يعني في الأرض وهكذا قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع بن أنس والسدى وغير واحد * وقال قتادة ذكر لنا أن رسول الله (ص) قال

يوم لاصحابه هل تدرون ما البيت المعمور قالوا الله ورسوله أعلم * قال قال مسجد فى السماء بحيال الكعبة لوخر لخر عليها يصلى فيه كل يوم سبعون الف ملك اذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم * وزعم الضحاك أنه تعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الجن من قبيلة ابليس لعنه الله كان يقول سدنته وخدامه منهم والله أعلم *

وقال آخرون . فى كل سماء بيت يعمره ملائكته بالعبادة فيه ويفدون اليه بالنوبة والبدل كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج فى كل عام والاعتمار فى كل وقت والطواف والصلاة فى كل آن * قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى فى أوائل كتابه المغازى * حدثنا أبو عبيد فى حديث مجاهد « أن الحرم حرم مناه (يعنى قدره) من السموات السبع والأرضين السبع وأنه رابع أربعة عشر بيتا فى كل سماء بيت وفى كل أرض بيت لو سقطت سقط بعضها على بعض » ثم روى مجاهد قال مناه أى مقابله وهو حرف مقصور . ثم قال حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى سليمان مؤذن الحجاج سمعت عبد الله بن عمرو يقول « إن الحرم محرم فى السموات السبع مقداره من الارض ـ وإن بيت المقدس مقدس فى السموات السبع مقداره من الأرض كما قال بعض الشعراء

إنّ الذي سَمَكَ السَّماءَ بَنَى لنا بَيْتاً دَعائِمُهُ أَشَدُّ وأَطْوَلُ

واسم البيت الذى فى السماء بيت العزة * واسم الملك الذى هو مقدم الملائكة فيها إسماعيل * فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون فى كل يوم الى البيت المعمور ثم لا يعودون اليه . آخر ما عليهم (أى لا يحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر) يكونون من سكان السماء الدائمة وحدها . ولهذا قال تعالى « ومايعلم جنود ربك الا هو » وقال الامام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن ابراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لوعلمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل » فقال أبو ذر (والله لوددت أنى شجرة تعضد) ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث اسرائيل فقال الترمذى حسن غريب ويروى عن أبى ذر موقوفا * وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا حسين بن عرفة المصرى حدثنا عروة بن عمران الرقى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم ابن مالك عن عطاء بن أبى رباح عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع فاذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لا نشرك بك شيئاً) فدل هذان الحديثان على أنه ما من موضع فى السموات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة وهم فى صنوف من العبادة . منهم من هو قائم أبداً . ومنهم

من هو راكع أبداً ومنهم من هو ساجد أبداً ومنهم من هو فى صنوف أخر والله أعلم بها . وهم دائمون فى عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التى أمرهم الله بها ، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون) * وقال (ص) (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها * قالوا وكيف يصفون عند ربهم قال يكملون الصف الأول ويتراصون فى الصف) * وقال (فضلنا على الناس بثلاث * جعلت لنا الأرض مسجداً وتربتها لنا طهوراً وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة) وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفا كما قال تعالى (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) ويقفون صفوفا بين يدى ربهم عز وجل يوم القيامة كما قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) * والمراد بالروح ههنا بنو آدم قاله ابن عباس والحسن وقتادة * وقيل ضرب من الملائكة يشبهون بنى آدم فى الشكل * قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش * وقيل جبريل * قاله الشعبى وسعيد بن جبير والضحاك * وقيل ملك يقال له الروح بقدر جميع المخلوقات * قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله يوم يقوم الروح قال هو ملك من أعظم الملائكة خلقا * وقال ابن جرير حدثنى محمد بن خلف العسقلانى حدثنا داود ابن الجراح عن أبى حمزة عن الشعبى عن علقمة عن ابن مسعود قال الروح فى السماء الرابعة هو أعظم السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكا من الملائكة يجيء يوم القيامة صفا وحده * وهذا غريب جدا * وقال الطبرانى حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم المصرى حدثنا ابن وهب بن رزق أبو هبيرة حدثنا بشر بن بكر حدثنا الاوزاعى حدثنى عطاء عن عبد الله بن عباس قال سمعت رسول الله (ص) يقول « إن لله ملكا لو قيل له التقم السموات والأرضين بلقمة واحدة لفعل . تسبيحه سبحانك حيث كنت » وهذا أيضا حديث غريب جدا * وقد يكون موقوفا * وذكرنا فى صفة حملة العرش عن جابر بن عبد الله قال رسول الله (ص) « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » رواه أبو داود وابن أبى حاتم ولفظه مخفق الطير سبعمائة عام *

وقد ورد فى صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم قال الله تعالى « علمه شديد القوى » قالوا كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكن سبعا بمن فيها من الأمم وكانوا قريبا من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الاراضى والمعتملات والعمارات وغير ذلك * رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهذا هو شديد القوى . وقوله ذو مرة أى خلق حسن وبهاء وسناء كما قال فى الآية الاخرى « إنه لقول رسول كريم » أى جبريل رسول من الله كريم أى حسن المنظر

ذى قوة أى له قوة وبأس شديد عند ذى العرش مكين أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله ذى العرش المجيد مطاع ثم أمين أى مطاع فى الملأ الأعلى أمين أى ذى أمانة عظيمة ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام الذى ينزل عليهم بالوحى . فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة * وقد كان يأتى الى رسول الله (ص) وينزل عليه فى صفات متعددة كما قدمنا . وقد رآه على صفته التى خلقه الله عليها مرتين * له ستمائة جناح كما روى البخارى عن طلق بن غنام عن زائدة الشيبانى قال سألت زراً عن قوله فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى * قال حدثنا عبد الله يعنى ابن مسعود أن محمدا (ص) رأى جبريل له ستمائة جناح *

وقال الامام أحمد حدثنا يحيى ابن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد عن أبى وائل عن عبد الله قال رأى رسول الله (ص) جبريل فى صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل (١) من الدر والياقوت ما الله به عليم . وقال أحمد أيضا حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود فى هذه الآية « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى » قال قال رسول الله (ص) (رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل الدر والياقوت * وقال أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين (٢) حدثنى عاصم ابن بهدلة سمعت شقيق بن سلمة يقول سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله (ص) وسلم رأيت جبريل على السدرة المنتهى وله ستمائة جناح فسألت عاصما عن الأجنحة فأبى أن يخبرنى قال فأخبرنى بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب * وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد *

وقال أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى حسين حدثنى حصين حدثنى شقيق سمعت ابن مسعود قال قال رسول الله (ص) أتانى جبريل فى خضر تعلق به الدر * إسناده صحيح * وقال ابن جرير حدثنا ابن بزيع البغدادى قال حدثنا اسحاق بن منصور قال حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عبد الرحمن ابن يزيد عن عبد الله (ما كذب الفؤاد ما رأى) قال رأى رسول الله (ص) جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والارض * إسناد جيد قوى * وفى الصحيحين من حديث عامر الشعبى عن مسروق قال كنت عند عائشة فقلت أليس الله يقول « ولقد رآه بالأفق المبين ولقد رآه نزلة أخرى » فقالت أنا أول هذه الامة سأل رسول الله (ص) عنها فقال إنما ذاك جبريل لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين

---

(١) قوله التهاويل أى الاشياء المختلفة الالوان والرواية على ما فى النهاية رأى جبريل ينتشر من جناحه الدر والتهاويل . (٢) قوله الحسين هو ابن واقد مولى عبد الله بن عامر بن كريز أبو عبد الله المروزى قاضيها .

رآه منهبطا من السماء إلى الارض سادا عظم خلقه مابين السماء والارض *

وقال البخاري حدثنا أبو نعيم حدثنا عمر بن ذر (ح) وحدثني يحيى بن جعفر حدثنا وكيع عن ابن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) لجبريل ألا تزورنا أكثر مما تزورنا قال فنزلت « وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وماخلفنا » الآية * وروى البخاري من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال كان رسول الله (ص) أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله (ص) أجود بالخير من الريح المرسلة * وقال البخاري (١) حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر العصر شيئا فقال له عروة أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله (ص) فقال عمر أعلم ماتقول ياعروة قال سمعت بشير بن أبي مسعود يقول سمعت أبا مسعود يقول سمعت رسول الله (ص) يقول نزل جبريل فأمني فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه يحسب باصابعه خمس صلوات *

ومن صفة إسرافيل عليه السلام وهو أحد حملة العرش وهو الذي ينفخ في الصور بأمر ربه نفخات ثلاثة * أولاهن نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث كما سيأتي بيانه في موضعه من كتابنا هذا بحول الله وقوته وحسن توفيقه * والصور قرن ينفخ فيه . كل دارة منه كما بين السماء والارض. وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث فاذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج فيقول الرب جل جلاله وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا فتدخل على الاجساد في قبورها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ فتحيي الأجساد وتنشق عنهم الاجداث فيخرجون منها سراعا إلى مقام المحشر كما سيأتي تفصيله في موضعه

ولهذا قال رسول الله (ص) « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له * قالوا كيف نقول يارسول الله قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل . على الله توكلنا * رواه أحمد والترمذي من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري * وقال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سعد الطائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد قال ذكر رسول الله (ص) صاحب الصور فقال عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل عليهم السلام . وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عمر أن ابن أبي ليلى حدثني عن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس * قال بينا رسول الله (ص) ومعه جبريل بناحية إذ انشق أفق السماء فأقبل

---

(١) في كتاب بدء الخلق نقلا عن (محمود الامام)

إسرافيل يدنو من الارض ويتمايل فاذا ملك قد مثل بين يدى النبى (ص) فقال يامحمد إن الله يأمرك أن تختار بين نبى عبد أو ملك نبى قال فأشار جبريل إلى بيده (أن تواضع) فعرفت أنه لى ناصح فقلت عبد نبى فعرج ذلك الملك إلى السماء فقلت ياجبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ماشغلنى عن المسألة فمن هـذا ياجبريل؟ فقال هـذا إسرافيل عليه السلام خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافا قدميه لايرفع طرفه بينه وبين الرب سبعون نورا مامنها من نور يكاد يدنو منـه إلا احترق بين يديه لوح فاذا أذن الله فى شئ من السماء أو فى الارض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر فان كان من على أمرنى به وإن كان من عمل ميكائيل أمره به وإن كان من عمل ملك الموت أمره به * قلت ياجبريل وعلى أى شئ أنت قال على الريح والجنود * قلت وعلى أى شئ ميكائيل قال على النبات والقطر قلت وعـلى أى شئ ملك الموت قال على قبض الأنفس وماظننت أنه نزل إلا لقيام السـاعة وما الذى رأيت منى إلا خوفا من قيام الساعة * هذا حديث غريب من هذا الوجه * وفى صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله (ص) كان إذا قام من الليل يصلى يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم * وفى حديث الصور أن إسرافيل أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ فى الصور * وذكر محمد بن الحسن النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة فجوزى بولاية اللوح المحفوظ * حكاه أبو القاسم السهيلى فى كتابه (التعريف والاعلام . بما أبهم فى القرآن من الأعـلام) * وقال تعالى « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال » عطفهما على الملائكة لشرفهما فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره * وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عزوجل ومن أشراف الملائكة المقربين * وقد قال الامام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا ابن عياش عن عمارة بن غزية الانصارى أنه سمع حميد بن عبيد مولى بنى المعلى يقول سمعت ثابتا البنانى يحدث عن أنس بن مالك عن رسول الله (ص) أنه قال لجبريل مالى لم أر ميكائيل ضاحكا قط فقال ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار * فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم فى القرآن وفى الصحاح هم المذكورون فى الدعاء النبوى « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل » فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم . وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الارزاق فى هذه الدار * وله أعوان يفعلون مايأمرهم به بأمر ربه . يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله . وقد روينا أنه مامن قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها فى موضعها من الارض « واسرافيل موكل بالنفخ فى الصور للقيام من القبور . والحضور يوم البعث والنشور ليفوز الشكور . ويجازى الكفور . فذاك ذنبه مغفور . وسعيه مشكور * وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور . وهو يدعو بالويل والثبور » فجبريل عليه السلام

يحصل بما ينزل به الهدى * وميكائيل يحصل بما هو موكل به الرزق . وإسرافيل يحصل بما هو موكل به النصر والجزاء * وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه فى القرآن ولا فى الاحاديث الصحاح . وقد جاء تسميته فى بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم *

وقد قال الله تعالى « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون » وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت بيده فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها منه فيلفوها فى أكفان تليق بها كما قد بسط عند قوله « يثبت الله الذين آمنو بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »

ثم يصعدون بها فان كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وألقى بها إلى الأرض قال الله تعالى « وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » .

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنهم قالوا إن الأرض بين يدى ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الانسان على حسب عمله إن كان مؤمنا أتاه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الأرواح . وإن كان كافرا فبالضد من ذلك * عياذا بالله العظيم من ذلك * وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن أبى يحيى المقرى حدثنا عمرو بن شمر قال سمعت جعفر بن محمد قال سمعت أبى يقول نظر رسول الله (ص) الى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبى (ص) يا ملك الموت ارفق بصاحبى فانه مؤمن فقال ملك الموت يا محمد طب نفسا وقر عينا فانى بكل مؤمن رفيق * واعلم أن ما فى الأرض بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى إنى أعرف بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها . قال جعفر بن محمد أبى هو الصادق بلغنى يتصفحهم عند مواقيت الصلاة فاذا حضر عند الموت فاذا كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فى تلك الحال العظيمة . هذا الحديث مرسل وفيه نظر وذكرنا فى حديث الصور من طريق إسمعيل بن رافع المدنى القاص عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى عن أبى هريرة عن رسول الله (ص) (الحديث) بطوله . وفيه ويأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله فاذا هم قد خمدوا جاء ملك الموت إلى الجبار عزوجل فيقول يارب قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت * فيقول الله وهو أعلم بمن بقى (فمن بقى) فيقول بقيت أنت الحى الذى لا يموت وبقيت حملة عرشك وبقى جبريل وميكائيل * فيقول ليمت جبريل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول يارب يموت جبريل

وميكائيل فيقول اسكت فانى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى فيموتان «ثم يأتى ملك الموت الى الجبار عزوجل فيقول يارب قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله وهو أعلم بمن بقى فمن بقى ؟ فيقول بقيت أنت الحى الذى لايموت وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا فيقول الله ليمت حملة عرشى . فتموت . ويأمر الله العرش فيقبض الصور من اسرافيل ثم يأتى ملك الموت فيقول يارب قد مات حملت عرشك فيقول الله وهو اعلم بمن بقى (فمن بقى) فيقول بقيت أنت الحى الذى لا يموت وبقيت أنا فيقول الله أنت خلق من خلقى خلقتك لما أردت فمت فيموت فاذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد * كان آخراً كما كان أولا * وذكر تمام الحديث بطوله رواه الطبرانى وابن جرير والبيهقى ورواه الحافظ أبو موسى المدينى فى كتاب (الطوالات)(١) وعنده زيادة غريبة وهى قوله فيقول الله له أنت خلق من خلقى خلقتك لما أردت فمت موتا لاتحيى بعده أبداه

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم فى القرآن هاروت وماروت فى قول جماعة كثيرة من السلف * وقد ورد فى قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها إسرائيليات * وروى الامام أحمد حديثا مرفوعا عن ابن عمر وصححه ابن حبان فى تقاسيمه . وفى صحته عندى نظر والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ويكون مما تلقاه عن كعب الأحبار كما سيأتى بيانه والله أعلم * وفيه أنه تمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر * وعن على وابن عباس وابن عمر أيضا ان الزهرة كانت امرأة وأنهما لما طلبا منها ماذكر أبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته فارتفعت إلى السماء فصارت كوكبا * وروى الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس قال وفى ذلك الزمان إمرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب . وهذا اللفظ احسن ماورد فى شأن الزهرة * ثم قيل كان أمرهما وقصتهما فى زمان إدريس * وقيل فى زمان سليمان بن داود كما حررنا ذلك فى التفسير *

وبالجملة فهو خبر إسرائيلى مرجعه الى كعب الأحبار كما رواه عبد الرزاق فى تفسيره عن الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار بالقصة * وهذا أصح إسنادا وأثبت رجالا والله أعلم *

ثم قد قيل إن المراد بقوله «وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت » قبيلان من الجان قاله ابن حزم وهذا غريب وبعيد من اللفظ * ومن الناس من قرأ وما أنزل على الملكين بالكسر ويجعلهما علجين من أهل فارس .قاله الضحاك . ومن الناس من يقول هما ملكان من السماء ولكن

---

(١) قال فى كشف الظنون الطوالات للحافظ الكبير أبى موسى محمد بن أبى بكر عمر المدينى المتوفى سنة ٥٨١ وهى فى مجلدين .

سبق فى قدر الله لهما ماذكره من أمرهما إن صح به الخبر ويكون حكمهما كحكم إبليس أن قيل إنه من الملائكة لكن الصحيح أنه من الجن كما سيأتى تقريره *

ومن الملائكة المسمين فى الحديث منكر ونكير عليهما السلام. وقد استفاض فى الأحاديث ذكرهما فى سؤال القبر. وقد أوردناها عند قوله تعالى «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء» وهما فتانا القبر موكلان بسؤال الميت فى قبره عن ربه ودينه ونبيه ويمتحنان البر والفاجر وهما أزرقان افرقان لهما أنياب وأشكال مزعجة وأصوات مفزعة أجارنا الله من عذاب القبر وثبتنا بالقول الثابت آمين * وقال البخارى حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابن وهب حدثنى يونس عن ابن شهاب حدثنى عروة أن عائشة زوج النبى (ص) حدثته أنها قالت للنبى (ص) (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد. قال لقد لقيت من قومك وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى الى ماأردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فاذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فاذا فيها جبريل فنادانى فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وماردوا به عليك وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال يامحمد فقال ذلك فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الاخشبين فقال النبى (ص) بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيأ * ورواه مسلم من حديث ابن وهب به *

فصل

ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة الى ماهيأهم الله له أقسام * فمنهم حملة العرش كما تقدم ذكرهم ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش. وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى «لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون» ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام. وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما قال تعالى (ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم. ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. إنك أنت العزيز الحكيم. وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته. وذلك هو الفوز العظيم)

ولما كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة فثبت فى الحديث عن الصادق المصدوق أنه قال «اذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثل *

ومنهم سكان السموات السبع يعمرونها عبادة دائبة ليلا ونهارا صباحا ومساء كما قال «يسبحون

الليل والنهار لا يفترون * فنهم الراكع دائما والقائم دائما والساجد دائما * ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة الى البيت المعمور كل يوم سبعون الفا لا يعودون اليه آخر ما عليهم * ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لاهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر *

وخازن الجنة ملك يقال له رضوان جاء مصرحا به فى بعض الاحاديث * ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية * ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة . وهم المذكورون فى قوله تعالى (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) الآية . وقال تعالى « ونادوا يامالك ليقض علينا ربك . قال انكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » وقال تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) وقال تعالى (عليها تسعة عشر وماجعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وماجعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا * كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء * وما يعلم جنود ربك الا هو)

وهم الموكلون بحفظ بنى آدم كما قال تعالى « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به . ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظون من أمر الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال *

قال الوالبى عن ابن عباس (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله) وهى الملائكة وقال عكرمة عن ابن عباس يحفظونه من أمر الله * قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فاذا جاء قدر الله خلوا عنه وقال مجاهد مامن عبد الا وملك موكل بحفظه فى نومه ويقظته من الجن والانس والهوام . وليس شئ يأتيه يريده الاقال وراءك الاشئ يأذن الله فيه فيصيبه . وقال أبو اسامة[1] (ما من آدمى الا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذى قدر له . وقال أبو مجاز جاء رجل الى على فقال ان نفرا من مراد يريدون قتلك فقال ان مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فاذا جاء القدر خليا بينه وبينه ان الأجل جنة حصينة .

ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى «عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد» وقال تعالى وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون «فقال الحافظ أبو محمد

(١) وفى نسخة أبو امامة .

عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في تفسيره حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا وكيع حدثنا سفيان ومسعر عن علقمة بن يزيد عن مجاهد قال قال رسول الله (ص) أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم الا عند احدى حالتين الجنابة والغائط فاذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم حائط أو ببعيره أو يستره أخوه * هذا مرسل من هذا الوجه وقد وصله البزار في مسنده من طريق جعفر بن سليمان * وفيه كلام عن علقمة عن مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) ان الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من الله والذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم الا عند احدى ثلاث حالات الغائط والجنابة والغسل . فاذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط أو ببعيره .
ومعنى اكرامهم أن يستحي منهم فلا يملي عليهم الاعمال القبيحة التي يكتبونها فان الله خلقهم كراما في خلقهم وأخلاقهم * ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله (ص) أنه قال لا يدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب . وفي رواية عن عاصم بن ضمرة عن علي (ولا بول) وفي رواية رافع عن أبي سعيد مرفوعا لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا تمثال . وفي رواية مجاهد عن أبي هريرة مرفوعا لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو تمثال . وفي رواية ذكوان أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس . ورواه زرارة بن أوفى عنه لا تصحب الملائكة رفقة معهم جرس *
وقال البزار حدثنا اسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقلوس . حدثنا بيان بن حمران حدثنا سلام عن منصور بن زاذان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) ان ملائكة الله يعرفون بني آدم (وأحسبه قال) ويعرفون أعمالهم فاذا نظروا الى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا أفلح الليلة فلان نجا الليلة فلان . واذا نظروا الى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه . وقالوا هلك فلان الليلة * ثم قال سلام أحسبه سلام المدائني وهو لين الحديث . وقد قال البخاري حدثنا ابو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) الملائكة يتعاقبون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر . ثم يعرج اليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم فيقول كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون . وأتيناهم وهم يصلون * هذا اللفظ في كتاب بدء الخلق بهذا السياق وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه * وقد أخرجاه في الصحيحين في البدء من حديث مالك عن أبي الزناد به * وقال البزار حدثنا زياد بن أيوب حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي حدثنا تمام بن نجيح عن الحسن يعني البصري عن أنس قال قال رسول الله (ص) مامن حافظين يرفعان الى الله عز وجل ماحفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً الا قال الله غفرت لعبدي مابين طرفي الصحيفة * ثم قال تفرد به تمام بن نجيح

وهو صالح الحديث * قلت وقد وثقه ابن معين وضعفه البخارى وأبو حاتم وأبو زرعة والنسائى وابن عدى ورماه ابن حبان بالوضع وقال الامام أحمد لا أعرف حقيقة أمره والمقصود أن كل انسان له حافظان ملكان اثنان واحد من بين يديه وآخر من خلفه يحفظانه من أمر الله بأمر الله عز وجل * وملكان كاتبان عن يمينه وعن شماله وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال . كما ذكرنا ذلك عند قوله تعالى « عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد »

فأما الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا أسود ابن عامر * حدثنا سفيان . حدثنا منصور عن سالم بن أبى الجعد عن أبيه عن عبد الله هو ابن مسعود قال قال رسول الله (ص) . مامنكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يارسول الله قال واياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى الا بخير . انفرد باخراجه مسلم من حديث منصور به فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة غير القرين بحفظ الانسان وانما هو موكل به ليهديه ويرشده باذن ربه الى سبيل الخير وطريق الرشاد كما أنه قد وكل به القرين من الشياطين لا يألوه جهدا فى الخبال والاضلال . والمعصوم من عصمه الله عز وجل وبالله المستعان *

وقال البخارى حدثنا أحمد بن يونس حدثنا ابراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن والاغر عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) اذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الاول فالاول فاذا جلس الامام طووا الصحف وجاؤا يسمعون الذكر وهكذا رواه منفردا به من هذا الوجه وهو فى الصحيحين من وجه آخر * وقد قال الله تعالى « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » * وقال الامام أحمد حدثنا أسباط حدثنا الأعمش عن ابراهيم عن ابن مسعود عن النبى (ص) * وحدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى (ص) فى قوله « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار * ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث أسباط * وقال الترمذى حسن صحيح * قلت وهو منقطع *

وقال البخارى حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى عن أبى سلمة وسعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى (ص) * قال فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة . ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر . يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » وقال البخارى حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبى حازم عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) اذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح * تابعه شعبة وأبو حمزة وأبو داود وأبو معاوية عن

الأعمش . وثبت فى الصحيحين أن رسول الله (ص.) قال إذا أمن الامام فأمنوا فان من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه * وفى صحيح البخارى حدثنا اسماعيل بلفظ اذا قال الامام آمين فان الملائكة تقول فى السماء آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه * وفى صحيح البخارى حدثنا اسماعيل حدثنى مالك عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة أن النبى (ص.) قال اذا قال الامام سمع الله لمن حمده فقولوا (اللهم ربنا ولك الحمد) فان من وافق قوله قول الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه . ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث مالك * وقال الامام احمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة أو عن أبى سعيد هو شك (يعنى الاعمش) قال قال رسول الله (ص) ان لله ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس فاذا وجدوا اقواما يذكرون الله تنادوا هلموا الى بغيتكم فيجيئون بهم الى السماء الدنيا فيقول الله أى شئ تركتم عبادى يصنعون فيقولون تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك فيقول وهل رأونى فيقولون لا فيقول كيف لو رأونى فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تحميدا وتمجيدا وذكرا قال فيقول فأى شئ يطلبون فتقولون يطلبون الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا فيقول وكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا قال فيقول من أى يتعوذون فيقولون من النار فيقول وهل رأوها فيقولون لا فيقول فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها كانوا اشد منها هربا وأشد منها خوفا . قال فيقول اشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال فيقول ان فيهم فلانا الخطاء لم يردهم إنما جاء لحاجة فيقول هم القوم لايشقى بهم جليسهم *

وهكذا رواه البخارى عن قتيبة عن جرير بن عبد الحميد عن الأعمش به . وقال رواه شعبة عن الأعمش ولم يرفعه . ورفعه سهيل عن أبيه . وقد رواه أحمد عن عفان عن وهيب عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى (ص.) بنحوه كما ذكره البخارى معلقا عن سهيل . ورواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد عن وهيب به . وقد رواه الامام أحمد أيضا عن غندر عن شعبة عن سليمان (هو الاعمش) عن أبى صالح عن ابى هريرة كما أشار اليه البخارى رحمه الله * وقال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية . حدثنا الاعمش وابن نمير * أخبرنا الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص.) من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة * ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . ومن سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله له به طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده * ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » * وكذا رواه مسلم من حديث أبى معاوية * وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أبى اسحاق عن الأغر (أبى مسلم) عن

أبي هريرة وأبي سعيد عن رسول الله (ص) . قال ما اجتمع قوم يذكرون الله الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده * وكذا رواه أيضا من حديث إسرائيل وسفيان الثورى وشعبة عن أبي اسحاق به نحوه * ورواه مسلم من حديث شعبة والترمذى من حديث الثورى وقال حسن صحيح * ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن ابى شيبة عن يحيى بن آدم عن عمار بن زريق عن أبي إسحاق بإسناد نحوه * وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة * وفى مسند الامام أحمد والسنن عن أبي الدرداء مرفوعا (وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع) أى تتواضع له كما قال تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وقال تعالى « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وقال الامام أحمد حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله ابن مسعود أن رسول الله (ص) قال إن لله ملائكة سياحين فى الارض ليبلغونى عن امتى السلام * وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى وسليمان الاعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب به * وقال الامام أحمد . حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله (ص) خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم * وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع وعبد بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق به .

والأحاديث فى ذكر الملائكة كثيرة جدا * وقد ذكرنا ما يسره الله تعالى وله الحمد

فصل

وقد اختلف الناس فى تفضيل الملائكة على البشر على أقوال . فأكثر ما توجد هذه المسئلة فى كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم وأقدم كلام رأيته فى هذه المسئلة ما ذكره الحافظ ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص انه حضر مجلسا لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر ما أحد أكرم على الله من كريم بنى آدم . واستدل بقوله تعالى « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » ووافقه على ذلك امية بن عمرو بن سعيد فقال عراك ابن مالك ما أحد أكرم على الله من ملائكته هم خدمة داريه ورسله الى أنبيائه . واستدل بقوله تعالى « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظى ما تقول أنت يا أبا حمزة * فقال قد أكرم الله آدم خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومن يزوره الملائكة * فوافق عمر بن عبد العزيز فى الحكم واستدل بغير دليله * وأضعف دلالة ما صرح به من الآية وهو قوله « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات » مضمونة أنها ليست بخاصة بالبشر * فان الله قد وصف الملائكة بالايمان فى

قوله « ويؤمنون به » وكذلك الجان « وانا لما سمعنا الهدى آمنا به » « وانا منا المسلمون » قلت وأحسن مايستدل به فى هذه المسئلة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمى عن عبد الله بن عمرو مرفوعا وهو أصح قال لما خلق الله الجنة قالت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه نأكل منها ونشرب فانك خلقت الدنيا لبنى آدم فقال الله لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان*

باب خلق الجان وقصة الشيطان

قال الله تعالى « خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار فبأى آلاء ربكما تكذبان » وقال تعالى « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد (من مارج من نار) قالوا من طرف اللهب وفى رواية من خالصه وأحسنه* وقد ذكرنا آنفا من طريق الزهرى عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله (ص) : خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم رواه مسلم* قال كثير من علماء التفسير خلقت الجن قبل آدم عليه السلام وكان قبلهم فى الأرض الحن والبن فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم . وذكر السدى فى تفسيره عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله (ص) لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل ابليس على ملك الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وانما سموا الجن لانهم خزان الجنة . وكان ابليس مع ملكه خازنا فوقع فى صدره انما أعطانى الله هذا لمزية لى على الملائكة . وذكر الضحاك عن ابن عباس أن الجن لما أفسدوا فى الارض وسفكوا الدماء بعث الله اليهم ابليس ومعه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض الى جزائر البحور*

وقال محمد بن إسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس كان اسم ابليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل . وكان من سكان الارض ومن أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما وكان من حى يقال لهم الجن* وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عنه كان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة من أولى الاجنحة الاربعة* وقد أسند عن حجاج عن ابن جريج قال ابن عباس كان ابليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة* وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا . وكان له سلطان الارض* وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس كان يسوس مابين السماء والارض رواه ابن جرير وقال قتادة عن سعيد بن المسيب كان ابليس رئيس ملائكة سماء الدنيا* وقال الحسن البصرى لم يكن من الملائكة طرفة عين وانه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر* وقال شهر ابن حوشب وغيره كان ابليس من الجن الذين طردهم الملائكة فأسره بعضهم وذهب به الى السماء . رواه ابن جرير قالوا فلما

أراد الله خلق آدم ليكون فى الارض هو وذريته من بعده وصور جثته منها جعل ابليس وهو رئيس الجان وأكثرهم عبادة اذ ذاك وكان اسمه عزازيل يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك * وقال أما لئن سلطت عليك لاهلكنك ولئن سلطت علىّ لاعصينك فلما أن نفخ الله فى آدم من روحه كما سيأتى وأمر الملائكة بالسجود له دخل ابليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل وأخطأ فى قوله وابتعد من رحمة ربه وأنزل من مرتبته التى كان قد نالها بعبادته وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لانه مخلوق من نار وهم من نور فخانه طبعه فى أحوج ما كان اليه ورجع الى أصله النارى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس استكبر وكان من الكافرين » وقال تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)

فأهبط ابليس من الملأ الأعلى وحرم عليه قدر أن يسكنه فنزل الى الارض حقيرا ذليلا مذؤما مدحورا متوعدا بالنار هو ومن اتبعه من الجن والانس الا انه مع ذلك جاهد كل الجهد على اضلال بنى آدم بكل طريق وبكل مرصد كما قال (أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الاموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا)

وسنذكر القصة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام * والمقصود أن الجان خلقوا من النار وهم كبنى آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون * ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون كما أخبر تعالى عنهم فى سورة الجن فى قوله تعالى (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين) وقال تعالى (قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا . وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وأن ظننا أنا لن تقول الانس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا

رصدا . وانا لاندرى أشر أريد بمن فى الارض أم أراد بهم ربهم رشدا * وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا * وأنا ظننا ان لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه هربا. وأنا لما سمعنا الهدي آمنا به فمن يؤمن بربه فلايخاف بخسا ولا رهقا. وأنامنا المسلمون ومنا القاسطون .فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا . وأن لواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه. ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا)وقد ذكرنا تفسيرهذه السورة وتمام القصة فى آخر سورة الاحقاف * وذكرنا الاحاديث المتعلقة بذلك هنالك * وأن هؤلاء النفر كانوا من جن (نصيبين) وفى بعض الآثار من جن (بصرى) وأنهم مروا برسول الله (ص). وهو قائم يصلى بأصحابه ببطن نخلة من أرض مكة فوقفوا فاستمعوا لقراءته . ثم اجتمع بهم النبى (ص) ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ونهاهم عنها وسألوه الزاد فقال لهم (كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحا وكل روثة علف لدوابكم) ونهى النبى (ص) أن يستنجى بهما وقال (إنهما زاد إخوانكم) الجن . ونهى عن البول فى السرب لأنها مساكن الجن . وقرأ عليهم رسول الله (ص) سورة الرحمن فما جعل يمر فيها بآية (فبأى آلاء ربكما تكذبان) الا قالوا ولا بشئ من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد . وقد أثنى عليهم النبى (ص) فى ذلك لما قرأهذه السورة على الناس فسكتوا . فقال (الجن كانوا أحسن منكم ردا ما قرأت عليهم فبأى آلاء ربكما تكذبان الا قالوا ولا بشئ من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد). رواه الترمذى عن جبير وابن جرير والبزار عن ابن عمر *

وقد اختلف فى مؤمنى الجن هل يدخلون الجنة أو يكون جزاء طائعهم ان لا يعذب بالنار فقط . على قولين الصحيح أنهم يدخلون الجنة لعموم القرآن * ولعموم قوله تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان » فامتن تعالى عليهم بذلك فلولا أنهم ينالونه لما ذكره وعدده عليهم من النعم * وهذا وحده دليل مستقل كاف فى المسئلة وحده والله أعلم *

وقال البخارى حدثنا قتيبة عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة عن أبيه أن أبا سعيد الخدرى قال له (إنى أراك تحب الغنم والبادية فاذا كنت فى غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فانه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولاشئ الا شهد له يوم القيامة)* قال أبو سعيد سمعته من رسول الله (ص)* انفرد به البخارى دون مسلم *

وأما كافرو الجن فنهم الشياطين ومقدمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبى البشر. وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته . وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم . كما قال « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا » وقال تعالى « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها

فى شك وربك على كل شئ حفيظ » وقال تعالى (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون)

وقال (واذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. الا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا إبليس مالك أن لا تكون من الساجدين قال لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حماء مسنون قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين .الى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين . الا عبادك المخلصين قال هذا صراط على مستقيم . ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين . وان جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم)

وقد ذكر تعالى هذه القصة فى سورة البقرة وفى الاعراف وههنا وفى سورة سبحان وفى سورة طه وفى سورة ص * وقد تكلمنا على ذلك كله فى مواضعه فى كتابنا التفسير ولله الحمد * وسنوردها فى قصة آدم إن شاء الله * والمقصود أن إبليس أنظره الله الى يوم القيامة محنة لعباده واختبارا منه لهم كما قال تعالى (وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك . وربك على كل شئ حفيظ)* وقال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الامر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم * وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام)*

فابليس لعنه الله حى الآن منظر الى يوم القيامة بنص القرآن * وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن * وقد قال الله تعالى (إن كيد الشيطان كان ضعيفا وكان اسمه قبل معصيته العظيمة عزازيل * قال النقاش وكنيته (أبو كردوس) ولهذا لما قال النبى (ص) لابن صياد ما ترى قال أرى عرشا على الماء . فقال له النبى (ص) (اخسأ فلن تعدو قدرك) فعرف أن مادته مكاشفته التى كاشفه بها شيطانية مستمدة من إبليس الذى هو يشاهد عرشه على البحر * ولهذا قال له اخسأ فلن تعدو قدرك أى لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة *

والدليل على أن عرش إبليس على البحر الذى رواه الامام احمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنى معاذ التميمى عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (ص) (عرش إبليس فى البحر يبعث

سراياه فى كل يوم يفتنون الناس فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة الناس » ورواه (١)

وقال أحمد حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله (ص) يقول (عرش إبليس على البحر يبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة) تفرد به من هذا الوجه *

وقال أحمد حدثنا مؤمل حدثنا حماد حدثنا على بن زيد عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (ص) لابن صائد (ما ترى . قال أرى عرشا على الماء أو قال على البحر حوله حيات) قال (ص) ذاك عرش إبليس * هكذا رواه فى مسند جابر *

وقال فى مسند أبى سعيد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا على بن زيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد أن رسول الله (ص) قال لابن صائد (ما ترى قال أرى عرشا على البحر حوله الحيات) فقال رسول الله (ص) صدق ذاك عرش إبليس *

وروى الامام أحمد من طريق معاذ التميمى وأبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (ص) إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن فى التحريش (٢) بينهم * وروى الامام مسلم من حديث الأعمش عن أبى سفيان طلحة بن نافع عن جابر عن النبى (ص) قال « إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فى الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة . يجئ أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا . فيقول إبليس لا والله ما صنعت شيئا . ويجئ أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله . قال فيقربه ويدنيه ويقول نعم أنت . يروى بفتح النون بمعنى نعم أنت ذاك الذى تستحق الاكرام . وبكسرها أى نعمنك * وقد استدل به بعض النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمرا وهو قليل * واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج الاول ورجحه ووجهه بما ذكرناه والله اعلم

وقد أوردنا هذا الحديث عند قوله تعالى « مايفرقون به بين المرء وزوجه » يعنى أن السحر المتلقى عن الشياطين من الانس والجن يتوصل به الى التفرقة بين المتآلفين غاية التآلف المتوادين المتحابين ولهذا يشكر إبليس سعى من كان السبب فى ذلك. فالذى ذمه الله يمدحه والذى يغضب الله يرضيه عليه لعنة الله * وقد أنزل الله عزوجل سورتى المعوذتين مطاردة لأنواع الشر وأسبابه وغاياته . ولاسيما سورة « قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » . وثبت فى الصحيحين عن أنس . وفى صحيح البخارى عن صفية بنت حيي أن رسول الله (ص) قال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » *

---

(١) بياض بالاصلين مقداره ما ترى (٢) قوله فى التحريش متعلق بمقدر أي سعى بينهم فى التحريش بالخصومات والشحناء والحروب

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا محمد بن جبير حدثنا عدى بن أبى عمارة حدثنا زياد النميرى عن أنس قال قال رسول الله (ص) « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فان ذكر الله خنس وإن نسى التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس » ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب كان فيه تذكار للناس كما قال تعالى « واذكر ربك إذا نسيت » « وقال صاحب موسى « وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره » وقال تعالى « فأنساه الشيطان ذكر ربه » يعنى الساقى لما قال له يوسف اذكرنى عند ربك نسى الساقى أن يذكره لربه يعنى مولاه الملك. وكان هذا النسيان من الشيطان فلبث يوسف فى السجن بضع سنين ولهذا قال بعده « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة » أى مدة * وقرئ بعد أمة أى نسيان. وهذا الذى قلنا من أن الناسى هو الساقى هو الصواب من القولين كما قررناه فى التفسير والله أعلم

وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله (ص) قال عثر بالنبى (ص) حماره فقلت تعس الشيطان فقال النبى (ص): (لا تقل تعس الشيطان فانك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال بقوتى صرعته واذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب) * تفرد به أحمد وهو إسناد جيد * وقال أحمد حدثنا أبو بكر الحنفى حدثنا الضحاك بن عثمان عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) (إن أحدكم اذا كان فى المسجد جاء الشيطان فأبس به كما يبس الرجل بدابته فاذا سكن له زنقه أو ألجمه * قال أبو هريرة وأنتم ترون ذلك. أما المزنوق فتراه مائلا كذا لا يذكر الا الله * وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عزوجل تفرد به أحمد * وقال الامام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا ثور يعنى ابن يزيد عن مكحول عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) « العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم » * وقال الامام أحمد حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن ذر بن عبد الله الهمدانى عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال (جاء رجل الى النبى (ص) فقال يارسول الله إنى أحدث نفسى بالشئ لأن أخر من السماء أحب الى من أن أتكلم به) فقال النبى (ص) « الله أكبر الحمد لله الذى رد كيده الى الوسوسة » * ورواه أبو داود والنسائى من حديث منصور زاد النسائى والأعمش كلاهما عن أبى ذر به *

وقال البخارى حدثنا يحى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرنى عروة قال قال أبو هريرة قال رسول الله (ص) « يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك فاذا بلغه فليستعذ بالله ولينته * وهكذا رواه مسلم من حديث الليث ومن حديث الزهرى وهشام بن عروة كلاهما عن عروة به * وقد قال الله تعالى « إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون » وقال تعالى « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » وقال تعالى « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم » وقال تعالى

((فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) . وروى الامام أحمد وأهل السنن من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد قال كان رسول الله (ص) يقول (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه) . وجاء مثله من رواية جبير بن مطعم وعبد الله بن مسعود وابى أسامة الباهلى . وتفسيره فى الحديث (فهمزه الموتة وهو الخنق الذى هو الصرع . ونفخه الكبر . ونفثه الشعر) وثبت فى الصحيحين عن أنس أن رسول الله (ص) كان اذا دخل الخلاء قال « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » قال كثير من العلماء استعاذ من ذُكران الشياطين وإناثهم * وروى الامام أحمد عن شريح عن عيسى بن يونس عن ثور عن الحسين عن ابن سعد الخير وكان من اصحاب عمر عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) (ومن أتى الغائط فليستتر فان لم يجد الا أن يجمع كثيبا فليستدبره فان الشيطان يلعب بمقاعد بنى آدم من فعل فقد أحسن ومن لا فلا حرج) * ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث ثور بن يزيد به . وقال البخارى حدثنا عثمان بن ابى شيبة حدثنا جرير عن الاعمش عن عدى بن ثابت قال قال سليمان بن صرد استب رجلان عند النبى (ص) ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه فقال النبى (ص) (إنى لأعلم كلة لو قالها لذهب عنه ما يجد . لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فقالوا للرجل ألا تسمع ما يقول النبى (ص) فقال إنى لست بمجنون . ورواه أيضا مسلم وأبو داود والنسائى من طرق عن الاعمش *

وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول (ص) قال (لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله) * وهذا على شرط الصحيحين بهذا الاسناد وهو فى الصحيح من غير هذا الوجه *

وروى الامام أحمد من حديث إسماعيل بن أبى حكيم عن عروة عن عائشة عن رسول الله (ص) أنه قال (من أكل بشماله أكل معه الشيطان ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان) * وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر أنبأنا شعبة عن أبى زياد الطحان سمعت أبا هريرة يقول عن النبى (ص) أنه رأى رجلا يشرب قائما فقال له (قه) قال لم . قال (أيسرك أن يشرب معك الهر . قال لا قال (فانه قد شرب معك من هو شر منه الشيطان * تفرد به احمد من هذا الوجه . وقال أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن رجل عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) (لو يعلم الذى يشرب وهو قائم ما فى بطنه لاستقاء) قال وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى (ص) بمثل حديث الزهرى * وقال الامام أحمد حدثنا موسى حدثنا ابن لهيعة عن ابن الزبير أنه سأل جابراً

سمعت النبي (١) (ص) قال(اذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم قال الشيطان لامبيت لكم ولا عشاء ههنا. وان دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال أدركتم المبيت. وان لم يذكر اسم الله عند طعامه قال ادركتم المبيت والعشاء . قال نعم * وقال البخاري حدثنا محمد حدثنا عبدة حدثنا محمد عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن عمر قال قال رسول الله (ص) « اذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يبرز واذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى يغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فانها تطلع بين قرني الشيطان » أو(الشياطين) لأأدري اى ذلك قال هشام * ورواه مسلم والنسائي من حديث هشام به * وقال البخاري حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال رأيت رسول الله (ص) يشير الى المشرق فقال« ها إن الفتنة ههنا إن الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان» * هكذا رواه البخاري منفردا به من هذا الوجه* وفي السنن أن رسول الله (ص) نهى أن يجلس بين الشمس والظل. وقال إنه مجلس الشيطان » وقد ذكروا في هذا معاني . من أحسنها أنه لما كان الجلوس في مثل هذا الموضع فيه تشويه بخلقة فيما يرى كان يحبه الشيطان لان خلقته في نفسه مشوه وهذا مستقر في الاذهان . ولهذا قال تعالى (طلعها كأنه رؤس الشياطين) الصحيح أنهم الشياطين لا ضرب من الحيات كما زعمه من زعمه من المفسرين والله أعلم * فان النفوس مفروز فيها قبح الشياطين وحسن خلق الملائكة وان لم يشاؤا. ولهذا قال تعالى « طلعها كأنه رؤس الشياطين » وقال النسوة لما شاهدن جمال يوسف (حاش لله ما هذا بشرا إن هذا الا ملك كريم) . وقال البخاري حدثنا يحيى بن جعفر حدثنا محمد بن عبد الله الانصاري حدثنا ابن جريج اخبرني عطاء عن جابر عن النبي (ص) قال (إذا استجنح) أو (كان جنح الليل) فكفوا صبيانكم فان الشياطين تنتشر حينئذ فاذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم (٢) وأغلق بابك واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئاً »

ورواه أحمد عن يحيى عن ابن جريج وعنده فان الشيطان لايفتح مغلقا . وقال الامام احمد حدثنا وكيع عن قطر(٣) عن أبي الزبير عن جابر قال قال رسول الله (ص) « أغلقوا أبوابكم وخمروا آنيتكم وأوكوا أسقيتكم وأطفئوا سرجكم فان الشيطان لا يفتح بابا مغلقا ولا يكشف غطاء ولا يحل وكاء وان الفويسقة تضرم البيت على أهله يعنى الفأرة . وقال البخاري حدثنا آدم حدثنا شعبة عن منصور عن سالم بن ابي الجعد عن كريب عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) « لو أن احدكم اذا أراد أن يأتي

---

(١) قوله سمعت النبي الخ بفتح التاء وهو استفهام من جابر عن الحديث الآتي فهو بيان لسؤال ابن الزبير جابراً. وجوابه قوله الآتي نعم(٢) المراد من الحل بالحاء المهملة المفتوحة اخلاء سبيلهم(٣) قوله عن قطر كذا بالاصول وليس من الرواة من تسمى هذا

أهله قال اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنى فان كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه » . وحدثنا الأعمش عن سالم عن كريب عن ابن عباس مثله *

ورواه أيضا عن موسى بن إسماعيل عن همام عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس عن النبي (ص) قال (أما لو أن أحدكم اذا أتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فرزقا ولدا لم يضره الشيطان) * وقال البخارى حدثنا إسماعيل حدثنا أخى عن سليمان عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد . يضرب على كل عقدة مكانها » عليك ليل طويل فارقد « فان استيقظ فذكر الله انحلت عقدة . فان توضأ إنحلت عقدة . فان صلى إنحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » هكذا رواه متفردا به من هذا الوجه . وقال البخارى حدثنا إبراهيم عن حمزة حدثنى ابن ابى حازم عن يزيد يعنى ابن الهادى عن محمد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة عن أبى هريرة عن النبي (ص) قال (اذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثا فان الشيطان يبيت على خيشومه) ورواه مسلم عن بشر بن الحكم عن الدراوردى ، والنسائى عن محمد بن زنبور عن عبد العزيز بن أبى حازم كلاهما عن يزيد بن الهادى به * وقال البخارى حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن منصور عن أبى وائل عن عبد الله قال « ذكر عند النبي (ص) رجل نام ليله ثم أصبح قال ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه » أو قال (فى أذنه) *

ورواه مسلم عن عثمان واسحاق كلاهما عن جرير به ، واخرجه البخارى أيضا والنسائى وابن ماجه من حديث منصور بن المعتمر به . وقال البخارى حدثنا محمد بن يوسف أنبأنا الأوزاعى عن يحيى ابن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) « اذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط فاذا قضى اقبل فاذا ثوب بها ادبر فاذا قضى اقبل حتى يخطر بين الانسان وقلبه . فيقول اذكر كذا وكذا حتى لا يدرى أثلاثا صلى أم أربعا فاذا لم يدر أثلاثا صلى أم أربعا سجد سجدتى السهو » هكذا رواه متفردا به من هذا الوجه . وقال احمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا جعفر يعنى الأحمر عن عطاء بن السائب عن أنس قال قال رسول الله (ص) « راصوا الصفوف فان الشيطان يقوم فى الخلل » وقال أحمد حدثنا ابان حدثنا قتادة عن أنس بن مالك أن النبى (ص) كان يقول راصوا الصفوف وقاربوا بينها وحاذوا بين الأعناق فوالذى نفس محمد بيده إنى لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنه الحذف * وقال البخارى حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا يونس عن حميد بن هلال عن أبى صالح عن أبى سعيد قال قال رسول الله (ص) « إذا مر بين يدى أحدكم شئ فليمنعه فان أبى فليمنعه فان أبى فليقاتله فانما هو شيطان » ورواه ايضا مسلم وأبو داود من حديث سليمان بن المغيرة عن

حميد بن هلال به *وقال الامام أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا بشير بن معبد حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائما يصلي فذهبت أمرّ بين يديه فردني * ثم قال حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله (ص) قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه يقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال« لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الابهام والتي تليها ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل * وروى أبو داود منه فمن استطاع الى آخره عن أحمد بن أبي سريج عن أبي أحمد محمد بن عبد الله بن محمد بن الزبير به .

وقال البخاري حدثنا محمود حدثنا شبابة حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي (ص) « أنه صلى صلاة فقال ان الشيطان عرض لي فشد عليّ لقطع الصلاة علي فأمكنني الله منه » فذكر الحديث * وقد رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به مطولا *

ولفظ البخاري عند تفسير قوله تعالى اخبارا عن سليمان عليه السلام أنه قال « رب اغفرلي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب » من حديث روح وغندر عن شعبة عن محمد ابن زياد عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال (إن عفريتا من الجن تفلت عليّ البارحة) أو كلمة نحوها ليقطع عليّ الصلاة فأمكنني الله منه فاردت أن أربطه الى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا اليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان (رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب) قال روح فرده خاسئاً * وروى مسلم من حديث أبي إدريس عن أبي الدرداء قال قام رسول الله (ص) يصلي فسمعناه يقول(اعوذ بالله منك)ثم قال(ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا يارسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلكَ ورأيناك بسطت يدك فقال إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات . ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثم أردت أخذه والله لو لا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة . وقال تعالى(فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) يعني الشيطان وقال تعالى (ان الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير) فالشيطان لا يألو الانسان خبالا جهده وطاقته في جميع أحواله وحركاته وسكناته كما صنف الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتابا في ذلك سماه (مصائد الشيطان) وفيه فوائد جمة

وفي سنن أبي داود إن رسول الله (ص) كان يقول في دعائه .وأعوذبك ان يتخبطني الشيطان عند الموت . وروينا في بعض الاخبار أنه قال (يارب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الله تعالى وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني) وقال الله تعالى(الشيطان

يمدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يمدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) فوعد الله هو الحق المصدق ووعد الشيطان هو الباطل . وقد روى الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه وابن أبى حاتم فى تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن ابن مسعود قال قال رسول الله (ص) ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله . ومن وجد الآخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ « الشيطان يمدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يمدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » *

وقد ذكرنا فى فضل سورة البقرة أن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه . وذكرنا فى فضل آية الكرسى أن من قرأها فى ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح . وقال البخارى حدثنا عبد الله بن يوسف أنبأنا مالك عن سمى عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال (من قال لا إله الا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا رجل عمل أكثر من ذلك . وأخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه من حديث مالك . وقال الترمذى حسن صحيح .

وقال البخارى أنبأنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن أبى الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة قال قال (ص) كل ابن آدم يطعن الشيطان فى جنبيه باصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب . تفرد به من هذا الوجه . وقال البخارى حدثنا عاصم بن على حدثنا بن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال « التثاؤب من الشيطان فاذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فان أحدكم اذا قال (ها) ضحك الشيطان » . ورواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه النسائى من حديث ابن أبى ذئب به * وفى لفظ (اذا تثاءب احدكم فليكظم ما استطاع فان الشيطان يدخل)

وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) « إن الله يحب العطاس ويبغض أو يكره التثاؤب فاذا قال أحدكم ها ها فانما ذلك الشيطان يضحك من جوفه . ورواه الترمذى والنسائى من حديث محمد بن عجلان به .

وقال البخارى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الاحوص عن أشعث عن أبيه عن مسروق قال قالت عائشة سألت النبى (ص) عن التفات الرجل فى الصلاة فقال هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم . وكذا رواه أبو داود والنسائى من رواية أشعث بن أبى الشعثاء سليم بن أسود المحاربى عن أبيه عن مسروق به *

وروى البخارى من حديث الاوزاعى عن يحيى بن أبى كثير حدثنى عبد الله بن أبى قتادة عن

أبيه قال قال رسول الله (ص) « الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم أحدكم حلما يخافه فليبصق عن يساره وليتعوذ بالله من شرها فانها لاتضره » . وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) « لا يشيرن أحدكم الى أخيه بالسلاح فانه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده فيقع في حفرة من النار » . أخرجاه من حديث عبد الرزاق .

وقال الله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير) وقال « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد . لايسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » وقال تعالى « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » وقال تعالى « وما تنزلت به الشياطين. وماينبغى لهم وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون » وقال تعالى اخبارا عن الجان « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا »

وقال البخارى وقال الليث حدثنى خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال ان أبا الاسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبي (ص) قال الملائكة تحدث في العنان (والعنان الغمام) بالأمر يكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في اذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كلمة[1] . هكذا رواه في صفة ابليس معلقا عن الليث به . ورواه في صفة الملائكة عن سعيد بن أبي مريم عن الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر عن محمد بن عبد الرحمن ابي الاسود عن عروة عن عائشة بنحوه * تفرد بهذين الطريقين دون مسلم * وروى البخارى في موضع آخر ومسلم من حديث الزهرى عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال « قالت عائشة سأل ناس النبي (ص) عن الكهان فقال «انهم ليسوا بشئ» » قالوا يارسول الله إنهم يحدثونا أحيانا بشئ فيكون حقا فقال (ص): تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجنى فيقرقرها في اذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة * هذا لفظ البخارى *

وقال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول إن نبي الله (ص) قال « اذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان. فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذى قال . الحق وهو العلى الكبير .فيسمعها مسترق السمع. ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض . ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه . فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر او الكاهن . فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما القاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة

(١) في نسخة مائة كذبة .

كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا . فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء انفرد به البخاري * وروى مسلم من حديث الزهري عن علي بن الحسين زين العابدين عن ابن عباس عن رجال من الانصار عن النبي (ص) نحو هذا . وقال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى اذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) وقال تعالى (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) الآية وقال تعالى (وقال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) وقال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا . ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغى اليه افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون)

وقد قدمنا في صفة الملائكة ما رواه أحمد ومسلم من طريق منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه واسمه رافع عن ابن مسعود قال قال رسول الله (ص) ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينة من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يارسول الله قال وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني الا بخير *

وقال الامام أحمد حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه واسمه حصين بن جندب وهو أبو ظبيان الجنبي عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) ليس منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الشياطين قالوا وأنت يارسول الله قال نعم ولكن الله أعانني عليه فأسلم * تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح . وقال الامام أحمد حدثنا هارون حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني ابو صخر عن يزيد بن قسيط حدثه أن عروة بن الزبير حدثه أن عائشة زوج النبي (ص) حدثته أن رسول الله (ص) «خرج من عندها ليلا قالت فغرت عليه قالت فجاء فرأى ما أصنع فقال مالك ياعائشة أغرت قالت فقلت ومالي أن لا يغار مثلي على مثلك فقال رسول الله (ص) «أفأخذك شيطانك قالت يارسول الله أو معي شيطان . قال نعم . قلت ومع كل انسان . قال نعم . قلت ومعك يارسول الله قال نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى اسلم * وهكذا رواه مسلم عن هارون وهو ابن سعيد الأيلي باسناده نحوه .

وقال الامام أحمد حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن ابي هريرة أن النبي (ص) قال « ان المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر » تفرد به أحمد من هذا الوجه ومعنى لينضي شيطانه ليأخذ بناصيته فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير اذا شرد ثم غلبه . وقوله تعالى إخبارا عن ابليس « قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » * .

قال الامام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل هو عبد الله بن عقيل الثقفي حدثنا موسى ابن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي فاكه قال سمعت رسول الله (ص) قال « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة فقعد له بطريق الاسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك . قال فعصاه وأسلم قال وقعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتذر ارضك وسماك وانما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال فقال أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال قال فعصاه وجاهد » قال رسول الله (ص) « فمن فعل ذلك منهم كان حقا على الله أن يدخله الجنة . وان قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة وان كان غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة وان وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة » . وقال الامام احمد حدثنا وكيع حدثنا عبادة بن مسلم الفزارى حدثنى جبير بن ابى سليمان ابن جبير بن مطعم سمعت عبد الله بن عمر يقول لم يكن رسول الله (ص) يدع هذه الدعوات حين يصبح وحين يمسى « اللهم انى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة اللهم انى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » قال وكيع يعنى الخسف ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به . وقال الحاكم صحيح الاسناد .

باب خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الارض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة . فقال أنبئونى باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس . أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . وكلا منها رغداً حيث شئتما . ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات . فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى . فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وقال تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقال تعالى (يا أيها

الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام . إن الله كان عليكم رقيبا) كما قال «ياأيها الناس إنا خلقنا كم من ذكر وانثى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير» . وقال تعالى « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » الآية وقال تعالى (ولقد خلقنا كم ثم صورنا كم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين .قال مامنعك أن لا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين .قال فاهبط منها . فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين . قال انظرنى الى يوم يبعثون . قال انك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم .ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين. فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا . وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) . كما قال فى الآية الاخرى (منها خلقنا كم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) . وقال تعالى (ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . واذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال ياابليس مالك أن لا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال فاخرج منها فانك رجيم . وان عليك اللعنة الى يوم الدين . قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين » قال هذا صراط على مستقيم . ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين . وان جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم .وقال تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس. قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم

جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الاغرورا . انعبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا)وقال تعالى « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا »وقال تعالى(ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمفسجدوا الا ابليس أبى • فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى : فوسوس اليه الشيطان . قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو . فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى .قال رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى). وقال تعالى(قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون. ما كان لى من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون إن يوحى الى الا أنما أنا نذير مبين . اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون . الا ابليس استكبر وكان من الكافرين .قال ياابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين . قال أناخير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين .قال فاخرج منها فانك رجيم .وان عليك لعنتى الى يوم الدين . قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهمأجمعين . قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . ان هو الا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين)•

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن • وقد تكلمنا على ذلك كله فى التفسير •

ولنذكر ههنا مضمون ما دلت عليههذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الاحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله ص٠ • والله المستعان•

فاخبرتعالى أنه خاطب الملائكة قائلا لهم« انىجاعل فى الارض خليفة» أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا كما قال(وهو الذيجعلكم خلائف) الارض فاخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالامر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لاعلى وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه بعض

جهلة المفسرين * قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) قيل علموا ان ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن قاله قتادة *

وقال عبد الله بن عمر كانت الجن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء فبعث الله اليهم جندا من الملائكة فطردوهم الى جزائر البحور * وعن ابن عباس نحوه . وعن الحسن ألهموا ذلك * وقيل لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ فقيل أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له السجل . رواه بن أبي حاتم عن ابي جعفر الباقر * وقيل لانهم علموا ان الارض لا يخلق منها الامن يكون بهذه المثابة غالبا (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) اى نعبدك دائما لا يعصيك منا أحد * فان كان المراد بخلق هؤلاء ان يعبدوك فها نحن لا نفتر ليلا ولا نهارا (قال إني اعلم مالا تعلمون) أي أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء مالا تعلمون أي سيوجد منهم الانبياء والمرسلون والصديقون والشهداء ثم بين لهم شرف آدم عليهم فى العلم فقال (وعلم آدم الاسماء كلها) *قال ابن عباس هى هذه الاسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الامم وغيرها * وفى رواية علمه اسم الصحفة والقدر حتى الفسوة والفسية * وقال مجاهد علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شئ *

وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد * وقال الربيع علمه أسماء الملائكة * وقال عبد الرحمن ابن زيد علمه اسماء ذريته والصحيح أنه علمه اسماء الذوات وافعالها مكبرها ومصغرها كما أشار اليه ابن عباس رضى الله عنهما * وذكر البخارى هنا ما رواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام عن قتادة عن أنس بن مالك عن رسول الله (ص) قال (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شئ) وذكر تمام الحديث * (ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) قال الحسن البصرى (لما اراد الله خلق آدم قالت الملائكة لا يخلق ربنا خلقا الا كنا أعلم منه فابتلوا بهذا) وذلك قوله (ان كنتم صادقين) وقيل غير ذلك كما بسطناه فى التفسير قالوا (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) أى سبحانك أن يحيط أحد بشئ من علمك من غير تعليمك كما قال (ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء) (قال يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) اى أعلم السر كما اعلم العلانية * وقيل إن المراد بقوله واعلم ما تبدون ما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وبقوله وما كنتم تكتمون المراد بهذا الكلام ابليس حين أسر الكبر والتخيرة على آدم عليه السلام قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثورى واختاره ابن جرير * وقال ابو العالية والربيع والحسن وقتادة (وما كنتم تكتمون) قولهم لن يخلق ربنا خلقا الا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه * قوله (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا

الا ابليس أبى واستكبر) هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فهذه أربع تشريفات خلقه له بيده الكريمة ونفخه فيه من روحه . وأمره الملائكة بالسجود له وتعليمه اسماء الاشياء ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو واياه فى الملا الأعلى وتناظرا كما سيأتى (أنت آدم أبو البشر الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجدلك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ . وهكذا يقول أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم وكما سيأتى ان شاء الله تعالى وقال فى الآية الاخرى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ان لا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) *قال الحسن البصرى قاس ابليس وهو أول من قاس * وقال محمد بن سيرين أول من قاس ابليس وما عبدت الشمس ولا القمر الا بالمقاييس * رواهما ابن جرير ومعنى هذا انه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له مع وجود الامر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس اذا كان مقابلا بالنص كان فاسد الاعتبار * ثم هو فاسد فى نفسه فان الطين أنفع وخير من النار فان الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والاحراق * ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه * ولهذا أمر الملائكة بالسجود له * كما قال (اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين* فسجد الملائكة كلهم أجمعون. الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا ابليس مالك أن لا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون * قال فاخرج منها فانك رجيم * وان عليك اللعنة الى يوم الدين) استحق هذا من الله تعالى لانه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الآلهى ومعاندة الحق فى النص على آدم على التعيين وشرع فى الاعتذار بما لا يجدى عنه شيئاً ـ وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى فى سورة سبحان (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا * قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن اخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا * قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا * ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) وقال فى سورة الكهف (واذ قلنا للملائكة سجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) أى خرج عن طاعة الله عمدا وعنادا واستكبارا عن امتثال أمره وما ذاك الا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان اليها فانه مخلوق من نار كما قال وكما قدرنا فى

صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ص: قال (خلق الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم) *

قال الحسن البصرى . لم يكن ابليس من الملائكة طرفة عين قط . وقال شهر بن حوشب . كان من الجن فلما أفسدوا فى الارض بعث الله اليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم الى جزائر البحار وكان ابليس ممن أسر فأخذوه معهم الى السماء فكان هناك . فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع ابليس منه . وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون . كان ابليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا . قال ابن عباس وكان اسمه عزازيل : وفى رواية عن الحارث قال النقاش وكنيته (أبو كردوس) قال بن عباس . وكان من حى من الملائكة يقال لهم الجن وكانوا خزان الجنان وكان من أشرفهم وأكثرهم علما وعبادة وكان من أولى الاجنحة الاربعة فسخه الله شيطانا رجيما . وقال فى سورة ص « اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . الا ابليس استكبر وكان من الكافرين . قال ياابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين . قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فانك رجيم . وان عليك لعنتى الى يوم الدين قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » وقال فى سورة الاعراف (قال فبما أغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى بسبب اغوائك اياى لأقعدن لهم كل مرصد ولا تينهم من كل جهة منهم فالسعيد من خالفه والشقى من اتبعه *

وقال الامام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل (هو عبد الله بن عقيل الثقفى) حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبى الجعد عن سبرة بن أبى الفاكه قال سمعت رسول الله ص: قال (ان الشيطان يقعد لابن آدم بأطرقه) وذكر الحديث كما قدمناه فى صفة ابليس *

وقد اختلف المفسرون فى الملائكة المأمورين بالسجود لآدم . أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات وهو قول الجمهور . أو المراد بهم ملائكة الارض . كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس . وفيه انقطاع . وفى السياق نكارة وان كان بعض المتأخرين قد رجحه ولكن الا ظهر من السياقات الاول ويدل عليه الحديث وأسجد له ملائكته وهذا عموم أيضا والله أعلم . وقوله تعالى لابليس (اهبط منها) و(اخرج منها) دليل على أنه كان فى السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التى كان قد نالها بعبادته وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة ثم سلب ذلك بكبره وحسده

ومخالفته لربه فأهبط الى الارض مذؤما مدحورا . وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال (وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وقال فى الأعراف (قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لاملئن جهنم منكم أجمعين . ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وقال تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى) وسياق هذه الآيات يقتضى أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة لقوله (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) وهذا قد صرح به اسحاق ابن بشار وهو ظاهر هذه الآيات

ولكن حكى السدى عن ابى صالح وأبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا اخرج ابليس من الجنة واسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن اليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه أمرأة قاعدة . خلقها الله من ضلعه . فسألها من أنت قالت امرأة قال ولما خلقت قالت لتسكن الى فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه (ما اسمها يا آدم) قال حواء قالوا ولم كانت حواء قال لانها خلقت من شئ حى . وذكر محمد ابن اسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الاقصر الايسر وهو نائم ولأم مكانه لحما ومصداق هذا فى قوله تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) الآية وفى قوله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به) الآية وسنتكلم عليها فيما بعد ان شاء الله تعالى *

وفى الصحيحين من حديث زائدة عن ميسرة الاشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى (ص) أنه قال (استوصوا بالنساء خيرا فان المرأة خلقت من ضلع وان أعوج شئ فى الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا) لفظ البخارى

وقد اختلف المفسرون فى قوله تعالى « ولا تقربا هذه الشجرة » فقيل هى الكرم وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبى وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس والسدى فى رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قال وتزعم يهود أنها الحنطة . وهذا مروى عن ابن عباس والحسن البصرى ووهب بن منبه وعطية العوفى وأبى مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبى ليلى * قال وهب والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من العسل * وقال الثورى عن ابى حصين عن أبى مالك ولا تقربا هذه الشجرة هى النخلة * وقال ابن جريج عن مجاهد هى التينة وبه قال قتادة وابن جريج وقال أبو العالية كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغى فى الجنة حدث *

وهذا الخلاف قريب * وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها * ولو كان فى ذكرها مصلحة تعود الينا لعينها لنا كما فى غيرها من المحال التى تبهم فى القرآن *

واتما الخلاف الذى ذكروه فى ان هذه الجنة التى دخلها آدم هل هى فى السماء أو فى الارض هو الخلاف الذى ينبغى فصله والخروج منه والجمهور على أنها هى التى فى السماء وهى جنة المأوى لظاهر الآيات والاحاديث كقوله تعالى (وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة) والالف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظى وانما تعود على معهود ذهنى وهو المستقر شرعا من جنة المأوى وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام (علام أخرجتنا ونفسك من الجنة) الحديث كما سيأتى الكلام عليه * وروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى مالك الاشجعى واسمه سعد بن طارق عن أبى حازم سلمة بن دينار عن أبى هريرة * وأبو مالك عن ربعى عن حذيفة قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل اخرجكم من الجنة الا خطيئة أبيكم) وذكر الحديث بطوله * وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة فى الدلالة على انها جنة المأوى وليست تخلو عن نظر *

وقال آخرون بل الجنة التى أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لانه كلف فيها ان لا يأكل من تلك الشجرة ولانه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه ابليس فيها وهذا مما ينافى أن تكون جنة المأوى . وهذا القول محكي عن أبى بن كعب وعبد الله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة واختاره ابن قتيبة فى المعارف والقاضى منذر بن سعيد البلوطى فى تفسيره وأفرد له مصنفا على حدة . وحكاه عن أبى حنيفة الامام واصحابه رحمهم الله . ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى بن خطيب الرى فى تفسيره عن أبى القاسم البلخى وأبى مسلم الاصبهانى . ونقله القرطبى فى تفسيره عن المعتزلة والقدرية * وهذا القول هو نص التوراة التى بايدى أهل الكتاب * وممن حكى الخلاف فى هذه المسألة أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل وأبو محمد بن عطية فى تفسيره وابو عيسى الرمانى فى تفسيره *

وحكى عن الجمهور الاول . وابو القاسم الراغب والقاضى الماوردى فى تفسيره فقال واختلف فى الجنة التى أسكناها يعنى آدم وحواء على قولين * أحدهما أنها جنة الخلد * الثانى جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التى جعلها دار جزاء . ومن قال بهذا اختلفوا على قولين * أحدهما أنها فى السماء لانه اهبطهما منها وهذا قول الحسن * والثانى أنها فى الارض لانه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار . وهكذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر ابليس بالسجود لآدم والله أعلم بالصواب من ذلك *

هذا كلامه . فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة واشعر كلامه أنه متوقف فى المسألة . ولقد حكى

أبو عبد الله الرازى فى تفسيره فى هذه المسألة أربعة أقوال هذه الثلاثة التى أوردها الماوردى . ورابعها الوقف * وحكى القول بأنها فى السماء وليست جنة المأوى عن ابى على الجبائى . وقد أورد أصحاب القول الثانى سؤالا يحتاج مثله الى جواب فقالوا لاشك أن الله سبحانه و تعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الالهية وأمره بالخروج عنها والهبوط منها وهذا الامر ليس من الاوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته وانما هو امر قدرى لا يخالف ولا يمانع ولهذا قال (اخرج منها مذءوما مدحورا) وقال (اهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها) وقال (اخرج منها فانك رجيم) والضمير عائد الى الجنة أو السماء أو المنزلة وأياما كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدرا فى المكان الذى طرد عنه وابعد منه لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز * قالوا ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له (هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) وبقوله (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين . أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور) الآية وهذا ظاهر فى اجتماعه معهما فى جنتهما . وقد اجيبوا عن هذا بانه لا يمتنع أن يجتمع بهما فى الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها أو أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء . وفى الثلاثة نظر . والله أعلم .

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة مارواه عبد الله بن الامام احمد فى الزيادات عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن البصرى عن يحيى بن ضمرة السعدى عن أبى بن كعب قال (ان آدم لما احتضر اشتهى قطفا من عنب الجنة . فانطلق بنوه ليطلبوه له . فلقيتهم الملائكة فقالوا اين تريدون يابنى آدم فقالوا إن ابانا اشتهى قطفا من عنب الجنة . فقالوا لهم (ارجعوا فقد كفيتموه) فانتهوا اليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل ومن خلفه من الملائكة ودفنوه . وقالوا . (هذه سنتكم فى موتاكم) وسيأتى الحديث بسنده . وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام . قالوا فلولا انه كان الوصول الى الجنة التى كان فيها آدم التى اشتهى منها القطف ممكنا لما ذهبوا يطلبون ذلك فدل على أنها فى الأرض لا فى السماء والله تعالى أعلم *

قالوا والاحتجاج بان الألف واللام فى قوله ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهنى مسلم ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام فان آدم خلق من الأرض ولم ينقل أنه رفع الى السماء وخلق ليكون فى الارض وبهذا اعلم الرب الملائكة حيث قال (انى جاعل فى الارض خليفة)

قالوا وهذا كقوله تعالى (انا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة) فالالف واللام ليس للعموم ولم يتقدم معهود لفظى وانما هى للمعهود الذهنى الذى دل عليه السياق وهو البستان .

قالوا وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء قال الله تعالى (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك) الآية وانما كان فى السفينة حين استقر على الجودى ونضب الماء ،

عن وجه الارض أمر أن يهبط اليها هو ومن معه مباركا عليه وعليهم . وقال الله تعالى (اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم) الآية وقال تعالى وان منها لما يهبط من خشية الله) الآية . وفى الاحاديث واللغة من هذا كثير *

قالوا ولا مانع بل هو الواقع أن الجنة التى أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الارض ذات اشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور كما قال تعالى (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) أى لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعرى . وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى) أى لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس . ولهذا قرن بين هذا وهذا وبين هذا وهذا لما بينهما من الملاءمة . فلما كان منه ما كان من اكله من الشجرة التى نهى عنها اهبط الى ارض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعى والنكد والابتلاء والاختبار والامتحان واختلاف السكان دينا واخلاقا واعمالا وقصودا وإرادات واقوالا وافعالا كما قال تعالى (ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين) ولا يلزم من هذا أنهم كانوا فى السماء كما قال تعالى (وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الاخرة جئنا بكم لفيفا) ومعلوم انهم كانوا فيها لم يكونوا فى السماء

قالوا وليس هذا القول مفرعا على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ولا تلازم بينهما فكل من حكى عنه هذا القول من السلف واكثر الخلف ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم كما دلت عليه الآيات والاحاديث الصحاح كما سيأتى ايرادها فى موضعها والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب *

وقوله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها) اى عن الجنة (فأخرجهما مما كانا فيه) أى من النعيم والنضرة والسرور الى دار التعب والكد والنكد وذلك بما وسوس لهما وزينه فى صدورهما كما قال تعالى (فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوآتهما .وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) يقول ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين أى ولو اكلتما منها لصرتما كذلك (وقاسمهما) أى حلف لهما على ذلك (انى لكما لمن الناصحين) كما قال فى الآية الأخرى (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) اى هل أدلك على الشجرة التى اذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم واستمررت فى ملك لا يبيد ولا ينقضى وهذا من التغرير والتزوير والاخبار بخلاف الواقع *

والمقصود أن قوله شجرة الخلد التى اذا اكلت منها خلدت وقد تكون هى الشجرة التى قال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا شعبة عن أبى الضحاك سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله (ص) (ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها شجرة الخلد) *

وكذا رواه أيضا عن غندر (وحجاج عن شعبة ورواه أبو داود الطيالسى فى مسنده عن شعبة أيضا به *

قال غندر قلت لشعبة هي شجرة الخلد قال ليس فيها هي *

تفرد به الامام أحمد * وقوله (فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) كما قال في « طه » "أكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهي التي حدته على أكلها والله أعلم *

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري حدثنا بشر بن محمد حدثنا عبد الله أنبأنا معمر عن همام ابن منبه عن أبي هريرة عن النبي (ص) نحوه لولا بنوا اسرائيل لم يخنز (١) اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها . تفرد به من هذا الوجه وأخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة به ورواه أحمد ومسلم عن هارون بن معروف عن أبي وهب عن عمرو بن حارث عن أبي يونس عن أبي هريرة به * وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب أن الذي دل حواء على الاكل من الشجرة هي الحية وكانت من احسن الاشكال وأعظمها فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام وليس فيها ذكر لابليس فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما انهما عريانان فوصلا من ورق التين وعملا ميازر وفيها أنهما كانا عريانين * وكذا قال وهب بن منبه كان لباسهما نورا على فرجه وفرجها

وهذا الذي في هذه التوراة التي بايديهم غلط منهم وتحريف وخطأ في التعريب فان نقل الكلام من لغة الى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ولا سيما من لا يعرف كلام العرب جيدا ولا يحيط علما بفهم كتابه أيضا فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظا ومعنى * وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما) فهذا لا يرد لغيره من الكلام والله تعالى اعلم

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسن بن اسكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال قال رسول الله (ص) (ان الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول مابدا منه عورته فلما نظر الى عورته جعل يشتد في الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن عز وجل يا آدم مني تفر فلما سمع كلام الرحمن قال يارب لا ولكن استحياء * وقال الثوري عن ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) ورق التين * وهذا اسناد صحيح اليه وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب وظاهر الآية يقتضي أعم من ذلك وبتقدير تسليمه فلا يضر والله تعالى أعلم *

وروى الحافظ بن عساكر من طريق محمد بن اسحاق عن الحسن بن ذكوان عن الحسن البصري عن ابي بن كعب قال قال رسول الله (ص) ان اباكم آدم كان كالنخلة السحوق ستين ذراعا كثير الشعر مواري العورة فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سوأته فخرج من الجنة فلقيته شجرة فأخذت ناصيته

(١) قوله لم يخنز أي لم ينتن

فناداه ربه أفرارا منى يا آدم قال بل حياء منك والله يارب مما جئت به * ثم رواه من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن يحيى بن ضمرة عن أبى بن كعب عن النبى (ص) بنحوه . وهذا أصح فان الحسن لم يدرك أبيا * ثم أورده أيضا من طريق خيثمة بن سليمان الاطرابلسى عن محمد بن عبد الوهاب أبى قرصافة العسقلانى عن آدم بن أبى اياس عن شيبان عن قتادة عن أنس مرفوعا بنحوه * (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وهذا اعتراف ورجوع الى الانابة وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار اليه تعالى فى الساعة الراهنة وهذا السر ما سرى فى أحد من ذريته الا كانت عاقبته الى خير فى دنياه وأخراه (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين) وهذا خطاب لآدم وحواء وابليس قيل والحية معهم أمروا أن يهبطوا من الجنة فى حال كونهم متعادين متحاربين * وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت فى الحديث عن رسول الله (ص) أنه أمر بقتل الحيات وقال ما سالمناهن منذ حاربناهن وقوله فى سورة طه (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) هو أمر لآدم وابليس واستتبع آدم حواء وابليس الحية * وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كما فى قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) والصحيح ان هذا لما كان الحاكم لا يحكم الا بين اثنين مدع ومدعى عليه قال وكنا لحكمهم شاهدين وأما تكريره الاهباط فى سورة البقرة فى قوله وقلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فقال بعض المفسرين المراد بالاهباط الاول الهبوط من الجنة الى السماء الدنيا وبالثانى من السماء الدنيا الى الارض . وهذا ضعيف لقوله فى الاول (قلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين) فدل على أنهم أهبطوا الى الارض بالاهباط الاول والله أعلم *

والصحيح أنه كرره لفظا وان كان واحدا وناط مع كل مرة حكما فناط بالاول عداوتهم فيما بينهم وبالثانى الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذى ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقى وهذا الاسلوب فى الكلام له نظائر فى القرآن الحكيم .

وروى الحافظ بن عساكر عن مجاهد قال أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الاكليل عن جبينه وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول العفو العفو فقال الله فرارا منى قال بل حياء منك يا سيدى وقال الاوزاعى

عن حسان هو بن عطية مكث آدم فى الجنة مائة عام وفى رواية ستين عاما وبكى على الجنة سبعين عاما وعلى خطيئته سبعين عاما وعلى ولده حين قتل أربعين عاما * رواه بن عساكر *

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن ابى شيبة حدثنا جرير عن سعيد عن ابن عباس قال أهبط آدم عليه السلام الى ارض يقال له دحنا بين مكة والطائف * وعن الحسن قال اهبط آدم بالهند وحواء بجدة وابليس بدستميسان من البصرة على أميال واهبطت الحية باصبهان رواه ابن أبى حاتم أيضا * وقال السدى نزل آدم بالهند ونزل معه بالحجر الاسود وبقبضة من ورق الجنة فبثه فى الهند فنبتت شجرة الطيب هناك * وعن ابن عمر قال اهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة. رواه ابن أبى حاتم أيضا وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرنى عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى الأشعرى قال ان الله حين أهبط آدم من الجنة الى الارض علمه صنعة كل شئ وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير ان هذه تتغير وتلك لا تتغير * وقال الحاكم فى مستدركه أنبأنا أبو بكر بن بالوية عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمر عن زائدة عن عمار بن أبى معاوية البجلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما اسكن آدم الجنة الا مابين صلاة العصر الى غروب الشمس . ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه *

وفى صحيح مسلم من حديث الزهرى عن الاعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه اخرج منها) وفى الصحيح من وجه آخر وفيه تقوم الساعة) وقال احمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الاوزاعى عن أبى عمار عن عبد الله بن فروخ عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه اخرج منها وفيه تقوم الساعة على شرط مسلم *

فاما الحديث الذى رواه ابن عساكر من طريق أبى القاسم البغوى حدثنا محمد بن جعفر الوركانى حدثنا سعيد بن ميسرة عن أنس قال قال رسول الله (ص) (هبط آدم وحواء عريانين جميعا عليهما ورق الجنة فأصابه الحر حتى قعد يبكى ويقول لها ياحواء قد أذانى الحر قال فجاءه جبريل بقطن وأمرها أن تغزل وعلمها وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج وقال كان آدم لم يجامع امرأته فى الجنة حتى هبط منها للخطيئة التى أصابتهما باكلهما من الشجرة قال وكان كل واحد منهما ينام على حدة ينام احدهما فى البطحاء والآخر من ناحية أخرى حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتى أهله قال وعلمه كيف يأتيها فلما أتاها جاءه جبريل فقال كيف وجدت امرأتك قال صالحة) فانه حديث غريب ورفعه منكر جدا * وقد يكون من كلام بعض السلف وسعيد بن ميسرة هذا هو أبو عمران البكرى البصرى. قال فيه البخارى منكر الحديث. وقال بن حبان يروى الموضوعات وقال بن عدى مظلم الامر وقوله (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) قيل هى قوله (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) * روى

هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم *

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال قال رسول الله «ص» (قال آدم عليه السلام أرأيت يارب ان تبت ورجعت أعائدي الى الجنة قال نعم) فذلك قوله. (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع *

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال الكلمات (اللهم لا إله الا أنت سبحانك وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الغافرين . اللهم لا إله الا أنت سبحانك وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الراحمين اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فتب على انك انت التواب الرحيم)* وروى الحاكم في مستدركه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) قال قال آدم يارب ألم تخلقني بيدك . قيل له بلى . ونفخت فيّ من روحك قيل له بلى وعطستُ فقلتَ يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك قيل له بلى وكتبت عليّ أن أعمل هذا. قيل له بلى . قال أفرأيت ان تبت هل أنت راجعي الى الجنة. قال نعم * ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه * وروى الحاكم أيضا والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله «ص» (لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك بحق محمد أن غفرت لي فقال الله فكيف عرفت محمدا ولم أخلقه بعد فقال يارب لانك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله الا الله محمد رسول الله فعلمت انك لم تضف الى اسمك الا أحب الخلق اليك فقال الله صدقت ياآدم إنه لأحب الخلق اليّ واذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك * قال البيهقي تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه وهو ضعيف والله أعلم

وهذه الآية كقوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى .

ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى)

احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخاري حدثنا قتيبة حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي «ص» قال حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم . قال آدم يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر قد

كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى أو قدره علىّ قبل أن يخلقنى قال رسول الله (ص) فحج آدم موسى * وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد والنسائى عن محمد بن عبد الله بن يزيد عن أيوب بن النجار به * قال أبو مسعود الدمشقى ولم يخرجاه عنه فى الصحيحين سواه * وقد رواه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة * ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به *

وقال الامام أحمد حدثنا أبو كامل حدثنا ابراهيم حدثنا أبو شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) (احتج آدم وموسى فقال له موسى أنت آدم الذى اخرجتك خطيئتك من الجنة فقال له آدم وأنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومنى على أمر قدّر على قبل ان أخلق * قال رسول (ص) (فحج آدم موسى فحج آدم موسى) مرتين * قلت وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى (ص) نحوه

وقال الامام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى (ص) (قال احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم انت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة قل قال آدم وأنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه تلومنى على عمل أعمله كتبه الله علىّ قبل أن يخلق السموات والارض قال فحج آدم موسى * وقد رواه الترمذى والنسائى جميعا عن يحيى بن حبيب بن عدى عن معمر بن سليمان عن أبيه عن الاعمش به * قال الترمذىّ وهو غريب من حديث سليمان التيمى عن الاعمش قال وقد رواه بعضهم عن الاعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قلت هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده عن محمد بن مثنى عن معاذ بن أسد عن الفضل بن موسى عن الاعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد . ورواه البزار أيضا حدثنا عمرو بن على الفلاس حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة أو أبى سعيد عن النبى (ص) فذكر نحوه ، وقال أحمد حدثنا سفيان عن عمرو سمع طاووسا سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله (ص) (احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت ابونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم ياموسى أنت الذى اصطفاك الله بكلامه وقال مرة برسالته وخط لك بيده أتلومنى على أمر قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى باربعين سنة قال حج آدم موسى حج آدم موسى حج آدم موسى) وهكذا رواه البخارى عن على بن المدينى حدثنا عن سفيان قال حفظناه من عمرو عن طاووس قال سمعت أبا هريرة عن النبى (ص) قال (احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم ياموسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومنى على أمر قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى باربعين سنة فحج آدم موسى فحج آدم موسى هكذا ثلاثا .

قال سفيان حدثنا أبو الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة عن النبى (ص) مثله * وقد رواه الجماعة

إلا ابن ماجه من عشر طرق عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي (ص) بنحوه * وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد عن عمار عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال لقي آدم موسى فقال أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك الجنة ثم فعلت . فقال أنت موسى الذي كلمك الله واصطفاك برسالته وأنزل عليك التوراة أنا أقدم أم الذكر قال لا بل الذكر فحج آدم موسى *

قال أحمد وحدثنا عفان حدثنا حماد عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة عن النبي (ص) وحميد عن الحسن عن رجل قال حماد أظنه جندب بن عبد الله البجلي عن النبي (ص) قال لقي آدم موسى فذكر معناه . تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال أحمد حدثنا الحسن حدثنا جرير هو ابن حازم عن محمد هو ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) (لقي آدم موسى فقال انت آدم الذي خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته ثم صنعت ما صنعت * قال آدم يا موسى انت الذي كلمه الله وأنزل عليه التوراة * قال نعم * قال فهل تجده مكتوبا عليّ قبل ان أخلق * قال نعم * قال (فحج آدم موسى فحج آدم موسى) وكذا رواه حماد بن زيد عن أيوب وهشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضه

وكذا رواه علي بن عاصم عن خالد وهشام عن محمد بن سيرين * وهذا على شرطهما من هذه الوجوه * وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني أنس بن عياض عن الحارث بن ابي ذُباب عن يزيد بن هرمز سمعت أبا هريرة يقول . قال رسول الله (ص) (احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى . قال موسى أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس الى الارض بخطيئتك * قال آدم انت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شئ وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة * قال موسى باربعين عاما * قال آدم فهل وجدت فيها « وعصى آدم ربه فغوى » قال نعم * قال أفتلومني على أن عملت عملا كتب الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني باربعين سنة . قال . قال رسول الله (ص) « فحج آدم موسى »

قال الحارث وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة عن رسول الله (ص) وقد رواه مسلم عن اسحق بن موسى الانصاري عن أنس بن عياض عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن يزيد بن هرمز والاعرج كلاهما عن أبي هريرة عن النبي (ص) بنحوه ، وقال أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) « احتج آدم وموسى فقال موسى لآدم يا آدم أنت الذي أدخلت ذريتك النار . فقال آدم يا موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة فهل وجدت أن أهبط . قال نعم . قال فحجه آدم » وهذا على شرطهما ولم يخرجاه

من هذا الوجه * وفى قوله أدخلت ذريتك النار نكارة *

فهذه طرق هذا الحديث عن أبى هريرة رواه عنه حميد بن عبد الرحمن وذكوان ابو صالح السمان وطاووس ابن كيسان وعبد الرحمن بن هرمز الاعرج وعمار بن أبى عمار ومحمد بن سيرين وهمام بن منبه ويزيد بن هرمز وابو سلمة بن عبد الرحمن *

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال حدثنا الحارث بن مسكين المصرى حدثنا عبد الله بن وهب اخبرنى هشام بن سعد عن زيد ابن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب عن النبى (ص) قال (قال موسى عليه السلام يارب أرنا آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة فأراه آدم عليه السلام * فقال أنت آدم * فقال له آدم نعم قال انت الذى نفخ الله فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك الاسماء كلها * قال نعم * قال فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال له آدم من أنت قال أنا موسى * قال أنت موسى نبىّ بنى اسرائيل أنت الذى كلمك الله من وراء الحجاب فلم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه * قال نعم * قال تلومنى على أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبلى قال رسول الله (ص) (فحج آدم موسى فحج آدم موسى) ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصرى عن ابن وهب به . قال أبو يعلى ، وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعى حدثنا عمران عن الردينى عن أبى مجلز عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر قال أبو محمد اكبر ظنى أنه رفعه * قال (التقى آدم وموسى فقال موسى لآدم أنت أبو البشر أسكنك الله جنته وأسجد لك ملائكته . قال آدم . يا موسى أما تجده على مكتوبا * قال فحج آدم موسى فحج آدم موسى) وهذا الاسناد أيضا لا بأس به والله أعلم *

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الاعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد * ورواية الامام أحمد له عن عفان عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن رجل * قال حماد أظنه جندب بن عبد الله البجلى عن النبى (ص) (لقى آدم موسى) فذكر معناه *

وقد اختلفت مسالك الناس فى هذا الحديث فرده قوم من القدرية لما تضمن من اثبات القدر السابق * واحتج به قوم من الجبرية وهو ظاهر لهم بادئ الرأى حيث قال فحج آدم موسى لما احتج عليه بتقديم كتابه وسيأتى الجواب عن هذا ، وقال آخرون انما حجه لانه لامه على ذنب قد تاب منه والتائب من الذنب كمن لا ذنب له * وقيل انما حجه لانه أكبر منه واقدم * وقيل لانه أبوه * وقيل لانهما فى شريعتين متغايرتين * وقيل لانهما فى دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه *

والتحقيق ان هذا الحديث روى بألفاظ كثيرة بعضها مروى بالمعنى . وفيه نظر . ومدار معظمها فى الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم انا لم أخرجكم وانما

أخرجكم الذي رتب الاخراج على أكلي من الشجرة والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق هو الله عز وجل فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة الى أكثر ما أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها وكون الاخراج مترتبا على ذلك ليس من فعلي فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة وانما كان هذا من قدرة الله وصنعه وله الحكمة في ذلك فلهذا حج آدم موسى *

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند لانه متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه وناهيك به عدالة وحفظا واتقانا * ثم هو مروي عن غيره من الصحابة كما ذكرنا . ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفا فهو بعيد من اللفظ والمعنى . وما فيهم من هو اقوى مسلكا من الجبرية . وفيما قالوه نظر من وجوه * (أحدها) أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله (الثاني) انه قد قتل نفسا لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله في ذلك بقوله « رب اني ظلمت نفسي فاغفرلي فغفر له » الآية (الثالث) انه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد لا نفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الامر الذي ارتكبه في الامور الكبار والصغار وهذا يفضي الى لوازم فظيعة . فلهذا قال من قال من العلماء بأن جواب آدم انما كان احتجاجا بالقدر على المصيبة لا المعصية والله تعالى أعلم .

الأحاديث الواردة في خلق آدم

قال الامام أحمد حدثنا يحيي ومحمد بن جعفر حدثنا عوف حدثني قسامة بن زهير عن أبي موسى عن النبي (ص) قال (ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض فجاء منهم الابيض والاحمر والاسود وبين ذلك . والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك

ورواه أيضا عن هوذة عن عوف عن قسامة بن زهير سمعت الأشعري قال قال رسول الله (ص) (ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض فجاء منهم الابيض والاحمر والاسود وبين ذلك . والسهل والحزن وبين ذلك . والخبيث والطيب وبين ذلك) . وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث عوف بن أبي جميلة الاعرابي عن قسامة بن زهير المازني البصري عن ابي موسى عبد الله بن قيس الاشعري عن النبي (ص) بنحوه . وقال الترمذي حسن صحيح *

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله (ص) قالوا (فبعث الله عز وجل جبريل في الارض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض أعوذ بالله منك ان تنقص مني أو تشينني فرجع ولم يأخذ وقال رب انها عاذت بك فأعذتها

فبعث ميكائيل فعاذت منه فاعاذها فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الارض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبلّ التراب حتى عاد طينا لازبا) واللازب هو الذي يلزق بعضه ببعض * ثم قال للملائكة (إني خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فخلقه الله بيده لئلا يتكبر ابليس عنه فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول (من صلصال كالفخار) ويقول لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فان ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله رحمك ربك فلما دخلت الروح في عينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح الى رجليه عجلان الى ثمار الجنة وذلك حين يقول الله تعالى « خلق الانسان من عجل » (فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين) وذكر تمام القصة ولبعض هذا السياق شاهد من الاحاديث وان كان كثير منه متلقى من الاسرائيليات فقال الامام احمد حدثنا عبدالصمد حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن النبي (ص) قال (لما خلق الله آدم تركه ماشاء أن يدعه فجعل إبليس يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك) وقال ابن حبان في صحيحه حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا هدبة ابن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله (ص) قال (لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى يرحمك الله) *

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يحيى بن محمد بن السكن حدثنا حبان بن هلال حدثنا مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن حبيب عن حفص هو ابن عاصم بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب عن أبي هريرة رفعه قال (لما خلق الله آدم عطس فقال الحمد لله فقال له ربه رحمك ربك يا آدم) وهذا الاسناد لا بأس به ولم يخرجوه . وقال عمر بن عبدالعزيز « لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم اسرافيل فآتاه الله أن كتب القرآن في جبهته » رواه ابن عساكر وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا عمرو بن محمد عن اسمعيل بن رافع عن المقبري عن ابي هريرة أن رسول الله (ص) قال « ان الله خلق آدم من تراب ثم جعله طينا ثم تركه حتى اذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره ثم تركه حتى اذا كان صلصالا كالفخار قال فكان ابليس يمر به فيقول لقد خلقت لأمر عظيم . ثم نفخ الله فيه من روحه

فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه الله رحمة ربه فقال الله يرحمك ربك ثم قال الله يا آدم اذهب الى هؤلاء النفر فقل لهم (١) فانظر ماذا يقولون فجاء فسلم عليهم فقالوا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقال يا آدم هذا تحيتك وتحية ذريتك. قال يارب وما ذريتى قال اختر يدى يا آدم قال اختار يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين وبسط كفه فاذا من هو كائن من ذريته فى كف الرحمن فاذا رجال منهم أفواههم النور فاذا رجل يعجب آدم نوره قال يارب من هذا قال ابنك داود قال يارب فكم جعلت له من العمر قال جعلت له ستين قال يارب فأتم له من عمرى حتى يكون له من العمر مائة سنة ففعل الله ذلك وأشهد على ذلك فلما نفد عمر آدم بعث الله ملك الموت فقال آدم أو لم يبق من عمرى أربعون سنة قال له الملك أولم تعطها ابنك داود فجحد ذلك فجحدت ذريته ونسى فنسيت ذريته * وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذى والنسائى فى اليوم والليلة من حديث صفوان بن عيسى عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى (ص) .

وقال الترمذى حديث حسن غريب من هذا الوجه . وقال النسائى هذا حديث منكر وقد رواه محمد ابن عجلان (٢) عن سعيد المقبرى عن ابيه عن عبد الله بن سلام * وقال الترمذى حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أى رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال أى رب من هذا قال هذا رجل من آخر الامم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود . قال فجحد فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته وخطىء آدم فخطئت ذريته) ثم قال الترمذى حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى (ص) ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وروى ابن أبى حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة مرفوعا فذكره وفيه (ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك واذا فيهم الأجذم والابرص والأعمى وأنواع الاسقام فقال آدم يارب لم فعلت هذا بذريتى قال كى تشكر نعمتى) . ثم ذكر قصة داود . وسيأتى من رواية ابن عباس أيضا * وقال الامام أحمد فى مسنده حدثنا الهيثم ابن خارجة حدثنا أبو الربيع عن يونس

(١) قوله فقل لهم كذا بالأصول ساقطا منه المقول وهو السلام عليكم أو نحوه (٢) قوله عن سعيد المقبرى الخ صوابه عن أبيه عن أبى سعيد المقبرى عن عبد الله بن سلام اهمن (محمود الامام)

ابن ميسرة عن أبي إدريس عن أبي الدرداء عن النبي (ص) قال (خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم . فقال للذي في يمينه . الى الجنة ولا أبالي . وقال للذي في كتفه اليسرى الى النار ولا أبالي *

وقال ابن ابي الدنيا حدثنا خلف بن هشام حدثنا الحكم بن سنان عن حوشب عن الحسن قال « خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى فألقوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلى * فقال آدم يارب الاسويت بين ولدي * قال يا آدم انى أردت ان أشكر » وهكذا روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن بنحوه * وقد رواه ابو حاتم وابن حبان في صحيحه قال حدثنا محمد بن اسحاق بن خزيمة حدثنا محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله باذن الله فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم اذهب الى أولئك الملائكة الى ملأ منهم جلوس فسلم عليهم فقال السلام عليكم قالوا وعليك السلام ورحمة الله . ثم رجع الى ربه فقال هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم وقال الله ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت فقال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فاذا فيها آدم وذريته فقال اى رب ما هؤلاء قال هؤلاء ذريتك واذا كل انسان منهم مكتوب عمره بين عينيه واذا فيهم رجل أضوؤهم » أو « من أضوئهم لم يكتب له الا أربعون سنة قال يارب ما هذا . قال هذا ابنك داود وقد كتب الله عمره أربعين سنة * قال أي رب زد في عمره فقال ذاك الذي كتب له قال فانى قد جعلت له من عمري ستين سنة قال انت وذاك * اسكن الجنة . فسكن الجنة ماشاء الله ثم هبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته فيومئذ أمر بالكتاب والشهود » هذا لفظه .

وقد قال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا . ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة واستمع ما يجيبونك فانها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن ». وهكذا رواه البخاري في كتاب الاستئذان عن يحيى بن جعفر ومسلم عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به ، وقال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال كان طول آدم ستين ذراعا في سبع أذرع عرضا . انفرد به احمد.

وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال لما نزلت آية الدين قال رسول الله (ص) « إن أول من جحد آدم إن أول من جحد آدم إن أول من جحد آدم ان الله لما خلق آدم ومسح ظهره فأخرج منه ماهو ذارى الى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلا يزهر قال أى رب من هذا قال هذا ابنك داود قال أى رب كم عمره قال ستون عاما قال أى رب زد فى عمره قال لا الا أن ازيده من عمرك وكان عمر آدم الف عام فزاده أربعين عاما . فكتب الله عليه بذلك كتابا وأشهد عليه الملائكة فلما احتضر آدم اتته الملائكة لقبضه قال إنه قد بقى من عمرى أربعون عاما . فقيل له إنك قد وهبتها لابنك داود . قال مافعلت وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة » وقال احمد حدثنا اسود بن عامر حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) « (إن أول من جحد آدم قالها ثلاث مرات ان الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه فرأى فيهم رجلا يزهر فقال أى رب زد فى عمره قال لا الا ان تزيده أنت من عمرك فزاده أربعين سنة من عمره . فكتب الله تعالى عليه كتابا وأشهد عليه الملائكة فلما أراد أن يقبض روحه قال إنه بقى من أجلى أربعون سنة فقيل له إنك قد جعلتها لابنك داود قال فجحد قال فأخرج الله الكتاب وأقام عليه البينة فأتمها لداود مائة سنة وأتم لآدم عمره الف سنة * تفرد به أحمد وعلى بن زيد فى حديثه نكارة * ورواه الطبرانى عن على بن عبد العزيز عن حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس وغير واحد عن الحسن قال (لما نزلت آية الدين قال رسول الله (ص) إن أول من جحد آدم ثلاثا) وذكره * وقال الامام مالك بن أنس فى موطئه عن زيد بن أبى أنيسة ان عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب اخبره عن مسلم بن يسار الجهنى ان عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى) الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله (ص) يسأل عنها فقال (ان الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل قال رسول الله (ص) اذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة واذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار)

وهكذا رواه الامام احمد وابو داود والترمذي والنسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو حاتم بن حبان فى صحيحه من طرق عن الامام مالك به * وقال الترمذى هذا حديث حسن * ومسلم بن يسار

لم يسمع عمر * وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة * وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جُثم عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث * قال الحافظ الدارقطني وقد تابع عمر بن جُثم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة قال وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله *

وهذه الاحاديث كلها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم قسمين أهل اليمين وأهل الشمال وقال هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي . فأما الاشهاد عليهم واستنطاقهم بالاقرار بالوحدانية فلم يجيء في الأحاديث الثابتة . وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك . وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها . فمن أراد تحريره فليراجعه ثم والله أعلم *

فأما الحديث الذي رواه أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير يعني ابن حازم عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي (ص) (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه . ثم كلمهم قبلا قال (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غفلين أو تقولوا) الى قوله (المبطلون) فهو باسناد جيد قوي على شرط مسلم * رواه النسائي وابن جرير والحاكم في مستدركه من حديث حسين ابن محمد المروزي به . وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه الا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر فروي عنه مرفوعا وموقوفا . وكذا روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفا . وهكذا رواه العوفي والوالبي والضحاك وأبو جمرة عن ابن عباس قوله * وهذا أكثر وأثبت والله أعلم *

وهكذا روي عن عبد الله بن عمر موقوفا ومرفوعا والموقوف أصح * واستأنس القائلون بهذا القول وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور بما قال الامام أحمد حدثنا حجاج حدثني شعبة عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك عن النبي (ص) قال (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به قال فيقول نعم . فيقول قد أردت منك ما هو أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت الا أن تشرك بي) أخرجاه من حديث شعبة به

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية والتي بعدها قال فجمعهم له يومئذ جميعا ما هو كائن منه الى يوم القيامة فخلقهم ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهد عليهم أنفسهم (ألست بربكم قالوا بلى) الآية قال فاني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد

عليكم أباكم آدم أن لاتقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا. اعلموا أنه لا إله غيري ولارب غيري ولا تشركوا بي شيئاً وإني سأرسل اليكم رسلا ينذرونكم عهدي وميثاق وأنزل عليكم كتابي ـ قالوا نشهد أنك ربنا والهنا لارب لنا غيرك ولا اله لنا غيرك فاقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر اليهم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك * فقال يارب لو سويت بين عبادك فقال إني أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الانبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخرمن الرسالة والنبوة فهو الذى يقول الله تعالى (واذ أخذنامن النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وهو الذى يقول (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وفى ذلك قال (هذا نذير من النذر الاولى) وفى ذلك قال(وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) رواه الأئمة عبد الله بن أحمد وابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه فى تفاسيرهم من طريق أبى جعفر *وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والسدى وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم امتثلوا كلهم الأمر الالهى وامتنع ابليس من السجود له حسدا وعداوة له فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الالهية ونفاه عنها وأهبطه الى الأرض طريدا ملعونا شيطانا رجيما *

وقد قال الامام أحمد حدثنا وكيع . ويعلى ومحمد ابنا عبيد قالوا حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) (إذا) قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول ياويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار . ورواه مسلم من حديث وكيع وأبى معاوية عن الأعمش به . ثم لما أسكن آدم الجنة التى أسكنها سواء كانت فى السماء أو فى الأرض على ماتقدم من الخلاف فيه أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام يأكلان منها رغدا حيث شاآ فلما أكلا من الشجرة التى نهيا عنها سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا الى الأرض * وقد ذكرنا الاختلاف فى مواضع هبوطه منها * واختلفوا فى مقدار مقامه فى الجنة فقيل بعض يوم من أيام الدنيا وقد قدمنا مارواه مسلم عن أبى هريرة مرفوعا وخلق آدم فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وتقدم أيضا حديثه عنه وفيه (يعنى) يوم الجمعة خلق آدم وفيه أخرج منها فان كان اليوم الذى خلق فيه فيه أخرج وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام فقد لبث بعض يوم من هذه. وفى هذا نظر وإن كان إخراجه فى غير اليوم الذى خلق فيه أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره ابن جرير فقد لبث هناك مدة طويلة . قال ابن جرير ومعلوم أنه خلق فى آخر ساعة من يوم الجمعة والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر فمكث مصورا طينا قبل أن ينفخ فيه

الروح أربعين سنة وأقام فى الجنة قبل أن يهبط ثلاثا وأربعين سنة وأربعة أشهر والله تعالى أعلم * وقد روى عبد الرزاق عن هشام بن حسان عن سوار خبر عطاء بن أبى رباح أنه كان لما أهبط رجلاه فى الارض ورأسه فى السماء فحطه الله الى ستين ذراعا * وقد روى عن ابن عباس نحوه . وفى هذا نظر لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن * وهذا يقتضى أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعا وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن *

وذكر ابن جرير عن ابن عباس إن الله قال يا آدم إن لى حرما بحيال عرشى فانطلق فابن لى فيه بيتا فطف به كما تطوف ملائكتى بعرشى وأرسل الله له ملكا فعرفه مكانه وعلمه المناسك . وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك *

وعنه أن أول طعام أكله آدم فى الأرض أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة فقال ما هذا قال هذا من الشجرة التى نهيت عنها فأكلت منها فقال وما أصنع بهذا قال ابذره فى الأرض فبذره وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف فنبتت فحصده ثم درسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد وذلك قوله تعالى (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) *

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن جزاه ثم غزلاه فنسج آدم له جبة ولحواء درعا وخمارا *

واختلفوا هل ولد لهما بالجنة شئ من الأولاد فقيل لم يولد لهما الا فى الأرض * وقيل بل ولد لهما فيها فكان قابيل وأخته ممن ولد بها والله أعلم *

وذكروا أنه كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التى ولدت معه والآخر بالأخرى وهلم جرا ولم يكن تحل أخت لأخيها الذى ولدت معه

قصة قابيل وهابيل

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك إنى أخاف الله رب العالمين * إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين) * قد تكلمنا على هذه القصة فى سورة المائدة فى التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد *

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف فى ذلك * فذكر السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن

ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن فأراد هابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى فأمرهما أن يقربا قربانا وذهب آدم ليحج الى مكة واستحفظ السموات على بنيه فأبين والأرضين والجبال فأبين فتقبل قابيل بحفظ ذلك . فلما ذهب قربا قربانهما فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم وقرب قابيل حزمة من زرع من ردئ زرعه فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال إنما يتقبل الله من المتقين * وروى عن ابن عباس من وجوه أخر وعن عبد الله بن عمرو وقال عبد الله بن عمرو وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط اليه يده *

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشرا لتقربهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل فقال قابيل لآدم إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي وتوعد أخاه فيما بينه وبينه . فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به فلما ذهب إذا هو به فقال له تقبل منك ولم يتقبل مني فقال إنما يتقبل الله من المتقين . فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله * وقيل إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته * وقيل بل خنقه خنقا شديدا وعضا كما تفعل السباع فمات والله أعلم *

وقوله له لما توعده بالقتل (لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) دل على خلق حسن وخوف من الله تعالى وخشية منه وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله (ص) أنه قال (إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه) وقوله (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى إذ قد عزمت على ماعزمت عليه أن تبوء بإثمي وإثمك أي تتحمل إثم قتلي مع مالك من الآثام المتقدمة قبل ذلك قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله الى القاتل كما قد توهمه بعض قال فان ابن جرير حكى الاجماع على خلاف ذلك *

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي (ص) أنه قال ماترك القاتل على المقتول من ذنب فلا أصل له ولا يعرف في شئ من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضا ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول الى القاتل كما ثبت به الحديث الصحيح في سائر المظالم والقتل

من أعظمها والله أعلم . وقد حررنا هذا كله فى التفسير ولله الحمد *

وقد روى الامام احمد وأبو داود والترمذى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال عند فتنة عثمان ابن عفان أشهد أن رسول الله (ص) قال (انها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشى والماشى خير من الساعى) قال أفرأيت ان دخل على بيتى فبسط يده الى ليقتلنى قال كن كابن آدم . ورواه بن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعا وقال كن كخير ابنى آدم . وروى مسلم وأهل السنن الا النسائى عن أبى ذر نحو هذا

وأما الآخر فقد قال الامام احمد حدثنا ابو معاوية ووكيع قالا حدثنا الاعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن ابن مسعود قال قال رسول الله (ص) (لاتقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل * ورواه الجماعة سوى أبى داود من حديث الأعمش به وهكذا روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابراهيم النخعى انهما قالا مثل هذا سواء * وبجبل قاسيون شمالى دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب فالله أعلم بصحة ذلك * وقد ذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة احمد بن كثير وقال إنه كان من الصالحين أنه رأى النبى (ص) وأبا بكر وعمر وهابيل وأنه استحلف هابيل ان هذا دمه فحلف له وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابه الى ذلك وصدقه فى ذلك رسول الله (ص) وقال إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان فى كل يوم خميس * وهذا منام لو صح عن احمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعى والله أعلم *

وقوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوأة اخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فاصبح من النادمين) ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة وقال آخرون حمله مائة سنة ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين * قال السدى باسناده عن الصحابة اخوين فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر فلما قتله عمد الى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه فلما رآه يصنع ذلك قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ففعل مثل مافعل الغراب فواراه ودفنه *

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزنا شديدا وأنه قال فى ذلك شعرا وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد

تغيرتِ البلادُ ومَن عليها ... فوجه الارضِ مغبرٌّ قبيحُ
تغيّرَ كلُّ ذي لونٍ وطعم ... وقلَّ بشاشةُ الوجهِ المليح

(فأجيب آدم)

أبا هابيلٌ قد قُتلا جميعاً | وصارَ الحيّ كالميْت الذبيح
وجاء بشرة قد كان منها | على خوفٍ فجاءبها يصيح

وهذا الشعر فيه نظر وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزن به بلغته فألفه بعض الى هذا وفيه أقوال والله أعلم * وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه الى فخذه وجعل وجهه الى الشمس كيفما دارت تنكيلا به وتعجيلا لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه * وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم) *

والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة أن الله عز وجل أجله وأنظره وأنه سكن في أرض نود في شرقي عدن وهم يسمونه قنين وأنه ولد له خنوخ ولخنوخ عندر ولعندر محوايل ولمحوايل متوشيل ولمتوشيل لامك وتزوج هذا امرأتين عدا وصلا فولدت عدا ولدا اسمه ابل وهو أول من سكن القباب واقتنى المال وولدت أيضا نوبل وهو أول من أخذ في ضرب الونج والصنج وولدت صلا ولدا اسمه توبلقين وهو أول من صنع النحاس والحديد وبنتا اسمها نعمى وفيها أيضا ان آدم طاف على امرأته فولدت غلاما ودعت اسمه شيث وقالت من أجل انه قد وهب لي خلفا من هابيل الذي قتله قابيل وولد لشيث أنوش قالوا وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مئة وثلاثين سنة وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مئة وخمسا وستين وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين . وولد له بنون وبنات غير أنوش فولد لانوش قينان وله من العمر تسعون سنة وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة وولد له بنون وبنات فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وأربعين سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له يرد وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنون وبنات فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له خنوخ وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له متوشلح وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لمتوشلح مائة وسبع وثمانون سنة ولد له لامك وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنتين وثمانين سنة وولد له بنون وبنات فلما كان للامك من العمر مئة واثنتان وثمانون سنة ولد له نوح وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمسا وتسعين سنة . وولد له بنون وبنات فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون سام وحام ويافث هذا مضمون ما في كتابهم صريحا *

وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين

عليهم فى ذلك والظاهر انها مقحمة فيها . ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير . وفيها غلط كثير كما سنذكره فى مواضعه ان شاء الله تعالى * وقد ذكر الامام أبو جعفر بن جرير فى تاريخه عن بعضهم أن حواء ولدت لآدم أربعين ولدا فى عشرين بطنا قاله ابن اسحق وسماهم والله تعالى أعلم . وقيل مائة وعشرين بطنا فى كل واحد ذكر وأنثى . أولهم قابيل وأخته قليما . وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث * ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وامتدوا فى الارض ونموا كما قال الله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) الاية

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة والله أعلم * وقال تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) الآيات فهذا تنبيه أولا بذكر آدم ثم استطرد الى الجنس وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء بل لما جرى ذكر الشخص استطرد الى الجنس كما فى قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) وقال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هى أعيان مصابيح السماء وانما استطرد من شخصها الى جنسها * فأما الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى (ص) قال (لما ولدت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره *

وهكذا رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفاسيرهم عند هذه الاية وأخرجه الحاكم فى مستدركه كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به * وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه * وقال الترمذى حسن غريب لانعرفه الا من حديث عمر بن ابراهيم ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه فهذه علة قادحة فى الحديث انه روى موقوفا على الصحابى وهذا أشبه والظاهر أنه تلقاه من الاسرائيليات * وهكذا روى موقوفا على ابن عباس . والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الاحبار ودونه والله أعلم * وقد فسر الحسن البصرى هذه الآيات بخلاف هذا . فلو كان عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه الى غيره والله أعلم . وأيضا فالله تعالى انما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالا كثيرا ونساء فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر فى هذا الحديث إن كان محفوظا . والمظنون بل المقطوع به ان رفعه الى النبى (ص) خطأ والصواب وقفه والله اعلم * وقد حررنا هذا فى كتابنا التفسير ولله الحمد .

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما فى هذا . فان آدم أبو البشر الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء وأسكنه جنته * وقد روى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر قال قلت يارسول الله كم الانبياء قال مائة الف وأربعة وعشرون الفا . قلت يارسول الله كم الرسل منهم قال ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير . قلت يارسول الله من كان أولهم . قال آدم . قلت يارسول الله نبى مرسل قال نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا . وقال الطبرانى حدثنا ابراهيم بن نائلة الاصبهانى حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا نافع بن هرمز عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) ألا اخبركم بافضل الملائكة جبريل وأفضل النبيين آدم وأفضل الايام يوم الجمعة وأفضل الشهور شهر رمضان وأفضل الليالى ليلة القدر وأفضل النساء مريم بنت عمران * وهذا إسناد ضعيف فان نافعا أبا هرمز كذبه ابن معين وضعفه أحمد وأبوزرعة وابو حاتم وابن حبان وغيرهم والله أعلم *

وقال كعب الاحبار ليس أحد فى الجنة له لحية الا آدم . لحيته سوداء الى سرته . وليس أحد يكنى فى الجنة الا آدم كنيته فى الدنيا أبو البشر وفى الجنة أبو محمد * وقد روى ابن عدى من طريق سبيح(١) ابن أبى خالد عن حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله مرفوعا أهل الجنة يدعون بأسمائهم الا آدم فانه يكنى أبا محمد * ورواه ابن عدى أيضا من حديث على بن أبى طالب وهو ضعيف من كل وجه والله أعلم *

وفى حديث الاسراء الذى فى الصحيحين أن رسول الله (ص) لما مر بآدم وهو فى السماء الدنيا قال له مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح قال واذا عن يمينه أسودة وعن يساره اسودة . فاذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر عن شماله بكى . فقلت ياجبريل ماهذا قال هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه * فاذا نظر قبل أهل اليمين وهم أهل الجنة ضحك وإذا نظر قبل أهل الشمال وهم أهل النار بكى هذا معنى الحديث * وقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده *

وقال بعض العلماء فى قوله (ص) فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن * قالوا معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام * وهذا مناسب. فان الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه فما كان ليخلق إلا أحسن الأشباه * وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمرو أيضا موقوفا ومرفوعا إن الله تعالى لما خلق الجنة قالت الملائكة ياربنا اجعل لنا هذه فانك خلقت لبنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون . فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لاأجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان . وقد ورد الحديث المروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق أن رسول الله

(١) قوله سبيح بن أبى خالد كذا بالأصل ولا نعرف من الرجال من سمى بهذا الاسم «محمود الامام»

(ص) قال إن الله (خلق آدم على صورته) وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها والله أعلم *

وفاة آدم ووصيته الى ابنه شيث

ومعنى شيث هبة الله وسمياه بذلك لانهما رزقاه بعد أن قتل هابيل * قال أبو ذر فى حديثه عن رسول الله (ص) إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف . على شيث خمسين صحيفة * قال محمد بن اسحاق ولما حضرت آدم الوفاة عهد الى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك . قال ويقال إن انساب بنى آدم اليوم كلها تنتهى الى شيث . وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا والله أعلم *

ولما توفى آدم عليه السلام وكان ذلك يوم الجمعة جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة . وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثا عليه السلام * قال ابن اسحاق وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن * وقد قال عبد الله بن الامام أحمد حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن يحيى هو ابن ضمرة السعدى قال رأيت شيخا بالمدينة تكلم فسألت عنه فقالوا هذا أبى بن كعب . فقال إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه أى بنى إنى أشتهى من ثمار الجنة قال فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفوس والمساحى والمكاتل فقالوا لهم يابنى آدم ماتريدون وما تطلبون أوماتريدون وأين تطلبون قالوا أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد قضى أبوكم فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال اليك عنى فانى انما أتيت من قبلك فخلى بينى وبين ملائكة ربي عز وجل فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه . ثم ادخلوه قبره فوضعوه فى قبره . ثم حثوا عليه . ثم قالوا يابنى آدم هذه سنتكم * إسناد صحيح اليه * وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ عن محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال كبّرت الملائكة على آدم أربعا وكبر أبو بكر على فاطمة أربعا وكبر عمر على أبى بكر أربعا وكبر صهيب على عمر أربعا * قال ابن عساكر ورواه غيره عن ميمون فقال عن ابن عمر *

واختلفوا فى موضع دفنه فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذى أهبط منه فى الهند وقيل بجبل أبى قبيس بمكة * ويقال إن نوحا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء فى تابوت فدفنهما ببيت المقدس * حكى ذلك ابن جرير * وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال رأسه عند مسجد ابراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس * وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة * واختلف فى مقدار عمره عليه السلام فقدمنا

فى الحديث عن ابن عباس وأبى هريرة مرفوعه أن عمره ا كتب فى اللوح المحفوظ الف سنة . وهذا لايعارضه ما فى التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة لان قولهم هذا مطعون فيه مردود اذا خالف الحق الذى بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم * وأيضا فان قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين مافى الحديث فان مافى التوراة إن كان محفوظا محمول على مدة مقامه فى الارض بعد الاهباط وذلك تسعمائة وثلاثون سنة شمسية وهى بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة ويضاف الى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه فى الجنة قبل الاهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره فيكون الجميع الف سنة *

وقال عطاء الخراسانى لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام * رواه ابن عساكر فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام . وكان نبيا بنص الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر مرفوعا أنه أنزل عليه خمسون صحيفة . فلما حانت وفاته أوصى الى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده ثم بعده ولده قينن . ثم من بعده ابنه مهلاييل وهو الذى يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة وأنه أول من قطع الاشجار وبنى المدائن والحصون الكبار . وأنه هو الذى بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى . وأنه قهر ابليس وجنوده وشردهم عن الارض الى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقا من مردة الجن والغيلان وكان له تاج عظيم وكان يخطب الناس ودامت دولته أربعين سنة . فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد فلما حضرته الوفاة أوصى الى ولده خنوخ وهو إدريس عليه السلام على المشهور *

ادريس عليه السلام

قال الله تعالى (واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا * ورفعناه مكانا عليا) فادريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية وهو خنوخ هذا وهو فى عمود نسب رسول الله (ص) على ما ذكره غير واحد من علماء النسب . وكان أول بنى آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام * وذكر ابن اسحاق أنه أول من خط بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمانى سنين . وقد قال طائفة من الناس إنه المشار اليه فى حديث معاوية بن الحكم السلمى لما سأل رسول الله (ص) عن الخط بالرمل فقال إنه كان نبى يخط به فمن وافق خطه فذاك * ويزعم كثير من علماء التفسير والاحكام أنه أول من تكلم فى ذلك ويسمونه هرمس الهرامسة ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء * وقوله تعالى (ورفعناه مكانا عليا) هو كما ثبت فى الصحيحين فى حديث الاسراء أن رسول الله (ص) مر به وهو فى السماء الرابعة * وقد روى ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى عن ابن وهب عن جرير بن حازم عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف

قال سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر فقال له ماقول الله تعالى لادريس (ورفعناه مكانا عليا) فقال كعب أما إدريس فان الله أوحى اليه انى أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم (لعله من أهل زمانه) فأحب أن يزداد عملا فاتاه خليل له من الملائكة فقال إن الله أوحى الى كذا وكذا فكلم ملك الموت حتى أزداد عملا فحمله بين جناحيه ثم صعد به الى السماء فلما كان فى السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدرا فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه إدريس فقال وأين إدريس قال هو ذا على ظهرى فقال ملك الموت فالعجب بعثت وقيل لى اقبض روح ادريس فى السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو فى الارض فقبض روحه هناك فذلك قول الله عز وجل (ورفعناه مكانا عليا) ورواه ابن أبى حاتم عند تفسيرها * وعنده فقال لذلك الملك سل لى ملك الموت كم بقى من عمرى فسأله وهو معه كم بقى من عمره فقال لا أدرى حتى أنظر فنظر فقال إنك لتسألنى عن رجل مابقى من عمره الا طرفة عين فنظر الملك الى تحت جناحه الى إدريس فاذا هو قد قبض وهو لايشعر * وهذا من الاسرائيليات وفى بعضه نكارة . وقول ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (ورفعناه مكانا عليا) قال إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى إن أراد أنه لم يمت الى الآن ففى هذا نظر وإن أراد أنه رفع حيا الى السماء ثم قبض هناك فلا ينافى ما تقدم عن كعب الأحبار والله أعلم * وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (ورفعناه مكانا عليا) رفع الى السماء السادسة فمات بها . وهكذا قال الضحاك . والحديث المتفق عليه من أنه فى السماء الرابعة أصح وهو قول مجاهد وغير واحد * وقال الحسن البصرى (ورفعناه مكانا عليا) قال الى الجنة * وقال قائلون رفع فى حياة أبيه يرد بن مهلاييل والله أعلم * وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل فى زمان بنى اسرائيل *

قال البخارى ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن الياس هو إدريس واستأنسوا فى ذلك بما جاء فى حديث الزهرى عن أنس فى الاسراء انه لما مر به عليه السلام قال له مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح ولم يقل كما قال آدم وابراهيم مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح قالوا فلو كان فى عمود نسبه لقال له كما قال له * وهذا لا يدل ولا بد لانه قد لا يكون الراوى حفظه جيدا . أولعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع ولم ينتصب له فى مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبى البشر وابراهيم الذى هو خليل الرحمن وأكبر أولى العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين *

قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ . وهو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش ابن شيث بن آدم أبى البشر عليه السلام * كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما

ذ كره ابن جرير وغيره . وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان فى صحيحه حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلام عن اخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلا قال يارسول الله أنبى كان آدم قال نعم مكلم . قال فكم كان بينه وبين نوح قال عشرة قرون . قلت وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام * فان كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لامحالة لكن لاينفى أن يكون اكثر باعتبار ماقيد به ابن عباس بالاسلام اذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الاسلام لكن حديث أبى أمامة يدل على الحصر فى عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الاسلام * وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار والله أعلم *

و [illegible] المراد بالقرن الجيل من الناس كما فى قوله تعالى (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) وقوله (ثم [illegible] ن بعدهم قرنا آخرين) وقال تعالى (وقرونا بين ذلك كثيرا) وقال (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) وكقوله عليه السلام (خير القرون قرنى) الحديث فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة * فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم*

وبالجملة فنوح عليه السلام انما بعثه الله تعالى لما عبدت الاصنام والطواغيت وشرع الناس فى الضلالة والكفر فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث الى أهل الارض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة * وكان قومه يقال لهم بنو راسب فيما ذكره ابن جبير وغيره *

واختلفوا فى مقدار سنه يوم بعث فقيل كان ابن خمسين سنة . وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة وقيل ابن اربعمائة وثمانين سنة . حكاها ابن جرير وعزا الثالثة منها الى ابن عباس *

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان وكيف أنجاه وأصحاب السفينة فى غير ماموضع من كتابه العزيز * ففى الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة * فقال فى سورة الاعراف (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين . قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالاتعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون . فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين) وقال فى سورة يونس (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ياقوم ان كان كبر

عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة
ثم اقضوا الىّ ولا تنظرون . فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجري الا على الله وأمرت أن
أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا
بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) وقال تعالى فى سورة هود (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى
لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين كفروا
من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا
من فضل بل نظنكم كاذبين * قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده
فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . وياقوم لا أسألكم عليه مالا ان اجرى الا على الله وما أنا
بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون * وياقوم من ينصرنى من الله ان
طردتهم أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا
أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين * قالوا يانوح
قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين * قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما
أنتم بمعجزين * ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه
ترجعون * أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلى اجرامى وأنا برىء مما تجرمون * وأوحى الى نوح
أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون * واصنع الفلك بأعيننا ووحينا
ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون * ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال
إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون * من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه
عذاب مقيم * حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق
عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل * وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور
رحيم * وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع
الكافرين * قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال
بينهما الموج فكان من المغرقين * وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر
واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين * ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلى وان
وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما
ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إنى اعوذ بك أن أسألك ما ليس لى
به علم والا تغفر لى وترحمني أكن من الخاسرين * قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى
أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم * تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت

تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) * وقال تعالى فى سورة الانبياء (ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين)وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون(ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين * قال رب انصرنى بما كذبون * فأوحينا اليه أن اصنع الفلك باعيننا ووحينا فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون * فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين * وقل رب انزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين * ان فى ذلك لآيات وان كنا لمبتلين)وقال تعالى فى سورة الشعراء(كذبت قوم نوح المرسلين * اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون .انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر ان اجرى الا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قالوما علمى بما كانوا يعملون * ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا الا نذير مبين . قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين . قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين . فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم)وقال تعالى فى سورة العنكبوت (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الاخمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون .فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) وقال تعالى فى سورة والصافات (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين .إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ثم اغرقنا الآخرين) وقال تعالى فى سورة اقتربت(كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه انى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى باعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)وقال تعالى(بسم الله الرحمن الرحيم انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال ياقوم إنى لكم نذير مبين* أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون * قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا . وإنى كلما دعوتهم

لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا * ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا * مالكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم اطوارا * ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا * والله انبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا * والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا * قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ومكروا مكرا كبارا * وقالوا لا تذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا * مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا * وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا * رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) وقد تكلمنا على كل موضع من هذه فى التفسير وسنذكر مضمون القصة مجموعا من هذه الأماكن المتفرقة ومما دلت عليه الاحاديث والآثار وقد جرى ذكره أيضا فى مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه فقال تعالى فى سورة النساء (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) وقال فى سورة الانعام (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين * واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم) الآيات * وتقدمت قصته فى الأعراف * وقال فى سورة براءة (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وتقدمت قصته فى يونس وهود) وقال فى سورة ابراهيم (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب) وقال فى سورة سبحان (ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا) وقال فيها أيضا (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب

عباده خبيرا بصيرا) وتقدمت قصته فى الانبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت . وقال فى سورة الأحزاب (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وقال فى سورة (ص) (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب) وقال فى سورة غافر (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب . وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) وقال فى سورة الشورى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه * الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) وقال تعالى فى سورة (ق) (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد) وقال فى الذاريات (وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوما فاسقين) وقال فى النجم (وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى) وتقدمت قصته فى سورة اقتربت الساعة * وقال تعالى فى سورة الحديد (ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) وقال تعالى فى سورة التحريم (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) *

وأما مضمون ماجرى له مع قومه مأخوذا من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام رواه البخارى * وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ماسلف * ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت ان آل الحال بأهل ذلك الزمان الى عبادة الاصنام وكان سبب ذلك مارواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ع تفسير قوله تعالى (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا . ولايغوث ويعوق ونسرا) قال (هذه) اسماء رجال صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون (فيها) أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت *

قال ابن عباس وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد * وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن اسحاق *

وقال ابن جرير فى تفسيره حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس قال كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون

دب اليهم ابليس فقال انما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم * وروى ابن أبي حاتم عن عروة ابن الزبير أنه قال ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان ود أكبرهم وأبرهم به *

وقال ابن أبي حاتم حدثنا احمد بن منصور حدثنا الحسن بن موسى حدثنا يعقوب عن أبي المطهر قال ذكروا عند أبي جعفر هو الباقر وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب قال فلما انفتل من صلاته قال ذكرتم يزيد بن المهلب أما انه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله . قال ذكر وداً رجلا صالحا وكان محببا في قومه فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه فلما رأى ابليس جزعهم عليه تشبه في صورة انسان ثم قال إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه قالوا نعم . فصور لهم مثله . قال ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى مابهم من ذكره قال هل لكم أن اجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له في بيته فتذكرونه . قالوا نعم قال فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون مايصنعون به قال وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم اياه حتى اتخذوه الها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم فكان أول ماعبد غير الله وداً الصنم الذي سموه وداً *

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس * وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل * ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جدا قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة *

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله (ص) أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل)

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعباد الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحا عليه السلام يدعو الى عبادة الله وحده لاشريك له وينهى عن عبادة ما سواه فكان أول رسول بعثه الله الى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة عن النبي (ص) في حديث الشفاعة قال فيأتون آدم فيقولون ياآدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا الى ربك . ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا فيقول ربي قد غضب غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن الشجرة فعصيت نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى نوح فيأتون نوحا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل الى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى الى ما نحن فيه ألا ترى الى ما بلغنا ألا تشفع لنا الى ربك عز وجل فيقول ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده

مثله نفسي نفسي . وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح *

فلما بعث الله نوحا عليه السلام دعاهم الى افراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن لا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كما قال تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) وقال فيه وفي ابراهيم (وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته . وكذلك ابراهيم قال الله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى واسئل من ارسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله إلا انا فاعبدون) ولهذا قال نوح لقومه (اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقال (ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وقال (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون) وقال(يا قوم انى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون * قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم انى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا. فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا * مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم اطوارا) الآيات الكريمات . فذكر انه دعاهم الى الله بانواع الدعوة فى الليل والنهار والسر والاجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا فلم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الاصنام والأوثان ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والاخراج ونالوا منهم وبالغوا فى أمرهم (قال الملأ من قومه) اى السادة الكبراء منهم (انا لنراك فى ضلال مبين . قال ياقوم ليس بي ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين) أى لست كما تزعمون من أنى ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين اى الذى يقول للشئ كن فيكون (أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) . وهذا شأن الرسول أن يكون بليغا اى فصيحا ناصحا أعلم الناس بالله عز وجل . وقالوا له فيما قالوا (مانراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادى الرأى ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) تعجبوا ان يكون بشرا رسولا وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم اراذلهم * وقد قيل انهم كانوا من أقياد الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل وهم أتباع الرسل وما ذاك الا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق وقولهم بادى الرأى أى بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية وهذا

الذي . . هم به دو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم فان الحق الظاهر لايحتاج الى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر . ولهذا قال رسول الله (ص) مادحاً للصديق مادعوت احدا الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر فانه لم يتلعثم ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضا سريعة من غير نظر ولا روية لان افضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم ولهذا قال رسول الله (ص) لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أرادأن ينص فيه على خلافته فتركه وقال يأبى الله والمؤمنون الا أبا بكر رضي الله عنه . وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به . (وما نرى لكم علينا من فضل) اى لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالايمان ولا مزية علينا (بل نظنكم كاذبين . قال ياقوم أرايتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وأنتم لها كارهون)

وهذا تلطف في الخطاب معهم وترفق بهم في الدعوة الى الحق كما قال تعالى (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى) وقال تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وهذا منه يقول لهم (أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده) اى النبوة والرسالة (فعميت عليكم) اى فلم تفهموها ولم تهتدوا اليها (انلزمكموها) أي انغصبكم بها ونجبركم عليها (وأنتم لها كارهون) أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله) اى لست اريد منكم اجرة على ابلاغى اياكم ما ينفعكم في دنياكم واخراكم إن أطلب ذلك الا من الله الذي ثوابه خير لي وابقى مما تعطونني أنتم . وقوله (وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون) كأنهم طلبوا منه ان يبعد هؤلاء عنه ووعدوه ان يجتمعوا به اذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال (انهم ملاقوا ربهم) اى فاخاف ان طردتهم ان يشكوني الى الله عز وجل ولهذا قال (وياقوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون) ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله (ص) ان يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب واشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولاأعلم الغيب ولاأقول إني ملك) اى بل أنا عبد رسول لاأعلم من علم الله الا ما أعلمني به ولا أقدر الا على ما أقدرني عليه ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً الا ماشاء الله (ولا أقول للذين تزدري أعينكم). يعني من اتباعه (لن يؤتيهم الله خيرا الله اعلم بما في أنفسهم اني اذا لمن الظالمين) اى لا أشهد عليهم بانهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم ان خيراً فخير وان شرا فشر كما قالوا في المواضع الأخر (أنؤمن لك واتبعك الارذلون. قال وما علمي بما كانوا يعملون. ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون .وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين) *

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى (فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما

فاخذهم الطوفان وهم ظالمون) اى ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به الا القليل منهم وكان كل ما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الايمان به ومحاربته ومخالفته * وكان الوالد اذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ان لا يؤمن بنوح ابدا ما عاش ودائما ما بقى وكانت سجاياهم تأبى الايمان واتباع الحق ولهذا قال (ولا يلدوا الا فاجراً كفارا) ولهذا قالوا (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين * قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين) اى انما يقدر على ذلك الله عز وجل فانه الذى لا يعجزه شئ ولا يكترثه أمر بل هو الذى يقول للشئ كن فيكون (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون) أى من يرد الله فتنته فلن يملك احد هدايته هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية . وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة (وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن) تسلية له عما كان منهم اليه (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) وهذه تعزية لنوح عليه السلام فى قومه أنه لن يؤمن منهم الا من قد آمن اى لا يسوأنك ما جرى فان النصر قريب والنبأ عجيب (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) وذلك ان نوحا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لاخير فيهم وتوصلوا الى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وقومه من الكرب العظيم) . وقال تعالى (ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) . وقال تعالى (قال رب ان قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين) وقال تعالى (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) وقال تعالى (قال رب انصرنى بما كذبون) وقال تعالى(مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا . وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفارا) فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك امره الله تعالى ان يصنع الفلك وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها . وقدم الله تعالى اليه أنه اذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فانه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فانه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) اى يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) اى نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم (فسوف تعلمون من يأتيه

عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا وهكذا فى الآخرة فانهم يجحدون ايضا أن يكون جاءهم رسول كما قال البخارى حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال قال رسول الله (ص) (يجئ نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عز وجل هل بلغت فيقول نعم أى رب فيقول لأمته هل بلغكم فيقولون لاما جاءنا من نبى فيقول لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فتشهد أنه قد بلغ) وهو قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) . والوسط العدل . فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحا بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه الى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ولم يدع شيئاً مما ينفعهم فى دينهم الا وقد أمرهم به ولا شيئا مما قد يضرهم الا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه * وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وان كان لا يتوقع خروجه فى زمانهم حذرا عليهم وشفقة ورحمة بهم كما قال البخارى حدثنا عبدان حدثنا عبدالله عن يونس عن الزهرى قال سالم قال ابن عمر قام رسول الله (ص) فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله. ثم ذكر الدجال فقال (إنى لأنذركموه وما من نبى الا وقد أنذره قومه . لقد أنذره نوح قومه ولكنى أقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور) وهذا الحديث فى الصحيحين ايضا من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيى ابن أبى كثير عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال (الا أحدثكم عن الدجال حديثا ما حدث به نبى قومه انه أعور وانه يجئ معه بمثال الجنة والنار والتى يقول عليها الجنة هى النار وانى انذركم كما أنذر به نوح قومه) لفظ البخارى .

وقد قال بعض علماء السلف لما استجاب الله له أمره ان يغرس شجرا ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره فى مائة أخرى وقيل فى أربعين سنة فالله أعلم * قال محمد بن اسحق عن الثورى وكانت من خشب الساج * وقيل من الصنوبر . وهو نص التوراة . قال الثورى وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وان يطلى ظاهرها وباطنها بالقار وان يجعل لها جؤجؤاً أزور يشق الماء * وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع فى عرض خمسين ذراعا وهذا الذى فى التوراة على ما رأيته *

وقال الحسن البصرى ستمائة فى عرض ثلثمائة وعن ابن عباس الف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة ذراع * وقيل كان طولها الفى ذراع وعرضها مائة ذراع . قالوا كلهم وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا وكانت ثلاث طبقات. كل واحدة عشرة أذرع. فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس والعليا للطيور وكان بابها فى عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها * قال الله تعالى (قال رب انصرنى بما كذبون فأوحينا اليه ان اصنع الفلك باعيننا ووحينا) أى بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك

لترشدك الى الصواب فى صنعتها (فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) فتقدم اليه بأمره العظيم العلى أنه اذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل فى هـذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وأن يحمل معه أهله أى أهل بيته الا من سبق عليه القول منهم اى الا من كان كافرا فانه قد نفذت فيه الدعوة التى لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذى لا يرد وأمر أنه لا يراجعه فيهم اذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذى قدحتمه عليهم الفعال لما يريد كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الارض أى نبعت الارض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التى هى محال النار . وعن ابن عباس التنور عين فى الهند وعن الشعبى بالكوفة وعن قتادة بالجزيرة * وقال على بن أبى طالب المراد بالتنور فلق الصبح وتنوير الفجر أى إشراقه وضياؤه أى عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وهذا قول غريب * وقوله تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل * أمر بأن عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وفى كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل مايؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين ذكرا وأنثى وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى فى كتابنا الحق (اثنين) إن جعلنا ذلك مفعولا به. وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول محذوف فلا ينافى والله أعلم *

وذكر بعضهم ويروى عن ابن عباس أن أول مادخل من الطيور الدرة وآخر مادخل من الحيوانات الحمار * ودخل ابليس متعلقا بذنب الحمار . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى الليث حدثنى هشام بن سعد عن زيد بن اسلم عن أبيه أن رسول الله ص قال لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف نطمئن أو كيف تطمئن المواشى ومعنا الاسد فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت فى الأرض * ثم شكوا الفارة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله الى الاسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها . هـذا مرسل * وقوله (واهلك الا من سبق عليه القول) أى من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه يام الذى غرق كما سيأتى بيانه (ومن آمن) أى واحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى (وما آمن معه الا قليل) هـذا مع طول المدة والمقام بين اظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى .

وقد اختلف العلماء فى عدة من كان معه فى السفينة فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم.

وعن كعب الاحبار كانوا اثنين وسبعين نفسا . وقيل كانوا عشرة وقيل انما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه الاربع بامرأة يام الذى انخزل وانعزل وسلك عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل . وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هى نص فى انه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به كما قال (ونجنى ومن معى من المؤمنين) وقيل كانوا سبعة وأما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم وهم حام وسام ويافث ويام وتسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذى قد غرق وعابر وقد ماتت قبل الطوفان . قيل إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها وعند أهل الكتاب أنها كانت فى السفينة فيحتمل انها كفرت بعد ذلك أو أنها أنظرت ليوم القيامة والظاهر الأول لقوله (لاتذر على الارض من الكافرين ديارا) قال الله تعالى (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب انزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) أمره أن يحمد ربه على ماسخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه واقرعينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى (الذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا الى ربنا لمنقلبون) . وهكذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كما قال تعالى لرسوله (ص) حين هاجر (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربى لغفور رحيم) أى على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه (إن ربى لغفور رحيم) أى وذو عقاب اليم مع كونه غفوراً رحيما لايرد بأسه عن القوم المجرمين كما احل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره قال الله تعالى (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) . وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر ارجائها كما قال تعالى (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات الواح ودسر). والدسر السائر (تجرى بأعيننا) أى بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها جزاء لمن كان كفر *

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن الطوفان كان فى ثالث عشر شهر آب فى حساب القبط . وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملنا كم فى الجارية) أى السفينة (لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) قال جماعة من المفسرين ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً وهو الذى عند أهل الكتاب وقيل ثمانين ذراعا وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها .و لم يبق

على وجه الأرض ممن كان بها من الاحياء عين تطرف . ولا صغير ولا كبير * قال الامام مالك عن زيد ابن أسلم كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل * وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم (لم تكن بقعة فى الأرض الا ولها مالك وحائز) رواهما ابن أبى حاتم . (ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) وهذا الابن هو يام أخو سام وحام ويافث * وقيل اسمه كنعان . وكان كافرا عمل عملا غير صالح فخالف أباه فى دينه ومذهبه فهلك مع من . هلك هذا . وقد نجا مع ابيه الأجانب فى النسب لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عز وجل أمر الله الارض ان تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر (وغيض الماء) أى نقص عما كان (وقضى الأمر) أى وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم . (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى نودى عليهم بلسان القدرة بعداً لهم من الرحمة والمغفرة كما قال تعالى (فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) وقال تعالى (فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) وقال تعالى (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) وقال تعالى (فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) وقال تعالى (ثم أغرقنا الآخرين) وقال (ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وقال تعالى (مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا . وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . انك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) وقد استجاب الله تعالى وله الحمد والمنة دعوته فلم يبق منهم عين تطرف *

وقد روى الامامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيريهما من طريق يعقوب ابن محمد الزهرى عن قائد مولى عبد الله بن أبى رافع أن ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة اخبره ان عائشة أم المؤمنين اخبرته ان رسول الله (ص) قال (فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم ام الصبى) قال رسول الله (ص) مكث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة (يعنى الا خمسين عاما) وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة فى البر كيف تجرى قال سوف تعلمون * فلما فرغ ونبع الماء وصار فى السكك خشيت أم الصبى .

عليه وكانت تحبه حبا شديدا خرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل . فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبى * وهـذا حديث غريب * وقـد روى عن كعب الاحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة * وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفا متلقى عن مثل كعب الاحبار والله أعلم *

والمقصود أن الله لم يبق من الـكافرين ديارا فـكيف يزعم بعض المفسرين ان عوج بن عنـق ويقال بن عناق كان موجودا من قبـل نوح الى زمان موسى ويقولون كان كافرا متمرداً جبارا عنيـداً ويقولون كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا وإنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه فى عين الشمس وإنه كان يقول لنوح وهو فى السفينة ما هذه القصيعة التى لك ويستهزئ به * ويذ كرون انه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مئة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا الى غير ذلك من الهذيانات التى لولا انها مسطرة فى كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لـما تعرضنا لحـكايتها لسقاطتها وركا كتها * ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول

أما المعقول فـكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لـكفره وأبوه نبى الأمة وزعيم أهل الايمان ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق وهو أظلم وأطغى على ما ذ كروا . وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أم الصبى ولا الصبى ويترك هـذا الدعى الجبار العنيـد الفاجر الشديد الـكافر الشيطان المريد على ما ذ كروا *

واما المنقول فقد قال الله تعالى (ثم أغرقنا الآخرين وقال رب لاتذر على الارض من الـكافرين ديارا) . ثم هذا الطول الذى ذ كروه مخالف لما فى الصحيحين عن النبى (ص) أنه قال (إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن)

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن اى لم يزل الناس فى نقصان فى طولهم من آدم الى يوم اخبيره بذلك وهلم جر الى يوم القيامة *

وهذا يقتضى أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه فـكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار الى أقوال الـكذبة الـكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وما اظن ان هـذا الخبر عن عوج بن عناق الا اختلاقا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا اعداء الأنبياء والله أعلم *

ثم ذ كر الله تعالى مناشدة نوح ربه فى ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ووجه السؤال أنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وهو منهم وقد غرق فأجيب بانه ليس من أهلك اى الذين

وعدت بنجاتهم أي أما قلنا لك وأهلك الا من سبق عليه القول منهم فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بان سيغرق بكفره ولهذا ساقته الأقدار الى ان انحاز عن حوزة أهل الايمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان * ثم قال تعالى (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي * وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال (بسلام منا وبركات) أي اهبط سالما مباركا عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد أي من أولادك فان الله لم يجعل لاحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا سوى نوح عليه السلام قال تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون الى أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافث *

قال الامام أحمد حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبي (ص) قال (سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم) ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعا نحوه وقال الشيخ ابو عمرو ابن عبد البر وقد روى عن عمران بن حصين عن النبي (ص) مثله. قال والمراد بالروم هنا الروم الاول وهم اليونان المنتسبون الى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام * ثم روى من حديث اسمعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال (ولد نوح ثلاثة سام ويافث وحام وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة فولد سام العرب وفارس والروم .وولد يافث الترك والسقالبة ويأجوج ومأجوج وولد حام القبط والسودان والبربر) قلت وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا ابراهيم بن هانئ وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي حدثني أبي عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) (ولد لنوح سام وحام ويافث فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم . وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والسقالبة ولا خير فيهم * وولد لحام القبط والبربر والسودان) ثم قال لا نعلم يروى مرفوعا الا من هذا الوجه . تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه . ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلا ولم يسنده وانما جعله من قول سعيد . قلت وهذا الذي ذكره أبو عمرو هو المحفوظ عن سعيد قوله * وهكذا روى عن وهب بن منبه مثله والله أعلم * ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لايعتمد عليه * وقد قيل إن نوحا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد الا بعد الطوفان وانما ولد له قبل السفينة كنعان الذي غرق وعابر مات قبل

الطوفان * والصحيح ان الاولاد الثلاثة كانوا معه فى السفينة هم ونساؤهم وامهم وهو نص التوراة * وقد ذكر أن حاما واقع امرأته فى السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان * وقيل بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وان يكون أولاده عبيداً لاخوته *

وذكر الامام أبو جعفر بن جرير من طريق على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال (قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها . قال فانطلق بهم حتى أتى الى كثيب من تراب فاخذ كفاً من ذلك التراب بكفه قال اتدرون ما هـذا . قالوا الله ورسوله أعلم . قال هذا كعب حام بن نوح . قال وضرب الكثيب بعصاه وقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب * فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت قال لا ولكنى مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت . قال حدثنا عن سفينة نوح . قال كان طولها الف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الانس وطبقة فيها الطير . فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله عز وجل الى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث ولما وقع الفار يخرز السفينة بقرضه أوحى الله عز وجل الى نوح عليه السلام أن اضرب بين عينى الاسد فخرج من منخره سنور وسنورة فاقبلا على الفار . فقال له عيسى كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت . قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التى فى عنقها ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت . قال فقالوا يا رسول الله ألا ننطلق به الى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا قال كيف يتبعكم من لارزق له . قال فقال له عد باذن الله فعاد ترابا) وهذا أثر غريب جداً

وروى علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً وإن الله وجه السفينة الى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها الى الجودى فاستقرت عليه فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فابطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء قد نضب فهبط الى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين فاصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت السنتهم على ثمانين لغة احداها العربى وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم .

وقال قتادة وغيره ركبوا فى السفينة فى اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودى شهراً . وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم * وقد روى

ابن جرير خبراً مرفوعاً يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك* وقال الامام أحمد حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل عن أبى هريرة قال (مر النبى ص.) بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال ما هذا الصوم فقالوا هذا اليوم الذى نجا الله موسى وبنى اسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل فقال النبى ص.) انا أحق بموسى واحق بصوم هذا اليوم * وقال لأصحابه من كان منكم اصبح صائما فليتم صومه ومن كان منكم قد أصاب من غدا أهله فليتم بقية يومه) . وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من وجه آخر والمستغرب ذكر نوح أيضاً والله أعلم .

وأما مايذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها واطحنوا الحبوب يومئذ واكتحلوا بالإثمد لتقوية أبصارهم لما انبهارت من الضياء بعد ما كانوا فى ظلمة السفينة فكل هذا لايصح فيه شئ وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بنى اسرائيل لايعتمد عليها ولا يقتدى بها والله أعلم *

وقال محمد بن اسحاق لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر وكان استواء الفلك فيما يزعم أهل التوراة فى الشهر السابع لسبع عشر ليلة مضت منه وفى أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤس الجبال * فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التى صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع اليه فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعا فبسط يده للحمامة فاخذها فأدخلها ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع فرجعت حين أمست وفى فيها ورق زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الارض * ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع اليه فعلم نوح أن الارض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان الى أن ارسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك * وهذا الذى ذكره ابن اسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التى بأيدى أهل الكتاب* قال ابن اسحق وفى الشهر الثانى من سنة اثنين فست وعشرين ليلة منه (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) وفيما ذكر اهل الكتاب ان الله كلم نوحا قائلا له اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التى معك ولينموا وليكبروا فى الأرض فخرجوا وابتنى نوح مذبحا لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قربانا الى الله عز وجل وعهد الله اليه ان لا يعيد الطوفان على أهل الأرض . وجعل تذكارا لميثاقه اليه القوس الذى فى الغمام وهو قوس قزح الذى قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من

الغرق * قال بعضهم فيه اشارة الى أنه قوس بلا وتر اى أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم وقالوا انما كان بأرض بابل ولم يصل الينا. قالوا ولم نزل نتوارث الملك كابرا عن كابر من لدن كيومرث يعنون آدم الى زماننا هذا . وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ماتواتر عند الناس فى سائر الأزمان على وقوع الطوفان وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحدا من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذا لما سبق فى القدر المحتوم

ذكر شئ من أخبار نوح عليه السلام

قال الله تعالى إنه كان عبدا شكورا . قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله وقال الامام أحمد حدثنا أبو أسامة حدثنا زكريا بن أبى زائدة عن سعيد بن أبى بردة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (ص) (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث أبى أسامة . والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فان الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر

أفادتكم النعماء منى ثلاثة * يدى ولسانى والضمير المحجبا

صومه عليه السلام

وقال ابن ماجه (باب صيام نوح عليه السلام) حدثنا سهل بن أبى سهل حدثنا سعيد بن أبى مريم عن ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن أبى فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله (ص) يقول (صام نوح الدهر الا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى) هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه * وقد قال الطبرانى حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج حدثنا . عمرو بن خالد الحرانى حدثنا ابن لهيعة عن أبى قتادة عن يزيد بن رباح أبى فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله (ص) يقول (صام نوح الدهر الا يوم الفطر والأضحى وصام داود نصف الدهر وصام ابراهيم ثلاثة أيام من كل شهر « صام الدهر وأفطر الدهر »

حجه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبي عن زمعة هو ابن أبي صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال حج رسول الله (ص) فلما أتى وادي عسفان قال يا أبا بكر أي واد هذا قال هذا وادي عسفان قال لقد مر بهذا الوادي نوح وهود وابراهيم على بكرات لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء وارديتهم النمار يحجون البيت العتيق * فيه غرابة

وصيته لولده

قال الامام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن الصقعب بن زهير عن زيد بن اسلم قال حماد أظنه عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال (كنا عند رسول الله (ص) فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بن فارس أو قال يريد أن يضع كل فارس بن فارس ويرفع كل راع بن راع قال فأخذ رسول الله (ص) بمجامع جبته وقال لا أرى عليك لباس من لا يعقل * ثم قال إن نبي الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه إني قاص عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإن بها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق وانهاك عن الشرك والكبر) قال قلت (أو) قيل يارسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر أن يكون لاحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان قال لا. قال هو أن يكون لاحدنا حلة يلبسها قال لا. قال هو أن يكون لاحدنا دابة يركبها قال لا. قال هو أن يكون لاحدنا أصحاب يجلسون اليه قال لا * قلت (أو) قيل يارسول الله فما الكبر قال سفه الحق وغمص الناس. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه * ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد ابن اسحق عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله (ص) قال (كان في وصية نوح لابنه أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين) فذكر نحوه * وقد رواه أبو بكر البزار عن ابراهيم بن سعيد عن أبي معاوية الضرير عن محمد بن اسحق عن عمرو بن دينار عن عبدالله بن عمر بن الخطاب عن النبي (ص) بنحوه * والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أحمد والطبراني والله أعلم *

وزعم أهل الكتاب أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنة * وقدمنا عن ابن عباس مثله وزاد وعاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة. وفي هذا القول نظر * ثم إن لم يكن الجمع

بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض فان القرآن يقتضي أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان الف سنة إلا خمسين عاماً فاخذهم الطوفان وهم ظالمون . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك فان كان ماذكر محفوظا عن ابن عباس من أنه بعث وله أربع مائة وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هـذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة .

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والازرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلا أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام . وهذا أقوى واثبت من الذي مذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بني بسبب ذلك فيما ذكر والله أعلم *

قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام * ويقال إن هودا هو عابر بن شالخ ابن ارفخشذ بن سام بن نوح . ويقال هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام * ذكره ابن جرير وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح كانوا عربا يسكنون الاحقاف وهي جبال الرمل وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر واسم واديهم مغيث * وكانوا كثيراً مايسكنون الخيام ذوات الاعمدة الضخام كما قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد) أي عاد ارم وهم عاد الأولى * وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه * وأما عاد الأولى فهم عاد (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) أي مثل القبيلة * وقيل مثل العمد . والصحيح الأول كما بيناه في التفسير *

ومن زعم أن ارم مدينة تدور في الأرض فتارة في الشام وتارة في اليمن وتارة في الحجاز وتارة في غيرها فقد أبعد النجعة وقال ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن اليه * وفي صحيح بن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر * ويقال ان هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية * وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها * وقال غيره أول من تكلم بها نوح * وقيل آدم وهو الأشبه . وقيل غير ذلك والله أعلم *

ويقال للعرب الذين كانوا قبل اسماعيل عليه السلام العرب العاربة وهم قبائل كثيرة منهم عاد * وثمود * وجرهم * وطسم * وجديس * وأميم * ومدين * وعملاق * وعبيل * وجاسم * وقحطان * وبنو يقطن * وغيرهم

وأما العرب المستعربة فهم من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل * وكان اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة * وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى ولكن انطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان . وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم *

والمقصود أن عاداً وهم عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان . وكان أصنامهم ثلاثة صدا وصمودا وهرا . فبعث الله فيهم اخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم الى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم في سورة الاعراف . (والى عاد أخاهم هوداً . قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال ياقوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة . فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . فانتظروا إني معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود (والى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . ياقوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون . وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك . وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ . ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) . وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون بعد قصة قوم نوح (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون . وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً

مثلكم إنكم إذا لخاسرون) أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين . قال رب انصرني بما كذبون . قال عما قليل ليصبحن نادمين . فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين) . وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضا (كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى في سورة حم السجدة (وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة . أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون) وقال تعالى في سورة الاحقاف (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكني أراكم قوماً تجهلون . فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين) وقال تعالى في الذاريات (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم) وقال تعالى في النجم (وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى فبأى آلاء ربك تتمارى) وقال تعالى في سورة اقتربت (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) . وقال في الحاقة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية) وقال في سورة الفجر (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد) . وقد تكلمنا على كل من هذه

القصص فى أماكنها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة *

وقد جرى ذكر عاد فى سورة براءة وابراهيم والفرقان والعنكبوت وفى سورة (ص) وفى سورة (ق) ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات مع ما يضاف الى ذلك من الأخبار * وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان . وذلك بين فى قوله لهم (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة) أى جعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش . وقال فى المؤمنون (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) وهم قوم هود على الصحيح * وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله (فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء) قالوا وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) وهذا الذى قالوه لايمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتى فى قصة أهل مدين أصحاب الأيكة فانه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات * ثم لاخلاف أن عاداً قبل ثمود *

والمقصود أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة متمردين فى عبادة الاصنام فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم الى الله والى إفراده بالعبادة والاخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم فى طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) أى هذا الأمر الذى تدعونا اليه سفه بالنسبة الى ما نحن عليه من عبادة هذه الاصنام التى يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا فظن أنك تكذب فى دعواك أن الله أرسلك (قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين) أى ليس الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون (أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين) والبلاغ يستلزم عدم الكذب فى أصل المبلغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لالبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا يبتغى منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلا بل هو مخلص لله عز وجل فى الدعوة اليه والنصح لخلقه لا يطلب اجره الا من الذى ارسله فان خير الدنيا والاخرة كله فى يديه وأمره اليه ولهذا (قال ياقوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون) أى ألكم عقل تميزون به وتفهمون أنى أدعوكم الى الحق المبين الذى تشهد به فطركم التى خلقتم عليها وهو دين الحق الذى بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق وها أنا أدعوكم اليه ولا أسألكم أجراً عليه بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع ولهذا قال مؤمن يس (اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون. ومالى لاأعبد الذى فطرنى واليه ترجعون) وقال قوم هود له فيما قالوا (ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) يقولون ماجئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين

نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته ومانظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه وعندنا إنما أصابك هـذا أن بعض آلهتنا غضب عليك فاصابك فى عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون) وهـذا تحدٍّ منه لهم وتبرٍّ من آلهتهم وتنقص منه لها وبيان أنها لاتنفع شيأ ولا تضر وانها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله . فان كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا برىء منها لاعن لها (فكيدونى ثم لا تنظرون) أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا اليه وتقدروا عليه ولا تؤخرونى ساعة واحدة ولا طرفة عين فانى لا أبالى بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر اليكم (إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم) أى أنا متوكل على الله ومتأيد به وواثق بجنابه الذى لا يضيع من لاذبه واستند اليه فلست أبالى مخلوقا سواه ولست أتوكل إلا عليه ولا أعبد الا إياه * وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبدالله ورسوله وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غير الله لانهم لم يصلوا اليه بسوء ولا نالوا منه مكروها فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ماهم عليه وفساد ماذهبوا اليه * وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله فى قوله (ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون) . وهكذا قال الخليل عليه السلام (ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيأ وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون. أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشرياً وهـذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً كما قال تعالى (أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس) وقال تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا . قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) ولهذا قال لهم هود عليه السلام (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) أى ليس هذا بعجيب فان الله أعلم حيث يجعل رسالته وقوله (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاماً أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما نحن بمبعوثين. إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين * قال

ربى انصرنى)* استبعدوا المعاد وانكروا قيام الاجساد بعد صيرورتها ترابا وعظاماً وقالوا هيهات هيهات أى بعيد بعد هذا الوعد إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحي وما نحن بمبعوثين أى يموت قوم ويحيى آخرون* وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة ارحام تدفع وأرض تبلع*

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون الى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بنى آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون) وقال لهم فيما وعظهم به (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) يقول لهم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيما هائلا كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لانه لا حاجة لكم فيه وما ذاك إلا لانهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد) فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الاعمدة التى تحمل الخيام *

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهى تتنقل فى البلاد فقد غلط وأخطأ وقال مالا دليل عليه * وقوله (وتتخذون مصانع) قيل هى القصور * وقيل بروج الحمام * وقيل مآخذ الماء (لعلكم تخلدون) أى رجاء منكم أن تعمروا فى هذه الدار أعماراً طويلة (واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقالوا له مما قالوا (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) اى أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه * فان كنت صادقا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال فانا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك كما قالوا (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين. إن هذا الا خلق الاولين . وما نحن بمعذبين) أما على قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين أى ان هذا الذى جئت به الا اختلاق منك وأخذته من كتب الأولين *هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين* وأما على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين أى ان هذا الدين الذى نحن عليه الا دين الآباء والاجداد من أسلافنا ولن نتحول عنه ولا نتغير ، لا نزال متمسكين به . ويناسب كلا القراءتين الاولى والثانية قولهم (وما نحن بمعذبين) قال (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين) اى قد استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء انفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان أى لم ينزل على ما ذهبتم اليه دليلا ولا

برهانا واذا أبيتم قبول الحق وتماديتم فى الباطل وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذى لا يرد ونكاله الذى لا يصد وقال تعالى (قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين) وقال تعالى (قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين. قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى اراكم قوما تجهلون. فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شئ بأمر ربها فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين) وقد ذكر الله تعالى خبر اهلاكهم فى غير ما آية كما تقدم مجملا ومفصلا كقوله (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) وكقوله (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ. وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا ان عادا كفروا ربهم الا بعداً لعاد قوم هود) وكقوله (فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين وقال تعالى (فكذبوه فأهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وان ربك لهو العزيز الرحيم)

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما أستعجلتم به ريح فيها عذاب اليم) كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مسنتين فطلبوا السقيا فرأوا عارضا فى السماء وظنوه سقيا رحمة فاذا هو سقيا عذاب. ولهذا قال تعالى (بل هو ما استعجلتم به) أى من وقوع العذاب وهو قولهم (فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) ومثلها فى الأعراف. وقد ذكر المفسرون وغيرهم ههنا الخبر الذى ذكره الامام محمد بن اسحق بن يسار قال فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس اذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم اذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهذة ابنة الخيبرى. قال فبعث عاد وفداً قريبا من سبعين رجلا ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر يغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا اليه فى شهر. فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيى منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعراً يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنيهم به فقال

ألا ياقيل ويحك قم فهيم ... لعل الله يمنحنا غماما
فيسقي أرض عاد ان عاداً ... قد امسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس ترجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم أياما
وإن الوحش يأتيهم جهارا ولا يخشى لعادى سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا الى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل ابن عنز فانشأ الله سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب فقال اخترت السحابة السوداء فانها أكثر السحاب ماء فناداه اخترت رمادا رمددا لاتبقى من عاد أحدا .لا والداً يترك ولا ولداً . إلاجعلته همدا إلا بنى اللودية الهمدا . قال وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال ومن بقى من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة قال وساق الله السحابة السوداء التى اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة الى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هـذا عارض ممطرنا فيقول تعالى (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم تدمر كل شئ بأمر ربها) أى كل شئ أمرت به فكان أول من ابصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها فهد فلما تبينت مافيها صاحت ثم صعقت . فلما افاقت قالوا ما رأيت يافهد قالت رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك قال واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لى فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم الا مايلين عليهم الجلود ويلتذ الانفس وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة *وذكر تمام القصة

وقد روى الامام أحمد حديثا فى مسنده يشبه هذه القصة فقال حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن الحارث وهو ابن حسان ويقال ابن يزيد البكرى قال خرجت اشكو العلاء بن الحضرمى الى رسول الله (ص) فمررت بالربذة فاذا عجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت لى ياعبد الله ان لى الى رسول الله (ص) حاجة فهل أنت مبلغى اليه قال فحملتها فاتيت المدينة فاذا المسجد غاص بأهله واذا راية سوداء تخفق واذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله (ص) فقلت ماشأن الناس قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال فجلست قال فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه فاذن لى فدخلت فسلمت فقال هل كان بينكم وبين بنى تميم شئ فقلت نعم وكانت لنا الدبرة عليهم ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتنى أن احملها اليك وهاهى بالباب فاذن لها فدخلت فقلت يارسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بنى تميم حاجزاً فاجعل الدهنا

فلما كانت لنا قال لخبيت العجوز واستوفزت وقالت يارسول الله فالى أين تضطر مضرك قال فقلت ان مثلى ماقال الاول (معزى حملت حتفها) حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لى خصما أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد قال هيه وما وافد عاد وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه قلت ان عاداً قحطوا فبعثوا وفدالهم يقال له قيل فمر بمعاوية بن بكر فاقام عنده شهراً يسقيه الخمر ويغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج الى جبال تهامة فقال اللهم انك تعلم أنى لم اجئ الى مريض فاداويه ولا الى اسير فافاديه . اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه فمرت به سحابات سود فنودى منها اختر فأومى الى سحابة منها سوداء فنودى منها خذها رماداً رمدداً لا تبقى من عاد أحداً قال فما بلغنى أنه بعث عليهم من الريح الا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكوا. قال أبو وائل وصدق وكانت المرأة والرجل اذا بعثوا وفدالهم قالوا لاتكن كوافد عاد وهكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به ورواه النسائى من حديث سلام أبى المنذر عن عاصم بن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه . وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره * وقد يكون هذا السياق لاهلاك عاد الآخرة فان فيما ذكره ابن اسحاق وغيره ذكر لمكة ولم تبن الا بعد ابراهيم الخليل حين اسكن فيها هاجر وابنه اسماعيل فنزلت جرهم عندهم كما سيأتى وعاد الأولى قبل الخليل وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى لايشبه كلام المتقدمين . وفيه أن فى تلك السحابة شرر نار وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر . وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين هى الباردة والعاتية الشديدة الهبوب (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) أى كوامل متتابعات * قيل كان أولها الجمعة وقيل الاربعاء (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) شبههم بأعجاز النخل التى لارؤس لها وذلك لأن الريح كانت تجئ الى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر) أى فى يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) ومن قال ان اليوم النحس المستمر هو يوم الاربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فانه قال فى الآية الأخرى (فارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات) ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات فلو كانت نحسات فى أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤمة وهذا لايقوله أحد وانما المراد فى أيام نحسات أى عليهم وقال تعالى (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) أى التى لا تنتج خيراً فان الريح المفردة لا تنثر سحابا ولا تلقح شجراً بل هى عقيم لانتيجة خير لها ولهذا قال (ماتذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم) أى كالشئ البالى الفانى الذى لاينتفع به بالكلية * وقد ثبت فى الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله (ص) أنه

قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور * وأما قوله تعالى (واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) فالظاهر أن عاداً هذه هى عاد الأولى فان سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى . ويحتمل أن يكون المذكورون فى هذه القصة هم عاد الثانية . ويدل عليه ماذكرنا وما سيأتى من الحديث عن عائشة رضى الله عنها * وأما قوله (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) فان عاداً لما رأوا هـذا العارض وهو الناشئ فى الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر فاذا هو سحاب عذاب اعتقدوه رحمة فاذا هو نقمة رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر قال الله تعالى (بل هو ما استعجلتم به) أى من العذاب ثم فسره بقوله (ريح فيها عذاب اليم) يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التى استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهـم أحداً بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهـم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا من أشد منا قوة سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو الريح العقيم * ويحتمل أن هذه الريح أثارت فى آخر الأمر سحابة ظن من بقى منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقى منهم فأرسلها الله عليهم شرراً ونارا كما ذكره غير واحد ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين وجمع لهـم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون من العذاب بالاشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التى ذكرها فى سورة قد أفلح المؤمنون والله أعلم *

وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس حدثنا ابن فضيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال قال رسول الله (ص) ما فتح الله على عاد من الريح التى أهلكوا بها الا مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها (قالوا هـذا عارض ممطرنا) فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة . وقد رواه الطبرانى عن عبدان بن أحمد عن اسماعيل بن زكريا الكوفى عن أبى مالك عن مسلم الملائى عن مجاهـد وسعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول (ص) ما فتح الله على عاد من الريح الا مثل موضع الخاتم . ثم أرسلت عليهم البدو الى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا وكان أهـل البوادى فيها فالقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا قال عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الابواب . قلت وقال غيره خرجت بغير حساب *

والمقصود أن هذا الحديث فى رفعه نظر . ثم اختلف فيه على مسلم الملائى وفيه نوع اضطراب والله أعلم * وظاهر الآية أنهم رأوا عارضا والمفهوم منـه لغة السحاب كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكرى ان جعلناه مفسراً لهـذه القصة . وأصرح منه فى ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه حيث قال

حدثنا أبو الطاهر حدثنا ابن وهب سمعت بن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله (ص) إذا عصفت الريح قال (اللهم اني اسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذبك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به)قالت واذا عبيت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فاذا أمطرت سرّى عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال لعله ياعائشة كما قال قوم عاد (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج *

طريق أخرى * قال الامام أحمد حدثنا هرون بن معروف أنبأنا عبد الله بن وهب أنبأنا عمرو وهو ابن الحارث أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة أنها قالت مارأيت رسول الله (ص) مستجمعاً ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم . وقالت كان اذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في وجهه قالت يارسول الله (الناس اذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك اذا رأيته عرف في وجهك الكراهية فقال ياعائشة مايؤمنني أن يكون فيه عذاب . قد عذب قوم نوح بالريح . وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا * فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا اليه أولا . فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الاحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية . وتكون بقية اسياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب * وهكذا رواه مسلم عن هارون ابن معروف وأخرجه البخاري وأبو داود من حديث ابن وهب * وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام. وروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن . وذكر آخرون أنه بدمشق وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام والله أعلم *

قصة صالح نبي ثمود عليه السلام

وهم قبيلة مشهورة يقال ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس وهما ابنا عابر بن ارم بن سام بن نوح وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك . وقد مر به رسول الله (ص) وهو ذاهب الى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتي بيانه وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو عبد الله ورسوله صالح بن عبد بن ماسح (١) بن عبيد بن حاجر

(١) وفي نسخة عبيد بن ماشخ والذي في العرائس هو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد ابن حاذر بن ثمود بن عابر بن إرم الخ نقلا عن (محمود الأمام)

ابن ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح فدعاهم الى عبادة الله وحده لاشريك له وأن يخلعوا الاصنام والانداد ولا يشركوا به شيئا فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى فى سورة الأعراف (والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم . هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين) وقال تعالى فى سورة هود (والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه إن ربى قريب مجيب . قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب . قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غير تخسير . وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ . إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) وقال تعالى فى سورة الحجر (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين . فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) وقال سبحانه وتعالى فى سورة سبحان (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ومانرسل بالآيات إلا تخويفاً) وقال تعالى فى سورة الشعراء (كذبت ثمود المرسلين . اذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى إلا على رب العالمين . أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا

تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى فى سورة النمل (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون . قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون . قالوا اطيرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون . وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكراً ومكرنا مكرا وهم لايشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال تعالى فى سورة حم السجدة (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقال تعالى فى سورة اقتربت (كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشراً منا واحدا نتبعه) انا اذا لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابى ونذر . انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وقال تعالى (كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها) . وكثيراً مايقرن الله فى كتابه بين ذكر عاد وثمود كما فى سورة براءة وابراهيم والفرقان وسورة (ص) وسورة (ق) والنجم والفجر * ويقال إن هاتين الأمتين لايعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر فى كتابهم التوراة ولكن فى القرآن مايدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى فى سورة ابراهيم (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فان الله لغنى حميد . ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات) الآية . الظاهر ان هذا من تمام كلام موسى مع قومه ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهورا فى زمان موسى عليه السلام * وقد تكلمنا على هذا كله فى التفسير متقصياً ولله الحمد والمنة *

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم وكيف نجى الله نبيه صالحا عليه السلام ومن آمن به وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام * قد قدمنا أنهم كانوا عربا وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم * ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام (اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله

ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) أى إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الارض تبنون فى سهولها القصور وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين أى حاذقين فى صنعتها واتقانها واحكامها فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لاشريك له وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فان عاقبة ذلك وخيمة ولهذا وعظهم بقوله (اتتركون فيما ههنا آمنين . فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم) أى مترا كم كثيرحسن بهى ناضج (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) وقال لهم أيضاً (ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) أى هو الذى خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها أى أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهوا لخالق الرزاق فهو الذى يستحق العبادة وحده لاسواه (فاستغفروه ثم توبوا اليه) أى أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فانه يقبل منكم ويتجاوز عنكم (إن ربى قريب مجيب قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة وهى دعاؤك إيانا الى إفراد العبادة وترك ما كنا نعبده من الانداد والعدول عن دين الآباء والاجداد ولهذا قالوا (اتنهانا أن نترك مايعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب - قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير) وهذا تلطف منه لهم فى العبارة ولين الجانب وحسن تأت فى الدعوة لهم الى الخير أى فما ظنكم إن كان الامر كما أقول لكم وأدعوكم اليه ماذا عذركم عند الله وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون منى أن اترك دعاءكم الى طاعته وأنا لايمكننى هذا لانه واجب على ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه ولا ينصرنى فأنا لا أزال أدعوكم الى الله وحده لاشريك له حتى يحكم الله بينى وبينكم وقالوا له أيضاً (انما أنت من المسحرين) أى من المسحورين يعنون مسحوراً لا تدرى ماتقول فى دعائك إيانا الى إفراد العبادة لله وحده وخلع ماسواه من الأنداد وهذا القول عليه الجمهور إن المراد بالمسحرين المسحورين * وقيل من المسحرين أى ممن له سحر وهى الرئة كأنهم يقولون انما أنت بشر له سحر والأول أظهر لقولهم بعد هذا ماأنت إلا بشر مثلنا * وقولهم (فأت بآية إن كنت من الصادقين) سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ماجاءهم (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم) وقال (قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم) وقال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) *

وقد ذكر المفسرون ان ثمود اجتمعوا يوما فى ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم الى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له ان أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا الى صخرة هناك ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا اوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبى صالح عليه السلام أرأيتم ان أجبتكم الى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به . قالوا نعم فاخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام الى مصلاه فصلى لله عز وجل ماقدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم الى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذى طلبوا أو على الصفة التى نعتوا فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيما ومنظراً هائلا وقدرة باهرة ودليلا قاطعاً وبرهانا ساطعاً فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال (فظلموا بها) أى جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أى أكثرهم . وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو بن محلاه بن لبيد بن جواس . وكان من رؤسائهم وهم بقية الأشراف بالاسلام فصدهم ذؤاب بن عمر بن لبيد والحباب صاحبا أوثانهم ورباب بن صمر بن جلمس ودعا جندع بن عمه شهاب بن خليفة وكان من اشرافهم فهم بالاسلام فنهاه أولئك فمال اليهم فقال فى ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله

وكانت عصبةٌ من آلِ عمرو ... الى دِينِ النبيِّ دَعوا شهابا
عزيزَ ثمودَ كلهمُ جميعاً ... فهمَّ بأن يُجيبَ ولو أجابا
لأصبحَ صالحٌ فينا عزيزاً ... وما عَدَلوا بصاحبهمْ ذؤابا
ولكنّ الغُواةَ من آلِ حجْرٍ ... تولّوا بعدَ رُشدِهمُ ذئابا (١)

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام (هذه ناقة الله لكم آية) أضافها لله سبحانه وتعالى اضافة تشريف وتعظيم كقوله بيت الله وعبد الله لكم آية أى دليلا على صدق ما جئتكم به فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم وكانت اذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا « قال لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » ولهذا قال تعالى (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم) أى اختبارا لهم أيؤمنون بها أم يكفرون والله أعلم بما يفعلون (فارتقبهم) أى انتظر ما يكون من امرهم (واصطبر) على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية (ونبئهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على ان يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان

(١) كذا بالاصل وفى العرائس ذبابا وفى نسخة تولوا بدل تولوا .

أعمالهم (قال الله تعالى (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) . وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع وكان أحمر ازرق أصهب وكان يقال انه ولد زانية ولد على فراش سالف وهو ابن رجل يقال له صيبان . وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلهذا نسب الفعل الى جميعهم كلهم *

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين أن امرأتين من ثمود اسم احداهما صدوق ابنة المحيا ابن زهير بن المختار وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له مصرع بن مهرج بن المحيا وعرضت عليه نفسها ان هو عقر الناقة واسم الاخرى عنيزة بنت غنيم بن مجلز وتكنى أم عثمان وكانت عجوزا كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو احد الرؤساء فعرضت بناتها الاربع على قدار بن سالف ان هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا فى قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون فى قوله تعالى (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) وسعوا فى بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها فاجابوهم الى ذلك وطاوعوهم فى ذلك فانطلقوا يرصدون الناقة فلما صدرت من وردها كمن لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النساء يزمرن القبيلة فى قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيبا لهم فابتدرهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة الى الارض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثم طعن فى لبتها فنحرها وانطلق سقبها وهو فصيلها فصعد جبلا منيعا ودعا ثلاثا *

وروى عبد الرزاق عن معمر عن سمع الحسن أنه قال يارب أين أمى ثم دخل فى صخرة فغاب فيها ويقال بل اتبعوه فعقروه أيضا قال الله تعالى (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابى ونذر) : وقال تعالى (اذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) أى احذروها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها) *

قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا هاشم هو أبو عزوة عن أبيه عبد الله بن زمعة قال خطب رسول الله (ص) فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال (اذ انبعث أشقاها) انبعث لها رجل من عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة . أخرجاه من حديث هشام بن عارم أى شهم عزيز أى رئيس منيع أى مطاع فى قومه *وقال محمد بن اسحاق حدثنى يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب عن محمد بن خيثم عن يزيد عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله (ص) لعلى ألا أحدثك بأشقى الناس قال بلى قال رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك ياعلى على هذا يعنى قرنه حتى تبتل منه هذه يعنى لحيته . رواه ابن أبى حاتم . وقال تعالى(فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا

ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين) فجمعوا فى كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه . منها انهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأكيد فى عقر الناقة التى جعلها الله لهم آية . ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين* أحدهما الشرط عليهم فى قوله (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) وفى آية عظيم وفى الاخرى اليم والكل حق * والثانى استعجالهم على ذلك * ومنها أنهم كذبوا الرسول الذى قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علما جازما ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم *قال الله تعالى (فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله فعرقبها فسقطت الى الارض ثم ابتدروها باسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قال لهم صالح (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) أى غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضا فى هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) أى لنكبسنه فى داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدن قتله وننكرن ذلك أن طالبنا أولياؤه بدمه. ولهذا قالوا (ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) قال الله تعالى (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام فلما أمسوا نادوا باجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل . ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل . وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان من الأجل . ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أى جهة يأتيهم العذاب فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق فأصبحوا فى دارهم جاثمين جثثا لا ارواح فيها ولا حراك بها . قالوا ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة ابنت السلق . ويقال لها الذريعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شئ فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء فلما شربت ماتت . قال الله تعالى (كأن لم يغنوا فيها) أى لم يقيموا فيها فى سعة ورزق وغناء (ألا إن

ثمود كفروا ربهم الا بعداً لثمود) . أى نادى عليهم لسان القدر بهذا *

قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبي الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله (ص.) بالحجر قال لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت يعني الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج (فعتوا عن أمر ربهم فعقروها) . وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله . فقالوا من هو يارسول الله قال هو أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه. وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو فى شئ من الكتب الستة والله أعلم *

وقد قال عبد الرزاق أيضا قال معمر أخبرنى اسماعيل بن أمية أن النبى (ص.) مر بقبر أبي رغال فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم . قال هذا قبر أبي رغال رجل من ثمود كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن * قال عبد الرزاق قال معمر قال الزهرى أبو رغال أبو ثقيف * هذا مرسل من هذا الوجه * وقد جاء من وجه آخر متصلا كما ذكره محمد بن اسحق فى السيرة عن اسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير سمعت عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله (ص.) يقول حين خرجنا معه الى الطائف فمررنا بقبر فقال إن هذا قبر أبي رغال. وهو أبو ثقيف. وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج منه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب ـ إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه . فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن * وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن اسحق به * قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى رحمه الله هذا حديث حسن عزيز . قلت تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ولا يعرف إلا بهذا الحديث ولم يرو عنه سوى اسماعيل ابن أمية * قال شيخنا فيحتمل أنه وهم فى رفعه وإنما يكون من كلام عبدالله بن عمرو من زاملته والله أعلم قلت لكن فى المرسل الذى قبله وفى حديث جابر أيضا شاهد له * والله أعلم . وقوله تعالى (فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ فى الذهاب عن محلتهم الى غيرها قائلا لهم (ياقوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم) أى جهدت فى هدايتكم بكل ما أمكننى وحرصت على ذلك بقولى وفعلى ونيتى (ولكن لا تحبون الناصحين) أى لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم الى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل الى الأبد وليس لى فيكم حيلة ولا لى بالدفع عنكم يدان والذى وجب على من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد وهكذا خاطب النبى (ص.) أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل

من آخر الليل فقال يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فانى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا وقال لهم فيما قال بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتمونى وصدقنى الناس وأخرجتمونى وآوانى الناس وقاتلتمونى ونصرنى الناس فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم فقال له عمر يارسول الله تخاطب أقواما قد جيفوا فقال (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لايجيبون) . وسيأتى بيانه فى موضعه ان شاء الله * ويقال إن صالحا عليه السلام انتقل الى حرم الله فأقام به حتى مات *

قال الامام احمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لما مر النبي (ص) بوادى عسفان حين حج قال يا أبا بكر أى واد هذا . قال وادى عسفان قال لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف ازرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق * اسناد حسن * وقدتقدم فى قصة نوح عليه السلام من رواية الطبرانى وفيه نوح وهود وابراهيم

مرور النبي بوادى الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله (ص) بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فاهراقوا القدور وعلفوا العجين الابل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم * وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله (ص) وهو بالحجر لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما اصابهم * اخرجاه فى الصحيحين من غير وجه * وفى بعض الروايات انه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم الا أن تكونوا باكين وفى رواية فان لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم * صلوات الله وسلامه عليه *

و قال الامام احمد حدثنا يزيد بن هرون حدثنا المسعودى عن اسمعيل بن اوسط عن محمد بن ابى كبشة الانمارى عن أبيه واسمه عمرو بن سعد ويقال عامر بن سعد رضى الله عنه قال لما كان فى غزوة تبوك فسارع الناس الى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله (ص) فنادى فى الناس الصلاة جامعة قال فاتيت النبي (ص) وهو ممسك بعيره وهو يقول ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم فناداه رجل تعجب منهم يارسول الله قال أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان

قبلكم وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فان الله لايعبأ بعذابكم شيئا وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً * إسناد حسن ولم يخرجوه . وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم فنحتوا لهم بيوتاً في الجبال . وذكروا أن صالحا عليه السلام لما سألوه آية فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة أمرهم بها وبالولد الذى كان فى جوفها وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك وذكر لهم صفة عاقرها وأنه احمر أزرق أصهب فبعثوا القوابل فى البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه فكانوا على ذلك دهرا طويلا وانقرض جيل وأتى جيل آخر . فلما كان فى بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله فى الرياسة فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة وهو قدار بن سالف فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجديه فيهم فنشأ نشأة سريعة فكان يشب فى الجمعة كما يشب غيره فى شهر حتى كان من أمره أن خرج مطاعاً فيهم رئيساً بينهم فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام . فلما وقع من أمرهم ماوقع من عقر الناقة وبلغ ذلك صالحا عليه السلام جاءهم باكيا عليها فتلقوه يعتذرون اليه ويقولون إن هذا لم يقع عن ملأمنا وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا . فيقال إنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا اليه عوضا عنها فذهبوا وراءه فصعد جبلا هناك فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير وبكى الفصيل حتى سالت دموعه . ثم استقبل صالحا عليه السلام ودعا ثلاثاً فعندها قال صالح تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام وذلك وعد غير مكذوب وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفراً ثم تحمر وجوههم فى الثانى وفى اليوم الثالث تسود وجوههم * فلما كان فى اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم فأصبحوا فى دارهم جاثمين * وفى بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن فى شأنهم وقصتهم كما قدمنا والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

قصة ابراهيم خليل الرحمن

هو ابراهيم بن تارخ « ٢٥٠ » بن ناحور « ١٤٨ » بن ساروغ « ٢٣٠ » بن راعو « ٢٣٩ » ابن فالغ « ٤٣٩ » بن عابر « ٤٦٤ » بن شالح « ٤٣٣ » بن أرفخشذ « ٤٣٨ » بن سام « ٦٠٠ » ابن نوح عليه السلام * هذا نص أهل الكتاب فى كتابهم وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندى كما ذكروه من المدد (١) وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته * وحكى الحافظ

(١) تنبيه هذه الارقام موافقة لما فى التوراة وأما الأسماء فأكثرها مخالفة لما فى التوراة * مثلا أن

ابن عساكر فى ترجمة ابراهيم الخليل من تاريخه عن اسحق بن بشر الكاهلى صاحب كتاب المبتدأ أن اسم أم ابراهيم أميلة * ثم اورد عنه فى خبر ولادتها له حكاية طويلة وقال الكلبى اسمها بونا بنت كربنا بن كرثى من بنى أرفخشذ بن سام بن نوح *

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال كان ابراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان قالوا ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له ابراهيم عليه السلام وناحور وهاران وولد لها ران لوط * وعندهم أن ابراهيم عليه السلام هو الأوسط وأن هاران مات فى حياة أبيه فى أرضه التى ولد فيها وهى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل * وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد ما روى من طريق هشام بن عمار عن الوليد عن سعيد ابن عبد العزيز عن مكحول عن ابن عباس قال ولد ابراهيم بغوطة دمشق فى قرية يقال لها برزة فى جبل يقال له قاسيون * ثم قال والصحيح أنه ولد ببابل . وانما نسب اليه هذا المقام لانه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام . قالوا فتزوج ابراهيم سارة وناحور ملكا ابنة هاران يعنون بابنة أخيه قالوا وكانت سارة عاقراً لاتلد قالوا وانطلق تارخ بابنه ابراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين الى أرض الكنعانيين فنزلوا حران فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة وهذا يدل على أنه لم يولد بحران وانما مولده بأرض الكلدانيين وهى أرض بابل وما والاها * ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين * وهى بلاد بيت المقدس فاقاموا بحران وهى أرض الكشدانيين فى ذلك الزمان وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً وكانوا يعبدون الكواكب السبعة . والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالى ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال * ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ويعملون لها أعياداً وقرابين * وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى ابراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام وكان الخليل عليه السلام هو الذى أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال فان الله سبحانه وتعالى آتاه رشده فى صغره وابتعثه رسولا واتخذه خليلا فى كبره قال تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) أى كان أهلا لذلك وقال تعالى (وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون . وان تكذبوا فقد كذب أمم من

ما فيها تارح بدل تارخ وسروج بدل ساروغ . وفالج بدل فالغ . وارفكشاد بدل أرفخشذ ورعو بدل راعو ووضعنا أرقام الاعمار بعد كل اسم *

قبلكم وماعلى الرسول الا البلاغ المبين. أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير. قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة . ان الله على كل شئ قدير يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون . وما انتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه اولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب اليم . فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أوحرقوه فأنجاه الله من النار . إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إنى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه اجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين)ثم ذكر تعالى مناظرته لابيه وقومه كما سنذكره ان شاء الله تعالى . وكان أول دعوته لأبيه وكان أبوه ممن يعبد الأصنام لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى (واذكر فى الكتاب ابراهيم إنه كان صديقا نبيا. اذ قال لابيه .ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . ياأبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا .ياأبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا. ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ان لا أكون بدعاء ربى شقيا). فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه الى الحق بألطف عبارة .وأحسن اشارة بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التى لاتسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه فكيف تغنى عنه شيئا أو تفعل به خيرا من رزق أو نصر * ثم قال منبها على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سناً من أبيه (ياأبت إنه قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سوياً)أى مستقيما واضحا سهلا حنيفا يفضى بك الى الخير فى دنياك وأخراك فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة اليه لم يقبلها منه ولا أخذها عنه بل تهدده وتوعده قال(أراغب أنت عن آلهتى ياابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك) قيل بالمقال وقيل بالفعال (واهجرنى مليا) أى واقطعنى وأطل هجرانى فعندها قال له ابراهيم (سلام عليك) أى لا يصلك منى مكروه ولا ينالك منى اذى بل أنت سالم من ناحيتى وزاده خيرا فقال (سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا)« قال ابن عباس وغيره أى لطيفا يعنى فى أن هدانى لعبادته والاخلاص له ولهذا قال (واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) . وقد استغفر له ابراهيم عليه السلام كما وعده فى أدعيته .فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له

أنه عدو لله تبرأ منه إن ابراهيم لأواه حليم)

وقال البخارى حدثنا اسمعيل ابن عبد الله حدثنى اخى عبد الحميد عن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال (يلقى ابراهيم اباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له ابراهيم ألم أقل لك لا تعصنى فيقول له أبوه فاليوم لاأعصيك فيقول ابراهيم يارب انك وعدتنى أن لاتخزنى يوم يبعثون وأى خزى أخزى من أبى الأبعد فيقول الله إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال ياابراهيم ما تحت رجليك فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار هكذا رواه فى قصة إبراهيم منفردا *

وقال فى التفسير وقال ابراهيم بن طهمان عن ابن أبى ذؤيب عن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة * وهكذا رواه النسائى عن احمد بن حفص بن عبد الله عن أبيه عن ابراهيم بن طهمان به . وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى (ص) بنحوه . وفى سياقه غرابة . ورواه أيضا من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبى سعيد عن النبى (ص) بنحوه وقال تعالى (واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين) هذا يدل على أن اسم أبى ابراهيم آزر وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة فقيل إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر *

وقال ابن جرير والصواب أن اسمه آزر ولعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب والآخر علم . وهذا الذى قاله محتمل والله أعلم * ثم قال تعالى (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برئ مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا ان يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شئ علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) . وهذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الاجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عز وجل لانها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة تطلع تارة وتأفل أخرى فتغيب عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شئ ولا تخفى عليه خافية بل هو الدائم الباقى بلا زوال لا إله الا هو ولا رب سواه فبين لهم أولا عدم

صلاحية الكواكب . قيل هو الزهرة لذلك ثم ترقى منها الى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى من حسنها . ثم ترقى الى الشمس التى هى أشد الاجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة كما قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون) ولهذا قال (فلما رأى الشمس بازغة) أى طالعة (قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون. انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به الا ان يشاء ربى شيئاً) . أى لست أبالى فى هذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله فانها لاتنفع شيئا ولا تسمع ولا تعقل بل هى مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها أو مصنوعة منحوتة منجورة *

والظاهر ان موعظته هذه فى الكواكب لأهل حران فانهم كانوا يعبدونها وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيرا كما ذكره ابن اسحق وغيره وهو مستند الى أخبار اسرائيلية لايوثق بها ولا سيما اذا خالفت الحق * وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الاصنام وهم الذين ناظرهم فى عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها كما قال تعالى (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا . ومأواكم النار ومالكم من ناصرين) وقال فى سورة الانبياء (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤسهم . لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين) وقال فى سورة الشعراء (واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون او ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لى الا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين. والذى هو يطعمنى ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين

رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين) . وقال تعالى فى سورة الصافات (وان من شيعته لأبراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم . اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . ائفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا اليه يزفون . قال أتعبدون ماتنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين) يخبر الله تعالى عن ابراهيم خليله عليه السلام انه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها فقال (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) أى معتكفون عندها وخاضعون لها قالوا (وجدنا آباءنا لها عابدين) ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والاجداد وما كانوا عليه من عبادة الانداد (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) كما قال تعالى (اذ قال لأبيه وقومه ما ذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين) قال قتادة فما ظنكم به أنه فاعل بكم اذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وقال لهم (هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) سلموا له أنها لا تسمع داعيا ولا تنفع ولا تضر شيئا وانما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء باسلافهم ومن هو مثلهم فى الضلال من الآباء الجهال ولهذا قال لهم (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين) وهذا برهان قاطع على بطلان آلهية ما ادعوه من الأصنام لأنه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضر لضرته أو تؤثر لأثرت فيه (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) يقولون هذا الكلام الذى تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا وتطعن بسببه فى آبائنا تقوله محقا جادا فيه أم لاعبا (قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) يعنى بل أقول لكم ذلك جاداً محقا وإنما إلهكم الله الذى لا إله الا هو ربكم ورب كل شئ فاطر السموات والارض الخالق لهما على غير مثال سبق فهو المستحق للعبادة وحده لاشريك له وأنا على ذلكم من الشاهدين . وقوله (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) أقسم ليكيدن هذه الأصنام التى يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين الى عيدهم . قيل إنه قال هذا خفية فى نفسه وقال ابن مسعود سمعه بعضهم وكان لهم عيد يذهبون اليه فى كل عام مرة الى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال إنى سقيم كما قال تعالى (فنظر نظرة فى النجوم . فقال انى سقيم) . عرض لهم فى الكلام حتى توصل الى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق فى بطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الاهانة * فلما خرجوا الى عيدهم واستقر هو فى بلدهم (راغ الى آلهتهم) أى ذهب اليها مسرعاً مستخفياً فوجدها فى بهو عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعا من الاطعمة قرباناً اليها (فقال) لها على سبيل التهكم والازدراء (ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين) لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم فى يده كما قال

تعالى (فجعلهم جذاذا) أى حطاما كسرها كلها (إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون) قيل إنه وضع القدوم فى يد الكبير إشارة الى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار . فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين)

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التى كانوا يعبدونها فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) أى يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها . وعلى قول ابن مسعود أى يذكرهم بقوله وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) أى فى الملأ الأكبر على رؤس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه كما قال موسى عليه السلام لفرعون (موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) فلما اجتمعوا وجاؤا به كما ذكروا (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا) قيل معناه هو الحامل لى على تكسيرها وإنما عرض لهم فى القول (فاسئلوهم إن كانوا ينطقون) وانما أراد بقوله هذا أن يبادروا الى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) أى فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا إنكم أنتم الظالمون أى فى تركها لاحافظ لها ولا حارس عندها (ثم نكسوا على رؤسهم) قال السدى أى ثم رجعوا الى الفتنة فعلى هذا يكون قوله إنكم أنتم الظالمون أى فى عبادتها * وقال قتادة أدركت القوم حيرة سوء أى فاطرقوا ثم قالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) أى لقد علمت يا ابراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيأ ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) كما قال (فأقبلوا اليه يزفون) قال مجاهد يسرعون * قال (أتعبدون ما تنحتون) أى كيف تعبدون أصناما أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة وتصورونها وتشكلونها كما تريدون (والله خلقكم وما تعملون) وسواء كانت ما مصدرية أو بمعنى الذى فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله فانه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم وهذا باطل فالآخر باطل للتحكم إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لاشريك له (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) . عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة الى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الرب جل جلاله وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال

تعالى (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى برداً وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) . وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق ابراهيم * ثم عمدوا الى جوبة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلاها شرر لم ير مثله قط * ثم وضعوا ابراهيم عليه السلام فى كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الاكراد يقال له هزن وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك فلما وضع الخليل عليه السلام فى كفة المنجنيق مقيداً مكتوفا ثم ألقوه منه الى النار قال حسبنا الله ونعم الوكيل كما روى البخارى عن ابن عباس أنه قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم حين ألقى فى النار وقالها محمد حين قيل له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا . وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) الآية *

وقال أبو يعلى حدثنا أبو هشام الرفاعى حدثنا اسحق بن سليمان عن أبى جعفر الرازى عن عاصم بن أبى النجود عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال (ص) لما ألقى ابراهيم فى النار قال اللهم إنك فى السماء واحد وأنا فى الأرض واحد أعبدك *

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له فى الهواء فقال ألك حاجة فقال أما اليك فلا * ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال جعل ملك المطر يقول متى أومر فارسل المطر فكان أمر الله أسرع (قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) قال على بن أبى طالب أى لاتضريه وقال ابن عباس وأبو العالية لولا أن الله قال وسلاما على ابراهيم لآذى ابراهيم بردها * وقال كعب الأحبار لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ولم يحرق منه سوى وثاقه * وقال الضحاك يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شئ غيره * وقال السدى كان معه أيضا ملك الظل . وصار ابراهيم عليه السلام فى ميل الجوبة حوله النار وهو فى روضة خضراء والناس ينظرون اليه لايقدرون على الوصول اليه ولاهو يخرج اليهم فعن أبى هريرة أنه قال أحسن كلة قالها أبو ابراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال نعم الرب ربك يا ابراهيم * وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم ابراهيم نظرت الى ابنها عليه السلام فنادته يابنى إنى أريد أن أجئ اليك فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك. فقال نعم فأقبلت اليه لا يمسها شئ من حر النار . فلما وصلت اليه اعتنقته وقبلته ثم عادت * وعن المنهال بن عمرو أنه قال أخبرت أن ابراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوما وأنه قال ما كنت أياما وليالى أطيب عيشاً إذ كنت فيها ووددت أن عيشى وحياتى كلها مثل إذ كنت فيها صلوات الله وسلامه عليه

فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا . قال الله تعالى (وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) وفى الآية الأخرى (الأسفلين) ففازوا بالخسارة والسفال هذا فى الدنيا وأما فى الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا ولا سلاما ولا يلقون فيها تحية ولا سلاما بل هى كما قال تعالى (إنها ساءت مستقرا ومقاما) .

قال البخارى حدثنا عبد الله بن موسى أو ابن سلام عنه أنبأنا ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير عن سعيد بن المسيب عن أم شريك أن رسول الله (ص) أمر بقتل الوزغ وقال وكان ينفخ على ابراهيم * ورواه مسلم من حديث ابن جريج * وأخرجاه والنسائى وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة به * وقال احمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ابن جريج أخبرنى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى أمية أن نافعا مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله (ص) قال اقتلوا الوزغ فانه كان ينفخ النار على ابراهيم . قال فكانت عائشة تقتلهن * وقال احمد حدثنا اسماعيل حدثنا أيوب عن نافع أن امرأة دخلت على عائشة فاذا رمح منصوب فقالت ماهذا الرمح فقالت نقتل به الأوزاغ . ثم حدثت عن رسول الله (ص) أن ابراهيم لما ألقى فى النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ فانه جعل ينفخها عليه * تفرد به أحمد من هذين الوجهين *

وقال أحمد حدثنا عفان حدثنا جرير حدثنا نافع حدثتنى سمامة مولاة الفاكه بن المغيرة قالت دخلت على عائشة فرأيت فى بيتها رمحا موضوعا فقلت يا أم المؤمنين ماتصنعين بهذا الرمح قالت هذا لهذه الاوزاغ نقتلهن به فان رسول الله (ص) حدثنا أن ابراهيم حين ألقى فى النار لم يكن فى الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه فأمرنا رسول الله (ص) بقتله * ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم به .

ذكر مناظرة ابراهيم الخليل مع من ادعى الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت . قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر . والله لا يهدى القوم الظالمين) . يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد

الذى أدعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه السلام دليله وبين كثرة جهله وقلة عقله وألجمه الحجة وأوضح له طريق المحجة *

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار وهذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قاله مجاهد. وقال غيره نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ ابن سام بن نوح قال مجاهد وغيره وكان أحد ملوك الدنيا فانه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة مؤمنان وكافران. فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان. والكافران النمرود وبختنصر وذكروا أن نمرود هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغا وبغا وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا *

ولما دعاه ابراهيم الخليل الى عبادة الله وحده لاشريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع فحاج ابراهيم الخليل فى ذلك وادعى لنفسه الربوبية. فلما قال الخليل ربى الذى يحى ويميت قال أنا أحى وأميت *

قال قتادة والسدى ومحمد بن اسحق يعنى أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما فاذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر. وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارجى عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض وهو انقطاع فى الحقيقة فان الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذى لابد من استنادها الى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة ثم إماتتها ولهذا (قال ابراهيم ربى الذى يحى ويميت) فقول هذا الملك الجاهل أنا أحى وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند وإن عنى ماذكره قتادة والسدى ومحمد بن اسحق فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل *

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلا آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة (قال فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أى هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها. وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شئ * فان كنت كما زعمت من أنك الذى تحى وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب فان الذى يحى ويميت هو الذى يفعل مايشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شئ ودان له كل شئ فان كنت كما تزعم فافعل هذا فان لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم وكل أحد أنك لاتقدر على شئ من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ماسلكه وتبجح به عند جهلة قومه ولم يبق له كلام يجيب الخليل

به بل انقطع وسكت ولهذا قال (فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين) *

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين ابراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ولم يكن إجتمع به يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة * وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يفدون اليه للميرة فوفد ابراهيم فى جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط ابراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شئ من الطعام * فلما قرب من أهله عمد الى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلى إذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة الى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً فعملت منه طعاماً * فلما أستيقظ ابراهيم وجد الذى قد أصلحوه فقال أنى لكم هذا قالت من الذى جئت به فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل * قال زيد بن أسلم وبعث الله الى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالايمان بالله فأبى عليه . ثم دعاه الثانية فأبى عليه . ثم الثالثة فأبى عليه. وقال اجمع جموعك وأجمع جموعى فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذبابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بادية ودخلت واحدة منها فى منخر الملك فمكثت فى منخرها أربعمائة سنة عذبه الله تعالى بها فكان يضرب رأسه بالمزارب فى هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها

هجرة الخليل إلى بلاد الشام ثم الديار المصرية واستقراره فى الأرض المقدسة

قال الله (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر الى ربى إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) وقال تعالى (ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) لما هجر قومه فى الله وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقرا لايولد لها ولم يكن له من الولد أحد بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل فى ذريته النبوة والكتاب فكل نبى بعث بعده فهو من ذريته وكل كتاب نزل من السماء على نبى من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه خلعة من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر الى بلد يتمكن

فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق اليه والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام وهي التي قال الله عز وجل (الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم * وروى العوفي عن ابن عباس قوله (الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) مكة ألم تسمع الى قوله (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين) .

وزعم كعب الاحبار أنها حران * وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط وأخوه ناحور وامرأة ابراهيم سارة وامرأة أخيه ملكا فنزلوا حران فمات تارح أبو ابراهيم بها

وقال السدي انطلق ابراهيم ولوط قبل الشام فلقي ابراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على أن لا يغيرها رواه ابن جرير وهو غريب * والمشهور أنها ابنت عمه هاران الذي تنسب اليه حران ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش فقد أبعد النجعة وقال بلا علم وادعى ان تزويج بنت الأخ كان اذ ذاك مشروعا فليس له على ذلك دليل . ولو فرض ان هذا كان مشروعا في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فان الانبياء لا تتعاطاه والله أعلم * ثم المشهور ان ابراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم والله أعلم . وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله اليه إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فابتنى ابراهيم مذبحا لله شكراً على هذه النعمة وضرب قبته شرقي بيت المقدس ثم انطلق مرتحلا الى التيمن وأنه كان جوع أي قحط وشدة وغلاء فارتحلوا الى مصر وذكروا قصة سارة مع ملكها وان ابراهيم قال لها قولي أنا أخته وذكروا خدام الملك اياها هاجر . ثم أخرجهم منها فرجعوا الى بلاد التيمن يعني أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال *

وقد قال البخاري حدثنا محمد بن محبوب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبي هريرة قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتان منهن في ذات الله قوله (إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقال بينا هو ذات يوم وسارة اذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له ان ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل اليه وسأله عنها فقال من هذه قال أختي فأتى سارة فقال يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فاخبرته أنك أختي فلا تكذبيني فأرسل اليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعا بعض حجبته فقال إنك لم تأتني بانسان وانما أتيتني بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم فقالت رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر * قال أبو هريرة تلك أمكم يابني ماء السماء . تفرد به من هذا الوجه موقوفا *وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن علي الفلاس عن عبد الوهاب الثقفي عن هشام بن حسان عن محمد

ابن سيرين عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال إن ابراهيم لم يكذب قط الا ثلاث كذبات كل ذلك فى ذات الله قوله (انى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة اذ نزل منزلا فأتى الجبار فقيل له إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل اليه فسأله عنها فقال إنها أختى فلما رجع اليها قال ان هذا سألنى عنك فقلت إنك أختى وإنه ليس اليوم مسلم غيرى وغيرك وانك أختى فلا تكذبينى عنده فانطلق بها فلما ذهب يتناولها أخذ فقال ادعى الله لى ولا أضرك فدعت له فأرسل فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها . فقال ادعى الله لى ولا أضرك فدعت فارسل ثلاث مرات فدعا أدنى حشمه فقال إنك لم تأتنى بانسان ولكن أتيتنى بشيطان أخرجها وأعطها هاجر فجاءت وابراهيم قائم يصلى فلما أحس بها انصرف فقال مهيم فقالت كفى الله كيد الظالم وأخدمنى هاجر وأخرجاه من حديث هشام * ثم قال البزار لا نعلم أسنده عن محمد عن أبي هريرة الا هشام ورواه غيره موقوفا *

وقال الامام احمد حدثنا على بن حفص عن ورقاء هو ابن عمر اليشكرى عن ابى الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات قوله حين دعى الى آلهتهم فقال (انى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله لسارة (انها أختى) قال ودخل ابراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل دخل ابراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس قال فارسل اليه الملك أو الجبار من هذه معك قال أختى قال فأرسل بها قال فارسل بها اليه وقال لا تكذبى قولى فانى قد أخبرته أنك أختى إن على الارض مؤمن غيرى وغيرك فلما دخلت عليه قام اليها فاقبلت توضأ وتصلى وتقول اللهم ان كنت تعلم انى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى الا على زوجى فلا تسلط على الكافر قال فغط حتى ركض برجله * قال أبو الزناد قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة إنها قالت اللهم ان يمت يقال هى قتلته قال فارسل قال ثم قام اليها قال فقامت توضأ وتصلى وتقول (اللهم ان كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر) قال فغط حتى ركض برجله قال أبو الزناد وقال أبو سلمة عن أبى هريرة انها قالت اللهم ان يمت يقل هى قتلته قال فارسل قال فقال فى الثالثة أو الرابعة ما أرسلتم الىّ الا شيطانا ارجعوها الى ابراهيم وأعطوها هاجر قال فرجعت فقالت لابراهيم أشعرت ان الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة * تفرد به احمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح * وقد رواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب بن أبى حمزة عن أبى الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة عن النبى (ص) به مختصرا * وقال ابن أبى حاتم حدثنا ابى حدثنا سفيان عن على بن زيد ابن جدعان عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال قال رسول الله (ص) فى كلمات ابراهيم الثلاث التى قال ما منها كلمة الا ما حل بها عن دين الله فقال إنى سقيم وقال بل فعله كبيرهم هذا وقال للملك حين اراد امرأته هى أختى فقوله فى الحديث هى أختى أى فى دين الله وقوله لها إنه ليس على وجه الارض مؤمن

غيرى وغيرك يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك ويتعين حمله على هذا لان لوطا كان معهم وهو نبى عليه السلام وقوله لما رجعت اليه مهيم معناه ما الخبر فقالت ان الله رد كيد الكافرين. وفى رواية الفاجر وهو الملك وأخدم جارية وكان ابراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها الى الملك قام يصلى لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله وأن يرد بأس هذا الذى اراد اهله بسوء وهكذا فعلت هى ايضا فلما اراد عدو الله ان ينال منها أمراً قامت الى وضوئها وصلاتها ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم ولهذا قال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة)فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله ابراهيم عليه السلام

وقد ذهب بعض العلماء الى نبوة ثلاث نسوة سارة وأم موسى ومريم عليهن السلام * والذى عليه الجمهور أنهن صديقات رضى الله عنهن وارضاهن * ورأيت فى بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين ابراهيم عليه السلام وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده الى أن رجعت اليه وكان مشاهدا لها وهى عند الملك وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته فانه كان يحبها حبا شديدا لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر فانه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء الى زمانها أحسن منها رضى الله عنها *ولله الحمد والمنة*

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخا للضحاك الملك المشهور بالظلم وكان عاملا لاخيه على مصر *ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملاق بن لاود بن سام ابن نوح . وذكر ابن هشام فى التيجان أن الذى أرادها عمرو بن امرىء القيس بن مايلون (١) بن سبأ وكان على مصر نقله السهيلى فالله أعلم *

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر الى أرض التيمن وهى الأرض المقدسة التى كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطيـة المصرية ثم إن لوطا عليه السلام نزح بماله من الاموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك الى أرض الغور المعروف بغور زغر فنزل بمدينة سدوم وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان وكان أهلها أشراراً كفارا فجاراً وأوحى الله تعالى الى ابراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك الى آخر الدهر وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض * وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها فى هذه الأمة المحمدية* يؤيد ذلك قول رسول الله (ص) ان الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها . قالوا ثم أن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا انعامه فلما بلغ

(١) قوله مايلون كذا فى النسختين المصريتين والذى فى النسخة الحلبية مايلبون

أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيرا وهزمهم وساق فى آثارهم حتى وصل الى شرقى دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة وأظن مقام ابراهيم انما سمى لأنه كان موقف جيش الخليل والله أعلم .

ثم رجع مؤيداً منصورا الى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه *

ذكر مولد اسماعيل عليه السلام من هاجر

قال أهل الكتاب إن ابراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة وأن الله بشره بذلك وأنه لما كان لابراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة قالت سارة لابراهيم عليه السلام إن الرب قد أحرمنى الولد فادخل على أمتى هذه لعل الله يرزقنى منها ولدا فلما وهبتها له دخل بها ابراهيم عليه السلام فحين دخل بها حملت منه قالوا فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها فغارت منها سارة فشكت ذلك الى ابراهيم فقال لها افعلى بها ماشئت فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك فقال لها ملك من الملائكة لاتخافى فان الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيراً وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابنا وتسميه اسماعيل ويكون وحش الناس يده على الكل ويد الكل به ويملك جميع بلاد إخوته فشكرت الله عزوجل على ذلك . وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه فانه الذى سادت به العرب وملكت جميع البلاد غربا وشرقا وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح مالم تؤت أمة من الأمم قبلهم وماذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل وبركة رسالته ويمن بشارته وكماله فيما جاء به وعموم بعثته لجميع أهل الأرض . ولما رجعت هاجر وضعت اسماعيل عليه السلام قالوا وولد لابراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد اسحق بثلاث عشرة سنة ولما ولد اسماعيل أوحى الله الى ابراهيم يبشره باسحق من سارة فخر لله ساجداً وقال له قد استجبت لك فى اسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كثيرا ويولد له اثنا عشر عظيما وأجعله رئيساً لشعب عظيم وهذه ايضا بشارة بهذه الأمة العظيمة وهؤلاء الاثنا عشر عظيما هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر المبشر بهم فى حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبى (ص) قال (يكون اثنا عشر أميراً) ثم قال كلمة لم افهمها فسألت أبى ما قال قال (كلهم من قريش) أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية لايزال هذا الأمر قائماوفى رواية عزيزاً حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش . فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . ومنهم عمر بن عبد العزيز ايضا . ومنهم بعض بنى العباس وليس المراد أنهم يكونون اثنى عشر نسقاً بل لابد من وجودهم وليس المراد الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم على بن أبى طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا وهو محمد ابن الحسن العسكرى فيما يزعمون فان أولئك لم يكن فيهم أنفع من

على وابنه الحسن بن على حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية وأخمد نار الفتنة وسكن رحى الحروب بين المسلمين والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة فى أمر من الأمور * وأما ما معتقدونه بسرداب سامرا فذاك هوس فى الرؤس وهذيان فى النفوس لا حقيقة له ولا عين ولا أثر *

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها اسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم ويقال إن ولدها كان إذ ذاك رضيعا فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت اليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت يا ابراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا فلم يجبها فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له الله أمرك بهذا قال نعم قالت فاذاً لا يضيعنا * وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله فى كتاب النوادر أن سارة تغضبت على هاجر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها فأمرها الخليل أن تثقب اذنيها وأن تخفضها فتبر قسمها * قال السهيلى فكانت أول من اختتن من النساء وأول من ثقبت أذنها منهن وأول من طولت ذيلها *

ذكر مهاجرة ابراهيم بابنه اسمعيل وأمه هاجر الى جبال فاران وهى أرض مكة وبنائه البيت العتيق

قال البخارى قال عبد الله بن محمد هو أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أيوب السختيانى وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل فقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به انس ولا شئ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت اليها فقالت له الله أمرك بهذا قال نعم قالت إذاً لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال (ربنا إنى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند

بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)
وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد مافى السقاء عطشت وعطش
ابنها وجعلت تنظر اليه يلتوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل
فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً فهبطت من الصفا
حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادى ثم
أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى احداً فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات * قال ابن عباس
قال النبى (ص) فلذلك سعى الناس بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها .
ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث
بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها
وهى تفور بعد ماتغرف * قال ابن عباس قال النبى (ص) (يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم)
أوقال (لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا) فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافى
الضيعة فان ههنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الارض
كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو
أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كدا فنزلوا فى أسفل مكة فرأو طائرا عائفا فقالوا ان هذا الطائر
ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادى ومافيه ماء فارسلوا جريا أوجريين فاذا هم بالماء فرجعوا فاخبروهم بالماء
فاقبلوا قال وأم اسميل عند الماء فقالوا تأذنين لنا ان ننزل عندك قالت نعم ولكن لاحق لكم فى الماء
قالوا نعم * قال عبد الله بن عباس قال النبى (ص) فالفى ذلك أم اسميل وهى تحب الانس فنزلوا وأرسلوا
الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم
وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم اسميل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسميل
يطالع تركته فلم يجد اسميل فسأل امرأته فقالت خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت
نحن بشر فى ضيق وشدة وشكت اليه * قال فاذا جاء زوجك اقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة
بابه فلما جاء اسميل كأنه آنس شيئاً فقال هل جاءكم من أحد فقالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا
عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنانى جهد وشدة . قال فهل أوصاك بشئ قالت نعم أمرنى
أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك قال ذاك أبى وأمرنى أن أفارقك الحقى بأهلك فطلقها
وتزوج منهم أخرى ولبث عنهم ابراهيم ما شاء الله * ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه
فقالت خرج يبتغى لنا قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على
الله فقال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرابكم قالت الماء . قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء .

قال النبي (ص) ولم يكن لهم يومئذ حب . ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه فهما لا يخلو عليهما أحد(١) بغير مكة الا لم يوافقاه قال فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء اسمعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال فأوصاك بشيء قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال ذاك أبي وأمرني أن أمسكك * ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك واسمعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد * ثم قال يا اسمعيل إن الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك به ربك قال وتعينني قال وأعينك قال فان الله أمرني ان أبني ههنا بيتا وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسمعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني واسمعيل يناوله الحجارة وهما يقولان (ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) قال وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان (ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) ثم قال حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا أبو عامر عبد الملك ابن عمرو حدثنا ابراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما كان من ابراهيم وأهله ما كان خرج باسمعيل وأم اسمعيل ومعهم شنة فيها ماء * وذكر تمامه بنحو ما تقدم وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه وفي بعضه غرابة وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الاسرائيليات * وفيه أن اسمعيل كان رضيعا اذذاك * وعند أهل التوراة أن ابراهيم أمره الله بأن يختن ولده اسمعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره فيكون عمر اسمعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة وهذا امتثال لامر الله عز وجل في أهله فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء انه واجب على الرجال كما هو مقرر في موضعه

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي عن أبي الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة قال قال النبي (ص) اختتن ابراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم * تابعه عبد الرحمن بن اسحق عن أبي الزناد تابعه عجلان عن أبي هريرة ورواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة * وهكذا رواه مسلم عن قتيبة به * وفي بعض الالفاظ اختتن ابراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم والقدوم هو الآلة وقيل موضع وهذا

---

(١) قوله فهما لايخلو عليهما أحد الى قوله الالم يوافقاه كذا بالأصول الشامية والمصرية وهو سقيم وفي مثل هذا الموضع من العرائس الثعلبي فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت مكة أكثر أرض الله برا وشعيرا وتمرا انتهى عن (محمود الامام)

اللفظ لا ينافى الزيادة على الثمانين . والله أعلم لما سيأتى من الحديث عند ذكر وفاته عن أبى هريرة عن رسول الله (ص) أنه قال اختتن ابراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة رواه ابن حبان فى صحيحه . وليس فى هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه اسمعيل ولم يذكر فى قدمات ابراهيم عليه السلام الا ثلاث مرات أولاهن بعد أن تزوج اسمعيل بعد موت هاجر وكيف تركهم من حين صغر الولد على ما ذكر الى حين تزويجه لا ينظر فى حالهم . وقد ذكر أن الارض كانت تطوى له وقيل إنه كان يركب البراق اذا سار اليهم فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم فى غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة * وكان بعض هذا السياق متلقى من الاسرائيليات ومطرز بشئ من المرفوعات ولم يذكر فيه قصة الذبيح وقد دللنا على أن الذبيح هو اسمعيل على الصحيح فى سورة الصافات

قصة الذبيح

قال الله تعالى (وقال إنى ذاهب الى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه ان ياابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين . انهذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الا خرين . سلام على ابراهيم . كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) . يذكر تعالى عن خليله ابراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه ان يهب له ولداً صالحا فبشره الله تعالى بغلام حليم وهو اسماعيل عليه السلام لانه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا ما لاخلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده وبكره وقوله (فلما بلغ معه السعى) أى شب وصار يسعى فى مصالحه كأبيه قال مجاهد (فلما بلغ معه السعى) أى شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل . فلما كان هذا رأى ابراهيم عليه السلام فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا .وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعا رؤيا الانبياء وحى * قاله عبيد ابن عمير أيضا وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله فى أن يذبح هذا الولد العزيز الذى جاءه على كبر وقد طعن فى السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر الله فى ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه فجعل الله لهما فرجا ومخرجا ورزقهما من حيث لا يحتسبان . ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذى قد أفرده عن امر ربه وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع الى طاعته ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا (قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر

ماذا ترى) فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل ابراهيم فقال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين * وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد قال الله تعالى (فلما أسلما وتله للجبين) قيل أسلما أى استسلما لأمر الله وعزما على ذلك .وقيل هذا من المقدم والمؤخر والمعنى تله للجبين أى ألقاه على وجهه . قيل أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده فى حال ذبحه قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك . وقيل بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقى طرف جبينه لاصقا بالأرض واسلما أى سمى ابراهيم وكبر وتشهد الولد للموت * قال السدى وغيره أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئا ويقال جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس والله أعلم . فعند ذلك نودى من الله عز وجل (أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك الى أمر ربك وبذلك ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان ولهذا قال تعالى (إن هذا لهو البلاء المبين) أى الاختبار الظاهر البين وقوله (وفديناه بذبح عظيم) أى وجعلنا فداء ذبح ولده مايسره الله تعالى له من العوض عنه والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطا بسمرة فى ثبير .قال الثورى عن عبدالله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبيرعن ابن عباس قال كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا(١) وقال سعيد بن جبير كان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر . وعن ابن عباس هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه . رواه ابن أبى حاتم *

قال مجاهد فذبحه بمنى وقال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام . فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا وعن الحسن أنه كان تيسا من الأروى . واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما * ثم غالب ماههنا من الآثار مأخوذ من الاسرائيليات * وفى القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر وأنه فدى بذبح عظيم وقد ورد فى الحديث أنه كان كبشا * قال الامام أحمد حدثنا سفيان حدثنا منصور عن خاله نافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتنى إمرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت أرسل رسول الله (ص) الى عثمان بن طلحة وقال مرة إنها سألت عثمان لم دعاك رسول الله (ص) قال إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فانه لا ينبغى أن يكون فى البيت شئ يشغل المصلى قال سفيان لم تزل قرنا الكبش فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا . وهكذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقا عندميزاب الكعبة قد يبس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح اسمعيل لأنه كان هو المقيم بمكة. واسحق لا نعلم أنه قدمها فى حال صغره والله أعلم .

وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هو اسمعيل لانه ذكر قصة الذبيح ثم قال

---

(١) وفى نسخة سبعين خريفا *

بعده (وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين) ومن جعله حالا فقد تكلف ومستنده أنه اسحق إنما هو اسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ولا سيما ههنا قطعا لا محيد عنه فان عندهم أن الله أمر ابراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفى نسخة من المعربة بكره اسحق فلفظة اسحق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة لانه ليس هو الوحيد ولا البكر . ذاك اسمعيل . وانما حملهم على هذا حسد العرب فان اسمعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله (ص) واسحق والد يعقوب وهو اسرائيل الذين ينتسبون اليه فارادوا أن يجروا هذا الشرف اليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . وقد قال بانه اسحق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم . وانما أخذوه والله أعلم من كعب الاحبار أو صحف أهل الكتاب وليس فى ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه اسمعيل . وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظى على أنه اسمعيل وليس باسحق من قوله فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحق يعقوب قال فكيف تقع البشارة باسحق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح اسحق وهو صغير قبل أن يولد له هذا لا يكون لانه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم *

وقد اعترض السهيلى على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله (فبشرناها باسحاق) جملة تامة وقوله (ومن وراء إسحاق يعقوب) جملة أخرى ليست فى حيز البشارة . قال لانه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضا إلا أن يعاد معه حرف الجر فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو حتى يقال ومن بعده بعمرو . وقال فقوله (ومن وراء إسحق يعقوب) منصوب بفعل مضمر تقديره (ووهبنا لاسحق يعقوب) وفى هذا الذى قاله نظر . ورجح أنه اسحاق واحتج بقوله (فلما بلغ معه السعى) قال واسماعيل لم يكن عنده انما كان فى حال صغره هو وأمه بجبال مكة فكيف يبلغ معه السعى * وهذا أيضا فيه نظر لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب فى كثير من الأوقات راكبا البراق الى مكة يطلع على ولده وابنه ثم يرجع والله أعلم * فمن حكى القول عنه بأنه اسحق كعب الأحبار * وروى عن عمر والعباس وعلى وابن مسعود ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبى ومقاتل وعبيد بن عمر وأبى ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهرى والقاسم وابن أبى بردة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدى والحسن وقتادة وأبى الهذيل وابن سابط وهو اختيار ابن جرير وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ولكن الصحيح عنه وعن أكثر هؤلاء أنه اسماعيل عليه السلام . قال مجاهد وسعيد والشعبى ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس هو اسماعيل عليه السلام وقال ابن جرير حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب اخبرنى عمرو بن قيس عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى اسماعيل وزعمت اليهود أنه اسحق وكذبت اليهود * وقال عبد الله بن الامام احمد

عن أبيه هو اسماعيل * وقال ابن أبي حاتم سألت أبي عن الذبيح فقال الصحيح أنه اسماعيل عليه السلام *

قال ابن أبي حاتم وروى عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قالوا الذبيح هو اسماعيل عليه السلام * وحكاه البغوي ايضا عن الربيع بن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء * قلت وروى عن معاوية وجاء عنه أن رجلا قال لرسول (ص.) يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله (ص.) واليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن اسحاق بن يسار وكان الحسن البصري يقول لاشك في هذا

وقال محمد بن اسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب انه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة اذ كان معه بالشام يعني استدلاله بقوله بعد القصة فبشرناه باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب فقال له عمر إن هذا الشيء ما كنت انظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل الى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن اسلامه وكان يرى انه من علمائهم قال فسأله عمر بن عبد العزيز أي ابني ابراهيم أمر بذبحه فقال اسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على ان يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه اسحق لأن اسحق أبوهم * وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في في كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة

مولد اسحاق

قال الله تعالى (وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين. وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) * وقد كانت البشارة به من الملائكة لابراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين الى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم كما سيأتي بيانه في موضعه ان شاء الله تعالى قال الله تعالى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لا تصل اليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب. قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) وقال تعالى (ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون. قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم. قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون. قالوا بشرناك بالحق فلا

تـكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) وقال تعالى (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليـه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه اليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) يذكر تعالى أن الملائكة قالوا وكانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل لما وردوا على الخليل حسبهم أضيافا فعاملهم معاملة الضيوف شوى لهم عجلا سمينا من خيار بقره فلما قربه اليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة الى الأكل بالكلية وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة الى الطعام (فنكرهم) ابراهيم (وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط) . أى لندمر عليهم فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم وكانت قائمة على رؤس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم فلما ضحكت استبشاراً بذلك قال الله تعالى (فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) أى بشرتها الملائكة بذلك (فأقبلت امرأته فى صرة) أى فى صرخة (فصكت وجهها) أى كما يفعل النساء عند التعجب (وقالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً) أى كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم ايضا وهذا بعلى أى زوجى شيخاً تعجبت من وجود ولد والحالة هذه ولهذا قالت (إن هذا لشئ عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) وكذلك تعجب ابراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحا بها (قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) أكدوا الخبر بهـذه البشارة وقرروه معه فبشروهما (بغلام عليم) . وهو اسحق وأخوه اسماعيل غلام حليم مناسب لمقامـه وصبره وهكذا وصفه ربه بصدق الوعـد والصبر . وقال فى الآية الأخرى (فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظى وغيره على أن الذبيح هو اسماعيل وأن اسحق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده *

وعند أهـل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ وهو المشوى رغيفا من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن . وعندهم أنهم أكلوا وهـذا غلط محض * وقيل كانوا يرون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى فى الهواء . وعنـدهم أن الله تعالى قال لابراهيم أما ساراى امرأتك فلا يدعى اسمها ساراى ولـكن اسمها سارة وأبارك عليها وأعطيك منها ابنا وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه فخر ابراهيم على وجهه يعنى ساجدا وضحك قائلا فى نفسه أبعد مائة سـنة يولد لى غلام أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة . وقال ابراهيم لله تعالى ليت اسماعيل يعيش قدامك فقال الله لابراهيم بحقى إن امرأتك سارة

تلد لك غلاما وتدعو اسمه اسحق الى مثل هذا الحين من قابل واوثقه ميثاق الى الدهر ولخلفه من بعده وقد استجبت لك فى اسماعيل وباركت عليه وكبرته ونميته جدا كثيرا ويولد له أثنا عشر عظيما وأجعله رئيسا لشعب عظيم * وهذا تكلمنا على هذا بما تقدم والله أعلم. قوله تعالى (فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها اسحق ثم من بعده بولد ولده يعقوب أى يولد فى حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده . ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل اسحق فائدة ولما عين بالذكر دل على انهما يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله وقال تعالى (ووهبناله اسحق ويعقوب كلا هدينا) وقال تعالى (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبناله اسحق ويعقوب) وهذا ان شاء الله ظاهر قوى ويؤيده ماثبت فى الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن ابراهيم بن يزيد التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال قلت يارسول الله أى مسجد وضع أول قال المسجد الحرام قلت ثم أى قال المسجد الأقصى . قلت كم بينهما قال أربعون سنة قلت ثم أى قال ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد . وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذى اسس المسجد الأقصى وهو مسجد ايليا بيت المقدس شرفه الله . وهذا متجه ويشهد له ماذكرناه من الحديث فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو اسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه اسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود اسحق لأن ابراهيم عليه السلام لما دعا قال فى دعائه كما قال تعالى (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن اضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) . وماجاء فى الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثا كما ذكرناه عند قوله (رب اغفرلى وهب لى ملكا لاينبغى لاحد من بعدى) وكما سنورده فى قصته فالمراد من ذلك والله أعلم أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ولم يقل أحد إن بين سليمان وابراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان فى تقاسيمه وأنواعه وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق اليه

بناء البيت العتيق

قال الله تعالى (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا . ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا . ومن كفر فان الله غني عن العالمين) وقال تعالى (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال إني جاعلك للناس اماما . قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين . واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الانبياء عليه أفضل صلاة وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوأه الله مكانه أي ارشده اليه ودله عليه * وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره أنه ارشد اليه بوحي من الله عز وجل . وقد قدمنا في صفة خلق السموات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها وكذلك معابد السموات السبع كما قال بعض السلف إن في كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض فأمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام أن يبني له بيتا يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات وأرشده الله الى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض كما ثبت في الصحيحين أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ولم يجىء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام * ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته المعظم عند الانبياء موضعه من لدن آدم الى زمان ابراهيم * وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا له قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك ولكن كل هذه الاخبار عن بني اسرائيل * وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق فهي مردودة . وقد قال الله (إن أول بيت وضع

الناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) أى أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذى ببكة * قيل مكة وقيل محل الكعبة (فيه آيات بينات) أى على أنه بناه الخليل والد الانبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته ولهذا قال (مقام ابراهيم) أى الحجر الذى كان يقف عليه قائما لما ارتفع البناء عن قامته فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء كما تقدم فى حديث ابن عباس الطويل . وقد كان هذا الحجر ملصقا بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان الى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأخره عن البيت قليلا لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت واتبع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا فانه قد وافقه ربه فى اشياء منها فى قوله لرسوله «ص» لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى فأنزل الله (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقد كانت آثار قدمى الخليل باقية فى الصخرة الى أول الاسلام وقد قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المشهورة .

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراق لبرّ فى حراء ونازل (١)
وبالبيت حقّ البيت من بطن مكة ... وبالله إنّ الله ليس بغافل
وبالحجر المسودّ إذ يمسحونه ... اذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ ابراهيم فى الصخر رطبة ... على قدميه حافيا غير ناعل

يعنى أن رجله الكريمة غاصت فى الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة ولهذا قال تعالى (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل) أى فى حال قولهما (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) فهما فى غاية الاخلاص والطاعة لله عز وجل وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)

---

(١) قال فى المعجم بعد بيان معنى ثور أنه الجبل الذى فيه الغار . وقال أبو طالب عم النبى عليه السلام .
أعوذ برب الناس من كل طاعن * علينا بشرّ أو ملح بباطل * ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة * ومن مفتر فى الدين مالم يحاول * وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه * وعير وراق (١) فى حراء ونازل . وقال الجوهرى ثور جبل بمكة وفيه الغار المذكور فى القرآن الى أن قال صاحب المعجم ايضا وقد قيل إن بمكة ايضا جبل اسمه عير ويشهد بذلك بيت أبى طالب المذكور فانه ذكر جبال مكة وذكر فيها عيرا فيكون المعنى أن حرم المدينة مقدار مابين عير الى ثور اللذين بمكة أو حرم المدينة تحريما مثل تحريم مابين عير وثور بمكة بحذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ووصف المصدر المحذوف الخ (١) قوله وعير وراق هكذا فى المعجم . والذى فى القصيدة المطبوعة بالآستانة والاصول التى بأيدينا وراق لبر . والبر العبادة

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع فى واد غير ذى زرع ودعا لاهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الاشجار والزروع والثمار وأن يجعله حرما محرما وآمنا محتما فاستجاب الله وله الحمد له مسألته ولبى دعوته وآتاه طلبته فقال تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) وقال تعالى (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا) وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم أى من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى . وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولا وأى رسول ختم به انبياءه ورسله واكمل له من الدين مالم يؤت احداً قبله وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم فى سائر الاقطار والأمصار والأعصار الى يوم القيامة * كان هذا من خصائصه من بين سائر الانبياء لشرفه فى نفسه وكمال ما أرسل به وشرف بقعته وفصاحة لغته وكمال شفقته على أمته ولطفه ورحمته وكريم محتده وعظيم مولده وطيب مصدره ومورده ولهذا استحق ابراهيم الخليل عليه السلام اذ كان بانى الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه ومحله وموضعه فى منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذى هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور الذى يدخله كل يوم سبعون الفا من الملائكة يتعبدون فيه . ثم لايعودون اليه الى يوم البعث والنشور وقد ذكرنا فى التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت وما ورد فى ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية فمن أراده فليراجعه ثم ولله الحمد * فمن ذلك ماقال السدى لما أمر الله ابراهيم واسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدريا اين مكانه حتى بعث الله ريحا يقال له الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية فكنست لهما ماحول الكعبة عن اساس البيت الأول واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس وذلك حين يقول تعالى (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) فلما بلغا القواعد بنيا الركن قال ابراهيم لاسماعيل يابنى اطلب لى الحجر الأسود من الهند وكان ابيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس فجاءه اسماعيل بحجر فوجده عند الركن . فقال ياأبتى من جاءك بهذا قال جاء به من هو انشط منك فبنيا وهما يدعوان الله (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وذكر ابن أبى حاتم أنه بناه من خمسة اجبل وأن ذا القرنين وكان ملك الأرض إذ ذاك مر بهما وهما يبنيانه فقال من أمركما بهذا فقال ابراهيم الله أمرنا به فقال وما يدرينى بما تقول فشهدت خمسة اكبش انه أمره بذلك فآمن وصدق *

وذكر الازرقى أنه طاف مع الخليل بالبيت وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد ابراهيم من جهة الشمال مما يلى الشام على ماهى عليه اليوم * وفى الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله بن محمد بن أبى بكر اخبر بن عمر عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألم ترى الى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد ابراهيم فقلت يارسول

أفلا تردها على قواعد ابراهيم قال لولا حدثان قومك وفى رواية لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية أو قال بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ولجعلت بابها بالارض ولأدخلت فيها الحجر * وقد بناها ابن الزبير رحمه الله فى أيامه على ما أشار اليه رسول الله (ص) حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه فلما قتله الحجاج فى سنة ثلاث وسبعين كتب الى عبد الملك بن مروان الخليفة اذ ذاك فاعتقدوا ان ابن الزبير انما صنع ذلك من تلقاء نفسه فامر بردها الى ما كانت عليه فنقضوا الحائط الشامى وأخرجوا منها الحجر ثم سدوا الحائط وردموا الاحجار فى جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقى وسدوا الغربى بالكلية كما هو مشاهد الى اليوم ثم لما بلغهم أن ابن الزبير انما فعل هذا لما اخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك * ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور استشار الامام مالك بن أنس فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير فقال له إنى أخشى أن يتخذها الملوك لعبة يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد فاستقر الامر على ما هى عليه اليوم

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله ابراهيم

قال الله (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما. قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) . لما وفى ما أمره ربه به من التكاليف العظيمة جعله للناس اماما يقتدون به ويأتمون بهديه وسأل الله أن تكون هذه الامامة متصلة بسببه وباقية فى نسبه وخالدة فى عقبه فأجيب الى ما سأل ورام. وسلمت اليه الامامة بزمام واستثنى من نيلها الظالمون واختص بها من ذريته العلماء العاملون كما قال تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب. وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب. وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) * وقال تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين. واسمعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم). فالضمير فى قوله ومن ذريته عائد على ابراهيم على المشهور. ولوط وان كان ابن أخيه الا أنه دخل فى الذرية تغليبا. وهذا هو الحامل للقائل الآخر ان الضمير على نوح كما قدمنا فى قصته والله أعلم. وقال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب)

الآية . فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الانبياء بعد ابراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته . وهذه خلعة سنية لا تضاهى ومرتبة عليه لا تباهى . وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان اسمعيل من هاجر ثم اسحق من سارة وولد لهذا يعقوب وهو اسرائيل الذي ينتسب اليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم الا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني اسرائيل وأما اسمعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها كما سنبينه فيما بعد ان شاء الله تعالى ولم يوجد من سلالته من الانبياء سوى خاتمهم على الاطلاق وسيدهم وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي المكي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة وواسطة العقد الفاخرة وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة . وقد ثبت عنه في صحيح مسلم كما سنورده أنه قال (سأقوم مقاما يرغب الى الخلق كلهم حتى ابراهيم) فمدح ابراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق•

وقال البخاري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله (ص) يعوذ الحسن والحسين ويقول أن أباكما كان يعوذ بهما اسمعيل وإسحق . أعوذ بكلمات الله التامة . من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة . ورواه أهل السنن من حديث منصور به وقال تعالى (واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا . واعلم أن الله عزيز حكيم) ذكر المفسرون لهذا السؤال اسبابا بسطناها في التفسير وقررناها بأتم تقرير• والحاصل أن الله عز وجل أجابه الى ما سأل فأمره أن يعمد الى أربعة من الطيور واختلفوا في تعيينها على اقوال والمقصود حاصل على كل تقدير فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه في بعض ثم يقسمه قسما ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ففعل ما أمر به ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن فلما دعاهن جعل كل عضو يطير الى صاحبه وكل ريشة تأتي الى أختها حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه وهو ينظر الى قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون فأتين اليه سعيا ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانا • ويقال إنه أمر أن يأخذ رؤسهن في يده فجعل كل طائر يأتي فيلقي رأسه فيتركب على جثته كما كان فلا إله الا الله وقد كان ابراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على احياء الموتى علما يقينيا لا يحتمل النقيض ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانا ويترقى من علم اليقين الى عين اليقين فأجابه الله الى سؤاله وأعطاه غاية مأموله • وقال تعالى (يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة

والأنجيل الا من بعده افلا تعقلون. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم . فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم فبرأه الله منهم وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى قوله (وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده) أى فكيف يكون على دينكم وأنتم انما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ولهذا قال (أفلا تعقلون) الى أن قال (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) . فبين أنه كان على دين الله الحنيف وهو القصد الى الاخلاص والانحراف وعمدا عن الباطل الى الحق الذى هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية كما قال تعالى (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى . قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانو يعملون . وقالوا كونو هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد أهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السمع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم يقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون) . فنزه الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهوديا أو نصرانيا وبين أنه انما كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين ولهذا قال تعالى (إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه) يعنى الذين كانوا على ملته من اتباعه فى زمانه ومن تمسك بدينه من بعدهم (وهذا النبى) يعنى محمدا ﷺ فان الله شرع له الدين الحنيف الذى شرعه للخليل وكمله الله تعالى له وأعطاه مالم يعط نبيا ولا رسولا قبله كما قال تعالى (قل إننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وقال تعالى إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه

فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين)
وقال البخارى حدثنا ابراهيم بن موسى حدثنا هشام عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن النبى (ص) لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ورأى ابراهيم واسمعيل بايديهما الأزلام فقال قاتلهم الله والله إن يستقسما بالازلام قط (١) لم يخرجه مسلم * وفى بعض الفاظ البخارى قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط . فقوله (أمة) أى قدوة إماما مهتديا داعيا الى الخير يقتدى به فيه (قانتا لله) أى خاشعا له فى جميع حالاته وحركاته وسكناته (حنيفا) أى مخلصا على بصيرة (ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه) أى قائما بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله (اجتباه) أى اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته واتخذه خليلا وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة وقال تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا) يرغب تعالى فى اتباع ابراهيم عليه السلام لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم وقد قام بجميع ما أمره به ربه ومدحه تعالى بذلك فقال (وابراهيم الذى وفى) ولهذا اتخذه الله خليلا والخلة هى غاية المحبة كما قال بعضهم

قد تخللت مسلكَ الروحِ مني وبذا سُمّي الخليلُ خليلا

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الانبياء وسيد الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلى وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله (ص) أنه قال أيها الناس إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا . وقال أيضا فى آخر خطبة خطبها أيها الناس لو كنت متخذا من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله . أخرجاه من حديث أبى سعيد وثبت أيضا من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود . وروى البخارى فى صحيحه حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال إن معاذا لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ واتخذ الله ابراهيم خليلا . فقال رجل من القوم لقد قرت عين أم ابراهيم * وقال ابن مردويه حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم حدثنا اسمعيل بن أحمد ابن اسيد حدثنا ابراهيم بن يعقوب الجوزجانى بمكة حدثنا عبد الله الحنفى حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة ابن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال جلس ناس من أصحاب رسول الله (ص) ينتظرونه فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم واذا بعضهم يقول عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلا فابراهيم خليله * وقال آخر ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليما . وقال آخر فعيسى روح الله وكلمته . وقال آخر آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم فسلم وقال قد سمعت كلامكم وعجبكم أن ابراهيم خليل الله وهو

(١) قوله ان استقسما إن نافية . أى والله ما استقسما بالازلام قط محمود الامام

كذلك وموسى كليمه وهو كذلك وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك . ألا وإني حبيب الله ولا فخر ألا وإني أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر * هذا حديث غريب من هذا الوجه وله شواهد من وجوه أخر والله أعلم * وروى الحاكم في مستدركه من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال أتنكرون أن تكون الخلة لابراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين * وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمود بن خالد السلمي حدثنا الوليد عن اسحاق بن يسار قال لما اتخذ الله ابراهيم خليلا ألقى في قلبه الوجل حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير في الهواء وقال عبيد بن عمير كان ابراهيم عليه السلام يضيف الناس فخرج يوماً يلتمس إنساناً يضيفه فلم يجد احداً يضيفه فرجع الى داره فوجد فيها رجلا قائما فقال ياعبد الله ما أدخلك داري بغير إذني قال دخلتها بأذن ربها * قال ومن أنت قال أنا ملك الموت أرسلني ربي الى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذه خليلا قال من هو فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه ثم لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت قال ذلك العبد أنت قال أنا قال نعم قال فيم اتخذني ربي خليلا قال بأنك تعطي الناس ولا تسألهم . رواه ابن أبي حاتم * وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له فقيل إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعا منها خمسة عشر في البقرة وحدها وهو احد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الانبياء في آيتي الاحزاب والشورى وهما قوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وقوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) الآية . ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد (ص) وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون اليه آخر ما عليهم . وما وقع في حديث شريك ابن أبي نمير عن أنس في حديث الاسراء من أن ابراهيم في السادسة وموسى في السابعة فما انتقد على شريك في هذا الحديث والصحيح الأول *

وقال احمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول (ص) إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الرحمن . تفرد به احمد .

ثم مما يدل على أن ابراهيم أفضل من موسى الحديث الذي قال فيه (وأخرت الثالثة ليوم يرغب الى الخلق كلهم حتى ابراهيم) رواه مسلم من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وهذا هو المقام المحمود

الذى أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر) ثم ذكر إستشفاع الناس بآدم ثم بنوح ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً (ص) فيقول (أنا لها أنا لها) الحديث . وهكذا رواه البخارى فى مواضع أخر ومسلم والنسائى من طريق عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله وهو ابن عمر العمرى به *

قال البخارى حدثنا على بن عبد الله حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبد الله حدثنى سعيد عن أبيه عن أبى هريرة قال قيل يارسول الله من أكرم الناس قال أتقاهم . قالوا ليس عن هذا نسألك قال فيوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله . قالوا ليس عن هذا نسألك قال فمن معادن العرب تسألونى خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا * ثم قال البخارى قال أبو أسامة ومعتمر عن عبيد الله عن سعيد عن أبى هريرة عن النبى (ص) قلت وقد أسنده فى موضع آخر من حديثهما وحديث عبدة ابن سليمان والنسائى من حديث محمد بن بشر اربعتهم عن عبيد الله بن عمر عن سعيد عن أبى هريرة عن النبى (ص) وقال أحمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم خليل الله . تفرد به أحمد * وقال البخارى حدثنا عبدة حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن عمر عن النبى (ص) قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم . تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر به * فاما الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا يحيى عن سفيان حدثنى مغيرة بن النعمان عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس عن النبى (ص) « يحشر الناس حفاة عراة غرلا فأول من يكسى ابراهيم عليه السلام » ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده) فاخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعى الكوفى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به . وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضى الأفضلية بالنسبة الى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون * وأما الحديث الآخر الذى قال الامام أحمد حدثنا وكيع وأبو نعيم حدثنا سفيان هو الثورى عن مختار بن فلفل عن انس بن مالك قال قال رجل للنبى (ص) ياخير البرية فقال ذاك ابراهيم فقد رواه مسلم من حديث الثورى وعبد الله بن إدريس وعلى بن مسهر ومحمد بن فضيل اربعتهم عن المختار بن فلفل * وقال الترمذى حسن صحيح * وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كما قال لاتفضلونى على الانبياء وقال لاتفضلونى على موسى فان الناس يصعقون يوم القيامة فاكون أول من يفيق فاجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدرى افاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور * وهذا كله لاينافى فى ماثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة وكذلك

حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم وأخرت الثالثة ليوم يرغب الى الخلق كلهم حتى ابراهيم . ولما كان ابراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولى العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أمر المصلى أن يقول في تشهده ماثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره قال قلنا .يارسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك« قال قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم إنك حميد مجيد » وقال تعالى (وابراهيم الذى وفى) قالوا وفى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الايمان وشعبه وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ولا ينسيه القيام باعباء المصالح الكبار عن الصغار . قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن) قال إبتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد . في الرأس قص الشارب والمضمضة والسواك والاستنشاق وفرق الراس وفى الجسد تقليم الاظفار وحلق العانة والختان ونتف الابط وغسل أثر الغائط والبول بالماء . رواه ابن أبي حاتم * وقال وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك قلت وفى الصحيحين عن أبي هريرة عن النبى (ص) قال الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الاظفار ونتف الابط * وفى صحيح مسلم وأهل السنن من حديث وكيع عن ذكريا بن أبي زائدة عن مصعب بن شيبة العبدرى المكى الحجبى عن طلق بن حبيب العنزى عن عبدالله بن الزبير عن عائشة قالت قال رسول الله (ص) عشر من الفطرة قص الشارب واعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الاظفار وغسل البراجم ونتف الابط وحلق العانة وإنتقاص الماء يعنى الاستنجاء وسيأتى في ذكر مقدار عمره الكلام على الختان * والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالاخلاص لله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الاصلاح والتحسين وإزالة مايشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح أو وسخ فهذا من جملة قوله تعالى في حقه من المدح العظيم وابراهيم الذى وفى *

قصره في الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا احمد بن سنان القطان الواسطى ومحمد بن موسى القطان قالا حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) إن في الجنة قصرا احسبه قال من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهى أعده الله لخليله ابراهيم عليه السلام نزلا . قال البزار وحدثناه احمد بن جميل المروزى حدثنا النضر بن شميل حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن

عكرمة عن أبي هريرة عن النبي (ص) بنحوه ثم قال وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حماد بن سلمة فأسنده الا يزيد بن هارون والنضر بن شميل وغيرهما يرويه موقوفا قلت لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح ولم يخرجوه *

صفة ابراهيم عليه السلام

قال الامام احمد حدثنا يونس وحجين قالا حدثنا الليث عن أبي الزبير عن جابر عن رسول الله (ص) أنه قال عرض على الانبياء فاذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى ابن مريم فاذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ورأيت ابراهيم فاذا أقرب من رأيت به شبها دحية . تفرد به الامام احمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ * وقال أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا اسرائيل عن عثمان يعني ابن المغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) رأيت عيسى ابن مريم وموسى وابراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر وأما موسى فآدم جسيم . قالوا له فابراهيم قال انظروا الى صاحبكم يعني نفسه * وقال البخارى حدثنا بيان بن عمرو حدثنا النضر أنبأنا ابن عون عن مجاهد أنه سمع ابن عباس وذكروا له الدجال بين عينيه كافر او (ك ف ر) قال لم أسمعه ولكنه قال (ص) أما ابراهيم فانظروا الى صاحبكم وأما موسى فجعد آدم على جمل احمر مخطوم بخلبة كأنى أنظر اليه انحدر فى الوادى . ورواه البخارى ايضا ومسلم عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدى عن عبد الله بن عون به * وهكذا رواه البخارى ايضا فى كتاب الحج وفى اللباس ومسلم جميعا عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدى عن عبد الله بن عون به

وفاة ابراهيم وما قيل فى عمره

ذكر ابن جرير فى تاريخه أن مولده كان فى زمن النمرود بن كنعان وهو فيما قيل الضحاك الملك المشهور الذى يقال إنه ملك الف سنة وكان فى غاية الغشم والظلم * وذكر بعضهم أنه من بنى راسب الذين بعث اليهم نوح عليه السلام وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا . وذكروا أنه طلع نجم اخفى ضوء الشمس والقمر فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود . فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا يولد مولود فى رعيتك يكون زوال ملكك على يديه . فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء وأن يقتل المولودون من ذلك الحين فكان مولد ابراهيم الخليل فى ذلك الحين فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار وشب شبابا باهرا وانبته الله نباتا حسنا حتى كان من أمره ما تقدم وكان مولده بالسوس وقيل ببابل وقيل بالسواد من ناحية كوثى (١) وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقى دمشق فلما

(١) قال فى معجم البلدان (كوثى) بالضم ثم السكون والثاء مثلثة والف مقصورة تكتب بالياء لأنها

أهلك الله نمرود على يديه وهاجر الى حران ثم الى أرض الشام وأقام ببلاد ايليا كما ذكرنا وولد له اسماعيل واسحق وماتت سارة قبله بقرية حبرون التي فى أرض كنعان ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها ابراهيم عليه السلام ورثاها رحمها الله واشترى من رجل من بنى حيث يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربع مائة مثقال ودفن فيها سارة هنالك قالوا ثم خطب ابراهيم على ابنه اسحق فزوجه رفقا بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجوارها على الابل قالوا ثم تزوج ابراهيم عليه السلام قنطورا فولدت له زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح . وذكروا ماولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا . وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب فى صفة مجيء ملك الموت الى ابراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها * وقد قيل إنه مات فجأة وكذا داود وسليمان والذى ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك . قالوا ثم مرض ابراهيم عليه السلام ومات عن مائة وخمس وسبعين * وقيل وتسعين سنة ودفن فى المغارة المذكورة التى كانت بحبرون الحيثى عند إمرأته سارة التى فى مزرعة عفرون الحيثى وتولى دفنه اسمعيل واسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين * وقد ورد ما يدل أنه عاش مائتى سنة كما قاله ابن الكلبى وقال أبو حاتم بن حبان فى صحيحه أنبأنا المفضل بن محمد الجندى بمكة حدثنا على بن زياد اللخمى حدثنا أبو قرة عن ابن جريج عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن النبى (ص) قال اختتن ابراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة وقد رواه الحافظ بن عساكر من طريق عكرمة بن ابراهيم وجعفر بن عون العمرى عن يحيى ابن سعيد عن سعيد عن أبى هريرة موقوفا *

ثم قال ابن حبان ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد نيست (١) حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن ابن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال اختتن ابراهيم حين بلغ مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة واختتن بقدوم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن سعيد عن ابن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى (ص) وقد أتت

رابعة الاسم الى قوله (كوثى) فى ثلاث مواضع بسواد العراق وفى أرض بابل وبمكة . الى قوله وكوثى العراق كوثيان أحدهما كوثى الطريق . والآخر كوثى ربى وبها مشهد ابراهيم الخليل عليه السلام . وبها مولده وهما من أرض بابل وبها طرح ابراهيم فى النار وهما ناحيتان الخ الخ راجع المعجم .

(١) قوله محمد بن عبد الله بن الجنيد نيست كذا فى نسخة وفى اخرى ابن الحد ...) بما ترى والمعروف من اسماء الرجال فى ترجمة قتيبة بن سعيد ان ممن روى عنه محمد بن عبد الله بن نمير وليس ممن روى عنه ممن سمى محمد بن عبد الله غيره (محمود الامام)

عليه ثمانون سنة . ثم روى ابن حبان عن عبدالرزاق أنه قال القدوم اسم القرية . قلت الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة * وفي رواية وهو ابن ثمانين سنة وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك والله أعلم * وقال محمد بن اسماعيل الحساني الواسطي زادني تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال كان ابراهيم أول من تسرول وأول من فرق وأول من استحد وأول من اختتن بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة واول من قرى الضيف وأول من شاب هكذا رواه موقوفا وهو اشبه بالمرفوع خلافا لابن حبان والله أعلم *

وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال كان ابراهيم أول من أضاف الضيف وأول الناس اختتن وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب فقال يارب ما هذا فقال الله « وقار » فقال يارب زدني وقارا وزاد غيرهما وأول من قص شاربه وأول من استحد وأول من لبس السراويل * فقبره وقبر ولده اسحق وقبر ولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة وجيل بعد جيل من زمن بني اسرائيل والى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقا . فاما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم فينبغي أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها وأن تبجل وأن تجل أن يداس في ارجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها * وروى ابن عساكر بسنده الى وهب بن منبه قال وجد عند قبر ابراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة *

ألهى جهولاً أمله يموتُ مَن جا أجله
ومَن دنا من حتفه لم تُغن عنه حِيَله
وكيفَ يبقى آخر مَن ماتَ عنهُ أوله
والمرءُ لا يصحبه في القبر إلا عمله

ذكر أولاد ابراهيم الخليل

أول من ولد له اسماعيل من هاجر القبطيه المصرية ثم ولد له اسحق من سارة بنت عم الخليل ثم تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة مدين وزمران وسرج ويقشان ونشق ولم يسم السادس ثم تزوج بعدها حجون بنت امين فولدت له خمسة كيسان وسورج واميم ولوطان ونافس * هكذا ذكره أبوالقاسم السهيلي في كتابه التعريف والاعلام .

ومما وقع في حياة ابراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصة قوم لوط عليه السلام وماحل بهم من النقمة

القصة وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح وهو آزر كما تقدم ولوط ابن أخي ابراهيم الخليل فابراهيم وهاران وناحور اخوة كما قدمنا ويقال إن هاران هذا هو الذي بني حران * وهذا ضعيف لمخالفته مابأيدي أهل الكتاب والله أعلم * وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بامره له وأذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة اليها ولها أهل من افجر الناس واكفرهم واسوأهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ولايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم اليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين وترك ماخلق الله من النسوان لعباده الصالحين فدعاهم لوط الى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذي لايرد مالم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثلة في العالمين وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غيرما موضع من كتابه المبين فقال تعالى في سورة الأعراف(ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين)وقال تعالى في سورة هود (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لاتصل اليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحاق يعقوب . قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن ابراهيم لحليم أواه منيب . ياابراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك . وإنهم آتيهم عذاب غير مردود . ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون اليه . ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال ياقوم هؤلاء بناتي هن اطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد . قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد . قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك فاسر باهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا إمرأتك إنه مصيبها ما أصابهم ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهي من الظالمين ببعيد) وقال تعالى في سورة الحجر (ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون قال لاتوجل إنا نبشرك

بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين
قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا الى قوم مجرمين .
إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين . إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين . فلما جاء آل لوط المرسلون قال
إنكم قوم منكرون . قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وآتيناك بالحق وإنا لصادقون . فاسر بأهلك
بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا اليه ذلك الامر
أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين . وجاء أهل المدينة يستبشرون . قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون .
واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أولم ننهك عن العالمين . قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين . لعمرك إنهم
لفى سكرتهم يعمهون . فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل .
إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم . إن فى ذلك لآية للمؤمنين) وقال تعالى فى سورة
الشعراء(كذبت قوم لوط المرسلين * اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله
وأطيعون وما أسألكم عليه من اجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتأتون الذكران من العالمين .
وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون * قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من
المخرجين * قال إنى لعملكم من القالين * رب نجنى وأهلى مما يعملون * فنجيناه وأهله أجمعين *
إلا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين * إن فى ذلك لآية
وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى فى سورة النمل (ولوطا إذ قال
لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون. أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون *
فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله
إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين). وقال تعالى فى سورة
العنكبوت(ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون
الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب
الله إن كنت من الصادقين . قال رب انصرنى على القوم المفسدين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى
قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية * إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها
لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعا
وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل
هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) وقال تعالى فى
سورة الصافات (وإن لوطاً لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين . الا عجوزا فى الغابرين * ثم دمرنا
الآخرين * وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون) وقال تعالى فى الذاريات بعد قصة

ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم (قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا الى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين * فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم) وقال في سورة الانشقاق (كذبت قوم لوط بالنذر إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر * ولقد انذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر * ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر *)

وقد تكلمنا على هذه القصص فى أماكنها من هذه السورة فى التفسير * وقد ذكر الله لوطاً وقومه فى مواضع أخر من القرآن تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود * والمقصود الآن ايراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم مجموعا من الآيات والآثار وبالله المستعان * وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطى ماذكر الله عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وهموا باخراج رسولهم من بين ظهرانيهم وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم اذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فجعلوا غاية المدح ذما يقتضى الاخراج وما حملهم على مقالتهم هذه الا العناد واللجاج فطهره الله وأهله الا امرأته وأخرجهم منها أحسن اخراج وتركهم فى محلتهم خالدين لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج لكنها عليهم فى الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج وما كان هذا جوابهم الا لما نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى التى لم يسبقهم اليها احد من اهل الدنيا * ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون فى ناديهم وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الاقوال والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل انهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم ولا يستحيون من مجالسهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل وكانوا فى ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ولم يقلعوا عما كانوا عليه فى الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضى ولا راموا فى المستقبل تحويلا فأخذهم الله أخذاً وبيلا وقالوا له فيما قالوا (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين فغار الله لغيرته وغضب لغضبته واستجاب لدعوته واجابه الى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل ابراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بما جاؤا له من الأمر الجسيم والخطب العميم (قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا انا ارسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل

عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين) وقال (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا اهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين. قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) وقال الله تعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط) . وذلك إنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا . ولهذا قال تعالى (إن ابراهيم لحليم أواه منيب . يا ابراهيم اعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) أى أعرض عن هذا وتكلم فى غيره فانه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم إنه قد جاء أمر ربك أى قد أمر به من لا يرد أمره ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه وإنهم آتيهم عذاب غير مردود .

وذكر سعيد بن جبير والسدى وقتادة ومحمد بن اسحق أن ابراهيم عليه السلام جعل يقول * (أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن قالوا لا قال فمائتا مؤمن قالوا لا قال فاربعون مؤمنا قالوا لا قال فاربعة عشر مؤمنا قالوا لا) قال ابن اسحق الى أن قال (أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد قالوا لا) قالوا إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها) الا ية وعند أهل الكتاب أنه قال يارب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلا صالحا فقال الله لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحا ثم تنازل الى عشرة فقال الله (لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون) قال الله تعالى (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب) قال المفسرون لما فصلت الملائكة من عند ابراهيم وهم جبريل وميكائيل واسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صور شبان حسان اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس فخشى إن لم يضفهم يضيفهم غيره وحسبهم بشراً من الناس وسيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب *

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن اسحق شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم فى غيرهم وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف احدا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه * وذكر قتادة انهم وردوا عليه وهو فى ارض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيى منهم وانطلق امامهم وجعل يعرّض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا فى غيرها فقال لهم فيما قال ياهؤلاء ما أعلم على وجه الارض اهل بلد اخبث من هؤلاء ثم مشى قليلا ثم اعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال وكانوا قد امروا ان لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك *

وقال السدى خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى ذعرتا فقالوا لها ياجارية هل من منزل فقالت لهم مكانكم لاتدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم من قومها فأتت اباها

فقالت يا أباه اراداك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فاخبرت قومها فقالت إن فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون اليه . وقوله (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) . أى هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة (قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) يرشدهم الى غشيان نسائهم وهن بناته شرعا لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد كما ورد فى الحديث وكما قال تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وفى قول بعض الصحابة والسلف وهو أب لهم . وهذا كقوله (أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) وهذا هو الذى نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن انس وقتادة والسدى ومحمد ابن اسحق وهو الصواب . والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب وقد تصحف عليهم كما أخطأوا فى قولهم إن الملائكة كانوا إثنين وانهم تعشوا عنده وقد خبط أهل الكتاب فى هذه القصة تخبيطا عظيما وقوله (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد) نهى لهم عن تعاطى مالا يليق من الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولافيه خير بل الجميع سفهاء . فجرة أقوياء . كفرة أغبياء . وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعو منه من قبل أن يسألوه عنه . فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد . مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد (لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد) يقولون عليهم لعائن الله لقد علمت يالوط إنه لا أرب لنا فى نسائنا وانك لتعلم مرادنا وغرضنا . واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا . سطوة العظيم . ذى العذاب الأليم . ولهذا قال عليه السلام (لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) ود أن لو كان له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب * وقد قال الزهرى عن سعيد بن المسيب وأبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعا (نحن أحق بالشك من ابراهيم ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى) ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن ابى هريرة * وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال رحمة الله على لوط لقد كان يأوى الى ركن شديد يعنى الله عز وجل فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه . وقال تعالى (وجاء أهل المدينة يستبشرون قال ان هولاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أو لم ننهك عن العالمين . قال هؤلاء بناتى ان كنتم فاعلين) فامرهم بغربان نسائهم وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيآتهم هذا وهم فى ذلك لا ينتهون ولا يرعوون بل كلما لهم يالئون فى تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرضون . ولم يعلموا ماحكم

به القدر مما هم اليه صائرون. وصيحة ليلتهم اليه منقلون(١) ولهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) وقال تعالى (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ما لهم في الجاج والحاح فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال « لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد لأحلت بكم النكال » قالت الملائكة (يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك) وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتحسسون مع الحيطان . ويتوعدون رسول الرحمن . ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شان قال الله تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) فذلك أن الملائكة تقدمت الى لوط عليهم السلام آمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل ولا يلتفت منكم أحد يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم « وقوله (إلا امرأتك) على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله فاسر بأهلك كأنه يقول الا امرأتك فلا تسر بها . ويحتمل أن يكون من قوله ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك أي فانها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم . ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع ولكن الأول أظهر في المعنى والله أعلم «

قال السهيلي واسم امرأة لوط والهة واسم امرأة نوح والغة . وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والاشباه الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد ويقال إن امرأته خرجت معه فالله أعلم. فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يرد . ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد « وعند أهل الكتاب أن الملائكة أمروه أن يصعد الى رأس الجبل الذي هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب الى قرية قريبة منهم فقالوا اذهب فانا ننتظرك حتى تصير اليها وتستقر فيها ثم نحل بهم العذاب فذكروا أنه ذهب الى قرية صغر التي يقول الناس غور زغر فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد) قالوا اقتلعهن جبريل بطرف

---

(١) وفي النسخة الحلبية منتقلون

جناحه من قرارهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الامم فقالوا إنهم كانوا أربع مائة نسمة . وقيل أربعة آلاف نسمة وما معهم من الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضى والاماكن والمعتملات فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها قال مجاهد فكان أول ما سقط منها شرفاتها (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) والسجيل فارسى معرب وهو الشديد الصلب القوى (منضود) أى يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم من السماء (مسومة) أى معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه كما قال (مسومة عند ربك للمسرفين) وكما قال تعالى (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) وقال تعالى (والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى) يعنى قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم فى بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها * ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت الى قومها وخالفت أمر ربها قديما وحديثا وقالت واقوماه فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها اذ كانت على دينهم وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان كما قال تعالى (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين) أى خانتاهما فى الدين فلم يتبعاهما فيه . وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا ولما . فان الله لا يقدر على نبى أن تبغى امرأته كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف مابغت امرأة نبى قط * ومن قال خلاف هذا فقد اخطأ خطأ كبيرا . قال الله تعالى فى قصة الإفك لما انزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لما أهل الافك ماقالوا فعاتب الله المؤمنين وانب وزجر ووعظ وحذر وقال فيما قال (اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) أى سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة * وقوله ههنا (وما هى من الظالمين ببعيد) أى وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم فى فعلهم . ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصنا أولا نص عليه الشافعى وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة واحتجوا أيضا بما رواه الامام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) وذهب أبو حنيفة الى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى (وما هى من الظالمين ببعيد) . وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها

ولا بما حولها من الاراضى المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه . ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين فى انجائه إياهم من المهلكات . واخراجه إياهم من النور الى الظلمات كما قال تعالى (ان فى ذلك لآ ية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى (فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم . ان فى ذلك لآية للمؤمنين) أى من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم كيف غير الله تلك البلاد وأهلها وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة . هالكة غامرة . كما روى الترمذى وغيره مرفوعا (اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله) ثم قرأ (ان فى ذلك لآيات للمتوسمين) وقوله (وانها لبسبيل مقيم) أى لبطريق مهيع مسلوك الى الآن كما قال (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) وقال تعالى (ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون) وقال تعالى (فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم) أى تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشى الرحمن بالغيب و خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط (ومن تشبه بقوم فهو منهم) وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم فان لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد فالعاقل اللبيب الخائف من ربه الفاهم يمتثل ما أمره الله به عز وجل ويقبل ما ارشده اليه رسول الله من إتيان ماخلق له من الزوجات الحلال. والجوارى من السرارى ذوات الجمال . وإياه أن يتبع كل شيطان مريد . فيحق عليه الوعيد .ويدخل فى قوله تعالى (وماهى من الظالمين ببعيد)

قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى فى سورة الاعراف بعد قصة قوم لوط (والى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من آله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون . وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا ان عدنا

فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ومايكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شئ علماً . على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم اذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال ياقوم لقد ابلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) . وقال فى سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضا .
(والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ. قالوا ياشعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء . إنك لانت الحليم الرشيد . قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسناً وما أريد ان أخالفكم الى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب . وياقوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبو اليه إن ربى رحيم ودود . قالوا ياشعيب مانفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط . وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنو معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) . وقال فى الحجر بعد قصة قوم لوط أيضا . (وإن كان اصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين) وقال تعالى فى الشعراء بعد قصتهم (كذب أصحاب الأيكة المرسلين اذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول امين. فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن اجرى إلا على رب العالمين . اوفو الكيل ولاتكونوا من المخسرين وزنو بالقسطاس المستقيم . ولاتبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . واتقوا الله الذى خلقكم والجبلة الأولين. قالوا انما أنت من المسحرين وماأنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربى أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم مدين التى هى قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط . وكانوا بعدهم بمدة قريبة . ومدين قبيلة عرفت بهم القبيلة

وهم من بنى مدين بن مديان بن ابراهيم الخليل وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل (١) بن يشجن(٢) ذكره ابن اسحاق قال ويقال له بالسريانية يثرون (٣) وفى هذا نظر ويقال شعيب بن يشخر بن لاوى بن يعقوب ويقال شعيب بن نويب بن عيفا (٤) بن مدين بن ابراهيم ويقال شعيب بن ضيفور بن عيفا (٥) بن ثابت بن مدين بن ابراهيم وقيل غير ذلك فى نسبه .

قال ابن عساكر ويقال جدته ويقال أمه بنت لوط وكان ممن آمن بابراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق وعن وهب ابن منبه أنه قال شعيب وملغم ممن آمن بابراهيم (٦) يوم أحرق بالنار وهاجرا معه الى الشام فزوجهما بنتى لوط عليه السلام . ذكره ابن قتيبة * وفى هذا كله نظر أيضا والله أعلم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب فى ترجمة سلمة بن سعد العنزى قدم على رسول الله (ص) فأسلم وانتسب الى عنزة فقال نعم الحى عنزة مبغى عليهم منصورون قوم شعيب وأختان(٧) موسى فلو صح هذا لدل على أن شعيبا من موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة لا أنهم من عنزة ابن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فان هؤلاء بعده بدهر طويل والله أعلم .

وفى حديث أبى ذر الذى فى صحيح ابن حبان فى ذكر الأنبياء والرسل قال (أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر) وكان بعض السلف يسمى شعيبا خطيب الأنبياء يعنى لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته فى دعاية قومه الى الايمان برسالته * وقد روى ابن اسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال كان رسول الله (ص) اذا ذكر شعيبا قال (ذاك خطيب الأنبياء) وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها وكانوا من أسوء الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم واخافتهم لهم فى سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد . وهو الولى الحميد . كما قال تعالى (وإلى مدين أخاهم شعيبا. قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) أى دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ماجئتكم به وانه أرسلنى وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التى لم تنقل الينا تفصيلا وان كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالا

(١) وفى الطبرى ميكائيل (٢) فى نسخة يشخر (٣) فى نسخة يثرون كما فى الطبرى (٤) فى الطبرى عنقا (٥) فى نسخة صيفور. وفى الطبرى صيفون (٦) عبارة الطبرى وانما هو من ولد بعض من آمن بابراهيم وهاجر معه الى الشام(٧) قوله واختان موسى كذا بالأصول والذى فى الاستيعاب وأحبار موسى

(فأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا الناس أشياءهم (ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال (ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولاتقعدوا بكل صراط) أى طريق (توعدون) أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل * قال السدى فى تفسيره عن الصحابة (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة * وقال اسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال كانوا قوما طغاة بغاة يجلسون على الطريق (يبخسون الناس) يعنى يعشرونهم وكانوا أول من سن ذلك (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية (واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم فى تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم اليه ودلهم عليه كما قال لهم فى القصة الأخرى (ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) أى لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة مافى أيديكم ويفقركم ويذهب مابه يغنيكم وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة فنهاهم أولا عن تعاطى مالايليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم فى دنياهم وعذابه الأليم فى أخراهم وعنفهم أشد تعنيف . ثم قال لهم آمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً (وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) قال ابن عباس والحسن البصرى (بقيت الله خير لكم) أى رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس * وقال ابن جرير ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف . قال وقد روى هذا عن ابن عباس وهذا الذى قاله وحكاه حسن وهو شبيه بقوله تعالى (قل لايستوى الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث) يعنى ان القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام فان الحلال مبارك وان قل والحرام ممحوق وان كثر كما قال تعالى يمحق الله الربا ويربى الصدقات وقال رسول الله (ص) (ان الربا وان كثر فان مصيره الى قل) رواه أحمد أى الى قلة وقال رسول الله (ص) البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما * والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وان قل والحرام لا يجدى وان كثر ولهذا قال نبى الله شعيب (بقيت الله خير لكم ان كنتم مؤمنين) وقوله (وما أنا عليكم بحفيظ) أى افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه لا لأراكم انا وغيرى (قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى اموالنا مانشاء انك لأنت الحليم الرشيد) يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم أصلوتك هذه التى تصليها هى الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد الا إلهك

و نترك مايعبد آباؤنا الأقـدمون وأسلافنا الاولون أو أن لا نتعامل الا على الوجه الذى ترتضيه أنت
و نترك المعاملات التى تأباها وان كنا نحن نرضاها (انك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس وميمون
ابن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء (قال
ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد ان أخالفكم الى ما أنهاكم عنه
ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب) هذا تلطف معهم فى
العبارة ودعوة لهم الى الحق بابين اشارة يقول لهم أرأيتم أيها المكذبون (ان كنت على بينة من ربى)
أى على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلنى اليكم (ورزقنى منه رزقا حسنا) يعنى النبوة والرسالة يعنى
وعمى عليكم معرفتهافأى حيلة لى بكم .وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء وقوله (وما
أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) أى لست آمركم بالأمر الا وأنا أول فاعل له واذا نهيتكم عن الشئ
فانا أول من يتركه وهذه هى الصفة المحمودة العظيمة وضدها هى المردودة الذميمة كما تلبس بها علماء بنى
اسرائيل فى آخر زمانهم وخطباؤهم الجاهلون * قال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم
وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) وذكر عندها فى الصحيح عن رسول الله ص أنه قال يؤتى
بالرجل فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه أى تخرج أمعاؤه من بطنه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه
فيجتمع أهل النار فيقولون يافلان مالك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر
بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه * وهذه صفة مخالفى الانبياء من الفجار والاشقياء فاما السادة
من النجباء والالباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب فحالهم كما قال نبى الله شعيب (وما أريد أن
أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد إلا الاصلاح ما استطعت) أى ما أريد فى جميع أمرى إلا الاصلاح
فى الفعال والمقال بجهدى وطاقتى (وما توفيقى) أى فى جميع أحوالى (إلا بالله عليه توكلت واليه
أنيب) أى عليه أتوكل فى سائر الأمور واليه مرجعى ومصيرى فى كل أمرى وهذا مقام ترغيب .
ثم انتقل الى نوع من الترهيب فقال (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح
اوقوم هود أوقوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) أى لا تحملنكم مخالفتى وبغضكم ما جئتكم به على
الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما احله بنظرائكم
وأشباهكم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين . وقوله (وما قوم لوط منكم
ببعيد) قيل معناه فى الزمان أى ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم * وقيل
معناه وما هم منكم ببعيد فى المحلة والمكان . وقيل فى الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق
وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات والجمع بين هذه الأقوال ممكن فانهم لم يكونوا
بعيدين منهم لا زمانا ولا مكانا ولا صفات ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا

اليـه إن ربى رحيم ودود) أى أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود فانه من تاب اليه تاب
عليه فانه رحيم بعباده أرحم بهم من الوالدة بولدها ودود وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده ولو من
الموبقات العظام (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا) روى عن ابن عباس وسعيد
ابن جبير والثورى أنهم قالوا كان ضرير البصر * وقد روى فى حديث مرفوع أنه بكى من حب الله
حتى عمى فرد الله عليه بصره . وقال ياشعيب أتبكى خوفا من النار أو من شوقك الى الجنة فقال بل
من محبتك فاذا نظرت اليك فلا أبالى ماذا يصنع بى فأوحى الله اليه هنيئا لك ياشعيب لقائى فلذلك
أخدمتك موسى ابن عمران كليمى * رواه الواحدى عن أبى الفتح محمد بن على الكوفى عن على بن
الحسن بن بندار عن أبى عبد الله محمد بن اسحق التريلى (١) عن هشام بن عمار عن اسمعيل بن عباس
عن يحيى بن سعيد عن شداد بن أمين عن النبى (ص) بنحوه وهو غريب جداً وقد ضعفه الخطيب
البغدادى * وقولهم (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع
حيث قالوا (مانفقه كثيراً مما تقول) أى ما نفهمه ولا نعقله لأنا لانحبه ولا نريده وليس لنا همة اليـه
ولا إقبال عليه وهو كما قال كفار قريش لرسول الله (ص) (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى
آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) وقولهم (وانا لنراك فينا ضعيفا) أى مضطهداً
مهجورا (ولولا رهطك) أى قبيلتك وعشيرتك فينا (لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال يا قوم ارهطى
أعز عليكم من الله أى تخافون قبيلتى وعشيرتى وترعونى بسببهم ولا تخافون جنبة الله ولا تراعونى لأنى
رسول الله فصار رهطى أعز عليكم من الله (واتخذتموه وراءكم ظهريا أى جانب الله وراء ظهوركم (إن
ربى بما تعملون محيط) أى هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه محيط بذلك كله وسيجزيكم عليـه يوم
ترجعون اليه (ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عـذاب يخزيه ومن هو
كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب) وهذا أمر تهديد شـديد ووعيد اكيد بان يستمروا على طريقتهم
ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تـكون له عاقبة الدار . ومن يحل عليه الهلاك والبوار (من
يأتيه عذاب يخزيه) أى فى هـذه الحياة الدنيا (ويحل عليه عذاب مقيم) أى فى الأخرى (ومن هو
كاذب) اى منى ومنكم فيما اخبر وبشر وحذر (وارتقبوا انى معكم رقيب) وهـذا كقوله (وان
كان طائفـة منكم آمنوا بالذى ارسلت به وطائفـة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خـير
الحاكمين . قال الملاء الذين استكبروا من قومـه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا
أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا إن عـدنا فى ملـتكم بعد إذ نجانا
الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شئ علما على الله توكلنا ربنا افتح

---

(١) قوله التريلى وفى نسخة الرملى فليحرر . عن محمود الامام

بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم الى ملتهم فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال (أو لو كنا كارهين) أى هؤلاء لا يعودون اليكم اختياراً وانما يعودون اليه إن عادوا اضطرارا مكرهين وذلك لان الايمان إذا خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد ولا يرتد أحد عنه ولا محيد لأحد منه . ولهذا قال (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شئ علما على الله توكلنا) أى فهو كافينا وهو العاصم لنا واليه ملجأنا فى جميع أمرنا ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليه فى تعجيل ما يستحقونه اليهم فقال (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين أى الحاكمين) فدعا عليهم والله لا يرد دعاء رسله اذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه ورسوله خالفوه . ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون . وبه متلبسون (وقال الملاء الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم اذاً لخاسرون قال الله تعالى . فاخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين) ذكر فى سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة أى رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالا شديدا أزهقت أرواحهم من أجسادها وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها واصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولاحركات بها ولا حواس لها * وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات وأشكالا من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات . ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها فى سياق قصة الاعراف ارجفوا نبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالاخراج من قريتهم أو ليعودن فى ملتهم راجعين فقال تعالى (فاخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين) فقابل الارجاف بالرجفة والاخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق * وأما فى سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص (أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أوأن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد) فناسب أن يذكر الصيحة التى هى كالزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة اسكنتهم . وأما فى سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة . وكان ذلك إجابة لما طلبوا . وتقريبا الى ما اليه رغبوا. فانهم قالوا (إنما أنت من المسحرين وما انت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فاسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربى أعلم بما تعملون) قال الله تعالى (وهو السميع العليم فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف وإنما

عندهم شيئان أحدهما أنه قال (كذب أصحاب الأيكة المرسلين اذ قال لهم شعيب) ولم يقل أخوهم كما قال والى مدين أخاهم شعيبا . والثانى أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة وذكر فى أولئك الرجفة أو الصيحة والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) لانه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا ولما نسبهم الى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم * وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة * وأما إحتجاجهم بيوم الظلة فان كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلا على انهما أمتان أخريان وهذا لا يقوله أحد يفهم شيأ من هذا الشأن * فأما الحديث الذى أورده الحافظ ابن عساكر فى ترجمة النبى شعيب عليه السلام من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شفيق بن أبى هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله ابن عمرو مرفوعاً (إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله اليهما شعيبا النبى عليه السلام) فانه حديث غريب وفى رجاله من تكلم فيه * والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بنى اسرائيل والله أعلم *

ثم قد ذكر الله عن أهل الايكة من المذمة ماذكره عن أهل مدين من التطفيف فى المكيال والميزان فدل على أنهم أمة واحدة اهلكوا بأنواع من العذاب * وذكر فى كل موضع مايناسب من الخطاب . وقوله (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) ذكروا أنهم اصابهم حر شديد وأسكن الله هبوب الهوا عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم فى الاسراب فهربوا من محلتهم الى البرية فاظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء فازهقت الارواح وخربت الاشباح فاصبحوا فى دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . ونجى الله شعيبا ومن معه من المؤمنين) كما قال تعالى وهو أصدق القائلين (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود) . وقال تعالى (وقال الملأ من قومه لئن إتبعتم شعيبا إنكم اذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) وهذا فى مقابلة قولهم (لئن اتبعتم شعيبا إنكم اذا لخاسرون) ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم الى انفسهم موبخاً ومؤنبا ومقرعاً فقال تعالى (ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) أى أعرض عنهم موليا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلا (ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) أى قد أديت ما كان واجباً علىّ من البلاغ التام والنصح الكامل وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل اليه فلم

يضلكم ذلك لأن الله لايهدى من يضل ومالهم من ناصرين فلست أتأسف بعد هـذا عليكم لانكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة ولهذا قال فكيف آسى أى احزن على قوم كافرين أى لاتقبلون الحق ولا ترجعون اليـه ولا تلتفون اليـه فحل بهم من بأس الله الذى لايرد مالا يدافع ولا يمانع ولا محيد لاحـد أريد به عنه ولا مناص منه *

وقد ذكر الحافظ بن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس أن شعيبا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام . وعن وهب بن منبه أن شعيبا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوة ودار بنى سهم

باب ذرية ابراهيم

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم وما آل اليه امره عليـه السلام والتحية والاكرام وذكرنا ماوقع فى زمانه من قصة قوم لوط . وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام لأنها قرينتها فى كتاب الله عز وجـل فى مواضع متعددة فذكر تعالى بعد قصة قوم لوط قصة مدين وهم أصحاب الأيكة عـلى الصحيح كما قدمنا فذكرناها تبعا لهـا إقتداء بالقرآن العظيم *

ثم نشرع الآن فى الكلام عـلى تفصيل ذرية ابراهيم عليه السلام لأن الله جعل فى ذريته النبوة والكتاب فكل نبى أرسـل بعده فمن ولده *

اسمعيل عليه السلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان أسنهما وأجلهما الذى هو الذبيح على الصحيح اسماعيل بكر ابراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل * ومن قال إن الذبيح هو اسحق فانمـا تلقاه من نقلة بنى اسرائيل الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والانجيل وخالفوا ما بأيديهم فى هذا من التنزيل * فان ابراهيم أمر بذبح ولده البكر * وفى رواية الوحيد وأياما كان فهو اسماعيل بنص الدليل ففى نص كتابهم إن اسماعيل ولد ولابراهيم من العمر ست وثمانون سنة * وإنما ولد اسحق بعد مضى مائة سنة من عمر الخليل فاسماعيل هو البكر لامحالة وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة * أما فى الصورة فلانه كان وحده ولده أزيد من ثلاثة عشر سنة وأما أنه وحيد فى المعنى فانه هو الذى هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر وكان صغيراً رضيعا فيما قيل فوضعهما فى وهاد جبال فاران وهى الجبال التى حول مكة نعم المقيل وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء الا القليل وذلك ثقة بالله وتوكلا عليه . فحاطهما الله تعالى بعنايته وكفايته فنعم الحسيب والكافى والوكيل

والكفيل فهذا هو الولد الوحيد فى الصورة والمعنى ولكن أين من يتفطن لهذا السر واين من يحل بهذا المحل والمعنى لايدركه ويحيط بعلمه الا كل نبيه نبيل * وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب مع ما كان يدعو اليه من عبادة رب الأرباب * قال تعالى (فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى . قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) فطاوع أباه على ما اليه دعاه . ووعده بأن سيصبر فوفى بذلك وصبر على ذلك . وقال تعالى (واذكر فى الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) وقال تعالى (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار. إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار. واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار) وقال تعالى (واسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) وقال تعالى (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط) الآية . وقال تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط) الآية . ونظيرتها من السورة الأخرى . وقال تعالى (أم يقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله) الآية فذكر الله عنه كل صفة جميلة وجعله نبيه ورسوله وبرأه من كل مانسب اليه الجاهلون. وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون . وذكر علماء النسب وأيام الناس أنه أول من ركب الخيل وكانت قبل ذلك وحوشاً فانسها وركبها . وقد قال سعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه حدثنا شيخ من قريش حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن عبد الله بن عمر أن رسول الله (ص) قال (اتخذوا الخيل واعتبقوها فانها ميراث أبيكم اسماعيل) وكانت هذه العراب وحشا فدعا لها بدعوته التى كان أعطى فاجابته وإنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة * وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل .

قال الاموى حدثنى على بن المغيرة حدثنا أبو عبيدة حدثنا مسمع بن مالك عن محمد بن على ابن الحسين عن آبائه عن النبى (ص) أنه قال « أول من فتق لسانه بالعربية البينة اسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة » فقال له يونس صدقت ياأبا سيار هكذا أبو جرى حدثنى . وقد قدمنا أنه تزوج لما شب من العماليق امرأة وأن أباه أمره بفراقها ففارقها * قال الأموى هى عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليق * ثم نكح غيرها فامره أن يستمر بها فاستمر بها وهى السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى

وقيل هذه ثلاثة فولدت له إثنى عشر ولداذكرا . وقدسماهم محمد بن اسحق رحمه الله وهم نابت وقيذر(١) وازبل وميشى ومسمع وماش ودوصا وارر ويطور ونبش وطيا وقيذما * وهكذا ذكرهم أهل الكتاب فى كتابهم . وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيما المبشر بهم المتقدم ذكرهم . وكذبوا فى تأويلهم ذلك وكان اسماعيل عليه السلام رسولا الى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه * ولما حضرته الوفاة أوصى الى أخيه اسحق وزوج ابنته نسمة من ابن أخيه العيص بن اسحق فولدت له الروم .ويقال لهم بنو الاصفر لصفرة كانت فى العيص * وولدت له اليونان فى أحد الاقوال * ومن ولد العيص الاشبان قيل منهما ايضا * وتوقف ابن جرير رحمه الله .

ودفن اسماعيل نبى الله بالحجر مع أمه هاجر وكان عمره يوم مات مائة وسبعا وثلاثين سنة * وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال شكى اسماعيل عليه السلام الى ربه عز وجل حر مكة فاوحى الله اليه أنى سافتح لك بابا الى الجنة الى الموضع الذى تدفن فيه تجرى عليك روحها الى يوم القيامة .

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون الى ولديه نابت وقيذار * وسنتكلم على أحياء العرب وبطونها وعمائرها وقبائلها وعشائرها من لدن اسماعيل عليه السلام الى زمان رسول الله (ص) * وذلك اذا انتهينا الى أيامه الشريفة وسيرته المنيفة بعد الفراغ من أخبار انبياء بنى اسرائيل الى زمان عيسى بن مريم خاتم انبيائهم وعقق أبنائهم * ثم نذكر ما كان فى زمن بنى اسرائيل * ثم ماوقع فى أيام الجاهلية ثم ينتهى الكلام الى سيرة نبينا رسول الله الى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم من الأمم إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم العزيز الحكيم

اسحاق بن ابراهيم عليهما الصلاة والتسليم

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنة بعد أخيه اسماعيل بأربع عشرة سنة . وكان عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين سنة قال الله تعالى (وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين)* وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه فى غير ما آية من كتابه العزيز * وقدمنا فى حديث أبى هريرة عن رسول الله (ص) أن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم

---

(١) قوله قيذر فى نسخة قيذار وقوله وميشى وفى نسخة مبشى قوله وارر فى نسخة وادر وفى أخرى وازر قوله ويطور فى نسخة وبطور قوله وطيا فى نسخة وطميا.

يوسف بن يعقوب بن سحق بن ابراهيم . وذكر أهل الكتاب أن اسحق لما تزوج رفقا بنت بتوايل في حيات أبيه كان عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أولها سموه عيصو وهو الذي تسميه العرب العيص وهو والد الروم * والثاني خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه يعقوب وهو اسرائيل الذي ينتسب اليه بنو اسرائيل قالوا وكان اسحق يحب العيصو أكثر من يعقوب لانه بكره وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر قالوا فلما كبر اسحق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاما وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له وكان العيص صاحب صيد فذهب يبتغي ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعاما كما اشتهاه أبوه ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك فلما جاء به وقربه اليه قال من أنت قال ولدك فضمه اليه وجسه وجعل يقول أما الصوت فصوت يعقوب وأما الجس والثياب فالعيص فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدرا وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده وأن يكثر رزقه وولده *

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه اليه فقال له ما هذا يابني قال هذا الطعام الذي اشتهيته فقال أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك فقال لا والله وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً . وذكروا أنه تواعده بالقتل اذا مات أبوهما وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى وأن يجعل لذريته غليظ الأرض وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم فلما سمعت أمهما مايتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها لابان الذي بأرض حران وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه وأن يتزوج من بناته . وقالت لزوجها اسحق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم فأدركه المساء في موضع فنام فيه أخذ حجرا فوضعه تحت رأسه ونام فرأى في نومه ذلك معراجا منصوبا من السماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك واجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك . فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع الى أهله سالما ليبنين في هذا الموضع معبداً لله عز وجل وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنا يعرفه به وسمى ذلك الموضع بيت إيل أي بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتي قالوا فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان اسم الكبرى ليا واسم الصغرى راحيل وكانت أحسنهما وأجملهما فاجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين فلما مضت المدة على خاله لابان صنع طعاما وجمع الناس عليه وزف اليه ليلا

ابنته الكبرى ليا وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر . فلما اصبح يعقوب اذا هي ليا فقال لخاله لم غدرت بي وأنت انما خطبت اليك راحيل فقال إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى فان احببت اختها فاعمل سبع سنين أخرى وازوجكها فعمل سبع سنين وادخلها عليه مع أختها وكان ذلك سائغا في ملتهم ثم نسخ في شريعة التوراة * وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ لان فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا واباحته لأنه معصوم * ووهب لابان لكل واحدة من إبنتيه جارية فوهب ليا جارية إسمها زلفى ووهب لراحيل جارية اسمها بلهى * وجبر الله تعالى ضعف ليا بان وهب لها أولاداً فكان أول من ولدت ليعقوب رويل ثم شمعون ثم لاوى ثم يهوذا فغارت عند ذلك راحيل وكانت لا تحبل فوهبت ليعقوب جاريتها بلهى فوطئها فحملت وولدت له غلاما سمته دان وحملت وولدت غلاما آخر سمته نيفتالى فعمدت عند ذلك ليا فوهبت جاريتها زلفى من يعقوب عليه السلام فولدت له جاد(١) وأشير غلامين ذكرين ثم حملت ليا أيضا فولدت غلاما خامساً منها وسمته ايساخر (٢) * ثم حملت وولدت غلاما سادساً سمته زابلون ثم حملت وولدت بنتا سمتها دينا فصار لها سبعة من يعقوب * ثم دعت الله تعالى راحيل وسألته أن يهب لها غلاما من يعقوب فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها فحملت من نبي الله يعقوب فولدت له غلاما عظيما شريفا حسنا جميلا سمته يوسف كل هذا وهم مقيمون بارض حران(٣) وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى فصار مدة مقامه عشرين سنة فطلب يعقوب من خاله لابان أن يسرحه ليمر إلى أهله فقال له خاله انى قد بورك لى بسببك فسلني من مالي ما شئت فقال تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع وكل حمل ملمع أبيض بسواد وكل أملح ببياض وكل أجلح أبيض من المعز فقال نعم فعمد بنوه فابرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس لئلا يولد شئ من الحملان على هذه الصفات وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم قالوا فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز ودلب فكان يقشرها بلقا وينصبها في مساقي الغنم من المياه لينظر الغنم اليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها فتصير ألوان حملانها كذلك وهذا يكون من باب خوارق العادات وينتظم في سلك المعجزات فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد وتغير له وجه خاله وبنيه وكأنهم انحصروا منه

وأوحى الله تعالى الى يعقوب أن يرجع الى بلاد أبيه وقومه ووعده بأن يكون معه فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين الى طاعته فتحمل بأهله وماله وسرقت راحيل أصنام أبيها فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم لابان وقومه فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه وهلا أعلمه فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول وحتى يودع بناته وأولادهن ولم أخذوا أصنامه معهم ولم يكن عند

(١) في النسخة الحلبية حاذ (٢) في نسخة اساخر (٣) في الطبري بارض بابل

يعقوب علم من أصنامه فانكر أن يكون أخذوا له اصناما فدخل بيوت بناته وامائهن يفتش فلم يجد شيئا وكانت راحيل قد جعلتهن فى بردعة الجمل وهى تحتها فلم تقم واعتذرت بأنها طامث فلم يقدر عليهن فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها جلعاد على أنه لايهين بناته ولا يتزوج عليهن ولايجاوز هذه الرابية الى بلاد الآخر لا لابان ولا يعقوب وعملا طعاما وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر وتفارقوا راجعين الى بلادهم فلما اقترب يعقوب من أرض ساعير تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم وبعث يعقوب البرد الى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بان العيص قد ركب اليك فى أربعمائة راجل فخشى يعقوب من ذلك ودعا الله عز وجل وصلى له وتضرع اليه وتمسكن لديه وناشده عهده ووعده الذى وعده به وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص وأعد لاخيه هدية عظيمة وهى مائتا شاة وعشرون تيساً ومائتا نعجة وعشرون كبشا وثلاثون لقحة وأربعون بقرة وعشرة من الثيران وعشرون أتانا وعشرة من الحمر وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة فاذا لقيهم العيص فقال للأول لمن أنت ولمن هذه معك فليقل لعبدك يعقوب أهداها لسيدى العيص وليقل الذى بعده كذلك وكذا الذى بعده ويقول كل منهم وهو جائى بعدنا وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين وجعل يسير فيهما ليلا ويكمن نهارا فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية تبدا له ملك من الملائكة فى صورة رجل فظنه يعقوب رجلا من الناس فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه فظهر عليه يعقوب فيما يرى إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب فلما أضاء الفجر قال له الملك ما اسمك قال يعقوب قال لا ينبغى أن تدعى بعد اليوم إلا اسرائيل فقال له يعقوب ومن أنت وما اسمك فذهب عنه فعلم أنه ملك من الملائكة وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله فلذلك لا يأكل بنوا اسرائيل عرق النساء ورفع يعقوب عينيه فاذا أخوه عيصو قد أقبل فى أربعمائة راجل فتقدم أمام أهله فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان وكان مشروعاً لهم كما سجدت الملائكة لآدم تحية له وكما سجد أخوة يوسف وأبواه له كما سيأتى فلما رآه العيص تقدم اليه واحتضنه وقبله وبكى ورفع العيص عينيه ونظر الى النساء والصبيان فقال من أين لك هؤلاء فقال هؤلاء الذين وهب الله لعبدك فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له ودنت ليا وبنوها فسجدوا له ودنت راحيل وابنها يوسف فخرا سجداً له وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها ورجع العيص فتقدم أمامه ولحقه يعقوب باهله وما معه من الانعام والمواشى والعبيد قاصدين جبال ساعير فلما مر بساحور ابتنى له بيتا ولدوابه ظلالا ثم مر على أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية واشترى مزرعة شخيم بن جمور بمائة نعجة فضرب هنالك فسطاطه وابتنى ثم مذبحا فسماه ايل إله اسرائيل وأمر الله ببنائه ليستعلن له فيه وهو بيت المقدس اليوم الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما

السلام وهو مكان الصخرة التى أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كما ذكرنا أولا

وذكر أهل الكتاب هنا قصة دينا بنت يعقوب بنت ليا وما كان من أمرها مع شخيم بن جور الذى قهرها على نفسها وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وأخوتها فقال إخوتها إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا فانا لا نصاهر قوما غلفا فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان مال عليهم بنوا يعقوب فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا شخيا وأباه جور لقبيح ما صنعوا اليهم مضافا إلى كفرهم وما كانوا يعبدونه من أصنامهم فلهذا قتلهم بنوا يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة ✱

ثم حملت راحيل فولدت غلاما وهو بنيامين الا أنها جهدت فى طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه فدفنها يعقوب فى أفراث وهى بيت لحم وصنع يعقوب على قبرها حجراً وهى الحجارة المعروفة بقبر راحيل الى اليوم ✱ وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلا فمن ليا روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وايساخر وزابلون ومن راحيل يوسف وبنيامين ومن أمة راحيل دان ونفتالى

ومن أمة ليا حاد واشير عليهم السلام وجاء يعقوب الى أبيه اسحاق فأقام عنده

بقرية حبرون التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن ابراهيم ثم مرض

اسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العيص ويعقوب

مع أبيه ابراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها كما قدمنا

ما وقع من الامور العجيبة فى حياة اسرائيل

فمن ذلك قصة يوسف بن راحيل وقد أنزل الله عز وجل فى شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات الكتاب المبين إنا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) قد تكلمنا على الحروف المقطعة فى أول تفسير سورة البقرة فمن أراد تحقيقه فلينظره ثم ✱ وتكلمنا على هذه السورة مستقصى فى موضعها من التفسير ونحن نذكر ههنا نبذاً مما هناك على وجه الايجاز والنجاز ✱

وجملة القول فى هذا المقام أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذى انزله على عبده ورسوله الكريم بلسان عربى فصيح بين واضح جلى يفهمه كل عاقل ذكى زكى فهو اشرف كتاب نزل من السماء انزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق فى اشرف زمان ومكان . بأفصح لغة وأظهر بيان . فان كان السياق فى الاخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ودمغ الباطل وزيفه

ورده وإن كان فى الأوامر والنواهى فاعدل الشرائع وأوضح المناهج وأبين حكما وأعدل حكما فهو كما قال تعالى (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا) . يعنى صدقا فى الأخبار عدلا فى الأوامر والنواهى ولهذا قال تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) أى بالنسبة إلى ما أوحى اليك فيه كما قال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) . وقال تعالى (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق . وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا) . يعنى من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فانه يناله هذا الوعيد كما قال فى الحديث المروى فى المسند والترمذى عن أمير المؤمنين على مرفوعا وموقوفا (من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله) . وقال الامام أحمد حدثنا سريج بن النعمان حدثنا هشام أنبأنا خالد عن الشعبى عن جابر (أن عمر بن الخطاب أتى النبى «ص» بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى «ص» قال فغضب وقال أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شئ فيخبرونكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ماوسعه إلا أن يتبعنى) اسناد صحيح . ورواه أحمد من وجه آخر عن عمر وفيه فقال رسول الله «ص» (والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم) إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين) وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه فى أول سورة يوسف . وفى بعضها أن رسول الله «ص» خطب الناس فقال فى خطبته (أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لى اختصارا ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون . ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفا حرفا (اذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم) قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولدا ذكرا وسميناهم واليهم تنسب أسباط بنى اسرائيل كلهم وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبى غيره وباقى اخوته لم يوح اليهم . وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم فى هذه القصة يدل على هذا القول * ومن استدل على نبوتهم بقوله (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط) وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوى

لأن المراد بالأسباط شعوب بني اسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء والله أعلم *

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه نص على واحد من إخوته سواه فدل على ما ذكرناه ويستأنس لهذا بما قال الامام أحمد (حدثنا) عبد الصمد حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن بن عمر أن رسول الله (ص) قال الكريم بن الكريم ابن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم «انفرد به البخاري» فرواه عن عبد الله ابن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به * وقد ذكرنا طرقه في قصة ابراهيم بما أغنى عن اعادته ههنا ولله الحمد والمنه * قال المفسرون وغيرهم رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن (أحد عشر كوكبا) وهم اشارة الى بقية اخوته (والشمس والقمر) وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له فهاله ذلك فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة بحيث يخضع له أبواه واخوته فيها فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر وهذا يدل على ما ذكرناه * ولهذا جاء في بعض الآثار (استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها فان كل ذي نعمة محسود) ، وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه واخوته معاً وهو غلط منهم (وكذلك يجتبيك ربك) أى وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة فاذا كتمتها (يجتبيك ربك) أى يخصك بأنواع اللطف والرحمة (ويعلمك من تأويل الأحاديث) أى يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام مالا يفهمه غيرك (ويتم نعمته عليك) أى بالوحي اليك (وعلى آل يعقوب) أى بسببك ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة (كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق) أى ينعم عليك ويحسن اليك بالنبوة كما أعطاها أباك يعقوب وجدك اسحق ووالد جدك ابراهيم الخليل (إن ربك عليم حكيم كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) *

لهذا قال رسول الله (ص) لما سئل أى الناس أكرم قال (يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله) وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما وأبو يعلى والبزار في مسنديهما من حديث الحكم بن ظهير وقد ضعفه الأئمة عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال (أتى النبي (ص) رجل من اليهود يقال له بستانة اليهودي فقال يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها . قال فسكت النبي (ص) فلم يجبه بشيء ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها قال فبعث اليه رسول الله فقال هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها قال نعم فقال هي جريان (١) والطارق . والذيال وذو الكتفان . وقابس . ووثاب . وعمودان (٢) والفيلق . والمصبح . والضروح . وذو الفرع .

(١) في نسخه خرثان (٢) وفي نسخه عودان .

والضياء . والنور) فقال اليهودي أي والله إنها لاسماؤها . وعند أبي يعلى فلما قصها على أبيه قال هذا أمر مشتت يجمعه الله والشمس أبوه والقمر أمه . (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين)

ينبه تعالى على مافي هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات . ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه يمنون شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم وهم عصبة أي جماعة يقولون فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين (إن أبانا لفي ضلال مبين) أي بتقديمه حبهما علينا ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده الى أرض لايرجع منها ليخلو لهم وجه أبيهم أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم وأضمروا التوبة بعد ذلك فلما تمالؤا على ذلك وتوافقوا عليه (قال قائل منهم) قال مجاهد هو شمعون * وقال السدي هو يهوذا * وقال قتادة ومحمد بن اسحق هو أكبرهم روبيل (لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة) أي المارة من المسافرين (ان كنتم فاعلين) ماتقولون لامحالة فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالا من قتله أو نفيه وتغريبه فاجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك (قالوا ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا اذا لخاسرون) طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم وأن يلعب وينبسط وقد أضمروا له ما الله به عليم فاجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم . يابني يشق على أن أفارقه ساعة من النهار ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه فيأتي الذئب فيأكله ولايقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه . (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا اذا لخاسرون) أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة إنا اذا لخاسرون أي عاجزون هالكون .

وعند أهل الكتاب أنه أرسله وراءهم يتبعهم فضل عن الطريق حتى أرشده رجل اليهم . وهذا أيضا من غلطهم وخطئهم في التعريب فان يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم فكيف يبعثه وحده (فلما ذهبوا به وأجمعوا ان يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون وجاؤا أباهم عشاء يبكون قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاؤا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل . والله المستعان على ما تصفون) لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم فما كان الا أن غابوا عن

عينيه فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال واجمعوا على القائه فى غيابت الجب أى فى قعره على راعوفته وهى الصخرة التى تكون فى وسطه يقف عليها المائح وهو الذى ينزل ليملى الدلاء إذا قل الماء والذى يرفعها بالحبل يسمى الماتح فلما ألقوه فيه أوحى الله اليه أنه لابدلك من فرج ومخرج من هذه الشدة التى أنت فيها ولتخبرن أخوتك بصنيعهم هذا فى حال أنت فيها عزيز وهم محتاجون اليك خائفون منك وهم لا يشعرون .

قال مجاهد وقتادة وهم لا يشعرون بايحاء الله اليه ذلك * وعن ابن عباس وهم لا يشعرون أى لتخبرنهم بامرهم هذا فى حال لا يعرفونك فيها * رواه ابن جرير عنه * فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه اخذوا قميصه فلطخوه بشئ من دم ورجعوا الى أبيهم عشاء وهم يبكون أى على أخيهم. ولهذا قال بعض السلف لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا ابام عشاء يبكون أى فى ظلمة الليل ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا) أى ثيابنا (فأكله الذئب) أى فى غيبتنا عنه فى استباقنا وقولهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) أى وما أنت بمصدق لنا فى الذى أخبرناك من أكل الذئب له ولو كنا غير متهمين عندك فكيف وأنت تتهمنا فى هذا فانك خشيت أن يأكله الذئب وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله فصرنا غير مصدقين عندك فمعذور أنت فى عدم تصديقك لنا والحالة هذه . (وجاؤا على قميصه بدم كذب) أى مكذوب مفتعل لانهم عمدوا الى سخلة ذبحوها فاخذوا من دمها فوضعوه على قميصه ليوهموا أنه أكله الذئب قالوا ونسوا ان يخرقوه وآفة الكذب النسيان * ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم فانه كان يفهم عداوتهم له وحسدهم اياه على محبته له من بينهم أكثر منهم لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التى كانت عليه فى صغره لما يريد الله أن يخصه به من نبوته * ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه وغيبوه عن عينيه جاؤا وهم يتباكون وعلى ماتمالؤا عليه يتواطؤن ولهذا (قال بل سولت لكم انفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)

وعند أهل الكتاب أن رويبل أشار بوضعه فى الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده الى أبيه فغافلوه وباعوه لتلك القافلة . فلما جاء رويبل من آخر النار ليخرج يوسف لم يجده فصاح وشق ثيابه وعمد أولئك الى جدى فذبحوه ولطخوا من دمه جبة يوسف . فلما علم يعقوب شق ثيابه ولبس مئزرا أسود وحزن على إبنه أياما كثيرة . وهذه الركاكة جاءت من خطئهم فى التعبير والتصوير (وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فادلى دلوه . قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل

الاحاديث . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) . يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع فى الجب أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به فجاءت سيارة أى مسافرون ٭

قال أهل الكتاب كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام فارسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف فلما رآه ذلك الرجل (قال يابشرى) أى يابشارتى (هذا غلام واسروه بضاعة) أى أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم (والله عليم بما يعملون) أى هو عالم بما تمالأ عليه أخوته وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم ومع هذا لا يغيره تعالى لماله فى ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر بما يجرى الله على يدى هذا الغلام الذى يدخلها فى صورة اسير رقيق ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به فى دنياهم وأخراهم بما لايحد ولا يوصف . ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم ٭ بثمن بخس أى قليل نزر وقيل هو الزيف (دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) . قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالى والسدى وقتادة وعطية العوفى باعوه بعشرين درهما اقتسموها درهمين درهمين . وقال مجاهد اثنان وعشرون درهما . وقال عكرمة ومحمد ابن اسحق أربعون درهما فالله أعلم (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته اكرمى مثواه) أى أحسنى اليه (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) وهذا من لطف الله به ورحمته واحسانه اليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيرى الدنيا والآخرة . قالوا وكان الذى اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها الذى الخزائن مسلمة اليه ٭ قال ابن اسحق واسمه اطفير (١) بن روحيب قال وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق قال واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعاييل (٢) . وقال غيره كان اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها . وقيل فكا بنت ينوش رواه الثعلبى عن ابى هشام (٣) الرفاعى . وقال محمد بن اسحق عن محمد بن السائب عن أبى صالح عن ابن عباس كان اسم الذى باعه بمصر يعنى الذى جلبه اليها مالك ابن ذعر بن نويب بن عفقا (٤) بن مديان بن ابراهيم فالله أعلم .

وقال ابن اسحق عن أبى عبيدة عن ابن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر حين قال لامرأته اكرمى مثواه والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

ثم قيل اشتراه العزيز بعشرين دينارا . وقيل بوزنه مسكا ووزنه حريرا ووزنه ورقا . فالله أعلم وقوله (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان اليه ويعتنيان

(١) فى نسخة قطفير (٢) فى نسخة رعابيل (٣) فى نسخة ابن هشام (٤) فى نسخة بن عنقاء

به مكنا له فى أرض مصر (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أى فهمها . وتعبير الرؤيا من ذلك (والله غالب على أمره) أى اذا أراد شيئا فانه يقيض له أسبابا وأموراً لايهتدى اليها العباد ولهذا قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) . فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الاشد . وهو حد الأربعين الذى يوحى الله فيه الى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين .

وقد اختلفوا فى مدة العمر الذى هو بلوغ الاشد فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبى هو الحلم . وقال سعيد بن جبير ثمانى عشرة سنة . وقال الضحاك عشرون سنة وقال عكرمة خمس وعشرون سنة . وقال السدى ثلاثون سنة . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة ثلاث وثلاثون سنة . وقال الحسن أربعون سنة . ويشهد له قوله تعالى حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة . (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب . وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد باهلك سوءا إلاأن يسجن أو عذاب أليم . قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين. وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف اعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) . يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه مالايليق بحاله ومقامه وهى فى غاية الجمال والمال والمنصب والشباب وكيف غلقت الابواب عليها وعليه وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها وهى مع هذا كله امرأة الوزير * قال ابن اسحق وبنت أخت الملك (١) الريان بن الوليد صاحب مصر . وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء إلا أنه نبى من سلالة الانبياء فعصمه ربه عن الفحشاء . وحماه عن مكر النساء . فهو سيد السادة النجباء السبعة الاتقياء . المذكورين فى الصحيحين عن خاتم الانبياء . فى قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله إمام عادل . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه . ورجل معلق قلبه بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه . ورجلان تحابا فى الله إجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه وشاب نشأ فى عبادة الله . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله)

والمقصود أنها دعته اليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال (معاذ الله إنه ربى) يعنى زوجها

---

(١) فى النسختين الموجودتين بالمكتبة المصرية أخ الملك .

صاحب المنزل سيدى (أحسن مثواى) أى أحسن الى وأكرم مقامى عنده (إنه لايفلح الظالمون) وقد تكلمنا على قوله (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) بما فيه كفاية ومقنع فى التفسير وأكثر أقوال المفسرين ههنا متلقى من كتب أهل الكتاب فالاعراض عنه أولى بنا * والذى يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها * ولهذا قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب) أى هرب منها طالباً الى الباب ليخرج منه فراراً منها فاتبعته فى أثره (والفيا) أى وجدا (سيدها) أى زوجها لدى الباب فبدرته بالكلام وحرضته عليه (قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب اليم) . اتهمته وهى المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها فلهذا قال يوسف عليه السلام (هى راودتنى عن نفسى) إحتاج الى أن يقول الحق عند الحاجة (وشهد شاهد من أهلها) قيل كان صغيراً فى المهد قاله ابن عباس * وروى عن أبى هريرة وهلال بن يساف والحسن البصرى وسعيد بن جبير والضحاك واختاره ابن جرير . وروى فيه حديثا مرفوعا عن ابن عباس ووقفه غيره عنه * وقيل كان رجلا قريبا الى أطفير بعلها . وقيل قريبا اليها * وممن قال إنه كان رجلا ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن اسحاق وزيد بن أسلم فقال (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) أى لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) أى لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك وكذلك كان . ولهذا قال تعالى (فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) أى هذا الذى جرى من مكركن أنت راودته عن نفسه * ثم اتهمته بالباطل ثم ضرب بعلها عن هذا صفحاً فقال (يوسف أعرض عن هذا) أى لاتذكره لأحد لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها والتوبة الى ربها فان العبد اذا تاب الى الله تاب الله عليه . وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لاشريك له فى ذلك * ولهذا قال لها بعلها وعذرها من بعض الوجوه لأنها رأت مالاصبر لها على مثله الا أنه عفيف نزيه برئ العرض سليم الناحية فقال (استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين . وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطعن إيديهن وقلن حاش لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين . قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب

له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم)* يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء فى الطعن على إمرأة العزيز وعيبها والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها وحبها الشديد له تمنين وهو لايساوى هذا لانه مولى من الموالى وليس مثله أهلا لهذا ولهذا قلن (إنا لنراها فى ضلال مبين)أى فى وضعها الشئ فى غير محله (فلما سمعت بمكرهن) أى بتشنيعهن عليها والتنقص لها والاشارة اليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها فاظهرن ذما وهى معذورة فى نفس الامر فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ولا من قبيل مالديهن . فارسلت اليهن فجمعتهن فى منزلها . واعتدت لهن ضيافة مثلهن وأحضرت فى جملة ذلك شيئا مما يقطع بالسكاكين كالاترج ونحوه وأتت كل واحدة منهن سكينا وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب وهو فى غاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة . فخرج وهو أحسن من البدر لامحالة (فلما رأينه أكبرنه) أى اعظمنه وأجللنه وهبنه وماظنن أن يكون مثل هذا فى بنى آدم وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يحززن فى إيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح (وقلن حاش لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) . وقد جاء فى حديث الاسراء (فمررت بيوسف واذا هو قد أعطى شطر الحسن)

قال السهيلى وغيره من الائمة معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام لأن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه فكان فى غاية نهايات الحسن البشرى ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه ويوسف كان على النصف من حسن ادم ولم يكن بينهما أحسن منهما كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة إمرأة الخليل عليه السلام .

قال ابن مسعود وكان وجه يوسف مثل البرق وكان اذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه * وقال غيره كان فى الغالب مبرقعا لئلا يراه الناس ولهذا لما قام عذر امرأة العزيز فى محبتها لهذا المعنى المذكور وجرى لهن وعليهن ما جرى من تقطيع إيديهن بجراح السكاكين وماركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) ثم مدحته بالعصمة التامة فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى امتنع (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين) وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته فأبى أشد الاباء . ونأى لانه من سلالة الأنبياء ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين) يعنى إن وكلتنى الى نفسى فليس لى من نفسى الا العجز والضعف ولا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله فانا ضعيف الا ماقويتنى وعصمتنى وحفظتنى وحطتنى بحولك وقوتك ولهذا قال تعالى (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . ثم بدالهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه

حتى حين. ودخل معه السجن فتيان. قال احدهما إنى أرانى أعصر خمرا. وقال الآخر إنى أرانى احمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين. قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون. ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار. ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون. ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان). يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم أى ظهر لهم من الرأى بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه الى وقت ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية وأخمد لأمرها وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها فسجنوه ظلما وعدوانا. وكان هذا مما قدر الله له *ومن جملة ماعصمه به فانه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم * ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعى أن من العصمة أن لا تجد قال الله (ودخل معه السجن فتيان) قيل كان أحدهما ساقى الملك واسمه فيما قيل بنو. والآخر خبازه يعنى الذى يلى طعامه وهو الذى يقول له الترك (الجاشنكير) واسمه فيما قيل مجلث كان الملك قد اتهمهما فى بعض الامور فسجنهما* فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه ودله وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه واحسانه الى خلقه فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه * قال أهل التفسير رأيا فى ليلة واحدة * أما الساقى فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب فاخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه * ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز وضوارى الطيور تأكل من السل الاعلى فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرهما لهما وقالا (إنا نراك من المحسنين) فاخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بامرها و(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) * قيل معناه مهما رأيتما من حلم فانى أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول *وقيل معناه إنى أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلوا أو حامضا كما قال عيسى (وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) وقال لهما إن هذا من تعليم الله اياى لأنى مؤمن به موحد له متبع ملة آبائى الكرام ابراهيم الخليل واسحاق ويعقوب (ماكان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا) أى بأن هدانا لهذا (وعلى الناس) أى بان أمرنا أن ندعوهم اليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو فى فطرهم مركوز وفى جبلتهم مغروز (ولكن أكثر الناس لا يشكرون)* ثم دعاهم الى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل وصغّر أمر الأوثان وحقرها وضعف أمرها فقال (ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله

الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله) أى هو المتصرف فى خلقه الفعال لما يريد الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) أى وحده لاشريك له و (ذلك الدين القيم) أى المستقيم والصراط القويم (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى فهم لايهتدون اليه مع وضوحه وظهوره وكانت دعوته لهما فى هذه الحال فى غاية الكمال لأن نفوسهما معظمة له منبعثة على تلقى ما يقول بالقبول فناسب أن يدعوهما الى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه * ثم لما قام بما وجب عليه وارشد الى ما أرشد اليه قال (ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا) قالوا وهو الساقى (وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) قالوا وهو الخباز (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) أى وقع هذا لامحالة ووجب كونه على حالة ولهذا جاء فى الحديث (الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فاذا عبرت وقعت) .

وقد روى عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (أنهما قالا لم نر شيئا) فقال لهما (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين) . يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قال للذى ظنه ناجيا منهما وهو الساقى (أذكرنى عند ربك) يعنى اذكر أمرى وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك * وفى هذا دليلٌ على جواز السعى فى الاسباب * ولا ينافى ذلك التوكل على رب الأرباب . وقوله (فانساه الشيطان ذكر ربه) أى فانسى الناجى منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام * قاله مجاهد ومحمد بن اسحق وغير واحد وهو الصواب وهو منصوص أهل الكتاب (فلبث يوسف فى السجن بضع سنين) والبضع ما بين الثلاث الى التسع * وقيل الى السبع * وقيل الى الخمس * وقيل مادون العشرة . حكاها الثعلبى * ويقال بضع نسوة وبضعة رجال * ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر قال وإنما يقال نيف . وقال الله تعالى (فلبث فى السجن بضع سنين) وقال تعالى فى بضع سنين) وهذا رد لقوله * قال الفراء ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون الى التسعين ولا يقال بضع ومائة وبضع والف وخالف الجوهرى فيما زاد على بضعة عشر فمنع أن يقال بضعة وعشرون الى تسعين * وفى الصحيح (الايمان بضع وستون) وفى رواية وسبعون شعبة أعلاها قول لا اله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ومن قال إن الضمير فى قوله (فانساه الشيطان ذكر ربه) عائد على يوسف فقد ضعف ماقاله وان كان قد روى عن ابن عباس وعكرمة والحديث الذى رواه ابن جرير فى هذا الموضع ضعيف من كل وجه * تفرد باسناده ابراهيم بن يزيد الخوزى (١) المكى وهو متروك . ومرسل الحسن وقتادة لايقبل ولا ههنا بطريق الأولى والأخرى والله أعلم .

---

(١) فى نسخة خوخى وفى أخرى خُورى والصواب الخوزى .

فاما قول ابن حبان فى صحيحه ذكر السبب الذى من أجله لبث يوسف فى السجن مالبث اخبرنا الفضل بن الحباب الجمحى ثنا مسدد بن مسرهد ثنا خالد بن عبد الله ثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قالها اذكرنى عند ربك لبث فى السجن ما لبث ورحم الله لوطا أن كان ليأوى الى ركن شديد إذ قال لقومه لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد قال فما بعث الله نبيا بعده إلا فى ثروة من قومه . فانه حديث منكر من هذا الوجه ومحمد بن عمرو بن علقمة له اشياء يتفرد بها وفيها نكارة وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها . والذى فى الصحيحين يشهد بغلطها والله أعلم . (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . ياأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث احلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والاكرام وذلك أن ملك مصر وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن اراشه (١) بن فاران بن عمرو بن علاق بن لاوذ بن سام بن نوح رأى هذه الرؤيا . قال أهل الكتاب رأى كأنه على حافة نهر وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان فجعلن يرتعن فى روضة هناك فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر فرتعن معهن ثم ملن عليهن فاكلتهن فاستيقظ مذعورا . ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة واذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلتهن فاستيقظ مذعورا . فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها بل (قالوا أضغاث أحلام) أى أخلاط أحلام من الليل لعلها لاتعبير لها ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك ولهذا قالوا (وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) فعند ذلك تذكر الناجى منهما الذى وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه الى حينه هذا . وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة فى ذلك فلما سمع رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها تذكر أمر يوسف وماكان أوصاه به من التذكار . ولهذا قال تعالى (وقال الذى نجا منهما وادكر) أى تذكر (بعد أمة) أى بعد مدة من الزمان وهو بضع سنين وقرأ بعضهم كما حكى عن ابن عباس وعكرمة والضحاك (وادكر بعد أمه) أى بعد نسيان وقرأها مجاهد (بعد أمه) باسكان الميم وهو النسيان أيضا يقال أمه الرجل يأمه أمها وأمها اذا نسى قال الشاعر .

---

(١) فى النسخة الحلبية ابن اراشة

امست وكنت لا أنسى حديثا   كذاك الدهر يزرى بالعقول

فقال لقومه والملك (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أى فأرسلونى الى يوسف فجاءه فقال (يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) وعند أهل الكتاب أن الملك لما ذكره له الساقى إستدعاه الى حضرته وقص عليه مارآه ففسره له وهـذا غلط والصواب ما قصه الله فى كتابه القرآن لاماعربه هؤلاء الجهلة الثيران من قراى وربان . فبـذل يوسف عليـه السلام ماعنـده من العلم بلا تأخر ولا شرط ولا طلب الخروج سريعا بل أجابهم الى ماسألوا وعبر لهم ماكان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب . (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) يعنى يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية (وفيه يعصرون) يعنى ماكانوا يعصرونه من الاقصاب والاعناب والزيتون والسمسم وغيرها فعبر لهم . وعلى الخير دلهم وأرشدهم الى مايعتمدونه فى حالتى خصبهم وجدبهم وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأول فى سنبله الا ما يرصد بسبب الأكل ومن تقليل البذر فى سنى الجدب فى السبع الثانية اذ الغالب على الظن أنه لايرد البذر من الحقل. وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم .

(وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ان ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ماعلمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ۞ وما أبرئ نفسى ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم) . لما أحاط الملك علما بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه أمر بإحضاره الى حضرته ليكون من جملة خاصته فلما جاءه الرسول بذلك أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلما وعدوانا وأنه برئ الساحة مما نسبوه اليه بهتانا (قال ارجع الى ربك يعنى الملك (فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ان ربى بكيدهن عليم) قيل معناه إن سيدى العزيز يعلم براءتى مما نسب الى أى فمر الملك فليسألهن كيف كان امتناعى الشديد عند مراودتهن إياى وحثهن لى على الأمر الذى ليس برشيد ولا سديد . فلما سئلن عن ذلك أعرفن بما وقع من الأمر وما كان منه من الامر الحميد (وقلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء) فعند ذلك (قالت امرأة العزيز) وهى زليخا (الآن حصحص الحق) أى ظهر وتبين ووضح والحق أحق أن يتبع (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) أى فيما يقوله من انه برئ وانه لم يراودنى وأنه حبس ظلما وعدوانا وزوراً وبهتانا . وقوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين) قيل إنه من كلام يوسف أى انما

طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر الغيب . وقيل إنه من تمام كلام زليخا أى إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفس الامر وإنما كان مراده لم يقع معها فعل فاحشة وهذا القول هو الذى نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم سوى الاول . (وما ابرئ نفسى ان النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم) قيل إنه من كلام يوسف وقيل من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الاولين. وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى والله أعلم (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون). لما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه اليه (قال ائتونى به استخلصه لنفسى) أى أجعله من خاصتى ومن أكابر دولتى ومن أعيان حاشيتى فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله (قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى ذومكانة وأمانة (قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالاهراء لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضى سبع سنى الخصب لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم وأخبر الملك إنه حفيظ أى قوى على حفظ ما لديه أمين عليه عليم بضبط الاشياء ومصالح الاهراء وفى هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة * وعند أهل الكتاب أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جدا وسلطه على جميع أرض مصر وألبسه خاتمه وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثانى ونودى بين يديه أنت رب ومسلط وقال له لست أعظم منك إلا بالكرسى . قالوا وكان يوسف اذ ذاك ابن ثلاثين سنة وزوجه إمرأة عظيمة الشأن .

وحكى الثعلبى أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف . وقيل إنه لما مات زوجه إمرأته زليخا فوجدها عذراء لأن زوجها كان لا يأتى النساء فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما أفرايم ومنشا قال واستوثق ليوسف ملك مصر وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء .

وحكى أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة وأن الملك خاطبه بسبعين لغة وكل ذلك يجاوبه بكل لغة منها فأعجبه ذلك مع حداثة سنه فالله أعلم * قال الله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء) أى بعد السجن والضيق والحصر صار مطلق الركاب بديار مصر (يتبوأ منها حيث يشاء) أى أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً (نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) أى هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع مايدخر له فى آخرته من الخير الجزيل والثواب الجليل . ولهذا قال (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) ويقال إن أطفير زوج

زليخا كان قد مات فولاه الملك مكانه وزوجه إمرأته زليخا فكان وزير صدق .

وذكر محمد بن اسحق أن صاحب مصر الوليد بن الريان أسلم على يدى يوسف عليه السلام فالله أعلم . وقد قال بعضهم

وراءَ مضيقِ الخوفِ متّسع الأمن ... وأولُ مفروح به غايةُ الحزن

فلا تيأسنّ فالله ملّك يوسُفاً ... خزائنَه بعدَ الخلاص من السّجن

(وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين . فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون. وقال لفتيانه إجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون) يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام الى الديار المصرية يمتارون طعاما وذلك بعد إتيان سنى الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد . وكان يوسف عليه السلام اذ ذاك الحاكم فى أمور الديار المصرية دينا ودنيا . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه لأنهم لم يخطر ببالهم ماصار اليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة فلهذا عرفهم وهم له منكرون

وعند أهل الكتاب أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم وأراد أن لايعرفوه فأغلظ لهم فى القول وقال أنتم جواسيس جئتم لتأخذوا خبر بلادى . فقالوا معاذ الله إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذى أصابنا ونحن بنو أب واحد من كنعان ونحن اثنا عشر رجلا ذهب منا واحد وصغيرنا عند أبينا فقال لابد أن أستعلم أمركم * وعندهم أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم وأحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر . وفى بعض هذا انظر . قال الله تعالى (فلما جهزهم بجهازهم) أى أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته فى إعطاء كل انسان حمل بعير لا يزيده عليه (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) وكان قد سألهم عن حالهم وكم هم فقالوا كنا إثنى عشر رجلا فذهب منا واحد وبقى شقيقه عند أبينا فقال اذا قدمتم من قابل فأتونى به معكم (ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين) أى قد أحسنت نزلكم وقراكم فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به قال (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون) أى فلست أعطيكم ميرة ولا أقربكم بالكلية عكس ماأسدى اليهم أولا فاجتهد فى إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب (قالوا سنراود عنه أباه) أى سنجتهد فى مجيئه معنا وإتيانه اليك بكل ممكن (وإنا لفاعلون) أى وإنا لقادرون على تحصيله. ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهى ماجاؤا به يتعوضون به عن الميرة فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها (لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون) قيل أراد أن يردوها اذا وجدوها فى بلادهم . وقيل خشى أن لايكون عندهم مايرجعون به مرة ثانيه . وقيل تذمم أن يأخذ منهم عوضا عن الميرة .

وقد أختلف المفسرون في بضاعتهم على أقوال سيأتي ذكرها * وعند أهل الكتاب أنها كانت صرراً من ورق وهو أشبه والله أعلم ﴿ فلما رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم . قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير . قال لن أرسله معكم حتى تؤتونى موثقا من الله لتأتننى به الا أن يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل . وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شئ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شئ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم الى أبيهم * وقولهم له (منع منا الكيل) أي بعد عامنا هذا ان لم ترسل معنا أخانا فان أرسلته معنا لم يمنع منا (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا أبانا ما نبغي) أي أي شئ نريد وقد ردت الينا بضاعتنا (ونمير أهلنا) أي نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم (ونحفظ أخانا ونزداد) بسببه (كيل بعير) قال الله تعالى (ذلك كيل يسير) أي في مقابلة ذهاب ولده الآخر وكان يعقوب عليه السلام أضن شئ بولده بنيامين لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ويتعوض بسببه منه فلهذا قال (لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به الا أن يحاط بكم) أي الا أن تغلبوا كلكم عن الاتيان به (فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل) أكد المواثيق وقرر العهود واحتاط لنفسه في ولده ولن يغني حذر من قدر . ولولا حاجته وحاجة قومه الى الميرة لما بعث الولد العزيز ولكن الأقدار لها أحكام والرب تعالى يقدر مايشاء ويختار مايريد ويحكم مايشاء وهو الحكيم العليم . ثم أمرهم أن لايدخلوا المدينة من باب واحد ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . قيل أراد أن لايصيبهم أحد بالعين وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة وصورا بديعة قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدى والضحاك * وقيل أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر . قاله ابراهيم النخعي . والأول أظهر ولهذا قال (وما أغنى عنكم من الله من شئ) وقال تعالى (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شئ الا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لايعلمون)

وعند أهل الكتاب أنه بعث معهم هدية الى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل وأخذوا الدراهم الأول وعوضا آخر ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم

لسارقون. قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم . قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون . قالوا ياأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا اذا لظالمون)

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف وإيوائه اليه وإخباره له سرا عنهم بأنه أخوه وأمره بكتم ذلك عنهم وسلاه عما كان منهم من الاساءة اليه * ثم احتال على أخذه منهم وتركه اياه عنده دونهم فأمر فتيانه بوضع سقايته . وهى التى كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام عن غرته فى متاع بنيامين . ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ووعدهم جعالة على رده حمل بعير وضمنه المنادى لهم فاقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم (قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) يقولون أنتم تعلمون منا خلاف مارميتمونا به من السرقة (قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين) . وهذه كانت شريعتهم أن السارق يدفع الى المسروق منه ولهذا قالوا (كذلك نجزى الظالمين) . قال الله تعالى (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه) ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ فى الحيلة ثم قال الله تعالى (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد فى رحله فهو جزاؤه لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم فى سياسة ملك مصر (إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء) أى فى العلم (وفوق كل ذى علم عليم) وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم وأتم رأيا وأقوى عزما وحزما وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له فى ذلك لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم اليه فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) يعنون يوسف * قيل كان قد سرق صنم جده أبى أمه فكسره . وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لاسحق ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لايشعر بما صنعت وانما أرادت أن يكون عندها وفى حضانتها لمحبتها له . وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء . وقيل غير ذلك فلهذا (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه) وهى كلمته بعدها وقوله (أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) أجابهم سرا لاجهرا حلما وكرما وصفحا وعفوا فدخلوا معه فى الترفق والتعطف فقالوا (يا أيها العزيز إن له أبا

شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا اذا لظالمون) أى إن أطلقنا المتهم وأخذنا البرئ . هذا مالا نفعله ولا نسمح به وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده .

وعند أهل الكتاب أن يوسف تعرف اليهم حينئذ وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جدا (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أويحكم الله لى وهو خير الحاكمين . إرجعوا إلى أبيكم فقولوا ياأبانا إن ابنك سرق وماشهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون . قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال ياأسفى على يوسف وأبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتؤ تذ كر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون . يا بنى إذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

يقول تعالى مخبرا عنهم أنهم لما استيأسوا من أخذه منه خلصوا يتناجون فيما بينهم قال كبيرهم وهو روبيل (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم) لقد أخلفتم عهده وفرطتم فيه كما فرطتم فى أخيه يوسف من قبله فلم يبق لى وجه أقابله به (فلن أبرح الأرض) أى لا أزال مقيما ههنا (حتى يأذن لى أبى) فى القدوم عليه (أو يحكم الله لى) بأن يقدرنى على رد أخى الى أبى (وهو خير الحاكمين . ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) أى اخبروه بما رأيتم من الأمر فى الظاهر المشاهد (وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) أى فان هذا الذى أخبرناك به من أخذهم أخانا لأنه سرق أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التى كنا نحن وهم هناك (وإنا لصادقون قال بل سولت لكم أنفسكم أمر فصبر جميل) أى ليس الأمر كما ذكرتم لم يسرق فانه ليس سجية له ولاخلقه وانما سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل

قال ابن اسحق وغيره لما كان التفريط منهم فى بنيامين مترتبا على صنيعهم فى يوسف قال لهم ماقال وهذا كما قال بعض السلف إن من جزاء السيئة السيئة بعدها ثم قال (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) يعنى يوسف وبنيامين وروبيل (إنه هو العليم) أى بحالى وما أنا فيه من فراق الأحبة (الحكيم) فيما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة (وتولى عنهم) أى أعرض عن بنيه (وقال ياأسفى على يوسف) ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم وحرك ما كان كامنا كما قال بعضهم .

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شئتَ منَ الهوى ... ما الحبُّ إلاَّ للحبيبِ الأوّلِ

وقال آخر

لَقَدْ لاَمَنِي عِندَ القُبورِ عَلى البُكا رَفِيقِي لِتَذرافِ الدُّموعِ السَّوافِكِ
فَقالَ أَتَبكِي كُلَّ قَبرٍ رأيتَهُ لِقبرٍ ثَوَى بَينَ اللِّوَى فالدَّكادِكِ
فَقلتُ له إن الأَسَى يبعثُ الأَسَى فَدَعْنِي فَهذَا كلُّهُ قبرُ مالِكِ

وقوله (وابيضت عيناه من الحزن) أي من كثرة البكاء (فهو كظيم) أي مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه الى يوسف فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق (قالوا) له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه (تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) يقولون لا تزال تذكره حتى تنحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك (قال انما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون) يقول لبنيه لست أشكو اليكم ولا الى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكو الى الله عز وجل وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجا ومخرجاً وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى ولهذا قال: (واعلم من الله مالا تعلمون) ثم قال لهم محرضا على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما. (يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) أي لا تيئسوا من الفرج بعد الشدة فانه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا القوم الكافرون (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضُّر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين. قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون. قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين. قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين. قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين)

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ورغبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين اليهم (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال (وجئنا ببضاعة مزجاة) أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنه. قيل كانت دراهم رديئة. وقيل قليلة وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك. وعن ابن عباس كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) قيل بقبولها قاله السدي. وقيل برد أخينا الينا قاله ابن جريج. وقال سفيان بن عيينة إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونزع بهذه الآية رواه ابن جرير. فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاؤا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال تعرف اليهم وعطف عليهم قائلا لهم عن أمر ربه وربهم.

وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الخال فيه الذي يعرفون (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا) وتعجبوا كل العجب وقد ترددوا اليه مرارا عديدة وهم لايعرفون أنه هو (أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى) يعنى أنا يوسف الذى صنعتم معه ماصنعتم وسلف من أمركم فيه ما فرطتم وقوله (وهذا أخى) تأكيد لما قال وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد وعملوا فى أمرهما من الاحتيال ولهذا قال (قد من الله علينا) أى بإحسانه الينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم الينا وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى فضلك وأعطاك مالم يعطنا (وإن كنا لخاطئين) . أى فيما أسدينا اليك وها نحن بين يديك (قال لا تثريب عليكم اليوم) أى لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا ثم زادهم على ذلك فقال (اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين).

ومن زعم أن الوقف على قوله لاتثريب عليكم وابتدأ بقوله اليوم يغفر الله لكم فقوله ضعيف والصحيح الاول. ثم أمرهم بان يذهبوا بقميصه وهو الذى يلى جسده فيضعوه على عينى أبيه فانه يرجع اليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن الله وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات * ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين الى ديار مصر الى الخير والنعمة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور (فلما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير القاه على وجهه فارتد بصيرا . قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون . قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم).

قال عبد الرزاق أنبأنا اسرائيل عن أبى سنان عن عبدالله بن أبى الهذيل سمعت ابن عباس يقول فلما فصلت العير قال لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف (فقال إنى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون) قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام.وكذا رواه الثورى وشعبة وغيرهم عن أبى سنان به . وقال الحسن البصرى وابن جريج المكى كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخا وكان له منذ فارقه ثمانون سنة وقوله (لولا أن تفندون) أى تقولون انما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن . قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة تفندون تسفهون . وقال مجاهد أيضا والحسن تهرمون (قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) قال قتادة والسدى قالوا له كلمة غليظة . قال الله تعالى (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) أى بمجرد ماجاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيرا بعد ما كان ضريرا وقال لبنيه عند ذلك (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا

تعلمون) أى أعلم أن الله سيجمع شملى بيوسف وستقر عينى به وسيرينى فيه ومنه ما يسرنى فعند ذلك (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين). طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه وما كانوا عزموا عليه . ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم فاجابهم أبوهم الى ماسألوا وماعليه عولوا قائلا (سوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم).

قال ابن مسعود وابراهيم التيمى وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم أرجأهم الى وقت السحر قال ابن جرير حدثنى أبو السائب حدثنا ابن ادريس سمعت عبد الرحمن بن سحق يذكر عن محارب ابن دثار قال كان عمر يأتى المسجد فسمع انسانا يقول (اللهم دعوتنى فأجبت وأمرتنى فأطعت وهذا السحر فاغفر لى) قال فاستمع الصوت فاذا هو من دار عبد الله بن مسعود فسأل عبد الله عن ذلك فقال إن يعقوب أخر بنيه الى السحر بقوله (سوف أستغفر لكم ربى) وقد قال الله تعالى (والمستغفرين بالاسحار) وثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ قال (ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فاغفر له) وقد ورد فى حديث (أن يعقوب أرجأ بنيه الى ليلة الجمعة) قال ابن جرير حدثنى المثنى . ثنا سليمان بن عبد الرحمن بن أيوب الدمشقى حدثنا الوليد أنبأنا ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ (سوف أستغفر لكم ربى) يقول حتى تأتى ليلة الجمعة وهو قول أخى يعقوب لبنيه . وهذا غريب من هذا الوجه . وفى رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفا على ابن عباس رضى الله عنه . (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد احسن بى اذ اخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين أخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض انت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين) .

هذا إخبار عن حال إجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة التى قيل انها ثمانون سنة وقيل ثلاث وثمانون سنة وهما روايتان عن الحسن . وقيل خمس وثلاثون سنة قاله قتادة . وقال محمد ابن اسحاق ذكروا أنه غاب عنه ثمانى عشرة سنة * قال وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة وظاهر سياق القصة يرشد الى تحديد المدة تقريبا فان المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة فيما قاله غير واحد فامتنع فكان فى السجن بضع سنين وهى سبع عند عكرمة وغيره . ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ثم لما امحل الناس فى السبع البواقى جاء إخوتهم يمتارون فى السنة الأولى وحدهم وفى الثانية ومعهم أخوه بنيامين . وفى الثالثة تعرف اليهم وأمرهم باحضار أهلهم أجمعين فجاؤا كلهم (فلما دخلوا

عليه آوى اليه ابويه) اجتمع بهما خصوصا وحدهما دون إخوته (وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) قيل هذا من المقدم والمؤخر تقديره ادخلوا مصر وآوى اليه ابويه . وضعفه ابن جرير وهو معذور * قيل تلقاهما وآوا هما في منزل الخيام. ثم لما اقتربوا من باب مصر (قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) قاله السدي . ولو قيل إن الأمر لايحتاج الى هـذا ايضا وانه ضمن قوله أدخلوا معنى اسكنوا مصر أو اقيموا بها (إن شاء الله آمنين) لكان صحيحا مليحا أيضا .

وعنـد أهل الكتاب أن يعقوب لما وصل الى أرض جاشر وهي أرض بليس خرج يوسف لتلقيه وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشرا بقدومه وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم * وقد ذكر جماعة من المفسرين أنه لما أزف قدوم نبي الله يعقوب وهو اسرائيل أراد يوسف أن يخرج لتلقيه فركب معه الملك وجنوده خدمة ليوسف وتعظيما لنبي الله اسرائيل وأنه دعا للملك وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه اليهم فالله أعلم

وكان جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم فيما قاله أبو اسحاق السبيعي عن ابي عبيدة عن ابن مسعود ثلاثة وستين انسانا * وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبد الله بن شداد كانوا ثلاثة وثمانين انسانا . وقال ابو اسحاق عن مسروق دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون انسانا . قالوا وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة الف مقاتل * وفي نص أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفسا وسموهم .

قال الله تعالى (ورفع أبويه على العرش) قيل كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة . وقال بعض المفسرين فأحياها الله تعالى وقال آخرون بل كانت خالته ليا والخالة بمنزلة الام . وقال ابن جرير وآخرون بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه الى يومئذ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه وهذا قوي والله أعلم . ورفعهما على العرش أي اجلسهما معه على سريره (وخروا له سجدا) أي سجد له الابوان والاخوة الأحد عشر تعظيما وتكريما وكان هذا مشروعا لهم ولم يزل ذلك معمولا به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا . (وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل) أي هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين وأمرتني بكتمانها ووعدتني ماوعدتني عند ذلك (قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن) أي بعد الهم والضيق جعلني حاكما نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت (وجاء بكم من البدو) أي البادية وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) أي فيما كان منهم الي من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره * ثم قال (إن ربي لطيف لما يشاء) أي إذا أراد شيئا هيأ أسبابه ويسرها وسهلها من وجوه لايهتدي اليها العباد بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته (إنه هو العليم) أي بجميع الأمور (الحكيم) في خلقه وشرعه وقدره .

وعند أهل الكتاب ان يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذى كان تحت يده ـ بأموالهم كلها من الذهب والفضة والعقار والأثاث وما يملكونه كله حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء * ثم اطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ويكون خمس مايشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك فصارت سنة أهل مصر بعده .

وحكى الثعلبى أنه كان لايشبع فى تلك السنين حتى لاينسى الجيعان وأنه انما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار قال فمن ثم اقتدى به الملوك فى ذلك * قلت وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لايشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب .

قال الشافعى قال رجل من الأعراب لعمر بعد ماذهب عام الرمادة (لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة) . ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت وشمله قد اجتمع عرف أن هذه الدار لايقربها قرار وأن كل شئ فيها ومن عليها فان . وما بعد التمام الا النقصان فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله واعترف له بعظيم إحسانه وفضله . وسأل منه وهو خير المسؤلين أن يتوفاه أى حين يتوفاه على الاسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين . وهكذا كما يقال فى الدعاء (اللهم احينا مسلمين وتوفنا مسلمين) أى حين تتوفانا ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام كما سأل النبى ص عند احتضاره أن يرفع روحه الى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين كما قال (اللهم فى الرفيق الأعلى ثلاثا ثم قضى).

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الاسلام منجزا فى صحة بدنه وسلامته وأن ذلك كان سائغا فى ملتهم وشرعتهم كما روى عن ابن عباس أنه قال ماتمنى نبى قط الموت قبل يوسف . فأما فى شريعتنا فقد نهى عن الدعاء بالموت الا عند الفتن كما فى حديث معاذ فى الدعاء الذى رواه أحمد (وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا اليك غير مفتونين) وفى الحديث الآخر (ابن آدم الموت خير لك من الفتنة) وقالت مريم عليها السلام (ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) وتمنى الموت على بن أبى طالب لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال وكثر القيل والقال وتمنى ذلك البخارى أبو عبد الله صاحب الصحيح لما اشتد عليه الحال ولقى من مخالفيه الاهوال .

فاما فى حال الرفاهية فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ص (لايتمنى احدكم الموت لضر نزل به إما محسنا فيزداد وإما مسيئا فلعله يستعتب ولكن ليقل اللهم احينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى) والمراد بالضر ههنامايخص العبد فى بدنه من مرض ونحوه لافى دينه * والظاهر أن نبى الله يوسف عليه السلام سأل ذلك إما عند احتضاره أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك .

وقد ذكر ابن اسحق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم توفى عليه السلام وكان قد أوصى الى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه ابراهيم واسحق. قال السدى فصبر وسيره الى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه اسحق وجده الخليل عليهم السلام.

وعند أهل الكتاب أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة. وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ومع هذا قالوا فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة * هذا نص كتابهم وهو غلط إما فى النسخة أو منهم أو قد اسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا وقد قال تعالى فى كتابه العزيز (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) يوصى بنيه بالاخلاص وهو دين الاسلام الذى بعث الله به الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحداً واحداً وأخبرهم بما يكون من أمرهم وبشر يهوذا بخروج نبى عظيم من نسله تطيعه الشعوب وهو عيسى بن مريم والله أعلم.

وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوما وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوما ثم إستأذن يوسف ملك مصر فى الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها فلما وصلوا حبرون دفنوه فى المغارة التى كان إشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثى وعملوا له عزاء سبعة أيام قالوا ثم رجعوا الى بلادهم وعزى إخوة يوسف ليوسف فى أبيهم وترققوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم فأقاموا ببلاد مصر. ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة فأوصى أن يحمل معهم اذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه فحنطوه ووضعوه فى تابوت فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتى. قالوا فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين * هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضاً. وقال مبارك بن فضالة عن الحسن ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة. ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة * وقال غيره أوصى الى أخيه يهوذا صلوات الله عليه وسلامه.

قصة نبى الله أيوب

قال ابن اسحق كان رجلا من الروم وهو أيوب بن موص بن رزاح بن العيص بن اسحق ابن ابراهيم الخليل. وقال غيره هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن اسحق بن يعقوب وقيل غير ذلك فى نسبه. وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام. وقيل كان أبوه ممن آمن بابراهيم

عليه السلام يوم ألقى فى النار فلم تحرقه والمشهور الأول لأنه من ذرية ابراهيم كما قررنا عنـد قوله تعالى (ومن ذريتـه داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون) الآيات من أن الصحيح أن الضمير عائد على ابراهيم دون نوح عليهما السلام. وهو من الأنبياء المنصوص على الايحاء اليهم فى سورة النساء فى قوله تعالى (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعـده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيـل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب) الآية فالصحيح أنه من سلالة العيص بن اسحق وامرأته قيل اسمها ليا بنت يعقوب. وقيل رحمه بنت أفرائيم . وقيل منشا بن يوسف بن يعقوب. وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا . ثم نعطف بذكر أنبياء بنى إسرائيل بعد ذكر قصته ان شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

قال الله تعالى (وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) وقال تعالى فى سورة ص (واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب. أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب. وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجـدناه صابرا نعم العبـد إنه أواب) وروى ابن عساكر من طريق الـكلبى أنه قال أول نبى بعث إدريس . ثم نوح . ثم ابراهيم . ثم اسماعيل . ثم اسحق . ثم يعقوب . ثم يوسف . ثم لوط . ثم هود . ثم صالح . ثم شعيب . ثم موسى وهرون . ثم الياس . ثم اليسع . ثم عرفى(١) بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب . ثم يونس بن متى من بنى يعقوب . ثم أيوب بن زراح(٢) بن آموص بن ليفرز بن العيص بن اسحق بن براهيم . وفى بعض هذا الترتيب نظر فان هوداً وصالحاً المشهور أنهما بعد نوح . وقبل ابراهيم والله أعلم .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الانعام والعبيد والمواشى والأراضى المتسعة بأرض البثينة من أرض حوران .

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب من ذلك جميعه وابتلى فى جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه . يذكر الله عز وجل بهما وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل فى ليله ونهاره وصباحه ومسائه . وطال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليـه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه اليها وشفقته عليها فكانت تتردد اليـه فتصلح من شأنه وتعينه عـلى قضاء حاجته وتقوم بمصلحته . وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده رضى الله عنها وأرضاها وهى صابرة معه عـلى ماحل بهما من فراق

---

(١) فى نسخة عربى . (٢) فى نسخة رازخ .

المال والولد ومايختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة فانا لله وإنا اليه راجعون . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله (ص) قال (أشد الناس بلاء الانبياء . ثم الصالحون . ثم الامثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه). ولم يزده هذا كله أيوب عليه السلام الاصبرا واحتسابا وحمداً وشكراً حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ويضرب المثل أيضا بما حصل له من أنواع البلايا * وقد روى عن وهب ابن منبه وغيره من علماء بنى اسرائيل فى قصة أيوب خبر طويل فى كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه فى جسده والله أعلم بصحته * وعن مجاهد أنه قال كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدرى وقد اختلفوا فى مدة بلواه على أقوال فزعم وهب أنه ابتلى ثلاث سنين لاتزيد ولا تنقص . وقال أنس ابتلى سبع سنين وأشهراً وألقى على مزبلة لبنى اسرائيل تختلف الدواب فى جسده حتى فرج الله عنه وعظم له الاجر وأحسن الثناء عليه .

وقال حميد مكث فى بلواه ثمانية عشرة سنة . وقال السدى تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته فلما طال عليها قالت (ياأيوب لو دعوت ربك لفرج عنك فقال قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة) فجزعت من هذا الكلام وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام .

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته فلما لم تجد أحداً يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الاشراف احدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال من أين لك هذا وانكره فقالت خدمت به أناساً فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فانكره أيضا وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لك هذا الطعام فكشفت عن رأسها خمارها فلما رأى رأسها محلوقاً قال فى دعائه (انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين)

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا جرير بن حازم عن عبدالله بن عبيد بن عمير قال كان لأيوب اخوان فجاءا يوماً فلم يستطيعا ان يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد فقال أحدهما لصاحبه لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع من شئ قط قال (اللهم ان كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعانا وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى) فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال (اللهم ان كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقنى فصدق من السماء وهما يسمعان) ثم قال اللهم بعزتك وخر ساجداً فقال اللهم بعزتك لا أرفع رأسى أبداً حتى تكشف عنى فما رفع رأسه حتى كشف عنه .

وقال ابن أبى حاتم وابن جرير جميعا حدثنا يونس بن عبد الأعلى انبأنا ابن وهب أخبرنى

نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهرى عن أنس بن مالك أن النبى (ص) قال: (إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من اخوانه كانا من أخص اخوانه له كانا يغدوان اليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنبا ماأذنبه أحد من العالمين قال له صاحبه وما ذاك قال منذ ثمانى عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف مابه . فلما راحا اليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب لا أدرى ماتقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فارجع الى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق . قال وكان يخرج فى حاجته فاذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله الى أيوب فى مكانه (أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله مابه من البلاء وهو على أحسن ما كان فلما رأته قالت أى بارك الله فيك هل رأيت نبى الله هذا المبتلى فوالله على ذلك مارأيت رجلا اشبه به منك اذ كان صحيحاً قال فانى أنا هو . قال وكان له اندران اندر للقمح واندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت أحداهما على اندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وافرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض . هذا لفظ ابن جرير وهكذا رواه بتمامه ابن حبان فى صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهب به . وهذا غريب رفعه جداً . والأشبه أن يكون موقوفاً . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى ثنا موسى بن اسمعيل حدثنا حماد انبئنا على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس فى ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت ياعبد الله هذا المبتلى الذى كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة قال ولعل أنا أيوب قالت أتسخر منى ياعبد الله فقال ويحك أنا أيوب قد رد الله على جسدى .

قال ابن عباس ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم . وقال وهب بن منبه . أوحى الله اليه قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فان فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً واستغفر لهم فانهم قد عصونى فيك رواه ابن أبى حاتم . وقال ابن أبى حاتم ثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل فى ثوبه قال فقيل له يا أيوب أما تشبع . قال يارب ومن يشبع من رحمتك وهكذا رواه الامام أحمد عن أبى داود الطيالسى وعبد الصمد عن همام عن قتادة به . ورواه ابن حبان فى صحيحه عن عبد الله بن محمد الأزدى عن اسحق بن راهويه عن عبد الصمد به ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب وهو على شرط الصحيح فالله أعلم .

وقال الامام أحمد ثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب فجعل يقبضها في ثوبه فقيل يا أيوب ألم يكفك ما أعطيناك قال أي رب ومن يستغني عن فضلك . هذا موقوف . وقد روى عن أبي هريرة من وجه آخر مرفوعا .

وقال الامام احمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال قال رسول الله ص.ع (بينا أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه عز وجل (يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى) قال بلى يارب ولكن لاغنى لي عن بركتك . رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به وقوله (أركض برجلك) أي اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فانبع الله له عيناً باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض الذي كان في جسده ظاهرا وباطناً وابدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالا تاما ومالا كثيراً حتى صب له من المال صبا مطراً عظيما جراداً من ذهب واخلف الله له أهله كما قال تعالى (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) فقيل أحياهم الله بأعيانهم . وقيل آجره فيمن سلف وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة . وقوله (رحمة من عندنا) أي رفعنا عنه شدته (وكشفنا ما به من ضر) رحمة منا به ورأفة واحسانا (وذكرى للعابدين) أي تذكرة لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبي الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه .

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال هي رحمة من هذه الآية فقد ابعد النجعة واغرق النزع . وقال الضحاك عن ابن عباس رد الله اليها شبابها وزادها حتى ولدت له سته وعشرون ولداً ذكرا .

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ثم غيروا بعده دين ابراهيم .

وقوله (خذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها . وقيل لأنه عرضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مائة سوط . فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث . وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة رضي الله عنها . ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الايمان والنذور وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الايمان وصدروه بهذه الآية الكريمة

وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب * وسنذكر طرفا من ذلك فى كتاب الاحكام عند الوصول اليه ان شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثا وتسعين سنة . وقيل إنه عاش أكثر من ذلك . وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء وبيوسف عليه السلام على الارقاء وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء رواه ابن عساكر بمعناه وأنه أوصى إلى ولده حومل وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب وهو الذى يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم . ومات ابنه هذا وكان نبياً فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمساً وسبعين * ولنذكر ههنا قصة ذى الكفل إذ قال بعضهم إنه ابن أيوب عليهما السلام *

قصة ذى الكفل

الذى زعم قوم أنه ابن أيوب * قال الله تعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء (واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين) وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضا فى سورة ص (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) فالظاهر من ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور . وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيا وانما كان رجلا صالحا وحكما مقسطا عادلا * وتوقف ابن جرير فى ذلك فالله أعلم *.

وروى ابن جرير وابن أبى نجيح عن مجاهد أنه لم يكن نبيا وانما كان رجلا صالحا وكان قد تكفل لبنى قومه ان يكفيه أمرهم ويقضى بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل . وروى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق داود بن أبى هند عن مجاهد أنه قال لما كبر اليسع قال لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس فقال من يتقبل لى بثلاث استخلفه . يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب . قال فقام رجل تزدريه العين فقال أنا فقال أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب قال نعم. قال فردهم ذلك اليوم وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال أنا . فاستخلفه قال فجعل ابليس يقول للشياطين عليكم بفلان فأعياهم ذلك فقال دعونى واياه فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا قال شيخ كبير مظلوم * قال فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه فقال إن بينى وبين قومى خصومة وانهم ظلمونى وفعلوا بى وفعلوا حتى حضر الرواح وذهبت القائلة وقال اذا رحت فأتنى آخذ

لك بحقك فانطلق وراح . فكان فى مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلا يراه . فلما رجع الى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من هذا قال الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقال ألم أقل لك اذا قعدت فأتنى فقال إنهم أخبث قوم اذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك واذا قمت جحدونى قال فانطلق فاذا رحت فأتنى قال ففاتته القائلة فراح فجعل ينتظر فلا يراه وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله لاتدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فانى قد شق على النوم . فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل وراءك وراءك فقال إنى قد أتيته أمس فذكرت له أمرى فقال لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحدا يقربه فلما أعياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسور منها فاذا هو فى البيت واذا هو يدق الباب من داخل قال فاستيقظ الرجل فقال يافلان ألم آمرك قال أما من قبلى والله فلم تؤت فانظر من اين أتيت قال فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه واذا الرجل معه فى البيت فعرفه فقال أعدو الله قال نعم أعييتنى فى كل شئ ففعلت مارى لأغضبنك فسماه الله ذا الكفل لانه تكفل بأمر فوفى به .

وقد روى ابن أبى حاتم أيضا عن ابن عباس قريبا من هذا السياق . وهكذا روى عن عبد الله ابن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الاكبر وغيرهم من السلف نحو هذا . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر أنبئنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن كنانة بن الاخنس قال سمعت الاشعرى يعنى أبا موسى رضى الله عنه وهو على هذا المنبر يقول ما كان ذو الكفل نبيا ولكن كان رجلا صالحا يصلى كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده يصلى كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة . قال قال أبو موسى الاشعرى فذكره منقطعا . فاما الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الاعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال سمعت من رسول الله (ص) حديثا لو لم أسمعه الا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرار ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال كان الكفل من بنى اسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فاتته امرأة فاعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارعدت وبكت فقال لها ما يبكيك أكرهتك قالت لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط وانما حملتنى عليه الحاجة قال فتفعلين هذا ولم تفعليه قط . ثم نزل فقال اذهبى بالدنانير لك . ثم قال والله لا يعصى الله الكفل أبدا فمات من ليلته فاصبح مكتوبا على بابه قد غفر الله للكفل . ورواه الترمذى من حديث الاعمش به وقال حسن . وذكر ان بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر فهو حديث غريب جدا . وفى اسناده نظر فان سعدا هذا قال أبو حاتم لا أعرفه الا بحديث واحد ووثقه ابن حبان ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازى هذا فالله أعلم

باب ذكر امم أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى الآية) . كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث عوف الاعرابي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء أو من الارض بعد ماأنزلت التوراة على وجه الارض غير القرية التي مسخوا قردة . ألم تر أن الله تعالى يقول (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى) ورفعه البزار في رواية له . والاشبه والله أعلم وقفه فدل على أن كل أمة اهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام . فمنهم أصحاب الرس قال الله تعالى في سورة الفرقان (وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيراً . وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً) . وقال تعالى في صورة قٓ (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد) وهذا السياق والذي قبله يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا وهو الهلاك . وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الاخدود الذين ذكروا في سورة البروج لان أولئك عند ابن اسحق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام وفيه نظر أيضا . وروى ابن جرير قال قال ابن عباس أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في أول تاريخه عند ذكر بناء دمشق عن تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرداد [1] وغيره أن أصحاب الرس كانوا بحضور فبعث الله اليهم نبيا يقال له حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه فسار عاد ابن عوص بن ارم بن سام بن نوح بولده من الرس فنزل الاحقاف وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا في اليمن كلها وفشوا مع ذلك في الارض كلها حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح دمشق وبنى مدينتها وسماها جيرون وهي ارم ذات العماد وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الخلود بن عاد الى عاد يعني أولاد عاد بالاحقاف فكذبوه وأهلكهم الله عز وجل فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة فالله أعلم . وروى ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي عاصم عن أبيه عن شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال الرس بئر بأذربيجان . وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة قال الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها . وقال بن جريج قال عكرمة أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يلسين . وقال

---

(١) المعروف ابن خرداذ .

قتادة فلج من قرى اليمامة قلت فان كانوا أصحاب ياسين كما زعمه عكرمة فقد أهلكوا بعامة قال الله تعالى فى قصتهم (إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون) وستأتى قصتهم بعد هؤلاء وان كانوا غيرهم وهو الظاهر فقد أهلكوا أيضا وتبروا * وعلى كل تقدير فينافى ماذكره ابن جرير وقد ذكر أبو بكر محمد ابن الحسن النقاش أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفى أرضهم جميعها وكان لهم ملك عادل حسن السيرة فلما مات وجدوا عليه وجدا عظيما فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان فى صورته وقال إنى لم أمت ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم ففرحوا أشد الفرح وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه وأخبرهم أنه لايموت أبدا فصدق به أكثرهم وافتتنوا به وعبدوه فبعث الله فيهم نبيا وأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ونهاهم عن عبادته وأمرهم بعبادة الله وحده لاشريك له *

قال السهيلى وكان يوحى اليه فى النوم وكان اسمه حنظلة بن صفوان فعدوا عليه فقتلوه والقوه فى البئر فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم وخربت ديارهم وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة وبعد الاجتماع بالفرقة وهلكوا عن آخرهم وسكن فى مساكنهم الجن والوحوش فلا يسمع بيقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الاسد وصوت الضباع . فاما مارواه اعنى ابن جرير عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن محمد بن كعب القرظى قال قال رسول الله (ص) : (إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الاسود) وذلك أن الله تعالى بعث نبيا الى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك الاسود . ثم إن أهل القرية عدوا على النبى فحفروا له بئراً فالقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم قال فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ثم يأتى بحطبه فيبيعه ويشترى به طعاما وشرابا ثم يأتى به الى ذلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ويدلى اليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت قال فكان كذلك ماشاء الله أن يكون * ثم إنه ذهب يوما يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع ينام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائما ثم إنه هب فتمطى وتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام الا ساعة من نهار فجاء الى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاما وشرابا كما كان يصنع * ثم إنه ذهب الى الحفرة الى موضعها الذى كانت فيه فالتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه * قال فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود مافعل فيقولون له ماندرى حتى قبض الله النبى عليه السلام وأهب الأسود من نومه بعد ذلك فقال رسول الله (ص) إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة . فانه حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد ابن كعب القرظى والله أعلم .

ثم قد رده ابن جرير نفسه وقال لايجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون فى القرآن

قال لأن الله أخبر عن أصحاب الرس انه أهلكهم وهؤلاء قد بدالهم فآمنوا بنبيهم . اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم والله أعلم . ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف لما تقدم ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ولم يذكر هلاكهم وقد صرح بهلاك أصحاب الرس والله أعلم

قصة قوم يس وهم[1] أصحاب القرية

قال الله تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا اليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم . قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إني إذا لفي ضلال مبين . إني آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين . وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين . إن كانت الاصيحة واحدة فاذا هم خامدون)

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية انطاكية . رواه ابن اسحق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الاحبار ووهب بن منبه وكذا روى عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهرى وغيرهم قال ابن اسحق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب انهم قالوا وكان لها ملك اسمه انطيخس بن انطيخس وكان يعبد الاصنام فبعث الله اليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم *

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل وزعم قتادة أنهم كانوا رسلا من المسيح . وكذا قال ابن جرير عن وهب عن ابن سليمان عن شعيب الجبائي كان اسم المرسلين الاولين شمعون ويوحنا واسم الثالث بولس والقرية انطاكية .

وهذا القول ضعيف جدا لان أهل انطاكية لما بعث اليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول

---

(١) في نسخة وهم أصحاب القرية .

مدينة آمنت بالمسيح فى ذلك الوقت ولهذا احدى كانت المدن الاربع التى تكون فيها بتاركة النصارى وهن أنطاكية والقدس واسكندرية ورومية ثم بعدها الى القسطنطينية ولم يهلكوا وأهل هذه القرية المذكورة فى القرآن أهلكوا كما قال فى آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون فى القرآن بعثوا الى أهل أنطاكية قديما فكذبوهم وأهلكهم الله ثم عمرت بعد ذلك . فلما كان فى زمن المسيح آمنوا برسله اليهم فلا يمنع هذا والله أعلم .

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة فى القرآن هى قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضى أن هؤلاء الرسل من عند الله . قال الله تعالى (واضرب لهم مثلا) يعنى لقومك يامحمد (أصحاب القرية) يعنى المدينة (اذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث) أى أيدناهما بثالث فى الرسالة (فقالوا إنا اليكم مرسلون) فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله اليكم ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام (وما علينا إلا البلاغ المبين) أى إنما علينا أى نبلغكم ما أرسلنا به اليكم والله هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء (قالوا إنا تطيرنا بكم) أى تشاءمنا بما جئتمونا به (لئن لم تنتهوا لنرجمنكم) بالمقال وقيل بالفعال ويؤيد الأول قوله (وليمسنكم منا عذاب اليم) فوعدوهم بالقتل والاهانة . (قالوا طائركم معكم) أى مردود عليكم (أئن ذكرتم) أى بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم اليه توعدتمونا بالقتل والاهانة (بل أنتم قوم مسرفون) أى لاتقبلون الحق ولاتريدونه .

وقوله تعالى (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) يعنى لنصرة الرسل وأظهار الايمان بهم (قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون) أى يدعونكم الى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة . ثم دعاهم الى عبادة الله وحده لاشريك له ونهاهم عن عبادة ماسواه مما لاينفع شيئاً لافى الدنيا ولا فى الآخرة (إنى إذا لفى ضلال مبين) أى إن تركت عبادة الله وعبدت معه ماسواه * ثم قال مخاطبا للرسل (إنى آمنت بربكم فاسمعون) قيل فاستمعوا مقالتى واشهدوا لى بها عند ربكم . وقيل معناه فاسمعوا ياقومى ايمانى برسل الله جهرة . فعند ذلك قتلوه . قيل رجما . وقيل عضا وقيل وثبوا اليه وثبة رجل واحد فقتلوه . وحكى ابن اسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال وطئوه بأرجلهم حتى أخرجوا قصبته .

وقد روى الثورى عن عاصم الاحول عن أبى مجلز كان اسم هذا الرجل حبيب بن مرى * ثم قيل كان نجارا وقيل حبالا . وقيل إسكافا . وقيل قصارا وقيل كان يتعبد فى غار هناك فالله أعلم

وعن ابن عباس كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام وكان كثير الصدقة فقتله قومه . ولهذا قال تعالى

(إدخل الجنة) يعنى لما قتله قومه أدخله الله الجنة فلما رأى فيها من النضرة والسرور (قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) يعنى ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ماحصل لى قال ابن عباس نصح قومه فى حياته (ياقوم اتبعوا المرسلين) وبعد مماته (ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) رواه ابن أبى حاتم وكذلك قال قتادة لاتلقى المؤمن الا نصحا لا تلقى غاشا لما عاين ماعاين من كرامة الله (ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وماهو عليه قال قتادة فلا والله ماعاتب الله قومه بعد قتله (ان كانت الاصيحة واحدة فاذاهم خامدون) وقوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) أى ما احتجنا فى الانتقام منهم الى انزال جند من السماء عليهم . هذا معنى مارواه ابن اسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود * قال مجاهد وقتادة وما أنزل عليهم جندا أى رسالة أخرى قال ابن جرير والأول أولى قلت وأقوى ولهذا قال (وما كنا منزلين) أى وما كنا نحتاج فى الانتقام الى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا (إن كانت الا صيحة واحدة فاذاهم خامدون) .

قال المفسرون بعث الله اليهم جبريل عليه السلام فأخذ بعضادتى الباب الذى لبلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة فاذاهم خامدون أى قد أخمدت أصواتهم وسكنت حركاتهم ولم يبق منهم عين تطرف .

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله اليهم وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين اليهم فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح * فأما الحديث الذى رواه الطبرانى من حديث حسين الأشقرى عن سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى (ص) قال (السبق ثلاثة فالسابق الى موسى يوشع بن نون والسابق الى عيسى صاحب يس والسابق الى محمد على ابن أبى طالب) فانه حديث لايثبت لأن حسينا هذا متروك وشيعى من الغلاة وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية والله أعلم *

قصة يونس

قال الله تعالى فى سورة يونس (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الاقوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) وقال تعالى فى سورة الأنبياء (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله الا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) وقال تعالى فى سورة الصافات (وإن يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين

وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين) . وقال تعالى فى سورة نون (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم) لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) . قال أهل التفسير بعث الله يونس عليه السلام الى أهل نينوى من أرض الموصل فدعاهم الى الله عز وجل فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله فى قلوبهم التوبة والانابة وندموا على ما كان منهم الى نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا الى الله عزوجل وصرخوا وتضرعوا اليه وتمسكنوا لديه وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وجأرت الأنعام والدواب والمواشى فرغت الابل وفصلانها وخارت البقر وأولادها وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رؤسهم كقطع الليل المظلم ولهذا قال تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها) أى هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها فدل على أنه لم يقع ذلك بل كما قال تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نبى الاقال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون) . وقوله (الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) أى آمنوا بكمالهم .

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الايمان فى الدار الآخرة فينقذهم من العذاب الأخروى كما أنقذهم من العذاب الدنيوى على قولين الأظهر من السياق نعم والله أعلم كما قال تعالى (لما آمنوا) وقال تعالى (وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين) . وهذا المتاع الى حين لا ينفى أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروى والله أعلم .

وقد كانوا مائة الف لامحالة واختلفوا فى الزيادة فعن مكحول عشرة آلاف * وروى الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية حدثنى أبى بن كعب أنه سأل رسول الله ص عن قوله (وأرسلناه الى مائة الف أو يزيدون) قال يزيدون عشرين ألفا فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلا فى هذا الباب * وعن ابن عباس كانوا مائة الف وثلاثين ألفا وعنه وبضعة وثلاثين الفا . وعنه وبضعة وأربعين ألفا وقال سعيد بن جبير كانوا مائة ألف وسبعين ألفا .

واختلفوا هل كان ارساله اليهم قبل الحوت أو بعده أوهما أمتان على ثلاثة أقوال هى مبسوطة فى التفسير * والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضبا بسبب قومه ركب سفينة فى البحر فلجت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون على ماذكره المفسرون * قالوا فاشتوروا فيما

فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة لتحتفظوا منه . فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضا فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك . ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضا لما يريده الله به من الأمر العظيم . قال الله تعالى (وإن يونس لمن المرسلين . اذ أبق الى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم) . وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى فى البحر وبعث الله عز وجل حوتا عظيما من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحما ولا يهشم له عظما فليس لك برزق فأخذه فطاف به البحار كلها وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه * قالوا ولما استقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فاذا هو حى فخر لله ساجدا وقال يارب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد فى مثله .

وقد اختلفوا فى مقدار لبثه فى بطنه . فقال مجالد عن الشعبى التقمه ضحى ولفظه عشية * وقال قتادة مكث فيه ثلاثا وقال جعفر الصادق سبعة أيام ويشهد له شعر أمية بن أبى الصلت .

وأَنتَ بفضلٍ منكَ نجّيتَ يُونسًا وقد باتَ في أضعافِ حُوتٍ لياليا

وقال سعيد بن أبى الحسن وأبو مالك مكث فى جوفه أربعين يوما والله أعلم كم مقدار مالبث فيه

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجى فسمع تسبيح الحيتان للرحمن وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى * فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذى يعلم السر والنجوى ويكشف الضر والبلوى سامع الأصوات وإن ضعفت وعالم الخفيات وإن دقت ومجيب الدعوات وان عظمت حيث قال فى كتابه المبين المنزل على رسوله الامين وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين (وذالنون إذ ذهب) الى أهله (مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين . فظن أن لن نقدر عليه) أن نضيق * وقيل معناه نقدر من التقدير وهى لغة مشهورة قدر وقدّر كما قال الشاعر .

فَلاَ عائدٌ ذاكَ الزمانُ الّذي مضَى تباركْتَ مايقدرْ يكُن فلكَ الأمْرُ

(فنادى فى الظلمات) قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد ابن كعب والحسن وقتادة والضحاك ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل وقال سالم بن أبى الجعد ابتلع الحوت حوت آخر فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر . وقوله تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) قيل معناه لولا أنه سبح الله هنالك وقال ما قال من التهليل والتسبيح

والاعتراف لله بالخضوع والتوبة اليه والرجوع اليه للبث هنالك الى يوم القيامة . وليبث من جوف ذلك الحوت . هذا معنى ماروى عن سعيد بن جبير فى إحدى الروايتين عنه . وقيل معناه (فلولا انه كان) من قبل أخذ الحوت له (من المسبحين) أى المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيرا قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدى وعطاء بن السائب والحسن البصرى وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير ويشهد لهذا مارواه الامام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال لى (ياغلام إنى معلمك كلمات إحفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك تعرّف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة) وروى ابن جرير فى تفسيره والبزار فى مسنده من حديث محمد بن اسحاق عن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله (ص) « لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله الى الحوت أن خذ ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما» فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ماهذا فاوحى الله اليه وهو فى بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر * قال فسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا (يارينا إنا نسمع صوتا بأرض غريبة) قال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر * قالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم * قال فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله (وهو سقيم) هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً * ثم قال البزار لانعلمه يروى عن النبى (ص) إلا بهذا الاسناد كذا قال . وقد قال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن أخى ابن وهب حدثنا عمى حدثنى أبو صخر أن يزيد الرقاشى حدثه سمعت أنس بن مالك ولا أعلم الا أن أنساً يرفع الحديث الى رسول الله (ص) أن يونس النبى عليه السلام حين بداله أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فقبلت الدعوة تحت العرش فقالت الملائكة يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال أما تعرفون ذاك . قالوا يارب ومن هو قال عبدى يونس قالوا عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عملا متقبلا ودعوة مجابة قالوا يارينا أولا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه من البلاء قال بلى فأمر الحوت فطرحه فى العراء * ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به زاد ابن أبى حاتم * قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرنى ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث أنه سمع أبا هريرة يقول طرح بالعراء وانبت الله عليه اليقطينة قلنا ياأبا هريرة وما اليقطينة قال شجرة الدباء قال أبو هريرة وهيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الارض أو قال هشاش الارض . قال فتتفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت وقال أمية ابن أبى الصلت فى ذلك بيتاً من شعره .

فَأَنْبَتَ يقطيناً عليهِ برحمةٍ من اللهِ لولا اللهُ أصبحَ ضاوِيا

وهذا غريب أيضا من من هـذا الوجه ويزيد الرقاشي ضعيف ولـكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم كما يتقوى ذاك بهذا والله أعلم . وقد قال الله تعالى (فنبذناه) أي ألقيناه (بالعراء) وهو المكان القفر الذي ليس فيـه شيء من الاشجار بل هو عار منها (وهو سقيم) أي ضعيف البـدن * قال ابن مسعود كهيئة الفرخ ليس عليه ريش * وقال ابن عباس والسدى وابن زيد كهيئة الضبي حين يولد وهو المنفرش ليس عليه شيء وانبتنا عليـه شجرة من يقطين * قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير . ووهب ابن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدى وقتادة والضحاك وعطاء الخرساني وغير واحد هو القرع *.

قال بعض العلماء في انبات القرع عليه حكم جمة . منها أن ورقه في غاية النعومة وكثير وظليل ولا يقربه ذباب ويؤ كل ثمره من أول طلوعه الى آخره نيا ومطبوخا وبقشره وبجزره أيضا وفيه نفع كثير وتقوية الدماغ وغير ذلك وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الاروية التي كانت ترضعه لبنها وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية . وهـذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه اليه ولهذا قال تعالى (فاستجبنا له فنجيناه من الغم) أي الكرب والضيق الذي كان فيه (وكذلك ننجي المؤمنين) أي وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا * قال ابن جرير حدثني عمران بن بكار الكلاعي حدثنا يحيى ابن صالح حـدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال سمعت سـعد بن مالك وهو ابن أبي وقاص يقول سمعت رسول الله (ص) يقول اسم الله الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى قال قلت يارسول الله هي ليونس خاصـة أم لجماعة المسلمين قال هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها . ألم تسمع قول الله تعالى (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) فهو شرط من الله لمن دعاه به . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب * قال أبو خالد أحسبه عن مصعب يعني ابن سعد عن سعد . قال قال رسول الله (ص) (من دعا بدعاء يونس أستجيب له) قال أبو سعيد الاشج يريد به (وكذلك ننجي المؤمنين) وهذان طريقان عن سعد . وثالث أحسن منهما .

قال الامام أحمد حدثنا اسماعيل بن عمر حدثنا يونس بن أبي اسحق الهمداني حدثني ابراهيم بن محمد ابن سعد حدثني والدي محمد عن أبيه سعد وهو ابن أبي وقاص قال مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يردد علي السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت يا أمير المؤمنين هـل حدث في السلام شيء قال لا وماذاك قلت لا إلا أني مررت بعثمان آنفا في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يردد علي السلام . قال فأرسل عمر الى عثمان فدعاه فقال مامنعك أن لا تكون رددت

على أخيك السلام . قال ماقلت . قال سعد قلت بلى حتى حلف وحلفت . قال ثم إن عثمان ذكر فقال بلى وأستغفر الله وأتوب اليه إنك مررت بى آنفا وأنا احدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله (ص) لا والله ماذكرتها قط الا تغشى بصرى وقلبى غشاوة قال سعد فانا أنبئك بها إن رسول الله (ص) ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله (ص) فاتبعته فلما اشفقت أن يسبقنى الى منزله ضربت بقدمى الأرض فالتفت الىّ رسول الله (ص) فقال من هذا أبو اسحق قال قلت نعم يارسول الله قال فه قلت لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة . ثم جاءهذا الاعرابى فشغلك . قال نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فانه لم يدع بها مسلم ربه فى شئ قط إلا استجاب له ورواه الترمذى والنسائى من حديث ابراهيم بن محمد بن سعد به *

فضل يونس

قال الله تعالى (وإن يونس لمن المرسلين) وذكره تعالى فى جملة الانبياء الكرام فى سورتى النساء والانعام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام * وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال قال رسول الله (ص) (لاينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) ورواه البخارى من حديث سفيان الثورى به * وقال البخارى أيضا حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن قتادة عن أبى العالية عن ابن عباس عن النبى (ص) قال ماينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى ونسبه الى أبيه . ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه لم يسمع قتادة من أبى العالية سوى أربعة أحاديث هذا احدها * وقد رواه الامام أحمد عن عفان عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبى (ص) قال (وما ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) تفرد به أحمد ورواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى * حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان حدثنا عبد الله بن رجاء أنبأنا اسرائيل عن أبى يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال (لاينبغى لأحد أن يقول أنا عند الله خير من يونس بن متى) إسناده جيد ولم يخرجوه *

وقال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن سعد بن ابراهيم سمعت حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال (لاينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به وفى البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل عن عبد الرحمن بن هرمز الاعرج عن أبى هريرة فى قصة المسلم الذى لطم وجه اليهودى حين قال لا والذى اصطفى موسى على

العالمين . ق البخارى فى آخره (ولا أقول إن أحداً خير من يونس بن متى) أى ليس لاحد
أن يفضل نفسه على يونس * والقول الآخر لاينبغى لاحد أن يفضلنى على
يونس بن متى كما قد ورد فى بعض الأحاديث لاتفضلونى على الانبياء
ولاعلى يونس بن متى * وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات
الله وسلامه عليه وعلى سائر انبياء الله والمرسلين

قصة موسى الكليم

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن سحق بن ابراهيم عليهم السلام قال تعالى (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) وقد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن * وذكر قصته فى مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة وقد تكلمنا على ذلك كله فى مواضعه من التفسير وسنورد سيرته ههنا من إبتدائها الى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد فى الآثار المنقولة من الاسرائيليات التى ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان * قال الله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين أستضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق أى بالصدق الذى كأن سامعه مشاهد للامر معاين له (ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا) أى تجبر وعتا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهلها شيعا أى قسم رعيته الى أقسام وفرق وأنواع يستضعف طائفة منهم وهم شعب بنى اسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الله وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض * وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف واردأها وأدناها ومع هذا (يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين) وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن ابراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارة إمرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها * وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل

فتحدث بها القبط فيا بينهم ووصلت الى فرعون فذكرها له بعض امرائه واساورته وهم يسمرون عنـده فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل حذرا من وجود هذا الغلام ولن يغنى حذر من قدر .

وذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل • فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والحزأة والسحرة وسألهم عن ذلك فقالوا هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان ولهذا قال الله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) وهم بنو إسرائيل (ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) أى الذين يؤول ملك مصر وبلادها اليهم (ونمكن لهم فى الأرض ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) أى سنجعل الضعيف قويا والمقهور قادراً والذليل عزيزاً وقد جرى هذا كله لبنى اسرائيل كما قال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا الآية) وقال تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه إن شاء الله .

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد إمرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته • وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بنى إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم . وهذا فيه نظر بل هو باطل وإنما هذا فى الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى كما قال تعالى (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولا حذراً من وجود موسى . هذا والقدر يقول يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه قد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف أقداره ان هذا المولود الذى تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس مالا يعد ولا يحصى لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك وأنت الذى تتبناه وتربيه وتتعداه ولا تطلع على سر معناه ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين وتكذيبك ما أوحى اليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد وأنه هو القوى الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التى لا مرد لها .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا الى فرعون قلة بنى إسرائيل بسبب قتل

ولداتهم الذكور وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون فأمر فرعون بقتل الابناء عاما وأن يتركوا عاما فذكروا أن هرون عليه السلام ولد فى عام المسامحة عن قتل الأبناء وأن موسى عليه السلام ولد فى عام قتلهم فضاقت أمه به ذرعاً واحترزت من أول ماحبلت ولم يكن يظهر عليها مخائيل الحبل، فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتاً فربطته فى حبل وكانت دارها متاخمة للنيل فكانت ترضعه فاذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت فأرسلته فى البحر وأمسكت طرف الحبل عندها فاذا ذهبوا استرجعته اليها به. قال الله تعالى (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون) هذا الوحى وحى الهام وإرشاد كما قال تعالى (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا الآية) وليس هو بوحى نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والجماعة.

قال السهيلى واسم أم موسى أيارخا. وقيل أياذخت[1] * والمقصود أنها أرشدت الى هذا الذى ذكرناه والقى فى خلدها وروعها أن لاتخافى ولاتحزنى فانه ان ذهب فان الله سيرده اليك وان الله سيجعله نبيا مرسلا يعلى كلمته فى الدنيا والآخرة فكانت تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون (فالتقطه آل فرعون) قال الله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنا) قال بعضهم هذه لام العاقبة وهو ظاهر ان كان متعلقا بقوله فالتقطه * وأما ان جعل متعلقا بمضمون الكلام وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدوا وحزنا صارت اللام معللة كغيرها والله أعلم * ويقوى هذا التقدير الثانى قوله (إن فرعون وهامان) وهو الوزير السوء (وجنودهما) المتابعين لهما (كانوا خاطئين) أى كانوا على خلاف الصواب فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون أن الجوارى التقطنه من البحر فى تابوت مغلق عليه فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف * وقيل انها كانت من بنى اسرائيل من سبط موسى * وقيل بل كانت عمته حكاه السهيلى فالله أعلم.

وسيأتى مدحها والثناء عليها فى قصة مريم بنت عمران وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول

---

(١) والذى فى تفسير القرطبى عن الثعلبى لوخا بنت هاند بن لاوا بن يعقوب . وفى بعض التفاسير اسمها (يوخابذ).

صلى (ص) فى الجنة ● فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً جداً ● فلما جاء فرعون قال ما هذا وأمر بذبحه فاستوهبته منه ودفعت عنه (وقالت قرة عين لى ولك) فقال لها فرعون أما لك فنعم وأما لى فلا أى لا حاجة لى به (والبلاء موكل بالمنطق) . وقولها (عسى أن ينفعنا) وقد أنالها الله ما رجت من النفع أما فى الدنيا فهداها الله به وأما فى الآخرة فأسكنها جنته بسببه (أو نتخذه ولدا) وذلك أنهما تبنياه لأنه لم يكن يولد لهما ولد . قال الله تعالى (وهم لا يشعرون) أى لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده . (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم وأصبح فؤاد أم موسى فارغا أى من كل شئ من أمور الدنيا إلا من موسى إن كادت لتبدى به أى لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة (لولا أن ربطنا على قلبها) أى صبرناها وثبتناها (لتكون من المؤمنين) وقالت لأخته وهى ابنتها الكبيرة قصيه أى اتبعى أثره واطلبى له خبره فبصرت به عن جنب ● قال مجاهد عن بعد ● وقال قتادة جعلت تنظر اليه وكأنها لا تريده ● ولهذا قال (وهم لا يشعرون) وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثديا ولا أخذ طعاما فحاروا فى أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل . كما قال تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل) فأرسلوه مع القوابل والنساء الى السوق لعل يجدون من يوافق رضاعته فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه اذ بصرت به أخته فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) ● قال ابن عباس لما قالت ذلك قالوا لها ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه فقالت رغبة فى صهر الملك ورجاء منفعته فأطلقوها وذهبوا معها الى منزلهم فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ففرحوا بذلك فرحا شديداً وذهب البشير الى آسية يعلمها بذلك فاستدعتها الى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن اليها فأبت عليها وقالت إن لى بعلا وأولاداً ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى فأرسلته معها ورتبت لها رواتب وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات فرجعت به تحوزه الى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها . قال الله تعالى (فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق) أى كما وعدناها برده ورسالته فهذا رده وهو دليل على صدق البشارة برسالته (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه فقال له فيما قال له (ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ

أوحينا الى أمك مايوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدولى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى) اذ قال قتادة وغير واحد من السلف أى تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل وتلبس أحسن الملابس بمرأى منى وذلك كله بحفظى وكلاءتى لك فيما صنعت بك لك وقدرته من الأمور التى لا يقدر عليها غيرى (إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرددناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً) وسنورد حديث الفتون فى موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان .

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين) لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى وهو إحكام الخلق والخلق وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين آتاه الله حكما وعلماً وهو النبوة والرسالة التى كان بشر بها أمه حين قال (إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) ثم شرع فى ذكر سبب خروجه من بلاد مصر وذهابه الى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل وانقضى الأمد وكان ما كان من كلام الله له وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتى . قال تعالى (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى وذلك نصف النهار * وعن ابن عباس بين العشاءين (فوجد فيها رجلين يقتتلان) أى يتضاربان ويتهاوشان (هذا من شيعته) أى إسرائيلى (وهذا من عدوه) أى قبطى قاله ابن عباس وقتادة والسدى ومحمد بن اسحاق (فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه) وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته الى تبنى فرعون له وتربيته فى بيته وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رؤسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله أى من الرضاعة فلما استغاث ذلك الاسرائيلى موسى عليه السلام على ذلك القبطى أقبل اليه موسى (فوكزه) * قال مجاهد أى طعنه بجمع كفه * وقال قتادة بعصا كانت معه (فقضى عليه) أى فمات منها * وقد كان ذلك القبطى كافرا مشركا بالله العظيم ولم يرد موسى قتله بالكلية وإنما أراد زجره وردعه ومع هذا (قال) موسى (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على) أى من العز والجاه (فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أراد ان يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى

أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالامس إن تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين)

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً أى من فرعون وملائه أن يعلموا أن هـذا القتيل الذى رفع اليه أمره إنما قتله موسى فى نصرة رجـل من بنى إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهـم ويترتب على ذلك أمر عظيم فصار يسير فى المدينة فى صبيحة ذلك اليوم (خائفاً يترقب) أى يلتفت فبينما هو كذلك اذا ذلك الرجل الاسرائيلى الذى استنصره بالأمس يستصرخه أى يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله فعنفه موسى ولامه عـلى كثرة شره ومخاصمته قال له إنك لغوى مبين * ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى الذى هو عـدو لموسى وللاسرائيلى فيردعه عنـه ويخلصه منه فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطى (قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد الا أن تكون جباراً فى الارض وماتريد أن تكون من المصلحين) قال بعضهم إنما قال هـذا الكلام الاسرائيلى الذى إطلع على ما كان صنع موسى بالأمس وكأنه لما رأى موسى مقبلا الى القبطى إعتقد أنه جاء اليه لمـا عنفه قبل ذلك بقوله إنك لغوى مبين فقال ماقال لموسى وأظهر الأمر الذى كان وقع بالأمس فذهب القبطى فاستعدى موسى الى فرعون . وهذا الذى لم يذكر كثير من الناس سواه . ويحتمل أن قائل هذا هو القبطى وأنه لما رآه مقبـلا اليـه خافه ورأى من سجيته إنتصارا جيـدا للاسرائيلى فقال ماقال من باب الظن والفراسة إن هذا لعله قاتل ذلك القتيل بالأمس أولعله فهـم من كلام الاسرائيلى حين أستصرخه عليه مادله على هذا والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالامس فارسل فى طلبه وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب (وجاء من أقصى المدينـة) ساعيا اليه مشفقا عليه فقال (ياموسى إن المـلأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج) أى من هـذه البلدة (انى لك من الناصحين) أى فيما أقوله لك قال الله تعالى (فخرج منها خائفا يترقب) أى فخرج من مدينـة مصر من فوره على وجهه لايهتدى الى طريق ولا يعرفه قائلا (رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجـه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليـه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب إنى لما انزلت الىّ من خيرفقير) . يخبر تعالى عن خروج عبـده ورسوله وكليمه من مصر خائفا يترقب أى يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون وهو لا يدرى أين يتوجه ولا الى أين يذهب وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها (ولما توجه تلقاء مدين) أى اتجه له طريق يذهب فيه (قال عسى ربى أن يهدينى

سواء السبيل) . أى عسى أن تكون هذه الطريق موصلة الى المقصود * وكذا وقع أو صلته الى مقصود وأى مقصود (ولما ورد ماء مدين) وكانت بئرا يستقون منها * ومدين هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب عليه السلام * وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام فى أحد قولى العلماء * (ولما ورد الماء) المذكور (وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان) أى تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس * وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات . وهذا أيضاً من الغلط وكأنه كن سبعا ولكن إنما كان تسقى إثنتان منهن . وهذا الجمع ممكن ان كان ذاك محفوظا والا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتان (قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) أى لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء لضعفنا وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره قال الله تعالى (فسقى لهما) .

قال المفسرون وذلك أن الرعاء كانوا اذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده . ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر . كما كان * قال أمير المؤمنين عمر وكان لا يرفعه إلا عشرة وإنما استقى ذنوبا واحدا فكفاهما . ثم تولى الى الظل قالوا وكان ظل شجرة من السمر * روى ابن جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف (قال رب إنى لما انزلت الىّ من خير فقير) قال ابن عباس سار من مصر الى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه وان بطنه لاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وانه لمحتاج الى شق تمرة * قال عطاء بن السائب لما (قال رب إنى لما انزلت الى من خير فقير) اسمع المرأة (فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت احداهما يا أبت استأجره إن خير من إستأجرت القوى الامين . قال إنى أريد أن انكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن اتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على مانقول وكيل) لما جلس موسى عليه السلام فى الظل و (قال رب إنى لما أنزلت الى من خير فقير) سمعته المرأتان فياقيل فذهبتا الى أبيهما فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السلام فأمر احداهما أن تذهب اليه فتدعوه فجاءته إحداهما تمشى على استحياء أى مشى الحرائر قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا * صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة . وهذا من تمام حيائها وصيانتها فلما جاءه وقص عليه القصص وأخبره خبره وما كان من أمره فى خروجه من بلاد مصر فرارا من

فرعونها (قال له) ذلك الشيخ (لاتخف نجوت من القوم الظالمين) أى خرجت من سلطانهم فلست فى دولتهم

وقد اختلفوا فى هذا الشيخ من هو فقيل هو شعيب عليه السلام . وهذا هو المشهور عند كثيرين وممن نص عليه الحسن البصرى ومالك بن أنس . وجاء مصرحا به فى حديث ولكن فى إسناده نظر وصرح طائفة بان شعيبا عليه السلام عاش عمراً طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته . وروى ابن أبى حاتم وغيره عن الحسن البصرى أن صاحب موسى عليه السلام هذا إسمه شعيب وكان سيد الماء ولكن ليس بالنبى صاحب مدين * وقيل إنه ابن أخى شعيب * وقيل ابن عمه * وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب * وقيل رجل إسمه يثرون هكذا هو فى كتب أهل الكتاب يثرون كاهن مدين أى كبيرها وعالمها * قال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله إسمه يثرون : زاد أبو عبيدة وهو ابن أخى شعيب . زاد ابن عباس صاحب مدين .

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه وقص عليه ماكان من أمره بشره بأنه قد نجا فعند ذلك قالت إحدى البنتين لابيها ياأبت إستأجره أى لرعى غنمك ثم مدحته بانه قوى أمين قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن اسحق وغير واحد لما قالت ذلك قال لها أبوها وماعلمك بهذا فقالت إنه رفع صخرة لايطيق رفعها إلا عشرة . وأنه لما جئت معه تقدمت امامه فقال كونى من ورائى فاذا اختلف الطريق فاحذى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة * صاحب يوسف حين قال لامرأته أكرمى مثواه * وصاحبة موسى حين قالت يا أبت إستأجره ان خير من إستأجرت القوى الأمين * وأبو بكر حين أستخلف عمر بن الخطاب(قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين) استدل بهذا جماعة من أصحاب أبى حنيفة رحمه الله على صحة ما اذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك أنه يصح لقوله احدى ابنتى هاتين * وفى هذا نظر لأن هذه مراوضة لامعاقدة والله أعلم .

واستدل أصحاب احمد على صحة الايجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة وأستأنسوا بالحديث الذى رواه ابن ماجه فى سننه مترجماً فى كتابه (باب إستئجار الاجير) على طعام بطنه حدثنا محمد ابن المصفى الحمصى حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة بن على عن سعيد بن أبى أيوب عن الحارث بن يزيد عن على بن رباح قال سمعت عتبة بن الندر يقول كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ طس حتى اذا بلغ قصة موسى قال ان موسى عليه السلام آجر نفسه ثمانى سنين أو عشرة على عفة فرجه وطعام بطنه وهذا من هذا الوجه لايصح لأن مسلمة بن على الحسنى الدمشقى البلاطى ضعيف عند الأئمة لايحتج بتفرده ولكن

قد روى من وجه آخر فقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر حدثني ابن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن النُدَّر السلمي صاحب رسول الله (ص) يحدث أن رسول الله قال إن موسى عليه السلام آجر نفسه لعفة فرجه وطعمة بطنه * ثم قال تعالى (ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل) يقول إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت فأيهما قضيت فلا عدوان علي والله على مقالتنا سامع وشاهد ووكيل علي وعليك ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامه .

قال البخاري حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى قلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فاسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله اذا قال فعل . تفرد به البخاري من هذا الوجه وقد رواه النسائي في حديث الفتون كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير وقد رواه ابن جرير عن احمد بن محمد الطوسي وابن أبي حاتم عن أبيه كلاهما عن الحميدي عن سفيان بن عيينة حدثني ابراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما * وابراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث . وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي عن سفيان بن عيينة عن ابراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي (ص) فذكره وقد رواه سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد مرسلا أن رسول الله سأل عن ذلك جبريل فسأل جبريل إسرافيل فسأل إسرافيل الرب عز وجل فقال أبرهما وأوفاهما . وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرح مرسلا ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول الله (ص) سئل أي الأجلين قضى موسى قال أوفاهما وأتمهما . وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران الجوني وهو ضعيف عن أبيه عن عبد الله ابن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله (ص) سئل أي الأجلين قضى موسى قال أوفاهما وأبرهما قال وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما . وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح عن عتبة بن النُدَّر أن رسول الله قال إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه * فلما وفى الأجل قيل يارسول الله أي الأجلين قال أبرهما وأوفاهما * فلما أراد فراق شعيب سأل إمرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه مايعيشون به فاعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام وكانت غنمه سودا حسانا فانطلق موسى عليه السلام

الى عصا قسمها من طرفيها * ثم وضعها فى أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاة الاضترب جنبها شاة شاة قال فأتئمت وآنثت(١) ووضعت كلها قوالب الوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كموش تفوت الكف قال النبي ص لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية . قال ابن لهيعة الفشوش واسعة السخب والضبوب طويلة الضرع تجره والعزوز ضيقة السخب والثعول الصغيرة الضرع كالحلمتين والكموش التى لايحكم الكف على ضرعها لصغره وفى صحة رفع هذا الحديث نظر * وقد يكون موقوفا كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة حدثنا أنس بن مالك قال لما دعا نبى الله موسى صاحبه الى الأجل الذى كان بينهما قال له صاحبه كل شاة ولدت على لونها فلك ولدها فعمد فوضع خيالا على الماء فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقاً الا شاة واحدة فذهب بأولادهن ذلك العام وهذا إسناد رجاله ثقات والله أعلم .

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقا ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام فالله أعلم . (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله أمكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين. أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين) . تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما وقد يؤخذ هذا من قوله (فلما قضى موسى الأجل) وعن مجاهد أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها . وقوله (وسار بأهله) أى من عند صهره ذاهبا فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق الى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختف فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه قالوا واتفق ذلك فى ليلة مظلمة باردة وتاهوا فى طريقهم فلم يهتدوا الى السلوك فى الدرب المألوف وجعل يورى زناده فلا يورى شيئا واشتد الظلام والبرد فبينما هو كذلك اذ أبصر عن بعد ناراً تأجج فى جانب الطور وهو الجبل الغربى منه عن يمينه فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً وكأنه والله أعلم رآها دونهم لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة ولا يصلح رؤيتها لكل أحد (لعلى آتيكم منها بخبر) أى لعلى أستعلم من عندها عن الطريق (أوجذوة من النار لعلكم تصطلون) فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق فى ليلة باردة ومظلمة لقوله فى الآية الأخرى (وهل أتاك

---

(١) هكذا بالنسخة الحلبية . وفى النسخة المصرية فاغتنت وانبثت فليحرر

حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق * وجمع الكل فى سورة النمل فى قوله (إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) . وقد أتاهم منها بخبر وأى خبر ووجد عندها هدى وأى هدى واقتبس منها نورا وأى نور . قال الله تعالى (فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين) . وقال فى النمل (فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين) أى سبحان الله الذى يفعل مايشاء ويحكم مايريد (ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) وقال فى سورة طه (فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) . قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف لما قصد موسى الى تلك النار التى رآها فانتهى اليها وجدها تأجج فى شجرة خضراء من العوسج وكل ما لتلك النار فى اضطرام وكل ملخضرة تلك الشجرة فى ازدياد فوقف متعجبا وكانت تلك الشجرة فى لحف جبل غربى منه عن يمينه كما قال تعالى (وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) وكان موسى فى واد اسمه طوى فكان موسى مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمر أولا بخلع نعليه تعظيما وتكريما وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ولاسيا فى تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور مهابة له وخوفا على بصره ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلا له (إنى أنا الله رب العالمين * إنى أنا الله لا اله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) أى أنا رب العالمين الذى لااله إلا هو الذى لاتصلح العبادة واقامة الصلاة إلا له . ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية يوم القيامة التى لابد من كونها ووجودها (لتجزى كل نفس بما تسعى) أى من خير وشر . وحضه وحثه على العمل لها ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه ثم قال له مخاطبا ومؤانسا ومبينا له أنه القادر على كل شئ الذى يقول للشئ كن فيكون . (وما تلك بيمينك ياموسى) أى أما هذه عصاك التى نعرفها منذ صحبتها (قال هى عصاى أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) . أى بل هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها (قال ألقها ياموسى فألقاها فاذا هى حية تسعى) . وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه يقول للشئ كن فيكون وأنه الفعال بالاختيار *

وعند أهل الكتاب أنه سأل برهانا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر فقال له الرب

عز وجل ماهـذه التى فى يدك قال عصاى قال ألقها الى الارض (فالقاها فاذا هى حية تسعى) فهرب موسى من قدامها فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخـذها بذنبها فلما استمكن منها ارتدت عصا فى يده وقد قال الله تعالى فى الآية الاخرى (وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب) أى قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصطك وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان وهو ضرب من الحيات * يقال الجـان والجنان وهو لطيف ولـكن سريع الاضطراب والحركة جـدا فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة فلما عاينها موسى عليه السلام (ولى مدبرا) أى هاربا منها لان طبيعته البشرية تقتضى ذلك (ولم يعقب) أى ولم يلتفت (فناداه ربه) قائلا له (ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها . قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الاولى). فيقال إنه هابها شديدا فوضع يده فى كم مدرعته ثم وضع يده فى وسط فيها * وعند أهل الـكتاب بذنبها فلما استمكن منها اذا هى قـد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين فسبحان القدير العظيم رب المشرقين والمغربين ثم أمره تعالى بإدخال يده فى جيبه . ثم أمره بنزعها فاذا هى تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء أى من غير برص ولا بهق . ولهذا قال(اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب) قيل معناه اذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك . وهذا وإن كان خاصا به الا أن بركة الايمـان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتـداء بالانبياء وقال فى سورة النمل (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات الى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسـقين) أى هاتان الآيتان وهما العصا واليد وهما البرهانان المشار اليهما فى قوله (فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين) ومع ذلك سبع آيات أخر فذلك تسع آيات بينات وهى المذكورة فى آخر سورة سبحان حيث يقول تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون إنى لاظنك ياموسى مسحورا . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب السموات والأرض بصائر وإنى لاظنك يافرعون مثبورا) وهى المبسوطة فى سورة الاعراف فى قوله (ولقد أخـذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عنـد الله ولـكن أكثرهم لايعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) كما سيأتى الكلام عـلى ذلك فى موضعه وهذه التسع آيات غير العشر الـكلمات فان التسع من كلمات الله القدرية والعشر من كلماته الشرعية وانمـا نبهنا على هذا لانه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة فظن أن هذه هى هذه كما قررنا ذلك فى تفسير آخر سورة بنى إسرائيل .

والمقصود أن الله سبحانه لما امر موسى عليه السلام بالذهاب الى فرعون (قال رب إنى قتلت منهم نفسا فاخاف أن يقتلون . وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردأ يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون . قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) . يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام فى جوابه لربه عزوجل حين أمره بالذهاب الى عدوه الذى خرج من ديار مصر فرارا من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان فى قتل ذلك القبطى ولهذا (قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردأ يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون) . أى اجعله معى معينا وردأ ووزيراً يساعدنى ويعيننى على أداء رسالتك اليهم فانه أفصح منى لسانا وأبلغ بيانا قال الله تعالى مجيبا له الى سؤاله (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا) أى برهانا (فلا يصلون اليكما) أى فلا ينالون منكما مكروها بسبب قيامكما بآياتنا . وقيل ببركة آياتنا (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) وقال فى سورة طه (اذهب الى فرعون انه طغى . قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) قيل إنه أصابه فى لسانه لثغة بسبب تلك الجمرة التى وضعها على لسانه التى كان فرعون أراد إختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله فخافت عليه آسية وقالت إنه طفل فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهم باخذ التمرة فصرف الملك يده الى الجمرة فاخذها فوضعها على لسانه فاصابه لثغة بسببها فسأل زوال بعضها بمقدار مايفهمون قوله ولم يسأل زوالها بالكلية .

قال الحسن البصرى والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ولهذا بقيت فى لسانه بقية ولهذا قال فرعون قبحه الله فيما زعم إنه يعيب به الكليم (ولا يكاد يبين) أى يفصح عن مراده ويعبر عما فى ضميره وفؤاده * ثم قال موسى عليه السلام (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيرا . قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) أى قد أجبناك الى جميع ماسألت وأعطيناك الذى طلبت وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل حين شفع أن يوحى الله الى أخيه فاوحى اليه وهذا جاه عظيم قال الله تعالى (وكان عند الله وجيهاً) وقال تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون طريق الحج (أى أخ أمنّ على أخيه) فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها هو موسى بن عمران حين شفع فى أخيه هرون فأوحى اليه قال الله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) قال تعالى فى سورة الشعراء (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون الايتقون . قال رب إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فارسل الى هرون ولهم على ذنب فاخاف أن يقتلون . قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل

معنا بنى إسرائيل . قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) تقدير الكلام فأتياه فقالا له ذلك وبلغاه ما أرسلا به من دعوته الى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له وأن يفك أسارى بنى إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته وتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤاويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه فتكبر فرعون فى نفسه وعتا وطغى ونظر الى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلا له (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين) أى اما أنت الذى ربيناه فى منزلنا وأحسنا اليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر وهذا يدل على أن فرعون الذى بعث اليه هو الذى فر منه خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذى فر منه مات فى مدة مقامه بمدين وأن الذى بعث اليه فرعون آخر . وقوله (وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) أى وقتلت الرجل القبطى وفررت منا وجحدت نعمتنا (قال فعلتها اذا وأنا من الضالين) أى قبل أن يوحى الى وينزل على (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والاحسان اليه وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل أى وهذه النعمة التى ذكرت من أنك أحسنت الى وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله واستعبدتهم فى أعمالك وخدمك وأشغالك (قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون) .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية . وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى . وزعم أنه الاله (فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى * وقال ياأيها الملأ ماعلمت لكم من اله غيرى) . وهو فى هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب وأن الله هو الخالق البارئ المصور الاله الحق كما قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين) ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الانكار لرسالته والاظهار انه ماثم رب ارسله (ومارب العالمين) لانهما قالا له (إنا رسول رب العالمين) فكأنه يقول لهما ومن رب العالمين الذى تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما فاجابه موسى قائلا (رب السموات والارض وما بينهما إن كنتم موقنين) يعنى رب العالمين خالق هذه السموات والارض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التى يعلم كل موقن انها لم تحدث بانفسها ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق. وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين . (قال) أى فرعون لمن حوله من امرائه ومرازبته ووزرائه

على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام ألا تسمعون يعنى كلامه هذا قال موسى مخاطبا له ولهم (ربكم ورب آبائكم الاولين) أى هو الذى خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والاجداد والقرون السالفة فى الآباد فان كل احد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه ولم يحدث من غير محدث وإنما أوجده وخلقه رب العالمين. وهذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه (قال إن رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) أى هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة. المسير للأفلاك الدائرة. خالق الظلام والضياء. ورب الأرض والسماء رب الأولين والآخرين خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون وفلك يسبحون يتعاقبون فى سائر الأوقات ويدورون فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء. فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد عدل الى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته (قال لئن اتخذت إلها غيرى لاجعلنك من المسجونين. قال أولو جئتك بشئ مبين. قال فأت به ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما وهما العصا واليد. وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذى بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين. أى عظيم الشكل بديع فى الضخامة والهول والمنظر العظيم الفظيع الباهر حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رهب شديد وخوف عظيم بحيث انه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة فى يوم وكان قبل ذلك لا يتبرز فى كل أربعين يوما إلا مرة واحدة فانعكس عليه الحال * وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده فى جيبه واستخرجها أخرجها وهى كفلقة القمر تتلألأ نورا تبهر الأبصار فاذا أعادها إلى جيبه رجعت الى صفتها الاولى ومع هذا كله لم ينتفع فرعون لعنه الله بشئ من ذلك بل استمر على ماهو عليه وأظهر أن هذا كله سحر وأراد معارضته بالسحرة فارسل يجمعهم من سائر مملكته ومن فى رعيته وتحت قهره ودولته كما سيأتى بسطه وبيانه فى موضعه من اظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملائه وأهل دولته وملته ولله الحمد والمنة. وقال تعالى فى سورة طه (فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى واصطنعتك لنفسى إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى إذهبا الى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى).

يقول تعالى مخاطبا لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى اليه وأنعم بالنبوة عليه وكلمه منه اليه قد كنت مشاهدا

الك وأنت في دار فرعون وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي ثم أخرجتك من أرض مصر الى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري فلبثت فيها سنين (ثم جئت على قدر) أى منى لذلك فوافق ذلك تقديري وتسييري (واصطنعتك لنفسي) أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي (اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري) يعني ولا تفترا في ذكري اذ قدمتما عليه ووفدتما اليه فان ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته وإهداء النصيحة اليه وإقامة الحجة عليه . وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى (إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً الآية) ثم قال تعالى (اذهبا الى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره وهو اذ ذاك أردى خلقه وقد بعث اليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه اليه بالتي هي أحسن برفق ولين ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى كما قال لرسوله « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » وقال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم الآية) قال الحسن البصري (فقولا له قولا لينا) أعذرا اليه قولا له ان لك رباً ولك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً . وقال وهب بن منبه قولا له إني الى العفو والمغفرة أقرب مني الى الغضب والعقوبة . قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية يامن يتحبب الى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه (قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً له سلطان في بلاد مصر طويل عريض وجاه وجنود وعساكر وسطوة فهاباه من حيث البشرية وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى) كما قال في الآية الأخرى (إنا معكم مستمعون . فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى) يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا الى فرعون فيدعواه الى الله تعالى أن يعبده وحده لاشريك له وأن يرسل معهم بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم (قد جئناك بآية من ربك) وهو البرهان العظيم في العصى واليد (والسلام على من إتبع الهدى) تقييد مفيد بليغ عظيم . ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا (إنا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى) أي كذب بالحق بقلبه وتولى عن العمل بقالبه .

وقد ذكر السدي وغيره أنه لما قدم من بلاد مدين دخل على أمه وأخيه هرون وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل وهو اللفت فأكل معهما ثم قال ياهرون إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون الى عبادته فقم معي فقاما يقصدان باب فرعون فاذا هو مغلق فقال موسى للبوابين والحجبة

أعلموه أن رسول الله بالباب فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به .

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل . وقال محمد بن اسحق أذن لهما بعد سنتين لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما فالله أعلم * ويقال إن موسى تقدم الى الباب فطرقه بعصاه فانزعج فرعون وأمر باحضارهما فوقفا بين يديه فدعواه الى الله عز وجل كما أمرهما .

وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسى عليه السلام إن هرون اللاوى يعنى من نسل لاوى بن يعقوب سيخرج ويتلقاك وأمره أن يأخذ معه مشايخ بنى إسرائيل الى عند فرعون وأمره أن يظهر ما أتاه من الآيات * وقال له سأقسى قلبه فلا يرسل الشعب وأكثر آياتى وأعاجيبى بأرض مصر * وأوحى الله الى هرون أن يخرج الى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه * فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بنى إسرائيل وذهبا الى فرعون فلما بلغاه رسالة الله قال من هو الله لا أعرفه ولا أرسل بنى إسرائيل . وقال الله مخبراً عن فرعون (قال فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى. منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون إنه أنكر اثبات الصانع تعالى قائلا (فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) أى هو الذى خلق الخلق وقدر لهم أعمالا وأرزاقا وآجالا * وكتب ذلك عنده فى كتابه اللوح المحفوظ ثم هدى كل مخلوق الى ماقدره له فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره وعلمه لكمال علمه وقدرته وقدره وهذه الآية كقوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى. الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) أى قدر قدراً وهدى الخلائق اليه (قال فما بال القرون الأولى) يقول فرعون لموسى فاذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره وهو بهذه المثابة من انه لايستحق العبادة سواه فلم عبد الاولون غيره وأشركوا به من الكواكب والانداد ماقد علمت فهلا إهتدى الى ماذكرته القرون الأولى (قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى) أى هم وان عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك ولايدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك كل شىء فعلوه مستطر عليهم فى الزبر من صغير وكبير وسيجزيهم على ذلك ربى عز وجل ولايظلم أحدا مثقال ذرة لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده فى كتاب لايضل عنه شىء ولاينسى ربى شيئا . ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء وجعله الارض مهادا والسماء سقفا محفوظا وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم كما قال (كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى لذوى العقول .

الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة غير السقيمة فهو تعالى الخالق الرازق . وكما قال تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر واهتزازها باخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال (منها) أي من الأرض خلقناكم (وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) كما قال تعالى (كما بدأكم تعودون) وقال تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) ثم قال تعالى (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى . قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى) .

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن إتباعها وقوله لموسى إن هذا الذي جئت به سحر ونحن نعارضك بمثله ثم طلب من موسى أن يواعده الى وقت معلوم ومكان معلوم وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس ولهذا قال (موعدكم يوم الزينة) وكان يوم عيد من أعيادهم ويجتمع لهم (وأن يحشر الناس ضحى) أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى ولم يطلب أن يكون ذلك ليلا في ظلام كيما يروج عليهم محالا وباطلا بل طلب أن يكون نهاراً جهرة لانه على بصيرة من ربه ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه وإن رغمت أنوف القبط . قال الله تعالى (فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى) .

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء في فنهم غاية فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير فقيل كانوا ثمانين ألفاً قاله محمد بن كعب * وقيل سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبي بردة . وقال السدي بضعة وثلاثين ألفاً . وعن أبي أمامة تسعة عشر ألفاً وقال محمد بن اسحاق خمسة عشر ألفاً . وقال كعب الأحبار كانوا إثني عشر ألفا * وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس كانوا سبعين رجلا وروى عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاما من بني إسرائيل أمرهم فرعون أن يذهبوا الى العرفاء فيتعلموا السحر ولهذا قالوا وما أكرهتنا عليه من السحر وفي هذا نظر .

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم . وذلك أن فرعون نادى فيهم أن

يحضروا هذا الموقف العظيم فخرجوا وهم يقولون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . وتقدم موسى عليه السلام الى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم) قيل معناه أنهم اختلفوا فيا بينهم فقائل يقول هذا كلام نبي وليس بساحر وقائل منهم يقول بل هو ساحر فالله أعلم * وأسروا التناجى بهذا وغيره (قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما) يقولون إن هذا وأخاه هرون ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة (فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى) * وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ماعندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان . وهيهات كذبت والله الظنون واخطأت الآراء . أنى يعارض البهتان . والسحر والهذيان . خوارق العادات التى أجراها الديان . على يدى عبده الكليم . ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذى يبهر الابصار وتحار فيه العقول والأذهان وقولهم (فأجمعوا كيدكم) أى جميع ماعندكم (ثم ائتوا صفاً) أى جملة واحدة ثم حضوا بعضهم بعضا على التقدم فى هذا المقام لان فرعون كان قد وعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهرون عليهما السلام تجاههم قالوا له إما أن تلقى قبلنا وإما أن نلقى قبلك (قال بل ألقوا) أنتم وكانوا قد عمدوا الى حبال وعصى فاودعوها الزئبق وغيره من الآلات التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطرابا يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها * وإنما تتحرك بسبب ذلك . فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم وألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . قال الله تعالى (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) . وقال تعالى (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقى مافى يده فانه لايضع شيئا قبل أن يؤمر فاوحى الله اليه فى الساعة الراهنة (لاتخف إنك أنت الاعلى وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال ماجئتم به السحر ان الله سيبطله إن الله لايصلح عمل المفسدين (ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) . وقال تعالى (فألقى) موسى (عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون *

فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقي السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون) وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم (فيما ذكره غير واحد من علماء السلف) وعنق عظيم وشكل هائل مزعج بحيث ان الناس انحازوا منها وهربوا سراعا وتأخروا عن مكانها وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى فجعلت تلقفه واحدا واحدا فى أسرع ما يكون من الحركة والناس ينظرون اليها ويتعجبون منها . واما السحرة فانهم رأوا ما هالهم وحيرهم فى أمرهم واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم . فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعبذة ولا محال ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى وازاح عنها القسوة وانابوا الى ربهم وخروا له ساجدين وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى (آمنا برب موسى وهرون) كما قال تعالى (فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هرون وموسى قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى إنه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى)

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبى بردة والاوزاعى وغيرهم لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا الى تهويل فرعون وتهديده ووعيده وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا واشهروا ذكروا موسى وهرون فى الناس على هذه الصفة الجميلة أفزعه ذلك ورأى أمرا بهره وأعمى بصيرته وبصره وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة فى الصد عن سبيل الله فقال مخاطبا للسحرة بحضرة الناس (آمنتم له قبل ان آذن لكم) أى هلا شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى ثم تهدد وتوعد وابرق وارعد وكذب فابعد قائلا (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وقال فى الآية الأخرى (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) . وهذا الذى قاله من البهتان يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان بل لا يروج مثله على الصبيان فان الناس كلهم من اهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوما من الدهر فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق ومن حواضر بلاد

مصر والاطراف ومن المدن والأرياف . قال الله تعالى فى سورة الأعراف(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين.وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين.حقيق على أن لا اقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين فألقى.عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم.يريد أن يخرجكم من أرضكم فاذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لاجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال القوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس وأسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم وأوحينا الى موسى أن الق عصاك فاذاهى تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين.رب موسى وهرون قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون.لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين.قالوا إنا الى ربنا منقلبون.وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) وقال تعالى فى سورة يونس(ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . وقال فرعون إئتونى بكل ساحر عليم.فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وقال تعالى فى سورة الشعراء(قال لئن اتخذت إلها غيرى لاجعلنك من المسجونين . قال أو لو جئتك بشئ مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل أنتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . فلما جاء السحرة قالوا لفرعون إن لنا لأجراً ان كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم اذا لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فالقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون.فالقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون . لاقطعن أيديكم وأرجلكم من

خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا لاضير إنا الى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) .

والمقصود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر فى قوله إنه لكبيركم الذى علمكم السحر وأتى ببهتان يعلمه العالمون بل العالمون فى قوله (إن هـذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) وقوله (لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) يعنى يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه (ولأصلبنكم أجمعين) أى ليجعلهم مثلة ونكالا لئلا يقتدى بهم أحد من رعيته وأهل ملته ولهذا قال (ولاصلبنكم فى جذوع النخل) أى على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) يعنى فى الدنيا (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) أى لن نطيعك ونترك ما وقر فى قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات (والذى فطرنا) قيل معطوف . وقيل قسم (فاقض ما أنت قاض) أى فافعل ما قدرت عليه (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى إنما حكمك علينا فى هذه الحياة الدنيا فاذا انتقلنا منها الى الدار الآخرة صرنا الى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) أى وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب وأبقى أى وأدوم من هـذه الدار الفانية وفى الآية الاخرى (قالوا لاضير إنا الى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) أى ما اجترمناه من المآثم والمحارم أن كنا أول المؤمنين) أى من القبط بموسى وهرون عليهما السلام * وقالوا له أيضاً (وما تنقم منا إلا أن آمنا بايات ربنا لما جاءتنا) أى ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا (ربنا أفرغ علينا صبراً) أى ثبتنا على ما أبتلينا به من عقوبة هـذا الجبار العنيد والسلطان الشديد بل الشيطان المريد (وتوفنا مسلمين) وقالوا أيضا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم (إنه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولا يحيى) يقولون له فاياك أن تكون منهم فكان منهم (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أى المنازل العالية (جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لاتغالب ولاتمانع وحكم العلى العظيم بان فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ليباشر العذاب الأليم يصب من فوق رأسه الحميم * ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ وهو المقبوح المنبوح والذميم الذميم (ذق إنك أنت العزيز الكريم)

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم . قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير كانوا من أول النهار سحرة فصاروا من آخره شهداء بررة * ويؤيد هـذا قولهم (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين .)

فصل

ولما وقع ماوقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذى غلبته القبط فى ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم لم يزدهم ذلك الا كفراً وعناداً وبعداً عن الحق . قال الله تعالى بعد قصص ماتقدم فى سورة الأعراف . (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك . قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا . قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون)

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبى الله موسى عليه السلام ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى قالوا (أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك) يعنون قبحهم الله أن دعوته الى عبادة الله وحده لا شريك له والنهى عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة الى اعتقاد القبط لعنهم الله . وقرأ بعضهم (ويذرك والهتك) أى وعبادتك ويحتمل شيئين أحدهما ويذر دينك وتقويه القراءة الأخرى . الثانى ويذر أن يعبدك فانه كان يزعم أنه إله لعنه الله (قال سنقتل أبناءهم ونستحى نساءهم) أى لئلا يكثر مقاتلتهم (وإنا فوقهم قاهرون) أى غالبون (وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أى اذا هموا هم بأذيتكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أى فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة كما قال فى الآية الأخرى (وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) وقولهم (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا) أى قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك الينا (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) وقال الله تعالى فى سورة حم المؤمن (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) وكان فرعون الملك وهامان الوزير . وكان قارون إسرائيليا من قوم موسى الا أنه كان على دين فرعون وملائه وكان ذامال جزيل جدا كما ستأتى قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى . (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الاهانة والاذلال والتقليل لملأ بنى اسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون فلم

ينفعهم ذلك ولا يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) . ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم (صار فرعون مذكرا) وهذا منه فان فرعون في زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام . (وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) أي عذت بالله ولجأت اليه بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره على بسوء وقوله (من كل متكبر) أي جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهي ولا يخاف عذاب الله وعقابه لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء . ولهذا قال (من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) وهذا الرجل هو ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه من قومه خوفا منهم على نفسه * وزعم بعض الناس أنه كان اسرائيليا وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظا ومعنى والله أعلم * .

قال ابن جريج قال ابن عباس لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذي جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون . رواه ابن أبي حاتم * قال الدارقطني لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون * حكاه السهيلي * وفي تاريخ الطبراني أن اسمه خير فالله أعلم . والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هم فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب فقال على وجه المشورة والرأي وقد ثبت في الحديث عن رسول الله (ص) أنه قال أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر . وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فان فرعون لا أشد جوراً منه وهذا الكلام لا أعدل منه لأن فيه عصمة نبي * ويحتمل أنه كاشرهم بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتمه والأول أظهر والله أعلم قال (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله) أي من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام يعني لأنه (قد جاءكم بالبينات من ربكم) أي بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه (إن يك كاذبا فعليه كذبه) ولا يضركم ذلك (وان يك صادقا) وقد تعرضتم له (يصبكم بعض الذي يعدكم) أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به فكيف بكم إن حل جميعه عليكم .

وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام . وقوله (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الارض) يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فانه ما تعرض الدول للدين

الا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون مازالوا فى شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة والحبور ثم حولوا الى البحر مهانين ونقلت أرواحهم بعدالعلو والرفعة الى أسفل السافلين . ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه الكامل العقل (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض) أى عالين على الناس حاكمين عليهم (فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا) أى لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة لما نفعنا ذلك ولارد عنا بأس مالك الممالك . (قال فرعون) أى فى جواب هذا كله (ماأريكم إلا ماأرى) أى ما أقول لكم إلا ماعندى (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) وكذب فى كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين فانه قد كان يتحقق فى باطنه وفى نفسه أن هذا الذى جاء به موسى من عند الله لا محالة وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدوانا وعتواً وكفرانا قال الله تعالى اخباراً عن موسى (لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر وإنى لا أظنك يا فرعون مثبوراً فأراد أن يستفزهم من الارض فأغرقناه ومن معه جميعاً . وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) وقال تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وأما قوله (وما أهديكم الا سبيل الرشاد) . فقد كذب أيضا فانه لم يكن على رشاد من الأمر بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال فكان أولا ممن يعبد الاصنام والامثال . ثم دعا قومه الجهلة الضلال الى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر المحال فى دعواه أنه رب تعالى الله ذو الجلال . قال الله تعالى (ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر . وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين) وقال تعالى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الاخرة والأولى . ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . الى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار وبئس الورد المورود . وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيمة بئس الرفد المرفود) .

والمقصود بيان كذبه فى قوله (ما أريكم الا ما أرى) وفى قوله (وما أهديكم الا سبيل الرشاد وقال الذى آمن ياقوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . وياقوم انى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من

الله من عاصم ومن يضلل الله فماله من هاد. ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيت الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) يحذرهم ولى الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ماحل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات مما تواتر عندهم وعند غيرهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم الى زمانهم ذلك مما أقام به الحجج على أهل الارض قاطبة فى صدق ماجاءت به الانبياء لما انزل من النقمة بمكذبيهم من الاعداء وما أنجى الله من اتبعهم من الاولياء وخوفهم يوم القيمة وهو يوم التناد أى حين ينادى الناس بعضهم بعضاً حين يولون ان قدروا على ذلك ولاالى ذلك سبيل (يقول الانسان يومئذ أين المفر كلا لاوزر الى ربك يومئذ المستقر) وقال تعالى (يامعشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا لاتنفذون الا بسلطان. فبأى آلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقرأ بعضهم (يوم التناد) بتشديد الدال أى يوم الفرار ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويحتمل ان يكون يوم يحل الله بهم البأس فيودون الفرار ولات حين مناص (فلما أحسوا بأسنا اذاهم منها يركضون) لاتركضوا وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) ثم اخبرهم عن نبوة يوسف فى بلاد مصر ما كان منه من الاحسان الى الخلق فى دنياهم وأخراهم وهذا من سلالته وذريته ويدعو الناس الى توحيد الله وعبادته وأن لايشركوا به أحدا من بريته وأخبر عن أهل الديار المصرية فى ذلك الزمان أى من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ولهذا قال (فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) أى وكذبتم فى هذا ولهذا قال (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) أى يريدون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله فان هذا أمر يمقته الله غاية المقت أى يبغض من تلبس به من الناس ومن اتصف به من الخلق (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) قرئ بالاضافة وبالنعت وكلاهما متلازم أى هكذا اذا خالفت القلوب الحق ولا تخالفه الا بلا برهان فان الله يطبع عليها أى يختم عليها . (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات فاطلع الى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) كذب فرعون موسى عليه السلام فى دعواه أن الله أرسله وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه فى قوله لهم (ماعلمت لكم من إله غيرى فأوقدلى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى إله موسى وانى لأظنه كاذبا) وقال ههنا (لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات) أى طرقها ومسالكها (فاطلع الى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا) ويحتمل هذا معنيين أحدهما وانى لأظنه

كاذبا فى قوله إن العالم ربا غيرى والثانى فى دعواه أن الله أرسله . والأول أشبه بظاهر حال فرعون فانه كان ينكر ظاهر اثبات الصانع والثانى أقرب الى اللفظ حيث قال (فاطلع الى إله موسى) أى فاسأله هل أرسله أم لا (وإنى لأظنه كاذبا) أى فى دعواه ذلك . وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وان يحثهم على تكذيبه قال الله تعالى (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) وقرئ (وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا فى تباب) قال ابن عباس ومجاهد يقول الا فى خسار أى باطل لا يحصل له شئ من مقصوده الذى رامه فانه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم الى نيل السماء أبداً أعنى السماء الدنيا فكيف بما بعدها من السموات العلى وما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل . وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح وهو القصر الذى بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلى منه وان كان مبنياً من الآجر المشوى بالنار ولهذا قال (فاوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا) .

وعند أهل الكتاب أن بنى إسرائيل كانوا يسخرون فى ضرب اللبن وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شئ مما يحتاجون اليه فيه بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ويطلب منهم كل يوم قسط معين إن لم يفعلوه والا ضربوا وأهينوا غاية الاهانة وأوذوا غاية الأذية . ولهذا قالوا لموسى (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع وهذا من دلائل النبوة * ولنرجع الى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه قال الله تعالى (وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) يدعوهم رضى الله عنه الى طريق الرشاد والحق وهى متابعة نبى الله موسى وتصديقه فيما جاء به من ربه ثم زهدهم فى الدنيا الدنية الفانية المنقضية لامحالة ورغبهم فى طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه . القدير الذى ملكوت كل شئ بيديه الذى يعطى على القليل كثيراً ومن عدله لا يجازى على السيئة الامثلها . وأخبرهم أن الآخرة هى دار القرار التى من وافاها مؤمنا قد عمل الصالحات فلهم الجنات العاليات والغرف الآمنات والخيرات الكثيرة الفائقات والارزاق الدائمة التى لا تبيد . والخير الذى كل مالهم منه فى مزيد .

ثم شرع فى إبطال ماهم عليه وتخويفهم مما يصيرون اليه فقال (وياقوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار تدعوننى لا كفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار . لاجرم أن ماتدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا الى الله وأن المسرفين هم أصحاب

النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) كان يدعوهم الى عبادة رب السموات والأرض الذى يقول للشئ كن فيكون وهم يدعونه الى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون ولهذا قال لهم على سبيل الانكار (وياقوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار) ثم بين لهم بطلان ماهم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان وأنها لا تملك من نفع ولا اضرار فقال (لاجرم أنما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا الى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار) أى لا تملك تصرفا ولا حكما فى هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار * وأما الله عز وجل فانه الخالق الرازق للابرار والفجار وهو الذى أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم الى النار .

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله (فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله إن الله بصير بالعباد) قال الله (فوقاه الله سيئات ما مكروا) أى بانكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ومكرهم فى صدهم عن سبيل الله مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التى ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم ولهذا قال (وحاق) أى أحاط (بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) أى تعرض أرواحهم فى برزخهم صباحا ومساء على النار (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر فى التفسير ولله الحمد

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم وارسال الرسل اليهم وازاحة الشبه عنهم وأخذ الحجة عليهم منهم فبالترهيب تارة والترغيب أخرى كما قال تعالى . (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهى أعوام الجدب التى لايستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع وقوله (ونقص من الثمرات) وهى قلة الثمار من الأشجار (لعلهم يذكرون) أى فلم ينتفعوا ولم يرعوا بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم (فاذا جاءتهم الحسنة) والخصب ونحوه (قالوا لنا هذه) أى هذا الذى نستحقه وهذا الذى يليق بنا (وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) أى يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولايقولون فى الأول انه بركتهم وحسن مجاورتهم ولكن

قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق اذا جاءالشر أسندوماليه وإن رأوا خيرا ادعوه لأنفسهم . قال الله تعالى (ألا إنما طائرهم عند الله) أى الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء (ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أى مهما جئتنا به من الآيات وهى الخوارق للعادات فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل آية. وهكذا أخبر الله عنهم فى قوله (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) قال الله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أما الطوفان فعن ابن عباس هو كثرة الأمطار المتلفة الزروع والثمار . وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدى والضحاك * وعن ابن عباس وعطاء هو كثرة الموت * وقال مجاهد الطوفان الماء والطاعون على كل حال * وعن ابن عباس أمر طاف بهم * وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان عن المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة عن النبى (ص) الطوفان الموت وهو غريب * وأما الجراد فمعروف * وقد روى أبو داود عن أبى عثمان عن سلمان الفارسى قال سئل رسول الله عن الجراد فقال أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه وترك النبى (ص) أكله إنما هو على وجه التقذر له كما ترك أكل الضب وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى قال غزونا مع رسول الله (ص) سبع غزوات نأكل الجراد . وقد تكلمنا على ماورد فيه من الاحاديث والآثار فى التفسير . والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعا ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً . وأما القمل فعن ابن عباس هو السوس الذى يخرج من الحنطة وعنه انه الجراد الصغار الذى لا أجنحة له . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد بن جبير والحسن هو دواب سود صغار * وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هى البراغيث * وحكى ابن جرير عن أهل العربية أنها الحنان وهو صغار القردان (فوق القمقامة) فدخل معهم البيوت والفرش فلم يقر لهم قرار ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش . وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف وقرأها الحسن البصرى كذلك بالتخفيف . وأما الضفادع فمعروفة لبستهم حتى كانت تسقط فى أطعماتهم وأوانيهم حتى إن أحدهم اذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت فى فيه ضفدعة من تلك الضفادع . وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئا إلا وجدوه دما عبيطا ولا من نهر ولا بئر ولا شئ إلا كان دما فى الساعة الراهنة . هذا كله لم ينل بنى إسرائيل من ذلك شئ بالكلية . وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لاحد من بنى إسرائيل وفى هذا أدل دليل . قال محمد بن اسحق فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولا ثم أبى إلا الاقامة على الكفر والتمادى فى الشر

بتابع الله عليه بالآيات فأخذه بالسنين فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الارض ثم ركد . لايقدرون على أن يخرجوا ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا فلما بلغهم ذلك (قالوا ياموسى أدع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) فدعا موسى ربه فكشفه عنهم فلما لم يفوا له بشئ فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغنى حتى أن كان ليأكل مسامير الابواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثلما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشئ مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى الى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى الى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملا حتى غلب على البيوت والاطعمة ومنعهم النوم والقرار فلما جهدهم قالوا له مثل ماقالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلما لم يفوا له بشئ مما قالوا أرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والاطعمة والآنية فلم يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ماقالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشئ مما قالوا فارسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لايستقون من بئر ولا نهر يغترفون من إناء الاعاد دماعبيطا وقال زيد بن أسلم المراد بالدم الرعاف رواه ابن أبى حاتم . قال الله تعالى (ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى أدع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون. فانتقمنا منهم فاغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن إتباع آيات الله وتصديق رسوله مع ما أيده به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة التى أراهم الله إياها عيانا وجعلها عليهم دليلا وبرهانا وكلما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا الى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا اليه فيرسل الله عليهم آية أخرى هى أشد مما كانت قبلها وأقوى فيقولون فيكذبون. ويعدون ولا يفون لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل . ثم يعودون الى جهلهم العريض الطويل هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجل عليهم ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد اليهم ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والانذار اليهم أخذ عزيز مقتدر فجعلهم عبرة ونكالا وسلفا لمن أشبههم من الكافرين ومثلا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين فى سورة حم والكتاب المبين (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فقال إنى رسول رب العالمين. فلما جاءهم بآياتنا اذا

هم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون . ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين ﴾

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم الى فرعون الخسيس اللئيم وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا الى الحق والصراط المستقيم فاذاهم منها يضحكون وبها يستهزئون وعن سبيل الله يصدون وعن الحق يصدون فارسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضا وكل آية أكبر من التى تتلوها لأن التوكيد أبلغ مما قبله (وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون. وقالوا ياأيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون) لم يكن لفظ الساحر فى زمنهم نقصا ولا عيبا لأن علماءهم فى ذلك الوقت هم السحرة ولهذا خاطبوه به فى حال احتياجهم اليه وضراعتهم لديه قال الله تعالى . (فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون) ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها * وهى الخلجانات التى يكسرونها أمام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليته وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه (لايكاد يبين) يعنى كلامه بسبب ما كان فى لسانه من بقية تلك اللثغة التى هى شرف له وكمال وجمال ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى اليه وأنزل بعد ذلك التوراة عليه وتنقصه فرعون لعنه الله بكونه لاأساور فى يديه ولازينة عليه وانما ذلك من حلية النساء لايليق بشهامة الرجال فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلا وأتم معرفة وأعلى همة وأزهد فى الدنيا وأعلم بما أعد الله لأوليائه فى الآخرى وقوله (أوجاء معه الملائكة مقترنين) لايحتاج الأمر الى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير كما جاء فى الحديث إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم * وان كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعا لذوى الألباب ولمن قصد الى الحق والصواب وعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر الى القشور وترك لب اللباب وطبع على قلبه رب الأرباب وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب كما هو حال فرعون القبطى العمى الكذاب قال الله تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) أى استخف عقولهم ودرجهم من حال الى حال الى أن صدقوه فى دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم (إنهم كانوا قوما فاسقين

فلما آسفونا) أى أغضبونا (انتقمنا منهم) أى بالغرق والاهانة وسلب العز واتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة والهوان بعد الرفاهيـة والنار بعد طيب العيش عياذاً بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك (فجعلناهم سلفا) أى لمن اتبعهم فى الصفات (ومثلا) أى لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ممن بلغه جليـة خبرهم وما كان من أمرهم كما قال الله تعالى . (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هـذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين . وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تـكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون . وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أطلع الى الهٓ موسى وانى لاظنه من الـكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبـة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيمة لا ينصرون وأتبعناهم فى هـذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين) يخبر تعالى أنهـم لما

استكبروا عن اتباع الحق وادعى ملـكهم الباطل ووافقوه عليـه واطاعوه فيه اشتد
غضب الرب القدير العزيز الذى لا يغالب ولا يمانع عليهم فانتقم منهم أشد الانتقام
وأغرقه هو وجنوده فى صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد ولم يبق منهم ديار
بل كل قد غرق فدخل النار وأتبعوا فى هذه الدار لعنة بين العالمين
ويوم القيمة بئس الرفد المرفود ويوم القيمة هم من المقبوحين .

هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم متابعة لملـكهم فرعون ومخالفة لنبى الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليـه السلام وأقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة وأراهم من خوارق العادات ما يبهر الابصار ويحير العقول وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون ولم يؤمن منهم إلا القليـل . قيل ثلاثة وهم إمرأة فرعون ولا علم لأهل الـكتاب بخبرها ومؤمن آل فرعون الذى تقدم حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم والرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة فقال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتـلوك فاخرج إنى لك من الناصحين قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ومراده غير السحرة فانهم كانوا من القبط • وقيل بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون والسحرة كلهم وجميع شعب بنى إسرائيل . ويدل على هذا قوله تعالى (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعـال فى الارض وإنه لمن المسرفين) فالضمير فى قوله (إلا ذرية من قومه) عائد على فرعون لان السياق يدل عليه . وقيل على موسى لقربه والأول أظهر كما هو مقرر فى التفسير وإيمـانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته

وجبروته وسلطته ومن ملائهم أن ينموا عليهم اليه فيفتنهم عن دينهم قال الله تعالى مخبرا عن فرعون وكفى بالله شهيداً (وإن فرعون لعال فى الارض) أى جبار عنيد مستعل بغير الحق (وإنه لمن المسرفين) أى فى جميع أموره وشئونه واحواله ولكنه جرثومة قد حان إنجعافها وثمرة خبيثة قد آن قطافها ومهجة ملعونة قد حتم اتلافها. وعند ذلك قال موسى (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين. ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) يأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً. (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذوا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة فى الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض وقوله (واجعلوا بيوتكم قبلة) قيل مساجد وقيل معناه كثرة الصلاة فيها قاله مجاهد وابومالك وابراهيم النخعى والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم. ومعناه على هذا الاستعانة على ماهم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى. وقيل معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عباداتهم فى مجتمعاتهم ومعابدهم فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم عوضا عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق فى ذلك الزمان الذى اقتضى حالهم اخفاءه خوفا من فرعون وملائه. والمعنى الاول أقوى لقوله (وبشر المؤمنين) وإن كان لاينافى الثانى أيضا والله أعلم. وقال سعيد بن جبير (واجعلوا بيوتكم قبلة) أى متقابلة وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون) هذه دعوة عظيمة دعابها كليم الله موسى على عدو الله فرعون غضبا لله عليه لتكبره عن اتباع الحق وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل ومكابرته الحق الواضح الجلى الحسى والمعنوى والبرهان القطعى فقال (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه) يعنى قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه (زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) أى وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنهم على شئ لكون هذه الاموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية والدور الأنيقة والقصور المبنية والمآكل الشهية والمناظر البهية والملك العزيز والتمكين والجاه العريض فى الدنيا لا الدين (ربنا اطمس على أموالهم) قال ابن عباس ومجاهد أى أهلكها وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت وقال قتادة بلغنا أن زروعهم صارت حجارة. وقال محمد بن كعب جعل سكرهم حجارة وقال أيضا صارت

أموالهم كلها حجارة . ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له قم ايتني بكيس فجاءه بكيس فاذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة ، رواه ابن أبي حاتم . وقوله (واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم) قال ابن عباس أي اطبع عليها وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه فاستجاب الله تعالى لها وحققها وتقبلها كما استجاب لنوح في قومه حيث قال (رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) ولهذا قال تعالى مخاطبا لموسى حين دعا على فرعون وملأه وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضا (قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب استأذن بنو اسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم فاذن لهم وهو كاره ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له وإنما كان في نفس الامر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم وامرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعيروا حليا منهم فاعاروهم شيئا كثيراً فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم قال الله تعالى (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي انكم متبعون . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني اسرائيل فاتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) قال علماء التفسير لما ركب فرعون في جنوده طالبا بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف فالله أعلم . وقيل إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستا وعشرين سنة شمسية .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فادركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون إنا لمدركون وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم الى البحر فليس لهم طريق ولا محيد الا سلوكه وخوضه . وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم وواجههم وعاينوه في جنوده وجيوشه وعدده وعدده وهم منه في غاية

الخوف والذعر لما قاسوا فى سلطانه من الاهانة والمنكر فشكوا الى نبى الله ماهم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه فقال لهم الرسول الصادق المصدوق (كلا إن معى ربى سيهدين) وكان فى الساقة فتقدم الى المقدمة ونظر الى البحر وهو يتلاطم بامواجه ويتزايد زبد اجاجه وهو يقول ههنا أمرت ومعه أخوه هرون ويوشع بن نون وهو يومئذ من سادات بنى إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار وقد أوحى الله اليه وجعله نبيا بعد موسى وهرون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ومعهم أيضا مؤمن آل فرعون وهم وقوف وبنو اسرائيل بكمالهم عليهم عكوف ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مرارا فى البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن ويقول لموسى عليه السلام يانبى الله أههنا أمرت. فيقول نعم . فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم الى موسى الكليم (أن اضرب بعصاك البحر) فلما ضربه يقال إنه قال له انفلق باذن الله ويقال إنه كناه بابى خالد فالله أعلم (قال الله تعالى فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) ويقال إنه انفلق اثنتى عشرة طريقا لكل سبط طريق يسيرون فيه حتى قيل إنه صار أيضا شبابيك ليرى بعضهم بعضا وفى هذا نظر لأن الماء جرم شفاف اذا كان من ورائه ضياء حكاه . وهكذا كان ماء البحر قائما مثل الجبال مكفوفا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشئ كن فيكون وأمر الله ريح الدبور فلفحت حال البحر فاذهبته حتى صار يابسا لايعلق فى سنابك الخيول والدواب . قال الله تعالى (ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولاتخشى . فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأضل فرعون قومه وماهدى) والمقصود أنه لما آل أمر البحر الى هذه الحال باذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببنى اسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم مايحير الناظرين ويهدى قلوب المؤمنين فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون اليه ووفودهم عليه فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلايكون لفرعون وجنوده وصول اليه. ولا سبيل عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق فى المقال (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا الى عباد الله إنى لكم رسول أمين. وان لاتعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين . وانى عذت بربى وربكم أن ترجمون. وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون . فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون. فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين. ولقد

نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين) فقوله تعالى (واترك البحر رهواً) أى ساكنا على هيئته لاتغيره عن هذه الصفة . قاله عبدالله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الاحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم * فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى مارأى وعاين ماعاين هاله هذا المنظر العظيم وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم فأحجم ولم يتقدم وندم فى نفسه على خروجه فى طلبهم والحالة هذه حيث لاينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده تجلدا وعاملهم معاملة العدا وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه أنظروا كيف انحسر البحر لى لأدرك عبيدى الآبقين من يدى الخارجين عن طاعتى وبلدى وجعل يورى فى نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات ويقدم تارة ويحجم تارات . فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى فى صورة فارس راكب على رمكة حايل فمر بين يدى فحل فرعون لعنه الله فحمحم اليها وأقبل عليها وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر واستبق الجواد وقد أجاد فبادر مسرعا هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين فحصلوا فى البحر أجمعين أكتعين أبصعين حتى هم أولهم بالخروج منه فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه اليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فارتد عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم انسان قال الله تعالى (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين إن فى ذلك لاية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم) أى فى انجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد واغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة وقال تعالى (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدواً حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وانا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وأن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أقر لاعين بنى إسرائيل وأشفى لنفوسهم فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب وآمن حين لا ينفع نفسا إيمانها كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم) وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) وهكذا دعا

موسى على فرعون وملائه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) أى حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال تعالى لهما أى لموسى وهرون حين دعوا بهذا (قد أجيبت دعوتكما) فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هرون عليهما السلام. ومن ذلك الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) لما قال فرعون (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) قال قال لى جبريل لو رأيتنى وقد أخذت من حال البحر فدسسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة ورواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة وقال الترمذى حديث حسن. وقال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) قال لى جبريل لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فادسه فى فم فرعون مخافة أن يناله الرحمة ورواه الترمذى وابن جرير من حديث شعبة وقال الترمذى حسن غريب صحيح وأشار ابن جرير فى رواية الى وقفه. وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد الاحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أغرق الله فرعون أشار باصبعه ورفع صوته (آمنت انه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) قال فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه * ورواه ابن جرير من حديث أبى خالد به. وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف وعن أبى حازم عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) قال قال لى جبريل يامحمد لو رأيتنى وأنا أغطه وأدس من الحال فى فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له. يعنى فرعون. وقد أرسله غير واحد من السلف كابراهيم التيمى وقتادة وميمون بن مهران ويقال إن الضحاك بن قيس خطب به الناس. وفى بعض الروايات إن جبريل قال مابغضت احدا بغضى لفرعون حين قال أنا ربكم الاعلى ولقد جعلت أدس فى فيه الطين حين قال ماقال. وقوله تعالى (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) إستفهام إنكار ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه والله أعلم لو رد الى الدنيا كما كان لعاد الى ما كان عليه كما أخبر تعالى عن الكفار اذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) قال الله (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقوله (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) قال ابن عباس وغير واحد شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون حتى قال بعضهم إنه لا يموت فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع. قيل على وجه الماء وقيل على نجوة من الارض وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه. ولهذا قال (فاليوم ننجيك ببدنك) أى

مصاحباً درعك المعروفة بك (لتكون) أى أنت آية (لمن خلفك) أى من بنى إسرائيل دليلا على قدرة الله الذى أهلكه . ولهذا قرأ بعض السلف لتكون لمن خلقك آية (١) . ويحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحباً لتكون درعك علامة لمن وراءك من بنى إسرائيل على معرفتك وإنك هلكت والله أعلم . وقد كان هلاكه وجنوده فى يوم عاشوراء . كما قال الامام البخارى فى صحيحه حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون قال النبى صلى الله عليه وسلم (أنتم أحق بموسى منهم فصوموا .) وأصل هذا الحديث فى الصحيحين وغيرهما والله أعلم

أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى (فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين. وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون. وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين . واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده فى غرقهم وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم وأورث بنى إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم كما قال (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) وقال (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) وقال ههنا (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أى أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزهم العزيز العريض فى الدنيا وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا . فذكر ابن عبد الحكم فى تاريخ مصر أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الامراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة فكانت لهن السطوة عليهم واستمرت هذه سنة نساء مصر الى يومك هذا .

وعند أهل الكتاب أن بنى إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملا من الغنم فان كانوا لا يحتاجون الى حمل فليشترك الجار وجاره فيه

(١) بالقاف أى ولتكون لخالقك آية كسائر آياته .

فاذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على اعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم ولا يأكلونه مطبوخا ولكن مشويا برأسه وأكارعه وبطنه ولا يبقوا منه شيئا ولا يكثروا له عظما ولا يخرجوا منه شيئاً الى خارج بيوتهم وليكن خبزهم فطيرا سبعة أيام ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم وكان ذلك فى فصل الربيع فاذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة وخفافهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم وليأكلوا بسرعة قياما . ومهما فضل عن عشائهم فما بقى الى الغد فليحرقوه بالنار وشرع لهم هذا عيدا لاعقابهم مادامت التوراة معمولا بها فاذا نسخت بطل شرعها وقد وقع . قالوا وقتل الله عز وجل فى تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ليشتغلوا عنهم وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار وأهل مصر فى مناحة عظيمة على ابكار أولادهم وأبكار أموالهم ليس من بيت الاوفيه عويل . وحين جاء الوحى الى موسى خرجوا مسرعين فحملوا العجين قبل اختماره وحملوا الازواد فى الأردية والقوها على عواتقهم * وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حليا كثيراً فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذرارى بما معهم من الانعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة . هذا نص كتابهم . وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ وهذا العيد عيد الفسخ. ولهم عيد الفطير وعيد الحمل وهو أول السنة * وهذه الاعياد الثلاثة آكد أعيادهم منصوص عليها فى كتابهم . ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا على طريق بحر سوف . وكانوا فى النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عامود نور وبالليل أمامهم عامود نار فانتهى بهم الطريق الى ساحل البحر فنزلوا هنالك وادركهم فرعون وجنوده من المصريين وهم هنالك حلول على شاطئ اليم فقلق كثير من بنى إسرائيل حتى قال قائلهم كان بقاؤنا بمصر احب الينا من الموت بهذه البرية . وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة لاتخشوا فان فرعون وجنوده لايرجعون الى بلادهم بعد هذا. قالوا وامر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل فى البحر واليبس . وصار الماء من ههنا وههنا كالجبلين وصار وسطه يبساً لان الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر واتبعهم فرعون وجنوده فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم . لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان فى الليل وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح وهذا من غلطهم وعدم فهمهم فى تعريبهم والله أعلم . قالوا ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب وقالوا (نسبح الرب البهى الذى قهر الجنود ونبذ فرسانها فى البحر المنيع المحمود) وهو تسبيح طويل . قالوا وأخذت مريم النبية أخت هارون دفا بيدها وخرج النساء فى أثرها كلهن بدفوف وطبول وجعلت مريم ترتل لهن وتقول سبحان الرب القهار الذى قهر الخيول وركبانها إلقاء فى البحر هكذا رأيته فى كتابهم . ولعل هذا هو من الذى حمل محمد بن كعب القرظى على زعمه أن مريم بنت

عمران أم عيسى هى أخت هرون وموسى مع قوله يا أخت هرون * وقد بينا غلطه فى ذلك وان هذا لا يمكن أن يقال ولم يتابعه أحد عليه بل كل واحد خالفه فيه ولو قدر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهرون عليهما السلام وأم عيسى عليها السلام وافقتها فى الاسم واسم الأب واسم الأخ لأنهم كما قال رسول الله (ص.) للمغيرة بن شعبة لما سأله أهل نجران من قوله يا أخت هرون فلم يدر ما يقول لهم حتى سأل رسول الله (ص.) عن ذلك فقال أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم رواه مسلم. وقولهم النبية كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة ومن بيت الإمرة أميرة وان لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك فكذا هذه استعارة لها لا أنها نبية حقيقة يوحى اليها وضربها بالدف فى مثل هذا اليوم الذى هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف فى العيد * وهذا مشروع لنا أيضا فى حق النساء لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف فى أيام منى ورسول الله (ص.) مضطجع مولى ظهره اليهم ووجهه الى الحائط فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله (ص.) فقال دعهن يا أبا بكر فان لكل قوم عيداً وهذا عيدنا. وهكذا يشرع عندنا فى الاعراس ولقدوم الغياب كما هو مقرر فى موضعه والله أعلم. وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين الى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك فوجدوا ماء زعاقاً اجاجاً لم يستطيعوا شربه فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه فحلا وساغ شربه وعلمه الرب هنالك فرائض وسننا ووصاه وصايا كثيرة. وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز المهيمن على ماعداه من الكتب (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون). قالوا هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته مادلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذى الجلال والاكرام وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناماً قيل كانت على صور البقر فكأنهم سألوهم لم يعبدونها فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم فى ذلك فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة فقال لهم مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون. ثم ذكرهم نعمة الله عليهم فى تفضيله إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذى بين أظهرهم وما أحسن به اليهم وما امتن به عليهم من انجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملاؤه يجمعونه من الاموال والسعادة وما كانوا يعرشون وبين لهم أنه لا تصلح العبادة الا لله وحده لا شريك له لانه الخالق الرازق القهار وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال بل هذا الضمير عائد على الجنس فى قوله (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون

على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) أى قال بعضهم كما فى قوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً) فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم وقد قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان الديلى عن أبى واقد الليثى قال خرجنا مع رسول الله (ص) قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها فقال النبى (ص) الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة انكم تركبون سنن الذين من قبلكم . ورواه النسائى عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به . ورواه الترمذى عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومى عن سفيان بن عيينة عن الزهرى به . ثم قال حسن صحيح . وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن اسحق ومعمر وعقيل عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان عن أبى واقد الليثى أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله (ص) الى خيبر قال وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات انواط قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) . والمقصود أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم واجلائهم اياهم عن بيت المقدس فان الله كتبه لهم ووعدهم إياه على لسان ابراهيم الخليل اوموسى الكليم الجليل فابوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف والقاهم فى التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون فى مدة من السنين طويلة هى من العدد اربعون كما قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تأس على القوم الفاسقين) . يذكرهم نبى الله نعمة الله عليهم احسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية ويأمرهم بالجهاد فى سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم) أى تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال اعدائكم

(فتنقلبوا خاسرين) أى فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال (قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين) أى عتاة كفرة متمردين (وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا فانا داخلون) خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسا وأكثر جمعا وأعظم جنداً وهذا يدل على أنهم ملومون فى هذه المقالة ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المردة الأشقياء .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاما جداً حتى إنهم ذكروا أن رسل بنى اسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحداً واحداً ويلفهم فى أكمامه وحجزة سراويله وهم إثنا عشر رجلا فجاء بهم فنثرهم بين يدى ملك الجبارين فقال ماهؤلاء ولم يعرف أنهم من بنى آدم حتى عرفوه وكل هذه هذيانات وخرافات لاحقيقة لها وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفى الرجل وشيئا من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم وهذا ليس بصحيح . وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين الى بنى اسرائيل ليهلكهم وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع هكذا ذكره البغوى وغيره وليس بصحيح كما قدمنا بيانه عند قوله (ص) (إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً) ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن قالوا فعمد عوج الى قمة جبل فاقتلعها ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقا فى عنق عوج بن عنق . ثم عمد موسى اليه فوثب فى الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع فوصل الى كعب قدمه فقتله . يروى هذا عن نوف البكالى ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفى اسناده اليه نظر ، ثم هو مع هذا كله من الاسرائيليات وكل هذه من وضع جهال بنى اسرائيل فان الاخبار الكذبة قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها . ثم لو كان هذا صحيحا لكان بنو اسرائيل معذورين فى النكول عن قتالهم وقد ذمهم الله على نكولهم وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالاقدام ونهياهم عن الاحجام ، ويقال إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدى والربيع بن انس وغير واحد (قال رجلان من الذين يخافون) أى يخافون الله وقرأ بعضهم يخافون أى يهابون (أنعم الله عليهما) أى بالاسلام والايمان والطاعة والشجاعة (ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أى إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم اليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم . (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون) فصمم ملاؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير . فيقال إن يوشع وكالب لما سمعا هذا

الـكلام شقا ثيابهما وإن موسى وهرون سجدا إعظاما لهذا الـكلام وغضباً لله عز وجل وشفقة عليهم من ويل هذه المقالة (قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) قال ابن عباس (اقض بينى وبينهم). (قال فإنها محرمـة عليهم أربعين سـنة يتيهون فى الارض فلا تأس عـلى القوم الفاسقين) عوقبوا عـلى نـكولهم بالتيهان فى الأرض يسيرون الى غـير مقصد ليلا ونهاراً وصباحا ومساء ويقال إنه لم يخرج احد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم فى مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سـوى يوشع وكالب عليهما السلام . لـكن أصحاب محمد (ص) يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى بل لما استشارهم فى الذهاب الى النفير تـكلم الصديق فأحسن وغيره من المهاجرين ثم جعل يقول أشيروا عـلى حتى قال سعد بن معاذ كأنك تعرض بنا يارسـول الله فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجـل واحد وما نـكره أن يلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء لعل الله يريك منا ماتقربه عينك فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله (ص) بقول سعد وبسطه ذلك . وقال الامام أحمد حـدثنا وكيع حدثنا سفيان عن مخارق ابن عبد الله الاحمسى عن طارق هو ابن شهاب أن المقداد قال لرسول الله (ص) يوم بدر يارسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعـدون) ولـكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون * وهذا إسناد جيد من هـذا الوجه وله طرق أخرى . قال أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال قال عبد الله بن مسعود لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أ كون أنا صاحبه أحب الى مما عدل به أتى رسول الله (ص) وهو يدعو على المشركين قال والله يارسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولـكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول الله (ص) يشرق لذلك وسر بذلك رواه البخارى فى التفسير والمغازى من طرق عن مخارق به . وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا على بن الحسن بن على حدثنا أبو حاتم الرازى حدثنا محمد بن عبدالله الانصارى حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله (ص) لما سار الى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ثم استشارهم فقالت الانصار يامعشر الانصار إياكم يريد رسول الله (ص) قالوا اذا لا نقول له (كما قال بنو إسرائيل لموسى (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) والذى بعثك بالحق إن ضربت أكبادها الى برك الغماد لاتبعناك رواه الامام أحمد عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به ورواه النسائى عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميد عن أنس به نحوه وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أبى يعلى عن عبد الاعلى بن حماد عن معتمر عن حميد عن أنس به نحوه *

دخول بني إسرائيل التيه وما فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بنى اسرائيل عن قتال الجبارين وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه وحكم بأنهم لا يخرجون منه الى أربعين سنة ولم أر فى كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين ولكن فيها أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار وأن موسى وهرون وخور جلسوا على رأس أكمة ورفع موسى عصاه فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك وجعل هرون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم الى غروب الشمس فانتصر حزب يوشع عليه السلام وعندهم أن يثرون كاهن مدين وختن موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون فقدم على موسى مسلما ومعه ابنته صفورا زوجة موسى وابناها منه جرشون وعازر فتلقاه موسى وأكرمه واجتمع به شيوخ بنى اسرائيل وعظموه وأجلوه . وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بنى اسرائيل على موسى فى الخصومات التى تقع بينهم فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالا أمناء أتقياء أعفاء يبغضون الرشاء والخيانة فيجعلهم على الناس رؤس ألوف ورؤس مئين ورؤس خمسين ورؤس عشرة فيقضوا بين الناس فاذا أشكل عليهم أمر جاؤك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم ففعل ذلك موسى عليه السلام . قالوا ودخل بنو اسرائيل البرية عند سيناء فى الشهر الثالث من خروجهم من مصر وكان خروجهم فى أول السنة التى شرعت لهم وهى أول فصل الربيع فكأنهم دخلوا التيه فى أول فصل الصيف والله اعلم . قالوا ونزل بنو اسرائيل حول طور سيناء وصعد موسى الجبل فكلمه ربه وأمره أن يذكر بنى اسرائيل ما أنعم الله به عليهم من انجائه إياهم من فرعون وقومه وكيف حملهم على مثل جناحى نسر من يده وقبضته وأمره أن يأمر بنى اسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا الى اليوم الثالث فاذا كان فى اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ولا يقتربن أحد منهم اليه فمن دنا منه قتل حتى ولا شئ من البهائم ماداموا يسمعون صوت القرن فاذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه فسمع بنو اسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جداً ففزع بنو اسرائيل من ذلك فزعا شديداً وخرجوا فقاموا فى سفح الجبل وغشى الجبل دخان عظيم فى وسطه عمود نور وتزلزل الجبل كله زلزلة شديدة واستمر صوت الصور وهو البوق واشتد وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلمه ويناجيه وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل فأمر بنى اسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله ويأمر الاحبار وهم علماؤهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدموا بالقرب وهذا نص فى كتابهم على وقوع

النسخ لا محالة فقال موسى يارب إنهم لا يستطيعون أن يصمدوه وقد نهيتهم عن ذلك فامره الله تعالى أن يذهب فيأتى معه باخيه هرون وليكن الكهنة وهم العلماء والشعب وهم بقية بنى اسرائيل غير بعيد فغمل موسى وكلمه ربه عز وجل فامره حينئذ بالعشر كلمات .

وعندهم أن بنى اسرائيل سمعوا كلام الله ولكن لم يفهموا حتى فهّمهم موسى وجعلوا يقولون لموسى بلغنا أنت عن الرب عز وجل فانا نخاف أن نموت فبلغهم عنه فقال هذه العشر الكلمات وهى الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له . والنهى عن الحلف بالله كاذباً . والأمر بالمحافظة على السبت . ومعناه تفرغ يوم من الاسبوع للعبادة * وهذا حاصل بيوم الجمعة الذى نسخ الله به السبت . أكرم أباك وأمك ليطول عمرك فى الارض الذى يعطيك الله ربك . لاتقتل . لاتزن . لاتسرق . لاتشهد على صاحبك شهادة زور لاتمد عينك الى بيت صاحبك . ولا تشته إمرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا من الذى لصاحبك . ومعناه النهى عن الحسد . وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم مضمون هذه العشر الكلمات فى آيتين من القرآن وهما قوله تعالى فى سورة الانعام (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده . وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه الآية) وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاما متفرقة عزيزة كانت فزالت وعمل بها حينا من الدهر * ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ثم عمدوا اليها فبدلوها وحرفوها وأولوها . ثم بعد ذلك كله سلبوها فصارت منسوخة مبدلة بعد ما كانت مشروعة مكملة فلله الامر من قبل ومن بعد وهو الذى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد الاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين . وقد قال الله تعالى (يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى . وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) يذكر تعالى منته وإحسانه الى بنى إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم الى جانب الطور الايمن أى منهم لينزل عليه أحكاما عظيمة فيها مصلحة لهم فى دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم فى حال شدتهم وضرورتهم فى سفرهم فى الارض التى ليس فيها زرع ولا ضرع منا من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم فى ذلك اليوم الى مثله من الغد ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد . ومن أخذ منه قليلا كفاه أو كثيراً لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز وهو

فى غاية البياض والحلاوة فاذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون اليه حسب كفايتهم لشامهم* واذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام وهو السحاب الذى يستر عنهم حر الشمس وضوأها الباهر . كما قال تعالى فى سورة البقرة (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون) الى أن قال (واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون. واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . واذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم . واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون . وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إلى أن قال (و اذ إستسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه إثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين . واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها و بصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فان لكم ماسألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فذكر تعالى إنعامه عليهم وإحسانه اليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعى لهم فيه بل ينزل الله المن باكرا ويرسل عليهم طير السلوى عشياً وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط عين منه تنبجس* ثم تتفجر ماءاً زلالا فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم . وظلل عليهم الغمام من الحر * وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوامنها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلا (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) أى هذا الذى تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التى أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها واذا هبطتم اليها أى ونزلتم عن هذه المرتبة التى لا تصلحون لمنصبها تجدوا بهاما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية

والاغذية الردية ولكنى لست أجيبكم الى سؤال ذلك ههنا ولا أبلغكم ما تمنتم به من المنى وكل هـذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما قال تعالى (ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار وقد حل عليه غضب الملك الجبار ولكنه تعالى مزج هـذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أقلع وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى)

سؤال الرؤية

قال تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن أنظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون الا ما كانوا يعملون) . قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد الثلاثون ليلة هى شهر ذى القعدة بكماله وأتمت أربعين ليلة بعشر ذى الحجة فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر وفى مثله أكمل الله عز وجل لمحمد (ص) دينه وأقام حجته وبراهينه . والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائما يقال إنه لم يستطعم الطعام فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه فأمر الله أن يمسك عشراً أخرى فصارت أربعين ليلة .ولهذا ثبت فى الحديث أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بنى اسرائيل أخاه هرون المحبب المبجل الجليل وهو ابن أمه وأبيه ووزيره فى الدعوة الى مصطفيه فوصاه وأمره وليس فى هـذا لعلو منزلته فى نبوته منافاة قال الله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا) أى فى الوقت الذى أمر بالمجئ فيه (وكلمه ربه) أى كلمه الله من وراء حجاب الا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأدناه وهـذا مقام رفيع ومعقل منيع ومنصب شريف ومنزل منيف فصلوات الله عليه تترى وسلامه عليه فى الدنيا والآخرة * ولما أعطى هذه المنزلة

العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب فقال للعظيم الذي لا تدركه الابصار القوى البرهان (رب أرني أنظر اليك قال لن تراني) . ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لان الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الانسان لا يثبت عند التجلي من الرحمان ولهذا قال (ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني)

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال له ياموسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده وفي الصحيحين عن أبي موسى عن رسول الله (ص) انه قال حجابه النور . وفي رواية النار لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه . وقال ابن عباس في قوله تعالى (لا تدركه الابصار) ذاك نوره الذي هو نوره اذا تجلى لشئ لا يقوم له شئ ولهذا قال تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) . قال مجاهد (ولكن أنظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني) فانه أكبر منك وأشد خلقا فلما تجلى ربه للجبل فنظر الى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا * وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الامام احمد والترمذي وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت . زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله (ص) قرأ (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال هكذا باصبعه ووضع النبي (ص) الابهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل لفظ ابن جرير . وقال السدي عن عكرمة وعن ابن عباس ما تجلى يعني من العظمة الا قدر الخنصر فجعل الجبل دكا قال ترابا (وخر موسى صعقا) أي مغشيا عليه وقال قتادة ميتا . والصحيح الأول لقوله (فلما أفاق) فان الافاقة انما تكون عن غشي قال (سبحانك) تنزيه وتعظيم واجلال أن يراه بعظمته أحد (تبت إليك) أي فلست أسأل بعد هذا الرؤية (وأنا أول المؤمنين) أنه لا يراك حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده . وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن ابي حسن المازني الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله (ص) (لا تخيروني من بين الانبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أوجوزي بصعقة الطور) لفظ البخاري وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الانصاري حين قال لا والذي اصطفى موسى على البشر فقال رسول الله (لا تخيروني من بين الانبياء) . وفي الصحيحين من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الاعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه وفيه (لا تخيروني على موسى) وذكر تمامه . وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهي عن التفضيل بين الانبياء على وجه الغضب والعصبية أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات وليس ينال هذا بمجرد الرأي بل بالتوقيف . ومن قال ان هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ثم نسخ باطلاعه على افضليته

عليهم كلهم ففي قوله نظر لأن هـذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة وما هاجر أبو هريرة الاعام حنين متأخرا فيبعد أنه لم يعلم بهذا الا بعد هذا والله أعلم ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة . قال الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وما كانوا الا بشرف نبيهم وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليـه أنه قال (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر) ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذى يغبطه به الاولون والآخرون الذى تحيد عنه الانبياء والمرسلون حتى أولو العزم الاكلون نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم . وقوله (ص) (فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش) أى آخذاً بها (فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور) دليل على أن هذا الصعق الذى يحصل للخلائق فى عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الانبياء ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الانبياء فيجد موسى باطشا بقائمة العرش قال الصادق المصدوق (لاأدرى أصعق فافاق قبـلى) أى كانت صعقته خفيفة لأنه قـد ناله بهذا السبب فى الدنيا صعق أو جوزى بصعقة الطور يعنى فلم يصعق بالكلية وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هـذه الحيثية . ولا يلزم تفضيله بها مطلقا من كل وجه * ولهذا نبه رسول الله (ص) على شرفه وفضيلته بهذه الصفة لان المسلم لما ضرب وجه اليهودى حين قال (لا والذى اصطفى موسى على البشر) قـد يحصل فى نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام فبين النبى (ص) فضيلته وشرفه . وقوله تعالى (قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) أى فى ذلك الزمان لاماقبله لأن ابراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك فى قصة ابراهيم ولا ما بعده لأن محمداً (ص) أفضل منهما كما ظهر شرفه ليلة الاسراء على جميع المرسلين والانبياء وكما ثبت أنه قال (سأقوم مقاما يرغب الى الخلق حتى ابراهيم) وقوله تعالى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) أى فخـذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه وكن من الشاكرين على ذلك . قال الله تعالى (وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ) وكانت الالواح من جوهر نفيس ففى الصحيح أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيل لكل مايحتاجون إليه من الحلال والحرام (فخذها بقوة) أى بعزم ونية صادقة قوية (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها (سأريكم دار الفاسقين) أى سترون عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لامرى المكذبين لرسلى . (سأصرف عن آياتى) عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذى أريد منها ودل عليه مقتضاها (الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى ولو شاهدوا مها شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادوا لاتباعها (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) أى لا يسلكوه ولا يتبعوه (وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) أى صرفناهم

عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها واعراضهم عن التصديق بها والتفكر فى معناها وترك العمل بمقتضاها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) .

قصة عبادتهم العجل في غيبة موسى

قال الله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قال يا ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الاعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وادخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين . والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الالواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقال تعالى (وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت اليك رب لترضى قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا * ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى . قال ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمرى قال يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى قال فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر الى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علما) يذكر تعالى ما كان من أمر بنى إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام الى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن اشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها فعمد رجل منهم يقال له هرون السامرى فأخذ ما كان استعاره من الحلى فصاغ منه عجلا وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه فلما القاها فيه خار كما

بخور العجل الحقيق . ويقال إنه استحال عجلا جسدا أى لحما ودما حيا يخور . قاله قتادة وغيره وقيل بل كانت الريح اذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى فنسى موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو ههنا تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وعداته . قال الله تعالى مبينا بطلان ماذهبوا اليه وماعولوا عليه من الهية هذا الذى قصاراه أن يكون حيوانا بهيما وشيطاناً رجيما (أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) وقال (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جوابا ولا يملك ضرا ولا نفعاً ولا يهدى الى رشد اتخذوه وهم ظالمون لانفسهم عالمون فى أنفسهم بطلان ماهم عليه من الجهل والضلال (ولما سقط فى أيديهم) أى ندموا على ماصنعوا (ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) . ولما رجع موسى عليه السلام اليهم ورأى ماهم عليه من عبادة العجل ومعه الالواح المتضمنة التوراة القاها فيقال إنه كسرها . وهكذا هو عند أهل الكتاب وإن الله أبدله غيرها وليس فى اللفظ القرآنى مايدل على ذلك إلا أنه القاها حين عاين ماعاين . وعند أهل الكتاب أنهما كانا لوحين وظاهر القرآن أنها الواح متعددة ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك . ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) (ليس الخبر كالمعاينة) ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم فى صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا اليه بما ليس بصحيح (قالوا إنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى) تحرجوا من تملك حلى آل فرعون وهم أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذى له خوار مع الواحد الاحد الفرد الصمد القهار . ثم أقبل على أخيه هرون عليهما السلام قائلا له (ياهرون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا أن لاتتبعن) أى هلا لما رأيت ماصنعوا اتبعتنى فاعلمتنى بما فعلوا فقال (إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل) أى تركتهم وجئتنى وأنت قد استخلفتنى فيهم (قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) وقد كان هرون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهى وزجرهم عنه أتم الزجر قال الله تعالى (ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به) أى إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختبارا لكم (وإن ربكم الرحمن) أى لا هذا (فاتبعونى) أى فيما أقول لكم (وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى) يشهد الله لهرون عليه السلام (وكفى بالله شهيداً) أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه ثم أقبل موسى على السامرى (قال ماخطبك ياسامرى) أى ماحملك على ماصنعت (قال بصرت بما لم يبصروا به) أى رأيت جبرائيل وهو راكب

فرساً (قبضت قبضة من أثر الرسول) أى من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب فأخذ من أثر حافرها فلما القاه فى هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال (فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى.قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس) وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً معاقبة له على مسه مالم يكن له مسه .هذا معاقبة له فى الدنيا ثم توعده فى الاخرى فقال (وإن لك موعداً لن تخلفه) وقرئ لن تخلفه (وانظر الى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً) قال فعمد موسى عليه السلام الى هذا العجل فحرقه بالنار كما قاله قتادة وغيره . وقيل بالمبارد كما قاله على وابن عباس وغيرهما وهو نص أهل الكتاب ثم ذراه فى البحر وأمر بنى اسرائيل فشربوا فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه وقيل بل اصفرت ألوانهم ثم قال تعالى اخباراً عن موسى أنه قال لهم (إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علما) وقال تعالى (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين) وهكذا وقع وقد قال بعض السلف (وكذلك نجزى المفترين) مسجلة لكل صاحب بدعة الى يوم القيمة . ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده فى قبوله توبة من تاب اليه بتوبته عليه فقال (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) لكن لم يقبل الله توبة عابدى العجل إلا بالقتل كما قال تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) فيقال إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل فى أيديهم السيوف والقى الله عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه . ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا فى صبيحة واحدة سبعين ألفا . ثم قال تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) استدل بعضهم بقوله وفى نسختها على أنها تكسرت وفى هذا الاستدلال نظر وليس فى اللفظ ما يدل على أنها تكسرت والله أعلم . وقد ذكر ابن عباس فى حديث الفتون كما سيأتى أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر وما هو ببعيد لأنهم حين خرجوا (قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) .

وهكذا عند أهل الكتاب فان عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل قتلوا فى أول يوم ثلاثة آلاف . ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة .(واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة

نا هدنا اليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) ذكر السدى وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بنى إسرائيل ومعهم موسى وهرون ويوشع وناداب وابيهو ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بنى إسرائيل فى عبادة من عبد منهم العجل وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع وصعد موسى الجبل فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين وحملوا عليه قوله تعالى (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) وليس هذا بلازم لقوله تعالى (فأجره حتى يسمع كلام الله) أى مبلغاً وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى عليه السلام وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله وهذا غلط منهم لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة كما قال تعالى (واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) وقال ههنا (فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى الآية) قال محمد بن اسحق اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير . وقال انطلقوا الى الله فتوبوا اليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم الى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا باذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فى الغمام وقال للقوم أدنوا وكان موسى اذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لايستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر اليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى اذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولاتفعل • فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل اليهم قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أى لاتؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فانا براء مما عملوا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل وقوله (إن هى إلا فتنتك) أى ابتلاؤك واختبارك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف . يعنى أنت الذى قدرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل إختباراً تختبرهم

به كما (قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به) أى أختبرتم ولهذا قال (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) أى من شئت أضللته باختبارك إياه ومن شئت هديته * لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولاراد لما حكمت وقضيت (أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا اليك) أى تبنا اليك ورجعنا وأنبنا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وابراهيم التيمى والضحاك والسدى وقتادة وغير واحد وهو كذلك فى اللغة . (قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شئ) أى أنا أعذب من شئت بما أشاء من الامور التى أخلقها وأقدرها (ورحمتى وسعت كل شئ) كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله (ص) أنه قال (ان الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش ان رحمتى تغلب غضبى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى فساوجبها حتما لمن يتصف بهذه الصفات (الذين يتبعون الرسول النبى الامى الآية) وهذا فيه تنويه بذكر محمد (ص) وامته من الله لموسى عليه السلام فى جملة ماناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه * وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها فى التفسير بما فيه كفاية ومقنع ولله الحمد والمنة . وقال قتادة قال موسى يارب أجد فى الالواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون فى الخلق السابقون فى دخول الجنة رب اجعلهم أمتى . قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الالواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً حتى اذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه وان الله اعطاكم أيتها الامة من الحفظ شيئا لم يعطه احداً من الامم قال رب اجعلهم امتى قال تلك أمة احمد قال رب إنى اجد فى الالواح امة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الاعور الكذاب فاجعلهم امتى . قال تلك امة احمد . قال رب إنى اجد فى الالواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم اذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها وان ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير وان الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم قال رب فاجعلهم أمتى . قال تلك أمة أحمد . قال رب فانى أجد فى الالواح أمة اذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشر امثالها الى سبعمائة ضعف قال رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة احمد قال رب إنى أجد فى الالواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد * قال قتادة فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال اللهم اجعلنى من أمة أحمد . وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام وأوردوا اشياء كثيرة لا أصل لها ونحن نذكر ماتيسر ذكره من الاحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه وحسن هدايته ومعونته وتأييده .

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان فى صحيحه ﴿ذكرُ سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة﴾ أخبرنا عمر بن سعيد الطائى بمنبج حدثنا حامد بن يحيى البلخى حدثنا سفيان حدثنا مطرف بن طريف وعبدالملك بن ابجر شيخان صالحان سمعنا الشعبى يقول سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبى (ص) إن موسى عليه السلام سال ربه عز وجل أى أهل الجنة أدنى منزلة فقال رجل يجيء بعد مايدخل أهل الجنة الجنة فيقال أدخل الجنة فيقول كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم واخذوا إخاذاتهم فيقال له ترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا . فيقول نعم أى رب فيقال لك هذا ومثله ومثله فيقول أى رب رضيت فيقال له لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك وسأل ربه أى أهل الجنة ارفع منزلة قال ساحدثك عنهم غرستُ كرامتهم بيدى وختمت عليها فلا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر *ومصداق ذلك فى كتاب الله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين الآية) وهكذا رواه مسلم والترمذى كلاهما عن ابن أبى عمر عن سفيان وهو ابن عيينة به ولفظ مسلم (فيقال له اترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا فيقول رضيت رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله فيقول فى الخامسة رضيت رب فيقال هذا لك وعشرة امثاله ولك مااشتهت نفسك ولذت عينك فيقول رضيت رب قال رب فاعلاهم منزلة قال أولئك الذين اردت غرس كرامتهم بيدى وختمت عليها فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر قال ومصداقه من كتاب الله (فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وقال الترمذى حسن صحيح . قال ورواه بعضهم عن الشعبى عن المغيرة فلم يرفعه والمرفوع أصح . وقال ابن حبان (ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع) حدثنا عبدالله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن أبى هريرة عن النبى (ص) أنه قال (سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها . قال يارب أى عبادك اتقى . قال الذى يذكر ولا ينسى قال فأى عبادك أهدى قال الذى يتبع الهدى قال فأى عبادك احكم قال الذى يحكم للناس كما يحكم لنفسه . قال فأى عبادك أعلم قال عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس الى علمه . قال فأى عبادك أعز . قال الذى اذا قدر غفر قال فأى عبادك أغنى قال الذى يرضى بما يؤتى قال فأى عبادك أفقر قال صاحب منقوص . قال رسول الله (ص) (ليس الغنى عن ظهر إنما الغنى غنى النفس) وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه فى نفسه وتقاه فى قلبه . وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه . قال ابن حبان قوله صاحب منقوص يريد به منقوص حاله يستقل ماأوتى ويطلب الفضل . وقد رواه ابن جرير فى تاريخه عن ابن حميد عن يعقوب القمى عن هرون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس قال سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه وفيه قال (أى رب فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس

الى علمه عسى أن يجد كلمة تهديه الى هدى أو ترده عن ردى . قال أى رب فهل فى الارض أحد أعلم منى قال نعم الخضر فسأل السبيل الى لقيه فكان ماسنذكره بعد إن شاء الله وبه الثقة

حديث آخر بمعنى ماذكره ابن حبان

قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن اسحق حدثنا ابن لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى (ص) أنه قال إن موسى قال أى رب عبدك المؤمن مقتر عليه فى الدنيا . قال ففتح له باب من الجنة فنظر اليها قال ياموسى هذا ما أعددت له . فقال موسى يارب وعزتك وجلالك لو كان مقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته الى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بوسا قط قال ثم قال أى رب عبدك الكافر موسع عليه فى الدنيا . قال ففتح له باب الى النار فيقول ياموسى هذا ما أعددت له فقال أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته الى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط . تفرد به احمد من هذا الوجه . وفى صحته نظر والله أعلم . وقال ابن حبان (ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئا يذكره به) حدثنا ابن سلمة حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث إن دراجا حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن النبى (ص) أنه قال قال موسى (يارب علمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به) قال قل ياموسى (لا إله إلا الله) قال يارب كل عبادك يقول هذا . قال قل لا إله إلا الله . قال إنما أريد شيئاً تخصنى به . قال ياموسى لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله . ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة . وأقرب شئ الى معناه الحديث المروى فى السنن عن النبى (ص) أنه قال أفضل الدعاء دعاء عرفة وأفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلى (لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير) وقال ابن أبى حاتم عند تفسير آية الكرسى حدثنا احمد بن القاسم بن عطية . حدثنا احمد بن عبد الرحمن الدسكى حدثنى أبى عن أبيه حدثنا أشعث بن اسحق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا لموسى هل ينام ربك قال اتقوا الله فناداه ربه ياموسى سألوك هل ينام ربك فخذ زجاجتين فى يديك فقم الليل ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما حتى اذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا . فقال ياموسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان فى يديك . قال وأنزل الله على رسوله آية الكرسى . وقال ابن جرير حدثنا اسحق بن أبى إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن إبان عن عكرمة عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله (ص) يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر قال وقع فى نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل فأرسل

الله اليه ملكا فارقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان قال ضرب الله له مثلا أن لو كان ينام لم يستمسك السماء والارض . وهذا حديث غريب رفعه . والأشبه أن يكون موقوفاً . وأن يكون أصله إسرائيليا . وقال الله تعالى (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) وقال تعالى (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون) قال ابن عباس وغير واحد من السلف لما جاءهم موسى بالالواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والاخذ بها بقوة وعزم فقالوا أنشرها علينا فان كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها فقال بل اقبلوها بما فيها فراجعوه مراراً فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤسهم حتى صار كأنه ظلة أى غمامة على رؤسهم وقيل لهم ان لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا فجعلوا ينظرون الى الجبل بشق وجوههم فصارت سنة اليهود الى اليوم يقولون لاسجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب . وقال سنيد بن داود عن حجاج بن محمد عن أبى بكر بن عبد الله قال فلما نشرها لم يبق على وجه الارض جبل ولاشجر ولاحجر إلا اهتز فليس على وجه الارض يهودى صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه . قال الله تعالى (ثم توليتم من بعد ذلك) أى ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والامر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) بان تداركم بالارسال اليكم وانزال الكتب عليكم (لكنتم من الخاسرين)

قصة بقرة بنى اسرائيل

قال الله تعالى (واذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله ان أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى قال إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ماتؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الارض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها . قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) قال ابن عباس وعبيدة السلمانى وأبو العالية ومجاهد والسدى وغير واحد من السلف كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال وكان شيخا كبيراً وله

بنوا أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمع الطرق ويقال على باب رجل منهم فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا مالكم تختصمون ولا تأتون نبى الله فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه الى رسول الله موسى (ص) فقال موسى عليه السلام أنشد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به فلم يكن عند احد منهم علم منه وسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه عز وجل فسأل ربه عز وجل فى ذلك فامره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً) يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) أى أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى الى . وهذا هو الذى أجابنى حين سالته عما سألتمونى عنه أن أسأله فيه . قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدى وأبو العالية وغير واحد فلو أنهم عمدوا الى أى بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ولكنهم شددوا فشدد عليهم وقد ورد فيه حديث مرفوع . وفى إسناده ضعف فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها فاجيبوا بما عز وجوده عليهم وقد ذكرنا فى تفسير ذلك كله فى التفسير . والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهو الوسط بين النصف الفارض وهى الكبيرة والبكر وهى الصغيرة قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة . ثم شددوا وضيقوا على انفسهم فسألوا عن لونها فامروا بصفراء فاقع لونها اى مشرب بحمرة تسر الناظرين * وهذا اللون عزيز. ثم شددوا أيضا (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ان البقر تشابه علينا وانا إن شاء الله لمهتدون) فى الحديث المرفوع الذى رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه لولا أن بنى إسرائيل إستثنوا لما أعطوا وفى صحته نظر والله أعلم (قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الارض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها . قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون) وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهى المذللة بالحراثة وسقى الارض بالسانية مسلمة وهى الصحيحة التى لاعيب فيها قاله أبو العالية وقتادة . وقوله (لاشية فيها) أى ليس فيها لون يخالف لونها بل هى مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الالوان غير لونها فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والاوصاف (قالوا الآن جئت بالحق) ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بابيه فطلبوها منه فابى عليهم فارغبوه فى ثمنها حتى أعطوه فيما ذكره السدى بوزنها ذهبا فابى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها منهم فأمرهم نبى الله موسى بذبحها (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أى وهم يترددون فى أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها . قيل بلحم فخذها . وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف . وقيل بالبضعة التى بين الكتفين فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أوداجه فسأله نبى الله من قتلك قال قتلنى ابن أخى . ثم عاد ميتا كما كان قال الله تعالى

(كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) أى كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له كذلك أمره فى سائر الموتى اذا شاء إحياءهم أحياهم فى ساعة واحدة كما قال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة الآية)

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معى صبراً . وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً . قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها . قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا امرا . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا قال إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا فاردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا)

قال بعض أهل الكتاب إن موسى هذا الذى رحل الى الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم منهم نوف بن فضالة الحميرى الشامى البكالى . ويقال إنه دمشقى وكانت أمه زوجة كعب الأحبار * والصحيح الذى دل عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه أنه موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل . قال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمر بن دينار أخبرنى سعيد بن

جبير قال قلت لابن عباس إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل . قال ابن عباس كذب عدو الله. حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله (ص) يقول إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل اى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم اليه فأوحى الله اليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى يارب و كيف لى به . قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . فأخذ حوتا فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر واتخذ سبيله فى البحر سربا . وامسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كان من الغد (قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به (قال) له فتاه (أرأيت إذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا) قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا (قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا الى الصخرة فاذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وانى بارضك السلام قال أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل قال نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً (قال إنك لن تستطيع معى صبرا) ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه فقال (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرا) قال له الخضر فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا) يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول .فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ الا والخضر قد قلع لوحا من الواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت الى سفينتهم فخرقتها (لتغرق اهلها لقد جئت شيئاً امرا . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) قال وقال رسول الله (ص) وكانت الاولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر ما علمى وعلمك فى علم الله الا مثل مانقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينا هما يمشيان على الساحل اذ بصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى (أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا) قال وهذه أشد من الأولى (قال إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) قال مائل فقال الخضر بيده (فأقامه) فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا (لوشئت لاتخذت عليه أجرا .قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل

مالم تستطع عليه صبرا) قال رسول الله (ص) وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين . ثم رواه البخارى أيضا عن قتيبة عن سفيان بن عيينة باسناده نحوه . وفيه فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا الى الصخرة فنزلا عندها قال فوضع موسى رأسه فنام قال سفيان وفى حديث غير عمرو قال وفى أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شئ إلا حيى فأصاب الحوت من ماء تلك العين قال فتحرك وانسل من المكتل ودخل البحر فلما استيقظ (قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا) وساق الحديث وقال ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره فى البحر فقال الخضر لموسى ماعلمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ماغمس هذا العصفور منقاره وذكر تمام الحديث . وقال البخارى حدثنا ابراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال أخبرنى يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبير يزيد أحدهما على صاحبه . وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال إنا لعند ابن عباس فى بيته إذ قال سلونى فقلت أى أبا عباس جعلنى الله فداك بالكوفة رجل قاص يقال له نوف يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل أما عمرو فقال لى قال قد كذب عدو الله وأما يعلى فقال لى قال ابن عباس حدثنى أبى بن كعب قال قال رسول الله (ص) موسى رسول الله قال ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال أى رسول الله هل فى الارض أحد أعلم منك قال لا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله . قيل بلى قال أى رب فأين قال بمجمع البحرين قال أى رب اجعل لى علماً أعلم ذلك به قال لى عمر قال حيث يفارقك الحوت وقال لى يعلى قال خذ حوتا ميتاً حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت قال ما كلفت كبيراً فذلك قوله (وإذ قال موسى لفتاه) يوشع بن نون . ليست عن سعيد ابن جبير قال فبينما هو فى ظل صخرة فى مكان ثريان إذ تضرب الحوت وموسى نائم فقال فتاه لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره وتضرب الحوت حتى دخل البحر فامسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره فى حجر قال لى عمرو هكذا كان أثره فى حجر وحلق بين ابهاميه والتين تليان (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) قال وقد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد أخبره فرجعا فوجدا خضرا قال لى عثمان بن أبى سليمان على طنفسة خضراء على كبد البحر قال سعيد مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال هل بارض من سلام من أنت قال أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل قال نعم قال فما شأنك قال جئتك (لتعلمنى مما علمت رشداً) قال أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحى يأتيك ياموسى إن لى علما لا ينبغى لك أن تعلمه وإن لك علما لا ينبغى لى أن أعلمه فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال والله ماعلمى وعلمك

فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر (حتى إذا ركبا فى السفينة) وجدا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر عرفوه فقالوا عبدالله الصالح. قال بمانا سعيد (خضر) قال نعم. لا نحمله بأجر (خرقها) ووتد فيها وتدا (قال) موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا) قال مجاهد منكرا (قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً) كانت الأولى نسيانا والوسطى شرطاً والثالثة عمداً (قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا. فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله) قال يعلى قال سعيد وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين (قال أقتلت نفساً زكية) لم تعمل بالخبث * ابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلاماً زكيا (فانطلقا فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه) قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام قال يعلى حسبت أن سعيداً قال فمسحه بيده فاستقام (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) قال سعيد أجرا نأكله (وكان وراءهم) وكان أمامهم قرأها ابن عباس أمامهم. ملك يزعمون عن غير سعيد أنه هدد بن بدد والغلام المقتول يزعمون جيسور (ملك يأخذ كل سفينة غصبا) فاذا هى مرت به يدعها بعيبها فاذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها. منهم من يقول سدوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار (كان أبواه مؤمنين) وكان كافراً (فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أى يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة) لقوله أقتلت نفساً زكية (وأقرب رحما) هما به أرحم منهما بالأول الذى قتل خضر * وزعم سعيد بن جبير أنه ابن لا جارية وأما داود بن أبى عاصم فقال عن غير واحد إنها جارية * وقد رواه عبدالرزاق عن معمر عن أبى اسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطب موسى بنى اسرائيل فقال ما أحد أعلم بالله وبأمره منى فأمر أن يلقى هذا الرجل. فذكر نحو ما تقدم وهكذا رواه محمد بن اسحق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله (ص) كنحو ما تقدم أيضا ورواه العوفى عنه موقوفا * وقال الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى فقال ابن عباس هو خضر فمر بهما أبى بن كعب فدعاه ابن عباس فقال إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيه فهل سمعت من رسول الله فيه شيئا قال نعم وذكر الحديث وقد تقصينا طرق هذا الحديث والفاظه فى تفسير سورة الكهف ولله الحمد. وقوله (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) قال السهيلى وهما أصرم وصريم ابنا كاشح. (وكان تحته كنز لهما) قيل كان ذهبا قاله عكرمة وقيل علما قاله ابن عباس والأشبه أنه كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه علم قال البزار حدثنا ابراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا بشر ابن المنذر حدثنا الحرث بن عبدالله اليحصبى عن عياش بن عباس القتبانى عن ابن حجيرة عن أبى ذر رفعه قال إن الكنز الذى ذكر الله فى كتابه لوح من الذهب مصمت. عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب وعجبت

لمن ذكر النار لم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل : لا إله إلا الله . وهكذا روى عن الحسن البصرى وعمر مولى عفرة وجعفر الصادق نحو هذا وقوله (وكان أبوهما صالحا) وقد قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر . وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته فالله المستعان. وقوله (رحمة من ربك) دليل على أنه كان نبياً وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبى وقيل رسول وقيل ولى واغرب من هذا من قال كان ملكا قلت وقد أغرب جدا من قال هو ابن فرعون وقيل إنه ابن ضحاك الذى ملك الدنيا ألف سنة . قال ابن جرير والذى عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان فى زمن أفريدون ويقال إنه كان على مقدمة ذى القرنين الذى قيل إنه كان أفريدون وذو الفرس هو الذى كان فى زمن الخليل . وزعموا أنه شرب من ماء الحيوة فخلد وهو باق الى الآن . وقيل إنه من ولد بعض من آمن بابراهيم وهاجر معه من ارض بابل وقيل إسمه ملكان وقيل أرميا بن خلقيا وقيل كان نبيا فى زمن سباسب بن لهراسب قال ابن جرير وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لايجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب قال ابن جرير والصحيح أنه كان فى زمن أفريدون واستمر حيا إلى أن أدركه موسى عليه السلام وكانت نبوة موسى فى زمن منو شهر الذى هو من ولد ايرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس وكان اليه الملك بعد جده أفريدون لعهده وكان عادلا وهو أول من خندق الخنادق وأول من جعل فى كل قرية دهقانا وكانت مدة ملكه قريبا من مائة وخمسين سنة ويقال انه كان من سلالة اسحاق بن ابراهيم وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكلم البليغ النافع الفصيح ما يبهر العقل ويحير السامع وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل . والله أعلم . وقد قال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم الآية)

فأخذ الله ميثاق كل نبى على أن يؤمن بمن يجئ بعده من الانبياء وينصره فلو كان الخضر حيا فى زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيا وهو الحق أو رسولا كاقيل أوملكا فيما ذكر وأيما كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر ولو كان حيا لوجب عليه الايمان بمحمد ونصرته فكيف ان كان الخضر وليا كما يقوله طوائف كثيرون فأولى أن يدخل فى عموم البعثة وأحرى ولم ينقل فى حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوما واحدا الى رسول الله ﷺ ولا اجتمع به وماذكر من حديث التعزية فيه وان كان الحاكم قد رواه فاسناده ضعيف والله أعلم وسنفرد للخضر ترجمة على حدة بعد هذا

حديث الفتون المتضمن قصة موسى من أولها الى آخرها

قال الامام ابو عبد الرحمن النسائى فى كتاب التفسير من سننه عند قوله تعالى فى سورة طه (وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا) (حديث الفتون) حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا اصبغ بن زيد حدثنا القاسم بن أبي أيوب اخبرنى سعيد بن جبير قال سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى (وفتناك فتونا) فسأله عن الفتون ما هو فقال استأنف النهار يا ابن جبير فان لها حديثا طويلا فلما أصبحت غدوت الى ابن عباس لا تنجز منه ما وعدنى من حديث الفتون فقال تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد ابراهيم عليه السلام أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكا فقال بعضهم إن بنى اسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه وكانوا يظنون انه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد ابراهيم فقال فرعون فكيف ترون فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار يطوفون فى بنى اسرائيل فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك فلما رأوا أن الكبار من بنى اسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا توشكون أن تفنوا بنى اسرائيل فتصيروا الى أن تباشروا من الاعمال والخدمة الذى كانوا يكفونكم فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر فتقل بناتهم ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار فانهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم اياكم ولن تفنوا بمن تقتلون وتحتاجون اليهم فاجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا تقتل فيه الغلمان فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع فى قلبها الهم والحزن وذلك من الفتون يا ابن جبير مادخل عليه فى بطن أمه مما يراد فاوحى الله اليها أن لا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فامرها اذا ولدت أن تجعله فى تابوت وتلقيه فى اليم فلما ولدت فعلت ذلك فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت فى نفسها ما فعلت بابنى لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب الى من أن القيه الى دواب البحر وحيتانه فانتهى الماء به حتى أوفى عند فرضة تستقى منها جوارى امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن ان فى هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئا حتى دفعنه اليها فلما فتحته رأت فيه غلاما فالقى عليه منها محبة لم تلق منها على أحد قط وأصبح فؤاد أم موسى فارغا. ذكر كل شئ إلا من ذكر موسى. فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم الى امرأة فرعون ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت لهم أقروه فان هذا الواحد لايزيد فى بنى اسرائيل حتى آتى فرعون

فاستوهبه منه فان وهبه منى كنتم قد أحسنتم وأجملتم وان أمر بذبحه لم ألمكم فأتت فرعون فقالت (قرة عين لى ولك) فقال فرعون يكونك فأما لى فلا حاجة لى فيه فقال رسول الله (ص) (والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمه ذلك) فارسلت الى من حولها الى كل امرأة لها الان تختار ظئرا فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فامرت به فاخرج الى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً يأخذه منها فلم يقبل وأصبحت أم موسى والها فقالت لاخته قصى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا أحى ابنى أم قد أكلته الدواب ونسيت ما كان الله وعدها فيه فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون والجنب أن يسمو بصر الانسان الى شئ بعيد وهو الى جنبه لا يشعر به فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤورات أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فقالوا مايدريك ما نصحهم هل يعرفونه حتى شكوا فى ذلك . وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت نصحهم له وشفقتهم عليه ورغبتهم فى صهر الملك ورجاء منفعة الملك فأرسلوها فانطلقت الى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته فى حجرها نزا الى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا وانطلق البشير الى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئرا فارسلت اليها فأتت بها وبه . فلما رأت ما يصنع بها قالت أمكثى ترضعى ابنى هذا فانى لم أحب شيئا حبه قط قالت أم موسى لا أستطيع أن أترك بيتى وولدى فيضيع فان طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى لا آلوه خيراً فعلت فانى غير تاركة بيتى وولدى وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فتعاسرت على امرأة فرعون وايقنت أن الله منجزٌ موعوده فرجعت الى بيتها من يومها وأنبته الله نباتا حسنا وحفظ لما قد قضى فيه فلم يزل بنو اسرائيل وهم فى ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لام موسى أريني ابنى فوعدتها يوما تريها اياه فيه وقالت امرأة فرعون لخزانها وظئورها وقهارمتها لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية و[illegible] لارى ذلك فيه وأنا باعثة أمينا يحصى كل ما يصنع كل انسان منكم فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه الى أن دخل على امرأة فرعون . فلما دخل عليها نحلته وأكرمته فرحت به ونحلت أمه بحسن أثرها عليه . ثم قالت لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه فلما دخلت به وعليه جعله فى حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها الى الارض فقال الغواة من أعداء الله لفرعون ألا ترى ما وعد الله ابراهيم نبيه أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل الى الذباحين ليذبحوه . وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به وأريد به فجاءت امرأة فرعون تسعى الى فرعون فقالت ما بدا لك فى هذا الغلام الذى وهبته لي فقال ألا تريه يزعم أنه يصرعنى ويعلونى فقالت اجعل بينى وبينك أمرا تعرف فيه الحق ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن اليه فان بطش باللؤلؤتين

واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل وان تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل فقرب اليه فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده فقالت المرأة ألا ترى فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به وكان الله بالغا فيه أمره . فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص الى أحد من بنى اسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع . فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعونى والآخر اسرائيلى فاستغاثه الاسرائيلى على الفرعونى فغضب موسى غضبا شديدا لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى اسرائيل وحفظه لهم مالم يطلع عليه غيره فوكز موسى الفرعونى فقتله وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والاسرائيلى فقال موسى حين قتل الرجل (هـذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) ثم قال (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب) الاخبار فأتى فرعون فقيل له إن بنى اسرائيل قتلوا رجـلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فقال ابغونى قاتله من يشهد عليه فان الملك وان كان صغوه مع قومه لا ينبغى له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لـكم بحقكم فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة اذا موسى من الغد قد رأى ذلك الاسرائيلى يقاتل رجلا من آل فرعون آخر فاستغاثه الاسرائيلى على الفرعونى فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذى رأى فغضب الاسرائيلى وهو يريد أن يبطش بالفرعونى فقال للاسرائيلى لما فعل بالامس واليوم (انك لغوى مبين) فنظر الاسرائيلى الى موسى بعد ما قال له ما قال فاذا هو غضبان كغضبه بالامس الذى قتل فيه الفرعونى فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لغوى مبين أن يكون اياه أراد ولم يكن أراده انما أراد الفرعونى فخاف الاسرائيلى * وقال موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس وانما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا وانطلق الفرعونى فاخبرهم بما سمع من الاسرائيلى من الخبر حين يقول أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس فارسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون الطريق الاعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون ان يفوتهم فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقا حتى سبقهم الى موسى فأخبره . وذلك من الفتون يا ابن جبير فخرج موسى متوجها نحو مدين لم يلق بلاء قبـل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل فانه قال (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان) يعنى بذلك حابستين غنمهما فقال لهما (ما خطبكما) معتزلتين لا تسقيان مع الناس قالتا ليس لنا قوة تزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغرف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمهما الى أبيهما وانصرف موسى فاستظل بشجرة (وقال رب انى لما انزلت الى من خير فقير) واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلا بطانا فقال ان لكما اليوم لشأنا فاخبرتاه بما

صنع موسى فامر احداهما أن تدعوه فاتت موسى فدعته فلما كلمه قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولاقومه علينا من سلطان ولسنا فى مملكته (فقالت احداهما ياأبت استأجره إن خير من استاجرت القوى الأمين) فاحتملته الغيرة على أن قال لها مايدريك ماقوته وما أمانته فقالت أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا لم أر رجلا قط أقوى فى ذلك السقى منه. وأما الامانة فانه نظر الى حين أقبلت اليه وشخصت له فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك. ثم قال لى امشى خلفى وانعتى لى الطريق فلم يفعل هذا إلا وهو أمين فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت فقال له هل لك (أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد ان اشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين) ففعل فكانت على نبى الله موسى ثمان سنين واجبة وكانت السنتان عدة منه فقضى الله عنه عدته فاتمها عشرا. قال سعيد هو ابن جبير فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال هل تدرى أى الأجلين قضى موسى قلت لا وأنا يومئذ لا أدرى فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له فقال أما علمت أن ثمانية كانت على نبى الله واجبة لم يكن نبى الله لينقص منها شيئا وتعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التى وعده فانه قضى عشر سنين فلقيت النصرانى فاخبرته ذلك فقال الذى سألته فاخبرك أعلم منك بذلك قلت أجل وأولى فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصى ويده ماقص الله عليك فى القرآن فشكا الى الله تعالى مايتخوف من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه فانه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام وسأل ربه أن يعينه باخيه هرون يكون له ردأ ويتكلم عنه بكثير مما لايفصح به لسانه فاتاه الله عز وجل وحل عقدة من لسانه وأوحى الله الى هرون فامره أن يلقاه فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هرون فانطلقا جميعا الى فرعون فاقاما على بابه حينا لايؤذن لهما. ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا إنا رسولا ربك فقال فمن ربكما فاخبره بالذى قص الله عليك فى القرآن قال فما تريدان وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت قال أريدان تؤمن بالله وترسل معى بنى إسرائيل فأبى عليه وقال أئت بآية إن كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هى ثعبان عظيمة فاغرة فاها مسرعة الى فرعون فلما رآى فرعون قاصدة اليه خافها وأقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل. ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعنى من غير برص. ثم ردها فعادت الى لونها الأول فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له (هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) يعنى ملكهم الذى هم فيه والعيش وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب وقالوا له إجمع السحرة فانهم بارضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما فارسل الى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم فلما أتوا فرعون قالوا بم يعمل السحر قالوا يعمل بالحيات قالوا فلا والله ما احد من الارض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل وما أجرنا إن نحن غلبنا قال لهم أنتم أقاربى وخاصتى وأنا صانع

اليكم كل شئ أحببتم فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) قال سعيد فحدثنى ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء فلما اجتمعوا فى صعيد قال الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هـذا الامر لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين يعنون موسى وهرون استهزاء بهما فقالوا ياموسى بعد تريثهم بسحرهم (إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين. قال بل ألقوا فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون فرأى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة فأوحى الله اليه أن الق عصاك فلما القاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزا على الثعبان أن تدخل فيه حتى ما أبقت عصا ولا حبلا إلا ابتلعته فلما عرف السحرة ذلك قالوا لو كان هذا سحرا لم تبلغ من سحرنا كل هـذا ولكنه أمر من الله تعالى آمنا بالله وبما جاء به موسى ونتوب الى الله مما كنا عليه فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعوا لله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهمها لموسى فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل فاذا مضت أخلف من غده وقال هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب اليه أن يكفها عنه ويواثقه على أن يرسل معه بنى اسرائيل فاذا كف ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده حتى أمر موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله الى البحر اذا ضربك موسى عبدى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه ثم التق على من بقى بعد من فرعون واشياعه فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصى وانتهى الى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله عز وجل فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى إنا لمدركون إفعل ما أمرك به ربك فانه لم يكذب ولم تكذب قال وعدنى ربى اذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة حتى أجاوزه ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى قال أصحابه إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه فدعا ربه فاخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم (قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون) قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى فانزلهم موسى منزلا

وقال أطيعوا هارون فان الله قد استخلفه عليكم فانى ذاهب الى ربى واجلهم ثلاثين يوما أن يرجع اليهم فيها فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه فى ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره ان يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم فتناول موسى شيئا من نبات الارض فمضغه فقال له ربه حين أتاه لم أفطرت وهو أعلم بالذى كان قال يارب إنى كرهت أن أكلمك الاوفى طيب الريح .قال او ماعلمت ياموسى ان ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك إرجع فصم عشراً ثم ائتنى ففعل موسى ما أمره به ربه فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع اليهم فى الاجل ساءهم ذلك وكان هارون قد خطبهم فقال إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع ولكم فيها مثل ذلك وانا أرى ان تحتسبوا مالكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولاعارية ولسنا برادين اليهم شيئا من ذلك ولا ممسكيه لانفسنا لحفر حفيرا وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أوحلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير. ثم أوقد عليه النار فاحرقه فقال لا يكون لنا ولالهم * وكان السامرى من قوم يعبدون البقر جيران لبنى اسرائيل ولم يكن من بنى اسرائيل فاحتمل مع موسى وبنى اسرائيل حين احتملوا فقضى له أن رأى اثرا فقبض منه قبضة فمر بهارون فقال له هارون ياسامرى الا تلقى مافى يديك وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا ألقيها لشئ الا أن تدعو الله اذا ألقيتها أن يكون ماأريد فالقاها ودعا له هارون فقال أريد أن تكون عجلا فاجتمع ما كان فى الحفرة من متاع أوحلية أونحاس أوحديد فصار عجلا أجوف ليس فيه روح له خوار قال ابن عباس لا والله ماكان فيه صوت قط إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك فتفرق بنو اسرائيل فرقا فقالت فرقة يا سامرى ماهذا وأنت أعلم به قال هذا ربكم ولكن موسى اضل الطريق وقالت فرقة لا نكذب بهذا حتى يرجع الينا موسى فان كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حتى رأيناه وان لم يكن ربنا فانا نتبع قول موسى وقالت فرقة هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق واشرب فرقة فى قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل وأعلنوا التكذيب به فقال لهم هارون عليه السلام ياقوم إنما فتنتم به وان ربكم الرحمن ليس هذا قالوا فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم اخلفنا. هذه أربعون يوما قد مضت قال سفهاؤهم اخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه فلما كلم الله موسى وقال له ما قال أخبره بما لقى قومه من بعده فرجع الى قومه غضبان أسفا فقال لهم ما سمعتم ما فى القرآن (وأخذ برأس أخيه يجره) اليه وألقى الالواح من الغضب ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له فانصرف الى السامرى فقال له ماحملك على ماصنعت (قال قبضت قبضة من أثر الرسول) وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها (وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا) ولو كان إلها لم يخلص الى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة واغتبط

الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هرون فقالوا لجماعتهم ياموسى سل لنا أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا ماعملنا فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك لا يألوا الخير خيار بنى إسرائيل ومن لم يشرك فى الحق فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبى الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما .. فقال لو شئت لأهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمان به فلذلك رجفت بهم الأرض فقال (رحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) فقال يارب سألتك التوبة لقومى فقلت إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى فليتك أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحوم فقال له إن توبتهم أن يقتل كل رجل من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف لا يبالى من قتل فى ذلك الموطن . وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهرون . واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الارض المقدسة وأخذ الالواح بعد ماسكت عنه الغضب فأمرهم بالذى أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها ونتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم وأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون الى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر وذكر من ثمارهم أمراً عجبا من عظمها فقالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم ولا ندخلها ماداموا فيها فان يخرجوا منها فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون قيل ليزيد هكذا قراءه قال نعم من الجبارين آمنا بموسى وخرجنا اليه فقالوا نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فانهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم فادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون ويقول أناس إنهم من قوم موسى فقال الذين يخافون من بنى إسرائيل (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فاغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله لهم وسماهم كما سماهم فاسقين فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعاً وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فى كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عينهم التى يشربون منها فلا يرتحلون من محله إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذى كان فيه بالامس * رفع ابن عباس هذا الحديث الى النبى ص . وصدق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس هذا الحديث فانكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى

قتل قال كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الاسرائيلي الذى حضر ذلك فغضب ابن عباس فاخذ بيد معاوية فانطلق به الى سعد بن مالك الزهرى فقال له ياأبا اسحق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله (ص) عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون . الاسرائيلي الذى أفشى عليه ام الفرعوني قال إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع الاسرائيلي الذى شهد ذلك وحضره هكذا ساق هذا الحديث الامام النسائي وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم فى تفسيرهما من حديث يزيد بن هرون والاشبه والله أعلم أنه موقوف وكونه مرفوعا فيه نظر وغالبه متلق من الاسرائيليات وفيه شئ يسير مصرح برفعه فى أثناء الكلام وفى بعض مافيه نظر و نكارة والاغلب أنه كلام كعب الاحبار

وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك والله أعلم

بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشار وجلود الانعام وشعر الاغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب ولها عشر سرادقات طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعا وعرضه أربعة أذرع ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره وبعمل تابوت من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين ونصفا وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعا ونصفاً ويكون مضبباً بذهب خالص من داخله وخارجه وله أربع حلق فى أربع زواياه ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب يعنون صفة ملكين باجنحة وهما متقابلان صفة رجل اسمه بصليال وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشار طولها ذراعا وعرضها ذراع ونصف لها ضباب ذهب واكليل ذهب بشفة مرتفعة باكليل من ذهب واربع حلق من نواحيها من ذهب مغرزة فى مثل الرمان من خشب ملبس ذهبا واعمل صحافاً ومصافى وقصاعاً على المائدة واصنع منارة من الذهب دلى فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاثة . على كل قصبة ثلاث سرج وليكن فى المنارة أربع قناديل ولتكن هى وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب صنع ذلك بصليال أيضا وهو الذى عمل المذبح أيضا ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم وهو أول يوم من الربيع ونصب تابوت الشهادة وهو والله أعلم المذكور فى قوله تعالى (ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) وقد بسط هذا الفصل فى كتابهم مطولا جداً وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم وكيفيته وفيه ان قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذى هو متقدم على مجئ بيت المقدس وانها كانت لهم كالكعبة

يصلون فيها واليها ويتقربون عندها وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها وينزل عمود الغام على بابها فيخرون عند ذلك سجدا لله عز وجل ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغام الذى هو نور ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد الى مابين الكروبين فاذا فصل الخطاب يخبر بنى اسرائيل بما أوحاه الله عز وجل اليه من الاوامر والنواهى وإذا تحاكموا اليه فى شئ ليس عنده من الله فيه شئ يجئ الى قبة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة وقد كان هذا مشروعاً لهم فى زمانهم أعنى استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ فى معبدهم وعند مصلاهم فاما فى شريعتنا فلا بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما وسع فى مسجد رسول الله ﷺ للذى وكله على عمارته ابن الناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس * وقال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه فهذه الامة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم اذ جمع الله همهم فى صلاتهم على التوجه اليه والاقبال عليه وصان ابصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر فى غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة فلله الحمد والمنة وقد كانت قبة الزمان هذه مع بنى اسرائيل فى التيه يصلون اليها وهى قبلتهم وكعبتهم وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام * فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمرت بنو هارون فى الذى كان يليه أبوهم من أمر القربان وهو فيهم الى الان وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الامر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام وهو الذى دخل بهم بيت المقدس كما سيأتى بيانه والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلون اليها فلما بادت صلوا الى محلتها وهى الصخرة فلهذا كانت قبلة الانبياء بعده الى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى اليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة وكان يجعل الكعبة بين يديه * فلما هاجر أمر بالصلاة الى بيت المقدس فصلى اليها ستة عشر * وقيل سبعة عشر شهرا * ثم حولت القبلة الى الكعبة وهى قبلة ابراهيم فى شعبان سنة ثنتين فى وقت صلاة العصر وقيل الظهر كما بسطنا ذلك فى التفسير عند قوله تعالى سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها الى قوله قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام . الآيات

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندى أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . واصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) قال الاعمش عن المنهال بن عمرو ابن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان قارون بن عم موسى وكذا قال ابراهيم النخعى وعبد الله ابن الحرث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك ابن دينار وابن جريج وزاد فقال هو قارون بن يصهر بن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث . قال ابن جريج وهذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى . ورد قول ابن اسحاق إنه كان عم موسى قال قتادة وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى فاهلكه البغى لكثرة ماله . وقال شهر بن حوشب زاد فى ثيابه شبرا طولا ترفعا على قومه . وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على القيام من الرجال الشداد وقد قيل إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلا فالله أعلم وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين لا تفرح أى لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك (ان الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) يقولون لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله فى الدار الاخرة فانه خير وأبقى ومع هذا (لا تنس نصيبك من الدنيا) أى وتناول منها بمالك ما أحل الله لك فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال (واحسن كما أحسن الله اليك) أى واحسن الى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم اليك (ولا تبغ الفساد فى الارض) أى ولا تسئ اليهم ولا تفسد فيهم فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ماوهبك (ان الله لا يحب المفسدين) فما كان جواب قومه . لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن (قال إنما أوتيته على علم عندى) يعنى أنا لا أحتاج الى استعمال ما ذكرتم ولا الى ما اليه أشرتم فان الله إنما أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه وأنى أهل له ولولا أنى حبيب اليه وحظى عنده لما

أعطانى ما أعطانى قال الله تعالى ردا عليه ما ذهب اليه (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) أى قد أهلكنا من الامم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالا وأولادا فلو كان ماقال صحيحا لم نعاقب أحدا ممن كان أكثر مالا منه ولم يكن ماله دليلا على محبتنا له واعتنائنا به كما قال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا) وقال تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون) وهذا الرد عليه يدل على صحة ماذهبنا اليه من معنى قوله (إنما أوتيته على علم عندى) وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء أو أنه كان يحفظ الاسم الاعظم فاستعمله فى جمع الاموال فليس بصحيح لان الكيمياء تخييل وصبغة لاتحيل الحقائق ولا تشابه صنعة الخالق والاسم الاعظم لايصعد الدعاء به من كافر به وقارون كان كافرا فى الباطن منافقا فى الظاهر . ثم لايصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير ولا يبقى بين الكلامين تلازم وقد وضحنا هذا فى كتابنا التفسير ولله الحمد . قال الله تعالى (فخرج على قومه فى زينته) ذكر كثير من المفسرين أنه خرج فى تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الالباء قالوا لهم (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) أى ثواب الله فى الدار الاخرة خير وأبقى وأجل وأعلى قال الله تعالى ولا يلقاها إلا الصابرون أى وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية الى الدار الاخرة العلية عند النظر الى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده وما أحسن ماقال بعض السلف إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات . قال الله تعالى فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . لما ذكر تعالى خروجه فى زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال فخسفنا به وبداره الارض كما روى البخارى من حديث الزهرى عن سالم عن أبيه عن النبى (ص) قال بينا رجل يجر ازاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الارض الى يوم القيامة . ثم رواه البخارى من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبى هريرة عن النبى (ص) نحوه . وقد ذكر ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو فى ملأ من الناس إنك فعلت بى كذا وكذا فيقال إنها قالت له ذلك فارعد من الفرق وصلى ركعتين . ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك وما حملك عليه فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت اليه فعند ذلك خر موسى لله ساجدا ودعا الله على قارون فاوحى الله اليه انى قد أمرت الارض أن تطيعك فيه فامر موسى الارض أن تبتلعه وداره فكان ذلك فالله أعلم وقد قيل إن قارون لما خرج على قومه فى زينته مر

بمحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام وهو يذكر قومه بأيام الله فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون اليه فدعا موسى عليه السلام فقال له ما حملك على هذا فقال ياموسى أما لئن كنت فضلت على بالنبوة فلقد فضلت عليك بالمال ولئن شئت لتخرجن فلتدعون على ولأدعون عليك فخرج وخرج قارون فى قومه فقال له موسى تدعو أوأدعو قال ادعو أنا فدعى قارون فلم يجب فى موسى فقال موسى أدعو قال نعم فقال موسى اللهم مر الارض فلتطعنى اليوم فأوحى الله اليه إنى قد فعلت فقال موسى ياأرض خذيهم فأخذتهم الى أقدامهم ثم قال خذيهم فأخذتهم الى ركبهم ثم الى مناكبهم ثم قال اقبلى بكنوزهم وأموالهم فأقبلت بها حتى نظروا اليها ثم أشار موسى بيده فقال اذهبوا بنى لاوى فاستوت بهم الارض . وقد روى عن قتادة أنه قال يخسف بهم كل يوم قامة الى يوم القيامة . وعن ابن عباس أنه قال خسف بهم الى الارض السابعة .وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا إسرائيليات كثيرة اضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً . وقوله تعالى (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال (فماله من قوة ولاناصر) ولما حل به ماحل من الخسف وذهاب الاموال وخراب الدار واهلاك النفس والاهل والعقار ندم من كان تمنى مثل ماأوتى وشكروا الله تعالى الذى يدبرعباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ولهذا قالوا (لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويك انه لايفلح الكافرون) وقد تكلمنا على لفظ ويك فى التفسير وقد قال قتادة ويكأن بمعنى ألم تران وهذا قول حسن من حيث المعنى والله أعلم . ثم أخبر تعالى (أن الدار الاخرة) وهى دار القرار وهى الدار التى يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها إنما هى معدة للذين لايريدون علواً فى الأرض ولا فسادا . فالعلو هو التكبر والفخر والاشر والبطر والفساد هو عمل المعاصى اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وافساد معايشهم والاساءة اليهم وعدم النصح لهم ثم قال تعالى (والعاقبة للمتقين) وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله فخسفنا به وبداره الأرض فان الدار ظاهرة فى البنيان وقد تكون بعد ذلك فى التيه وتكون الدار عبارة عن المحلة التى تضرب فيها الخيام كما قال عنترة .

يادارَ عبلةَ بالجَواءِ تكلَّمي ＊＊ وعِمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي

والله أعلم . وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون فى غير ما آية من القرآن . قال الله (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) وقال تعالى فى سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود . وقارون وفرعون وهامان (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات فاستكبروا فى الارض وما كانوا سابقين فكلا اخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)فالذى خسف به

الارض قارون كما تقدم والذى أغرق فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين . وقد قال الامام احمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا سعيد حدثنا كعب بن علقمة عن عيسى بن هلال الصدفى عن عبد الله بن عمرو عن النبى (ص) أنه ذكر الصلاة يوما فقال من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وابى بن خلف . انفرد به احمد رحمه الله .

باب فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ووفاته

قال الله تعالى (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) . وقال تعالى قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) . وتقدم فى الصحيحين عن رسول الله (ص) أنه قال لا تفضلونى على موسى فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدرى أصعق فافاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور . وقدمنا أنه من رسول الله (ص) من باب الهضم والتواضع وإلا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم فى الدنيا والاخرة قطعا جزما لايحتمل النقيض . وقال تعالى (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط) الى أن قال (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) قال الأمام أبو عبد الله البخارى حدثنا اسحق بن ابراهيم بن روح بن عبادة عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لايرى جلده شئ استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى اسرائيل فقالوا مايستتر هذا التستر الامن عيب بجلده إما برص أو أدرة واما آفة وأن الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر * ثم اغتسل فلما فرغ اقبل على ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى الى ملأ من بنى اسرائيل فرأوه عريانا احسن ماخلق الله وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا قال فذلك قوله عز وجل ياايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) . وقد رواه الأمام احمد من حديث عبد الله بن شقيق وهمام بن منبه عن أبى هريرة به وهو فى الصحيحين من حديث عبدالرزاق عن معمر عن همام عنه به ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلى عنه *

قال بعض السلف كان من وجاهته أنه شفع فى أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه الله الى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً كما قال (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) ثم قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة حدثنا الأعمش سألت أبا وائل قال سمعت عبد الله قال قسم رسول الله (ص) قسما فقال رجل إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأتيت النبى (ص) فغضب حتى رأيت الغضب فى وجهه ثم قال يرحم الله موسى قد أوذى باكثر من هذا فصبر . وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الاعمش به . وقال الامام أحمد حدثنا أحمد بن حجاج سمعت اسرائيل ابن يونس عن الوليد بن أبى هاشم مولى لهمدان عن زيد بن أبى زائد عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (ص) لأصحابه لا يبلغنى أحد عن أحد شيئا فانى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر قال وأتى رسول الله (ص) مال فقسمه قال فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة فتثبت حتى سمعت ماقالا . ثم اتيت رسول الله فقلت يارسول الله إنك قلت لنا لا يبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا وانى مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا فاحمر وجه رسول الله (ص) وشق عليه . ثم قال دعنا منك فقد أوذى موسى أكثر من ذلك فصبر . وهكذا رواه أبو داود والترمذى من حديث اسرائيل عن الوليد بن ابى هاشم به وفى رواية الترمذى ولأبى داود من طريق ابن عبد عن اسرائيل عن السدى عن الوليد به وقال الترمذى غريب من هذا الوجه . وقد ثبت فى الصحيحين فى أحاديث الاسراء أن رسول الله (ص) مر بموسى وهو قائم يصلى فى قبره . ورواه مسلم عن أنس . وفى الصحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبى (ص) أنه مر ليلة أسرى به بموسى فى السماء السادسة فقال له جبريل هذا موسى فسلم عليه قال فسلمت عليه فقال مرحبا بالنبى الصالح والاخ الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك قال أبكى لان غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى . وذكر ابراهيم فى السماء السابعة . وهذا هو المحفوظ وماوقع فى حديث شريك ابن أبى نمر عن أنس من أن ابراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة بتفضيل كلام الله فقد ذكر غير واحد من الحفاظ أن الذى عليه الجادة أن موسى فى السادسة وابراهيم فى السابعة وانه مسند ظهره الى البيت المعمور الذى يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لايعودون اليه آخر ما عليهم . واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد (ص) وامته خمسين صلاة فى اليوم والليلة فمر بموسى قال ارجع الى ربك فسله التخفيف لأمتك فانى قد عالجت بنى اسرائيل قبلك أشد المعالجة وان امتك اضعف اسماعا وابصارا وافئدة فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه فى كل مرة حتى صارت الى خمس صلوات فى اليوم والليلة وقال الله تعالى هى خمس وهى خمسون أى بالمضاعفة فجزى الله عنا محمدا (ص) خيراً وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً . وقال البخاري حدثنا مسدد حدثنا حصين

ابن نمير عن حصين بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خرج علينا رسول الله (ص) يوما فقال عرضت على الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الافق فقيل هذا موسى فى قومه . هكذا روى البخارى هذا الحديث ههنا مختصراً وقد رواه الامام أحمد مطولا فقال حدثنا شريح حدثنا هشام حدثنا حصين بن عبد الرحمن . قال كنت عند سعيد بن جبير فقال أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة قلت أنا ثم قلت إنى لم أكن فى صلاة ولكن لدغت . قال وكيف فعلت قلت استرقيت . قال وما حملك على ذلك قال قلت حديث حدثناه الشعبى عن بريدة الاسلمى أنه قال لا رقية الامن عين أوحمة فقال سعيد يعنى ابن جبير قد أحسن من انتهى الى ما سمع ثم قال حدثنا ابن عباس عن النبى (ص) قال عرضت على الامم فرأيت النبى ومعه الرهط والنبى معه الرجل والرجلان والنبى وليس معه أحد اذرفع لى سواد عظيم فقلت هذه أمتى فقيل هذا موسى وقومه ولكن انظر الى الافق فاذا سواد عظيم * ثم قيل انظر إلى هذا الجانب فاذا سواد عظيم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض رسول الله (ص) فدخل فخاض القوم فى ذلك فقالوا من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم لعلهم الذين صحبوا النبى (ص). وقال بعضهم لعلهم الذين ولدوا فى الاسلام ولم يشركوا بالله شيئا قط وذكروا أشياء فخرج اليهم رسول الله (ص) فقال ما هذا الذى كنتم تخوضون فيه فأخبروه بمقالتهم فقال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محيصن الاسدى فقال أنا منهم يارسول الله قال أنت منهم * ثم قام آخر فقال أنا منهم يا رسول الله فقال سبقك بها عكاشة . وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً وهو فى الصحاح والحسان وغيرها وسنوردها إن شاء الله تعالى فى باب صفة الجنة عند ذكر احوال القيامة وأهوالها . وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام فى القرآن كثيراً واثنى عليه واورد قصته فى كتابه العزيز مراراً وكررها كثيراً مطولة ومبسوطة ومختصرة واثنى عليه بليغا . وكثيراً مايقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمد (ص) وكتابه كما قال فى سورة البقرة (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) وقال تعالى (الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وانزل الفرقان ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام) وقال تعالى فى سورة الانعام (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون . وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر ام القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون) فاثنى تعالى على التوراة ثم مدح

القرآن العظيم مدحاً عظيما وقال تعالى فى آخرها (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شئ وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون . وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وقال تعالى فى سورة المائدة (إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون) الى أن قال (وليحكم أهل الأنجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئكم الفاسقون . وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه الآية) فجعل القرآن حا كما على سائر الكتب غيره وجعله مصدقا لها ومبينا ماوقع فيها من التحريف والتبديل فان أهل الكتاب استحفظو على ما بايديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها فلهذا دخلها مادخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فهومهم وقصورهم فى علومهم ورداءة قصودهم وخيانتهم لمعبودهم عليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة ولهذا يوجد فى كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله مالا يحد ولا يوصف ومالا يوجد مثله ولايعرف . وقال تعالى فى سورة الانبياء (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفانتم له منكرون) وقال الله تعالى فى سورة القصص . (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عندالله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) . فاثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام . وقالت الجن لقومهم إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى . وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ص خبر ما رأى من الاول الوحى وتلا عليه (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم) قال سبوح سبوح هذا الناموس الذى انزل على موسى بن عمران.

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة وامته كانت أمة كثيرة ووجد فيها انبياء وعلماء وعباد وزهاد وألباء وملوك وأمراء وسادات وكبراء . لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ولكن سنورد مافيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان

حجته عليه السلام الى البيت العتيق

قال الامام احمد حدثنا هشام حدثنا داود بن أبي هند عن أبي العالية عن ابن عباس أن رسول الله (ص) مر بوادي الازرق فقال أي واد هذا . قالوا وادي الازرق . قال كأني أنظر الى موسى وهو هابط من الثنية وله جؤار الى الله عز وجل بالتلبية حتى أتى على ثنية هرشاء . فقال أي ثنية هذه قالوا هذه ثنية هرشاء قال كأني أنظر الى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة . قال هشيم يعني ليفاً وهو يلبي . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به . وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعا إن موسى حج على ثور أحمر وهذا غريب جداً . وقال الامام احمد حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن مجاهد قال كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال فقال إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال مايقولون قال يقولون مكتوب بين عينيه (ك ف ر) فقال ابن عباس لم أسمعه قال ذلك ولكن . قال أما ابراهيم فانظروا الى صاحبكم . وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأني أنظر اليه وقد انحدر من الوادي يلبي قال هشيم الخلبة الليف ثم رواه الامام احمد عن أسود عن إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) رأيت عيسى بن مريم وموسى وابراهيم فأما عيسى فأبيض جعد عريض الصدر . وأما موسى فآدم جسيم . قالوا فابراهيم قال أنظروا الى صاحبكم . وقال الامام احمد حدثنا يونس حدثنا شيبان قال حدث قتادة عن أبي العالية حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال قال نبي الله (ص) رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلا طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق الى الحمرة والبياض سبط الرأس وأخرجاه من حديث قتادة به . وقال الامام احمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر قال الزهري وأخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) حين أسري به لقيت موسى فنعته فقال رجل قال حسبته قال مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة . ولقيت عيسى . فنعته رسول الله (ص) فقال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعني حماما قال ورأيت ابراهيم وأنا أشبه ولده . به الحديث . وقد تقدم غالب هذه الاحاديث في ترجمة الخليل

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخاري في صحيحه (وفاة موسى عليه السلام) حدثنا يحيى بن موسى حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال أرسل ملك الموت الى موسى عليه السلام فلما جاءه

صكه فرجع الى ربه عز وجل فقال أرسلتنى الى عبد لايريد الموت قال ارجع اليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال أى رب ثم ماذا قال ثم الموت قال فالآن قال فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الارض المقدسة رمية بحجر . قال أبو هريرة فقال رسول الله (ص) فلو كنت ثم لأريتكم قبره الى جانب الطريق عند الكثيب الاحمر . قالوأنبأنا معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى (ص) نحوه . وقد روى مسلم الطريق الاول من حديث عبد الرزاق به ورواه الامام أحمد من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبى عمار عن أبى هريرة مرفوعا وسيأتى . وقال الامام احمد حدثنا الحسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس يعنى سليم بن جبير عن أبى هريرة قال الامام أحمد لم يرفعه . قال جاء ملك الموت الى موسى عليه السلام فقال أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها . فرجع الملك الى الله فقال إنك بعثتنى الى عبد لك لايريد الموت . قال وقد فقأ عينى قال فرد الله عينه وقال ارجع الى عبدى فقل له الحياة تريد فان كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعره فانك تعيش بها سنة قال ثم مه قال ثم الموت قال فالآن يارب من قريب . تفرد به احمد وهو موقوف بهذا اللفظ . وقد رواه ابن حبان فى صحيحه من طريق معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبى هريرة قال معمر وأخبرنى من سمع الحسن عن رسول الله فذكره ثم استشكاه ابن حبان وأجاب عنه بما حاصله أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام كما جاء جبريل فى صورة أعرابى وكما وردت الملائكة على ابراهيم ولوط فى صورة شباب فلم يعرفهم ابراهيم ولا لوط أولا وكذلك موسى لعله لم يعرفه لذلك ولطمه ففقأ عينه لانه دخل داره بغير أذنه وهذا موافق لشريعتنا فى جواز فقء عين من نظر اليك فى دارك بغير اذن * ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) جاء ملك الموت الى موسى ليقبض روحه قال له أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه وذكر تمام الحديث كما أشار اليه البخارى ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه قال له أجب ربك وهذا التأويل لايتمشى على ماورد به اللفظ من تعقيب قوله أجب ربك بلطمه ولو أستمر على الجواب الاول لتمشى له وكأنه لم يعرفه فى تلك الصورة ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق اذ لم يتحقق فى الساعة الراهنة أنه ملك كريم لانه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها فى حياته من خروجه من التيه ودخولهم الارض المقدسة وكان قد سبق فى قدرة الله أنه عليه السلام يموت فى التيه بعد هرون أخيه كما سنبينه إن شاء الله تعالى . وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذى خرج بهم من التيه ودخل بهم الارض المقدسه . وهذا خلاف ماعليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين . ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت رب أدننى الى الارض المقدسة رمية حجر . ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه

السلام أحب أن يتقرب الى الارض التى هاجر اليها وحث قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر ولهذا قال سيد البشر . ورسول الله الى أهل الوبر والمدر. فلو كنت ثم لاريتكم قبره عند الكثيب الاحمر . وقال الامام حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت وسليمان التيمى عن أنس بن مالك إن رسول الله (ص) قال لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الاحمر ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به وقال السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا ثم إن الله تعالى أوحى الى موسى إنى متوف هرون فائت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهرون نحو ذلك الجبل فاذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها واذا هم ببيت مبنى وإذا هم بسرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هرون الى ذلك الجبل والبيت ومافيه أعجبه قال ياموسى إنى أحب أن أنام على هذا السرير قال له موسى قم عليه قال إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب على قال له لاترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم . قال ياموسى نم معى فان جاء رب هذا البيت غضب على وعليك جميعاً . فلما ناما أخذ هرون الموت فلما وجد حسه قال ياموسى خدعتنى فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به الى السماء فلما رجع موسى الى قومه وليس معه هرون قالوا فان موسى قتل هرون وحسده حب بنى إسرائيل له وكان هرون أكف عنهم والين لهم من موسى وكان فى موسى بعض الغلظة عليهم فلما بلغه ذلك قال لهم ويحكم كان أخى أفترونى أقتله . فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا اليه بين السماء والأرض . ثم إن موسى عليه السلام بينا هو يمشى ويوشع فتاه اذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر اليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى وقال تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبى الله فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص فى يدى يوشع . فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا قتلت نبى الله . فقال لا والله ماقتلته ولكنه أستل منى فلم يصدقوه وأرادوا قتله . قال فاذا لم تصدقونى فاخرونى ثلاثة أيام فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه فى المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى وإنا قد رفعناه الينا فتركوه ولم يبق احد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى الامات ولم يشهد الفتح وفى بعض هذا السياق نكارة وغرابة والله أعلم . وقد قدمنا أنه لم يخرج احد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وهو زوج مريم أخت موسى وهرون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم اللذان أشارا على ملأ بنى إسرائيل بالدخول عليهم وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفرون قبرا فلم يرا حسن منه ولا أنضر ولا أبهج فقال يالملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر فقالوا لعبد من عباد الله كريم فان كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه وتوجه الى ربك وتنفس أسهل تنفس ففعل ذلك فمات صلوات الله

وسلامه عليه فصلت عليه الملائكة ودفنوه * وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة وقد قال الامام أحمد حدثنا أمية بن خالد ويونس قالا حدثنا حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال يونس رفع هذا الحديث الى النبي (ص) قال كان ملك الموت يأتي الناس عيانا قال فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه فأتى ربه فقال يارب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لعنت عليه . وقال يونس لشققت عليه . قال له اذهب الى عبدي . فقل له فليضع يده على جلد (أو) مسك ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة فأتاه فقال له فقال مابعد هذا قال الموت قال فالآن قال فشمه شمة فقبض روحه . قال يونس فرد الله عليه عينه وكان يأتي الناس خفية * وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به فرفعه أيضا

نبوة يوشع وقيامه باعباء بني اسرائيل بعد موسى وهرون

هو يوشع بن نون بن أفرائيم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابرهيم الخليل عليهم السلام واهل الكتاب يقولون يوشع بن عم هود وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر كما تقدم من قوله (وإذ قال موسى لفتاه * فلما جاوزا قال لفتاه) وقدمنا ماثبت في الصحيح من رواية أبي ابن كعب رضي الله عنه عن النبي (ص) من أنه يوشع بن نون وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب فان طائفة منهم وهم السامرة لايقرون بنبوة أحد بعد موسى الا يوشع بن نون لانه مصرح به في التوراة ويكفرون بما وراءه وهو الحق من ربهم فعليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة .

واما ماحكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن اسحق من أن النبوة حولت من موسى الى يوشع في آخر عمر موسى فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما احدث الله من الاوامر والنواهي حتى قال له يا كليم الله إني كنت لا اسألك عما يوحي الله اليك حتى تخبرني انت ابتداء من تلقاء نفسك فعند ذلك كره موسى الحياة واحب الموت ففي هذا نظر لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله اليه من جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل ولم يزل معززاً مكرما مدللا وجيهاً عند الله كما قدمنا في الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت ثم بعثه الله اليه ان كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها قال ثم ماذا قال الموت قال فالآن يارب وسأل الله أن يدنيه الى بيت المقدس رمية بحجر وتعاجيب الى ذلك صلوات الله وسلامه عليه

فهذا الذى ذكره محمد بن اسحق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب فنى كتابهم الذى يسمونه التوراة أن الوحى لم يزل ينزل على موسى فى كل حين يحتاجون اليه الى آخر مدة موسى كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة فى قبة الزمان . وقد ذكروا فى السفر الثالث أن الله أمر موسى وهارون أن يعدّ ابنى اسرائيل على اسباطهم وان يجعلا على كل سبط من الاثنى عشر أميراً وهوالنقيب وما ذاك الا ليتأهبوا القتال قتال الجبارين عند الخروج من التيه وكان هذا عند أقتراب انقضاء الاربعين سنة . ولهذا قال بعضهم إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت لانه لم يعرفه فى صورته تلك ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجى وقوعه فى زمانه ولم يكن فى قدر الله أن يقع ذلك فى زمانه بل فى زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام كما أن رسول الله (ص) كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك ثم رجع عامه ذلك فى سنة تسع . ثم حج فى سنة عشر ثم رجع فجهز . جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه ثم كان على عزم الخروج اليهم امتثالا لقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ولما جهز رسول الله جيش أسامة توفى عليه الصلاة والسلام واسامة مخيم بالجرف فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثم لما لمّ شعث جزيرة العرب وما كان دهى من أمر اهلها وعاد الحق إلى نصابه جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس والى الشام أصحاب قيصر ملك الروم ففتح الله لهم ومكن لهم وبهم وملكهم نواصى اعدائهم كما سنورده عليك فى موضعه اذا انتهينا اليه مفصلا إن شاء الله بعونه وتوفيقه وحسن ارشاده * وهكذا موسى عليه السلام كان الله قد أمره أن يجند بنى إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم أثنى عشر نقيبا) وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسناً لأكفرن عنكم سيآتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) يقول لهم لئن قمتم بما أوجبت عليكم ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة لأجعلن ثواب هذه مكفرا لما وقع عليكم من عقاب تلك كما قال تعالى لمن تخلف من الاعراب عن رسول الله (ص) فى غزوة الحديبية « قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً اليماً » وهكذا قال تعالى لبنى إسرائيل (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم فى دينهم وأديانهم . وقد ذكرنا ذلك فى التفسير مستقصى ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بنى إسرائيل ممن يحمل

السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعدا وأن يجعل على كل سبط نقيبا منهم . السبط الاول سبط روبيل لانه بكر يعقوب كان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين الفا وخمسمائة . ونقيبهم منهم وهو اليصور ابن شديئورا . السبط الثانى سبط شمعون وكانوا تسعة وخمسين الفا وثلاثمائة . ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداى . السبط الثالث سبط يهوذا وكانوا أربعة وسبعين الفاً وستمائة . ونقيبهم نحشون بن عيناداب . السبط الرابع سبط ايساخر وكانوا أربعة وخمسين الفاً وأربعمائة ونقيبهم نثائيل بن صوغر . السبط الخامس سبط يوسف عليه السلام وكانوا أربعين الفاً وخمسمائة ونقيبهم يوشع بن نون . السبط السادس سبط ميشا وكانوا أحدا وثلاثين الفا ومائتين ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور . السبط السابع سبط بنيامين وكانوا خمسة وثلاثين الفاً وأربعمائة ونقيبهم أبيدن بن جدعون . السبط الثامن سبط حاد وكانوا خمسة وأربعة الفاً وستمائة وخمسين رجلا ونقيبهم الياساف بن رعوئيل . السبط التاسع سبط أشير وكانوا أحدا وأربعين الفاً وخمسمائة ونقيبهم فجيئيل بن عكرن . السبط العاشر سبط دان وكانوا إثنين وستين الفاً وسبعمائة ونقيبهم أخيعزر ابن عشداى . السبط الحادى عشر سبط نفتالى وكانوا ثلاثة وخمسين الفاً وأربعمائة . ونقيبهم أخيرع بن عين السبط الثانى عشر سبط زبولون وكانوا سبعة وخمسين الفاً وأربعمائة ونقيبهم الياب بن حيلون . هذا نص كتابهم الذى بايديهم والله أعلم . وليس منهم بنو لاوى فامر الله موسى أن لايعدهم معهم لانهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها ونصبها وحملها اذا ارتحلوا وهم سبط موسى وهرون عليهما السلام وكانوا اثنين وعشرين الفا من ابن شهر فما فوق ذلك * وهم فى أنفسهم قبائل الى كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها وهم كلهم حولها ينزلون ويرتحلون أمامها وعنتها وشمالها ووراءها . وجملة ماذكر من المقاتلة غير بنى لاوى خمسمائة الف وأحد وسبعون الفا وستمائة وستة وخمسون لكن قالوا فكان عدد بنى إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمائة الف وثلاثة الاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلا سوى بنى لاوى وفى هذا نظر فان جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا فى كتابهم لا تطابق الجملة التى ذكروها والله أعلم . فكان بنو لاوى الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون فى وسط بنى إسرائيل وهم القلب ورأس الميمنة بنو روبيل ورأس الميسرة بنوران وبنو نفتالى يكونون ساقة وقرر موسى عليه السلام بامرالله تعالى له الكهانة فى بنى هرون كما كانت لابيهم من قبلهم وهم نداب وهو بكره وأبيهو والعازر ويثمر . والمقصود أن بنى إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) قاله الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس وقاله قتادة وعكرمة ورواه السدى عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف ومات موسى وهرون قبله كلاهما فى التيه جميعا وقد زعم ابن اسحق أن الذى فتح بيت المقدس

هو موسى وإنما كان يوشع على مقدمته وذكر فى مروره اليها قصة بلعام بن باعور الذى قال تعالى فيه (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) وقد ذكرنا قصته فى التفسير وأنه كان فيما قاله ابن عباس وغيره يعلم الاسم الاعظم وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه فامتنع عليهم ولما ألحوا عليه ركب حمارة له . ثم سار نحو معسكر بنى إسرائيل فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت فسارت غير بعيد وربضت فضربها ضربا أشد من الاول فقامت ثم ربضت فضربها فقالت له يابلعام أين تذهب أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا أتذهب الى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسبان . ونظر الى معسكر موسى وبنى إسرائيل فاخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لايطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ويدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك فاعتذر اليهم بانه لايجرى على لسانه إلا هذا واندلع لسانه حتى وقع على صدره وقال لقومه ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة . ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالامتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم حتى لعلهم يقعون فى الزنا فانه متى زنى رجل منهم كفيتموهم ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوهن الى المعسكر فمرت إمرأة منهم اسمها كستى برجل من عظماء بنى إسرائيل وهو زمرى بن شلوم. يقال إنه كان رأس سبط بنى شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بنى إسرائيل فجعل يجوس فيهم فلما بلغ الخبر الى فنحاص بن العزار بن هرون أخذ حربته وكانت من حديد فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعاً فيها ثم خرج بهما على الناس والحربة فى يده وقد اعتمد على خاصرته وأسندها الى لحيته ورفعها نحو السماء وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فكان جملة من مات فى تلك الساعة سبعين الفا والمقلل يقول عشرين الفا وكان فنحاص بكر أبيه العزار ابن هرون فلهذا يجعل بنو اسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة الية والذراع واللحى ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم . وهذا الذى ذكره ابن اسحق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية ولعله مراد ابن اسحاق ولكنه مافهمه بعض الناقلين عنه وقد قدمنا عن نص التوراة مايشهد لبعض هذا والله أعلم . ولعل هذه قصة أخرى كانت فى خلال سيرهم فى التيه فان فى هذا السياق ذكر حسبان وهى بعيدة عن أرض بيت المقدس أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون حين خرج بهم من التيه قاصدا بيت المقدس كما صرح به السدى . والله أعلم . وعلى كل تقدير فالذى عليه الجمهور أن هرون توفى بالتيه

قبل موسى أخيه بنحو من سنتين . وبعده موسى فى التيه أيضا كما قدمنا وانه سأل ربه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك فكان الذى خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع بنى اسرائيل نهر الاردن وانتهى الى أريحا وكانت من أحصن المدائن سوراً واعلاها قصوراً واكثرها أهلا فحاصرها ستة أشهر . ثم إنهم أحاطوا بها يوما وضربوا بالقرون يعنى الابواق وكبروا تكبيرة رجل واحد فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة فدخلوها وأخذوا ماوجدوا فيها من الغنائم وقتلوا إثنى عشر ألفاً من الرجال والنساء وحاربوا ملوكا كثيرة . ويقال إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكا من ملوك الشام . وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر . فلما غربت الشمس أوكادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذى جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان قال لها إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها على فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد وأمر القمر فوقف عند الطلوع وهذا يقتضى أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر والاول وهو قصة الشمس المذكورة فى الحديث الذى سأذكره . وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب ولاينا فى الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولاتكذب ولكن ذكرهم أن هذا فى فتح اريحا فيه نظر والاشبه والله أعلم أن هذا كان فى فتح بيت المقدس الذى هو المقصود الأعظم وفتح اريحا كان وسيلة اليه والله أعلم .

قال الامام احمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالى سار إلى بيت المقدس . انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخارى . وفيه دلالة على أن الذى فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى وان حبس الشمس كان فى فتح بيت المقدس لا اريحا كما قلنا . وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام فيدل على ضعف الحديث الذى رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى على بن أبى طالب صلاة العصر بعد مافاتته بسبب نوم النبى (ص) على ركبته فسأل رسول الله أن يردها عليه حتى يصلى العصر فرجعت . وقد صححه على بن صالح المصرى ولكنه منكر ليس فى شئ من الصحاح ولا الحسان وهو مما تتوفر الدواعى على نقله وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها والله اعلم . وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) غزا نبى من الانبياء فقال لقومه لايتبعنى رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن . ولا آخر قد بنى بنيانا ولم يرفع سقفها ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريبا من ذلك فقال للشمس أنت مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها على شيئا فحبست عليه حتى فتح الله عليه فجمعوا ماغنموا فأتت النار لتأكله فابت أن تطعمه

قال فيكم غلول فليبايعني من كل قبيلة رجل فبايعوه فلصقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول ولتبايعني قبيلتك فبايعته قبيلته فلصق يد رجلين أو ثلاثة فقال فيكم الغلول أنتم غللتم فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب قال فوضعوه بالمال وهو بالصعيد فاقبلت النار فأكلته فلم تحل الغنائم لاحد من قبلنا ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا . انفرد به مسلم من هذا الوجه . وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن سعيد المقبرى عن أبي هريرة عن النبي (ص) نحوه . قال ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى قال ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي (ص) . والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجدا أي ركعا متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما من به عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله وعدهم اياه وان يقولوا حال دخولهم حطة أي حط عنا خطايانا التي سلفت من نكولنا الذي تقدم منا . ولهذا لما دخل رسول الله (ص) مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقته وهو متواضع حامد شاكر حتى أن عثنونه وهو طرف لحيته ليمس مورك رحله مما يطأطئ رأسه خضوعا لله عز وجل ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله (ص) ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثماني ركعات وهي صلاة الشكر على النصر على المنصور من قولي العلماء . وقيل إنها صلاة الضحى وما حمل هذا القائل على قوله هذا الا لانها وقت وقت الضحى . واما بنو اسرائيل فانهم خالفوا ما أمروا به قولا وفعلا دخلوا الباب يزحفون على أستاههم يقولون حبة في شعرة وفي رواية حنطة في شعرة . وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزؤا به كما قال تعالى حاكيا عنهم في سورة الاعراف وهي مكية ﴿وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فارسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون﴾ وقال في سورة البقرة وهي مدنية مخاطبا لهم ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فانزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ . وقال الثورى عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وادخلوا الباب سجدا قال ركعا من باب صغير . رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم وكذا روى العوفي عن ابن عباس وكذا روى الثورى عن ابن اسحق عن البراء . قال مجاهد والسدى والضحاك والباب هو باب حطة من بيت ايلياء بيت المقدس . قال ابن مسعود فدخلوا مقنعي رؤوسهم ضد ما أمروا به وهذا لا ينافي قول ابن عباس أنهم دخلوا يزحفون على استاههم. وهكذا في الحديث الذي سنورده بعد فانهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رؤسهم . وقوله وقولوا حطة الواو هنا حالية لا عاطفة أي ادخلوا سجدا في حال قولكم حطة . قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع

أمروا أن يستغفروا * قال البخارى حدثنا محمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن بن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى «ص» قال قيل لبنى اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على استاههم فبدلوا وقالوا حطة حبة فى شعرة . وكذا رواه النسائى من حديث ابن المبارك ببعضه ورواه عن محمد بن اسماعيل بن ابراهيم عن ابن مهدى به موقوفا . وقد قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله «ص» قال الله لبنى اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة تغفر لكم خطاياكم فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على استاههم فقالوا حبة فى شعرة . ورواه البخارى ومسلم والترمذى من حديث عبد الرزاق وقال الترمذى حسن صحيح . وقال محمد بن اسحاق كان تبديلهم كما حدثنى صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول الله «ص» قال دخلوا الباب الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجدا يزحفون على استاههم وهم يقولون حنطة فى شعيرة . وقال اسباط عن السدى عن مرة عن ابن مسعود قال فى قوله (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) قال قالوا (هطى سقاثا ازمة مزبا) فهى فى العربية (حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء) وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة بارسال الرجز الذى أنزله عليهم وهو الطاعون كما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى عن عامر بن سعد ومن حديث مالك عن محمد ابن المنكدر وسالم أبى النضر عن عامر بن سعد عن أسامة بن زيد عن رسول الله «ص» أنه قال إن هذا الوجع (أو) السقم رجز عذب به بعض الامم قبلكم وروى النسائى وابن أبى حاتم وهذا لفظه من حديث الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن ابراهيم بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا قال رسول الله «ص» الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم وقال الضحاك عن ابن عباس الرجز العذاب . وكذا قال مجاهد وابو مالك والسدى والحسن وقتادة وقال أبو العالية هو الغضب . وقال الشعبى الرجز إما الطاعون وإما البرد . وقال سعيد بن جبير هو الطاعون . ولما أستقرت يد بنى إسرائيل على بيت المقدس أستمروا فيه وبين أظهرهم نبى الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله اليه وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة فكان مدة حياته بعد موسى سبعا وعشرين سنة

قصة الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل اليه فى طلب ما عنده من العلم اللدنى وقص الله من خبرهما فى كتابه العزيز فى سورة الكهف وذكرنا فى تفسير ذلك هنالك وأوردنا هنا ذكر الحديث

المصرح بذكر الخضر عليه السلام وأن الذى رحل اليه هو موسى بن عمران نبى بنى إسرائيل عليه السلام الذى أنزلت عليه التوراة .

وقد اختلف فى الخضر فى اسمه ونسبه ونبوته وحياته الى الآن على أقوال ساذكرها لك ههنا إن شاء الله وبحوله وقوته * قال الحافظ ابن عساكر يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه ثم روى من طريق الدار قطنى حدثنا محمد بن الفتح القلانسى حدثنا العباس بن عبد الله الرومى حدثنا رواد بن الجراح حدثنا مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس قال الخضر ابن آدم لصلبه ونسىء له فى أجله حتى يكذب الدجال وهذا منقطع وغريب . وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستانى سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا إن أطول بنى آدم عمراً الخضر واسمه خضرون بن قابيل بن آدم قال وذكر ابن اسحق أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس وأوصاهم اذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم فى السفينة وأن يدفنوه فى مكان عينه لهم . فلما كان الطوفان حملوه معهم فلما هبطوا الى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى فقالوا إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم على ذلك . وقال إن آدم دعا لمن يلى دفنه بطول العمر فهابوا المسير الى ذلك الموضع فى ذلك الوقت فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذى تولى دفنه وأنجز الله ماوعده فهو يحيى الى ماشاء الله له أن يحيى . وذكر ابن قتيبة فى المعارف عن وهب بن منبه أن اسم الخضر بليا*ويقال ايليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . وقال اسماعيل بن أبى أويس اسم الخضر فيما بلغنا والله أعلم المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن لازد . وقال غيره هو خضرون بن عمايل بن اليفز بن العيص بن اسحق بن ابراهيم الخليل . ويقال هو أرميا بن خلقيا فالله أعلم . وقيل إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر وهذا غريب جداً . قال ابن الجوزى رواه محمد بن أيوب عن ابن لهيعة وهما ضعيفان. وقيل إنه ابن مالك. وهو أخو الياس قاله السدى كما سيأتى . وقيل انه كان على مقدمة ذى القرنين . وقيل كان ابن بعض من آمن بابراهيم الخليل وهاجر معه وقيل كان نبياً فى زمن بشتاسب بن لهراسب

قال ابن جرير والصحيح أنه كان متقدما فى زمن أفريدون ابن اثفيان حتى أدركه موسى عليهما السلام . وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال الخضر أمه رومية وأبوه فارسى

وقد ورد مايدل على أنه كان من بنى إسرائيل فى زمان فرعون أيضا . قال أبو زرعة فى دلائل النبوة حدثنا صفوان بن صالح الدمشقى حدثنا الوليد حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله (ص) أنه ليلة أسرى به وجد رائحة طيبة فقال ياجبريل ماهذه الرائحة الطيبة قال هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها وقال وكان بدء ذلك أن الخضر كان من

أشراف بنى إسرائيل وكان يمره براهب فى صومعته فتطلع عليه الراهب فعلمه الاسلام فلما بلغ الخضر زوجه أبوه إمرأة فعلمها الاسلام وأخذ عليها أن لاتعلم أحدا وكان لايقرب النساء ثم طلقها ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الاسلام وأخذ عليها أن لا تعلم أحداً ثم طلقها فكتمت إحداهما وأفشت عليه الاخرى فانطلق هاربا حتى أتى جزيرة فى البحر فاقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر قال قد رأيت الحزقيل ومن رآه معك قال فلان فسئل فكتم وكان من دينهم انه من كذب قتل فقتل وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة قال فبيناهى تمشط بنت فرعون اذ سقط المشط من يدها فقالت تعس فرعون فاخبرت أباها وكان للمرأة ابنان وزوج فارسل اليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فابيا فقال إنى قاتلكما فقالا احسان منك الينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا فى قبر واحد فجعلهما فى قبر واحد فقال وما وجدت ريحا أطيب منهما وقد دخلت الجنة وقد تقدمت قصة ماشطة بنت فرعون وهذا المشط فى أمر الخضر قد يكون مدرجا من كلام أبى بن كعب أو عبد الله بن عباس والله أعلم . وقال بعضهم كنيته أبو العباس والاشبه والله أعلم أن الخضر لقب غلب عليه . قال البخارى رحمه الله حدثنا محمد بن سعيد الاصبهانى حدثنا ابن المبارك عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال إنما سمى الخضر لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هى تهتز من خلفه خضراء تفرد به البخارى و كذلك رواه عبدالرزاق عن معمر به . ثم قال عبد الرزاق الفروة الحشيش الابيض وما أشبهه يعنى الهشيم اليابس . وقال الخطابى وقال أبو عمر الفروة الأرض البيضاء التى لا نبات فيها وقال غيره هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة ومنه قيل فروة الرأس وهى جلدته بما عليها من الشعر كما قال الراعى.

وَلقد تَرَى الحَبَشِيَّ حولَ بُيُوتِنا ... جَذِلاً إذا ماتَالَ يوماً ما كلا
جعداً أصكَّ كأنَّ فروةَ رأسِه ... بُذِرَت فأنبتَ جَانِباهُ فُلْفُلا

قال الخطابى إنما سمى الخضر خضرا لحسنه واشراق وجهه * قلت هذا لاينافى ماثبت فى الصحيح فان كان ولا بد من التعليل باحدهما فما ثبت فى الصحيح أولى وأقوى بل لا يلتفت الى ماعداه وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضاً من طريق اسماعيل بن حفص بن عمر الايلى حدثنا عثمان وأبو جزى وهمام بن يحيى عن قتادة عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن ابن عباس عن النبى (ص) قال إنما سمى الخضر خضرا لانه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء . وهذا غريب من هذا الوجه وقال قبيصة عن الثورى عن منصور عن مجاهد قال إنما سمى الخضر لانه كان اذا صلى اخضر ماحوله وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الاثر وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر وهو مسجى بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه فسلم عليه السلام فكشف عن وجهه فرد وقال أنى بارضك السلام من أنت قال أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل قال نعم فكان من أمرهما ماقصه

الله فى كتابه عنهما .

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه . أحدها قوله تعالى (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من من لدنا علما) الثانى قول موسى له (هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا . قال إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا . قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال فان إتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا) فلو كان ولياً وليس بنبى لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة ولم يرد على موسى هذا الرد بل موسى إنما سأل صحبته لينال ماعنده من العلم الذى اختصه الله به دونه فلو كان غير نبى لم يكن معصوما ولم تكن لموسى وهو نبى عظيم ورسول كريم واجب العصمة كبير رغبة ولا عظيم طلبة فى علم ولى غير واجب العصمة ولما عزم على الذهاب اليه والتفتيش عليه ولو أنه يمضى حقبا من الزمان قيل ثمانين سنة ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه واتبعه فى صورة مستفيد منه دل على أنه نبى مثله يوحى اليه كما يوحى اليه وقد خص من العلوم اللدنية والاسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم نبى بنى إسرائيل الكريم وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرمانى (١) على نبوة الخضر عليه السلام . الثالث أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام وما ذاك إلا للوحى اليه من الملك العلام * وهذا دليل مستقل على نبوته . وبرهان ظاهر على عصمته لان الولى لايجوز له الاقدام على قتل النفوس بمجرد مايلقى فى خلده لان خاطره ليس بواجب العصمة اذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق . ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذى لم يبلغ الحلم علما منه بانه اذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه ففى قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لابويه عن الوقوع فى الكفر وعقوبته دل ذلك على نبوته وانه مؤيد من الله بعصمته . وقد رأيت الشيخ أبا الفرج ابن الجوزى طرق هذا المسلك بعينه فى الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه . وحكى الاحتجاج عليه الرمانى أيضا . الرابع أنه لما فسر الخضر تأويل تلك الافاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلى قال بعد ذلك كله (رحمة من ربك ومافعلته عن أمرى) يعنى مافعلته من تلقاء نفسى بل أمرت به وأوحى الى فيه فدلت هذه الوجوه على نبوته* ولا ينافى ذلك حصول ولايته بل ولا رسالته كما قاله آخرون . وأما كونه ملكا من الملائكة فغريب جدا . واذا ثبتت نبوته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته وأن الولى قد يطلع على حقيقة الامور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون اليه ولا معتمد يعتمدون عليه .

وأما الخلاف فى وجوده الى زماننا هذا فالجمهور على انه باق الى اليوم . قيل لانه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة . وقيل لانه شرب من عين الحياة فحيى .

وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه الى الآن وسنوردها إن شاء الله تعالى وبه الثقة وهذه وصيته لموسى حين (قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئكم بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) روى فى ذلك آثار متقطعة كثيرة. قال البيهقى أنبأنا أبو سعيد بن أبى عمرو حدثنا أبو عبد الله الصفار حدثنا أبو بكر ابن أبى الدنيا حدثنا اسحاق بن اسماعيل حدثنا جرير حدثنى أبو عبد الله الملطى قال لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى أوصنى قال كن نفاعا ولا تكن ضرارا. كن بشاشا ولا تكن غضبان. ارجع عن اللجاجة ولا تمش فى غير حاجة. وفى رواية من طريق أخرى زيادة (ولا تضحك إلا من عجب). وقال وهب بن منبه قال الخضر ياموسى ان الناس معذبون فى الدنيا على قدر همومهم بها وقال بشر بن الحارث الحافى قال موسى للخضر أوصنى فقال يسر الله عليك طاعته. وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق ذكرياء بن يحيى الوقاد إلا أنه من الكذابين الكبار. قال قرئ على عبد الله بن وهب وأنا أسمع قال الثورى قال مجالد قال أبو الوداك قال أبو سعيد الخدرى قال عمر بن الخطاب قال قال رسول الله (ص) قال أخى موسى يارب ذكر كلمة فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها فقال السلام عليك ورحمة الله ياموسى بن عمران ان ربك يقرأ عليك السلام. قال موسى هو السلام واليه السلام والحمد لله رب العالمين الذى لا أحصى نعمه ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته ثم قال موسى أريد أن توصينى بوصية ينفعنى الله بها بعدك. فقال الخضر ياطالب العلم ان القائل أقل ملامة(١) من المستمع فلا تمل جلساءك اذا حدثتهم واعلم ان قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك. واعرف من الدنيا وانبذها وراءك. فانها ليست لك بدار ولا لك فيها محل قرار. وإنما جعلت بلغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد. ورض نفسك على الصبر تخلص من الاثم* ياموسى تفرغ للعلم ان كنت تريده فانما العلم لمن تفرغ له* ولا تكن مكثارا للعلم مهذارا فان كثرة المنطق تشين العلماء وتبدى مساوى السخفاء. ولكن عليك بالاقتصاد فان ذلك من التوفيق والسداد* وأعرض عن الجهال وباطلهم واحلم عن السفهاء فان ذلك فعل الحكماء وزين العلماء اذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلما. وجانبه حزما. فان مابقى من جهله عليك وسبه اياك أكثر وأعظم* ياابن عمران ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلا *فان الاندلاث والتعسف من الاقتحام والتكلف* ياابن عمران لا تفتحن بابا لاتدرى ماغلقه ولا تغلقن بابا لاتدرى مافتحه* ياابن عمران من لاينتهى من الدنيا نهمته ولا تنقضى منها رغبته ومن يحقر حاله ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهدا. هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه. أو ينفعه طلب العلم والجهل قد حواه لان سعيه الى آخرته وهو مقبل على دنياه *ياموسى تعلم ما تعلمت لتعمل به ولا تعلمه لتحدث به فيكون عليك بواره ولغيرك نوره *ياموسى بن عمران اجعل الزهد والتقوى لباسك والعلم والذكر كلامك واستكثر من الحسنات فانك مصيب السيئات وزعزع بالخوف قلبك فان ذلك يرضى ربك واعمل خيرا فانك لابد

عامل سوء . قد وعظت ُ ان حفظتَ * قال فتولى الخضر وبقي موسى محزوناً مكروباً يبكى.

لا يصح هذا الحديث وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصري كذبه غير واحد من الأئمة والعجب أن الحافظ بن عساكر سكت عنه * وقال الحافظ أبو نعيم الاصبهاني حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ثنا عمرو بن اسحاق بن ابراهيم بن العلاء الحمصي حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندي حدثنا بقية بن الوليد عن محمد بن زياد عن أبي امامة أن رسول الله (ص) قال لاصحابه ألا أحدثكم عن الخضر قالوا بلى يارسول الله قال بينا هو ذات يوم يمشى في سوق بني اسرائيل ابصره رجل مكاتب فقال تصدق علي بارك الله فيك فقال الخضر آمنت بالله ما شاء الله من أمر يكون ماعندى من شئ أعطيكه فقال المسكين أسألك بوجه الله لما تصدقت علي فاني نظرت الى السماء في وجهك ورجوت البركة عندك فقال الخضر آمنت بالله ما عندى من شئ أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني فقال المسكين وهل يستقيم هذا قال نعم الحق أقول لك لقد سألتني بامر عظيم أما اني لا أخيبك بوجه ربي بعني قال فقدمه الى السوق فباعه بأربعمائة درهم فمكث عند المشتري زمانا لا يستعمله في شئ فقال له انك اشتريتني التماس خير عندي فأوصني بعمل قال أكره أن أشق عليك انك شيخ كبير ضعيف. قال ليس يشق علي . قال فانقل هذه الحجارة وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة. فقال أحسنت وأجملت وأطقت مالم أرك تطيقه. ثم عرض للرجل سفر فقال إني أحسبك أمينا فاخلفني في أهلي خلافة حسنة قال فأوصني بعمل قال إني أكره أن أشق عليك قال ليس تشق علي قال فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم عليك فمضى الرجل لسفره فرجع وقد شيد بناؤه فقال أسألك بوجه الله ماسبيلك وما أمرك فقال سألتني بوجه الله والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية سأخبرك من أنا أنا الخضر الذي سمعت به سألني مسكين صدقة فلم يكن عندي من شئ أعطيه فسألني بوجه الله فامكنته من رقبتي فباعني وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلده لالحم له ولا عظم يتقعقع. فقال الرجل آمنت بالله شققت عليك يانبي الله ولم أعلم فقال لا بأس أحسنت وأبقيت . فقال الرجل بأبي وأمي يانبي الله أحكم في أهلي ومالي بما أراك الله أو أخيرك فاخلي سبيلك فقال أحب أن تخلي سبيلي فاعبد ربي فخلى سبيله فقال الخضر الحمد لله الذي أوثقني في العبودية ثم نجاني منها . وهذا حديث رفعه خطأ والأشبه أن يكون موقوفا وفي رجاله من لا يعرف فالله أعلم .

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه عجالة المنتظر في شرح حال الخضر من طريق عبد الوهاب بن الضحاك وهو متروك عن بقية . وقد روى الحافظ بن عساكر باسناده الى السدي أن الخضر والياس كانا أخوين وكان أبوهما ملكا فقال الياس لابيه إن أخي الخضر لا رغبة له في الملك فلو أنك زوجته لعله يجئ منه ولد يكون الملك له فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر فقال لها الخضر إنه لاحاجة لي في النساء فان

شئت اطلقت سراحك وان شئت أقمت معى تعبدين الله عز وجـل وتكتمين على سرى فقالت نعم وأقامت معه سنة. فلما مضت السنة دعاها الملك فقال إنك شابة وابنى شاب فأين الولد فقالت إنما الولد من عند الله ان شاء كان وان لم يشأ لم يكن فأمره أبوه فطلقها وزوجـه بأخرى ثيبا قد ولد لها فلما زفت اليه قال لها كما قال للتى قبلها فاجابت الى الاقامة عنده. فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد فقالت ان ابنك لاحاجة له بالنساء فطلبه أبوه فهرب فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه. فيقال إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره فهرب من أجل ذلك وأطلق سراح الاخرى فأقامت تعبـد الله فى بعض نواحى تلك المدينة فمر بها رجل يوما فسمعته يقول بسم الله فقالت له أنى لك هذا الاسم فقال إنى من أصحاب الخضر فتزوجته فولدت له أولاداً. ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون فبينا هى يوما تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت بسم الله فقالت ابنة فرعون أبى فقالت لا ربى وربك ورب أبيك الله فأعلمت أباها فأمر ببقرة من نحـاس فأحميت ثم أمر بها فألقيت فيه فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها فقال لها ابن معها صغير يا أمه أصبرى فانك عـلى الحق فألقت نفسها فى النار فماتت رحمها الله * وقد روى ابن عسـاكر عن أبى داود الاعمى نفيع وهو كذاب وضاع عن أنس بن مالك ومن طريق كثير ابن عبـد الله بن عمرو بن عوف وهو كذاب أيضا عن أبيه عن جده أن الخضر جاء ليـلة فسمع النبى (ص) وهو يدعو ويقول اللهم أعنى عـلى ما ينجينى مما خوفتنى وارزقنى شوق الصالحين الى ماشوقتهم اليه فبعث اليه رسول الله أنس بن مالك فسلم عليه فرد عليه السلام وقال قل له ان الله فضلك على الانبياء كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور وفضل أمتك على الامم كما فضل يوم الجمعة على غيره الحديث وهو مكذوب لايصح سنداً ولا متناً كيف لا يتمثل بين يدى رسـول الله (ص) ويجئ بنفسه مسلما ومتعلما وهم يذكرون فى حكاياتهم ومـا يسنـدونه عن بعض مشايخهم أن الخضر يأتى اليهم ويسلم عليهم ويعرف أسماءهم ومنازلهم ومحالهم وهو مع هذا لايعرف موسى بن عمران كليم الله الذى اصطفاه الله فى ذلك الزمان على من سواه حتى يتعرف اليه أنه موسى بنى اسرائيـل. وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادى بعد ايراده حديث أنس هذا وأهل الحديث متفقون على أنه حديث منكر الاسناد سقيم المتن يتبين فيه أثر الصنعة. فأما الحـديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى قالا أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو بكر بن بالويه حدثنا محمد بن بشر بن مطر حدثنا كامل بن طلحة حدثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك قال لـما قبض رسول الله (ص) أحدق به أصحابه فبكوا حوله واجتمعوا فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى ثم التفت الى أصحاب رسول الله (ص) فقال ان فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فالى الله فأنيبوا واليه فارغبوا ونظر اليكم فى البلاء فانظروا فان المصاب من لم يجبر وانصرف فقال بعضهم لبعض تعرفون الرجل فقال أبو بكر وعلى

نعم هو أخو رسول الله (ص) . الخضر عليه السلام . وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل بن طلحة به وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي ثم قال البيهقي عباد بن عبد الصمد ضعيف وهذا منكر بمرة قلت عباد بن عبد الصمد هذا هو بن معمر البصري . روى عن أنس نسخة قال ابن حبان والعقيلي أكثرها موضوع. وقال البخاري منكر الحديث . وقال أبو حاتم ضعيف الحديث جداً منكره . وقال بن عدى عامة مايرويه في فضائل على وهو ضعيف غال في التشيع . وقال الشافعي في مسنده أخبرنا القاسم بن عبد الله بن عمر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي بن الحسين قال لما توفى رسول الله (ص) وجاءت التعزية سمعوا قائلا يقول ان في الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا وإياه فارجوا فان المصاب من حرم الثواب. قال علي بن الحسين أتدرون من هذا . هذا الخضر. شيخ الشافعي القاسم العمري متروك . قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يكذب. زاد أحمد ويضع الحديث ثم هو مرسل ومثله لايعتمد عليه ههنا والله أعلم . وقد روى من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن أبيه عن علي . ولا يصح . وقد روى عبد الله بن وهب عن حدثه عن محمد بن عجلان عن محمد بن المنكدر أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة اذ سمع هاتفا وهو يقول لا تسبقنا يرحمك الله فانتظره حتى لحق بالصف فذكر دعاءه للميت إن تعذبه فكثيرا عصاك وإن تغفر له ففقير الى رحمتك . ولما دفن قال طوبى لك ياصاحب القبر إن لم تكن عريفا أو جابيا أو خازنا أو كاتبا أو شرطيا فقال عمر خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو. قال فتوارى عنهم فنظروا فاذا أثر قدمه ذراع . فقال عمر هذا والله الخضر الذي حدثنا عنه رسول الله (ص) . وهذا الأثر فيه مبهم وفيه انقطاع ولا يصح مثله .

وروى الحافظ بن عساكر عن الثوري عن عبد الله بن محرز عن يزيد بن الاصم عن على بن أبي طالب قال دخلت الطواف في بعض الليل فاذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول يامن لايمنعه سمع من سمع ويامن لا تغلطه المسائل ويامن لايبرمه الحاح الملحين ولا مسألة السائلين ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك قال قلت أعد على ماقلت فقال لى أو سمعته قلت نعم فقال لى والذي نفس الخضر بيده قال وكان هو الخضر لا يقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم لغفرها الله له . وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن المحرز فانه متروك الحديث ويزيد بن الاصم لم يدرك عليا ومثل هذا لايصح والله أعلم . وقد رواه أبو اسماعيل الترمذي حدثنا مالك بن اسماعيل حدثنا صالح بن أبي الاسود عن محفوظ بن عبد الله الحضرمي عن محمد بن يحيى قال بينا علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة إذا هو برجل متعلق باستار الكعبة وهو يقول يامن لايشغله سمع عن سمع ويامن لايغلطه السائلون ويامن لايتبرم بالحاح الملحين أرزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك

قال فقال له على يا عبد الله أحد دعاءك هذا قال وقد سمعته قال نعم قال فادع به فى دبر كل صلاة فوالذى نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها وحصباء الارض وترابها لغفر لك أسرع من طرفة عين . وهذا أيضا منقطع وفى اسناده من لا يعرف والله أعلم.

وقد أورد ابن الجوزى من طريق أبى بكر بن أبى الدنيا حدثنا يعقوب بن يوسف حدثنا مالك بن اسماعيل فذكر نحوه. ثم قال وهذا إسناد مجهول منقطع وليس فيه مايدل على أن الرجل الخضر . وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر أنبأنا أبو القاسم بن الحصين أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد أنبأنا أبو اسحق المزكى حدثنا محمد ابن اسحق بن خزيمة حدثنا محمد بن احمد بن يزيد أملاه علينا ببغداد أنبأنا عمرو بن عاصم حدثنا الحسن بن زريق عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال ولا أعلمه إلا مرفوعا الى النبى (ص) قال يلتقى الخضر والياس كل عام فى الموسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات بسم الله ماشاء الله لا يسوق الخير إلا الله ماشاء الله لا يصرف الشر إلا الله ماشاء الله ما كان من نعمة فمن الله ماشاء الله لاحول ولا قوة إلا بالله. قال وقال ابن عباس من قالهن حين يصبح وحين يمسى ثلاث مرات آمنه الله من الغرق والحرق والسرق قال وأحسبه قال ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب .

قال الدار القطنى فى الافراد هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه يعنى الحسن بن زريق هذا * وقد روى عنه محمد بن كثير العبدى أيضا ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى ليس بالمعروف * وقال الحافظ أبو جعفر العقيلى مجهول وحديثه غير محفوظ. وقال أبو الحسين بن المنادى هو حديث واه بالحسن بن زريق. وقد روى ابن عساكر نحوه من طريق على بن الحسن الجهضمى وهو كذاب عن ضمرة بن حبيب المقدسى عن أبيه عن العلاء بن زياد القشيرى عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب مرفوعا قال يجتمع كل يوم عرفة بعرفات جبريل وميكائيل وإسرافيل * والخضر وذكر حديثا طويلا موضوعا تركنا ايراده قصدا ولله الحمد .

وروى ابن عساكر من طريق هشام ابن خالد عن الحسن بن يحيى الخشنى عن ابن أبى رواد قال الياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ويحجان فى كل سنة ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما الى مثلها من قابل . وروى ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك بن مروان بانى جامع دمشق أحب أن يتعبد ليلة فى المسجد فامر القومة أن يخلوه له ففعلوا فلما كان من الليل جاء من باب الساعات فدخل الجامع فاذا رجل قائم يصلى فيما بينه وبين باب الخضراء فقال للقومة ألم آمركم أن تخلوه فقالوا يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجيئ كل ليلة يصلى ههنا . وقال ابن عساكر أيضاً أنبأنا أبو القاسم بن اسماعيل ابن أحمد أنبأنا أبو بكر بن الطبرى أنبأنا أبو الحسين بن الفضل أنبأنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب هو

ابن سفيان الفسوى حدثنى محمد بن عبد العزيز حدثنا حمزة عن السرى بن يحيى عن رياح بن عبيدة قال رأيت رجلا يماشى عمر بن عبد العزيز معتمدا على يديه فقلت فى نفسى إن هذا الرجل حافى قال فلما انصرف من الصلاة قلت من الرجل الذى كان معتمدا على يدك آنفا قال وهل رأيته يارياح قلت نعم قال ماأحسبك إلا رجلا صالحاً ذاك أخى الخضر بشرنى أنى سألى وأعدل . قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزى الرملى مجروح عند العلماء * وقد قدح أبو الحسين بن المنادى فى ضمرة والسرى ورياح . ثم أورد من طرق أخر عن عمر بن عبد العزيز أنه إجتمع بالخضر وضعفها كلها . وروى ابن عساكر أيضا أنه إجتمع بابراهيم التيمى وبسفيان بن عيينة وجماعة يطول ذكرهم . وهذه الروايات والحكايات هى عمدة من ذهب الى حياته الى اليوم وكل من الاحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لايقوم بمثلها حجة فى الدين والحكايات لايخلو أكثرها عن ضعف فى الاسناد * وقصاراها أنها صحيحة الى من ليس بمعصوم من صحابى أوغيره لانه يجوز عليه الخطأ والله أعلم . وقال عبدالرزاق أنبأنامعمر عن الزهرى أخبرنى عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة أن أباسعيد قال حدثنا رسول الله (ص) حديثا طويلا عن الدجال وقال فيما يحدثنا يأتى الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينه فيخرج اليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خيرهم فيقول أشهد أنك أنت الدجال الذى حدثنا عنك رسول الله (ص) بحديثه فيقول الدجال أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون فى الامر فيقولون لافيقتله ثم يحييه فيقول حين يحيى والله ماكنت أشد بصيرة فيك منى ألآن قال فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه قال معمر بلغنى أنه يجعل على حلقه صحيفة من نحاس وبلغنى أنه الخضر الذى يقتله الدجال ثم يحييه وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى به وقال أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوى عن مسلم الصحيح أن يقال إن هذا الرجل الخضر وقول معمر وغيره بلغنى ليس فيه حجة وقد ورد فى بعض ألفاظ الحديث فيأتى بشاب ممتلئ شبابا فيقتله وقوله الذى حدثنا عنه رسول الله (ص) لا يقتضى المشافهة بل يكفى التواتر . وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله فى كتابه عجالة المنتظر فى شرح حالة الخضر للاحاديث الواردة فى ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعات ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها وقد أجاد فى ذلك وأحسن الانتقاد * وأما الذين ذهبوا الى أنه قد مات ومنهم البخارى وابراهيم الحربى وأبو الحسين بن المنادى والشيخ أبو الفرج بن الجوزى وقد انتصر لذلك وألف فيه كتابا سماه عجالة المنتظر فى شرح حالة الخضر فيحتج لهم باشياء كثيرة * منها قوله (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) فالخضر إن كان بشراً فقد دخل فى هذا العموم لامحالة ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح انتهى والاصل عدمه حتى يثبت ولم يذكر مافيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله . ومنها أن الله تعالى قال (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب

وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) قال ابن عباس ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه. وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه. ذكره البخاري عنه فالخضر إن كان نبياً أو وليا فقد دخل في هذا الميثاق فلو كان حيا في زمن رسول الله (ص) لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره أن يصل احد من الاعداء اليه لأنه إن كان وليا فالصديق أفضل منه وان كان نبيا فموسى أفضل منه وقد روى الامام أحمد في مسنده حدثنا شريح بن النعمان حدثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ص) قال والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني. وهذا الذي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة. وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة أن الانبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله (ص) لكانوا كلهم أتباعا له وتحت أوامره وفي عموم شرعه كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الاسراء رفع فوقهم كلهم ولما هبطوا معه الى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم فصلى بهم في محل ولايتهم ودار اقامتهم فدل على أنه الامام الاعظم والرسول الخاتم المبجل المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. فاذا علم هذا وهو معلوم عند كل مؤمن علم أنه لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد (ص) وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك * هذا عيسى بن مريم عليه السلام اذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة لا يخرج منها ولا يحيد عنها وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس اليه أنه أجتمع برسول الله (ص) في يوم واحد ولم يشهد معه قتالا في مشهد من المشاهد وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به ربه عز وجل واستنصره واستفتحه على من كفره اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الارض وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب

وثبيرُ بدرٍ إذ يردُّ وجوهَهم ... جبريلُ تحتَ لوائنا ومحمدُ

فلو كان الخضر حيا لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته. قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي سئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات فقال نعم قال وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري قال وكان يحتج بانه لو كان حيا لجاء الى رسول الله (ص). نقله ابن الجوزي في العجالة فان قيل فهل يقال إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه. فالجواب أن الاصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العمومات بمجرد التوهمات.

ثم ما الحاصل له على هذا الاختفاء وظهوره أعظم لاجره وأعلى فى مرتبته وأظهر لمعجزته . ثم لو كان باقيا بعده لكان تبليغه عن رسول الله (ص) الاحاديث النبوية والآيات القرآنيه وانكاره لما وقع من الاحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والاهواء العصبية وقتاله مع المسلمين فى غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم من سواهم وتسديده العلماء والحكام وتقريره الادلة والاحكام أفضل ما يقال عنه من كنونه فى الامصار وجوبه الفيافى والاقطار . واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم . وهذا الذى ذكرناه لا يتوقف احد فيه بعد التفهيم والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

ومن ذلك ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر أن رسول الله (ص) صلى ليلة العشاء ثم قال أرأيتم ليلتكم هذه فانه الى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الارض اليوم أحد . وفى رواية عين تطرف . قال ابن عمر فوهل الناس فى مقالة رسول الله (ص) هذه وإنما أراد انخرام قرنه . قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبانا معمر عن الزهرى قال أخبرنى سالم بن عبد الله وأبو بكر بن سليمان ابن أبى خيثمة أن عبد الله بن عمر قال صلى رسول (ص) ذات ليلة العشاء فى آخر حياته فلما سلم قام فقال أرأيتم ليلتكم هذه فان على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الارض أحد وأخرجه البخارى ومسلم من حديث الزهرى * وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن سليمان التيمى عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال قال رسول (ص) قبل موته بقليل أو بشهر ما من نفس منفوسة أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة يأتى عليها مائة سنة وهى يومئذ حية وقال أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا بن لهيعة عن أبى الزبير عن جابر عن النبى (ص) أنه قال قبل أن يموت بشهر يسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله أقسم بالله ما على الارض نفس منفوسة اليوم يأتى عليها مائة سنة . وهكذا رواه مسلم من طريق أبى نضرة وأبى الزبير كل منهما عن جابر بن عبد الله به نحوه . وقال الترمذى حدثنا عباد حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن أبى سفيان عن جابر قال قال رسول (ص) ما على الارض من نفس منفوسة يأتى عليها مائة سنة . وهذا أيضا على شرط مسلم * قال ابن الجوزى فهذه الاحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر * قالوا فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله (ص) كما هو المظنون الذى يترقى فى القوة الى القطع فلا إشكال وإن كان قد أدرك زمانه فهذا الحديث يقتضى أنه لم يعش بعد مائة سنة فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً لانه داخل فى هذا العموم والاصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله والله أعلم .

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلى فى كتابه التعريف والاعلام عن البخارى وشيخه أبى بكر بن العربى أنه أدرك حياة النبى (ص) ولكن مات بعد لهذا الحديث وفى كون البخارى رحمه الله يقول بهذا وأنه بقى الى زمان النبى (ص) نظر * ورجح السهيلى بقاءه وحكاه عن الاكثرين * قال وأما اجتماعه

مع النبي (ص) وتعزيته لاهل البيت بعده فروى من طرق صحاح ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه ولم يورد أسانيدها والله أعلم

وإن إلياس عليه السلام

قال الله تعالى بعد قصة موسى وهرون من سورة الصافات (وإن الياس لمن المرسلين. اذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الاولين . فكذبوه فانهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على الياسين . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) قال علماء النسب هو الياس التشبي * ويقال ابن ياسين بن فنحاص ابن العيزار بن هرون * وقيل الياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران . قالوا وكان ارساله الى أهل بعلبك غربي دمشق فدعاهم الى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا . وقيل كانت امرأة اسمها بعل والأول أصح . ولهذا قال لهم (ألا تتقون. أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الاولين) فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله فيقال إنه هرب منهم واختفى عنهم* قال أبو يعقوب الأذرعي عن يزيد بن عبد الصمد عن هشام بن عمار قال وسمعت من يذكر عن كعب الاحبار أنه قال إن الياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين حتى أهلك الله الملك وولى غيره فأتاه الياس فعرض عليه الاسلام فاسلم وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم . وقال ابن أبي الدنيا حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال أقام الياس عليه السلام هاربا من قومه في كهف جبل عشرين ليلة أو قال أربعين ليلة تأتيه الغربان برزقه . وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال أول نبي بعث إدريس ثم نوح ثم ابراهيم ثم اسماعيل واسحق ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ثم موسى وهارون ابنا عمران ثم الياس التشبي بن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم عليهم السلام هكذا قال وفي هذا الترتيب نظر * وقال مكحول عن كعب أربعة أنبياء أحياء اثنان في الأرض الياس والخضر واثنان في السماء إدريس وعيسى . وقد قدمنا قول من ذكر أن الياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما الى مثلها من العام المقبل *وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة وبينا أنه لم يصح شيء من ذلك وأن الذي يقوم عليه الدليل أن الخضر مات وكذلك الياس عليهما السلام . وماذكره وهب بن منبه وغيره أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه اليه لما كذبوه وآذوه

فجاءته دابة لونها لون النار فركبها وجعل الله له ريشا وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكيا بشريا سماويا أرضيا وأوصى الى اليسع بن أخطوب ففي هذا نظر وهو من الاسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب بل الظاهر أن صحتها بعيدة والله أعلم .

فاما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثني أبو ـ ن أحمد ابن سعيد المهداني ببخارا حدثنا عبدالله بن محمود حدثنا عبدان بن سنان حدثني أحمد بن عبد الله البرقي حدثنا يزيد بن يزيد البلوي حدثنا أبو اسحاق الفزاري عن الاوزاعي عن مكحول عن أنس بن مالك قال كنا مع رسول الله (ص) في سفر فنزلنا منزلا فاذا رجل في الوادي يقول اللهم اجعلني من أمة محمد (ص) المرحومة المغفورة المثاب لها قال فأشرفت على الوادي فاذا رجل طوله أ كثر من ثلاثمائة ذراع فقال لي من أنت فقلت أنس بن مالك خادم رسول الله (ص) قال فأين هو قلت هو ذا يسمع كلامك قال فأته فأقرئه السلام وقل له أخوك الياس يقرئك السلام قال فاتيت النبي (ص) فاخبرته فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم ثم قعدا يتحادثان فقال له يارسول الله إني ما آ كل في سنة إلا يوما وهذا يوم فطري فآ كل أنا وأنت قال فنزلت عليهما مائدة من السماء عليها خبز وحوت وكرفس فأكلا وأطعماني وصلينا العصر ثم ودعه ورأيت مر في السحاب نحو السماء . فقد كفانا البيهقي أمره وقال هذا حديث ضعيف بمرة والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في مستدركه على الصحيحين وهذا مما يستدرك به على المستدرك فانه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه . ومعناه لا يصح أيضاً فقد تقدم في الصحيحين أن رسول الله (ص) قال إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا في السماء الى أن قال ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن وفيه أنه لم يأت الى رسول الله (ص) حتى كان هو الذي ذهب اليه . وهذا لا يصح لانه كان أحق بالسعي الى بين يدي خاتم الانبياء . وفيه أنه يأكل في السنة مرة وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب وفيما تقدم عن بعضهم أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه الى مثلها من الحول الآخر . وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شئ منها . وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى واعترف بضعفها وهذا عجب منه كيف تكلم عليه فانه أورده من طريق حسين بن عرفة عن هانئ بن الحسن عن بقية عن الاوزاعي عن مكحول عن واثلة عن ابن الاسقع فذكر نحو هذا مطولا وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك وأنه بعث اليه رسول الله (ص) أنس ابن مالك وحذيفة بن اليمان قالا فاذا هو أعلى جسما بذراعين أو ثلاثة واعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر الابل وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله (ص) أكلا من طعام الجنة وقال إن لي في كل أربعين يوما أكلة وفي المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب وبقل ماعدا الكراث وفيه أن رسول الله (ص) سأله عن الخضر فقال عهدي به عام أول وقال لي إنك ستلقاه قبلي فأقرئه مني السلام. وهذا يدل على أن الخضر

والياس بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة وهـذا لايسوغ شرعاً وهـذا موضوع أيضاً . وقد أورد ابن عساكر طرقا فيمن اجتمع بالياس من العباد وكلها لا يفرح بها لضعف إسنادها أو لجهالة المسندإليه فيها * ومن احسنها ماقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثني بشر بن معاذ حدثنا حماد بن واقد عن ثابت قال كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة فدخلت حائطا أصلي فيه ركعتين فافتتحت (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول) . فاذا رجل من خلفي على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية فقال لى إذا قلت غافر الذنب فقل ياغافر الذنب اغفرلى ذنبي * واذا قلت قابل التوب فقل يا قابل التوب تقبل توبتي . وإذا قلت شديد العقاب فقل يا شديد العقاب لاتعاقبني . واذا قلت ذى الطول فقل ياذا الطول تطول علىّ برحمة فالتفت فاذا لاأحدوخرجت فسألت من بكم رجل على بغلة شهباء عليهمقطعات يمنية فقالوا مامر بنا احد فكانوا لا يرون الا أنه الياس . وقوله تعالى . (فكذبوه فانهم لمحضرون) أى العذاب إما فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة والأول أظهر على ماذكره المفسرون والمؤرخون . (وقوله إلا عباد الله المخلصين) أى إلا من آمن منهم وقوله (وتركنا عليه فى الآخرين) أى ابقينا بعده ذكراً حسناً له فى العالمين فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال (سلام على الياسين) أى سلام على الياس . العرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا اسماعيل واسماعين واسرائيل واسرائين والياس والياسين . ومن قرأ سلام على آل ياسين أى على آل محمد وقرأ ابن مسعود وغيره سلام على ادراسين . ونقل عنه من طريق اسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال الياس هوادريس واليه ذهب الضحاك بن مزاحم وحكاه قتادة ومحمد بن اسحاق والصحيح أنه غيره كما تقدم والله أعلم . *



بحمد الله تعالى قد تم الجزء الاول من كتاب البداية والنهاية ويليه الجزء الثاني وأوله
(ذكر جماعة من أنبياء بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام)

فهرست

الجزء الاول

من كتاب البداية والنهاية



الحافظ ابن كثير
الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ



الجزء الثاني

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



بسم الله الرحمن الرحيم

جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام

ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام . قال ابن جرير في تاريخه لاخلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني اسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج أخته مريم وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله وهما يوشع وكالب وهما القائلان لبني اسرائيل حين نكلوا عن الجهاد (أدخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) قال ابن جرير ثم من بعده كان القائم بأمور بني اسرائيل حزقيل بن بوذي وهو الذي دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

قصة حزقيل

قال الله تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) . قال محمد بن اسحاق عن

وهب بن منبه إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله اليه بعد يوشع خلف فى بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى وهو ابن العجوز وهو الذى دعا للقوم الذين ذكرهم الله فى كتابه فيا بلغنا (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) قال ابن إسحاق فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله موتوا فماتوا جميعا فحظروا عليهم حظيرة دون السباع فمضت عليهم دهور طويلة فمر بهم حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكرا . فقيل له أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر فقال نعم فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسى لحما وأن يتصل العصب بعضه ببعض فناداهم عن أمر الله له بذلك فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد . وقال أسباط عن السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة فى قوله . (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) قالوا كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط وقع بها الطاعون فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها فهلك من بقى فى القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم فوقع فى قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفا حتى نزلوا ذلك المكان وهو واد أفيح فناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مر بهم نبى يقال له حزقيل فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوى شدقيه وأصابعه فأوحى الله اليه تريد أن أريك كيف أحييهم قال نعم وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم فقيل له ناد فنادى يا أيتها العظام ان الله يأمرك أن تجتمعى فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض حتى كانت أجسادا من عظام ثم أوحى الله اليه ان ناد يا أيتها العظام ان الله يأمرك أن تكتسى لحما فاكتست لحما ودما وثيابها التى ماتت فيها . ثم قيل له ناد فنادى أيتها الأجساد ان الله يأمرك أن تقومى فقاموا . قال أسباط فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا (سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت) فرجعوا الى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبا إلا عاد دسما حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم . وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف وعنه ثمانية آلاف وعن أبى صالح تسعة آلاف وعن ابن عباس أيضا كانوا أربعين ألفا . وعن سعيد ابن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات . وقال ابن جريج عن عطاء هذا مثل يعنى أنه سيق مثلا مبينا أنه لن يغنى حذر من قدر وقول الجمهور أقوى ان هذا وقع . وقد روى الامام أحمد وصاحبا الصحيح من طريق الزهرى عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج الى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الاجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام فذكر الحديث يعنى فى مشاورته المهاجرين

والأنصار فاختلفوا عليه فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا ببعض حاجته فقال إن عندي من هذا علما سمعت رسول الله (ص) يقول إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه فحمد الله عمر ثم انصرف . وقال الامام حدثنا حجاج ويزيد المفتي (١) قالا حدثنا ابن أبي ذؤيب عن الزهري عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي (ص) أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم فاذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه قال فرجع عمر من الشام . وأخرجاه من حديث مالك عن الزهري بنحوه *

قال محمد بن اسحاق ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل * ثم إن الله قبضه اليه * فلما قبض نسي بنو إسرائيل عهد الله اليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الاوثان وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له بعل فبعث الله اليهم الياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون ابن عمران * قلت وقد قدمنا قصة الياس تبعاً لقصة الخضر لأنهما يقرنان في الذكر غالبا ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك والله أعلم . قال محمد بن إسحاق فيما ذكره عن وهب ابن منبه قال ثم تنبأ فيهم بعد الياس وصيه اليسع بن أخطوب عليه السلام وهذه *

قصة اليسع عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى مع الانبياء في سورة الأنعام في قوله (واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين) وقال تعالى في سورة ص (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار) قال إسحاق بن بشر أبو حذيفة انبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال كان بعد الياس اليسع عليهما السلام فمكث ماشاء الله أن يمكث يدعوهم الى الله مستمسكا بمنهاج الياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل اليه ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الانبياء وكان فيهم ملك عنيد طاغ * ويقال إنه الذي تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة فسمي ذا الكفل *

قال محمد بن إسحاق هو اليسع بن أخطوب . وقال الحافظ أبو القسم بن عساكر في حرف الياء من تاريخه اليسع وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل * ويقال هو ابن عم الياس النبي عليهما السلام . ويقال كان مستخفيا معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه اليها فلما رفع الياس خلفه اليسع في قومه ونبأه الله بعده . ذكر ذلك عبد المنعم بن

(١) هو يزيد بن أبي حبيب قال ابن سعد كان مفتي أهل مصر في زمانه وكان حليما عاقلا وكان أول من أظهر العلم بمصر.

ادريس عن أبيه عن وهب بن منبه . قال وقال غيره وكان بياتياس . ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ اليسع بالتخفيف وبالتشديد ومن قرأ والليسع وهو إسم واحد لنبي من الانبياء * قلت قد قدمنا قصة ذا الكفل بعد قصة أيوب عليهما السلام لأنه قد قيل إنه ابن أيوب فالله أعلم

فصل

قال ابن جرير وغيره ثم مرج أمر بني إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكا جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضا وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الاعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان كما تقدم ذكره فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له شمويل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكا ليقاتلوا معه الأعداء فكان من أمرهم ماسنذكره مما قص الله في كتابه . قال ابن جرير فكان من وفاة يوشع بن نون الى أن بعث الله عز وجل شمويل بن بالي أربعمائة سنة وستون سنة * ثم ذكر تفصيلها بعدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحدا تركنا ذكرهم قصداً *

قصة شمويل وفيها بدأ أمر داود عليهما السلام

﴿ وفيها بدأ أمر داود عليه السلام ﴾

هو شمويل ويقال له أشمويل بن بالي بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة ابن ماحث بن عموصا بن عزريا * قال مقاتل وهو من ورثة هارون وقال مجاهد هو أشمويل بن هلفاقا ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا فالله أعلم *

حكى السدي باسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبي وغيرهم أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل وقتلوا منهم خلقا كثيرا وسبوا من ابنائهم جمعاً كثيراً وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً فولدت غلاما فسمته أشمويل ومعناه بالعبرانية إسماعيل أي سمع الله دعائي فلما ترعرع بعثته الى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته فكان عنده فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ يدعوه فسأله أدعوتني

فكره أن ينزعه فقال نعم ثم فنام . ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فاذا جبريل يدعوه فجاءه فقال إن ربك قد بعثك الى قومك فكان من أمره معهم ما قص الله فى كتابه قال الله تعالى فى كتابه العزيز (ألم تر الى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)

قال أكثر المفسرين كان نبى هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة هو شمويل . وقيل شمعون وقيل هما واحد وقيل يوشع وهذا بعيد لما ذكره الامام أبو جعفر بن جرير فى تاريخه أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة فالله أعلم •

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبى الله فى ذلك الزمان وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكا يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الاعداء فقال لهم (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله) أى وأى شئ يمنعنا من القتال وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) يقولون نحن محروبون موتورون فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم المأسورين فى قبضتهم . قال تعالى (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) كما ذكر فى آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) قال الثعلبى وهو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أيمس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم الخليل .

قال عكرمة والسدى كان سقاء وقال وهب بن منبه كان دباغا. وقيل غير ذلك فالله أعلم ولهذا (قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) وقد ذكروا أن النبوة كانت فى سبط لاوى وأن الملك كان فى سبط يهوذا فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا فى امارته عليهم وقالوا نحن أحق بالملك منه وذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه فكيف يكون مثل هذا ملكا. (قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم). قيل كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أى بنى إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذى فيه من دهن القدس فهو ملكهم فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه وعينه الملك عليهم وقال لهم (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم) قيل فى أمر الحروب وقيل بل مطلقا (والجسم) قيل الطول وقيل الجمال والظاهر من السياق أنه كان أجلهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام (والله يؤتى ملكه من يشاء) فله الحكم وله الخلق والأمر (والله واسع عليم وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) وهذا أيضا من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذى كان سلب منهم وقهرهم الأعداء عليه وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه (فيه سكينة من ربكم) قيل طشت من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء. وقيل السكينة مثل الريح الخجوج. وقيل صورتها مثل الهرة إذا صرخت فى حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر (وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون) قيل كان فيه رضاض الألواح وشئ من المن الذى كان نزل عليهم بالتيه (تحمله الملائكة) أى تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عيانا ليكون آية لله عليكم وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم ولهذا قال (إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) وقيل إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة. وقيل كان فيه التوراة أيضا فلما استقر فى أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم فوضعوه تحته فلما كان اليوم الثانى إذا التابوت فوق الصنم فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى فأخرجوه من بلدهم وجعلوه فى قرية من قراهم فأخذهم داء فى رقابهم فلما طال عليهم هذا جعلوه فى عجلة وربطوها فى بقرتين وارسلوهما فيقال إن الملائكة ساقتهما حتى جاؤا بهما ملأ بنى إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك فالله أعلم على أى صفة جاءت به الملائكة والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم بالجنود من الآية والله أعلم. وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده).

قال ابن عباس وكثير من المفسرين هذا النهر هو نهر الاردن وهو المسمى بالشريعة فكان من أمر طالوت بجنوده عند هـذا النهر عن أمر نبي الله له عن أمر الله له إختباراً وامتحانا أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبني في هـذه الغزوة ولا يصحبني إلا من لم يطعمه إلا غرفة في يده . قال الله تعالى (فشربوا منـه إلا قليلا منهم) .

قال السدى كان الجيش ثمانين ألفا فشرب منه ستة وسبعون ألفا فبقى معه أربعة آلاف كذا قال* وقد روى البخاري في صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثورى عن أبي اسحاق عن البراء بن عازب قال كنا أصحاب محمـد صلى الله عليه وسلم نتحدث أن عـدة أصحاب بدر على عدة اصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معـه إلا بضعة عشر وثلثمائة مؤمن . وقول السدى أن عـدة الجيش كانوا ثمانين ألفا فيـه نظر لأن أرض بيت المقـدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفا والله أعلم . قال الله تعالى (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة الى قلتهم وكثرة عدد عدوهم (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) يعـنى بها الفرسان منهم . والفرسان أهل الايمان والايقان الصابرون على الجلاد والجدال والطعان . (ولمـا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصـبر أى يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق وأن يثبت أقـدامهم فى مجال الحرب ومعترك الابطـال وحومة الوغى والدعاء الى النزال فسألوا التثبت الظاهر والباطن وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الـكافرين الجاحدين بآياته وآلائه فاجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير الى ماسألوا وأنا لهم ما اليه فيـه رغبوا ولهـذا قال (فهزموهم باذن الله) أى بحول الله لا بحولهم وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم كما قال تعالى (ولقد نصركم الله ببـدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلـكم تشكرون) وقوله تعالى (وقتـل داود جالوت وآتاه الله الملك والحـكمة وعلمه مما يشاء) فيه دلالة على شجاعة داود عليـه السلام وانه قتله قتلا أذل به جنده وكسره ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ويأسر الابطال والشجعان والأقران وتعلو كلمة الايمان عـلى الأوثان ويدال لاولياء الله على أعـدائه . ويظهر الدين الحق عـلى الباطل وأوليائه * وقـد ذكر السدى فيا يرويه أن داود عليه السـلام كان أصغر أولاد أبيه وكانوا ثلاثة عشر ذكرا كان سمع طالوت ملك بنى إسرائيل وهو يحرض بنى اسرائيل عـلى قتل جالوت وجنوده وهو يقول من قتل جالوت زوجته بابنتي وأشركته فى ملكي وكان داود عليـه السلام يرمى بالقذافة وهو المقلاع رميا عظيما فبينا هو سائر مع بنى إسرائيـل إذ ناداه حجر أن خذنى فان بى تقتل جالوت فاخـذه ثم

حجر آخر كذلك ثم آخر كذلك فأخذ الثلاثة في مخلاته فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا الى نفسه فتقدم اليه داود فقال له ارجع فاني أكره قتلك فقال لكني أحب قتلك وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في القذافة ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً . ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفر جيشه منهزما فوفى له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرى حكمه في ملكه وعظم داود عليه السلام عند بني إسرائيل وأحبوه ومالوا اليه أكثر من طالوت فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله واحتال على ذلك فلم يصل اليه وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود فسلط عليهم فقتلهم حتى لم يبق منهم إلا القليل . ثم حصل له توبة وندم واقلاع عما سلف منه وجعل يكثر من البكاء ويخرج الى الجبانة فيبكي حتى يبل الثرى بدموعه فنودى ذات يوم من الجبانة أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياء وآذيتنا ونحن أموات فازداد لذلك بكاؤه وخوفه واشتد وجله ثم جعل يسأل عن عالم يسأله عن أمره وهل له من توبة فقيل له وهل أبقيت عالما ؟ حتى دل على امرأة من العابدات فأخذته فذهبت به الى قبر يوشع عليه السلام قالوا فدعت الله فقام يوشع من قبره فقال أقامت القيامة فقالت لا ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة فقال نعم ينخلع من الملك ويذهب فيقاتل في سبيل الله حتى يقتل . ثم عاد ميتا فترك الملك لداود عليه السلام وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا في سبيل الله حتى قتلوا قالوا فذلك قوله (وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) هكذا ذكره ابن جرير في تاريخه من طريق السدى باسناده . وفي بعض هذا نظر ونكارة والله أعلم .

وقال محمد بن اسحق النبي الذي بعث فاخبر طالوت بتوبته هو اليسع بن أخطوب حكاه ابن جرير أيضا . وذكر الثعلبي أنها أتت به الى قبر اشمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الامور وهذا أنسب . ولعله انما رآه في النوم لا أنه قام من القبر حيا فان هذا انما يكون معجزة لنبي وتلك المرأة لم تكن نبية والله أعلم ● وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت الى أن قتل مع أولاده أربعون سنة فالله أعلم ●

قصة داود وما كان في أيامه
ثم فضائله وشمائله ودلائل نبوته واعلامه

هو داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن ارم بن حصرون بن فارص ابن يهوذا بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس ● قال

محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه كان داود عليه السلام قصيرا أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه . تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر فأحبته بنو اسرائيل ومالوا اليه والى ملكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك الى داود عليه السلام وجمع الله له بين الملك والنبوة بين خير الدنيا والآخرة وكان الملك يكون فى سبط والنبوة فى آخر فاجتمع فى داود هذا وهذا كما قال تعالى (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) أى لولا اقامة الملوك حكاما على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم . ولهذا جاء فى بعض الآثار (السلطان ظل الله فى أرضه) . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان (ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) . وقد ذكر ابن جرير فى تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت فقال له اخرج الى واخرج اليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت . قال وهب بن منبه فمال الناس الى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود * وقيل ان ذلك عن أمر شمويل حتى قال بعضهم إنه ولاه قبل الوقعة . قال ابن جرير والذى عليه الجمهور انه انما ولى ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم * وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز ان قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وان النهر الذى هناك هو المذكور فى الآية فالله أعلم * وقال تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير) وقال تعالى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) . أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الاعداء وأرشده الى صنعتها وكيفيتها فقال (وقدر فى السرد) أى لا تدق المسمار فيقلق ولا تغلظه فيفصم قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة .

قال الحسن البصرى وقتادة والاعمش كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج الى نار ولا مطرقة . قال قتادة فكان أول من عمل الدروع من زرد وانما كانت قبل ذلك من صفائح قال ابن شوذب كان يعمل كل يوم درعا يبيعها بستة آلاف درهم وقد ثبت فى الحديث أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان نبى الله داود كان يأكل من كسب يده وقال تعالى (واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب . انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) قال ابن عباس ومجاهد الايد القوة فى الطاعة يعنى ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح قال قتادة اعطى قوة فى العبادة وفقها فى الاسلام قال وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أحب الصلوة الى الله صلاة داود

وأحب الصيام الى الله صيام داود) كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر اذا لاقى . وقوله (انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق والطير محشورة كل له أواب) كما قال (ياجبال أوبي معه والطير) أي سبحي معه قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية) انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق) أي عند آخر النهار وأوله وذلك انه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدا بحيث انه كان اذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرجّع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا صلوات الله وسلامه عليه . وقال الاوزاعي حدثني عبد الله بن عامر قال اعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشا وجوعاً وحتى ان الانهار لتقف . وقال وهب بن منبه كان لا يسمعه احد الا حجل كهيئة الرقص وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والانس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعا وقال أبو عوانة الاسفرايني حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن منصور الطوسي سمعت صبيحا أبثنا برادح قال ابو عوانة وحدثني أبو العباس المدني حدثنا محمد بن صالح العدوى حدثنا سيار هو ابن حاتم عن جعفر عن مالك قال كان داود عليه السلام اذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى وهذا غريب . وقال عبد الرزاق عن ابن جريج سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال وما بأس بذلك سمعت عبيد بن عمر يقول كان داود عليه السلام يأخذ المزفة فيضرب بها فيقرا عليها فترد عليه صوته يريد بذلك أن يبكي وتبكي . وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت سمع رسول الله (ص) صوت أبي موسى الاشعري وهو يقرأ فقال لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه وقال احمد حدثنا حسن حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمر عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال لقد أعطي أبو موسى من مزامير داود على شرط مسلم وقد روينا عن أبي عثمان الترمذي أنه قال لقد سمعت البربط والمزمار فما سمعت صوتا أحسن من صوت أبي موسى الاشعري . وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور كما قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) خفف على داود القراءة فكان يأمر بدابته فتسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل الا من عمل يديه وكذلك رواه البخاري

مفرداً به عن عبد الله بن محمد عن عبد الرزاق به ولفظه خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل الا من عمل يديه . ثم قال البخارى ورواه موسى ابن عقبة عن صفوان هو ابن سليم عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة عن النبى (ص)، وقد أسنده ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام فى تاريخه من طرق عن ابراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة ومن طريق أبى عاصم عن أبى بكر السبرى عن صفوان بن سليم به .

والمراد بالقرآن ههنا الزبور الذى انزله عليه وأوحاه اليه وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظا فانه كان ملكا له اتباع فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغنى به على وجه التخشع صلوات الله وسلامه عليه وقد قال الله تعالى (وآتينا داود زبوراً) والزبور كتاب مشهور وذكرنا فى التفسير الحديث الذى رواه أحمد وغيره أنه أنزل فى شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه * وقوله (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) أى أعطيناه ملكا عظيما وحكما نافذا . روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا الى داود عليه السلام فى بقر ادعى أحدهما على الاخر أنه اغتصبها منه فانكر المدعى عليه فارجأ أمرهما الى الليل فلما كان الليل أوحى الله اليه أن يقتل المدعى فلما أصبح قال له داود ان الله قد أوحى الى أن أقتلك فانا قاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته على هذا قال والله يا نبى الله انى لمحق فيما ادعيت عليه ولكنى كنت اغتلت أباه قبل هذا فأمر به داود فقتل فعظم أمر داود فى بنى اسرائيل جدا وخضعوا له خضوعا عظيما . قال ابن عباس وهو قوله تعالى (وشددنا ملكه) وقوله تعالى (وآتيناه الحكمة) أى النبوة (وفصل الخطاب) قال شريح والشعبى وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمى وغيرهم فصل الخطاب الشهود والأيمان يعنون بذلك البينة على المدعى واليمين على من أنكر . وقال مجاهد والسدى هو اصابة القضاء وفهمه . وقال مجاهد هو الفصل فى الكلام وفى الحكم واختاره ابن جرير وهذا لا ينافى ماروى عن أبى موسى أنه قول (اما بعد) . وقال وهب بن منبه لما كثر الشر وشهادات الزور فى بنى اسرائيل أعطى داود سلسلة لفصل القضاء فكانت ممدودة من السماء الى صخرة بيت المقدس وكانت من ذهب فاذا تشاجر الرجلان فى حق فأيهما كان محقا نالها والآخر لا يصل اليها فلم تزل كذلك حتى اودع رجل رجلا لؤلؤة فجحدها منه واتخذ عكازا وأودعها فيه فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعى فلما قيل للاخر خذها بيدك عمد الى العكاز فأعطاه المدعى وفيه تلك اللؤلؤة وقال اللهم انك تعلم أنى دفعتها اليه ثم تناول السلسلة فنالها فأشكل أمرها على بنى اسرائيل . ثم رفعت سريعا من بينهم . ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين . وقد رواه اسحق بن بشر عن ادريس ابن سنان عن وهب به بمعناه (وهل أتاك نبؤ الخصم اذ تسوروا المحراب اذ دخلوا على داود ففزع منهم

قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصا وأخبارا أكثرها اسرائيليات ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا ايرادها في كتابنا قصدا اكتفاء واقتصارا على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

وقد اختلف الائمة في سجدة ص هل هي من عزائم السجود أو انما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود على قولين * قال البخاري حدثنا محمد بن عبدالله حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن العوام قال سألت مجاهدا عن سجدة ص فقال سألت ابن عباس من أين سجدت قال أو ما تقرأ (ومن ذريته داود وسليمان) (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فكان داود ممن أمر نبيكم (ص) أن يقتدي به فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله (ص) وقد قال الامام أحمد حدثنا اسمعيل هو ابن علية عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال في السجود في ص ليست من عزائم السجود . وقد رأيت رسول الله (ص) يسجد فيها . وكذا رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أيوب وقال الترمذي حسن صحيح وقال النسائي أخبرني ابراهيم بن الحسن المقسمي حدثنا حجاج بن محمد عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي (ص) سجد في ص وقال سجدها داود توبة ونسجدها شكرا تفرد به أحمد ورجاله ثقات وقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب اخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري قال قرأ رسول الله (ص) وهو على المنبر ص فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد معه الناس فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود فقال انما هي توبة نبي ولكن رأيتكم تشزنتم فنزل وسجد . تفرد به أبو داود واسناده على شرط الصحيح . وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حميد حدثنا بكر هو ابن عبد الله المزني أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب ص فلما بلغ التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجدا قال فقصها على النبي (ص) فلم يزل يسجد بها بعد * تفرد به أحمد وروى الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال قال لي ابن جريج حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس قال جاء رجل الى النبي (ص) فقال يا رسول الله اني

رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدة (اللهم اكتب لى بها عندك أجرا واجعلها لى عندك ذخراً وضع عنى بها وزرا واقبلها منى كما قبلت من عبدك داود) وقال ابن عباس فرأيت النبى (ص) قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة . ثم قال الترمذى غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوما وقاله مجاهد والحسن وغيرهما وورد فى ذلك حديث مرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشى وهو ضعيف متروك الرواية * قال الله تعالى (فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) . اى ان له يوم القيامة لزلفى وهى القربة التى يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها كما ثبت فى حديث (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون فى أهليهم وحكمهم وما ولوا) . وقال الامام أحمد فى مسنده حدثنا يحيى بن آدم حدثنا فضيل عن عطية عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله (ص) ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا امام عادل وان أبغض الناس الى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا امام جائر وهكذا رواه الترمذى من حديث فضيل بن مرزوق الاغرّ به وقال لا نعرفه مرفوعا الا من هذا الوجه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبدالله بن أبى زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار فى قوله (وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) قال يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى فى الدنيا فيقول وكيف وقد سلبته فيقول انى أرده عليك اليوم قال فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) هذا خطاب من الله تعالى مع داود والمراد ولاة الامور وحكام الناس وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء والاهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به فى ذلك الوقت فى العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات حتى إنه كان لا يمضى ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته فى عبادة ليلا ونهاراً كما قال تعالى (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) قال أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا اسمعيل بن ابراهيم بن بسام حدثنا صالح المرى عن أبى عمران الجونى عن أبى الجلد قال قرأت فى مسألة داود عليه السلام أنه قال يا رب كيف لى أن أشكرك وأنا لا أصل الى شكرك إلا بنعمتك قال فأتاه الوحى « أن يا داود ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى قال بلى يارب قال فانى أرضى بذلك منك » وقال البيهقى أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر بن بالويه حدثنا محمد بن يونس القرشى حدثنا روح بن عبادة حدثنى عبد الله ابن لاحق عن ابن

شهاب قال قال داود « الحمد لله كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله فأوحى الله اليه إنك أتعبت الحفظة يا داود » ورواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن على بن الجعد عن الثورى مثله وقال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد أنبأنا سفيان الثورى عن رجل عن وهب بن منبه قال ان فى حكمة آل داود حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضى فيها الى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فان هذه الساعة عون على هذه الساعات واجمام القلوب وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه * وحق على العاقل أن لا يظعن إلا فى إحدى ثلاث زاد لمعاده ومرمة لمعاشه ولذة فى غير محرم وقد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن أبى بكر بن أبى خيثمة عن ابن مهدى عن سفيان عن أبى الاغر عن وهب بن منبه فذكره . ورواه أيضا عن على بن الجعد عن عمر بن الهيثم الرقاشى عن أبى الاغر عن وهب بن منبه فذكره وأبو الاغر هذا هو الذى أبهمه ابن المبارك فى روايته . قاله ابن عساكر وقال عبد الرزاق أنبأنا بشر بن رافع حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له أبو عبد الله قال سمعت وهب بن منبه فذكر مثله . وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة منها قوله كن لليتيم كالأب الرحيم * واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد . وروى بسند غريب مرفوعا قال داود يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها وعن داود عليه السلام أنه قال مثل الخطيب الاحمق فى نادى القوم كمثل المغنى عند رأس الميت وقال أيضا ما أقبح الفقر بعد الغنى وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى وقال انظر ما تكره أن يذكر عنك فى نادى القوم فلا تفعله اذا خلوت . وقال لاتعدن أخاك بما لاتنجزه له فان ذلك عداوة ماينك وبينه. وقال محمد بن سعد أنبأنا محمد بن عمر الواقدى حدثنى هشام بن سعد عن عمر مولى عفرة قال قالت يهود لما رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج النساء انظروا الى هذا الذى لايشبع من الطعام ولا والله ماله همة الا الى النساء حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا لو كان نبيا مارغب فى النساء وكان أشدهم فى ذلك حيى بن أخطب فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله عليه وسلامه فقال (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) يعنى بالناس رسول الله صلى الله عليه وسلم (فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) يعنى ما آتى الله سليمان ابن داود كانت له الف امرأة سبعمائة مهرية وثلثمائة سرية وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التى تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الكلبى نحو هذا وانه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان الف امرأة منهن ثلثمائة سرية

(١) وروى الحافظ فى تاريخه فى ترجمة صدقة الدمشقى الذى يروى عن ابن عباس من طريق الفرج

---

(١) من هنا لآخر القصة لم يوجد فى النسختين الموجودتين بالمكتبة المصرية *

ابن فضالة الحمصي عن أبي هريرة الحمصي عن صدقة الدمشقي أن رجلا سأل ابن عباس عن الصيام فقال لأحدثنك بحديث كان عندي في البحث (١) مخزونا إن شئت أنبأتك بصوم داود فانه كان صواما قواما وكان شجاعا لا يفر اذا لاقى وكان يصوم يوما ويفطر يوما وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الصيام صيام داود وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتا يكون فيها وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شئ ويصرف بصوته المهموم والمحموم * وان شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فانه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ومن وسطه ثلاثة أيام ومن آخره ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام . وان شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى بن مريم فانه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب وكان أينما أدركه الليل صفن بين قدميه وقام يصلي حتى يصبح وكان راميا لا يفوته صيد يريده وكان يمر بمجالس بني اسرائيل فيقضي لهم حوائجهم .

وان شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران فانها كانت تصوم يوما وتفطر يومين .

وان شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الامي محمد (ص) فانه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول إن ذلك صوم الدهر . وقد روى الامام احمد عن أبي النضر عن فرج بن فضالة عن أبي هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعا في صوم داود *

كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام

قد تقدم في ذكر الاحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الانبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلا يزهر فقال أي رب من هذا قال هذا ابنك داود قال أي رب كم عمره قال ستون عاما قال أي رب زد في عمره قال لا الا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاما فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال بقي من عمري أربعون سنة ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم الف سنة ولداود مائة سنة رواه احمد عن ابن عباس والترمذي وصححه عن أبي هريرة وابن خزيمة وابن حبان . وقال الحاكم على شرط مسلم . وقد تقدم ذكر طرقه والفاظه في قصة آدم * قال ابن جرير وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعا وسبعين سنة . قلت هذا غلط مردود عليهم قالوا وكان مدة ملكه أربعين سنة وهذا قد يقبل نقله لانه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه

---

(١) البحث المدفن اه

واما وفاته عليه السلام فقال الامام احمد في مسنده حدثنا قبيصة حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان اذا خرج أغلق الابواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع الى الدار فاذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لتفتضحن بداود فجاء داود فاذا الرجل قائم في وسط الدار فقال له داود من أنت فقال أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب فقال داود أنت والله إذن ملك الموت مرحبا بأمر الله ثم مكث حتى قبضت روحه فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس فقال سليمان للطير أظلي على داود فأظلته الطير حتى اظلمت عليه الأرض فقال سليمان للطير اقبضي جناحا قال قال أبو هريرة فطفق رسول الله (ص) يرينا كيف فعلت الطير وقبض رسول الله (ص) بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية . انفرد باخراجه الامام احمد واسناده جيد قوي رجاله ثقات ومعنى قوله وغلبت عليه يومئذ المضرحية أي وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الاجنحة واحدها مضرحي ، قال الجوهري وهو الصقر الطويل الجناح وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال مات داود عليه السلام فجأة وكان يسبت وكانت الطير تظله . وقال السدي أيضاً عن أبي مالك وعن سعيد بن جبير قال مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة . وقال اسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الاربعاء فجأة . وقال أبو السكن الهجري مات ابراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين رواه ابن عساكر وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له دعني أنزل أو أصعد فقال يانبي الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والارزاق . قال فخر ساجداً على مرقاة من تلك المراقي فقبضه وهو ساجد . وقال اسحاق بن بشر (١) انبأنا وافر بن سليمان عن أبي سليمان الفلسطيني عن وهب بن منبه قال إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف قال وكان قد شيع جنازته يومئذ اربعون الف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهرون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعا عليه منهم على داود قال فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما اصابهم من الحر فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت فأمرها أن تظل الناس فتراص بعضها الى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غما فصاحوا

---

(١) هو اسحاق بن بشر بن حذيفة البخاري صاحب كتاب المبتدا والفتوح وتركوه وكذبه علي بن المديني وقال ابن حبان لا يحل حديثه الا على جهة التعجب وقال الدار قطني متروك وقوله وافر بن سليمان كذا بالنسخة الحلبية .

الى سليمان عليه السلام من الشم فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلى الناس من ناحية الشمس وتنحى عن ناحية الريح ففعلت فكان الناس فى ظل وتهب عليهم الريح فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع حدثنى الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبى الدرداء قال قال رسول الله ﷺ لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتى سنة هذا حديث غريب وفى رفعه نظر والوضين بن عطاء كان ضعيفا فى الحديث والله أعلم *

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ بن عساكر هو سليمان بن داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عينا داب بن ارم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم أبى الربيع نبى الله بن نبى الله . جاء فى بعض الآثار أنه دخل دمشق . قال ابن ماكولا فارص بالصاد المهملة وذكر نسبه قريبا مما ذكره ابن عساكر قال الله تعالى (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ ان هذا لهو الفضل المبين) أى ورثه فى النبوة والملك وليس المراد ورثه فى المال لانه قد كان له بنون غيره فما كان ليخص بالمال دونهم ولأنه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال لا نورث ما تركنا فهو صدقة وفى لفظ نحن معاشر الأنبياء لا نورث فاخبر الصادق المصدوق أن الانبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم بل يكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها اقربلؤهم لان الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هى عند الذى أرسلهم واصطفاهم وفضلهم وقال (يا أيها الناس علمنا منطق الطير الآية) يعنى أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وارادتها . وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى أنبأنا أبو عبد الله الحافظ (١) أنبأنا على بن حشاد (٢) حدثنا اسمعيل بن قتيبة حدثنا على بن قدامة حدثنا أبو جعفر الاسوانى (٣) يعنى محمد بن عبد الرحمن عن أبى

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبى الطهمانى الحاكم النيسابورى المعروف بابن البيع . وانما عرف بالحاكم لتقلده القضاء وهو صاحب المستدرك وغيره (٢) كذا فى الطبعة وحشاذ فى المصريتين وكلاهما خطأ والصواب حمشاذ عن محمود الامام (٣) كذا فى النسخ بنون بعد الالف وواو بعد السين وهو خطأ والصواب الاستوائى بالهمز بعد الالف وبتاء مثناة بين السين والواو نسبة الى استواء بضم الهمزة ثم السكون وضم التاء المثناة وواو وألف . وهى كورة من نواحى نيسابور ومعناها

يعقوب العمى (١) حدثنى أبو مالك قال مر سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقال لاصحابه أتدرون ما يقول قالوا وما يقول يا نبى الله : قال يخطبها الى نفسه ويقول زوجينى أسكنك أى غرف دمشق شئت. قال سليمان عليه السلام لان غرف دمشق مبنيـة بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ولـكن كل خاطب كذاب . رواه ابن عساكر عن أبى القاسم زاهر بن طاهر (٢) عن البيهقى به وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات والدليل على هـذا قوله بعد هذا من الآيات (وأوتينا من كل شئ) أى من كل مايحتاج الملك اليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والانس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال (إن هـذا لهو الفضل المبين) أى من بارئ البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى (وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين).

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوما فى جيشه جميعه من الجن والانس والطير فالجن والانس يسيرون معه والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة أى نقباء يردون أوله على آخره فلا يتقدم أحد عن موضعه الذى يسير فيـه ولا يتأخر عنـه قال الله تعالى (حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور . وقد ذكر وهب أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف وأن هذه النملة كان اسمها جرسا وكانت من قبيلة يقال لهم بنو الشيصبان وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب . وفى هذا كله نظر بل فى هـذا السياق دليل على أنه كان فى موكبه راكبا فى خيوله وفرسانه لا كما زعم بعضهم من أنه كان اذ ذاك على البساط لانه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شئ ولا وطء لان البساط كان عليه جميع ما يحتاجون اليه من الجيوش والخيول والجمال والاثقال والخيام والانعام والطير من فوق ذلك كله كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى

بلسانهم المضحاة والمشرقة عن صود الامام (١) كذا بالأصول بالعين المهملة والصواب القمى بضم القاف
وتشديد الميم . وهو يعقوب بن عبـد الله بن سعد بن مالك بن هانى بن عامر بن أبى عامر الاشعرى
أبو الحسن القمى رحمهم الله : (٢) هو زاهر بن طاهر أبو القاسم الشحامى مسند نيسابور صحيح السماع
لـكنه يخل بالصلاة فترك الرواية عنه غير واحد من الحفاظ تورعا وقبله آخرون

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ملخاطبت به تلك النملة لامنها من الرأى السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك فان هـذا لايقوله الا الذين لايعلمون ولو كان هـذا هكذا لم يكن لسليمان فى فهم لغاتها مزية على غيره اذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لاتتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن فى هـذا أيضا فائدة يعول عليها ولهـذا قال (رب أوزعنى) أى ألهمنى وأرشدنى (أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ماخصه به من المزية على غيره وان يسر عليه العمل الصالح وان يحشره اذا توفاه مع عباد الصالحين وقد استجاب الله تعالى له * والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه وكانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبى (ص) قال قالت أم سليمان بن داود يابنى لا تكثر النوم بالليل فان كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه . (١) وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى أن سليمان ابن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة احدى قوائمها تستسقى فقال لاصحابه ارجعوا فقد سقيتم ان هذه النملة استسقت فاستجيب لها . قال ابن عساكر وقد روى مرفوعا ولم يذكر فيه سليمان ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد عن عقيل عن ابن شهاب حدثنى أبو سلمة عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله (ص) يقول خرج نبى من الانبياء بالناس يستسقون الله فاذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها الى السماء فقال النبى ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة وقال السدى أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام فأمر الناس فخرجوا فاذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهى تقول « اللهم انا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك » قال فصب الله عليهم المطر . قال تعالى (وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون الا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ما يخفون وما تعلنون الله لا إله الا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . إذهب بكتابى هـذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون .

(١) من هنا لنهايةقوله فصب الله عليهم المطر لم يوجد بالنسختين الموجودتين بالمكتبة المصرية .

قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة أهلها اذلة وكذلك يفعلون وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون) يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هى عادة الجنود مع الملوك وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا اذا اعوزوا الماء فى القفار فى حال الاسفار يجئ فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء وفيه من القوة التى أودعها الله تعالى فيه أن ينظر الى الماء تحت تخوم الأرض فاذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه واخرجوه واستعملوه لحاجتهم فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده فى موضعه من محل خدمته (فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) أى ماله مفقود من ههنا أوقد غاب عن بصرى فلا أراه بحضرتى (لأعذبنه عذابا شديدا) توعده بنوع من العذاب • اختلف المفسرون فيه والمقصود حاصل على كل تقدير (أولا ذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين) أى بحجة تنجيه من هذه الورطة . قال الله تعالى (فمكث غير بعيد) أى فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها (فقال) لسليمان (احطت بما لم تحط به) أى اطلعت على ما لم تطلع عليه (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) أى بخبر صادق (انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم) يذكر ما كان عليه ملوك سبأ فى بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين وكان الملك قد آل فى ذلك الزمان الى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم .

وذكر الثعلبى وغيره أن قومها ملكوا عليهم بعد ابيها رجلا فعم به الفساد فارسلت اليه تخطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمرا ثم حزت رأسه ونصبته على بابها فاقبل الناس عليها وملكوها عليهم وهى بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد وقيل شراحيل بن ذى جدن بن السيرح بن الحرث بن قيس ابن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان أبوها من اكابر الملوك وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن فيقال إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت السكن فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة ويقال لها بلقيس . وقد روى الثعلبى من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن النضر بن انس عن بشير بن نهيك عن أبى هريرة عن النبى (ص) أنه قال كان أحد أبوى بلقيس جنياً . وهذا حديث غريب وفى سنده ضعف . وقال الثعلبى اخبرنى أبو عبد الله بن قبحويه حدثنا أبو بكر بن خرجة حدثنا ابن أبى الليث حدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن أبى بكرة قال ذكرت بلقيس

عند رسول الله (ص) قال لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة . اسماعيل بن مسلم هذا هو المكى ضعيف . وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث عوف عن الحسن عن أبى بكرة أن رسول الله (ص) لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة . ورواه الترمذى والنسائى من حديث حميد عن الحسن عن أبى بكرة عن النبى (ص) وقال الترمذى حسن صحيح وقوله (واوتيت من كل شئ) أى مما من شأنه أن تؤتاه الملوك (ولها عرش عظيم) يعنى سرير عظيم كان مزخرفا بانواع الجواهر واللآلى والذهب والحلى الباهر . ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله واضلال الشيطان لهم وصده اياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون أى يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات (الله لا إله الا هو رب العرش العظيم) أى له العرش العظيم الذى لا أعظم منه فى المخلوقات . فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم الى طاعة الله وطاعة رسوله والانابة والاذعان الى الدخول فى الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم (ألا تعلوا على) أى لا تستكبروا عن طاعتى وامتثال أوامرى (وأتونى مسلمين) أى وأقدموا على سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة فلما جاءها الكتاب مع الطير ومن ثم اتخذ الناس البطائق ولكن أين الثريا من الثرى تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء الى قصرها فالقاه اليها وهى فى خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها الى مشورتها (قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم) ثم قرأت عليهم عنوانه أولا (انه من سليمان) ثم قرأته (وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) ثم شاورتهم فى أمرها وما قد حل بها وتأدبت بهم وخاطبتهم وهم يسمعون (قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) تعنى ما كنت لأبت أمرا الا وأنتم حاضرون (قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد) يمنون لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الابطال فان أردت منا ذلك فانا عليه من القادرين (و) مع هذا (الامر اليك فانظرى ماذا تأمرين) فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا اليها فى ذلك الامر لترى فيه ماهو الارشد لها ولهم فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع (قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) تقول برأيها السديد إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم الا الى ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة الا على (وإنى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم ان سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفا ولا عدلا لانهم كافرون وهو

وجنوده عليهم قادرون ولهذا (لما جاء سليمان قال اتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة كما ذكره المفسرون ثم قال لرسولها اليه ووافدها الذى قدم عليه والناس حاضرون يسمعون (ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) يقول ارجع بهديتك التى قدمت بها الى من قدمن بها فان عندى مما قد أنعم الله علىّ وأسداه الىّ من الاموال والتحف والرجال ما هو اضعاف هذا وخير من هذا الذى أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه (فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها) أى فلا بعثن اليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولانزالهم ولا مما نعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم وسلطانهم ودولتهم أذلة (وهم صاغرون) عليهم الصغار والعار والدمار فلما بلغهم ذلك عن نبى الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة فبادروا الى اجابته فى تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم اليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ماقصه الله عنه فى القرآن . (قال ياأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين قيل . لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التى تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) يعنى قبل أن ينقضى مجلس حكمك وكان فيما يقال من أول النهار الى قريب الزوال يتصدى لمهمات بنى اسرائيل ومالهم من الاشغال (وانى عليه لقوى أمين) أى وانى لذو قدرة على احضاره اليك وامانة على مافيه من الجواهر النفيسة لديك (قال الذى عنده علم من الكتاب) المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان . وقيل هو رجل من مؤمنى الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الاعظم ، وقيل رجل من بنى اسرائيل من علمائهم وقيل إنه سليمان وهذا غريب جداً . وضعفه السهيلى بانه لايصح فى سياق الكلام قال وقد قيل فيه قول رابع وهو جبريل (أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) قيل معناه قبل أن تبعث رسولا الى أقصى ماينتهى اليه طرفك من الارض ثم يعود اليك . وقيل قبل أن يصل اليك أبعد من تراه من

الناس وقيل قبل أن يكل طرفك اذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك . وقيل قبل أن يرجع اليك طرفك اذا نظرت به الى أبعد غاية منك ثم أغمضته وهـذا أقرب ما قيل . (فلما رآه مستقراً عنده) أى فلما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده فى هذه المدة القريبة من بلاد اليمن الى بيت المقدس فى طرفة عين (قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر) أى هذا من فضل الله على وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه (ومن شكر فانما يشكر لنفسه) أى انما يعود نفع ذلك عليه (ومن كفر فان ربى غنى كريم) أى غنى عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلى هذا العرش وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال (ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو) وهـذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها لانها خلفته وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر عـلى هذا الصنع العجيب الغريب قال الله تعالى اخباراً عن سليمان وقومه (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) أى ومنعها عبادة الشمس التى كانت تسجد لها هى وقومها من دون الله اتباعا لدين آبائهم واسلافهم لا لدليل قادهم الى ذلك ولا حداهم على ذلك وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل فى ممره ماء وجعل عليه سقفا من زجاج وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه (فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقد قيل ان الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان وأن تبدى عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه . وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة وهذا ضعيف وفى الاول أيضا نظر والله أعلم الا أن سليمان قيل إنه لما أراد ازالته حين عزم على تزوجها سأل الانس عن زواله فذكروا له الموسى فامتنعت من ذلك فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا له الحمام فكان أول من دخل الحمام فلما وجد مسه قال أوه من عذاب اوه أوه قبل أن لا ينفع اوه . رواه الطبرانى مرفوعا وفيه نظر .

وقد ذكر الثعلبى وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها اليه وكان يزورها فى كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن غمدان وسالحين وبينون فالله أعلم . وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان وأقرها على ملك اليمن وسخر زوبعة ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التى ذكرناها باليمن والأول اشهر واظهر والله أعلم .

وقال تعالى فى سورة ص(ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق . ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسداً ثم أناب قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) . يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ثم أثنى الله عليه تعالى فقال (نعم العبد إنه أواب) أى رجاع مطيع لله . ثم ذكر تعالى ما كان من أمره فى الخيل الصافنات ، هى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة الجياد وهى المضمرة السراع (فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) يعنى الشمس وقيل الخيل على ما سنذكره من القولين . (ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق) قيل مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف . وقيل مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر • والذى عليه أكثر السلف الاول فقالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس روى هذا عن على بن أبى طالب وغيره والذى يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر اللهم الا أن يقال إنه كان سائغا فى شريعتهم تأخير الصلاة لاجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك • وقد ادعى طائفة من العلماء فى تأخير النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعا اذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف قاله الشافعى وغيره . وقال مكحول والاوزاعى بل هو حكم محكم الى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد كما ذكرنا تقرير ذلك فى سورة النساء عند صلاة الخوف . وقال آخرون بل كان تأخير النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العصر يوم الخندق نسيانا وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا والله أعلم . واما من قال الضمير فى قوله حتى توارت بالحجاب عائد على الخيل وانه لم تفته وقت صلاة وان المراد بقوله (ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق) يعنى مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها فهذا القول اختاره ابن جرير ورواه الوالبى عن ابن عباس فى مسح العرق • ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها وهذا الذى قاله فيه نظر لانه قد يكون هذا سائغا فى ملتهم وقد ذهب بعض علمائنا الى أنه اذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شئ من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها واهلاكها لئلا يتقووا بها وعليه حمل صنيع جعفر بن أبى طالب يوم عقر فرسه بمؤته وقد قيل إنها كانت خيلا عظيمة . قيل كانت عشرة آلاف فرس وقيل عشرين الف فرس . وقيل كان فيها عشرون فرسا من ذوات الاجنحة . وقد روى أبو داود فى سننه حدثنا محمد بن عوف حدثنا سعيد ابن أبى مريم أنبأنا يحيى بن أيوب حدثنى عمارة بن غزية أن محمد بن ابراهيم حدثه عن محمد بن أبى سلمة

ابن عبد الرحمن عن عائشة قالت قدم رسول الله (ص) من غزوة تبوك أو خيبر وفى سهوتها ستر فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة تلعب فقال ماهذا ياعائشة فقالت بناتى ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع فقال ماهذا الذى أرى وسطهن قلت فرس قال وما الذى عليه هذا قالت جناحان قال فرس له جناحان قالت أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة قالت فضحك حتى رأيت نواجذه (ص) . وقال بعض العلماء لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير له منها وهو الريح التى كانت غدوها شهرا ورواحها شهرا كما سيأتى الكلام عليها كما قال الامام احمد حدثنا اسمعيل حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبى قتادة وأبى الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوى أخذ بيدى رسول الله (ص) فجعل يعلمنى مما علمه الله عزوجل وقال انك لاتدع شيئا اتقاء الله عزوجل الا أعطاك الله خيراً منه . وقوله تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) . ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من المفسرين ههنا آثارا كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقاة من الاسرائيليات وفى كثير منها نكارة شديدة وقد نبهنا على ذلك فى كتابنا التفسير واقتصرنا ههنا على مجرد التلاوة ومضمون ماذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوما ثم عاد اليه ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكما . وقد قدمنا أنه جدده وأن أول من جعله مسجداً اسرائيل عليه السلام كما ذكرنا ذلك عند قول أبى ذر قلت يارسول الله أى مسجد وضع أول قال المسجد الحرام قلت ثم أى قال مسجد بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة ومعلوم أن بين ابراهيم الذى بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة دع أربعين سنة وكان سؤاله الملك الذى لاينبغى لاحد من بعده بعد اكماله البيت المقدس كما قال الامام احمد والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمى عن عبد الله ابن عمرو ابن العاص قال قال رسول الله (ص) إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عزوجل خلالا ثلاثا فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه اياه وسأله ملكا لاينبغى لاحد من بعده فأعطاه إياه وسأله ايما رجل خرج من بيته لايريد الا الصلاة فى هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا اياها . فأما الحكم الذى يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه فى قوله (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) وقد ذكر شريح القاضى وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين أى رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية فتحاكموا الى داود عليه السلام فحكم لاصحاب الكرم بقيمته فلما خرجوا على سليمان قال بما حكم لكم نبى الله فقالوا بكذا وكذا فقال أما لو كنت أنا لما حكمت الا بتسليم الغنم الى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجا ودرا حتى

يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه الى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به وقريب من هذا ماثبت فى الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) بينما امرأتان معهما ابناهما اذ عدا الذئب فأخذ ابن احداهما فتنازعتا فى الآخر فقالت الكبرى انما ذهب بابنك وقالت الصغرى بل انما ذهب بابنك فتحاكمتا الى داود فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال ائتونى بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه فقالت الصغرى لاتفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها ولعل كلا من الحكمين كان سائغا فى شريعتهم ولكن ماقاله سليمان أرجح ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه اياه ومدح بعد ذلك أباه فقال (وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) .

ثم قال (ولسليمان الريح عاصفة) أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة (تجرى بأمره الى الارض التى باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنالهم حافظين) .

وقال فى سورة ص (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب .وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) . لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التى هى أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها تجرى بأمره رخاء (حيث أصاب) أى حيث أراد من أى البلاد .كانله بساط مركب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع مايحتاج اليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والاثقال والرجال من الانس والجان وغير ذلك من الحيوانات والطيور فاذا أراد سفراً أو مستنزها أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد الله شاء فاذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فاذا استقل بين السماء والارض أمر الرخاء فسارت به فان أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع مايكون فوضعته فى أى مكان شاء بحيث إنه كان يرتحل فى أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه باصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك الى آخر النهار ثم يروح من آخره فترده الى بيت المقدس كما قال تعالى (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) .

قال الحسن البصرى كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحا منها فيبيت بكابل وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر قلت قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن اصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديما وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر وبيت المقدس وباب جيرون وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الاقوال .

وأما القطر فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد هو النحاس قال قتادة وكانت باليمن أنبعها الله له قال السدى ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج اليه للبنايات وغيرها وقوله (ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) أى وسخر الله له من الجن عمالا يعملون له مايشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الامر عذبه ونكل به (يعملون له ما يشاء من محاريب) وهى الاماكن الحسنة وصدور المجالس (وتماثيل) وهى الصور فى الجدران وكان هذا سائغا فى شريعتهم وملتهم (وجفان كالجواب) . قال ابن عباس الجفنة كالجوبة من الارض وعنه كالحياض وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء كما قال الاعشى .

تَرُوحُ على آلِ المحلّق جَفنةٌ كجابيةِ الشَّيخِ العِراقِي يَفْهَقُ

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة أثافيها منها يعنى أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن وهكذا قال مجاهد وغير واحد ولما كان هذا بصدد اطعام الطعام والاحسان الى الخلق من انسان وجان قال تعالى (اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) وقال تعالى (والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد) يعنى أن منهم من قد سخره فى البناء ومنهم من يأمره بالغوص فى الماء لاستخراج ماهنالك من الجواهر واللآلى وغير ذلك مما لا يوجد الا هنالك وقوله (وآخرين مقرنين فى الاصفاد) أى قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين فى الاصفاد وهى القيود . هذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الاشياء التى هى من تمام الملك الذى لا ينبغى لاحد من بعده ولم يكن أيضا لمن كان قبله

وقد قال البخارى ثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فاخذته فأردت أن أربطه الى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا اليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى فرددته خاسئا) . وكذا رواه مسلم والنسائى من حديث شعبة وقال مسلم حدثنا محمد بن سلمة المرادى حدثنا عبدالله بن وهب عن معاوية بن صالح حدثنى ربيعة بن يزيد عن أبى ادريس الخولانى عن أبى الدرداء قال قام رسول الله (ص) فصلى فسمعناه يقول أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال ان عدو الله ابليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات . ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لاصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة . وكذا رواه النسائى عن محمد بن سلمة به . وقال أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا مرة بن معبد ثنا أبو عبيد

حاجب سليمان قال رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائما يصلي فذهبت أمر بين يديه فردني ثم قال حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله (ص) قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة. فلما فرغ من صلاته قال لو رأيتموني وابليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الابهام والتي تليها ولولا دعوة أخي سليمان لاصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينه فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل. روى أبو داود منه فمن استطاع الى آخره عن أحمد بن سريج عن احمد الزبيري به *

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء الف امرأة سبعمائة بمهور وثلثمائة سراري وقيل بالعكس ثلثمائة حرائر وسبعمائة من الاماء. وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيما جداً قال البخاري حدثنا خالد بن مخلد حدثنا مغيرة بن عبدالرحمان عن أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال قال سليمان بن داود لاطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه إن شاء الله فلم يقل فلم تحمل شيئا الا واحدا ساقطا أحد شقيه فقال النبي (ص) لو قالها لجاهدوا في سبيل الله * وقال شعيب وابن أبي الزناد تسعين وهو أصح تفرد به البخاري من هذا الوجه وقال أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا يزيد أنبأنا هشام بن حسان عن محمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) قال سليمان بن داود لاطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاما يضرب بالسيف في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة الا امرأة ولدت نصف انسان فقال رسول الله (ص) لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاما يضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل. إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه. وقال الامام احمد حدثنا هشيم ثنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال سليمان بن داود لاطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله ولم يستثن فما ولدت الا واحدة منهن بشق انسان قال قال رسول الله (ص) لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل في سبيل الله عز وجل تفرد به احمد أيضاً.

وقال الامام احمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) قال سليمان بن داود لا طوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله قال ونسي أن يقول إن شاء الله فاطاف بهن قال فلم تلد منهن امرأة الا واحدة نصف إنسان فقال رسول الله (ص) لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبدالرزاق به مثله. وقال اسحاق بن بشر أنبأنا مقاتل عن أبي الزناد وابن أبي الزناد عن أبيه عن عبدالرحمن عن أبي هريرة أن سليمان بن داود كان له اربعمائة امرأة وستمائة سرية فقال يوما لأطوفن الليلة على الف امرأة فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يستثن فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن

الا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان فقال النبي (ص) والذي نفسي بيده لو استثنى فقال إن شاء الله لولد له ما قال فرسان ولجاهدوا في سبيل الله عز وجل . وهذا اسناد ضعيف لحال اسحاق بن بشر فانه منكر الحديث ولاسيما وقد خالف الروايات الصحاح . وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ، ما لم يكن لاحد قبله ولا يعطيه الله أحدا بعده كما قال (وأوتينا من كل شيء وقال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي انك أنت الوهاب) وقد اعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق . ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وامداه من النعم الكاملة العظيمة اليه قال (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) أي أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك أي تصرف في المال كيف شئت فان الله قد سوغ لك كلما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك وهذا شان النبي الملك بخلاف العبد الرسول فان من شأنه أن لا يعطي أحدا ولا يمنع أحدا إلا باذن الله له في ذلك وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبداً رسولا . وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك فاشار اليه أن تواضع فاختار أن يكون عبداً رسولا صلوات الله وسلامه عليه وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته الى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة فلله الحمد والمنة .

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والاجر الجليل والقربة التي تقربه اليه والفوز العظيم والاكرام بين يديه وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى (وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

وفاته ومدة ملكه وحياته

قال الله تبارك وتعالى (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) . روى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث ابراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي (ص) ، قال كان سليمان نبي الله عليه السلام اذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها ما اسمك فتقول كذا فيقول لاي شيء أنت فان كانت لغرس غرست وان كانت لدواء أنبتت فبينما هو يصلي ذات يوم اذ رأى شجرة بين يديه فقال لها ما اسمك قالت الخروب قال لاي شيء أنت قالت لخراب هذا البيت فقال سليمان اللهم عم على الجن موتي حتى تعلم الانس أن الجن لا يعلمون الغيب فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا والجن تعمل فاكلتها الارضة فتبينت الانس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولا في العذاب المهين . قال وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال فشكرت الجن الارضة فكانت تأتيها بالماء .

لفظ ابن جرير وعطاء الخراساني في حديثه نكارة * وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة ابن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفا وهو أشبه بالصواب والله أعلم . وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه فأدخله في المرة التي توفي فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه الا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك فتقول الشجرة اسمي كذا وكذا فان كانت لغرس غرسها وان كانت نبتت دواء قالت نبت دواء لكذا وكذا فيجعلها كذلك حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة فسألها ما اسمك فقالت أنا الخروبة فقال ولاي شئ نبت فقالت نبت لخراب هذا المسجد فقال سليمان ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها في حائط له. ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئا على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول الست جليداً ان دخلت فخرجت من ذلك الجانب فيدخل حتى يخرج من الجانب الاخر فدخل شيطان من اولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر الى سليمان عليه السلام وهو في المحراب الا احترق ولم يسمع صوت سليمان ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ونظر الى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً فخرج فاخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عنه فاخرجوه ووجدوا منسأته وهي العصا بلسان الحبشة قد أكلتها الارضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الارضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة . ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وهي قراءة ابن مسعود فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا كاملا فايقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله عز وجل (مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين) يقول تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ثم ان الشياطين قالوا للارضة لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ولكنا سننقل اليك الماء والطين قال فانهم ينقلون اليها ذلك حيث كانت قال ألم تر الى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو ما يأتيها به الشيطان تشكراً لها . وهذا فيه من الاسرائيلات التي لا تصدق ولا تكذب .

وقال أبو داود في كتاب القدر حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن الاعمش عن خيثمة قال قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت اذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني قال ما أنا أعلم بذاك منك انما هي كتب يلقى الي فيها تسمية من يموت . وقال اصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب عن

عبد الرحمن بن زيد بن اسلم قال قال سليمان لملك الموت اذا أمرت بي فاعلمني فأتاه فقال ياسليمان قد امرت بك قد بقيت لك سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوك على عصاه ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت قال والجن تعمل بين يديه وينظرون اليه يحسبون أنه حي قال فبعث الله دابة الارض يعني الى منسأته فاكلتها حتى اذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا قال فذلك قوله (مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لوكانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين) . قال اصبغ وبلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل في منسأته حتى خر وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم .

قال اسحاق بن بشر عن محمد ابن اسحاق عن الزهري وغيره ان سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة وقال اسحاق أنبأنا أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة والله أعلم وقال ابن جرير فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفاً وخمسين سنة وفي سنة اربع من ملكه ابتدأ بناء بيت المقدس فيما ذكر ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير وقال ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل .

جماعة من انبياء بني اسرائيل بعد داود وسليمان وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام

فمنهم شعيا بن امصيا قال محمد بن اسحاق وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام وكان في زمانه ملك اسمه حزقيا على بني إسرائيل ببلاد بيت المقدس وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح وكانت الاحداث قد عظمت في بني إسرائيل فرض الملك وخرجت في رجله قرحة . وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب قال ابن اسحاق في ستمائة الف راية وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً وقال الملك للنبي شعيا ماذا أوحى الله اليك في أمر سنحاريب وجنوده فقال لم يوح الى فيهم شئ بعد .ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزقيا بان يوصي ويستخلف على ملكه من يشاء فانه قد اقترب أجله فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكي ويتضرع الى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر (اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يارحمن

يارحيم يامن لاتأخذه سنة ولانوم اذكرنى بعلمى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل وذلك كله كان منك فانت أعلم به من نفسى سرى واعلانى لك) قال فاستجاب الله له ورحمه واوحى الله الى شعيا أن يبشره بانه قد رحم بكاءه وقد أخر فى أجله خمس عشر سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجداً وقال فى سجوده (اللهم أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين) فلما رفع رأسه أوحى الله الى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ . ففعل ذلك فشفى وارسل الله على جيش سنحاريب الموت فاصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من اصحابه منهم بخت نصر فارسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الاغلال وطاف بهم فى البلاد على وجه التنكيل بهم والاهانة لهم سبعين يوما ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ثم أودعهم السجن واوحى الله تعالى الى شعيا أن يأمر الملك بارسالهم الى بلادهم لينذروا قومهم ماقدحل بهم فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه واخبرهم بما قد كان من امرهم فقال له السحرة والكهنة انا اخبرناك عن شأن ربهم وانبيائهم فلم تطعنا وهى أمة لايستطيعها احد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين . قال ابن اسحاق ثم لمامات حزقيا ملك بنى اسرائيل مرج امرهم واختلطت احداثهم وكثر شرهم فاوحى الله تعالى الى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم واخبرهم عن الله بما هو اهله وانذرهم بأسه وعقابه ان خالفوه وكذبوه . فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وادركه الشيطان فاخذ بهدبة ثوبه فابرزها فلما رأوا ذلك جاؤا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها فانا لله وإنا اليه راجعون

ومنهم ارميا بن حلقيا من سبط لاوى بن يعقوب

وقد قيل إنه الخضر رواه الضحاك عن ابن عباس وهو غريب وليس بصحيح * قال ابن عساكر جاء فى بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال أيها الدم فتنت الناس فاسكن فسكن ورسب حتى غاب * وقال أبو بكر بن ابى الدنيا حدثنى على بن أبى مريم عن احمد بن حباب عن عبدالله بن عبدالرحمن قال قال أرميا أى رب أى عبادك احب اليك قال اكثرهم لى ذكراً الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق . الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون انفسهم بالبقاء . الذين اذا عرض لهم عيش الدنيا قلوه واذا زوى عنهم سروا بذلك . أولئك أنحلهم محبتى واعطيهم فوق غاياتهم .

خراب بيت المقدس

وقوله تعالى (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل أن لا تتخذوا من دونى وكيلا ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبداً شكورا . وقضينا الى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا اولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً إن أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) وقال وهب بن منبه أوحى الله الى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له أرميا حين ظهرت فيهم المعاصى أن قم بين ظهرانى قومك فاخبرهم أن لهم قلوبا ولا يفقهون وأعينا ولا يبصرون وآذانا ولا يسمعون وأنى تذكرت صلاح آبائهم فعطفنى ذلك على أبنائهم فسلهم كيف وجدوا غب طاعتى وهل سعد أحد ممن عصانى بمعصيتى وهل شقى أحد ممن أطاعنى بطاعتى إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع اليها وان هؤلاء القوم تركوا الأمر الذى أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها أما أحبارهم فانكروا حقى وأما قراؤهم فعبدوا غيرى وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا وأما ولاتهم فكذبوا على وعلى رسلى . خزنوا المكر فى قلوبهم وعودوا الكذب ألسنتهم . وإنى أقسم بجلالى وعزتى لاهيجن عليهم جيولا لا يفقهون ألسنتهم ولا يعرفون وجوههم ولا يرحمون بكاءهم ولابعثن فيهم ملكا جباراً قاسياً له عساكر كقطع السحاب ومواكب كامثال العجاج كان خفقان راياته طيران النسور وكان حمل فرسانه كر العقبان يعيدون العمران خرابا ويتركون القرى وحشة فياويل أيليا وسكانها كيف أذللهم للقتل وأسلط عليهم السبا واعيد بعد لجب الاعراس صراخا وبعد صهيل الخيل عواء الذآب وبعد شرافات القصور مساكن السباع وبعد ضوء السرج وهج العجاج وبالعز ذلا وبالنعمة العبودية وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب . وبالمشى على الزرابى الخبب ولاجعلن أجسادهم زبلا للأرض وعظامهن ضاحية للشمس ولأدوسنهم بألوان العذاب ثم لآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد والأرض سبيكة من نحاس فان أمطرت لم تنبت الارض وان أنبتت شيئا فى خلال ذلك فبرحمتى البهائم . ثم أحبسه فى زمان الزرع وأرسله فى زمان الحصاد فان زرعوا فى خلال ذلك شيئا سلطت عليه الآفة فان خلص منه شئ نزعت منه البركة فان دعونى لم أجبهم وان سألوا لم أعطهم وان بكوا لم أرحمهم وان تضرعوا صرفت وجهى عنهم . رواه ابن عساكر بهذا اللفظ .

وقال اسحاق بن بشر أنبأنا ادريس عن وهب بن منبه قال ان الله تعالى لما بعث أرميا الى بنى إسرائيل وذلك حين عظمت الاحداث فيهم فعملوا بالمعاصى وقتلوا الانبياء طمع بخت نصر فيهم وقذف

الله فى قلبه وحدث نفسه بالمسير اليهم لما أراد الله أن ينتقم به منهم فاوحى الله الى أرميا إنى مهلك بنى إسرائيل ومنتقم منهم فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمرى ووحيى فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجداً وقال يارب وددت أنى لم تلدنى أمى حين جعلتنى آخر أنبياء بنى إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بنى إسرائيل من أجلى فقال له ارفع رأسك فرفع رأسه فبكى ثم قال يارب من تسلط عليهم فقال عبدة النيران لا يخافون عقابى ولا يرجون ثوابى قم يا أرميا فاستمع وحيى أخبرك خبرك وخبر بنى إسرائيل. من قبل أن أخلقك اخترتك. ومن قبل أن أصورك فى رحم أمك قدستك ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ومن قبل أن تبلغ نبأتك ومن قبل أن تبلغ الاشد اخترتك ولأمر عظيم أجتبيتك فقم مع الملك تسدده وترشده فكان مع الملك يسدده ويأتيه الوحى من الله حتى عظمت الاحداث ونسوا ماانجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده فاوحى الله الى أرميا قم فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتى عليهم وعرفهم أحداثهم فقال أرميا (يارب انى ضعيف إن لم تقونى عاجز إن لم تبلغنى مخطئ إن لم تسددنى مخذول إن لم تنصرنى ذليل إن لم تعزنى) فقال الله تعالى (أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتى وأن الخلق والأمر كله لى وأن القلوب والألسنة كلها بيدى فاقلبها كيف شئت فتطيعنى فانا الله الذى ليس شئ مثلى. قامت السموات والأرض ومافيهن بكلمتى. وانه لايخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلالى ولا يعلم ماعندى غيرى وأنا الذى كلمت البحار ففهمت قولى وأمرتها ففعلت أمرى وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدى وتأتى بامواج كالجبال فاذا بلغت حدى ألبستها مذلة لطاعتى وخوفا واعترافا لأمرى وانى معك ولن يصل اليك شئ معى وانى بعثتك الى خلق عظيم من خلقى لتبلغهم رسالاتى فتستوجب لذلك أجر من اتبعك ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئا انطلق الى قومك فقم فيهم وقل لهم ان الله قد ذكركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم يامعشر أبناء الأنبياء وكيف وجد آباؤكم مغبة طاعتى وكيف وجدتم مغبة معصيتى وهل وجدوا أحداً عصانى فسعد بمعصيتى وهل علموا أحداً أطاعنى فشقى بطاعتى ان الدواب اذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت اليها وان هؤلاء القوم رتعوا فى مروج الهلكة وتركوا الأمر الذى به أكرمت آباءهم وابتغوا الكرامة من غير وجهها أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادى خولا يتعبدونهم ويعملون فيهم بغير كتابى حتى أجهلوهم امرى وأنسوهم ذكرى وسنتى وغروهم عنى فدان لهم عبادى بالطاعة التى لاتنبغى الالى فهم يطيعونهم فى معصيتى *

وأما ملوكهم وأمراؤهم فبطروا نعمتى وآمنوا مكرى وغرتهم الدنيا حتى نبذوا كتابى ونسوا عهدى فهم يحرفون كتابى ويفترون على رسلى جرأة منهم على وغرة بى فسبحان جلالى وعلو مكانى وعظمة شأنى هل ينبغى أن يكون لى شريك فى ملكى وهل ينبغى لبشر أن يطاع فى معصيتى وهل ينبغى لى

أن أخلق عباداً أجعلهم أربابا من دونى أو آذن لاحد بالطاعة لاحد وهى لاتنبغى إلا لى •

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون فينقادون الملوك فيتابعونهم على البدع التى يبتدعون فى دينى ويطيعونهم فى معصيتى ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدى فهم جهلة بما يعلمون لاينتفعون بشئ مما علموا من كتابى •

وأما أولاد النبيين فمقهورون ومفتونون يخوضون مع الخائضين يتمنون مثل نصرى آباءهم والكرامة التى أكرمتهم بها ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم بغير صدق منهم ولاتفكر ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم وكيف كان جهدهم فى أمرى حين اغتر المغترون وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمرى وظهر دينى فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون منى ويرجعون فتطولت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت ومددت لهم فى العمر وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون • وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الارض وألبسهم العافية وأظهرهم على العدو ولا يزدادون الا طغيانا وبعداً منى فحتى متى هذا . أبى يسخرون أم بى يتحرشون أم اياى يخادعون أم على يجترئون فانى أقسم بعزتى لأتيحن عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم ويضل فيها رأى ذوى الرأى وحكمة الحكيم ثم لاسلطن عليهم جباراً قاسيا عاتيا ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم . له فيه عساكر مثل قطع السحاب ومواكب مثل العجاج وكأن حفيف راياته طيران النسور وحمل فرسانه كسرب العقبان يعيدون العمران خرابا والقرى وحشا ويعثون فى الارض فسادا ويتبرون ماعلوا تتبيراً قاسية قلوبهم لايكترثون ولا يرقبون ولا يرحمون ولايبصرون ولا يسمعون يجولون فى الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الاسد تقشعر من هيبتها الجلود وتطيش من سمعها الاحلام بالسنة لايفقهونها ووجوه ظاهر عليها المنكر لايعرفونها . فوعزتى لاعطلن بيوتهم من كتبى وقدسى ولاخلين مجالسهم من حديثها ودروسها ولاوحشن مساجدهم من عمارها وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيرى ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ويتفقهون فيها لغير الدين ويتعلمون فيها لغير العمل لأبدلن ملوكها بالعز الذل وبالأمن الخوف وبالغنى الفقر وبالنعمة الجوع وبطول العافيــة والرخاء أنواع البلاء وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء وبالارواح الطيبــة والادهان جيف القتلى وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والاغلال . ثم لاعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب وبعد البروج المشيدة مساكن السباع وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب وبعد ضوء السراج دخان الحريق وبعد الانس الوحشة والقفار • ثم لابدلن نساءها بالاسورة الاغلال وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد وبألوان الطيب والادهان النقع والغبار وبالمشى على الزرابى عبور الاسواق والانهار والخبب الى الليل فى بطون الاسواق وبالخدور والستور الحسور عن الوجوه والسوق والاسفار

والارواح السموم . ثم لادوسنهم بانواع العذاب حتى لو كان السكان منهم فى حالق لوصل ذلك اليه انى إنما أكرم من أكرمنى وانما أهين من هان عليه أمرى . ثم لآمرن السماء خلال ذلك فلتكونن عليهم طبقا من حديد ولآمرن الارض فلتكونن سبيكة من نحاس فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت . فان أمطرت خلال ذلك شيئا سلطت عليهم الآفة فان خلص منه شئ نزعت منه البركة وان دعونى لم أجبهم وان سألونى لم أعطهم وان بكوا لم أرحمهم وان تضرعوا الى صرفت وجهى عنهم . وان قالوا اللهم أنت الذى ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك وذلك بانك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ثم مكنت لنا فى البلاد واستخلفتنا فيها وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً وحفظتنا واياهم برحمتك كبارا فانت أوفى المنعمين وان غيرنا . ولا تبدل . وان بدلنا وان تتم فضلك ومنك وطولك واحسانك فان قالوا ذلك قلت لهم إنى ابتدىء عبادى برحمتى ونعمتى * فان قبلوا أتممت وان استزادوا زدت وان شكروا اضاعفت وان غيروا غيرت واذا غيروا غضبت واذا غضبت عذبت وليس يقوم شئ بغضبى .

قال كعب فقال أرميا برحمتك أصبحت أتعلم بين يديك وهل ينبغى ذلك لى وأنا أذل وأضعف من أن ينبغى لى أن أتكلم بين يديك ولكن برحمتك أبقيتنى لهذا اليوم وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد منى بما رضيت به منى طولا والاقامة فى دار الخاطئين وهم يعصونك حولى بغير نكر ولا تغيير منى فان تعذبنى فبذنبى وان ترحمنى فذلك ظنى بك * ثم قال يارب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت أتهلك هذه القرية وما حولها وهى مساكن أنبيائك ومنزل وحيك يارب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت لخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التى رفعت لذكرك يارب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لقتل هذه الامة وعذابك اياهم وهم من ولد ابراهيم خليلك وأمة موسى نجيك وقوم داود صفيك يارب أى القرى تأمن عقوبتك بعد وأى العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك ابراهيم وأمة نجيك موسى وقوم خليفتك داود تسلط عليهم عبدة النيران قال الله تعالى (ياأرميا من عصانى فلا يستنكر نقمتى فانى انما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتى ولو أنهم عصونى لانزلتهم دار العاصين الا أن أتداركهم برحمتى .

قال أرميا يارب اتخذت ابراهيم خليلا وحفظتنا به . وموسى قربته نجيا فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا فاوحى الله اليه (ياأرميا إنى قدستك فى بطن أمك وأخرتك الى هذا اليوم فلو أن قومك حفظوا اليتامى والارامل والمساكين وابن السبيل لكنت الداعم لهم وكانوا عندى بمنزلة جنة ناعم شجرها طاهر ماؤها ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ولكن سأشكو اليك بنى اسرائيل إنى كنت لهم بمنزلة الداعى الشفيق أجنبهم كل قحط وكل عسرة واتبع بهم الخصب حتى صاروا كباشا ينطح

بعضها بعضا فياويلهم ثم ياويلهم انما أكرم من أكرمنى وأهين من هان عليه امرى ان من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتى وان هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتى تبرعا فيظهرونها فى المساجد والاسواق وعلى رؤس الجبال وظلال الاشجار حتى عجت السماء الى منهم وعجت الارض والجبال ونفرت منها الوحوش باطراف الارض وأقاصيها وفى كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب) .

قال فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا (كذبت وأعظمت على الله الفرية فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده فمن يعبده حين لا يبقى له فى الارض عابد ولا مسجد ولا كتاب لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون) فأخذوه وقيدوه وسجنوه فعند ذلك بعث الله عليهم بخت نصر فاقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصرهم فكان كما قال تعالى (فجاسوا خلال الديار) قال فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ففتحوا الابواب وتخللوا الازقة وذلك قوله (فجاسوا خلال الديار) وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين فقتل منهم الثلث وسبى الثلث وترك الزمنى والشيوخ والعجائز ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس وساق الصبيان وأوقف النساء فى الاسواق حاسرات وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة وسأل عن دانيال الذى كان قد كتب له الكتاب فوجدوه قد مات وأخرج أهل بيته الكتاب اليه وكان فيهم دانيال بن حزقيل الاصغر وميشائيل وعزرائيل وميخائيل فأمضى لهم ذلك الكتاب وكان دانيال بن حزقيل خلفا من دانيال الاكبر ودخل بخت نصر بجنوده بيت المقدس ووطئ الشام كلها وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم • فلما فرغ منها انصرف راجعا وحمل الأموال التى كانت بها وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الاحبار والملوك تسعين الف غلام وقذف الكناسات فى بيت المقدس وذبح فيه الخنازير وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود واحد عشر الفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمانية آلاف من سبط ايشى بن يعقوب وأربعة عشر الفا من سبط زبلون ونفتالى ابنى يعقوب وأربعة عشر الفا من سبط دان بن يعقوب وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب والفين من سبط زبلون بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط رويل ولاوى واثنى عشر الفا من سائر بنى إسرائيل وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال اسحاق بن بشر قال وهب بن منبه فلما فعل ما فعل قيل له كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم ويخبرهم أنك تقتل مقاتلهم وتسبى ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه فأمر بخت نصر فأخرج أرميا من السجن فقال له أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم قال نعم قال فانى علمت ذلك قال أرسلنى الله اليهم فكذبونى قال كذبوك وضربوك وسجنوك قال نعم قال (بئس القوم قوم كذبوا نبيهم وكذبوا رسالة ربهم فهل لك أن تلحق

بى فأكرمك وأواسيك وان أحببت أن تقيم فى بلادك فقد أمنتك) قال له أرميا إنى لم أزل فى أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ساعة قط ولو أن بنى إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ولم يكن لك عليهم سلطان فلما سمع بخت نصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض أيليا . وهذا سياق غريب . وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة وفيه من جهة التعريب غرابة .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبى كان بخت نصر أصبهبذا لما بين الاهواز الى الروم للملك على الفرس وهو لهراسب وكان قد بنى مدينة بلخ التى تلقب بالحسناء وقاتل الترك والجأهم الى أضيق الاماكن وبعث بخت نصر لقتال بنى إسرائيل بالشام فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق وقد قيل إن الذى بعث بخت نصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب وذلك لتعدى بنى إسرائيل على رسله اليهم . وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الاعلى عن ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد الانصارى عن سعيد بن المسيب أن بخت نصر لما قدم دمشق وجد بها دما يغلى على كبا يعنى القمامة فسألهم ما هذا الدم فقالوا أدركنا آباءنا على هذا وكلما ظهر عليه الكبا ظهر قال فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن . وهذا إسناد صحيح الى سعيد بن المسيب وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر مايدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا وهذا لايصح لأن يحيى بن زكريا بعد بخت نصر بمدة والظاهر أن هذا دم نبى متقدم أو دم لبعض الصالحين أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به.

قال هشام بن الكلبى ثم قدم بخت نصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود وصانعه عن بنى إسرائيل وأخذ منه بخت نصر رهائن ورجع . فلما بلغ طبرية بلغه أن بنى إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لاجل أنه صالحه فضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع اليهم فأخذ المدينة عنوة . وقتل المقاتلة وسبى الذرية . قال وبلغنا أنه وجد فى السجن أرميا النبى فأخرجه وقص عليه ما كان من أمره اياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه فقال بخت نصر بئس القوم قوم عصوا رسول الله وخلى سبيله وأحسن اليه واجتمع اليه من بقى من ضعفاء بنى إسرائيل فقالوا إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب الى الله عز وجل مما صنعنا فادع الله أن يقبل توبتنا فدعا ربه فأوحى الله اليه أنه غير فاعل فان كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة فأخبرهم ما أمره الله تعالى به فقالوا كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله على أهلها فأبوا ان يقيموا.

قال ابن الكلبى ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل فى البلاد فنزلت طائفة منهم الحجاز وطائفة يثرب وطائفة وادى القرى وذهبت شرذمة منهم الى مصر فكتب بخت نصر الى ملكها يطلب منه من شرد منهم اليه فأبى عليه فركب فى جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم . ثم ركب الى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية . قال ثم انصرف بسبى كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت

المقدس وأرض فلسطين والأردن وفي السبي دانيال * قلت والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الاصغر لا الاكبر على ماذكره وهب بن منبه والله أعلم *

شيء من خبر دانيال عليه السلام

قال ابن أبي الدنيا حدثنا احمد بن عبد الاعلى الشيباني قال إن لم أكن سمعته من شعيب بن صفوان فحدثني بعض أصحابنا عنه عن الأجلح الكندي عن عبدالله بن أبي الهذيل قال ضرا بخت نصر أسدين فالقاهما في جب وجاء بدانيال فالقاه عليهما فلم يهيجاه فمكث ماشاء الله ثم اشتهى مايشتهي الآدميون من الطعام والشراب فاوحى الله الى أرميا وهو بالشام أن اعدد طعاما وشرابا لدانيال فقال يارب أنا بالارض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق فاوحى الله اليه أن أعدد ماأمرناك به فانا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت ففعل وأرسل اليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب فقال دانيال من هذا قال أنا أرميا فقال ما جاء بك فقال أرسلني اليك ربك . قال وقد ذكرني ربي قال نعم فقال دانيال الحمد لله الذي لاينسى من ذكره . والحمد لله الذي يجيب من رجاه . والحمد لله الذي من وثق به لم يكله الى غيره . والحمد لله الذي يجزي بالاحسان احسانا . والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة . والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كربنا . والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين ينقطع الحيل عنا

وقال يونس بن بكير عن محمد بن اسحق عن أبي خلد بن دينار حدثنا أبو العالية قال لما افتتحنا تستر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف فاخذنا المصحف فحملناه الى عمر بن الخطاب فدعا له كعبا فنسخه بالعربية . فانا أول رجل من العرب قرأه قرأته مثل ماأقرأ القرآن هذا فقلت لأبي العالية ما كان فيه قال سيركم وأموركم ولحون كلامكم وماهو كائن بعد قلت فما صنعتم بالرجل قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه . قلت فارجون منه قال كانت السماء اذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون قلت من كنتم تظنون الرجل قال رجل يقال له دانيال قلت منذ كم وجدتموه قد مات قال منذ ثلثمائة سنة قلت ماتغير منه شيء قال لا الاشعرات من قفاه إن لحوم الانبياء لاتبليها الارض ولا تأكلها السباع . وهذا اسناد صحيح الى أبي العالية ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظا من ثلثمائة سنة فليس بنبي بل هو رجل صالح لأن عيسى بن مريم ليس بينه وبين رسول الله (ص) نبي بنص الحديث الذي في البخاري والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة * وقيل ستمائة وقيل ستمائة وعشرون سنة وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الامر فانه قد يكون رجلا آخر

إما من الانبياء أو الصالحين ولكن قربت الظنون أنه دانيال لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونا كما تقدم . وقد روى باسناد صحيح الى أبى العالية أن طول انفه شبر . وعن أنس ابن مالك باسناد جيد أن طول انفه ذراع فيحتمل على هذا أن يكون رجلا من الأنبياء الاقدمين قبل هذه المدد والله أعلم .

وقد قال أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب احكام القبور حدثنا أبو بلال محمد بن الحارث بن عبد الله ابن أبى بردة بن أبى موسى الاشعرى حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله عن ابى الاشعث الاحمرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان دانيال دعا ربه عز وجل ان يدفنه امة محمد فلما افتتح أبو موسى الاشعرى تستر وجده فى تابوت تضرب عروقه ووريده وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دل على دانيال فبشروه بالجنة فكان الذى دل عليه رجل يقال له حرقوص فكتب أبو موسى الى عمر بخبره فكتب اليه عمر أن ادفنه وابعث الى حرقوص فان النبى صلى الله عليه وسلم بشره بالجنة وهذا مرسل من هذا الوجه وفى كونه محفوظا نظر والله اعلم .

ثم قال ابن ابى الدنيا حدثنا أبو بلال حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد وكان عالما قال وجد أبو موسى مع دانيال مصحفا وجرة فيها ودك ودراهم وخاتمه فكتب أبو موسى بذلك الى عمر فكتب اليه عمر أما المصحف فابعث به الينا وأما الودك فابعث الينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به واقسم الدراهم بينهم وأما الخاتم فقد نفلناكه . وروى عن ابن ابى الدنيا من غير وجه ان أبا موسى لما وجده وذكروا له انه دانيال التزمه وعانقه وقبله . وكتب الى عمر يذكر له امره وانه وجد عنده مالا موضوعا قريبا من عشرة آلاف درهم وكان من جاء اقترض منها فان ردها والامرض وان عنده ربعة فامر عمر بان يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به احد وامر بالمال أن يرد الى بيت المال وبالربعة فتحمل اليه ونفله خاتمه . وروى عن أبى موسى انه أمر اربعة من الاسراء فسكروا نهرا وحفروا فى وسطه قبراً فدفنه فيه ثم قدم الاربعة الاسراء فضرب اعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه . وقال ابن ابى الدنيا حدثنى ابراهيم بن عبد الله حدثنا احمد بن عمرو بن السرح حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن ابى الزناد عن ابيه قال رأيت فى يد ابن بردة بن ابى موسى الاشعرى خاتما نقش فصه اسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل قال ابو بردة هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم اهل هذه البلدة أنه دانيال اخذه أبو موسى يوم دفنه . قال أبو بردة فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا ان الملك الذى كان دانيال فى سلطانه جاءه المنجمون واصحاب العلم فقالوا له انه يولد ليلة كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده فقال الملك والله لا يبقى تلك الليلة غلام الا قتله الا أنهم أخذوا دانيال فالقوه فى اجمة الاسد فبات

الاسد ولبوته يلحسانه ولم يضراه فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ قال أبو بردة قال أبو موسى قال علماء تلك القرية فنقش دانيال صورته وصورة الاسدين يلحسانه فى فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه فى ذلك . اسناد حسن .

عمارة بيت المقدس بعد خرابها واجتماع بنى اسرائيل بعد تفرقهم فى بقاع الأرض

قال الله تعالى فى كتابه المبين وهو أصدق القائلين (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها . قال انى يحيى هذه الله بعد موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم ان الله على كل شىء قدير) قال هشام بن الكلبى ثم أوحى الله تعالى الى ارميا عليه السلام فيما بلغنى انى عامر بيت المقدس فاخرج اليها فانزلها فخرج حتى قدمها وهى خراب فقال فى نفسه سبحان الله أمرنى الله أن أنزل هذه البلدة واخبرنى انه عامرها فمتى يعمرها ومتى يحييها الله بعد موتها ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلة من طعام فمكث فى نومه سبعين سنة حتى هلك بخت نصر والملك الذى فوقه وهو لهراسب وكان ملكه مائة وعشرين سنة وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب وكان موت بخت نصر فى دولته فبلغه عن بلاد الشام انها خراب وان السباع قد كثرت فى ارض فلسطين فلم يبق بها من الانس احد فنادى فى ارض بابل فى بنى اسرائيل ان من شاء ان يرجع الى الشام فليرجع وملك عليهم رجلا من آل داود وامره ان يعمر بيت المقدس ويبنى مسجدها فرجعوا فعمروها وفتح الله لارميا عينيه فنظر الى المدينة كيف تبنى وكيف تعمر ومكث فى نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة ثم بعثه الله وهو لايظن انه نام اكثر من ساعة وقد عهد المدينة خرابا فلما نظر اليها عامرة آهلة قال أعلم أن الله على كل شىء قدير . قال فأقام بنو اسرائيل بها ورد الله عليهم امرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم فى زمن ملوك الطوائف . ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان يعنى بعد ظهور النصارى عليهم . هكذا حكاه ابن جرير فى تاريخه عنه . وذكر ابن جرير ان لهراسب كان ملكا عادلا سائسا لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد وانه كان ذا رأى جيد فى عمارة الامصار والانهار والمعاقل . ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مئة سنة ونيف نزل عن الملك لولده بشتاسب فكان فى زمانه ظهور دين المجوسية[1] وذلك ان رجلا كان اسمه زردشت

---

(١) (قوله وذلك أن رجلا كان اسمه زردشت الخ) هذه الحكاية خلاف الواقع . بل الواقع أن زردشت هو ابراهيم الزردشت احد الانبياء الذين ظهروا فى وادى نهر الأرس بقفقازيا المشار اليهم فى

كان قد صحب ارميا عليه السلام فاغضبه فدعا عليه ارميا فبرص زردشت فذهب فلحق بأرض آذربيجان وصحب بشتاسب فلقنه دين المجوسية التي اخترعه من تلقاء نفسه فقبله منه بشتاسب وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ممن اباه منهم * ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والابطال المذكورين وقد ناب بخت نصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وعمر دهراً طويلا قبحه الله * والمقصود ان هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المار على هذه القرية هو ارميا عليه السلام* قال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهما وهو قوى من حيث السياق المتقدم وقد روى عن على وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسدى وسليمان ابن بريدة وغيرهم أنه عزير . وهذا اشهر عند كثير من السلف والخلف والله أعلم .

وهذه قصة العزير

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر هو عزير بن جروة ويقال بن سوريق بن عديا بن أيوب بن درزنا بن عرى بن تقى بن اسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران * ويقال عزير بن سروخا جاء في بعض الآثار ان قبره بدمشق . ثم ساق من طريق أبى القاسم البغوى عن داود بن عمرو عن حبان بن على عن محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس مرفوعا لا أدرى اللعين تبع أم لا ولا أدرى أكان عزير نبيا ام لا ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن عن محمد بن اسحاق السجزى عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبى ذؤيب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . ثم روى من طريق اسحاق بن بشر وهو متروك عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس ان عزيراً كان ممن سباه بخت نصر وهو غلام حدث فلما بلغ اربعين سنة اعطاه الله الحكمة قال ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه قال وكان يذكر مع الانبياء حتى محى الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر وهذا ضعيف

قوله تعالى (وأصحاب الرس) فان الرس تخفيف ارس . وله الى الآن اتباع تعد بالملايين في الهند وايران وله كتاب باللغة الفارسية القديمة مشتمل على المبادئ والتعاليم والاحكام والبشارات بالامور الآتية على نهج سائر الكتب . منها بشاراته بظهور الرسول عليه السلام بقوله سيظهر في العرب نبى عظيم وبعد أن يمضى من ظهور شريعته الف سنة وكسور اذا جاء ثانيا لا يعرف أن هذه كانت شريعته ام ترجمته بالمعنى . ويقصد بذلك أن شريعته عليه السلام بمضى الزمان يدخل فيها من البدع والاهواء وما لم يكن منها بحيث اذا رآها بعد الف سنة لا يعرفها لكثرة ما دخل فيها من البدع . فانظر أنه لم يكتف بالبشارة بظهوره بل أخبر ايضا بما يقع في المستقبل في شريعته فهذا من جملة الأدلة على صدق نبوته كما لا يخفى على من تتبع تواريخ الأديان والمذاهب اه (فرج الله زكى الكردى)

ومنقطع ومنكر والله أعلم .
وقال اسحاق بن بشر عن سعيد عن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن عبد الله بن سلام ان عزيراً هو العبد الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه . وقال اسحاق بن بشر انبأنا سعيدبن بشير عن قتادة عن كعب وسعيد بن ابي عروبة عن قتادة عن الحسن ومقاتل وجو يبر عن الضحاك عن ابن عباس وعبد الله بن اسماعيل السدى عن أبيه عن مجاهد عن ابن عباس وادريس عن جده وهب بن منبه قال اسحاق كل هؤلاء حدثونى عن حديث عزير وزاد بعضهم على بعض قالوا باسنادهم ان عزيراً كان عبداً صالحاً حكيما خرج ذات يوم الى ضيعة له يتعاهدها فلما انصرف أتى الى خربة حين قامت الظهيرة واصابه الحر ودخل الخربة وهو على حماره فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب فنزل فى ظل تلك الخربة واخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذى كان معه فى القصعة ثم أخرج خبزاً يابساً معه فالقاه فى تلك القصعة فى العصير ليبتل ليأ كله ثم استلقى على قفاه واسند رجليه الى الحائط فنظر سقف تلك البيوت ورأى مافيها وهى قائمة على عروشها وقد باد أهلها ورأى عظاما بالية فقال (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجباً فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام. فلما اتت عليه مائة عام وكانت فيما بين ذلك فى بنى اسرائيل أمور واحداث قال فبعث الله الى عزير ملكا فخلق قلبه ليعقل قلبه وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيي الله الموتى. ثم ركب خلقه وهو ينظر ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح كل ذلك وهويرى ويعقل فاستوى جالسا فقال له الملك كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث فى آخر النهار والشمس لم تغب فقال أو بعض يوم ولم يتم لى يوم فقال له الملك بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك يعنى الطعام الخبز اليابس وشرابه العصير الذى كان اعتصره فى القصعة فاذاهما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس فذلك قوله (لم يتسنه) يعنى لم يتغير وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شىء من حالهما فكأنه انكر فى قلبه فقال له الملك انكرت ماقلت لك انظر الى حمارك فنظر الى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة فنادى الملك عظام الحمار فاجابت واقبلت من كل ناحية حتى ركبه الملك وعزير ينظر اليه ثم البسها العروق والعصب ثم كساها اللحم ثم انبت عليها الجلد والشعر ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه الى السماء ناهقا يظن القيامة قد قامت فذلك قوله (وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) يعنى وانظر الى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضا فى أوصالها حتى اذا صارت عظاما مصوراً حماراً بلا لحم ثم انظر كيف نكسوها لحما فلما تبين له قال اعلم أن الله على كل شىء قدير من احياء الموتى وغيره قال فركب حماره حتى أتى محلته فانكره الناس وانكر الناس وانكر منزله فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فاذا هو

بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم فخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته فلما أصابها الكبر اصابها الزمانة . فقال لها عزير يا هذه اهذا منزل عزير قالت نعم هذا منزل عزير فبكت وقالت ما رأيت احداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً وقد نسيه الناس . قال فاني انا عزير كان الله اماتني مائة سنة ثم بعثني قالت سبحان الله فان عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر قال فاني أنا عزير قالت فان عزيراً رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء فادع الله أن يرد علي بصري حتى اراك فان كنت عزيراً عرفتك . قال فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال قومي باذن الله فاطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال فنظرت فقالت اشهد انك عزير وانطلقت الى محلة بني اسرائيل وهم في انديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشر سنة وبنى بنيه شيوخ في المجلس فنادتهم فقالت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد علي بصري واطلق رجلي وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه قال فنهض الناس فاقبلوا اليه فنظروا اليه فقال ابنه كان لابي شامة سوداء بين كتفيه فكشف عن كتفيه فاذا هو عزير فقالت بنو اسرائيل فانه لم يكن فينا احد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير وقد حرق بخت نصر التوراة ولم يبق منها شيء الا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا وكان أبوه سروخا وقد دفن التوراة أيام بخت نصر في موضع لم يعرفه أحد غير عزير فانطلق بهم الى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب قال وجلس في ظل شجرة وبنو اسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكر التوراة فجددها لبني اسرائيل . فمن ثم قالت اليهود عزير بن الله للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بامر بني اسرائيل وكان جدد لهم التوراة بارض السواد بدير حزقيل . والقرية التي مات فيها يقال لها ساير اباذ * قال ابن عباس فكان كما قال الله تعالى (ولنجعلك آية للناس) يعني لبني اسرائيل . وذلك انه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لانه مات وهو ابن اربعين سنة فبعثه الله شاباً كهيئته يوم مات قال ابن عباس بعث بعد بخت نصر وكذلك قال الحسن وقد أنشد ابو حاتم السجستاني في معنى ما قاله ابن عباس .

واسودُ رأسٍ شابَ من قبلِهِ ابنُهُ ... ومن قبلِهِ ابنُ ابنِهِ فهو أكبرُ
يرى ابنَهُ شيخاً يدبّ على عصا ... ولحيتُهُ سوداء والرأسُ أشقرُ
وما لابنِهِ حَيْلٌ ولا فضلُ قوّةٍ ... يقومُ كما يمشي الصبيّ فيعثرُ
يعدّ ابنه في الناس تسعينَ حجّة ... وعشرين لا يجري ولا يتبختر
وعمرُ أبيهِ اربعون أمرّها ... ولابنِ ابنِهِ تسعون في الناس غبر
فما هُوَ في المعقولِ ان كنتَ دارياً ... وان كنتَ لا تدري فبالجهلِ تُعذرُ

فصل

المشهور ان عزيراً نبي من أنبياء بني اسرائيل وانه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى وانه لما لم يبق في بني اسرائيل من يحفظ التوراة الهمه الله حفظها فسردها على بني اسرائيل كما قال وهب بن منبه أمر الله ملكا فنزل بمغرفة من نور فقذفها في عزير فنسخ التوراة حرفا بحرف حتى فرغ منها . وروى ابن عساكر عن ابن عباس انه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى وقالت اليهود عزير ابن الله لم قالوا ذلك فذكر له ابن سلام ما كان من كتبه لبني اسرائيل التوراة من حفظه وقول بني اسرائيل لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة الا في كتاب وان عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله . ولهذا يقول كثير من العلماء ان تواتر التوراة انقطع في زمن العزير . وهذا متجه جدا اذا كان العزير غير نبي كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن البصري وفيما رواه اسحاق ابن بشر عن مقاتل بن سليمان عن عطاء وعن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه ومقاتل عن عطاء بن ابي رباح قال كان في الفترة تسعة اشياء بخت نصر وجنة صنعاء وجنة سبا وأصحاب الاخدود وامر حاصورا(١) واصحاب الكهف واصحاب الفيل ومدينة انطاكية وامر تبع . وقال اسحاق بن بشر انبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال كان امر عزير وبخت نصر في الفترة . وقد ثبت في الصحيح ان رسول الله (ص) قال ان أولى الناس بابن مريم لانا إنه ليس بيني وبينه نبي) . وقال وهب ابن منبه كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام . وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيراً كان في زمن موسى بن عمران وانه استاذن عليه فلم يأذن له يعني لما كان من سؤآله عن القدر وانه انصرف وهو يقول مئة موتة أهون من ذل ساعة وفي معنى قول عزير مائة موتة أهون من ذل ساعة قول بعض الشعراء

قد يصبر الحرُّ على السيفِ ويأنفُ الصبرَ على الحيفِ
ويؤثرُ الموتَ على حالةٍ يعجزُ فيها عن قرى الضيفِ

فاما ماروى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونوف البكالي وسفيان الثوري وغيرهم من أنه سأل عن القدر فمحى اسمه من ذكر الانبياء فهو منكر وفي صحته نظر وكأنه مأخوذ عن الاسرائيليات وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني عن نوف البكالي قال قال عزير فيما يناجي ربه (يارب تخلق خلقا فتضل من تشاء وتهدي من تشاء) فقيل له أعرض عن هذا فعاد فقيل له لتعرض عن هذا أولا محون اسمك من الانبياء إني لاأسأل عما افعل وهم يسألون وهذا لايقتضي وقوع ما توعد عليه لو عاد فما محيا اسمه والله أعلم .

وقد روى الجماعة سوى الترمذي من حديث يونس بن يزيد عن الزهري عن سعيد وابي سلمة

(١) هكذا في النسخة الحلبية . وفي النسخة المصرية (وأمر جاصور)

عن أبي هريرة وكذلك رواه شعيب عن أبي الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة قال قال رسول الله ص نزل نبي من الانبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فاخرج من تحتها ثم أمر بها فاحرقت بالنار فاوحى الله اليه مهلا نملة واحدة . فروى اسحاق بن بشر عن ابن جريج عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه أنه عزير . وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصري انه عزير فالله اعلم .

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز بسم الله الرحمن الرحيم (كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقيا . وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لى آية قال آيتك ان لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا . فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا . يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا . وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا . وبرا بوالديه ولم يكن جباراً عصيا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) وقال تعالى (وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم انى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيا من الصالحين . قال رب انى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل مايشاء . قال رب اجعل لى آية . قال آيتك ان لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار) وقال تعالى فى سورة الانبياء (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وانت خير الوارثين . فاستجبناله ووهبناله يحيى واصلحنا له زوجه أنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين . وقال تعالى وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين) . قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى كتابه التاريخ المشهور الحافل . زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن دان يقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن دواد بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلباطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن اينامن بن رحبعام بن سليمان بن داود أبو يحيى النبى عليه السلام من بنى اسرائيل . دخل البثنية من أعمال دمشق فى طلب ابنه يحيى . وقيل انه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى والله أعلم . وقد قيل غير ذلك فى نسبه

ويقال فيه زكريا بالمد وبالقصر ويقال زكرى ايضاً .

والمقصود ان الله تعالى أمر رسوله (ص) أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر وكانت امرأته عاقراً فى حال شبيبتها وقد اسنت ايضا حتى لا ييئس احد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس فقال تعالى (ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا) . قال قتادة عند تفسيرها ان الله يعلم القلب النقى ويسمع الصوت الخفى . وقال بعض السلف قام من الليل فنادى ربه مناداة اسرها عمن كان حاضراً عنده مخافته فقال (يارب يارب يارب فقال الله لبيك لبيك لبيك) (قال رب انى وهن العظم منى) أى ضعف وخار من الكبر (واشتعل الرأس شيبا) استعارة من اشتعال النار فى الحطب أى غلب على سواد الشعر شيبه كما قال ابن دريد فى مقصورته .

أما ترى رأسيَ حاكى لونُه طرةَ صُبحٍ تحتَ أذيالِ الدُّجا
واشتعلَ المبيضُّ في مُسوَدّه مثلَ اشتعالِ النارِ فى جَمرِ الغضا
وآضَ عودُ اللهو يُبساً ذاوياً من بعدِ ماقدْ كانَ مجّاجَ الثّرى

يذكر ان الضعف قد استحوذ عليه باطنا وظاهراً وهكذا قال زكريا عليه السلام (انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا) وقوله (لم أكن بدعائك رب شقيا) أى ما عودتنى فيما اسألك الا الاجابة وكان الباعث له على هذه المسئلة انه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة فى غير إوانها ولا فى آوانها وهذه من كرامات الاولياء فعلم أن الرازق للشىء فى غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً وان كان قد طعن فى سنه (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء) وقوله (وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً) قيل المراد بالموالى العصبة وكأنه خاف من تصرفهم بعده فى بنى اسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضيا ولهذا قال (فهب لى من لدنك) أى من عندك بحولك وقوتك (ولياً يرثنى) أى فى النبوة والحكم فى بنى اسرائيل (ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) يعنى كما كان آباؤه واسلافه من ذرية يعقوب انبياء فاجعله مثلهم فى الكرامة التى أكرمتهم بها من النبوة والوحى وليس المراد ههنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير ههنا وحكاه عن ابى صالح من السلف لوجوه . احدها ماقدمنا عند قوله تعالى (وورث سليمان داود) أى فى النبوة والملك كما ذكرنا فى الحديث المتفق عليه بين العلماء المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة ان رسول الله (ص) قال لا نورث ماتركنا فهو صدقة فهذا نص على أن رسول الله (ص) لا يورث ولهذا منع الصديق ان يصرف ما كان يختص به فى حياته الى احد من وراثه الذين لولا هذا

النص لصرف اليهم وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضى الله عنهم واحتج عليهم الصديق في منعه أيام بهذا الحديث وقد وافقه على روايته عن رسول الله (ص) عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضى الله عنهم . الثانى ان الترمذى رواه بلفظ يعم سائر الانبياء نحن معاشر الانبياء لانورث وصححه . الثالث ان الدنيا كانت أحقر عند الانبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا اليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الاولاد ليحوزوها بعدهم فان من لا يصل الى قريب من منازلهم فى الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها . الرابع أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده والغالب ولاسيما من مثل حال الانبياء أنه لا يجهد نفسه فى العمل اجهاداً يستفضل منه ما لا يكون ذخيرة له يخلفه من بعده وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهم ان شاء الله .

قال الامام أحمد حدثنا يزيد يعنى ابن هرون أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبى رافع عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال كان زكريا نجاراً . وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن حماد بن سلمة به . وقوله (يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) . وهذا مفسر بقوله (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيا من الصالحين) فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد والحالة هذه له (قال رب انى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا) أى كيف يوجد ولد من شيخ كبير قيل كان عمره إذ ذاك سبعا وسبعين سنة والاشبه والله أعلم أنه كان أسن من ذلك (وكانت امرأتى عاقرا) يعنى وقد كانت امرأتى فى حال شبيبتها عاقرا لا تلد والله أعلم . كما قال الخليل (أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون) وقالت سارة (ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشىء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد) وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قال له الملك الذى يوحى اليه بأمر ربه (كذلك قال ربك هو على هين) أى هذا سهل يسير عليه (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) أى قدرته أوجدتك بعد ان لم تكن شيئا مذكورا أفلا يوجد منك ولد وان كنت شيخا . وقال تعالى (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ومعنى اصلاح زوجه انها كانت لا تحيض فحاضت . وقيل كان فى لسانها شىء أى بذاءة (قال رب اجعل لى آية) أى علامة على وقت تعلق منى المرأة بهذا الولد المبشر به (قال آيتك ان لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام الا رمزا وانت فى ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية وأمر

بكثرة الذكر فى هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشى والابكار فلما بشر بهذه البشارة خرج مسرورا بها على قومه من محرابه (فأوحى اليهم أن سبحوه بكرة وعشيا) ؛ والوحى هنا هو الامر الخفى اما بكتابه كما قاله مجاهد والسدى أو اشارة كما قاله مجاهد أيضا ووهب وقتادة . قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدى وقتادة اعتقل لسانه من غير مرض . وقال ابن زيد كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام احد . وقوله (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) ، يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الالهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير فى حال صباه ؛ قال عبد الله بن المبارك قال معمر قال الصبيان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال ما للعب خلقنا قال وذلك قوله (وآتيناه الحكم صبيا) وأما قوله (وحنانا من لدنا) فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال لا أدرى ما الحنان. وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك (وحنانا من لدنا) أى رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد ؛ وعن عكرمة (وحنانا) أى محبة عليه ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولاسيما على أبويه وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما . وأما الزكاة فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره ، ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لها أمراً ونهياً وترك عقوقهما قولا وفعلا فقال (وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا) ثم قال (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) هذه الأوقات الثلاثة أشد ماتكون على الانسان فانه ينتقل فى كل منها من عالم الى عالم آخر فيفقد الأول بعد ماكان الفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدرى مابين يديه ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الاحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الاموات سكان القبور وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور وما بين جبير وكسير وفريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

وَلَدتكَ أُمك باكياً مستصرخاً ... والناسُ حولَكَ يَضحكونَ سُروراً
فاحرصْ لنفسِكَ أن تكونَ إذا بَكَوا ... فى يوم موتِكَ ضاحكاً مسروراً

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة اشق ماتكون على ابن آدم سلم الله على يحيى فى كل موطن منها فقال (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) وقال سعيد ابن أبى عروبة عن قتادة أن الحسن قال إن يحيى وعيسى التقيا فقال له عيسى استغفر لى أنت خير منى فقال له الآخر استغفر لى أنت خير منى فقال له عيسى أنت خير منى سلمت على نفسى وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما ، وأما قوله فى الآية الاخرى (وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) فقيل المراد بالحصور الذى لا يأتى النساء

وقيل غير ذلك وهو أشبه لقوله (هب لي من لدنك ذرية طيبة) وقد قال الامام احمد حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال ما من أحد من ولد آدم إلا وقد اخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد يقول أنا خير من يونس بن متى . علي بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة وهو منكر الحديث وقد رواه ابن خزيمة والدار قطني من طريق أبي عاصم العباداني عن علي بن زيد بن جدعان به مطولا ثم قال ابن خزيمة وليس على شرطنا . وقال ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن عقيل عن ابن شهاب قال خرج رسول الله (ص) على أصحابه يوما وهم يتذاكرون فضل الانبياء فقال قائل (موسى كليم الله وقال قائل عيسى روح الله وكلمته وقال قائل ابراهيم خليل الله فقال ابن الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب قال ابن وهب يريد يحيى بن زكريا . وقد رواه محمد ابن اسحاق وهو مدلس عن يحيى بن سعيد الانصاري عن سعيد بن المسيب حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله (ص) يقول كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب الا ما كان من يحيى بن زكريا . فهذا من رواية ابن اسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن ههنا. ثم قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن سعيد بن المسيب مرسلا . ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة عن يحيى بن سعيد الانصاري ثم قد رواه ابن عساكر من طريق ابراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق حدثنا محمد بن الأصبهاني حدثنا أبو خالد الاحمر عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو قال ما أحد الا يلقى الله بذنب الا يحيى بن زكريا. ثم تلا (وسيدا وحصورا) ثم رفع شيئا من الارض فقال ما كان معه الا مثل هذا ثم ذبح ذبحاً وهذا موقوف من هذه الطريق وكونه موقوفا اصح من رفعه والله أعلم واورده ابن عساكر من طرق عن معمر من ذلك ما اورده من حديث اسحاق بن بشر وهو ضعيف عن عثمان بن سياح عن ثور بن يزيد عن خالد ابن معدان عن معاذ عن النبي (ص) بنحوه . وروى من طريق أبي داود الطيالسي وغيره عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي نعيم عن ابيه عن أبي سعيد قال قال رسول (ص) الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة الا ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام . وقال أبو نعيم الحافظ الاصبهاني حدثنا اسحاق بن احمد حدثنا ابراهيم بن يوسف حدثنا احمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول خرج عيسى بن مريم ويحيى ابن زكريا يتماشيان فصدم يحيى امرأة فقال له عيسى يا ابن خالة لقد اصبت اليوم خطيئة ما اظن أنه يغفر لك ابدا قال وما هي يا ابن خالة قال امرأة صدمتها . قال والله ما شعرت بها . قال سبحان الله بدنك معي فأين روحك قال معلق بالعرش ولو أن قلبي اطمأن الى جبريل لظننت أني ما عرفت الله طرفة عين . فيه غرابة وهو من الاسرائيليات . وقال اسرائيل عن ابي حصين عن خيثمة قال كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا

عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان اليه ابن ماجنهما الليل أويا فلما ارادا أن يتفرقا قال له يحيى اوصنى قال لا تغضب قال لا استطيع الا أن اغضب قال لاتقتن مالا قال أما هذه فعسى .

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه هل مات زكريا عليه السلام موتاً أوقتل قتلا على روايتين فروى عبدالمنعم بن ادريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال هرب من قومه فدخل شجرة فجاؤا فوضعوا المنشار عليها فلما وصل المنشار الى أضلاعه أن فأوحى الله اليه لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الارض ومن عليها فسكن أنينه حتى قطع باثنتين . وقد روى هذا فى حديث مرفوع سنورده بعد ان شاء الله * وروى اسحق بن بشر عن ادريس بن سنان عن وهب أنه قال الذى انصدعت له الشجرة هو شعيا فأما زكريا فمات موتاً فالله اعلم . وقال الامام احمد حدثنا عفان أنبأنا أبوخلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبى كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الاشعرى أن النبى (ص) قال ان الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وان يأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بهن وكاد أن يبطىء فقال له عيسى عليه السلام إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن . فاما أن تبلغهن وإما أن ابلغهن فقال يا أخى إنى اخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى قال فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله واثنى عليه ثم قال إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم ان تعملوا بهن . واولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا فان مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته الى غير سيده فايكم يسره أن يكون عبده كذلك وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأمركم بالصلاة فان الله ينصب وجهه قبل عبده مالم يلتفت فاذا صليتم فلا تلتفتوا * وامركم بالصيام فان مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك وان خلوف فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك * وامركم بالصدقة فان مثل ذلك كمثل رجل اسره العدو فشدوا يده الى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال هل لكم أن أفتدى نفسى منكم فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا فان مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره فاتى حصناً حصيناً فتحصن فيه وأن العبد احصن مايكون من الشيطان اذا كان فى ذكر الله عز وجل قال وقال رسول (ص) وأنا آمركم بخمس الله امرنى بهن بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله فان من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربق الاسلام من عنقه الا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم قال يارسول الله وان صام وصلى قال وان صام وصلى وزعم أنه مسلم ادعوا المسلمين باسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد عن ابان بن يزيد عن يحيى بن أبى كثير به . وكذلك رواه

الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي وموسى بن اسماعيل كلاهما عن ابان بن يزيد العطار به * ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن محمد بن شعيب بن سابور عن معاوية بن سلام عن اخيه زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الاشعري به .ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطري عن معاوية بن سلام عن اخيه به. ثم قال تفرد به مروان الطاطري عن معاوية بن سلام . قلت وليس كما قال ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة عن أبي توبة الربيع بن نافع عن معاوية بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الاشعري فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الاشعري فذكر نحو هذه الرواية ثم روى الحافظ بن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن انس قال ذكر لنا عن اصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بني اسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات وذكر نحو ما تقدم . وقد ذكروا ان يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس انما كان يأنس الى البراري ويأكل من ورق الاشجار ويرد ماء الانهار ويتغذى بالجراد في بعض الاحيان ويقول من انعم منك يا يحيى * وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الاردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديدا لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل . وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال كان طعام يحيى بن زكريا العشب وانه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه

وقال محمد بن يحيى الذهلي حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثني عقيل عن ابن شهاب قال جلست يوما الى أبي ادريس الخولاني وهو يقص فقال الا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاما فلما رأى الناس قد نظروا اليه قال إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاما انما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم * وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية فاذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه فقال يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وانت في قبر قد احتفرته قائم تبكي فيه فقال يا أبت الست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطع الا بدموع البكائين فقال له ابك يا بني فبكيا جميعا . وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه وروى ابن عساكر عنه أنه قال إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم فكذا ينبغي للصديقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل * ثم قال كم بين النعيمين وكم بينهما وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه *

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسبابا من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه او من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسها منه . فلما كان بينها وبين الملك

مايجب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها فبعث اليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طشت الى عندها فيقال انها هلكت من فورها وساعتها وقيل بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فابى عليها فلما يئست منه تحيلت فى أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها الى ذلك فبعث من قتله وأحضر اليها رأسه ودمه فى طشت . وقد ورد معناه فى حديث رواه اسحاق بن بشر فى كتابه المبتدا حيث قال أنبأنا يعقوب الكوفى عن عمرو بن ميمون عن أبيه عن ابن عباس أن رسول الله (ص) ليلة أسرى به رأى زكريا فى السماء فسلم عليه وقال له يا أبا يحيى خبرنى عن قتلك كيف كان ولم قتلك بنو اسرائيل. قال يامحمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه وكان أجلهم وأصبحهم وجها وكان كما قال الله تعالى (سيدا وحصوراً) وكان لايحتاج الى النساء فهوته امرأة ملك بنى اسرائيل وكانت بغية فأرسلت اليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها فاجمعت على قتل يحيى ولهم عيد يجتمعون فى كل عام وكانت سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب . قال فخرج الملك الى العيد فقامت امرأته فشيعته وكان بها معجبا ولم تكن تفعله فيما مضى فلما أن شيعته قال الملك سلينى فما سألتنى شيئا الا أعطيتك قالت أريد دم يحيى بن زكريا قال لها سلينى غيره قالت هو ذاك قال هو لك قال فبعثت جلاوزتها الى يحيى وهو فى محرابه يصلى وأنا الى جانبه أصلى قال فذبح فى طشت وحمل رأسه ودمه اليها . قال فقال رسول الله (ص) فما بلغ من صبرك قال ما انفتلت من صلاتى قال فلما حمل رأسه اليها فوضع بين يديها فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه فلما أصبحوا قالت بنو اسرائيل قد غضب اله زكريا لزكريا فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا قال فخرجوا فى طلبى ليقتلونى وجاءنى النذير فهربت منهم وابليس أمامهم يدلهم على فلما تخوفت أن لا أعجزهم عرضت لى شجرة فنادتنى وقالت الى الى وانصدعت لى ودخلت فيها . قال وجاء ابليس حتى أخذ بطرف ردائى والتأمت الشجرة وبقى طرف ردائى خارجا من الشجرة وجاءت بنو اسرائيل فقال ابليس أما رأيتموه دخل هذه الشجرة هذا طرف ردائه دخلها بسحره فقالوا نحرق هذه الشجرة فقال ابليس شقوه بالمنشار شقا .قال فشققت مع الشجرة بالمنشار قال له النبى (ص) هل وجدت له مسا أو وجعا قال لا انما وجدت ذلك الشجرة التى جعل الله روحى فيها . هذا سياق غريب جدا وحديث عجيب ورفعه منكر وفيه ماينكر على كل حال ولم ير فى شئ من أحاديث الاسراء ذكر زكريا عليه السلام الا فى هذا الحديث وانما المحفوظ فى بعض الفاظ الصحيح فى حديث الاسراء فمررت بابنى الخالة يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث فان أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران. وقيل بل أشياع وهى امرأة زكريا أم يحيى هى أخت حنة امرأة عمران أم مريم فيكون يحيى ابن خالة مريم فالله أعلم .

ثم اختلف فى مقتل يحيى بن زكريا هل كان فى المسجد الاقصى أم بغيره على قولين فقال الثورى

عن الاعمش عن شمر بن عطية قال قتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبيا منهم يحيى بن زكريا عليه السلام وقال أبو عبيد القاسم بن سلام حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال قدم بخت نصر دمشق فاذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلى فسأل عنه فاخبروه فقتل على دمه سبعين الفا فسكن. وهذا اسناد صحيح الى سعيد بن المسيب وهو يقتضى أنه قتل بدمشق وان قصة بخت نصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصرى فالله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد ابن مسلم عن زيد بن واقد قال رأيت رأس يحيى ابن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذى يلى المحراب مما يلى الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير وفى رواية كانما قتل الساعة. وذكر فى بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة فالله أعلم.

(١) وقد روى الحافظ ابن عساكر فى المستقصى فى فضائل الاقصى من طريق العباس بن صبيح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال كان ملك هذه المدينة يعنى دمشق هداد ابن هداد وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة قال وكان قد حلف بطلاقها ثلاثا. ثم انه اراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال لا تحل لك حتى تنكح زوجا غيرك فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك باشارة أمها فابى عليها ثم أجابها الى ذلك وبعث اليه وهو قائم يصلى بمسجد جيرون من أتاه برأسه فى صينية فجعل الرأس يقول له لا تحل له لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره فاخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك فلما تمثلت بين يدى أمها خسف بها الى قدميها ثم الى حقويها وجعلت أمها تولول والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها الى منكبيها فامرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ففعل فلفظت الارض جثتها عند ذلك ووقعوا فى الذل والفناء ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصر فقتل عليه خمسة وسبعين الفا * قال سعيد بن عبد العزيز وهى دم كل نبى ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال أيها الدم أفنيت بنى اسرائيل فاسكن باذن الله فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق الى بيت المقدس فتبعهم اليها فقتل خلقا كثيراً لا يحصون كثرة وسبا منهم ثم رجع عنهم.

---

(١) من هنا الى قصة عيسى ليس فى النسختين المصريتين

قصة عيسى بن مريم عليه من الله افضل الصلاة والسلام

قال الله تعالى فى سورة آل عمران التى أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها فى الرد على النصارى عليهم لعائن الله الذين زعموا ان لله ولدا تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ماهم عليه من الباطل من التثليث فى الاقانيم ويدعون بزعمهم ان الله ثلث ثلاثة وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم على اختلاف فرقهم فانزل الله عزوجل صدر هذه السورة بين فيها ان عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوره فى الرحم كما صور غيره من المخلوقات وانه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم وقال له كن فكان سبحانه وتعالى . وبين أصل ميلاد أمه مريم وكيف كان من امرها وكيف حملت بولدها عيسى وكذلك بسط ذلك فى سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته فقال تعالى وهو اصدق القائلين (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين .ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. إذقالت امرأة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى وانى سميتها مريم وانى اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتاً حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم انى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب)

يذكر تعالى انه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ثم خصص فقال وآل ابراهيم فدخل فيهم بنو اسماعيل وبنو اسحاق.ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام وقال محمد ابن اسحاق وهو عمران بن باشم بن أمون ابن ميشا بن حزقيا بن احريق بن موثم بن عزازيا بن امصيا بن ياوش بن احريهو بن يازم بن يهفاشاط بن ايشا بن ايان بن رحبعام بن سليمان بن داود وقال ابو القاسم بن عساكر مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن اخنز بن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن ابيود بن زربابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن امون بن ميشا بن حزقا بن احاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط ابن ايشا بن ايبا بن رحبعام ابن سليمان بن داود عليه السلام وفيه مخالفة لما ذكره محمد بن اسحاق ولا خلاف انها من سلالة داود عليه السلام وكان ابوها عمران صاحب صلاة بنى إسرائيل فى زمانه وكانت أمها وهى حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات وكان زكريا نبى ذلك الزمان زوج أخت مريم اشياع فى قول الجمهور وقيل زوج خالتها اشياع فالله أعلم

وقد ذكر محمد بن اسحاق وغيره ان ام مريم كانت لاتحبل فرأت يوما طائرا يزق فرخا له فاشتهت

الولد فنذرت لله ان حملت لتجعلن ولدها محرراً أى حبيساً فى خدمة بيت المقدس قالوا فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام (فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها أنثى والله اعلم بما وضعت) وقرى بضم التاء (وليس الذكر كالانثى) أى فى خدمة بيت المقدس وكانوا فى ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداما من أولادهم وقولها (وانى سميتها مريم) استدل به على تسمية المولود يوم يولد وكما ثبت فى الصحيحين عن أنس فى ذهابه بأخيه الى رسول الله ص فحنكه اخاه وسماه عبد الله . وجاء فى حديث الحسن عن سمرة مرفوعا « كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه» رواه احمد وأهل السنن وصححه الترمذى وجاء فى بعض ألفاظه ويدمى بدل ويسمى وصححه بعضهم والله أعلم . وقولها (وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) قد استجيب لها فى هذا كما تقبل منها نذرها فقال الامام احمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان اياه إلا مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة واقرؤا ان شئتم (وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أخرجاه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جرير عن احمد بن الفرج عن بقية عن عبد الله بن الزبيدى عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ص بنحوه . وقال احمد أيضا حدثنا اسماعيل بن عمر حدثنا ابن أبى ذؤيب عن عجلان مولى المشمعل عن أبى هريرة عن النبى ص قال (كل مولود من بنى آدم يمسه الشيطان باصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى) . تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم عن أبى الطاهر عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبى يونس عن أبى هريرة عن النبى ص بنحوه . وقال احمد حدثنا هشيم حدثنا حفص بن ميسرة عن العلاء عن ابيه عن أبى هريرة أن النبى ص قال (كل انسان تلده أمه يلكزه الشيطان فى حضنيه إلا ما كان من مريم وابنها ألم تر إلى الصبى حين يسقط كيف يصرخ قالوا بلى يارسول الله قال ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه ورواه قيس عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله ص (ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أوعصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم) ثم قرأ رسول الله ص (وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) وكذا رواه محمد بن اسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى هريرة عن النبى ص بأصل الحديث . وقال الامام احمد حدثنا عبد الملك حدثنا المغيرة هو ابن عبد الله الحزامى عن ابى الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة عن النبى ص قال (كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد إلا عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب) . وهذا على شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه . وقوله (فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا) ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها فى خروقها ثم خرجت بها

الى المسجد فسلمتها الى العباد الذين هم مقيمون به وكانت ابنة امامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها . والظاهر انها انما سلمتها اليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها فى صغرها . ثم لما دفعتها اليهم تنازعوا فى أيهم يكفلها وكان زكريا نبيهم فى ذلك الزمان وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل أن زوجته اختها أو خالتها على القولين فشاحوه فى ذلك وطلبوا أن يقترع معهم فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأم . قال الله تعالى (وكفلها زكريا) أى بسبب غلبه لهم فى القرعة كما قال تعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) . قالوا وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفا به ثم حملوها ووضعوها فى موضع وأمروا غلاما لم يبلغ الحنث فاخرج واحدا منها وظهر قلم زكريا عليه السلام فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بان يلقوا أقلامهم فى النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جريه فى الماء فهو الغالب ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذى جرى على خلاف جرية الماء وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الاقلام قد انعكس سيرها صعدا فهو الغالب ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها اذ كان احق بها شرعا وقدراً لوجوه عديدة . قال الله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) قال المفسرون أتخذ لها زكريا مكانا شريفاً من المسجد لايدخله سواه فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت اذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها فى بنى اسرائيل واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة حتى انه كان نبى الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقا غريباً فى غير أوانه فكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فيسألها (أنى لك هذا فتقول هو من عند الله) أى رزق رزقنيه الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فعند ذلك وهنالك طمع زكريا فى وجود ولد من صلبه وان كان قد اسن وكبر (قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء) . قال بعضهم قال يامن يرزق مريم الثمر فى غير أوانه هب لى ولداً وان كان فى غير أوانه فكان من خبره وقضيته ماقدمنا ذكره فى قصته . (اذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد

جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم)

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها بأن اختارها لايجاد ولد منها من غير أب وبشرت بان يكون نبياً شريفاً (يكلم الناس في المهد) أي في صغره يدعوهم الى عبادة الله وحده لاشريك له وكذلك في حال كهولته فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو الى الله فيها وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلا لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة فيقال إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها فقول الملائكة (يامريم ان الله اصطفاك) أي اختارك واجتباك (وطهرك) أي من الاخلاق الرذيلة واعطاك الصفات الجميلة (واصطفاك على نساء العالمين) . يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها كقوله لموسى انى اصطفيتك على الناس وكقوله عن بني اسرائيل (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) ومعلوم أن ابراهيم عليه السلام افضل من موسى وان محمداً (ص) أفضل منهما وكذلك هذه الامة أفضل من سائر الامم قبلها وأكثر عدداً وافضل علما وازكى عملا من بني اسرائيل وغيرهم . ويحتمل أن يكون قوله (واصطفاك على نساء العالمين) محفوظ العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها ووجد بعدها لانها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم اسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي الى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره فلا يمتنع على هذا أن يكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله (واصطفاك على نساء العالمين) إذ لم يعارضه غيره والله أعلم وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الاشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى (ماالمسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة) فعلى هذا لايمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها والله أعلم . وقد جاء ذكرها مقرونا مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رضي الله عنهن وأرضاهن .

وقد روى الامام احمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عديدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن جعفر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله (ص) خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد . وقال الامام احمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال قال رسول الله (ص) (حسبك من نساء العالمين بأربع مريم بنت عمران وآسية

امراة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد) ورواه الترمذى عن ابى بكر بن زنجويه عن
عبد الرزاق به وصححه ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن ابى جعفر الرازى وابن عساكر من
طريق تميم بن زياد كلاهما عن أبى جعفر الرازى عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله (ص) خير نساء
العالمين اربع (مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رسول الله)
وقال الامام احمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب قال كان أبو هريرة يحدث أن
النبى (ص) قال خير نساء ركبن الابل صالح نساء قريش احناه على ولد فى صغره وارعاه لزوج فى ذات يده
قال أبو هريرة ولم تركب مريم بعيراً قط . وقد رواه مسلم فى صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد كلاهما
عن عبد الرزاق به . وقال احمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى موسى بن على سمعت أبى يقول سمعت أبا
هريرة يقول قال رسول الله (ص) خير نساء ركبن الابل نساء قريش احناه على ولد فى صغره وأرأفه
بزوج على قلة ذات يده قال أبو هريرة وقد علم رسول الله (ص) أن ابنة عمران لم تركب الابل تفرد به
وهو على شرط الصحيح * ولهذا الحديث طرق اخر عن أبى هريرة * وقال أبو يعلى الموصلى حدثنا زهير حدثنا
يونس بن محمد حدثنا داود بن ابى الفرات عن علباء بن احمر عن عكرمة عن ابن عباس قال خط رسول
الله (ص) فى الارض أربع خطوط فقال أتدرون ما هذا قالوا الله ورسوله اعلم فقال رسول الله (ص) أفضل
نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون
ورواه النسائى من طرق عن داود أبى هند . وقد رواه ابن عساكر من طريق أبى بكر عبد الله بن أبى داود
سليمان بن الاشعث حدثنا يحيى بن حاتم العسكرى نبأنا بشر بن مهران بن حمدان حدثنا محمد بن دينار عن
داود بن ابى هند عن الشعبى عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (ص) حسبك منهن أربع سيدات نساء
العالمين فاطمة بنت محمد وخديجة بنت خويلد وآسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران . وقال أبو القاسم
البغوى حدثنا وهب بن منبه حدثنا خالد بن عبد الله الواسطى عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن
عائشة انها قالت لفاطمة أرأيت حين اكببت على رسول الله (ص) فبكيت ثم ضحكت قالت اخبرنى انه
ميت من وجعه هذا فبكيت ثم اكببت عليه فاخبرنى انى أسرع أهله لحوقاً به وانى سيدة نساء أهل الجنة
إلا مريم بنت عمران فضحكت واصل هذا الحديث فى الصحيح . وهذا اسناد على شرط مسلم وفيه انهما
أفضل الاربع المذكورات . وهكذا الحديث الذى رواه الامام احمد حدثنا عثمان بن محمد حدثنا
جرير عن يزيد هو ابن ابى زياد عن عبد الرحمن بن أبى نعم عن ابى سعيد قال قال رسول الله (ص) فاطمة
سيدة نساء أهل الجنة الا ما كان من مريم بنت عمران اسناد حسن وصححه الترمذى ولم يخرجوه وقد
روى نحوه من حديث على بن أبى طالب ولكن فى اسناده ضعف * والمقصود أن هذا يدل على ان مريم
وفاطمة افضل هذه الاربع . ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء

فى الفضيلة لكن ورد حديث ان صح عين الاحتمال الأول قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر انبأنا ابو الحسن بن الفرا وابو غالب وأبو عبدالله ابنا البنا قالوا أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة انبأنا أبو طاهر المخلص حدثنا احمد بن سليمان حدثنا الزبير هو بن بكار حدثنا محمد بن الحسن عن عبدالعزيز بن محمد عن موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون فان كان هذا اللفظ محفوظاً بثم التى للترتيب فهو مبين لاحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التى وردت بواو العطف التى لاتقتضى الترتيب ولا تنفيه والله أعلم.

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازى عن داود الجعفرى عن عبدالعزيز بن محمد وهو الدراوردى عن ابراهيم بن عقبة عن كريب عن ابن عباس مرفوعا فذكره بواو العطف لابثم الترتيبية فخالفه اسنادا ومتناً فالله اعلم. فاما الحديث الذى رواه ابن مردويه من حديث شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال قال رسول الله (ص) كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الاثلاث مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وهكذا الحديث الذى رواه الجماعة الا أبا داود من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمدانى عن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله (ص) كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. فانه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على اخراجه ولفظه يقتضى حصر الكمال فى النساء فى مريم وأسية ولعل المراد بذلك فى زمانهما فان كلا منهما كفلت نبياً فى حال صغره فاسية كفلت موسى الكليم ومريم كفلت ولدها عبدالله ورسوله فلا ينفى كمال غيرهما فى هذه الأمة كخديجة وفاطمة فخديجة خدمت رسول الله (ص) قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها ازيد من عشر سنين وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضى الله عنها وارضاها وأما فاطمة بنت رسول الله (ص) فانها خصت بمزيد فضيلة على اخواتها لانها اصيبت برسول الله (ص) وبقية اخواتها متن فى حيات النبى (ص) وأما عائشة فانها كانت أحب أزواج رسول الله (ص) اليه ولم يتزوج بكراً غيرها ولا يعرف فى سائر النساء فى هذه الامة بل ولا فى غيرها أعلم منها ولا أفهم وقد غار الله لها حين قال لها أهل الافك ماقالوا فانزل برائتها من فوق سبع سموات وقد عمرت بعد رسول الله (ص) قريباً من خمسين سنة تبلغ عنه القران والسنة وتفتى المسلمين وتصلح بين المختلفين وهى أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين فى قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين والاحسن الوقف فيهما رضى الله عنهما وماذاك الا لأن قوله (ص) وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام يحتمل أن يكون عاما بالنسبة الى المذكورات وغيرهن ويحتمل أن يكون عاما بالنسبة الى ماعدى المذكورات والله أعلم

والمقصود ههنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا . وقد ورد في حديث انها تكون من أزواج النبي (ص) في الجنة هي وآسية بنت مزاحم . وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف انه قال ذلك واستأنس بقوله ثيبات وأبكارا قال فالثيب آسية ومن الأبكار مريم بنت عمران . وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم فالله أعلم .

قال الطبراني حدثنا عبدالله بن ناجية حدثنا محمد بن سعد العوفي حدثنا أبي أنبأنا عمي الحسين حدثنا يونس بن نفيع عن سعد بن جنادة هو العوفي قال قال رسول الله (ص) إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا ابراهيم بن عرعرة حدثنا عبد النور بن عبد الله حدثنا يونس بن شعيب عن أبي امامة قال قال رسول الله (ص) أشعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى رواه ابن جعفر العقيلي من حديث عبد النور به وزاد فقلت هنيئاً لك يارسول الله . ثم قال العقيلي وليس بمحفوظ . وقال الزبير بن بكار حدثني محمد بن الحسن عن يعلى بن المغيرة عن ابن أبي داود قال دخل رسول الله (ص) على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها بالكره مني ماأرى منك ياخديجة وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون قالت وقد فعل الله بك ذلك يارسول الله قال نعم قالت بالرفاه والبنين * وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زكريا الغلابي حدثنا العباس بن بكار حدثنا أبو بكر الهزلي عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله (ص) دخل على خديجة وهي في مرض الموت فقال ياخديجة اذا لقيت ضرائرك فاقرئهن مني السلام قالت يارسول الله وهل تزوجت قبلي قال لا ولكن الله زوجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى وروى ابن عساكر من طريق سويد بن سعيد حدثنا محمد بن صالح بن عمر عن الضحاك ومجاهد عن ابن عمر قال نزل جبريل الى رسول الله (ص) بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله (ص) اذ مرت خديجة فقال جبريل من هذه يامحمد قال هذه صديقة أمتي قال جبريل معي اليها رسالة من الرب عزوجل يقرئها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصب بعيد من اللهب لانصب فيه ولا صخب قالت الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله ما ذلك البيت الذي من قصب قال لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم وهما من أزواجي يوم القيامة . وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لاصخب فيه ولا وصب في الصحيح ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جدا . وكل من هذه الاحاديث في أسانيدها نظر . وروى ابن عساكر من حديث أبي زرعة الدمشقي حدثنا عبدالله بن صالح

حدثنى معاوية عن صفوان بن عمرو عن خالد بن معدان عن كعب الاحبار أن معاوية سأله عن الصخرة يعنى صخرة بيت المقدس فقال الصخرة على نخلة والنخلة على نهر من أنهار الجنة وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة . ثم رواه من طريق اسماعيل عن عياش عن ثعلبة بن مسلم عن مسعود عن عبد الرحمن عن خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ بمثله وهذا منكر من هذا الوجه بل هو موضوع قد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن عن ابن عابد أن معاوية سأل كعبا عن صخرة بيت المقدس فذكره قال الحافظ بن عساكر وكونه من كلام كعب الاحبار أشبه . قلت وكلام كعب الاحبار هذا انما تلقاه من الاسرائيليات التى منها ما هو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم وهذا منه والله أعلم .

ميلاد العبد الرسول عيسى بن مريم البتول

قال الله تعالى (واذ كر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا . قالت انى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال انما أنا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا . فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا فناداها من تحتها أن لاتحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحداً فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا . فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا . ياأخت هرون ما كان أبوك امرء سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت اليه قالو كيف نكلم من كان فى المهد صبيا قال إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا . ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم .)

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التى هى كالمقدمة لها والتوطئة قبلها كما ذكر فى سورة آل عمران قرن بينهما فى سياق واحد وكما قال فى سورة الانبياء (وزكريا اذ نادى ربه رب لاتذرنى فرداوانت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين . والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين)

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس وانه كفلها زوج أختها أو خالتها نبى ذلك الزمان زكريا عليه السلام وأنه أتخذ لها محرابا وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه وانها لما بلغت اجتهدت فى العبادة فلم يكن فى ذلك الزمان نظيرها فى فنون العبادات وظهر عليها من الاحوال ماغبطها به زكريا عليه السلام وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبانه سيهب لها ولداً زكيا يكون نبيا كريما طاهراً مكرما مؤيدا بالمعجزات فتعجبت من وجود ولد من غير والد لانها لا زوج لها ولا هى ممن تتزوج فاخبرتها الملائكة بان الله قادر على مايشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون فاستكانت لذلك وانابت وسلمت لامر الله وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها فان الناس يتكلمون فيها بسببه لانهم لايعلمون حقيقة الامر وانما ينظرون الى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل وكانت انما تخرج من المسجد فى زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لابد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء فبينما هى يوما قد خرجت لبعض شؤونها (وانتبذت) أى انفردت وحدها شرقى المسجد الاقصى اذ بعث الله اليها الروح الامين جبريل عليه السلام (فتمثل لها بشرا سويا) فلما رأته (قالت انى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) . قال أبوالعالية علمت أن التقى ذو نهية وهذا يرد قول من زعم انه كان فى بنى اسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقى فان هذا قول باطل بلا دليل وهو من أسخف الاقوال (قال انما أنارسول ربك) أى خاطبها الملك قائلا انما أنا رسول ربك لست ببشر ولكنى ملك بعثنى الله اليك (ليهب لك غلاما زكيا) أى ولدا زكيا (قالت انى يكون لى غلام) أى كيف يكون لى غلام أو يوجد لى ولد (ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا) أى ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة (قال كذلك قال ربك هو على هين) أى فاجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلا (كذلك قال ربك) أى وعد أنه سيخلق منك غلاما ولست بذات بعل ولا تكونين ممن تبغين (هو على هين) أى وهذا سهل عليه ويسير لديه فانه على مايشاء قدير . وقوله (ولنجعله اية للناس) أى ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلا على كمال قدرتنا على أنواع الخلق فانه تعالى خلق ادم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . وقوله (ورحمة منا) أى نرحم به العباد بان يدعوهم الى الله فى صغره وكبره فى طفوليته وكهوليته بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لاشريك له. وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والاولاد والشركاء والنظراء والاضداد والانداد . وقوله (وكان أمراً مقضيا) . يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها يعنى ان هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرره وهذا معنى قول محمد بن اسحاق واختاره ابن جرير ولم يحك سواه والله أعلم . ويحتمل أن يكون قوله (وكان أمرا مقضيا) كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) . فذكر غير واحد من السلف ان جبريل نفخ فى جيب درعها فنزلت

النفخة الى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها. ومن قال انه نفخ فى فمها أو ان الذى كان يخاطبها هو الروح الذى ولج فيها من فمها فقوله خلاف مايفهم من سياقات هذه القصة فى محالها من القرآن فان هذا السياق يدل على أن الذى أرسل اليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام وانه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ فى جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى (فنفخنا فيه من روحنا) يدل على أن النفخة ولجت فيه لافى فمها كما روى عن أبى بن كعب ولا فى صدرها كما رواه السدى باسناده عن بعض الصحابة ولهذا قال تعالى (فحملته) أى حملت ولدها (فانتبذت به مكاناً قصيا) وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام فى حقها فذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه انها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بنى اسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج فعرض لها ذات يوم فى الكلام فقال يامريم هل يكون زرع من غير بذر قالت نعم فمن خلق الزرع الأول. ثم قال فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر قالت نعم فمن خلق الشجر الاول ثم قال فهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم ان الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى قال لها فأخبريني خبرك فقالت إن الله بشرنى (بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين) ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا والله أعلم *

وذكر السدى باسناده عن الصحابة أن مريم دخلت يوماً على أختها فقالت لها أختها اشعرت أنى حبلى فقالت مريم وشعرت أيضاً أنى حبلى فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى إنى أرى مافى بطنى يسجد لما فى بطنك وذلك قوله (مصدقا بكلمة من الله) ومعنى السجود ههنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان فى شرع من قبلنا وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم * وقال أبو القاسم قال مالك بلغنى أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعاً معاً فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم انى أرى مافى بطنى يسجد لما فى بطنك قال مالك أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله تعالى جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والابرص. رواه ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد قال قالت مريم كنت إذا خلوت حدثنى وكلمنى واذا كنت بين الناس سبح فى بطنى *

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن إذ لو كان خلاف ذلك لذكر. وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر وعن ابن عباس ماهو إلا أن حملت به فوضعته قال بعضهم حملت به تسع ساعات واستأنسوا لذلك بقوله (فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا فأجاءها

المخاض الى جـذع النخلة) والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه لقوله (فتصبح الأرض مخضرة) وكقوله (لخلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) * ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت فى الحديث المتفق عليه .

قال محمد بن اسحاق شاع واشتهر فى بنى اسرائيل أنها حامل فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا . قال واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذى كان يتعبد معها فى المسجد وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكاناً قصيا وقوله (فأجاءها المخاض الى جذع النخلة) أى فألجأها واضطرها الطلق الى جذع النخلة وهو بنص الحديث الذى رواه النسائى باسناد لا بأس به عن أنس مرفوعا والبيهقى باسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضا ببيت لحم الذى بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعـد على ما سنذكره هذا البناء المشاهد الهائل (قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) فيه دليـل على جواز تمنى الموت عند الفتن وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات فى المسجد المنقطعات اليـه المتكفات فيه ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت ان لو كانت ماتت قبل هـذا الحال أو كانت (نسياً منسياً) أى لم تخلق بالكلية . وقوله (فناداها من تحتها) وقرىء من تحتها على الخفض وفى المضمر قولان أحدهما أنه جبريل قاله العوفى عن ابن عباس قال ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم وهكذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والضحاك والسدى وقتادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير فى رواية هو ابنها عيسى واختاره ابن جرير . وقوله (أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) قيل النهر واليـه ذهب الجمهور . وجاء فيـه حديث رواه الطبرانى لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح وعن الحسن والربيع بن أنس وابن اسلم وغيرهم أنه ابنهـا والصحيح الأول لقوله (وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) فذكر الطعام والشراب ولهـذا قال (فكلى واشربى وقرى عينا) . ثم قيـل كان جذع النخلة يابساً وقيل كانت نخلة مثمرة فالله أعلم . ويحتمل أنها كانت نخـلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك لأن ميلاده كان فى زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر وقـد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان (تساقط عليك رطباً جنياً) قال عمرو بن ميمون ليس شىء أجود للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هـذه الآية . وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا شيبان حدثنا مسرور بن سعيد التميمى حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الانصارى عن عروة بن رويم عن على بن أبى طالب قال قال رسول الله (ص) (أكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم وليس من الشجر شىء يلقح غيرها وقال رسول الله (ص) (أطعموا نساءكم الولد الرطب فان لم يكن رطب فتمر وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها

مريم بنت عمران . وكذا رواه أبو يعلى فى مسنده عن شيبان بن فروخ عن مسروق بن سعيد وفى رواية مسرور بن سعد . والصحيح مسرور بن سعيد التيمى أورد له ابن عدى هذا الحديث عن الاوزاعى به ثم قال وهو منكر الحديث ولم اسمع بذكره إلا فى هذا الحديث وقال ابن حبان يروى عن الأوزاعى المناكير الكثيرة التى لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها . وقوله (فاما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً) . وهذا من تمام كلام الذى ناداها من تحتها قال (كلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحداً) أى فان رأيت أحداً من الناس (فقولى) له أى بلسان الحال والاشارة (إنى نذرت للرحمن صوماً) أى صمتاً وكان من صومهم فى شريعتهم ترك الكلام والطعام قاله قتادة والسدى وابن اسلم ويدل على ذلك قوله (فلن أكلم اليوم إنسياً) فأما فى شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل وقوله تعالى (فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريا . ياأخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا فى طلبها فمروا على محلتها والأنوار حولها فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها (يامريم لقد جئت شيئاً فريا) أى امراً عظيما منكراً . وفى هذا الذى قالوه نظر مع أنه كلام ينقض أوله آخره وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملت بنفسها وأتت به قومها وهى تحمله * قال ابن عباس وذلك بعد ماتعلت من نفاسها بعد أربعين يوما *

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها (قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا) والفرية هى الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال ثم قالوا لها (ياأخت هرون) قيل شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه فى العبادة وكان اسمه هرون وقيل شبهوها برجل فاجر فى زمانهم اسمه هرون . قاله سعيد بن جبير وقيل أرادوا بهرون أخا موسى شبهوها به فى العبادة . وأخطأ محمد بن كعب القرظى فى زعمه أنها أخت موسى وهرون نسباً فان بينهما من الدهور الطويلة مالا يخفى على أدنى من عنده من العلم مايرده عن هذا القول الفظيع وكأنه غره أن فى التوراة أن مريم أخت موسى وهرون ضربت بالدف يوم نجا الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه فاعتقد أن هذه هى هذه وهذا فى غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررناه فى التفسير مطولا ولله الحمد والمنه . وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هرون وليس فى ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها مايدل على أنها ليس لها أخ سواها والله أعلم . قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن ادريس سمعت أبى يذكره عن سماك بن حرب عن علقمة ابن وائل عن المغيرة بن شعبة قال بعثنى رسول الله ص إلى نجران فقالوا أرأيت ماتقرؤن (ياأخت هرون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ص فقال (ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالانبياء والصالحين قبلهم) وكذا رواه مسلم والنسائى والترمذى من حديث

عبدالله بن إدريس وقال الترمذى حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه و فى رواية (ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم) وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهرون حتى قيل إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير منهم ممن يسمى بهرون أربعون ألفاً فالله أعلم *

والمقصود أنهم قالوا (ياأخت هرون) ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبى اسمه هرون وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير ولهذا قالوا (ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً) أى لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم لا أخوك ولا أمك ولا أبوك فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء فذكر ابن جرير فى تاريخه أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك أبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمنا ، ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال عظم التوكل على ذى الجلال ولم يبق إلا الاخلاص والاتكال (فأشارت اليه) أى خاطبوه وكلموه فان جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه . فعندها (قالوا) من كان منهم جباراً شقيا (كيف نكلم من كان فى المهد صبياً) أى كيف تحيلينا فى الجواب على صبى صغير لايعقل الخطاب وهو مع ذلك رضيع فى مهده ولا يميز بين محض وزبده وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والتنقص لنا والازدراء إذ لاتردين علينا قولا نطقيا بل تحيلين فى الجواب على من كان فى المهد صبياً فعندها (قال إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) . هذا أول كلام تفوه به عيسى بن مريم فكان أول ماتكلم به أن (قال انى عبدالله) اعترف لربه تعالى بالعبودية وأن الله ربه فنزه جناب الله عن قول الظالمين فى زعمهم انه ابن الله بل هو عبده ورسوله وابن أمته ثم برأ أمه مما نسبها اليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله (آتانى الكتاب وجعلنى نبياً) فان الله لايعطى النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم كما قال تعالى (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما) وذلك أن طائفة من اليهود فى ذلك الزمان قالوا إنها حملت به من زنا فى زمن الحيض لعنهم الله فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة واتخذ ولدها نبياً مرسلا أحد أولى العزم الخمسة الكبار ولهذا قال (وجعلنى مباركا أينما كنت) وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لاشريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً) وهذه وظيفة العبيد فى القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة والاحسان إلى الخليقة بالزكاة وهى تشتمل على طهارة النفوس من الاخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الاصناف وقرى الاضياف والنفقات على الزوجات والارقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات . ثم قال (وبراً بوالدتى

ولم يجعلني جباراً شقيا) أي وجعلني براً بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها . (ولم يجعلني جبارا شقياً) أي لست بفظ ولا غليظ ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته * (والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) . وهذه الاماكن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام . ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه قال (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين)* ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم ويؤول أمر الجميع الى ثلاثة هم أشرافهم وسادتهم وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة فجعلوا يناظرون في أمر المسيح فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله وأمر رسوله بان يباهلهم ان لم يستجيبوا له ويتبعوه فلما رأوا عينها واذنها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمة والموادعة وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح يامعشر النصارى لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم أنه مالاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وانها للاستئصال منكم ان فعلتم فان كنتم قد أبيتم الا الف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فطلبوا ذلك من رسول الله ص ، وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلا اميناً فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران وسيأتي بسط هذه القضية في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى وبه الثقة *

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح قال لرسوله (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون) يعني من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ولهذا قال (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) أي لا يعجزه شيء ولا يكترثه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وقوله (إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد أخبرهم أن الله ربه وربهم وإله وإلههم وأن هذا هو الصراط المستقيم . قال الله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم)

أى فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه فمن قائل من اليهود إنه ولد زنية واستمروا على كفرهم وعنادهم وقابلهم آخرون فى الكفر فقالوا هو الله وقال آخرون هو ابن الله وقال المؤمنون هو عبدالله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وهؤلاء هم الناجون المثابون المؤيدون المنصورون ومن خالفهم فى شىء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون وقد توعدهم العلى العظيم الحكيم العليم بقوله (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم)

قال البخارى حدثنا صدقة بن الفضل أنبأنا الوليد حدثنا الاوزاعى حدثنى عمير بن هانىء حدثنى جنادة بن أبى أمية عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال (من شهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) قال الوليد فحدثنى عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير عن جنادة وزاد من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء . وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن جابر به ومن طريق أخرى عن الاوزاعى به •

باب بيان أن الله تعالى منزه عن الولد

قال تعالى فى آخر هذه السورة (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً) أى شيئاً عظيما ومنكراً من القول وزورا (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولدا • وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا • إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً • لقد أحصاهم وعدهم عداً • وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) فبين أنه تعالى لا ينبغى له الولد لانه خالق كل شىء ومالكه وكل شىء فقير اليه ، خاضع ذليل لديه وجميع سكان السموات والأرض عبيده وهو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه كما قال تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون • بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم • ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل • لا تدركه الأبصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير)• فبين أنه خالق كل شىء فكيف يكون له ولد والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين والله تعالى لا نظير له ولا شبيه له ولا عديل له فلا صاحبة له فلا يكون له ولد كما قال تعالى (قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) تقرر أنه الاحد الذى لا نظير له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله (الصمد) وهو السيد الذى كمل فى علمه وحكمه ورحمته وجميع صفاته (لم يلد) أى لم يوجد منه ولد

(ولم يولد) أي ولم يتولد عن شيء قبله (ولم يكن له كفواً أحد) أي وليس له عدل ولا مكافيء ولا مساو فقطع النظير المدانى الأعلى والمساوى فانتفى أن يكون له ولد إذ لايكون الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا • وقال تبارك وتعالى وتقدس (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافى السموات ومافى الارض وكفى بالله وكيلا • لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً • فأما الذين امنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا اليما ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا).

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والاطراء فى الدين وهو مجاوزة الحد فالنصارى لعنهم الله غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبدالله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التى أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل اليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام والذى اتصل بها من الملك هى الروح المضافة الى الله اضافة تشريف وتكريم وهى مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وكذا روح الله أضيفت اليه تشريفا لها وتكريما. وسمى عيسى بها لانه كان بها من غير أب وهى الكلمة أيضا التى عنها خلق وبسببها وجد كما قال تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون). وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل له مافى السموات والارض كل له قانتون بديع السموات والارض واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون). وقال تعالى (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون). فاخبر تعالى أن اليهود والنصارى عليهم لعائن الله كل من الفريقين ادعوا على الله شططا وزعموا أن له ولدا تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه الا مجرد القول ومشابهة من سبقهم الى هذه المقالة الضالة تشابهت قلوبهم وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الاول صدر عن واجب الوجود الذى يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الاول وانه صدر عن العقل الاول عقل ثان ونفس وفلك ثم صدر عن الثانى كذلك حتى تناهت العقول الى عشرة والنفوس الى تسعة والافلاك الى تسعة باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر. وهكذا طوائف من مشركى العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله وانه صاهر سروات الجن فتولد منهما الملائكة تعالى الله عما

يقولون وتنزه عما يشركون كما قال تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) وقال تعالى (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون الا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين) . وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) وقال تعالى فى أول سورة الكهف وهى مكية (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا) . وقال تعالى (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الارض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركى العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن لله ولدا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيراً .

ولما كانت النصارى عليهم لعنة الله المتتابعة الى يوم القيامة من أشهر من قال بهذه المقالة ذكروا فى القرآن كثيرا الرد عليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم وقد تنوعت أقوالهم فى كفرهم وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض « وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب . قال الله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) . فدل على أن الحق يتحد ويتفق والباطل يختلف ويضطرب . فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله تعالى وطائفة قالوا هو ابن الله عز الله وطائفة قالوا هو ثلث ثلاثة جل الله . قال الله تعالى فى سورة المائدة (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الارض جميعا ولله ملك السموات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شئ قدير). فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم وبين أنه الخالق القادر على كل شئ المتصرف فى كل شئ وانه رب كل شئ ومليكه وإلهه . وقال فى أواخرها (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يبنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين

من أنصار . لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من إله الا إله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم . أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الايات ثم انظر أنى يؤفكون) حكم تعالى بكفرهم شرعا وقدرا فاخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول اليهم هو عيسى بن مريم قد بين لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور فى الرحم داع الى عبادة الله وحده لاشريك له وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار والخزى فى الدار الاخرة والهوان والعار ولهذا قال (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) ثم قال (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله الا إله واحد) قال ابن جرير وغيره المراد بذلك قولهم بالاقانيم الثلاثة . أقنوم الاب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الاب الى الابن على اختلافهم فى ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية عليهم لعائن الله كما سنبين كيفية اختلافهم فى ذلك ومجامعهم الثلاثة فى زمن قسطنطين بن قسطس وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة ولهذا قال تعالى (ومامن إله الا إله واحد) أى ومامن إله الا الله وحده لاشريك له ولا نظير له ولا كفوء له ولاصاحبة له ولا ولد ثم توعدهم وتهددهم فقال (وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم) ثم دعاهم برحمته ولطفه الى التوبة والاستغفار من هذه الامور الكبار والعظائم التى توجب النار فقال (أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) ثم بين حال المسيح وامه وانه عبد رسول وأمه صديقة أى ليست بفاجرة كما يقوله اليهود لعنهم الله وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا وقوله (كانا يأكلان الطعام) كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما اى ومن كان بهذه المثابة كيف يكون الها تعالى الله عن قولهم وجهلهم علوا كبيرا * وقال السدى وغيره المراد بقوله لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة زعمهم فى عيسى وأمه أنهما الالهان مع الله يعنى كما بين تعالى كفرهم فى ذلك بقوله فى آخر هذه السورة الكريمة (واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله . قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك انك أنت علام الغيوب . ماقلت لهم الا ماأمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد . إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) . يخبر تعالى أنه يسأل عيسى بن مريم يوم القيامة على سبيل الاكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه تعالى الله عما يقولون فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه مايسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك) أى تعاليت أن يكون معك شريك

(مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق) أى ليس هذا يستحقه أحد سواك (وان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيوب) . وهذا تأدب عظيم فى الخطاب والجواب (ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به) حين أرسلتنى اليهم وأنزلت على الكتاب الذى كان يتلى عليهم ثم فسر ماقال لهم بقوله (أن اعبدوا الله ربى وربكم) أى خالقى وخالقكم ورازقى ورازقكم (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى) أى رفعتنى اليك حين أرادوا قتلى وصلبى فرحمتنى وخلصتنى منهم والقيت شبهى على أحدهم حتى انتقموا منه فلما كان ذلك (كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد) . ثم قال على وجه التفويض الى الرب عزوجل والتبرى من أهل النصرانية (إن تعذبهم فانهم عبادك) أى وهم يستحقون ذلك (وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) . وهذا التفويض والاسناد الى المشيئة بالشرط لايقتضى وقوع ذلك ولهذا قال (فانك أنت العزيز الحكيم) ولم يقل الغفور الرحيم

وقد ذكرنا فى التفسير ما رواه الامام احمد عن أبى ذر ان رسول الله (ص) قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح (إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) وقال إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لامتى فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله تعالى لمن لايشرك بالله شيئا . وقال (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله من فى السموات والارض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لايفترون) وقال تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار. خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) . وقال تعالى قل إن كان للرحمن ولد فانا أول العابدين سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون) وقال تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) وقال تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وثبت فى الصحيح عن رسول الله (ص) أنه قال يقول الله تعالى (شتمنى ابن آدم ولم يكن له ذلك يزعم أن لى ولدا وأنا الاحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد) وفى الصحيح أيضا عن رسول الله (ص) أنه قال لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله انهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم ولكن ثبت فى الصحيح أيضا عن رسول الله (ص) أنه قال ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد) وهكذا قوله تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير) وقال تعالى (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) وقال تعالى (قل ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون

متاع فى الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقال تعالى (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) ●

منشأ عيسى بن مريم عليهما السلام وبيان بدء الوحى اليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد بيت لحم قريبا من بيت المقدس وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وان مريم سافرت هى ويوسف بن يعقوب النجار وهى راكبة على حمار ليس بينهما وبين الاكاف شئ وهذا لا يصح والحديث الذى تقدم ذكره دليل على أن مولده كان بيت لحم كما ذكرنا ومهما عارضه فباطل

وذكر وهب بن منبه أنه لما ولد خرت الاصنام يومئذ فى مشارق الارض ومغاربها وان الشياطين حارت فى سبب ذلك حتى كشف لهم ابليس الكبير أمر عيسى فوجدوه فى حجر امه والملائكة محدقة به وانه ظهر نجم عظيم فى السماء وأن ملك الفرس اشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا هذا لمولد عظيم فى الارض فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان هدية الى عيسى فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك فسأل عن ذلك الوقت فاذا قد ولد فيه عيسى بن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه فى المهد فارسلهم اليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل الى قتله اذا انصرفوا عنه فلما وصلوا الى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها ان رسل ملك الشام انما جاؤا ليقتلوا ولدك فاحتملته فذهبت به الى مصر فاقامت به حتى بلغ عمره اثنتى عشرة سنة وظهرت عليه كرامات ومعجزات فى حال صغره ● فذكر منها أن الدهقان الذى نزلوا عنده افتقد مالا من داره وكانت داره لا يسكنها الا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذه وعز ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد الى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع اليه فقال للاعمى احمل هذا المقعد وانهض به فقال إنى لا أستطيع ذلك فقال بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذ تما هذا المال من تلك الكوة من الدار فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى فى أعين الناس وهو صغير جداً

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شرابا يعنى خمراً لما كانوا يصنعون فى ذلك الزمان لم يجد فى جراره شيئاً فشق ذلك عليه فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شرابا من خيار الشراب ● فتعجب الناس من ذلك جداً وعظموه وعرضوا عليه

وعلى أمه مالا جزيلا فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس والله أعلم •

وقال اسحاق بن بشر أنبأنا عثمان بن ساج وغيره عن موسى بن وردان عن أبي نضرة عن أبي سعيد وعن مكحول عن أبي هريرة قال إن عيسى بن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل فمجد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمساً ولا قمراً ولا جبلا ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال (اللهم أنت القريب في علوك المتعال في دنوك الرفيع على كل شيء من خلقك . أنت الذي خلقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقا أجبن وهن دخان من فرقك فاتين طائعات لأمرك فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهن في الظلمات الحيران فتباركت اللهم في مفطور سمواتك وفيما دحوت من أرضك دحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج الغامر فأذللتها اذلال التظاهر فذل لطاعتك صعبها واستحيى لامرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها ففجرت فيها بعد البحور الانهار ومن بعد الانهار الجداول الصغار ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار . ثم أخرجت منها الانهار والاشجار والثمار ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتادا على ظهر الماء فأطاعت أطوادها وجلودها فتباركت اللهم فمن يبلغ بنعته نعتك أمن يبلغ بصفته صفتك تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب لا إله إلا أنت سبحانك سترت السموات عن الناس لا إله إلا أنت سبحانك انما يخشاك من عبادك الا كياس نشهد أنك لست بإله استحدثناك ولارب يبيد ذكره ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذرك ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك نشهد أنك أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لك كفوا أحد)

وقال اسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس إن عيسى بن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم انطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فاكثر اليهود فيه وفي أمه من القول وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) قال فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتاب فجعل لا يعلمه المعلم شيئا الا بدره اليه فعلمه أبا جاد فقال عيسى ما أبوجاد فقال المعلم لا أدري فقال عيسى كيف تعلمني ما لا تدري فقال المعلم اذا فعلمني فقال له عيسى فقم من مجلسك فقام فجلس عيسى مجلسه فقال سلني فقال المعلم ما أبو جاد فقال عيسى (الالف آلاء الله. والباء بهاء الله والجيم بهجة الله وجماله) فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد .

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فاجابه على كل كلمة بحديث طويل موضوع

لا يسأل ولا يبادي وهكذا روى ابن عدي من حديث اسماعيل بن عياش عن اسمعيل بن يحيى عن ابن أبي مليكة عن حدثه عن ابن مسعود وعن مسعر بن كدام عن عطية عن أبي سعيد رفع الحديث في دخول عيسى الى الكتاب وتعليمه المعلم معنى حروف أبي جاد وهو مطول لا يفرح به * ثم قال ابن عدي وهذا الحديث باطل بهذا الاسناد لا يرويه غير اسمعيل وروى ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال كان عبد الله بن عمر يقول (كان عيسى بن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لاحدهم تريد أن أخبرك ماخبأت لك أمك فيقول نعم فيقول خبأت لك كذا وكذا فيذهب الغلام منهم الى أمه فيقول لها أطعميني ماخبأت لي فتقول وأي شيء خبأت لك فيقول كذا وكذا فتقول له من أخبرك فيقول عيسى بن مريم فقالوا والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم فقالوا إنما هؤلاء قردة وخنازير فقال اللهم كذلك فكانوا كذلك رواه ابن عساكر.

وقال اسحق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال وكان عيسى يرى العجائب في صباه الهاما من الله ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى فهمت به بنو اسرائيل فخافت أمه عليه فأوحى الله الى أمه أن تنطلق به الى أرض مصر فذلك قوله تعالى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) *

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفتها أنها ذات قرار ومعين وهذه صفة غريبة الشكل وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستو يقر عليه وارتفاعه متسع ومع علوه فيه عيون الماء معين وهو الجاري السارح على وجه الارض فقيل المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس ولهذا (ناداها من تحتها الا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا) وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف * وعن ابن عباس باسناد جيد انها أنهار دمشق فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق * وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم والله أعلم . وقيل هي الرملة . وقال اسحق بن بشر قال لنا ادريس عن جده وهب بن منبه قال إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر الى بيت ايليا قال فقدم عليه يوسف بن خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى ايليا وأقام بها حتى أحدث الله له الانجيل وعلمه التوراة وأعطاه احياء الموتى وابراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب فجعلوا يعجبون منه فدعاهم الى الله ففشا فيهم أمره .

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

قال أبو زرعة الدمشقي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عمن حدثه قال (أنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان • ونزل الزبور على داود في اثنتي عشر ليلة خلت من شهر رمضان . وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة . وأنزل الانجيل على عيسى بن مريم في ثمانية عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاما وأنزل القرقان على محمد (ص) في أربع وعشرين من شهر رمضان وقد ذكرنا في التفسير عند قوله (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) الاحاديث الواردة في ذلك وفيها أن الانجيل أنزل على عيسى بن مريم عليه السلام في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان •

وذكر ابن جرير في تأريخه أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ومكث حتى رفع الى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة كما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى . وقال اسحاق بن بشر وأنبأنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ومقاتل عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة قال أوحى الله عز وجل الى عيسى بن مريم (يا عيسى جد في أمري ولا تهن واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول انك من غير فحل وأنا خلقتك آية للعالمين ابلى فاعبد وعلى فتوكل خذ الكتاب بقوة فسر لاهل السريانية بلغ من بين يديك إني انا الحق الحي القائم الذي لا ازول صدقوا النبي الامي العربي صاحب الجمل والتاج (وهي العمامة) والمدرعة والنعلين والهراوة (وهي القضيب) الانجل العينين الصلت الجبين الواضح الخدين الجعد الرأس الكث اللحية المقرون الحاجبين الاقنى الانف المفلج الثنايا البادي العنفقة الذي كأن عنقه ابريق فضة وكأن الذهب يجري في تراقيه له شعرات من لبته الى سرته تجري كالقضيب ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره شثن الكف والقدم إذا التفت التفت جميعاً وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب عرقه في وجهه كاللؤلؤ وريح المسك تنفح منه ولم ير قبله ولا بعده مثله ، الحسن القامة الطيب الريح نكاح النساء ذا النسل القليل انما نسله من مباركة لها بيت يعني في الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صخب ، تكفله يا عيسى في آخر الزمان كما كفل زكريا أمك له منها فرخان مستشهدان وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر . كلامه القرآن ودينه الاسلام وانا السلام طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه •

بيان شجرة طوبى ما هي

قال عيسى يارب وما طوبى قال (غرس شجرة أنا غرستها بيدي فهي للجنان كلها أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم وبردها برد الكافور وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك من شرب منه شربة لم

يظمأ بعدها أبداً) قال عيسى يارب اسقنى منها قال (حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى يشرب منها أمة ذلك النبي) قال يا عيسى ارفعك إلىّ قال رب ولم ذاك قال (أرفعك ثم اهبطك فى آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبي العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال أهبطك فى وقت صلاة ثم لا تصلى بهم لأنها مرحومة ولا نبي بعد نبيهم) وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه أن عيسى قال يارب انبئنى عن هذه الامة المرحومة قال أمة أحمد هم علماء حكماء كأنهم انبياء يرضون منى بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . ياعيسى هم أكثر سكان الجنة لأنه لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت به رقابهم) رواه بن عساكر وروى بن عساكر من طريق عبدالله بن بديل العقيلى عن عبد الله بن عوسجة قال أوحى الله إلى عيسى ابن مريم (أنزلنى من نفسك كهمك واجعلنى ذخراً لك فى معادك وتقرب إلى بالنوافل أحبك ولا تول غيرى فأخذلك اصبر على البلاء وارض بالقضاء وكن لمسرتى فيك فان مسرتى أن أطاع فلا أعصى وكن منى قريباً وأحى ذكرى بلسانك ولتكن مودتى فى صدرك تيقظ من ساعات الغفلة واحكم فى لطيف الفطنة وكن لى راغباً راهباً وأمت قلبك فى الخشية لى وراع الليل لحق مسرتى واظمء نهارك ليوم الرى عندى نافس فى الخيرات جهدك واعترف بالخير حيث توجهت وقم فى الخلائق بنصيحتى واحكم فى عبادى بعدلى فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان وجلاء الابصار من غشاء الكلال ولا تكن حلسا كأنك مقبوض وأنت حى تتنفس • ياعيسى بن مريم ما آمنت بى خليقة إلا خشعت ولا خشعت لى إلا رجت ثوابى فاشهدك أنها امنة من عقابى مالم تغير أو تبدل سنتى • ياعيسى ابن مريم البكر البتول ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها وارتفعت رغبته فيما عند إلهه وكن فى ذلك تلين الكلام وتفشى السلام وكن يقظان إذا نامت عيون الابرار حذار ماهو آت من أمر المعاد وزلازل شدائد الاهوال قبل أن لا ينفع أهل ولا مال واكحل عينك بملول الحزن إذا ضحك البطالون وكن فى ذلك صابرا محتسباً وطوبى لك ان نالك ما وعدت الصابرين رح من الدنيا بالله يوم بيوم وذق مذاقة ما قد هرب منك أين طعمه ومالم يأتك كيف لذته فرح من الدنيا بالبلغة وليكفك منها الخشن الجشب قد رأيت الى ما تصير اعمل على حساب فانك مسؤول لو رأت عيناك ما أعددت لأوليائى الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك •

وقال أبو داود فى كتاب القدر حدثنا محمد بن يحيى بن فارس حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن طاووس عن أبيه قال لقى عيسى بن مريم ابليس فقال أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله لك قال ابليس فارق بذروة هذا الجبل فتردى منه فانظر هل تعيش أم لا فقال ابن طاووس

عن أبيه . فقال عيسى أما علمت أن الله قال (لا يجربني عبدي فاني أفعل ماشئت) وقال الزهري إن العبد لا يبتلي ربه ولكن الله يبتلي عبده . قال أبو داود حدثنا أحمد بن عبدة أنبأنا سفيان عن عمرو عن طاووس قال أتى الشيطان عيسى بن مريم فقال أليس تزعم أنك صادق فأت هوة فألق نفسك قال ويلك أليس قال يا ابن آدم لا تسألني هلاك نفسك فإني أفعل ما اشاء * وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع حدثنا حسين بن طلحة سمعت خالد بن يزيد قال تعبد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين اقام يوماً على شفير جبل فقال الشيطان ارأيت ان القيت نفسي هل يصيبني إلا ما كتب لي قال اني لست بالذي ابتلي ربي ولكن ربي إذا شاء ابتلاني وعرفه أنه الشيطان ففارقه . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا شريح بن يونس حدثنا علي بن ثابت عن الخطاب بن القاسم عن أبي عثمان قال كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل فأتاه ابليس فقال أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر قال نعم قال ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدر علي فقال يالعين الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عز وجل . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا الفضل بن موسى البصري حدثنا ابراهيم بن بشار سمعت سفيان بن عيينة يقول لقي عيسى بن مريم ابليس فقال له ابليس ياعيسى بن مريم الذي بلغ من عظم ربوبيتك انك تكلمت في المهد صبياً ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك قال بل الربوبية للاله الذي انطقني ثم يميتني ثم يحييني قال فانت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحي الموتى قال بل الربوبية لله الذي يحي ويميت من أحييت ثم يحييه قال والله إنك لاله في السماء واله في الارض قال فصكه جبريل صكة بجناحيه فما تناها دون قرون الشمس ثم صكه اخرى بجناحيه فما تناها دون العين الحامية ثم صكه اخرى فادخله بحار السابعة فاساخه وفي رواية فاسلكه فيها حتى وجد طعم الحمأة فخرج منها وهو يقول مالقي احد من احد مالقيت منك يا ابن مريم * وقد روى نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر فقال الحافظ ابو بكر الخطيب اخبرني ابو الحسن بن رزقويه انبأنا ابو بكر احمد بن سندي حدثنا ابو محمد الحسن بن علي القطان حدثنا اسماعيل ابن عيسى العطار انبأنا علي بن عاصم حدثني ابو سلمة سويد عن بعض أصحابه قال صلى عيسى بيت المقدس فانصرف فلما كان ببعض العقبة عرض له ابليس فاحتبسه فجعل يعرض عليه ويكلمه و يقول له انه لا ينبغي لك ان تكون عبداً فاكثر عليه وجعل عيسى يحرص على ان يتخلص منه فجعل لا يتخلص منه فقال له فيما يقول لا ينبغي لك ياعيسى ان تكون عبدا قال فاستغاث عيسى بربه فاقبل جبريل وميكائيل فلما رآهما ابليس كف فلما استقر معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل ابليس بجناحه فقذفه في بطن الوادي قال فعاد ابليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك فقال لعيسى قد اخبرتك انه لا ينبغي ان تكون عبدا ان غضبك ليس بغضب عبد وقد رأيت مالقيت منك حين غضبت ولكن ادعوك لامر هو لك آمر الشياطين فليطيعوك فاذا رأى البشر أن الشياطين اطاعوك عبدوك اما اني لا اقول ان تكون

إلها ليس معه إله ولكن الله يكون إلها في السماء وتكون انت الها في الارض فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخة شديدة فاذا اسرافيل قد هبط فنظر اليه جبريل وميكائيل فكف ابليس فلما استقر معهم ضرب اسرافيل ابليس بجناحه فصك به عين الشمس ثم ضربه ضربة أخرى فاقبل ابليس يهوى ومر عيسى وهو بمكانه فقال ياعيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديدا فرمى به في عين الشمس فوجد سبعة املاك عند العين الحامية قال فغطوه فجعل كلما صرخ غطوه في تلك الحمأة قال والله ماعاد اليه بعد . قال وحدثنا اسماعيل العطار حدثنا أبو حذيفة قال واجتمع اليه شياطينه فقالوا سيدنا قد لقيت تعباً قال إن هذا عبد معصوم ليس لي عليه من سبيل وسأضل به بشراً كثيراً وابث فيهم اهواء مختلفة واجعلهم شيعا ويجعلونه وأمه الهين من دون الله قال وأنزل الله فيما أيده به عيسى وعصمه من إبليس قرآنا ناطقاً بذكر نعمته على عيسى فقال (ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس) يعني اذ قويتك بروح القدس يعني جبريل (تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير) الآية كلها واذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة واعوانا ترضى بهم وصحابة واعوانا يرضون بك هادياً وقائداً الى الجنة فذلك فاعلم خلقان عظيمان من لقيني بهما فقد لقيني بأزكى الخلائق وارضاها عندي وسيقول لك بنو اسرائيل صمنا فلم يتقبل صيامنا وصلينا فلم يقبل صلاتنا وتصدقنا فلم يقبل صدقاتنا وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاؤنا فقل لهم ولم ذلك وماالذي يمنعني إن ذات يدي قلت أوليس خزائن السموات والارض بيدي انفق منها كيف أشاء وان البخل لايعتريني أولست أجود من سأل واوسع من اعطى أوان رحمتي ضاقت وانما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي ولولا أن هؤلاء القوم ياعيسى بن مريم عدوا أنفسهم بالحكمة التي تورث في قلوبهم مااستأثروا به الدنيا أثره على الآخرة لعرفوا من أين أوتوا واذاً لايقنوا ان أنفسهم هي أعدى الاعداء لهم وكيف اقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالاطعمة الحرام وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن الى الذين يحاربوني ويستحلون محارمي وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها *ياعيسى انما أجزي عليها أهلها وكيف ارحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الانبياء ازددت عليهم غضبا * ياعيسى وقضيت يوم خلقت السموات والارض أنه من عبدني وقال فيكما بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقاءك في المنازل وشركاءك في الكرامة وقضيت يوم خلقت السموات والارض أنه من اتخذك وامك الهين من دون الله أن أجعلهم في الدرك الاسفل من النار وقضيت يوم خلقت السموات والارض أني مثبت هذا الامر على يدي عبدي محمد وأختم به الانبياء والرسل ومولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ليس بفظ ولا غليظ ولاسخاب في الاسواق ولا يزي بالفحش ولا قوال بالخنا أسدده لكل أمر جميل واهب له كل خلق كريم واجعل التقوى ضميره والحكم معقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والاسلام ملته اسمه أحمد أهدي به بعد

الضلالة وأعلم به بعد الجهالة واغنى به بعد الدالة وارفع به بعد الضيعة أهدى به وافتح به بين آذان صم وقلوب غلف وأهواء مختلفة متفرقة أجعل أمته خير أمــة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر اخلاصا لاسمى وتصديقاً لما جاءت به الرسل الهمهم التسبيح والتقديس والتهليل فى مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومتقلبهم ومثواهم يصلون لى قياماً وقعوداً وركعاً وسجوداً ويقاتلون فى سبيلى صفوفاً وزحوفاً قربانهم دماؤهم وانا جيلهم فى صدورهم وقربانهم فى بطونهم رهبان بالليل ليوث فى النهار ذلك فضل أوتيــه من اشاء والله ذو الفضل العظيم .

وسنذكر مايصدق كثيراً من هذا السياق بما سنورده من سورتى المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة * وقد روى أبو حذيفة اسحق بن بشر باسانيده عن كعب الاحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسى دخــل حــديث بعضهم فى بعض قالوا لما بعث عيسى بن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بنى اسرائيل يعجبون منه ويستهزؤن به فيقولون ما أكل فلان البارحة وما ادخر فى منزله فيخبرهم فيزداد المؤمنون ايمانا والكافرون والمنافقون شكا وكفرانا وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوى اليه انما يسيح فى الارض ليس له قرار ولا موضع يعرف به فــكان أول ما أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهى تبكى فقال لها مالك أيتها المرأة فقالت ماتت ابنة لى لم يكن لى ولد غــيرها وانى عاهدت ربى أن لا أبرح من موضعى هذا حتى أذوق ماذاقت من الموت أو يحييها الله لى فانظر اليها فقال لها عيسى أرأيت إن نظرت اليها أراجعة أنت قالت نعم قالوا فصلى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى يافلانة قومى باذن الرحمن فاخرجى قال فتحرك القبر ثم نادى الثانية فانصدع القبر باذن الله ثم نادى الثالثــة فخرجت وهى تنفض رأسها من التراب فقال لها عيسى ماأبطأ بك عنى فقالت لما جاءتنى الصيحة الاولى بعث الله لى ملــكا فركب خلقى ثم جاءتنى الصيحة الثانية فرجع الى روحى ثم جاءتنى الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسى وحاجباى واشفار عينى من مخافة القيمة ثم أقبلت على أمها فقالت ياأماه ماحملك على ان أذوق كرب الموت مرتين ياأماه أصبرى واحتسبى فلا حاجة لى فى الدنيا ياروح الله وكلمته سل ربى أن يردنى الى الآخرة وان يهون على كرب الموت فدعا ربه فقبضها اليــه واستوت عليها الارض فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضبا

وقد منا فى عقيب قصة نوح أن بنى اسرائيل سألوه أن يحيى لهم سام بن نوح فدعا الله عزوجل وصلى لله فأحياه الله لهم فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد ترابا . وقد روى الســدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس فى خبر ذكره وفيه أن ملــكا من ملوك بنى اسرائيل مات وحمل على سريره فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عزوجل فأحياه الله عزوجل فرأى الناس أمراً هائلا ومنظرا عجيبا قال الله تعالى وهو أصدق القائلين (إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك

بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً باذنى وتبرىء الاكمه والابرص باذنى واذ تخرج الموتى باذنى واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) يذكره تعالى بنعمته عليه واحسانه اليه فى خلقه اياه من غير أب بل من أم بلا ذكر وجعله آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ثم ارساله بعد هذا كله (وعلى والدتك) فى اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة واقامة البرهان على براءتها مما نسبها اليه الجاهلون ولهذا قال (اذ ايدتك بروح القدس) وهو جبريل بالقاء روحه الى أمه وقرنه معه فى حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به (تكلم الناس فى المهد وكهلا) أى تدعو الناس الى الله فى حال صغرك فى مهدك وفى كهولتك (واذ علمتك الكتاب والحكمة) أى الخط والفهم نص عليه بعض السلف (والتوراة والانجيل) وقوله (واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى) أى تصوره وتشكله من الطين على هيئته عن أمر الله له بذلك (فتنفخ فيه فتكون طيراً باذنى) أى بأمرى يؤكد تعالى بذكر الاذن له فى ذلك لرفع التوهم وقوله (وتبرئ الاكمه) قال بعض السلف وهو الذى يولد أعمى ولا سبيل لاحد من الحكماء الى مداواته (والابرص) هو الذى لاطب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالا (واذ تخرج الموتى) أى من قبورهم أحياء باذنى وقد تقدم مافيه دلالة على وقوع ذلك مرارا متعددة مما فيه كفاية. وقوله (واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا الا سحر مبين) وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله اليه وانقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الاذى وسلامة له من الردى وقوله (واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) قيل المراد بهذا الوحى وحى الهام أى أرشدهم الله اليه ودلهم عليه كما قال (وأوحى ربك الى النحل وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم) وقيل المراد وحى بواسطة الرسول وتوفيق فى قلوبهم لقبول الحق ولهذا استجابوا قائلين (آمنا واشهد بأننا مسلمون)

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى بن مريم أن جعل له أنصارا واعوانا ينصرونه ويدعون معه الى عبادة الله وحده لاشريك له كما قال تعالى لعبده محمد ص (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) وقال تعالى (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأبرىء الاكمه والابرص واحيى الموتى باذن الله وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ان فى

ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) .

كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء فبعث بآيات بهرت الابصار وخضعت لها الرقاب ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر ومايتهى اليه وعاينوا ماعاينوا من الامر الباهر الهائل الذى لا يمكن صدوره الاعن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقا له أسلموا سراعا ولم يتلعثموا وهكذا عيسى ابن مريم بعث فى زمن الطبائعية الحكماء فأرسل بمعجزات لايستطيعونها ولا يهتدون اليها وانى لحكيم إبراء الاكمه الذى هو أسوأ حالا من الاعمى والابرص والمجذوم ومن به مرض مزمن وكيف يتوصل أحد من الخلق الى ان يقيم الميت من قبره هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله وهكذا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين بعث فى زمن الفصحاء البلغاء فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فلفظه معجز تحدى به الانس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة وقطع عليهم بأنهم لايقدرون لا فى الحال ولا فى الاستقبال فان لم يفعلوا ولن يفعلوا وماذاك الا لانه كلام الخالق عز وجل والله تعالى لايشبهه شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

والمقصود ان عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم فانتدب له من بينهم طائفة صالحة فكانوا له انصاراً واعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته وذلك حين هم به بنو اسرائيل ووشوا به الى بعض ملوك ذلك الزمان فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه اليه من بين أظهرهم والقى شبهه على أحد أصحابه فاخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى وهم فى ذلك خاطئون والحق مكابرون وسلم لهم كثير من النصارى ماادعوه وكلا الفريقين فى ذلك مخطئون قال تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وقال تعالى (وإذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل إنى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لايهدى القوم الظالمين يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) الى أن قال بعد ذلك (ياأيها الذين آمنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فايدنا الذين آمنوا على عدوهم

فاصبحوا ظاهرين) فعيسى عليه السلام هو خاتم انبياء بنى اسرائيل وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الانبياء الآتى بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه اذا شاهدوه اقامة للحجة عليهم واحسانا من الله اليهم كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين امنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون)

قال محمد بن اسحاق حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله (ص) انهم قالوا يارسول الله أخبرنا عن نفسك قال دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام . وقد روى عن العرباض بن سارية وأبى امامة عن النبى (ص) نحو هذا وفيه دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى وذلك ان ابراهيم لما بنى الكعبة قال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية) ولما انتهت النبوة فى بنى اسرائيل الى عيسى قام فيهم خطيبا فاخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وانها بعده فى النبى العربى الامى خاتم الانبياء على الاطلاق أحمد وهو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمى من سلالة اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهم السلام قال الله تعالى (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) يحتمل عود الضمير الى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده الى محمد (ص) ثم حرض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الاسلام واهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على اقامة الدين ونشر الدعوة فقال (يا أيها الذين آمنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الى الله أى من معاونى فى الدعوة الى الله (قال الحواريون نحن انصار الله وكان ذلك فى قرية يقال لها الناصرة فسموا بذلك النصارى قال الله تعالى (فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة) يعنى لما دعا عيسى بنى اسرائيل وغيرهم الى الله تعالى منهم من آمن ومنهم من كفر وكان ممن آمن به أهل انطاكية بكمالهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير بعث اليهم رسلا ثلاثة أحدهم شمعون الصفا فآمنوا واستجابوا وليس هؤلاء هم المذكورون فى سورة يس لما تقدم تقريره فى قصة أصحاب القرية وكفر آخرون من بنى اسرائيل وهم جمهور اليهود فايد الله من آمن به على من كفر فيما بعد واصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى (اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة الآية) فكل من كان اليه أقرب كان عاليا على من دونه ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذى لا شك فيه من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه واطروه وانزلوه فوق ما انزله الله به ولما كان النصارى أقرب فى الجملة مما ذهب اليه اليهود عليهم لعائن الله كان النصارى قاهرين لليهود فى أزمان الفترة الى زمن الاسلام واهله .

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى (إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا اعذبه أحداً من العالمين) قد ذكرنا في التفسير الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام امر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً فلما أتموها سألوا من عيسى انزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم ان الله قد تقبل صيامهم واجابهم الى طلبتهم وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم واخرهم لغنيهم وفقيرهم فوعظهم عيسى في ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه الا أن يسأل لهم ذلك من ربه عزوجل فلما لم يقلعوا عن ذلك قام الى مصلاه ولبس مسحا من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع الى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا الى ما طلبوا فانزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون اليها تنحدر بين غمامتين وجعلت تدنو قليلا قليلا وكلما دنت سأل عيسى ربه عزوجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وان يجعلها بركة وسلامة فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام وهى مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول (بسم الله خير الرازقين) فاذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة . ويقال وخل . ويقال ورمان وثمار ولها رائحة عظيمة جدا قال الله لها كونى فكانت ثم أمرهم بالاكل منها فقالوا لا نأكل حتى تأكل فقال إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريبا من الف وثلثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن فندم الناس على ترك الاكل منها لما رأوا من اصلاح حال أولئك . ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف . ثم كانت تنزل يوما بعد يوم كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوما بعد يوم . ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الاغنياء فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير .

وقد روى ابن ابى حاتم وابن جرير جميعا حدثنا الحسن بن قزعة الباهلى حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر عن النبى ص قال نزلت المائدة من السماء خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة

وخنازير ثم رواه ابن جرير عن بندار عن ابن أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن خلاس عن عمار موقوفا وهذا أصح وكذا رواه من طريق سماك عن رجل من بني عجل عن عمار موقوفا وهو الصواب والله أعلم. وخلاس عن عمار منقطع فلو صح هذا الحديث مرفوعا لكان فيصلا في هذه القصة فان العلماء اختلفوا في المائدة هل نزلت أم لا فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولاسيما قوله (إني منزلها عليكم) كما قرره ابن جرير والله أعلم. وقد روى ابن جرير باسناد صحيح الى مجاهد والى الحسن بن أبي الحسن البصري أنهما قالا لم تنزل وانهم أبوا نزولها حين قال (فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين). ولهذا قيل ان النصارى لايعرفون خبر المائدة وليس مذكورا في كتابهم مع أن خبرها مما يتوفر الدواعي على نقله والله أعلم. وقد تقصينا الكلام على ذلك في التفسير فليكتب من هناك * ومن أراد مراجعته فلينظره من ثم ولله الحمد والمنة

فصل

قال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا رجل سقط اسمه حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو هلال محمد بن سليمان عن بكر بن عبد الله المزني قال فقد الحواريون نبيهم عيسى فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا الى البحر اذا هو يمشي على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤتزر بنصفه حتى انتهى اليهم فقال له بعضهم قال أبو هلال ظننت أنه من أفاضلهم ألا أجيء اليك يانبي الله قال بلى قال فوضع احدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الاخرى فقال أوه غرقت يانبي الله فقال أرني يدك ياقصير الايمان لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء. ورواه أبو سعيد ابن الاعرابي عن ابراهيم بن أبي الجحيم عن سليمان بن حرب عن أبي هلال عن بكر بنحوه. ثم قال ابن أبي الدنيا حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيان حدثنا ابراهيم بن الاشعث عن الفضيل بن عياض قال قيل لعيسى بن مريم ياعيسى بأي شيء تمشي على الماء قال بالايمان واليقين. قالوا فانا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت قال فامشوا اذا قال فمشوا معه في الموج فغرقوا فقال لهم عيسى مالكم فقالوا خفنا الموج قال ألا خفتم رب الموج قال فأخرجهم ثم ضرب بيده الى الارض فقبض بها ثم بسطها فاذا في احدى يديه ذهب وفي الاخرى مدر أو حصى فقال أيهما أحلى في قلوبكم قالوا هذا الذهب قال فانهما عندي سواء وقدمنا في قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ولا يأوي الى منزل ولا أهل ولامال ولا يدخر شيئا لغد قال بعضهم كان يأكل من غزل أمه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال كان عيسى عليه السلام اذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول لاينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ويسكت وعن عبد الملك ابن سعيد بن بحر أن عيسى كان

إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر حدثنا جعفر بن برقان أن عيسى كان يقول (اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ماأرجو وأصبح الأمر بيد غيرى وأصبحت مرتهناً بعملى فلا فقير أفقر منى اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسؤ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تسلط على من لايرحمنى) . وقال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد كان عيسى يقول لا نصيب حقيقة الايمان حتى لا نبالى من أكل الدنيا . قال الفضيل وكان عيسى يقول فكرت فى الخلق فوجدت من لم يخلق اغبط عندى ممن خلق . وقال اسحاق بن بشر عن هشام ابن حسان عن الحسن قال إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة . قال وان الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى قال وبينا عيسى يوما نائم على حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم إذ مر به ابليس فقال (ياعيسى ألست تزعم أنك لاتريد شيئا من عرض الدنيا فهذا الحجر من عرض الدنيا فقال فأخذ الحجر ورمى به اليه وقال هذا لك مع الدنيا . وقال معتمر بن سليمان خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان حافيا باكيا شعثاً مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش فقال السلام عليكم يابنى اسرائيل أنا الذى انزلت الدنيا منزلتها باذن الله ولا عجب ولا فخر أتدرون أين بيتى قالوا أين بيتك ياروح الله قال بيتى المساجد وطيبى الماء وإدامى الجوع وسراجى القمر بالليل وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس وريحانى بقول الأرض ولباسى الصوف وشعارى خوف رب العزة وجلسائى الزمنى والمساكين أصبح وليس لى شئ وأمسى وليس لى شئ وأنا طيب النفس غير مكترث فمن أغنى منى وأربح رواه بن عساكر [1] وروى فى ترجمة محمد بن الوليد بن ابان بن حبان أبى الحسن العقيلى المصرى حدثنا هانئ بن المتوكل الاسكندرانى عن حيوة بن شريح حدثنى الوليد ابن أبى الوليد عن سنى بن نافع عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال أوحى الله تعالى إلى عيسى أن ياعيسى انتقل من مكان الى مكان لئلا تعرف فتؤذى فوعزتى وجلالى لأزوجنك ألف حوراء ولأولمن عليك أربعمائة عام . وهذا حديث غريب رفعه وقد يكون موقوفا من رواية سنى بن نافع عن كعب الاحبار أو غيره من الاسرائيليين والله أعلم . وقال عبد الله بن المبارك عن سفيان بن عيينة عن خلف بن حوشب قال قال عيسى للحواريين كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا . وقال قتادة قال عيسى عليه السلام سلونى فانى لين القلب وانى صغير عند نفسى وقال اسماعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال قال عيسى للحواريين كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين بحق ماأقول لكم أن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وأن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وأن عباد الله ليسوا بالمتنعمين بحق ماأقول لكم ان شركم عالم يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله .

وروى نحوه عن أبي هريرة وقال أبو مصعب عن مالك أنه بلغه أن عيسى كان يقول (يا بني اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير واياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره) وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال كان عيسى يقول اعبروا الدنيا ولا تعمروها وكان يقول حب الدنيا رأس كل خطيئة والنظر يزرع في القلب الشهوة ● وحكى وهيب بن الورد مثله وزاد ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً وعن عيسى عليه السلام (يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت وكن في الدنيا ضيفاً واتخذ المساجد بيتاً وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر وقلبك التفكر ولا تهتم برزق غد فانها خطيئة) وعنه عليه السلام أنه قال كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً وفي هذا يقول سابق البربري ●

لكم بيوتٌ بمستنّ السيول وهل ● يبقى على الماء بيتٌ أسُّه مَدَرُ

وقال سفيان الثوري قال عيسى بن مريم (لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في اناء) . وقال ابراهيم الحربي عن داود بن رشيد عن أبي عبد الله الصوفي قال قال عيسى (طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله) وعن عيسى عليه السلام (ان الشيطان مع الدنيا ومكره مع المال وتزيينه مع الهوى واستمكانه عند الشهوات) وقال الاعمش عن خيثمة كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول هكذا فاصنعوا بالقرى وبقالت امرأة لعيسى عليه السلام طوبى لحجر حملك ولثدي أرضعك . فقال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه . وعنه طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته . وعنه طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير اثم ● وعن مالك بن دينار قال مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا ما أنتن ريحها فقال ما أبيض أسنانها لينهاهم عن الغيبة . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا الحسين بن عبد الرحمن عن زكريا بن عدى قال قال عيسى بن مريم يا معشر الحواريين ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا . قال زكريا وفي ذلك يقول الشاعر .

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ● ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ● استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال أبو مصعب عن مالك قال عيسى بن مريم عليه السلام (لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فان القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون . ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد فانما الناس رجلان معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية) وقال الثوري سمعت أبي يقول عن ابراهيم التيمي قال قال عيسى لأصحابه (بحق أقول لكم من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير) . وقال

مالك بن دينار قال عيسى إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل فى طلب الفردوس . وقال عبد الله بن المبارك أنبأنا سفيان عن منصور عن سالم بن أبى الجعد قال قال عيسى اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم انظروا الى هذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها فان قلتم نحن اعظم بطوناً من الطير فانظروا إلى هذه الأباقير من الوحوش والحمر فانها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها . وقال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبد الله عن يزيد بن ميسرة قال قال الحواريون للمسيح يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه قال آمين آمين بحق ما أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا اهلكه بذنوب أهله ان الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الاحجار التى تعجبكم شيئاً ان أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الارض وبها يخرب الله الارض إذا كانت على غير ذلك . وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه أخبرنا أبو منصور أحمد ابن محمد الصوفى أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن ابراهيم الوركانية قالت حدثنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن عبد الله بن الهيثم املاء حدثنا الوليد بن ابان املاء حدثنا أحمد بن جعفر الرازى حدثنا سهيل بن ابراهيم الحنظلى حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز عن المعتمر عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى (ص) قال مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة فأعجبه البنيان فقال أى رب مر هذه المدينة أن تجيبنى فأوحى الله الى المدينة أيتها المدينة الخربة جاوبى عيسى قال فنادت المدينة عيسى حبيبى وما تريد منى قال ما فعل أشجارك وما فعل أنهارك وما فعل قصورك وأين سكانك ؟ قالت حبيبى جاء وعد ربك الحق فيبست أشجارى ونشفت أنهارى وخربت قصورى ومات سكانى . قال فأين أموالهم قالت جمعوها من الحلال والحرام موضوعة فى بطنى . لله ميراث السموات والارض . قال فنادى عيسى عليه السلام (فعجبت من ثلاث أناس طالب الدنيا والموت يطلبه وبانى القصور والقبر منزله ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه ابن آدم لا بالكثير تشبع ولا بالقليل تقنع تجمع مالك لمن لا يحمدك وتقدم على رب لا يعذرك إنما أنت عبد بطنك وشهوتك وانما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك وانت يا ابن آدم ترى حشد مالك فى ميزان غيرك) هذا حديث غريب جداً وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك .

وقال سفيان الثورى عن أبيه عن ابراهيم التيمى قال قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم فى السماء فان قلب الرجل حيث كنزه وقال ثور بن يزيد عن عبد العزيز بن ظبيان قال قال عيسى بن مريم من تعلم وعلم وعمل دعى عظيماً فى ملكوت السماء . وقال أبو كريب روى أن عيسى عليه السلام قال لا خير فى علم لا يعبر معك الوادى ويعبر بك النادى . وروى ابن عساكر باسناد غريب عن ابن عباس مرفوعا أن عيسى قام فى بنى اسرائيل فقال (يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم والأمور ثلاثة . أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه

فاجتنبوه وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل) . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن رجل عن عكرمة قال قال عيسى (لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فان الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها فان الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير) . وكذا حكى وهب وغيره عنه وعنه أنه قال لأصحابه (أنتم ملح الارض فاذا فسدتم فلا دواء لكم وان فيكم خصلتين من الجهل الضحك من غير عجب والصبحة من غير سهر) وعنه أنه قيل له من أشد الناس فتنة قال زلة العالم فان العالم إذا زل يزل بزلته عالم كثير . وعنه أنه قال (يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤسكم والاخرة تحت أقدامكم قولكم شفاء وعملكم داء مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها) وقال وهب قال عيسى (يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلوها ولا تدعون المساكين يدخلونها إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه . وقال مكحول (التقى يحيى وعيسى فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له يحيى يا ابن خالة مالي أراك ضاحكا كأنك قد أمنت) فقال له عيسى (مالي أراك عابساً كأنك قد يئست) فأوحى الله اليهما (ان أحبكما الى أبشكما بصاحبه) وقال وهب بن منبه وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال (قد كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام امهاتكم فاذا احب الله أن يوسع وسع) وقال أبو عمر الضرير بلغنى أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دما . والآثار فى مثل هذا كثيرة جداً . وقد أورد الحافظ بن عساكر منها طرفا صالحا اقتصرنا منها على هذا القدر والله الموفق للصواب ◆

رفع عيسى عليه السلام الى السماء

﴿ فى حفظ الرب وبيان كذب اليهود والنصارى فى دعوى الصلب ﴾

قال الله تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) وقال تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيا . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا] فأخبر تعالى أنه رفعه الى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به الى بعض الملوك الكفرة فى ذلك الزمان ◆

قال الحسن البصرى ومحمد بن اسحاق كان اسمه داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه فحصروه فى دار بيت المقدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة ذلك البيت الى السماء وأهل البيت ينظرون ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذى ألقى عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه اهانة له وسلم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ماكان من أمر عيسى انه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً وأخبر تعالى بقوله (وإن من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) اى بعد نزوله الى الارض فى آخر الزمان قبل قيام الساعة فانه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الاسلام كما بينا ذلك بما ورد فيه من الاحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء وكما سنورد ذلك مستقصى فى كتاب الفتن والملاحم عند أخبار المسيح الدجال فنذكر ما ورد فى نزول المسيح المهدى عليه السلام من ذى الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعى الى الضلال وهذا ذكر ما ورد فى الآثار فى صفة رفعه الى السماء * قال ابن ابى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما اراد الله ان يرفع عيسى الى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا منهم من الحواريين يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال ان منكم من يكفر بى اثنى عشرة مرة بعد أن آمن بى ثم قال أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى فقام شاب من احدثهم سناً فقال له اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا فقال أنت هو ذاك فالقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة فى البيت الى السماء . قال وجاء الطلب من اليهود فاخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنى عشرة مرة بعد ان آمن به وافترقوا ثلاث فرق فقالت طائفة كان الله فينا ما شاء ثم صعد الى السماء وهؤلاء اليعقوبية وقالت فرقة كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله اليه وهؤلاء النسطورية وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله اليه وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الاسلام طامساً حتى بعث الله محمداً (ص) . قال ابن عباس وذلك قوله تعالى (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين) وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس على شرط مسلم ورواه النسائى عن ابى كريب عن ابى معاوية بنحوه ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن ابى معاوية وهكذا ذكر غير واحد من السلف وممن ذكر ذلك مطولا محمد بن اسحق بن يسار قال وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر اجله يعنى ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول فى دين الله قيل وكان عنده من الحواريين اثنى عشر رجلا بطرس ويعقوب بن زبدا ويحنس اخو يعقوب واندراوس وفليبس وابرثلما ومتى وتوماس ويعقوب بن

حلقيا وتداوس وقتانيا ويودس كريا يوطا وهـذا هو الذى دل اليهود على عيسى • قال ابن اسحق وكان فيهم رجل اخر اسمه سرجس كتمته النصارى وهو الذى القى شبه المسيح عليـه فصلب عنه قال وبعض النصارى يزعم ان الذى صلب عن المسيح والقى عليه شبهه هو يودس بن كريا يوطا والله اعلم .

وقال الضحاك عن ابن عباس استخلف عيسى شمعون وقتلت اليهود يودس الذى القى عليه الشبه وقال احمد بن مروان حدثنا محمد بن الجهم قال سمعت الفراء يقول فى قوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) قال ان عيسى غاب عن خالته زمانا فأتاها فقام رأس الجالوت اليهودى فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى فطمس الله عينيه عن عيسى ثم خرج الى أصحابه فقال لم أره ومعه سيف مسلول فقالوا أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه فقال جل ذكره (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمى عن هرون بن عنترة عن وهب بن منبه قال أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم سحرتمونا لتبرزن الينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً فقال عيسى لاصحابه من يشترى منكم نفسه اليوم بالجنة فقال رجل أنا فخرج اليهم فقال أنا عيسى وقد صوره الله على صورة عيسى فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى فظنت النصارى مثل ذلك انه عيسى ورفع الله عيسى من يومه ذلك

قال ابن جرير وحدثنا المثنى حدثنا اسحاق حدثنا اسماعيل بن عبد الكريم حدثنى عبدالصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول ان عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال احضرونى الليلة فان لى اليكم حاجة فلما اجتمعوا اليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح ايديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال ألا من رد على شيئا الليلة مما أصنع فليس منى ولا أنا منه فأقروه حتى اذا فرغ من ذلك قال أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى فليكن لكم بى أسوة فانكم ترون أنى خيركم فلا يتعظم بعضكم على بعض وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسى لكم وأما حاجتى التى استعنتكم عليها فتدعون الله وتجتهدون فى الدعاء ان يؤخر أجلى فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء فجعل يوقظهم ويقول سبحان الله أما تصبرون لى ليلة واحدة تعينونى فيها فقالوا والله ماندرى مالنا والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمرا وما نريد دعاء الا حيل بيننا وبينه فقال يذهب بالراعى وتتفرق الغنم وجعل يأتى بكلام نحو هذا ينعى به نفسه . ثم قال الحق ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعنى أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا هذا من

عصاه فجحد وقال ماأنا بصاحبه فتركوه . ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه . فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال ماتجعلون لى إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلهم عليه وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر الشيطان وتبرىء المجنون أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله اليه وصلبوا ما شبه لهم فمكث سبعاً . ثم إن أمه والمرأة التى كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب فجاءهما عيسى فقال علام تبكيان قالتا عليك فقال إنى قد رفعنى الله اليه ولم يصبنى إلا خير وان هذا شىء شبه لهم فأمرا الحواريين أن يلقونى إلى مكان كذا وكذا فلقوه الى ذلك المكان أحد عشر وفقد الذى كان باعه ودل عليه اليهود فسأل عنه أصحابه فقالوا إنه ندم على ماصنع فاختنق وقتل نفسه فقال لو تاب لتاب الله عليه * ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له يحيى فقال هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل انسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم * وهذا اسناد غريب عجيب وهو أصح مما ذكره النصارى من أن المسيح جاء إلى مريم وهى جالسة تبكى عند جذعه فأراها مكان المسامير من جسده وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزيادة باطلة فى الانجيل على خلاف الحق ومقتضى النقل .

وحكى الحافظ بن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه أن مريم سألت من بيت الملك بعد ماصلب المصلوب بسبعة أيام وهى تحسب أنه ابنها أن ينزل جسده فأجابهم الى ذلك ودفن هنالك فقالت مريم لأم يحيى ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى ألا تستترين فقالت وممن استتر فقالت من هذا الرجل الذى هو عند القبر فقالت أم يحيى انى لا أرى أحدا فرجت مريم أن يكون جبريل وكانت قد بعد عهدها به فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل وعرفته يا مريم أين تريدين فقالت أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به فقال يامريم ان هذا ليس المسيح إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا ولكن هذا الفتى الذى التى شبه عليه وصلب وقتل مكانه . وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به فهم يبكون عليه فاذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا فانك تلقين المسيح قال فرجعت الى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة . فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى فى الغيضة فلما رآها اسرع اليها وأكب عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل وقال يا أمه إن القوم لم يقتلونى ولكن الله رفعنى اليه وأذن لى فى لقائك والموت يأتيك قريباً فاصبرى واذكرى الله كثيراً ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت . قال وبلغنى أن مريم بقيت بعد

عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة رضي الله عنها وأرضاها.

وقال الحسن البصرى كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة وفى الحديث (إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين ابناء ثلاث وثلاثين). وفى الحديث الآخر على ميلاد عيسى وحسن يوسف وكذا قال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب أنه قال رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة •

فأما الحديث الذى رواه الحاكم فى مستدركه ويعقوب بن سفيان الفسوى فى تاريخه عن سعيد بن أبى مريم عن نافع بن يزيد عن عمارة بن غزية عن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته أن عائشة كانت تقول أخبرتنى فاطمة أن رسول الله ص. اخبرها أنه لم يكن نبى كان بعده نبى إلا عاش الذى بعده نصف عمر الذى كان قبله وأنه أخبرنى أن عيسى بن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أرانى إلا ذاهب على رأس ستين • هذا لفظ الفسوى فهو حديث غريب.

قال الحافظ بن عساكر والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر وإنما أراد به مدة مقامه فى أمته كما روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال قالت فاطمة قال لى رسول الله ص: أن عيسى بن مريم مكث فى بنى إسرائيل أربعين سنة وهذا منقطع. وقال جرير والثورى عن الاعمش أن ابراهيم مكث عيسى فى قومه أربعين عاما ويروى عن أمير المؤمنين على أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثانى والعشرين من رمضان وتلك الليلة فى مثلها توفى على بعد طعنه بخمسة أيام وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رفع الى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها وجاءته مريم فودعته وبكت ثم رفع وهى تنظر والقى اليها عيسى برداً له وقال هذا علامة ما بينى وبينك يوم القيامة والقى عمامته على شمعون وجعلت أمه تودعه باصبعها تشير بها اليه حتى غاب عنها وكانت تحبه حبا شديداً لأنه توفر عليها حبه من جهتى الوالدين اذ لا أب له وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً. قال بعض الشعراء

وكنتُ أرى كالموتِ من بينِ ساعةٍ   فكيفَ ببينٍ كانَ موعدُه الحشرُ

وذكر اسحاق بن بشر عن مجاهد بن جبير أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذى شبه لهم وهم يحسبونه المسيح وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس فبلغ أمرهم الى صاحب الروم وهو ملك دمشق فى ذلك الزمان فقيل له إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله وكان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويفعل العجائب فعدوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم فبعث فجئ بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه فبايعهم فى دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحق على اليهود وعلت كلمة النصارى عليهم وبعث الى المصلوب فوضع عن جذعه وجئ بالجذع الذى صلب عليه ذلك الرجل فعظمه

فمن ثم عظمت النصارى الصليب ومن هاهنا دخل دين النصرانية فى الروم وفى هذا نظر من وجوه . أحدها ان يحيى بن زكريا نبى لا يقر على أن المصلوب عيسى فانه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق . الثانى أن الروم لم يدخلوا فى دين المسيح إلا بعد ثلثمائة سنة وذلك فى زمان قسطنطين بن قسطن بانى المدينة المنسوبة اليه على ما سنذكره . الثالث أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم القوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات فلم يزل كذلك حتى كان فى زمان قسطنطين المذكور فعمدت أمه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح ووجدوا الخشبة التى صلب عليها المصلوب فذكروا أنه ما مسها ذو عاهة الا عوفى فالله أعلم أكان هذا أم لا وهل كان هذا لان ذلك الرجل الذى بذل نفسه كان رجلا صالحاً أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى فى ذلك اليوم حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلئ ومن ثم اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها . وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبنى مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة فهى هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التى يقال لها القمامة باعتبار ما كان عندها ويسمونها القيامة يعنون التى يقوم جسد المسيح منها . ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التى هى قبلة اليهود فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الاخباث والأنجاس ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله (ص) ليلة الاسراء بالانبياء وهو الاقصى .

صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة) قيل سمى المسيح لمسحه الارض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن فى ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام . وقيل لانه كان ممسوح القدمين . وقال تعالى (وقفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور) وقال تعالى (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) والآيات فى ذلك كثيرة جداً وقد تقدم ماثبت فى الصحيحين (مامن مولود إلا والشيطان يطعن فى خاصرته حين يولد فيستهل صارخا إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن فى الحجاب) وتقدم حديث عمير بن هانىء عن جنادة عن عبادة عن رسول الله (ص) أنه قال (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التى القاها الى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) رواه البخارى (وهذا لفظه ومسلم)

وروى البخاري ومسلم من حديث الشعبي عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال قال رسول الله (ص) (إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم اعتقها فتزوجها كان له أجران واذا آمن بعيسى بن مريم ثم آمن بي فله أجران والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران) هذا لفظ البخاري . وقال البخاري حدثنا ابراهيم بن موسى أنبأنا هشام عن معمر (ح) وحدثني محمود حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال النبي (ص) (ليلة أسري بي لقيت موسى قال فنعته فاذا رجل حسبته قال مضطرب رَجل الرأس كأنه من رجال شنوءة قال ولقيت عيسى فنعته النبي (ص) فقال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعني الحمام ورأيت ابراهيم وأنا اشبه ولده به الحديث) وقد تقدم في قصص ابراهيم وموسى ثم قال حدثنا محمد بن كثير انبأنا اسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن بن عمر قال قال النبي (ص) (رأيت عيسى وموسى وابراهيم . فأما عيسى فاحمر جعد عريض الصدر . وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط تفرد به البخاري . وحدثنا ابراهيم بن المنذر حدثنا أبو ضمرة حدثنا موسى بن عقبة عن نافع قال قال عبد الله بن عمر ذكر النبي (ص) يوما بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال ان الله ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فاذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا فقالوا المسيح بن مريم . ثم رأيت رجلا وراءه جعد قطط أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن واضعاً يده على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا فقالوا المسيح الدجال . ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة . ثم قال البخاري تابعه عبد الله بن نافع ثم ساقه من طريق الزهري عن سالم بن عمر قال الزهري وابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية . فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين مسيح الهدى ومسيح الضلالة ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويعرف الآخر فيحذره الموحدون . وقال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال (رأى عيسى بن مريم رجلا يسرق فقال له أسرقت قال كلا والذي لا إله إلا هو فقال عيسى آمنت بالله وكذبت عيني) وكذا رواه محمد بن رافع عن عبد الرزاق وقال أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن حميد الطويل عن الحسن وغيره عن أبي هريرة قال ولا أعلمه إلا عن النبي (ص) قال (رأى عيسى رجلا يسرق فقال يافلان أسرقت فقال لا والله ما سرقت فقال آمنت بالله وكذبت بصري) . وهذا يدل على سجية طاهرة حيث قدم حلف ذلك الرجل فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذبا على ماشاهده منه عياناً فقبل عذره ورجع على نفسه فقال آمنت بالله أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك . وقال البخاري حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن

المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) (تحشرون حفاة عراة غرلا . ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا انا كنافاعلين) فأول الخلق يكسى ابراهيم ثم يؤخذ برجال من أصحابى ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابى فيقال أنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح عيسى بن مريم (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد • إن تعذبهم فإنهم عبادك . وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) تفرد به دون مسلم من هذا الوجه . وقال أيضا حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدى حدثنا سفيان سمعت الزهرى يقول أخبرنى عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر سمعت رسول الله (ص) يقول (لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله •

وقال البخارى حدثنا ابراهيم حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال (لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى وكان فى بنى اسرائيل رجل يقال له جريج يصلى إذ جاءته أمه فدعته فقال أجيبها أو أصلى فقالت اللهم لاتمته حتى تريه وجوه المومسات وكان جريج فى صومعة فعرضت له امرأة وكلمته فأبى فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقيل لها ممن قالت من جريج فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال من أبوك ياغلام قال فلان الراعى قالوا أنبنى صومعتك من ذهب قال لا إلا من طين . وكانت امرأة ترضع ابناً لها فى بنى اسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابنى مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال اللهم لاتجعلنى مثله . ثم أقبل على ثديها يمصه . قال أبو هريرة كأنى أنظر إلى النبى (ص) يمص أصبعه ثم مر بأمة فقالت اللهم لاتجعل ابنى مثل هذه فترك ثديها فقال . اللهم اجعلنى مثلها فقالت لم ذلك فقال الراكب جبار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت ولم تفعل • وقال البخارى حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى أبو سلمة أن أبا هريرة قال سمعت رسول الله (ص) يقول (أنا أولى الناس بابن مريم والانبياء أولاد علات ليس بينى وبينه نبى تفرد به البخارى من هذا الوجه . ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى داود الحفرى[1] عن الثورى عن أبى الزناد عن أبى سلمة عن أبى هريرة وقال أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان هو الثورى عن أبى الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) (أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والانبياء اخوة أولاد علات وليس بينى وبين عيسى نبى. وهذا أسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى (ص) بنحوه وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه . وقال أحمد

(١) هو عمر بن سعد

حدثنا يحيى عن ابن أبي عروبة حدثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (الانبياء اخوة لعلات . ودينهم واحد وأمهاتهم شتى . وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وإنه نازل فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربوع الى الحمرة والبياض سبط كأن رأسه يقطر وان لم يصبه بلل بين ممصرتين فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتى يهلك في زمانه كلها غير الاسلام ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب وتقع الأمنة في الارض حتى ترتع الابل مع الأسد جميعا والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لايضر بعضهم بعضاً فيمكث ماشاء الله أن يمكث ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه . ثم رواه احمد عن عفان عن همام عن قتادة عن عبد الرحمن عن أبي هريرة فذكر نحوه وقال فيمكث أربعين سنة . ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون . ورواه أبو داود عن هدبة بن خالد عن همام بن يحيى به نحوه . وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبي هريرة عنه أن رسول الله ﷺ قال (فيمكث في الأرض أربعين سنة . وسيأتي بيان نزوله عليه السلام في آخر الزمان في كتاب الملاحم كما بسطنا ذلك أيضاً في التفسير عند قوله تعالى في سورة النساء (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) وقوله (وإنه لعلم للساعة الآية) وانه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد اقيمت صلاة الصبح فيقول له امام المسلمين تقدم ياروح الله فصل فيقول لا بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة . وفي رواية فيقول له عيسى انما أقيمت الصلاة لك فيصلي خلفه . ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لد فيقتله بيده الكريمة . وذكرنا أنه قوى الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض وقد بنيت أيضاً من اموال النصارى حين حرقوا التي هدمت وما حولها فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل من أحد إلا الاسلام وأنه يحج من فج الروحاء حاجاً أو معتمرا أو لثنيهما ويقيم أربعين سنة ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه . وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعا أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية ولكن لايصح اسناده وقال أبو عيسى الترمذي حدثنا زيد بن اخزم الطائي حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة حدثني أبو مودود المدني حدثنا عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى بن مريم عليهم السلام يدفن معه . قال أبو مودود وقد بقي من البيت موضع قبر . ثم قال الترمذي هذا حديث حسن كذا قال والصواب الضحاك بن عثمان المدني وقال البخاري هذا الحديث لايصح عندي ولا يتابع عليه وروى البخاري عن يحيى بن حماد عن أبي عوانة عن عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال الفترة مابين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة وعن قتادة خمسمائة

وستون سنة . وقيل خمسمائة وأربعون سنة وعن الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة . والمشهور ستمائة سنة • ومنهم من يقول ستمائة وعشرون سنة بالقمرية لتكون ستمائة بالشمسية والله أعلم •

وقال ابن حبان في صحيحه (ذكر المدة التي بقيت فيها أمة عيسى على هديه) حدثنا أبو يعلى حدثنا أبو همام حدثنا الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ (لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنة) . وهذا حديث غريب جداً وان صححه ابن حبان . وذكر ابن جرير عن محمد بن اسحاق أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لاشريك له وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في اقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب فذكروا أنه أصبح كل انسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح اليهم . وذكر غير واحد أن الانجيل نقله عنه أربعة لوقا ومتى ومرقس ويوحنا وبين هذه الاناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة الى كل نسخة ونسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما متى ويوحنا ومنهم اثنين من أصحاب أصحابه[1] وهما مرقس ولوقا وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من اهل دمشق رجل يقال له ضينا وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولس اليهودي وكان ظالماً غاشما مبغضاً للمسيح ولما جاء به . وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد • ثم رجمه حتى مات رحمه الله • ولما سمع بولس أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله فتلقاه عند كوكبا فلما واجه أصحاب المسيح جاء اليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه . فلما رأى ذلك وقع

---

(١) من هنا الى قوله (كتاب اخبار الماضين الخ) لم يوجد بالنسختين الموجودتين بالمكتبة المصرية ووجد بها بدله هذه العبارة . وهي وقد أنشد الشيخ شهاب الدين القرافي في كتابه الرد على النصارى لبعضهم يرد عليهم في قولهم بصلب المسيح وتسليمهم ذلك لليهود مع دعواهم أنه ابن الله تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً •

عَجَباً للمسيح بينَ النَّصارى • وإلى اللهِ والداً نسبوهُ
أسلموه إلى اليهودِ وقالوا • إنهم بعد قتلِهِ صَلَبوه
فإذا كانَ ما تقولون حقّاً • وصَحيحاً فأين كانَ أبوه
حينَ خلّى ابنَهُ رهينَ الأعادي • أتُراهم أرضَوْه أم أغضَبوه
فلئنْ كانَ راضياً بأذاهم • فاعذِرُوهم لأنهم وافقوه
ولئنْ كانَ ساخِطاً فاتركوهُ • واعبدُوهم لأنهم غلَبوه

فى نفسه تصديق المسيح فجاء اليه واعتذر مما صنع وآمن به فقبل منه وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره فقال اذهب الى ضينا عندك بدمشق فى طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك فجاء اليه فدعا فرد عليه بصره وحسن ايمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وبنيت له كنيسة باسمه فهى كنيسة بولص المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة رضى الله عنهم حتى خربت فى الزمان الذى سنورده إن شاء الله تعالى .

فصل

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه الى السماء فيه على أقوال كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف كما أوردناه عند قوله (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) قال ابن عباس وغيره قال قائلون منهم كان فينا عبد الله ورسوله فرفع الى السماء وقال آخرون هو الله وقال آخرون هو ابن الله فالأول هو الحق والقولان الآخران كفر عظيم كما قال (فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) وقد اختلفوا فى نقل الأناجيل على أربعة أقاويل مابين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ثم بعد المسيح بثلثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى . اختلف البتاركة الاربعة وجميع الاساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين فى المسيح على أقوال متعددة لاتنحصر ولا تنضبط واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين بانى القسطنطينية وهم المجمع الاول فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات فسموا الملائكة ودحض من عداهم وأبعدهم وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن اديوس الذى ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله فسكنوا البرارى والبوادى وبنوا الصوامع والديارات والقلايات وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل وبنت الملائكة الكنائس الهائلة عمدوا إلى ماكان من بناء اليونان فحولوا محاريبها الى الشرق وقد كانت إلى الشمال الى الجدى *

بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح وبنت أمه هيلانة القمامة يعنى على قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح . وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء . ووضعوا القوانين والأحكام . ومنها مخالف للعتيقة التى هى التوراة وأحلوا أشياء هى حرام بنص التوراة ومن ذلك الخنزير وصلوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا الى صخرة بيت المقدس وكذلك جميع الانبياء بعد موسى . ومحمد خاتم النبيين صلى اليها بعد هجرته الى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حول الى الكعبة التى بناها ابراهيم الخليل . وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك ووضعوا العقيدة التى يحفظها أطفالهم ونساؤهم

ورجالهم التى يسمونها بالامانة . وهى فى الحقيقة أكبر الكفر والخيانة وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثانى واليعقوبية اصحاب يعقوب البرادعى أصحاب المجمع الثالث يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون فى تفسيرها وهاأنا أحكيها وحاكى الكفر ليس بكافر لابث على مافيها ركة الالفاظ وكثرة الكفر والخبال المفضى بصاحبه الى النار ذات الشواظ فيقولون نؤمن بالله واحد ضابط الكل خالق السموات والارض كل مايرى وكل مالايرى وبرب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد المولود من الاب قبل الدهور نور من نور إله حق من اله حق مولود غير مخلوق مساو للأب فى الجوهر الذى كان به كل شئ من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطى وتألم وقبر وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد الى السماء وجلس عن يمين الاب وأيضاً فسيأتى بجسده ليدبر الاحياء والاموات الذى لافناء لملكه وروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له وممجد الناطق فى الانبياء كنيسة واحدة جامعة مقدسة يهولية واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حى قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه آمين

كتاب اخبار الماضين

من بنى اسرائيل وغيرهم الى آخر زمن الفترة سوى أيام العرب وجاهليتهم فانا سنورد ذلك بعد فراغنا من هذا الفصل إن شاء الله تعالى قال الله تعالى (كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً) . وقال (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) .

خبر ذى القرنين

قال الله تعالى (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شئ سبباً فأتبع سببا . حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما . قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا . قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً . ثم أتبع سبباً . حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً . كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً . ثم أتبع سبباً . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال مامكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى

بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً . قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً). ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا وأثنى عليه بالعدل وانه بلغ المشارق والمغارب وملك الاقاليم وقهر اهلها وسار فيهم بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط. والصحيح أنه كان ملكا من الملوك العادلين وقيل كان نبياً . وقيل رسولا . وأغرب من قال ملكا من الملائكة . وقد حكى هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فانه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال مه ماكفاكم أن تتسموا باسماء الانبياء حتى تسميتم باسماء الملائكة ذكره السهيلي . وقد روى وكيع عن اسرائيل عن جابر عن مجاهد عن عبد الله ابن عمرو قال كان ذو القرنين نبياً . وروى الحافظ ابن عساكر من حديث أبي محمد بن أبي نصر عن أبي اسحاق بن ابراهيم بن محمد بن أبي ذؤيب حدثنا محمد بن حماد أنبأنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي ذؤيب عن المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ (لاأدري أتبع كان لعيناً أم لا ولا أدري الحدود كفارات لاهلها أم لا ولا أدري ذو القرنين كان نبياً أم لا) . وهذا غريب من هذا الوجه . وقال اسحاق بن بشر عن عثمان بن الساج عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال كان ذو القرنين ملكا صالحاً رضي الله عمله وأثنى عليه في كتابه وكان منصورا وكان الخضر وزيره . وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في اصلاح الناس اليوم . وقد ذكر الازرقي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي ابراهيم الخليل وطاف معه بالكعبة المكرمة هو واسماعيل عليه السلام [1] وروى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حج ماشياً وأن ابراهيم لما سمع بقدومه تلقاه ودعا له ورضاه وأن الله سخر لذي القرنين السحاب يحمله حيث أراد والله أعلم .

واختلفوا في السبب الذي سمي به ذا القرنين فقيل لانه كان له في رأسه شبه القرنين. قال وهب بن منبه كان له قرنان من نحاس في رأسه وهذا ضعيف وقال بعض أهل الكتاب لانه ملك فارس والروم وقيل لأنه بلغ قرني الشمس غربا وشرقاً . وملك مابينهما من الأرض وهذا أشبه من غيره وهو قول الزهري وقال [2] الحسن البصري كانت له غديرتان من شعر يطافهما فسمي ذا القرنين وقال اسحاق ابن بشر عن عبد الله بن زياد بن سمعان عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال دعا ملكا جباراً إلى الله فضربه على قرنه فكسره ورضه . ثم دعاه فدق قرنه الثاني فكسره فسمي ذا القرنين وروى الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن ذي القرنين فقال

---

(١) من هنا الى قوله قال وهب بن منبه الخ لم يوجد بالنسختين المصريتين .

(٢) من هنا الى قوله وروى الثوري لم يوجد بهما أيضا

كان عبـداً ناصحَ اللّهَ فناصحه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومـه الى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات فسمى ذا القرنين . وهكذا رواه شعبة القاسم بن أبى بزة عن أبى الطفيل عن على به * وفى بعض الروايات عن أبى الطفيل عن عـلى قال لم يكن نبياً ولا رسولا ولا ملـكا ولـكن كان عبداً صالحاً .

وقـد اختلف فى اسمه فروى الزبير بن بكار عن ابن عباس كان اسمه عبد الله بن الضحاك بن معد وقيـل مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون[1] بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن قحطان .

وقد جاء فى حـديث أنه كان من حمير وأمه رومية وأنه كان يقال له ابن الفيلسوف لعقله . وقـد أنشد بعض الحميريين[2] فى ذلك شعراً يفتخر بكونه أحد اجداده فقال :

قَد كانَ ذو القرنَيْن جدّي[3] مُسْلماً مَلْكاً تدين له الملوكَ وتَحشِد[4]

---

(١) كذا فى العينى عـلى البخارى بالعين المهملة والنون وهو خطأ والصواب غوث بالغين المعجمة والثاء المثلثة كما فى أنساب السمعانى . (٢) قوله بعض الحميريين هو تبع على ما فى العرائس الثعلبى وهو تبع أبو كرب كما فى التيجان فى ملوك حمير والشعر من قصيدة هى احد وخمسون بيتاً

(٣) قوله جده جدى كذا فى التيجان ورواه صاحب العرائس فى قصص الانبياء والفخر الرازى فى تفسيره قبلى . (٤) قوله ملـكا تدين له الملوك وتحشد كذا بالاصل بالشين المعجمة بعد الحاء المهملة ورواية العرائس وتسجد بالجيم بعد السين المهملة وعلى كلتا الروايتين يكون فى البيت عيب من عيوب القوافى وهو الاكفاء وهو اختلاف القوافى بالضم والـكسر فان الشعر مكسور الروى وهو الدال قال الشاعر فى أول القصيدة .

نحن الملوك ذوو العلا والسودد نحن الحماة بنو الهمام الاصيد

سميتُ أسعد والسعود طوالع لا بد أن ترقى النحوس لأسعد

أبعدَ وائل والمقنع بعده ترجو الخلود وأنت غير مخلد

إلى آخره وأنشد الفخر الرازى فى تفسيره هذا الشعر هكذا

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً ملكا علا فى الارض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يبتغى اسباب ملك من كريم سيد

وعليه فلا إكفاء واقتصر فى العرائس عـلى الابيات الثلاثة وترك البيت الأخـير هنا وأنشدها كما أنشدها المؤرخ هنا غير أنه قال قبلى بدل جـدى وقال تسجد بدل تحشد كما علمت والشعر فى التيجان هكذا وليس فيه البيت الاخير أيضاً مع ذكره القصيدة كلها قال الشاعر فى مكة

بلغَ المشارقَ والمغاربَ يبتغي ... اسبابَ أمرٍ من حكيمٍ مُرشِدِ
فرأى مغيبَ الشمسِ عندَ غُروبها ... في عينِ ذي خلبٍ وثأطٍ حرْمدِ
من بعدِهِ بلقيسُ كانتْ عمّتي ... مَلَكَتْهُمُ حتّى أتاها الهدهدُ

قال السهيلى وقيل كان اسمه مرزبان بن مرزبة . ذكره ابن هشام (١) وذكر فى موضع آخر أن اسمه الصعب بن ذى مرائد وهو أول التبابعة وهو الذى حكم لابراهيم فى بئر السبع. وقيل إنه أفريدون ابن أسفيان الذى قتل الضحاك وفى خطبة قس يا معشر اياد بن الصعب ذو القرنين ملك الخافقين وأذل الثقلين وعمر الفين . ثم كان ذلك كلحظة عين ثم انشد ابن هشام للاعشى .

والصّعبُ ذو القرنَيْنِ أصبحَ ثاوياً ... بالجنوِ في جَـدَثٍ أُشمَّ مقيماً

وذكر الدارقطنى وابن ماكولا أن اسمه هرمس (٢) ويقال هرويس بن قيطون بن رومى بن لنطى ابن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح فالله أعلم . وقال اسحق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة قال اسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام . فاما ذو القرنين الثانى فهو اسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى بن لنطى بن يونان بن يافث ابن يونة بن شرخون بن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومى بن الاصفر بن يقز بن العيص بن اسحق ابن ابراهيم الخليل كذا نسبه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه . المقدونى اليونانى المصرى بانى اسكندرية الذى يؤرخ بأيامه الروم وكان متأخراً عن الاول بدهر طويل كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان ارسطاطاليس الفيلسوف وزيره وهو الذى قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم.

وأقام ذو القرنين فيها حجة ... خوفا يطوف على الفلى المتوقد
إذ كان ذو القرنين جدى مسلما ... فتى تراه له المقاولُ تسجدِ
طاف المشارق والمغارب عالماً ... يبغى علوماً من كريم مرشد
ورأى مسير الشمس عند غروبها ... فى عين ذى خُلبٍ وثأط حرمدِ
فلقد أذل الصعب صعب زمانه ... وأناط قوة عزه بالفرقـد

ثم قال فى التيجان قال معاوية يا ابن عباس فما الخلب والثأط والحرمد قال الخلب الحمأة والثأط ما تحتها من الطين والحرمد ما تحته من الحصى والحجر .

(١) قوله ذكره ابن هشام أى فى السيرة وقوله وذكر فى موضع آخر أى فى التيجان فى ملوك حمير روايته عن وهب بن منبه اه محمود الامام .

(٢) والذى فى العرائس عن اكثر أهل السير هو الاسكندر بن فيلبش بن بطروس بن هرمس ابن هردوس بن منطون بن رومى بن لطين بن يونان بن يافث . اه محمود الامام

وانما نبهنا عليه لان كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وان المذكور فى القرآن هو الذى كان ارطاطاليس وزيره فيقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عريض طويل كثير فان الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً وملكا عادلا وكان وزيره الخضر وقد كان نبياً على ما قررناه قبل هذا. وأما الثانى فكان مشركا وكان وزيره فيلسوفاً وقد كان بين زمانيهما أزيد من الفى سنة. فأين هذا من هذا لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبى لا يعرف حقائق الامور * فقوله تعالى (ويسألونك عن ذى القرنين) كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود عن شئ يمتحنون به علم رسول الله (ص) فقالوا لهم سلوه عن رجل طواف فى الأرض وعن فتية خرجوا لا يدرى ما فعلوا فأنزل الله تعالى قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين. ولهذا قال (قل سأتلوا عليكم منه ذكراً) أى من خبره وشأنه (ذكراً) أى خبراً نافعاً كافياً فى تعريف امره وشرح حاله فقال (إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شئ سبباً) أى وسعنا مملكته فى البلاد وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة والمقاصد الجسيمة. قال قتيبة عن أبى عوانة عن سماك عن حبيب بن حماد قال كنت عند على بن أبى طالب وسأله رجل عن ذى القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب فقال له (سخر له السحاب ومدت له الأسباب وبسط له فى النور) وقال أزيدك فسكت الرجل وسكت على رضى الله عنه. وعن أبى اسحاق السبيعى عن عمرو بن عبد الله الوادعى سمعت معاوية يقول: ملك الارض أربعة. سليمان بن داود النبى عليهما السلام. وذو القرنين ورجل من أهل حلوان. ورجل آخر. فقيل له الخضر قال لا * وقال الزبير بن بكار حدثنى ابراهيم بن المنذر عن محمد بن الضحاك عن أبيه عن سفيان الثورى قال بلغنى أنه ملك الارض كلها أربعة (مؤمنان وكافران سليمان النبى وذو القرنين ونمرود وبخت نصر) وهكذا قال سعيد بن بشير سواء وقال اسحاق بن بشر عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن قال (كان ذو القرنين ملك بعد النمرود وكان من قصته أنه كان رجلا مسلماً صالحاً أتى المشرق والمغرب مد الله له فى الاجل ونصره حتى قهر البلاد واحتوى على الاموال وفتح المدائن وقتل الرجال وجال فى البلاد والقلاع فسار حتى أتى المشرق والمغرب فذلك قول الله (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) أى خبراً (إنا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شئ سبباً) أى علماً بطلب اسباب المنازل *

قال اسحاق وزعم مقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز فمن اتبعه على دينه وتابعه عليه وإلا قتله. وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعبيد بن يعلى والسدى وقتادة والضحاك (وآتيناه من كل شئ سبباً) يعنى علماً وقال قتادة ومطر الوراق معالم الارض ومنازلها واعلامها وآثارها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعنى تعلم الالسنة كان لا يغزو قوماً إلا حدثهم بلغتهم والصحيح أنه يعم كل سبب يتوصل به الى نيل مقصوده فى المملكة وغيرها فانه كان يأخذ من كل أقليم من الامتعة

والطعام والزاد ما يكفيه ويميته على اهل الاقليم الآخر .

وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث الفا وستمائة سنة يجوب الارض ويدعو أهلها الى عبادة الله وحده لا شريك له وفي كل هذه المدة نظر والله أعلم . وقد روى البيهقي وابن عساكر حديثاً متعلقا بقوله (وآتيناه من كل شيء سبباً) مطولا جداً وهو منكر جداً . وفي اسناده محمد بن يونس الكديمي وهو متهم فلهذا لم نكتبه لسقوطه عندنا والله أعلم وقوله (فأتبع سببا) أي طريقاً (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) يعني من الارض انتهى الى حيث لا يمكن أحدا أن يجاوزه ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبدأ الاطوال على أحد قولي ارباب الهيئة والثاني من ساحل هذا البحر كما قدمنا . وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة الى مشاهدته (تغرب في عين حمئة) والمراد بها البحر في نظره فان من كان في البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه ولهذا قال (وجدها) أي في نظره ولم يقل فاذا هي تغرب في عين حمئة أي ذات حمأة . قال كعب الاحبار وهو الطين الاسود . وقرأه بعضهم حامية . فقيل يرجع إلى الاول . وقيل من الحرارة وذلك من شدة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها . وقد روى الامام احمد عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب حدثني مولى لعبد الله بن عمرو عن عبد الله . قال نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال (في نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لاحرقت ما على الارض) فيه غرابة وفيه رجل مبهم لم يسم ورفعه فيه نظر وقد يكون موقوفا من كلام عبد الله بن عمرو فانه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب المتقدمين فكان يحدث منها والله أعلم .

ومن زعم من القصاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس وصار يمشي بجيوشه في ظلمات مدداً طويلة فقد اخطأوا وبعد النجعة . وقال ما يخالف العقل والنقل .

باب طلب ذي القرنين عين الحياة

وقد ذكر ابن عساكر من طريق وكيع عن أبيه عن معتمر بن سليمان عن أبي جعفر الباقر عن أبيه زين العابدين خبراً مطولا جداً فيه أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له رناقيل فسأله ذو القرنين هل تعلم في الأرض عيناً يقال لها عين الحياة فذكر له صفة مكانها فذهب ذو القرنين في طلبها وجعل الخضر على مقدمته فانتهى الخضر اليها في واد في أرض الظلمات فشرب منها ولم يهتد ذو القرنين اليها . وذكر اجتماع ذي القرنين ببعض الملائكة في قصر هناك وأنه اعطاه حجراً فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه فوضعوه في كفة ميزان وجعلوا في مقابله ألف حجر مثله فوزنها حتى سأل الخضر فوضع قباله حجراً وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به . وقال هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يوارى

بالتراب فسجد له العلماء تكريماً له واعظاماً والله اعلم * ثم ذكر تعالى أنه حكم فى أهل تلك الناحية (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا . قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا) أى فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة وبدأ بعذاب الدنيا لانه أزجر عند الكافر (وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسرا) فبدأ بالاهم وهو ثواب الآخرة وعطف عليه الاحسان منه اليه وهذا هو العدل والعلم والايمان قال الله تعالى (ثم أتبع سببا) أى سلك طريقاً راجعاً من المغرب الى المشرق فيقال إنه رجع فى ثنتى عشر سنة (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) أى ليس لهم بيوت ولا اكنان يستترون بها من حر الشمس . قال كثير من العلماء ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر الى اسراب قد اتخذوها فى الارض شبه القبور قال الله تعالى (كذلك وقد احطنا بما لديه خبرا) أى ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكلؤه بحراستنا فى مسيره ذلك كله من مغارب الارض الى مشارقها .

وقد روى عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف أن ذا القرنين حج ماشياً فلما سمع ابراهيم الخليل بقدومه تلقاه فلما اجتمعا دعا له الخليل ووصاه بوصايا ويقال انه جيء بفرس ليركبها فقال لا أركب فى بلد فيه الخليل فسخر الله له السحاب وبشره ابراهيم بذلك فكانت تحمله إذا أراد . وقوله تعالى (ثم اتبع سبباً . حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا) يعنى غشما . يقال انهم هم الترك ابناء عم يأجوج ومأجوج فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدوا عليهم وأفسدوا فى بلادهم وقطعوا السبل عليهم وبذلوا له حملا وهو الخراج على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول اليهم فامتنع من أخذ الخراج اكتفاء بما أعطاه الله من الاموال الجزيلة (قال ما مكنى فيه ربى خير) ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالا وآلات ليبنى بينهم وبينهم سداً وهو الردم بين الجبلين وكانوا لا يستطيعون الخروج اليهم إلا من بينهما وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب . وقيل الرصاص والصحيح الاول فجعل بدل اللبن حديداً وبدل الطين نحاساً ولهذا قال تعالى (فما اسطاعوا أن يظهروه) أى يعلوا عليه بسلالم ولا غيرها (وما استطاعوا له نقبا) أى بمعاول ولا فؤس ولا غيرها فقابل الاسهل بالاسهل والاشد بالاشد (قال هذا رحمة من ربى) أى تقدير الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم فى تلك المحلة (فاذا جاء وعد ربى) أى الوقت الذى قدر خروجهم على الناس فى آخر الزمان (جعله دكاء) أى مساوياً للارض ولا بد من كون هذا ولهذا قال (وكان وعد ربى حقاً) كما قال تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق الآية) ولهذا قال ههنا (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) يعنى يوم فتح السد على الصحيح (ونفخ فى

الصور بمنامهم جماً) وقد أوردنا الاحاديث المروية فى خروج يأجوج ومأجوج فى التفسير وسنوردها ان شاء الله فى كتاب الفتن والملاحم من كتابنا هذا إذا انتهينا اليه بحول الله وقوته وحسن توفيقه ومعونته وهدايته .

قال أبو داود الطيالسى عن الثورى بلغنا أن أول من صافح ذو القرنين . وروى عن كعب الاحبار انه قال لمعاوية إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن وتأذن لهن فيه إلا من كانت ثكلى فلا تأكل منه شيئا فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه فقالت لهن سبحان الله كلكن ثكلى فقلن أى والله ما منا إلا من اثكلت فكان ذلك تسلية لأمه . وذكر اسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب وصية ذى القرنين وموعظة أمه موعظة بليغة طويلة فيها حكم وأمور نافعة وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة وهذا غريب .

قال ابن عساكر وبلغنى من وجه آخر أنه عاش ستا وثلاثين سنة . وقيل كان عمره ثنتين وثلاثين سنة . وكان بعد داود بسبعمائة سنة وأربعين سنة . وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومائة واحدى وثمانين سنة . وكان ملكه ست عشرة سنة . وهذا الذى ذكره انما ينطبق على اسكندر الثانى لا الأول وقد خلط فى أول الترجمة وآخرها بينهما والصواب التفرقة كما ذكرنا اقتداء بجماعة من الحفاظ والله أعلم *

وممن جعلهما واحداً الامام عبد الملك بن هشام راوى السيرة وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السهيلى رحمه الله أنكاراً بليغاً ورد قوله رداً شنيعاً وفرق بينهما تفريقاً جيداً كما تقدم قال ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسموا بذى القرنين تشبهاً بالاول والله اعلم *

ذكر أمتى يأجوج ومأجوج

وصفاتهم وما ورد من أخبارهم وصفة السد

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه ثم الدليل على ذلك ماثبت فى الصحيحين من طريق الاعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يوم القيامة يا آدم قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول يارب وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد * قالوا يارسول الله أينا ذلك الواحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابشروا فان منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً) وفى رواية فقال ابشروا فان فيكم أمتين ما كانتا فى شئ إلا كثرتاه أى غلبتاه كثرة وهذا يدل على كثرتهم وانهم اضعاف الناس مراراً عديدة . ثم هم من ذرية نوح لان

الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الارض بقوله (رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً) وقال تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة) وقال (وجعلنا ذريته هم الباقين) وتقدم في الحديث المروى في المسند والسنن أن نوحا ولد له ثلاثة وهم سام وحام ويافث فسام أبو العرب وحام أبو السودان ويافث أبو الترك فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك وهم مغل المغول وهم أشد بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء ونسبتهم اليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم . وقد قيل إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد والجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه * فلهذا قيل لهم الترك .

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم فاختلطت بتراب فخلقوا من ذلك وانهم ليسوا من حواء فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النواوى في شرح مسلم وغيره وضعفوه وهو جدير بذلك إذ لا دليل عليه بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن * وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة واطوال متباينة جداً . فمنهم من هو كالنخلة السحوق. ومنهم من هو غاية في القصر . ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان . والصحيح أنهم من بنى آدم وعلى اشكالهم وصفاتهم . وقد قال النبي (ص) (إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا) ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن . وهذا فيصل في هذا الباب وغيره . وما قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً فان صح في خبر قلنا به والا فلا نرده إذ يحتمله العقل والنقل أيضا قد يرشد اليه والله أعلم . بل قد ورد حديث مصرح بذلك ان صح قال الطبراني حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الاصبهاني حدثنا أبو مسعود احمد بن الفرات حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا المغيرة من مسلم عن أبي اسحاق عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو عن النبي (ص) قال (ان يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معائشهم ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً . وان من ورائهم ثلاث أمم (تاويل وتاريس ومنسك) . وهو حديث غريب جداً واسناده ضعيف . وفيه نكارة شديدة * وأما الحديث الذى ذكره بن جرير في تاريخه أن رسول الله (ص) ذهب اليهم ليلة الاسراء فدعاهم إلى الله فامتنعوا من اجابته ومتابعته وأنه دعا تلك الامم التي هناك (تاريس وتاويل ومنسك) فاجابوه فهو حديث موضوع اختلقه أبو نعيم عمرو بن الصبح أحد الكذابين الكبار الذين اعترفوا بوضع الحديث والله اعلم .

فان قيل فكيف دل الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة وأنهم في النار ولم يبعث اليهم رسل . وقد قال الله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فالجواب أنهم لا يعذبون إلا بعد قيام الحجة عليهم والاعذار اليهم كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فان كانوا في زمن

التى قبل بعث محمد (ص) قد أتتهم رسل منهم فقد قامت على أولئك الحجة وان لم يكن قد بعث الله اليهم رسلا فهم فى حكم أهل الفترة . ومن لم تبلغه الدعوة وقد دل الحديث المروى من طرق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله (ص) (ان من كان كذلك يمتحن فى عرصات القيامة فمن أجاب الداعى دخل الجنة ومن أبى دخل النار) وقد أوردنا الحديث بطرقه وألفاظه وكلام الائمة عليه عند قوله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الاشعرى اجماعاً عن أهل السنة والجماعة وامتحانهم لا يقتضى نجاتهم ولا ينافى الأخبار عنهم بأنهم من أهل النار لأن الله يطلع رسوله (ص) على ما يشاء من أمر الغيب وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له فهم لا يجيبون الداعى الى يوم القيامة فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيباً للحق فى الدنيا لو بلغهم فيها لأن فى عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذبا فى الدنيا فايقاع الايمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه فى الدنيا والله أعلم . كما قال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) وقال تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) • وأما الحديث الذى فيه أن رسول الله (ص) دعاهم ليلة الاسراء فلم يجيبوا فانه حديث منكر بل موضوع وضعه عمرو بن الصبح .

وأما السد فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس وساوى به الجبال الصم الشامخات الطوال فلا يعرف على وجه الارض بناء أجل منه ولا أنفع للخلق منه فى أمر دنياهم . قال البخارى وقال رجل للنبى (ص) رأيت السد قال وكيف رأيته قال مثل البرد المحبر فقال رأيته هكذا . ذكره البخارى معلقاً بصيغة الجزم ولم أره مسنداً من وجه متصل أرتضيه غير أن ابن جرير رواه فى تفسيره مرسلا فقال حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن رجلا قال (يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال انعته لى قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء قال قد رأيته) .

وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلا من جهته وكتب لهم كتباً إلى الملوك يوصلونهم من بلاد الى بلاد حتى ينتهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أى صفة فلما رجعوا أخبروا عن صفته وأن فيه باباً عظيما وعليه أقفال وأنه بناء محكم شاهق منيف جداً وأن بقية اللبن الحديد والآلات فى برج هناك وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد ومحله فى شرقى الارض فى جهة الشمال فى زاوية الارض الشرقية الشمالية ويقال ان بلادهم متسعة جداً وانهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم . فان قيل فما الجمع بين قوله تعالى (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) وبين الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضى الله عنها قالت استيقظ رسول الله (ص)

من نوم محمراً وجهه وهو يقول (لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق تسعين) قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث . وأخرجاه في الصحيحين من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ (فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد تسعين) . فالجواب أما على قول من ذهب الى أن هذا اشارة إلى فتح ابواب الشر والفتن وان هذا إستعارة محضة وضرب مثل فلا اشكال . واما على قول من جعل ذلك اخبارا عن امر محسوس كما هو الظاهر المتبادر فلا اشكال أيضاً لان قوله (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً) أي في ذلك الزمان لأن هذه صيغة خبر ماض فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل باذن الله لهم في ذلك قدرا وتسليطهم عليه بالتدريج قليلا قليلا حتى يتم الاجل وينقضي الامر المقدور فيخرجون كما قال الله تعالى (وهم من كل حدب ينسلون) ولكن الحديث الآخر اشكل من هذا وهو مارواه الامام أحمد في مسنده قائلا حدثنا روح حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة حدثنا أبو رافع عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال (ان يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون اليه كاشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرون غداً إن شاء الله ويستثني فيعودون اليه وهو كهيئة يوم تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه وتتحصن الناس في حصونهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الارض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفاً في اقفائهم فيقتلهم بها . قال رسول الله ﷺ (والذي نفس محمد بيده إن دواب الارض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم) ورواه احمد أيضاً عن حسن بن موسى عن سفيان عن قتادة به وهكذا رواه ابن ماجه من حديث سعيد عن قتادة الا أنه قال حدثت أبو رافع ورواه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة به . ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه فقد أخبر في هذا الحديث أنهم كل يوم يلحسونه حتى يكادوا ينفذون شعاع الشمس من ورائه لرقته فان لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً وانما هو مأخوذ عن كعب الاحبار كما قاله بعضهم فقد استرحنا من المؤنة وان كان محفوظاً فيكون محمولا على أن صنيعهم هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم كما هو المروي عن كعب الاحبار أو يكون المراد بقوله (وما استطاعوا له نقبا) أي نافذاً منه فلا ينفي أن يلحسوه ولا ينفذوه والله أعلم وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في الصحيحين عن أبي هريرة فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد تسعين أي فتح فتحاً نافذاً فيه والله أعلم *

قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً إذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً. نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى. وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . واذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً . وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً . وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم. قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر ايها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً . انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا . وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وان الساعة لاريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً . سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب . ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم . قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً. ولاتقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لاقرب من هذا رشداً . ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً . قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض أبصر به واسمع مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه احداً)

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين ماذكره محمد بن اسحاق فى السيرة وغيره ان قريشاً بعثوا الى اليهود يسألونهم عن اشياء يمتحنون بها رسول الله (ص) ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها فقالوا سلوه عن أقوام ذهبوا فى الدهر فلا يدرى ماصنعوا وعن رجل طواف فى الارض وعن الروح فأنزل الله تعالى (ويسألونك عن الروح. ويسألونك عن ذى القرنين) وقال هنا (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أى ليسوا بعجب عظيم بالنسبة الى ما اطلعناك عليه من الاخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة . والكهف هو الغار فى الجبل. قال شعيب الجبائى

واسم كهفهم حيزم وأما الرقيم فعن ابن عباس أنه قال لا أدرى ما المراد به .وقيل هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم وما جرى لهم كتب من بعدهم اختاره ابن جرير وغيره .وقيل هو اسم الجبل الذى فيه كهفهم. قال ابن عباس وشعيب الجبائى واسمه بناجلوس . وقيل هو اسم واد عند كهفهم وقيل اسم قرية هنالك والله أعلم

قال شعيب الجبائى واسم كلبهم حمران واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمانهم متقدم على ماذكره بعض المفسرين انهم كانوا بعد المسيح وأنهم كانوا نصارى . والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام . قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم كانوا فى زمن ملك يقال له دقيانوس وكانوا من ابناء الاكابر .وقيل من ابناء الملوك واتفق اجتماعهم فى يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للاصنام والتعظيم للاوثان فنظروا بعين البصيرة وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة وألهمهم رشدهم فعلموا أن قومهم ليسوا على شىء فخرجوا عن دينهم وانتموا الى عبادة الله وحده لا شريك له. ويقال إن كل واحد منهم لما أوقع الله فى نفسه ماهداه اليه من التوحيد انحاز عن الناس واتفق اجتماع هؤلاء الفتية فى مكان واحد كما صح فى البخارى (الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف) فكل منهم سأل الآخر عن امره وعن شأنه فأخبره ماهو عليه واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبرى منهم والخروج من بين أظهرهم والفرار بدينهم منهم وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور . قال الله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الهاً لقد قلنا اذاشططا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) أى بدليل ظاهر على ماذهبوا اليه وصاروا من الامر عليه (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله) أى واذ فارقتموهم فى دينهم وتبرأتم مما يعبدون من دون الله وذلك لانهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل (انى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فانه سيهدين) وهكذا هؤلاء الفتية قال بعضهم اذ قد فارقتم قومكم فى دينهم فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يوصلوا اليكم شرا (فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهىء لكم من أمركم مرفقا)أى يسبل عليكم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبة أمركم الى خير كما جاء فى الحديث (اللهم أحسن عاقبتنا فى الامور كلها وأجرنا من خزى الدنيا ومن عذاب الآخرة) ثم ذكر تعالى صفة الغار الذى آووا اليه وان بابه موجه الى نحو الشمال واعماقه الى جهة القبلة وذلك انفع الاماكن أن يكون المكان قبليا وبابه نحو الشمال فقال (وترى الشمس اذا طلعت تزاور) وقرىء تزور (عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال) فأخبر ان الشمس يعنى فى زمن الصيف وأشباهه تشرق أول طلوعها فى الغار فى جانبه الغربى ثم تشرع فى

الخروج منه قليلا قليلا وهو ازورارها ذات اليمين فترتفع فى جو السماء وتتقلص عن باب الكهف اذا تضيفت للغروب تشرع فى الدخول فيه من جهته الشرقية قليلا قليلا الى حين الغروب كما هو المشاهد بمثل هذا المكان والحكمة فى دخول الشمس اليه فى بعض الاحيان أن لا يفسد هواؤه (وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله) أى بقاؤهم على هذه الصفة دهراً طويلا من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى اجسادهم فى هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً وتحسبهم أيقاظا وهم رقود) قال بعضهم لان اعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول النمض (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قيل فى كل عام يتحولون مرة من جنب الى جنب ويحتمل أكثر من ذلك فالله أعلم (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) قال شعيب الجبائى اسم كلبهم حمران وقال غيره الوصيد اسكفة الباب . والمراد أن كلبهم الذى كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم لزمهم ولم يدخل معهم فى الكهف بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما اكرموا به فان الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان فى كلب هؤلاء صار باقياً معهم ببقائهم لأن من أحب قوماً سعد بهم فاذا كان هذا فى حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للاكرام . وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبراً طويلا أكثره متلقى من الاسرائيليات وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه كاختلافهم فى اسمه ولونه .

واما اختلاف العلماء فى محلة هذا الكهف فقال كثيرون هو بأرض ايلة . وقيل بأرض نينوى . وقيل بالبلقاء وقيل ببلاد الروم وهو اشبه والله أعلم . ولما ذكر الله تعالى ماهو الانفع من خبرهم والأهم من أمرهم ووصف حالهم حتى كأن السامع راءٍ والمخبر مشاهد لصفة كهفهم وكيفيتهم فى ذلك الكهف تقلبهم من جنب الى جنب وأن كلبهم باسط ذارعيه بالوصيد . قال (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) أى لما عليهم من المهابة والجلالة فى أمرهم الذى صاروا اليه ولعل الخطاب هنا لجنس الانسان المخاطب لا بخصوصية الرسول (ص) كقوله (فما يكذبك بعد بالدين) أى أيها الانسان وذلك لان طبيعة البشرية تفر من رؤية الاشياء المهيبة غالباً ولهذا قال (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة كما جاء فى الحديث لأن الخبر قد حصل ولم يحصل الفرار ولا الرعب . ثم ذكر تعالى انه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة) أى بدراهمكم هذه يعنى التى معهم الى المدينة ويقال كان اسمها دفسوس (فلينظر ايها أزكى طعاما) أى أطيب مالا (فليأتكم برزق منه) أى بطعام تأكلونه وهذا من زهدهم

وورعهم (وليتلطف) أى فى دخوله اليها (ولا يشعرن بكم أحـدا انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيـدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا) أى ان عـدتم فى ملتهم بعد اذ انقذكم الله منها وهـذا كله لظنهم أنهم رقدوا يوماً أو بعض يوم أو أكثر من ذلك ولم يحسبوا انهم قد رقدوا أزيد من ثلثمائة سـنة وقد تبدلت الدول أطوارا عديدة وتغيرت البلاد ومن عليها وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم وجاء غيرهم وذهبوا وجاء غيرهم ولهذا لما خرج أحدهم وهو تيذوسيس (١) فيما قيل وجاء الى المدينة متنكرا لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه تنكرت له البلاد واستنكره من يراه من اهلها واستغربوا شكله وصفته ودراهمه فيقال انهم حملوه الى متوليهم وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً أو تكون له صولة يخشون من مضرتها فيقال انه هرب منهم ويقال بل أخبرهم خبره ومن معه وما كان من أمرهم فانطلقوا معه ليريهم مكانهم فلما قربوا من الكهف دخل الى اخوانه فاخبرهم حقيقـة أمرهم ومقدار ما رقدوا فعلموا أن هـذا أمر قدره الله فيقال انهم استمروا راقدين ويقال بل ماتوا بعد ذلك .

وأما أهل البلدة فيقال انهم لم يهتدوا الى موضعهم من الغار وعمى الله عليهم أمرهم ويقال لم يستطيعوا دخوله حسا (٢) ويقال مهابة لهم .

واختلفوا فى أمرهم فقائلون يقولون (ابنوا عليهم بنياناً) أى سدوا عليهم باب الكهف لئلا يخرجوا أو لئلا يصل اليهم ما يؤذيهم وآخرون وهم الغالبون على أمرهم قالوا (لنتخذن عليهم مسجدا) أى معبداً يكون مباركا لمجاورته هؤلاء الصالحين . وهذا كان شائعاً فيمن كان قبلنا فاما فى شرعنا فقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ص . أنه قال (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبورا نبيائهم مساجد) يحذر مافعلوا وأما قوله (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعـد الله حق وان الساعـة لا ريب فيها) فمعنى أعثرنا أطلعنا على أمرهم الناس . قال كثير من المفسرين ليعلم الناس أن المعاد حق وان الساعة لا ريب فيها اذا علموا أن هؤلاء القوم رقـدوا أزيد من ثلثمائة سـنة ثم قاموا كما كانوا من غـير تغير منهم فان من أبقاهم كما هم قادر عـلى اعادة الابدان وان أكلتها الديدان وعلى احياء الاموات وان صارت اجسامهم وعظامهم رفاتاً وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون (إنما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) . هـذا ويحتمل عود الضمير فى قوله ليعلموا الى أصحاب الكهف إذ علمهم بذلك من أنفسهم ابلغ من علم غيرهم بهم ويحتمل أن يعود على الجميع والله أعلم . ثم قال تعالى (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) فذكر اختلاف الناس فى كميتهم فحكى ثلاثة أقوال وضعف الاولين وقرر الثالث فدل على انه الحق اذ لو قيل غير ذلك لحكاه ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح

(١) كذا بالاصول والذى فى ابن جرير أن اسمـه يمليخا وان تيذوسيس فهو اسم الملك الذى كان على المدينة حين قيامهم

(٢) كذا بالاصول ولعله جبنا

لوجاء فدل على ماقلناه ولما كان النزاع فى مثل هذا لاطائل تحته ولا جدوى عنده أرشد نبيه (ص) الى الادب فى مثل هذا الحال اذا اختلف الناس فيه أن يقول الله أعلم . ولهذا قال (قل ربى أعلم بعدتهم) وقوله (ما يعلمهم إلا قليل) أى من الناس فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) أى سهلا ولا تتكلف اعمال الجدال فى مثل هذا الحال ولا تستفت فى أمرهم احدا من الرجال ولهذا أبهم تعالى عدتهم فى أول القصة فقال (إنهم فتية آمنوا بربهم) ولو كان فى تعين عدتهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة وقوله تعالى (ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا إلا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا) ادب عظيم ارشده الله تعالى اليه وحث خلقه عليه وهو ما اذا قال احدهم انى سأفعل فى المستقبل كذا فيشرع له ان يقول ان شاء الله ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه لان العبد لا يعلم ماقى غد ولا يدرى اهذا الذى عزم عليه مقدر ام لا وليس هذا الاستثناء تعليقاً وانما هو الحقيقى ولهذا قال ابن عباس يصح الى سنة ولكن قد يكون فى بعض الحال لهذا ولهذا كما تقدم فى قصة سليمان عليه السلام حين قال لاطوفن الليلة على سبعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله فقيل له قل ان شاء الله فلم يقل فطاف فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف انسان قال رسول الله (ص) والذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته . وقوله (واذكر ربك اذا نسيت) وذلك لان النسيان قد يكون من الشيطان فذكر الله يطرده عن القلب فيذكر ما كان قد نسيه . وقوله (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) أى اذا اشتبه أمر واشكل حال والتبس أقوال الناس فى شئ فارغب إلى الله ييسره لك ويسهله عليك ثم قال (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وزدادوا تسعاً) . لما كان فى الاخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة ذكرها تعالى وهذه التسع المزيدة بالقمرية وهى لتكميل ثلثمائة شمسية فان كل مائة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين (قال الله أعلم بما لبثوا) أى اذا سئلت عن مثل هذا وليس عندك فى ذلك نقل فرد الامر فى ذلك الى الله عز وجل (له غيب السموات والارض) أى هو العالم بالغيب فلا يطلع عليه إلا من شاء من خلقه أبصر به واسمع) يعنى أنه يضع الاشياء فى محالها لعلمه التام بخلقه وبما يستحقونه ثم قال (مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا) أى ربك المتفرد بالملك والمتصرف وحده لا شريك له .

قصة الرجلين المؤمن والكافر

قال الله تعالى فى سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناها بنخل وجعلنا بينهما زرعاً كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالها نهراً وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا اكثر منك مالا وأعز نفراً ودخل جنته

وهو ظالم لنفسه قال ماأظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لا . ن خيراً منها منقلبا) إلى قوله (هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقبا) . قال بد . . ا ليس هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعاً والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله (واضرب لهم مثلا) يعنى لكفار قريش فى عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم كما قال تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) كما قدمنا الكلام على قصتهم قبل قصة موسى عليه السلام والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً ويقال إنه كان لكل منهما مال فأنفق المؤمن ماله فى طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه * وأما الكافر فإنه اتخذ له بساتين وهما الجنتان المذكورتان فى الآية على الصفة والنعت المذكور . فيهما اعناب ونخيل تحف تلك الاعناب والزروع فى ذلك والانهار سارحة ههنا وههنا للسقى والتنزه وقد استوثقت فيهما الثمار واضطربت فيهما الانهار وابتهجت الزروع والثمار وافتخر مالكهما على صاحبه المؤمن الفقير قائلا له (أنا اكثر منك مالا وأعز نفرا) أى أوسع جنانا . ومراده انه خير منه ومعناه ماذا أغنى عنك انفاقك ماكنت تملكه فى الوجه الذى صرفته فيه كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلى فافتخر على صاحبه (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) أى وهو على غير طريقة مرضية قال (ماأظن أن تبيد هذه أبدا) وذلك لما رأى من اتساع أرضها وكثرة مائها وحسن نبات أشجارها ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها وزروعها دارة لكثرة مياهها . ثم قال (وما أظن الساعة قائمة) فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة . ثم قال (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا) أى ولئن كان ثم آخرة ومعاد فلأجدن هنالك خيراً من هذا وذلك لانه اغتر بدنياه واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له وحظوته عنده كما قال العاص بن وائل فيما قص الله من خبره وخبر خباب بن الارت فى قوله (أفرأيت الذى كفر بآياتنا) وقال (لأوتين مالا وولدا . أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) وقال تعالى اخباراً عن الانسان إذا أنعم الله عليه (ليقولن هذالى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) قال الله تعالى (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ) وقال قارون (إنما أوتيته على علم عندى) أى لعلم الله بى أنى أستحقه قال الله تعالى (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) وقد قدمنا الكلام على قصته فى اثناء قصة موسى . وقال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) . وقال تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون) . ولما اغتر هذا الجاهل بما خول به فى الدنيا فجحد الآخرة وادعى أنها ان وجدت ليجدن عند ربه خيراً مما هو فيه وسمعه صاحبه يقول ذلك قال له

(وهو يحاوره) أي يجادله (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) أي أجحدت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب ثم من نطفة ثم صورك أطواراً حتى صرت رجلا سويا سميعاً بصيراً تعلم وتبطش وتفهم فكيف أنكرت المعاد والله قادر على البداءة (لكنا هو الله ربي) أي لكن أنا أقول بخلاف ماقلت وأعتقد خلاف معتقدك (هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً) أي لا أعبد سواه واعتقد أنه يبعث الاجساد بعد فنائها ويعيد الاموات ويجمع العظام الرفات وأعلم أن الله لا شريك له في خلقه ولا في ملكه ولا إله غيره ثم أرشده إلى ماكان الاولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله) ولهذا يستحب لكل من أعجبه شيء من ماله أو أهله أو حاله أن يقول كذلك وقد ورد فيه حديث مرفوع في صحته نظر * قال أبو يعلى الموصلي حدثنا جراح بن مخلد حدثنا عمرو بن يوسف حدثنا عيسى بن عون حدثنا عبد الملك بن زرارة عن أنس قال قال رسول الله (ص) (ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ماشاء الله لاقوة إلا بالله) فيرى فيه آفة دون الموت وكان يتأول هذه الآية (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله) قال الحافظ أبو الفتح الأزدي عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح ثم قال المؤمن للكافر (فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك) أي في الدار الآخرة (ويرسل عليها حسباناً من السماء) قال ابن عباس والضحاك وقتادة أي عذاباً من السماء. والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذي يقتلع زروعها وأشجارها (فتصبح صعيداً زلقاً) وهو التراب الأملس الذي لانبات فيه (أو يصبح ماؤها غوراً) وهو ضد المعين السارح (فلن تستطيع له طلبا) يعني فلا تقدر على استرجاعه قال الله تعالى (وأحيط بثمره) أي جاءه أمر أحاط بجميع حواصله وخرب جنته ودمرها (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها) أي خربت بالكلية فلا عودة لها وذلك ضد ما كان عليه أمل حيث قال (وما أظن أن تبيد هذه أبداً) وندم على ماكان سلف منه من القول (الذي كفر بسببه بالله العظيم فهو يقول ياليتني لم أشرك بربي أحداً). قال الله تعالى (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً هنالك) أي لم يكن أحد يتدارك مافرط من أمره وما كان له قدرة في نفسه على شيء من ذلك كما قال تعالى (فما له من قوة ولا ناصر) وقوله (الولاية لله الحق) ومنهم من يبتدىء بقوله (هنالك الولاية لله الحق) وهو حسن أيضاً لقوله (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً) فالحكم الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب في تلك الحال وفي كل حال لله الحق. ومنهم من رفع الحق جعله صفة للولاية وهما متلازمتان وقوله (هو خير ثواباً وخير عقبا) أي معاملته خير لصاحبها ثوابا وهو الجزاء وخير عقبا وهو العاقبة في الدنيا والآخرة. وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغي لاحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر

بها ولا يثق بها بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه فى كل حال نصب عينيه. وليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يديه . وفيها أن من قدم شيئاً على طاعة الله والانفاق فى سبيله عذب به وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده . وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق وان مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة . وفيها أن الندامه لاتنفع إذا حان القدر ونفذ الأمر الحتم بالله المستعان وعليه التكلان *

قصة أصحاب الجنة

قال الله تعالى (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون .فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون .أن لايدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها انا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .
وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من ارسال الرسول العظيم الكريم اليهم فقابلوه بالتكذيب والمخالفة كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار) . قال ابن عباس هم كفار قريش فضرب تعالى لهم مثلا بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التى قد انتهت واستحقت أن تجد وهو الصرام ولهذا قال (اذ أقسموا) فيما بينهم (ليصرمنها) أى ليجدنها وهو الاستغلال (مصبحين) أى وقت الصبح حيث لايراهم فقير ولا محتاج فيعطوه شيئاً فحلفوا على ذلك ولم يستثنوا فى يمينهم فعجزهم الله وسلط عليها الآفة التى احرقتها وهى السفعة التى اجتاحتها ولم تبق بها شيئاً ينتفع به ولهذا قال (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم) أى كالليل الأسود المنصرم من الضياء وهذه معاملة بنقيض المقصود (فتنادوا مصبحين) أى فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضاً قائلين (أغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين) أى باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويكثر السؤال (فانطلقوا وهم يتخافتون) أى يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين (لايدخلنها اليوم عليكم مسكين) أى اتفقوا على هذا واشتوروا عليه (وغدوا على حرد قادرين) أى انطلقوا مجدين فى ذلك قادرين عليه مضمرين على هذه النية الفاسدة .وقال عكرمة والشعبى (وغدوا على حرد) أى غضب على المساكين وأبعد السدى فى قوله أن اسم حرثهم حرد (فلما رأوها) أى وصلوا اليها ونظروا ماحل بها وما قد صارت اليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة والحسن والبهجة فانقلبت بسبب النية الفاسدة فعند ذلك (قالوا انا لضالون) أى قد تهنا عنها وسلكنا غير طريقها ثم قالوا (بل نحن محرومون) أى بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا وحرمنا بركة حرثنا (قال أوسطهم) . قال ابن عباس

ومجاهد وغير واحد هو أعدلهم وخيرهم (ألم أقل لكم لولا تسبحون) قيل تستثنون قاله مجاهد والسدى وابن جرير وقيل تقولون خيراً بدل ما قلتم من الشر (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين). فندموا حيث لا ينفع الندم واعترفوا بالذنب بعد العقوبة وذلك حيث لا ينجع وقد قيل ان هؤلاء كانوا اخوة وقد ورثوا هذه الجنة من أبيهم وكان يتصدق منها كثيراً فلما صار أمرها اليهم استهجنوا أمر أبيهم وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً فعاقبهم الله أشد العقوبة ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار وحث على ذلك يوم الجداد كما قال تعالى (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده) ثم قيل كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها ضروان. وقيل من أهل الحبشة والله أعلم قال الله تعالى (كذلك العذاب) أى هكذا نعذب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا (ولعذاب الآخرة أكبر) أى أعظم وأحكم من عذاب الدنيا (لو كانوا يعلمون). وقصة هؤلاء شبيه بقوله تعالى (ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) قيل هذا مثل مضروب لأهل مكة وقيل هم أهل مكة أنفسهم ضربهم مثلا لأنفسهم ولا ينافى ذلك والله أعلم اه

قصة أصحاب أيلة الذين اعتدوا فى سبتهم

قال الله تعالى فى سورة الاعراف (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون. وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون. فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وقال تعالى فى سورة البقرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) وقال تعالى فى سورة النساء (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا). قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وغيرهم هم أهل ايلة. زاد ابن عباس بين مدين والطور. قالوا وكانوا متمسكين بدين التوراة فى تحريم السبت فى ذلك الزمان فكانت الحيتان قد ألفت منهم السكينة فى مثل هذا اليوم وذلك أنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه وكذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب فكانت الحيتان فى مثل يوم السبت يكثر غشيانها محلتهم من البحر فتأتى من ههنا وههنا ظاهرة آمنة مسترسلة فلا يهيجونها ولا يذعرونها (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت

قال الله تعالى (كذلك نبلوهم) أى نختبرهم بكثرة الحيتان فى يوم السبت (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم المتقدم فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها فى يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص وحفروا الحفر التى يجرى منها الماء الى مصانع قد أعدوها إذا دخلها السمك لايستطيع أن يخرج منها ففعلوا ذلك فى يوم الجمعة فاذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقت بهذه المصايد فاذا خرج سبتهم أخذوها فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره وانتهكوا محارمه بالحيل التى هى ظاهرة الناظر وهى فى الباطن مخالفة محضة فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين . فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه فى ذلك الزمان . وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا (لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً) يقولون ما الفائدة فى نهيكم هؤلاء وقد استحقوا العقوبة لامحالة فأجابتهم الطائفة المنكرة بان قالوا (معذرة إلى ربكم) أى فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فنقوم به خوفا من عذابه (ولعلهم يتقون) أى ولعل هؤلاء يتركون ماهم عليه من هذا الصنيع فيقيهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رجعوا واستمعوا . قال الله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به) أى لم يلتفتوا الى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع (أنجينا الذين ينهون عن السوء) وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر (وأخذنا الذين ظلموا) وهم المرتكبون الفاحشة (بعذاب بئيس) وهو الشديد المؤلم الموجع (بما كانوا يفسقون) . ثم فسر العذاب الذى أصابهم بقوله (فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) . وسنذكر ما ورد من الآثار فى ذلك .

والمقصود هنا أن الله اخبر أنه أهلك الظالمين ونجى المؤمنين المنكرين وسكت عن الساكتين . وقد اختلف فيهم العلماء على قولين فقيل إنهم من الناجين وقيل إنهم من الهالكين والصحيح الأول عند المحققين وهو الذى رجع اليه ابن عباس أمام المفسرين وذلك عن مناظرة مولاه عكرمة فكساه من أجل ذلك حلة سنية تكرمة . قلت وانما لم يذكروا مع الناجين لأنهم وان كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة إلا أنهم كان ينبغى لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به من الانكار القولى الذى هو أوسط المراتب الثلاث التى أعلاها الانكار باليد ذات البنان وبعدها الانكار القولى باللسان وثالثها الانكار بالجنان فلما لم يذكروا نجوا مع الناجين إذ لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروها . وقد روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس وحكى مالك عن ابن رومان وشيبان عن قتادة وعطاء الخراسانى ما مضمونه أن الذين ارتكبوا هذا الصنع اعتزلهم بقية أهل البلد ونهاهم من نهاهم منهم فلم يقبلوا فكانوا يبيتون وحدهم ويغلقون بينهم وبينهم أبواباً حاجزاً لما كانوا يترقبون من هلاكهم فأصبحوا ذات يوم وأبواب ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها وارتفع النهار واشتد الضحاء فأمر بقية أهل البلد رجلاً أن يصعد على سلالم ويشرف عليهم من فوقهم فلما أشرف عليهم إذاهم قردة لها أذناب يتعاوون ويتعادون ففتحوا عليهم الابواب

فجعلت القردة تعرف قراباتهم ولا يعرفهم قراباتهم فجعلوا يلوذون بهم ويقول لهم الناهون ألم ننهكم عن صنيعكم فتشير القردة برؤسها أن نعم . ثم بكى عبد الله بن عباس وقال إنا لنرى منكرات كثيرة ولا ننكرها ولا نقول فيها شيئاً . وقال العوفى عن ابن عباس صار شباب القرية قردة وشيوخها خنازير . وروى ابن أبى حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس أنهم لم يعيشوا إلا فواقا ثم هلكوا ما كان لهم نسل وقال الضحاك عن ابن عباس أنه لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل هؤلاء ولم يشربوا ولم ينسلوا وقد استقصينا الآثار فى ذلك فى تفسير سورة البقرة والاعراف . ولله الحمد والمنة . وقد روى ابن أبى حاتم وابن جرير من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وخنازير وانما هو مثل ضربه الله (كمثل الحمار يحمل اسفارا)وهذا صحيح اليه وغريب منه جداً ومخالف لظاهر القرآن ولما نص عليه غير واحد من السلف والخلف والله أعلم * ﴿ قصة أصحاب القرية ﴾ (إذ جاءها المرسلون) تقدم ذكرها قبل قصة موسى عليه السلام ﴿ قصة سبأ ﴾ سيأتى ذكرها فى أيام العرب إن شاء الله تعالى وبه الثقة * ﴿ قصة قارون وقصة بلعام ﴾ تقدمتا فى قصة موسى وهكذا (قصة الخضر) و (قصة فرعون والسحرة) كلها فى ضمن قصة موسى و(قصة البقرة) تقدمت فى قصة موسى وقصة (الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) فى قصة حزقيل وقصة (الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى) فى قصة شمويل وقصة (الذى مر على قرية) فى قصة عزير *

﴿ قصة لقمان ﴾

قال تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى حميد . وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأتى بها الله إن الله لطيف خبير . يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الاصوات لصوت الحمير) . هو لقمان بن عنقاء بن سدون . ويقال لقمان بن ثاران حكاه السهيلى عن ابن جرير والقتبى . قال السهيلى وكان نوبيا من أهل أيلة . قلت وكان رجلا صالحاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة ويقال كان قاضيا فى زمن داود عليه السلام فالله أعلم . وقال سفيان الثورى عن الاشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال كان

عبداً حبشياً نجاراً . وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى اليكم فى شأن لقمان قال كان قصيرا افطس من النوبة . وقال يحيى بن سعيد الانصارى عن سعيد بن المسيب قال كان لقمان من سودان مصر ذو مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . وقال الأوزاعى حدثنى عبد الرحمن بن حرملة قال جاء اسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد لا تحزن من أجل انك اسود فانه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر ولقمان الحكيم كان أسود نوبيا ذا مشافر . وقال الاعمش عن مجاهد كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين وفى رواية مصفح القدمين . وقال عمر بن قيس كان عبداً اسود غليظ الشفتين مصفح القدمين فأتاه رجل وهو فى مجلس أناس يحدثهم فقال له ألست الذى كنت ترعى معى الغنم فى مكان كذا وكذا قال نعم قال فما بلغ بك ما أرى قال صدق الحديث والصمت عما لا يعنينى رواه ابن جرير عن ابن حميد عن الحكم عنه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الرحمن ابن أبى يزيد بن جابر قال إن الله رفع لقمان الحكيم لحكمته فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال ألست عبد بن فلان الذى كنت ترعى غنمى بالامس قال بلى قال فما بلغ بك ماأرى قال قدر الله واداء الأمانة وصدق الحديث وترك مالا يعنينى وقال ابن وهب أخبرنى عبد الله بن عياش القتبانى عن عمر مولى غفرة قال وقف رجل على لقمان الحكيم فقال أنت لقمان أنت عبد بنى النحاس قال نعم قال فأنت راعى الغنم الاسود قال أما سوادى فظاهر فما الذى يعجبك من أمرى قال وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك قال ياابن أخى إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك قال ماهو قال لقمان غضى بصرى وكفى لسانى وعفة مطعمى وحفظى فرجى وقيامى بعدلى ووفائى بعهدى وتكرمتى ضيفى وحفظى جارى وتركى مالا يعنينى فذاك الذى صيرنى كما ترى وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن فضيل حدثنا عمرو بن واقد عن عبدة ابن رباح عن ربيعة عن أبى الدرداء أنه قال يوما وذكر لقمان الحكيم فقال ما أوتى عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ولكنه كان رجلا ضمضامة سكيتاً طويل التفكر عميق النظر لم ينم نهاراً قط ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم وكان يغشى السلطان ويأتى الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر فبذلك أوتى ما أوتى * ومنهم من زعم أنه عرضت عليه النبوة فخاف أن لا يقوم باعبائها فاختار الحكمة لأنها اسهل عليه وفى هذا نظر والله أعلم . وهذا مروى عن قتادة كما سنذكره . وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من طريق وكيع عن اسرائيل عن جابر الجعفى عن عكرمة أنه قال كان لقمان نبياً وهذا ضعيف لحال الجعفى .

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيا وليا ولم يكن نبيا وقد ذكره الله تعالى فى القرآن فأثنى عليه وحكى من كلامه فيا وعظ به ولده الذى هو أحب الخلق اليه وهو أشفق الناس عليه فكان من أول ما وعظ به أن قال (يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) . فنهاه عنه وحذره منه . وقد قال البخارى حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله (ص) وقالوا أينا لم يلبس ايمانه بظلم فقال رسول الله (ص) إنه ليس بذاك ألم تسمع الى قول لقمان (يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) رواه مسلم من حديث سليمان بن مهران الاعمش به ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين وبيان حقهما على الولد وتأكده وأمر بالاحسان اليهما حتى ولو كانا مشركين ولكن لا يطاعان على الدخول فى دينهما الى أن قال مخبرا عن لقمان فيا وعظ به ولده (يا بنى أنها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الارض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبة خردل فان الله يسأل عنها ويحضرها حوزة الحساب ويضعها فى الميزان كما قال تعالى (ان الله لا يظلم مثقال ذرة) وقال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وأخبره أن هذا الظلم لو كان فى الحقارة كالخردلة ولو كان فى جوف صخرة صماء لا باب لها ولا كوة أولو كانت ساقطة فى شىء من ظلمات الارض أو السموات فى اتساعها وامتداد أرجائها لعلم الله مكانها (إن الله لطيف خبير) أى علمه دقيق فلا يخفى عليه الذر مما ترا آى للنواظر أو توارى كما قال تعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين) وقال (ومامن غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين) وقال (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين) وقد زعم السدى فى خبره عن الصحابة أن المراد بهذه الصخرة الصخرة التى تحت الارضين السبع وهكذا حكى عن عطية العوفى وأبى مالك والثورى والمنهال بن عمر وغيرهم وفى صحة هذا القول من أصله نظر . ثم ان فى هذا هو المراد نظر آخر فان هذه الآية نكرة غير معرفة فلو كان المراد بها ما قالوه لقال فتكن فى الصخرة وانما المراد فتكن فى صخرة أى صخرة كانت كما قال الامام احمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله (ص) قال لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا ما كان ثم قال (يا بنى أقم الصلاة) أى أدها بجميع واجباتها من حدودها وأوقاتها وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وما شرع فيها واجتنب ما ينهى عنه فيها . ثم قال (وامر بالمعروف وانه عن المنكر) أى بجهدك وطاقتك أى ان استطعت باليد فباليد والا فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك ثم أمره بالصبر فقال (واصبر على ما أصابك) وذلك ان

الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر فى مظنة أن يعادى وينال منه ولكن له العاقبة ولهذا أمره بالصبر على ذلك ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج وقوله (ان ذلك من عزم الأمور) التى لابد منها ولا محيد عنها . وقوله (ولا تصعر خدك الناس) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك ويزيد بن الاصم وأبو الجوزاء وغير واحد معناه لا تتكبر على الناس وتميل خدك حال كلامك لهم وكلامهم لك على وجه التكبر عليهم والازدراء لهم . قال أهل اللغة وأصل الصعر داء يأخذ الابل فى أعناقها فتلتوى رؤسها فشبه به الرجل المتكبر الذى يميل وجهه اذا كلم الناس أو كلموه على وجه التعظم عليهم

قال أبو طالب فى شعره

وكُنّا قديماً لا نُقِرّ ظُلامةً ... اذا ماثَنَوا صُعْر الخدودِ نُقيمها

وقال عمرو بن حيى التغلبى ... وكنّا إذا الجبّار صَعّر خدّه ... أقمنا لهُ من مَيْلِه فتقوّما

وقوله (ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور) ينهاه عن التبختر فى المشية على وجه العظمة والفخر على الناس كما قال تعالى (ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا) . يعنى لست بسرعة مشيك تقطع البلاد فى مشيتك هذه ولست بدقك الارض برجلك تخرق الارض بوطئك عليها ولست بتشامخك وتعاظمك وترفعك تبلغ الجبال طولا فاتئد على نفسك فلست تعدو قدرك . وقد ثبت فى الحديث بينا رجل يمشى فى برديه يتبختر فيهما اذ خسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وفى الحديث الآخر (اياك واسبال الازار فانها من المخيلة لا يحبها الله) كما قال فى هذه الآية (ان الله لا يحب كل مختال فخور) ولما نهاه عن الاختيال فى المشى أمره بالقصد فيه فانه لا بد له أن يمشى فنهاه عن الشر وأمره بالخير فقال واقصد فى مشيك أى لا تباطأ مفرطا ولا تسرع اسراعا مفرطا ولكن بين ذلك قواما كما قال تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ثم قال (واغضض من صوتك) يعنى اذا تكلمت لا تتكلف رفع صوتك فان أرفع الاصوات وأنكرها صوت الحمير . وقد ثبت فى الصحيحين الامر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل فانها رأت شيطانا ولهذا نهى عن رفع الصوت حيث لا حاجة اليه ولا سيما عند العطاس فيستحب خفض الصوت وتخمير الوجه كما ثبت به الحديث من صنيع رسول الله ص . فاما رفع الصوت بالاذان وعند الدعاء الى الفئة للقتال وعند الاهلال ونحو ذلك فذلك مشروع فهذا مما قصه الله تعالى عن لقمان عليه السلام فى القرآن من الحكم والوصايا النافعة الجامعة للخير المانعة من الشر وقد وردت آثار كثيرة فى أخباره ومواعظه وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى بحكمة لقمان ونحن نذكر من ذلك ما تيسر إن شاء الله تعالى .

قال الامام أحمد حدثنا على بن اسحاق أنبأنا ابن المبارك أنبأنا سفيان أخبرنى نهيك بن يحمع الضبى

عن قزعة عن ابن عمر قال أخبرنا رسول الله (ص) قال إن لقمان الحكيم كان يقول إن الله إذا استودع شيئاً حفظه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا عيسى بن يونس عن الاوزاعي عن موسى ابن سليمان عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله (ص) قال قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني إياك والتقنع فانه مخوفة بالليل مذمة بالنهار وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عمارة حدثنا ضمرة حدثنا السرى بن يحيى قال لقمان لابنه (يابني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك) وحدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان أنبأنا ابن المبارك أنبأنا عبدالرحمن المسعودى عن عون بن عبدالله قال قال لقمان لابنه يا بني إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الاسلام يعني السلام ثم اجلس بناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا فان أفاضوا في ذكر الله فاجل سهمك مع سهمهم وان أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم الى غيرهم وحدثنا أبي حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا ضمرة عن حفص بن عمر قال وضع لقمان جرابا من خردل الى جانبه وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفد الخردل فقال يابني لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطر قال فتفطر ابنه. وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني حدثنا عثمان ابن عبد الرحمن الطرائفي عن ابن سفيان المقدسي عن خليفة بن سلام عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) (اتخذوا السودان فان ثلاثة منهم من أهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن قال الطبراني يعني الحبشي وهذا حديث غريب منكر وقد ذكر له الامام أحمد في كتاب الزاهد ترجمة ذكر فيها فوائد مهمة جمة فقال حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن رجل عن مجاهد (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال الفقه والاصابة في غير نبوة. وكذا روى عن وهب بن منبه وحدثنا وكيع حدثنا سفيان عن أشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال كان لقمان عبداً حبشيا وحدثنا اسود حدثنا حماد عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب أن لقمان كان خياطاً وحدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك يعني بن دينار قال قال لقمان لابنه يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة. وحدثنا يزيد حدثنا أبو الاشهب عن محمد بن واسع قال كان لقمان يقول لابنه يابني اتق الله ولا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر. وحدثنا يزيد بن هرون ووكيع قالا حدثنا أبو الاشهب عن خالد الربعي قال كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً فقال له سيده اذبح لى شاة فذبح له شاة فقال ائتني بأطيب مضغتين فيها فأتاه باللسان والقلب فقال اما كان فيها شيء أطيب من هذين قال لا قال فسكت عنه ماسكت ثم قال له اذبح لى شاة فذبح له شاة فقال له والق أخبثها مضغتين فرمى باللسان والقلب فقال أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب وأمرتك أن تلقى أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب فقال له إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا. وحدثنا داود بن رشيد حدثنا ابن المبارك حدثنا معمر عن أبي عثمان رجل من أهل البصرة يقال له الجعد أبو عثمان قال قال لقمان لابنه لا ترغب في ود الجاهل

فيرى أنك ترضى عمله ولا تهاون بحقت الحكيم فيزهده فيك . وحدثنا داود بن أسيد حدثنا اسماعيل ابن عياش عن ضمضم ابن زرعة عن شريح بن عبيد الحضرمى عن عبد الله بن زيد قال قال لقمان ألا أن يد الله على أفواه الحكماء لا يتكلم أحدهم إلا ماهيأ الله له . وحدثنا عبد الرزاق سمعت بن جريج قال كنت أقنع رأسى بالليل فقال لى عمر أما علمت أن لقمان قال القناع بالنهار مذلة معذرة أو قال معجزة بالليل فلم تقنع رأسك بالليل قال قلت له إن لقمان لم يكن عليه دين . وحدثنى حسن بن الجنيد حدثنا سفيان قال لقمان لابنه يابنى ما ندمت على السكوت قط وان كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وحدثنا عبد الصمد ووكيع قالا حدثنا أبو الاشهب عن قتادة أن لقمان قال لابنه يا بنى اعتزل الشر يعتزلك فإن الشر للشر خلق . وحدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال مكتوب فى الحكمة يا بنى إياك والرغب فان الرغب كل الرغب يبعد القريب من القريب ويزيل الحكم كما يزيل الطرب . يا بنى إياك وشدة الغضب فان شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم . قال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبى مليكة عن عبيد بن عمير قال قال لقمان لابنه وهو يعظه (يا بنى اختر المجالس على عينك فاذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم فانك إن تك عالما ينفعك علمك وإن تك غبياً يعلموك وان يطلع الله عليهم برحمة تصيبك معهم . يابنى لاتجلس فى المجلس الذى لايذكر الله فيه فانك إن تك عالما لا ينفعك علمك وان تك غبيا يزيدوك غبيا وان يطلع الله إليهم بعد ذلك بسخط يصيبك معهم يا بنى لا تغبطوا أمراء رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين فان له عند الله قاتلا لا يموت.

وحدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال مكتوب فى الحكمة (بنى لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء) وقال مكتوب فى الحكمة أو فى التوراة (الرفق رأس الحكمة) وقال مكتوب فى التوراة كما ترحمون تُرحمون وقال مكتوب فى الحكمة (كما تزرعون تحصدون) وقال مكتوب فى الحكمة أحب خليلك أوخليل أبيك . وحدثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبى قلابة قال (قيل للقمان أى الناس أصبر قال صبر لا يتبعه أذى . قيل فأى الناس أعلم قال من ازداد من علم الناس إلى علمه . قيل فأى الناس خير قال الغنى . قيل الغنى من المال قال لا ولكن الغنى الذى إذا التمس عنده خير وجد والا أغنى نفسه عن الناس .

وحدثنا سفيان هو ابن عيينة قال قيل للقمان أى الناس شر قال الذى لا يبالى أن يراه الناس مسيئاً. وحدثنا أبو الصمد عن مالك بن دينار قال وجدت فى بعض الحكمة يبدد الله عظام الذين يتكلمون باهواء الناس ووجدت فيها لا خير لك فى أن تعلم ما لم تعلم ولما تعمل بما قد علمت فان مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً فحزم حزمة ثم ذهب يحملها فعجز عنها فضم إليه أخرى . وقال عبد الله بن أحمد حدثنا الحكم بن أبى زهير وهو الحكم بن موسى حدثنا الفرج بن فضالة عن أبى سعيد قال قال لقمان لابنه

إياى لا يأكل طعامك إلا الاتقياء وشاور فى أمرك العلماء . وهذا مجموع ماذكره الامام أحمد فى هذه المواضع وقد قدمنا من الآثار كثيراً لم يروها كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا العباس بن الوليد حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة قال خير الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة على النبوة قال فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة قال فأصبح ينطق بها . قال سعيد سمعت قتادة يقول قيل لقمان كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك فقال إنه لو أرسل إلى بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه ولكنت أرجو أن أقوم بها ولكن خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحب إلى . وهذا فيه نظر لأن سعيد بن بشير عن قتادة قد تكلموا فيه والذى رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة فى قوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال يعنى الفقه والاسلام ولم يكن نبياً ولم يوح اليه . وهكذا نص على هذا غير واحد من السلف منهم مجاهد وسعيد بن المسيب وابن عباس والله أعلم *

قصة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى (والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) . قد تكلمنا على ذلك مستقصى فى تفسير هذه السورة ولله الحمد . وقد زعم محمد بن اسحاق أنهم كانوا بعد مبعث المسيح وخالفه غيره فزعموا أنهم كانوا قبله . وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرر فى العالم مراراً فى حق المؤمنين من الجبارين الكافرين ولكن هؤلاء المذكورون فى القرآن قد ورد فيهم حديث مرفوع وأثر أورده ابن اسحاق وهما متعارضان وها نحن نوردهما لتقف عليهما . قال الامام أحمد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب أن رسول الله ص قال كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك انى قد كبرت سنى وحضر أجلى فادفع إلى غلاماً فلأعلمه السحر فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر وكان بين الملك وبين الساحر راهب فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال ماحبسك وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا ماحبسك فشكا ذلك إلى الراهب فقال إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حبسنى أهلى وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل حبسنى الساحر قال فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا فقال اليوم أعلم أمر الساحر أحب إلى الله ام أمر الراهب قال فأخذ حجراً فقال اللهم إن كان أمر الراهب

أحب اليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ورماها فقتلها ومضى فأخبر الراهب بذلك فقال أى بنى أنت أفضل منى وانك ستبتلى فان ابتليت فلا تدل على فكان الغلام يبرىء الاكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم الله على يديه وكان جليس الملك فعمى فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال اشفنى ولك ماههنا اجمع فقال ما أنا اشفى أحدا إنما يشفى الله عز وجل فان آمنت به ودعوت الله شفاك فآمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ماكان يجلس فقال له الملك يافلان من رد عليك بصرك فقال ربى قال أنا قال لا ربى وربك الله قال ولك رب غيرى قال نعم ربى وربك الله فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فأتى به فقال أى بنى بلغ من سحرك أن تبرىء الاكمه والابرص وهذه الادواء قال ما أشفى أنا أحداً انما يشفى الله عز وجل قال أنا قال لا قال أولك رب غيرى قال ربى وربك الله قال فأخذه أيضا بالعذاب ولم يزل به حتى دل على الراهب فأتى الراهب فقال ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه وقال للاعمى ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه وقال للغلام ارجع عن دينك فأبى فبعث به مع نفر الى جبل كذا وكذا وقال اذا بلغتم ذروته فان رجع عن دينه والا فدهدهوه فذهبوا به فلما علوا الجبل قال اللهم أكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال مافعل أصحابك فقال كفانيهم الله فبعث به مع نفر فى قرقورة فقال اذا لججتم البحر فان رجع عن دينه والا فاغرقوه فى البحر فلججوا به البحر فقال الغلام (اللهم اكفنيهم بما شئت فغرقوا أجمعون وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال مافعل أصحابك فقال كفانيهم الله. ثم قال للملك انك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به فان أنت فعلت ما آمرك به قتلتنى والا فانك لا تستطيع قتلى قال وما هو قال تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تصلبنى على جذع وتأخذ سهما من كنانتى. ثم قل بسم الله رب الغلام فانك اذا فعلت ذلك قتلتنى ففعل ووضع السهم فى كبد القوس ثم رماه وقال بسم الله رب الغلام فوقع السهم فى صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام فقيل للملك أرأيت ما كنت تحذر فقد والله نزل بك قد آمن الناس كلهم فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الاخاديد وأضرمت فيها النيران وقال من رجع عن دينه فدعوه والا فأقحموه فيها وقال فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع فى النار فقال الصبى اصبرى يا أماه فانك على الحق كذا رواه الامام احمد ورواه مسلم والنسائى من حديث حماد بن سلمة زاد النسائى وحماد بن زيد كلاهما عن ثابت به ورواه الترمذى من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ثابت باسناده نحوه وبيرد ايراده كما بسطنا ذلك فى التفسير

وقد أورد محمد ابن اسحاق هذه القصة على وجه آخر فقال حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب وحدثنى أيضا بعض أهل نجران عن أهلها أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الاوثان وكان فى

قرية من قراها قريبا من نجران (ونجران هي القرية العظمى التي اليها جماع أهل تلك البلاد) ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر فلما نزلها فيمون ولم يسموه لى بالاسم الذي سماه ابن منبه قالوا رجل نزلها فابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم الى ذلك الساحر يعلمهم السحر فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران فكان اذا مر بصاحب الخيمة أعجبه مايرى من عبادته وصلاته فجعل يجلس اليه ويسمع منه حتى أسلم فوحد الله وعبده وجعل يسأله عن شرائع الاسلام حتى اذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الاعظم وكان يعلمه فكتمه اياه وقال له يا بن أخي انك لن تحمله أخشى ضعفك عنه والثامر لايظن الا أن ابنه عبد الله يختلف الى الساحر كما يختلف الغلمان فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه وتخوف ضعفه فيه عمد الى قداح فجمعها ثم لم يبق لله اسما يعلمه الا كتبه في قدح لكل اسم قدح حتى اذا أحصاها أوقد نارا ثم جعل يقذفها قدحا قدحا حتى اذا مر بالاسم الاعظم قذف فيها بقدحه فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئا فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الاعظم الذي قد كتمه فقال وماهو قال كذا وكذا قال وكيف علمته فأخبره بما صنع قال أى ابن أخي قد أصبته فأمسك على نفسك وما أظن أن تفعل فجعل عبد الله بن الثامر اذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر الا قال ياعبدالله أتوحد الله وتدخل في ديني وأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء ودعا له فبرئ حتى رفع شأنه الى ملك نجران فدعاه فقال أفسدت على أهل قريتي وخالفت ديني ودين آبائي لأمثلن بك قال لاتقدر على ذلك فجعل يرسل به الى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع الى الارض مابه بأس وجعل يبعث به الى مياه بنجران بحور لايلقى فيها شيء الا هلك فيلقى به فيها فيخرج ليس به بأس فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر والله لاتقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به فانك ان فعلت سلطت علي فقتلتني قال فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ثم ضربه بعصا في يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله وهلك الملك مكانه واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر وكان على ماجاء به عيسى بن مريم من الانجيل وحكمه ثم أصابهم ماأصاب أهل دينهم من الاحداث فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران قال ابن اسحاق فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر فالله أعلم أى ذلك كان قال فسار اليهم ذو نواس بجنده فدعاهم الى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل فاختاروا القتل فخدوا الاخدود وحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم فقتل منهم قريبا من عشرين الفا ففي ذي نواس وجنده أنزل الله على رسوله (قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود الآيات) وهذا يقتضي أن هذه القصة غير ماوقع في سياق مسلم وقد زعم بعضهم أن الاخدود وقع في العالم كثيراً كما قال ابن أبي حاتم. حدثنا أبي حدثنا أبو اليمان أنبأنا صفوان عن عبدالرحمن ابن جبير قال كانت الاخدود في اليمن زمان تبع وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى

قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد واتخذ أخدودا وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد وفي العراق في أرض بابل في زمان بخت نصر حين صنع الصنم وأمر الناس فسجدوا له فامتنع دانيال وصاحباه عزريا ومشايل فأوقد لهم أخدودا وألقى فيها الحطب والنار ثم ألقاهما فيه فجعلها الله عليهم برداً وسلاما وأنقذهم منها وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط فأكلتهم النار وقال اسباط عن السدي في قوله (قتل أصحاب الأخدود) قال كان الأخدود ثلاثة خد بالشام وخد بالعراق وخد باليمن رواه بن أبي حاتم . وقد استقصيت ذكر أصحاب الأخدود والكلام على تفسيرها في سورة البروج ولله الحمد والمنة ●

بيان الإذن في الرواية عن أخبار بني إسرائيل

قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا همام حدثنا زيد عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) قال قال (حدثوا عني ولا تكذبوا علي ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج) . وقال أيضاً حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) قال قال (لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه وقال حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج حدثوا عني ولا تكذبوا علي قال ومن كذب علي قال همام احسبه قال متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) وهكذا رواه مسلم والنسائي من حديث همام ورواه أبو عوانة الاسفرايني عن أبي داود السجستاني عن هدبة عن همام عن زيد بن أسلم به ثم قال قال أبو داود اخطأ فيه همام وهو من قول أبي سعيد كذا قال وقد رواه الترمذي عن سفيان عن وكيع عن سفيان بن عيينة عن زيد بن أسلم بمعناه مرفوعاً فالله أعلم قال الامام أحمد حدثنا الوليد بن مسلم أنبأنا الاوزاعي حدثنا حسان بن عطية حدثني أبو كبشة السلولي أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدثه أنه سمع رسول الله (ص) يقول بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار . ورواه أحمد أيضا عن عبد الله بن نمير وعبد الرزاق كلاهما عن الاوزاعي به وهكذا رواه البخاري عن أبي عاصم النبيل عن الاوزاعي به وكذا رواه الترمذي عن بندار عن أبي عاصم ثم رواه عن محمد بن يحيى الذهلي عن محمد بن يوسف الفريابي عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية وقال حسن صحيح وقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى أبو موسى حدثنا هشام بن معاوية حدثنا أبي عن قتادة عن أبي حسان عن عبدالله بن عمرو قال كان نبي الله (ص) يحدثنا عامة ليلة عن بني اسرائيل حتى نصبح ما نقوم فيها الا لعظم صلاة ورواه ابوداود عن محمد بن مثنى ثم قال البزار حدثنا محمد بن مثنى حدثنا عفان حدثنا ابو هلال عن قتادة عن ابي حسان عن عمران بن حصين قال كان رسول الله (ص) يحدثنا

عامة ليلة عن بني اسرائيل لا يقوم الا لعظم صلاة قال البزار وهشام احفظ من أبي هلال يعني أن الصواب عن عبد الله بن عمرو لا عن عمران بن حصين والله أعلم . وقال الامام أحمد حدثنا يحيى هو القطان عن محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج اسناد صحيح ولم يخرجوه . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا وكيع حدثنا ربيع بن سعد الجعفي عن عبد الرحمن ابن سابط عن جابر قال قال رسول الله (ص) حدثوا عن بني اسرائيل فانه قد كان فيهم الاعاجيب ثم أنشأ يحدث (ص) قال خرجت طائفة من بني اسرائيل حتى أتوا مقبرة من مقابرهم فقالوا لو صلينا ركعتين ودعونا الله عز وجل فيخرج لنا رجلا قد مات نسأله يحدثنا عن الموت ففعلوا فبيناهم كذلك اذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك القبور بين عينيه أثر السجود فقال يا هؤلاء ما أردتم الي فقد مت منذ مائة عام فما سكنت عني حرارة الموت حتى الآن فادعوا الله أن يعيدني كما كنت وهذا حديث غريب اذا تقرر جواز الرواية عنهم فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحا فاما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذي بايدينا عن المعصوم فذاك متروك مردود لا يعرج عليه ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحته لما رواه البخاري قائلا حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر حدثنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام فقال رسول الله (ص) (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) تفرد به البخاري من هذا الوجه .

وروى الامام أحمد من طريق الزهري عن أبي نملة الانصاري عن أبيه أنه كان جالساً عند رسول الله (ص) فقال اذا جاء رجل من اليهود فقال يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة فقال رسول الله (ص) الله أعلم فقال اليهودي أنا أشهد أنها تتكلم فقال رسول الله (ص) (اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان كان حقا لم تكذبوهم وان كان باطلا لم تصدقوهم) تفرد به أحمد وقال الامام أحمد حدثنا شريح بن النعمان حدثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي (ص) بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي (ص) قال فغضب وقال أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي به لقد جئتكم به بيضاء نقية لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي به لو أن موسى كان حيا ما وسعه الا أن يتبعني . تفرد به أحمد واسناده على شرط مسلم فهذه الاحاديث دليل على أنهم قد بدلوا ما بايديهم من الكتب السماوية وحرفوها واولوها ووضعوها على غير مواضعها ولا سيما ما يبدونه من المعربات التي لم يحيطوا بها علما وهي بلغتهم فكيف يعبرون عنها بغيرها ولاجل هذا وقع في تعريبهم خطأ كبير ووهم كثير مع مالهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة وهذا يتحققه من نظر في

كتبهم التي بأيديهم وتأمل ما فيها من سوء التعبير وقبيح التبديل والتغيير وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير . وهذه التوراة التي يبدونها ويخفون منها كثيرا فيا ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه وما أبدوه وما أخفوه وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب باطلة من حيث معناها وألفاظها . وهذا كعب الاحبار من أجود من ينقل عنهم وقد أسلم فى زمن عمر وكان ينقل شيئا عن أهل الكتاب فكان عمر رضى الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق وتأليفا لقلبه فتوسع كثير من الناس فى أخذ ما عنده وبالغ أيضا هو فى نقل تلك الأشياء التى كثير منها ما يساوى مداده . ومنها ما هو باطل لا محالة . ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذى بأيدينا . وقد قال البخارى وقال أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال ان كان من اصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وان كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب يعنى من غير قصد منه . وروى البخارى من حديث الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال . كيف يسألون أهل الكتاب عن شئ وكتابكم الذى أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله تقرأونه محضا لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا الا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل والله أعلم •

قصة جريج أحد عباد بنى اسرائيل

قال الامام أحمد حدثنا وهب بن جرير حدثنى أبى سمعت محمد بن سيرين يحدث عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص) لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم قال وكان فى بنى اسرائيل رجل عابد يقال له جريج فابتنى صومعة وتعبد فيها قال فذكر بنو اسرائيل عبادة جريج فقالت بغى منهم لئن شئتم لافتننه فقالوا قد شئنا ذلك قال فاتته فتعرضت له فلم يلتفت اليها فامكنت نفسها من راع كان يؤوى غنمه الى أصل صومعة جريج فحملت فولدت غلاماً فقالوا ممن قالت من جريج فاتوه فاستنزلوه فشتموه وضربوه وهدموا صومعته فقال ما شأنكم قالوا انك زنيت بهذه البغى فولدت غلاما فقال وأين هو قالوا هو هذا قال فقام فصلى ودعا ثم انصرف الى الغلام فطعنه باصبعه فقال بالله يا غلام من أبوك فقال انا ابن الراعى فوثبوا الى جريج فجعلوا يقبلونه وقالوا نبنى صومعتك من ذهب قال لا حاجة لى فى ذلك ابنوها من طين كما كانت قال وبينا امرأة فى حجرها ابن لها ترضعه اذ مر بها راكب ذو شارة فقالت

اللهم اجعل ابنى مثل هذا قال فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال اللهم لا تجعلنى مثله قال ثم عاد الى ثديها فمصه . قال أبو هريرة : كأنى أنظر الى رسول الله (ص) يحكى صنيع الصبى ووضع اصبعه فى فيه يمصها . ثم مرت بأمة تضرب فقالت اللهم لا تجعل ابنى مثلها قال فترك ثديها وأقبل على الامة فقال اللهم اجعلنى مثلها قال فذاك حين تراجعا الحديث فقالت خلفى مر الراكب ذو الشارة فقلت اللهم اجعل ابنى مثله فقلت اللهم لا تجعلنى مثله ومررت بهذه الامة فقلت اللهم لا تجعل ابنى مثلها قلت اللهم اجعلنى مثلها فقال يا أمتاه ان الراكب ذو الشارة جبار من الجبابرة وان هذه الأمة يقولون زنت ولم تزن وسرقت ولم تسرق وهى تقول حسبى الله وهكذا رواه البخارى فى أحاديث الانبياء وفى المظالم عن مسلم بن ابراهيم ومسلم فى كتاب الادب عن زهير بن حرب عن يزيد بن هرون كلاهما عن جرير بن حازم به طريق أخرى وسياق آخر .

قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا سليمان بن المغيرة حدثنا حميد بن هلال عن أبى رافع عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال كان جريج يتعبد فى صومعته قال فأتته أمه فقالت يا جريج أنا أمك وكلمنى قال وكان أبو هريرة يصف كيف كان رسول الله (ص) وضع يده على حاجبه الايمن قال وصادفته يصلى قال يارب أمى وصلاتى فاختار صلاته فرجعت ثم أتته فصادفته يصلى فقالت ياجريج أنا أمك فكلمنى فقال يارب أمى وصلاتى فاختار صلاته فقالت اللهم هذا جريج وانه ابنى وانى كلمته فأبى أن يكلمنى اللهم فلا تمته حتى تريه المومسات ، ولو دعت عليه أن يفتتن لافتتن قال وكان راع يأوى إلى ديره فخرجت امرأة فوقع عليها الراعى فولدت غلاماً فقيل ممن هـذا فقالت هو من صاحب الدير فأقبلوا بفؤسهم ومساحيهم وأقبلوا إلى الدير فنادوه فلم يكلمهم فأقبلوا يهدمون ديره فنزل اليهم فقالوا سل هذه المرأة قال أراه تبسم قال ثم مسح رأس الصبى فقال من أبوك قال راعى الضأن قالوا ياجريج نبنى ماهدمنا من ديرك بالذهب والفضة قال لا ولكن اعيدوه كما كان ففعلوا ورواه مسلم فى الاستئذان عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة به .

سياق آخر قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا ثابت عن أبى رافع عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال (كان فى بنى اسرائيل رجل يقال له جريج كان يتعبد فى صومعته فأتته أمه ذات يوم فنادته فقالت أى جريج أى بنى أشرف على أكلمك أنا أمك اشرف على فقال أى ربى صلاتى وأمى فأقبل على صلاته ثم عادت فنادته مراراً فقالت أى جريج أى بنى اشرف على فقال أى رب صلاتى وامى فأقبل على صلاته فقالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسة وكانت راعية ترعى غنما لأهلها ثم تأوى إلى ظل صومعته فأصابت فاحشة فحملت فأخذت . وكان من زنى منهم قتل فقالوا ممن قالت من جريج صاحب الصومعة فجاؤا بالفؤوس والمرور فقالوا أى جريج اى مرائى انزل فأبى وأقبل على صلاته يصلى فأخذوا فى هدم صومعته

فلما رأى ذلك نزل فجلوا إلى عنقه وعنقها حبلا فجلوا يطوفون بهما فى الناس فوضع أصبعه على بطنها قال اى غلام من أبوك قال أبى فلان راعى الضأن فقبلوه وقالوا إن شئت بنينا لك صومعتك من ذهب وفضة قال أعيدوها كما كانت وهذا سياق غريب واسناده على شرط مسلم ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه .

فهؤلاء ثلاثة تكلموا فى المهد عيسى بن مريم عليه السلام وقد تقدم الكلام على قصته وصاحب جريج بن البغى من الراعى كما سمعت واسمه يابوس كما ورد مصرحاً به فى صحيح البخارى والثالث ابن المرأة التى كانت ترضعه فتمنت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة فتمنى أن يكون كتلك الأمة المتهومة بما هى بريئة منه وهى تقول حسبى الله ونعم الوكيل كما تقدم فى رواية محمد بن سيرين عن أبى هريرة مرفوعا . وقد رواه الامام أحمد عن هوذة عن عوف الاعرابى عن خلاس عن أبى هريرة عن النبى (ص) بقصة هذا الغلام الرضيع وهو اسناد حسن .

وقال البخارى حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن الاعرج حدثه أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول الله (ص) قال بينا امرأة ترضع ابنها إذ مر بها راكب وهى ترضعه فقالت اللهم لاتمت ابنى حتى يكون مثل هذا فقال اللهم لاتجعلنى مثله ثم رجع فى الثدى ومر بامرأة تجر ويلعب بها قالت اللهم لاتجعل ابنى مثل هذه فقال اللهم اجعلنى مثلها فقال أما الراكب فانه كافر . وأما المرأة فانهم يقولون إنها تزنى وتقول حسبى الله ويقولون تسرق وتقول حسبى الله . وقد ورد فى من تكلم فى المهد أيضاً شاهد يوسف كما تقدم وابن ماشطة آل فرعون والله أعلم •

قصة برصيصا

وهى عكس قضية جريج فان جريجاً عصم وذاك فتن . قال ابن جرير حدثنى يحيى بن ابراهيم المسعودى أنبأنا أبى عن أبيه عن جده عن الاعمش عن عمارة عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين) . قال ابن مسعود وكانت امرأة ترعى الغنم وكان لها اخوة أربعة وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب قال فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها فانك رجل مصدق يسمع قولك فقتلها ثم دفنها قال فأتى الشيطان اخوتها فى المنام فقال لهم ان الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها فى مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجل منهم والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما ادرى اقصها عليكم أم أترك قالوا لا بل قصها علينا قال فقصها فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت ذلك فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت

ذلك قالوا فوالله ماهذا إلا لشيء فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه . ثم انطلقوا به فأتاه الشيطان فقال انى أنا أوقعتك فى هذا ولن ينجيك منه غيرى فاسجد لى سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه قال فسجد له فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل . وهكذا روى عن ابن عباس وطاوس ومقاتل ابن حيان نحو ذلك .

وقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بسياق آخر فقال ابن جرير حدثنا خلاد بن أسلم حدثنا النضر بن شميل أنبأنا شعبة عن أبى إسحاق سمعت عبد الله بن نهيك سمعت علياً يقول ان راهباً تعبد ستين سنة وان الشيطان أراده فأعياه فعمد الى امرأة فأجنها ولها اخوة فقال لاخوتها عليكم بهذا القس فيداويها قال فجاؤا بها اليه فداواها وكانت عنده فبينما هو يوما عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت فعمد اليها فقتلها فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب أنا صاحبك انك اعييتنى انا صنعت هذا بك فاطعنى أنجك مما صنعت بك اسجد لى سجدة فسجد له قال انى برئ منك انى أخاف الله رب العالمين فذلك قوله (كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برئ منك انى اخاف الله رب العالمين)

قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانطبق عليهم

فتوسلوا الى الله تعالى بصالح اعمالهم ففرج عنهم . قال الامام البخارى حدثنا اسماعيل بن خليل أخبرنا على بن مسهر عن عبيدالله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله (ص) قال بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون اذ اصابهم مطر فآووا الى غار فانطبق عليهم فقال بعضهم لبعض انه والله ياهؤلاء لا ينجيكم الا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم انه قد صدق فيه فقال واحد منهم (اللهم ان كنت تعلم أنه كان لى أجير عمل لى على فرق من أرز فذهب وتركه وانى عمدت الى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره انى اشتريت منه بقراً وانه اتانى يطلب اجره فقلت اعمد الى تلك البقر فسقها فقال لى انما لى عندك فرق من ارز فقلت له اعمد الى تلك البقر فانها من ذلك الفرق فساقها فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا) فانساخت عنهم الصخرة ، فقال الآخر (اللهم ان كنت تعلم كان لى ابوان شيخان كبيران وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لى فابطأت عنهما ليلة فجئت وقد رقدا وأهلى وعيالى يتضاغون من الجوع وكنت لا اسقيهم حتى يشرب أبواى فكرهت أن اوقظهما وكرهت ان ادعهما فيستكنا لشربتهما فلم ازل أنتظر حتى طلع الفجر فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا الى السماء ، فقال الآخر اللهم ان كنت تعلم أنه كانت لى ابنة عم من احب الناس الى وانى راودتها عن نفسها فأبت الا أن آتيها بمائة دينار فطلبتها حتى قدرت فاتيتها بها فدفعتها اليها فامكنتنى من نفسها فلما قعدت بين رجليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه فقمت وتركت المائة دينار فان كنت

تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا ، رواه مسلم عن سويد بن سعيد عن على بن مسهر به وقد رواه الامام احمد منفردا به عن مروان بن معاوية عن عمرو بن حمزة بن عبدالله بن عمر عن سالم عن ابيه عن النبى (ص.) بنحوه . ورواه الامام احمد من حديث وهب بن منبه عن النعمان بن بشير عن النبى (ص.) بنحو من هذا السياق وفيه زيادات ورواه البزار من طريق ابى اسحاق عن رجل من بجيلة عن النعمان بن بشير مرفوعا مثله ورواه البزار فى مسنده من حديث ابى حنش عن على بن أبى طالب عن النبى (ص.) بنحوه

خبر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع

روى البخارى ومسلم من غير وجه عن همام بن يحيى عن اسحاق بن عبدالله بن أبى طلحة حدثنى عبد الرحمن بن ابى عمرة ان أبا هريرة حدثه انه سمع رسول الله (ص.) يقول ان ثلاثة فى بنى اسرائيل أبرص وأعمى وأقرع بدا لله ان يبتليهم فبعث الله اليهم ملكا فأتى الابرص فقال له أى شىء أحب اليك قال لون حسن وجلد حسن قد قذرنى الناس قال فمسحه فذهب عنه فأعطى لونا حسناً وجلداً حسنا. فقال اى المال أحب اليك قال الابل أوقال البقر (هوشك فى ذلك ان الابرص والاقرع قال احدهما الابل وقال الاخر البقر) فاعطى ناقة عشراء فقال يبارك لك فيها . قال وأتى الاقرع فقال له أى المال أحب اليك قال شعر حسن ويذهب عنى هذا قد قذرنى الناس فمسحه فذهب واعطى شعراً حسنا قال فاى المال احب اليك قال البقر فاعطاه بقرة حاملا وقال يبارك لك فيها قال وأتى الأعمى فقال أى شئ أحب اليك قال يرد الله الى بصرى فابصر به الناس قال فمسحه فرد الله اليه بصره قال فأى المال أحب اليك قال الغنم فأعطاه شاة والدا فانتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من الابل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم ثم انه أتى الابرص فى صورته وهيئته فقال رجل مسكين تقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم الابالله ثم بك أسألك بالذى اعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا اتبلغ عليه فى سفرى فقال له ان الحقوق كثيرة فقال له كأنى اعرفك الم تكن ابرص يقذرك الناس فقيرا فاعطاك الله عز وجل فقال لقد ورثت لكابر عن كابر فقال ان كنت كاذبا فصيرك الله الى ما كنت وأتى الاقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ماقال لهذا فرد عليه مثل مارد عليه هذا فقال ان كنت كاذبا فصيرك الله الى ما كنت . وأتى الاعمى فى صورته فقال رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ اليوم الا بالله ثم بك اسألك بالذى رد عليك بصرك شاة اتبلغ بها فى سفرى فقال قد كنت اعمى فرد الله الى بصرى وفقيراً فقد أغنانى فخذ ماشئت فوالله لا أجهدك اليوم بشىء اخذته لله عز وجل فقال أمسك مالك فانما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك هذا لفظ البخارى فى احاديث بنى اسرائيل

حديث الذي استلف من صاحبه ألف دينار فأداها

قال الامام احمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبي هريرة عن رسول الله (ص) انه ذكر أن رجلا من بني اسرائيل سأل بعض بني اسرائيل أن يسلفه الف دينار فقال ائتني بشهداء اشهدهم قال كفى بالله شهيداً قال ائتني بكفيل قال كفى بالله كفيلا قال صدقت فدفعها اليه الى اجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يقدم عليه للاجل الذي اجله فلم يجد مركبا فاخذ خشبة فنقرها وادخل فيها الف دينار وصحيفة معها الى صاحبها ثم زجج موضعها ثم اتى بها البحر ثم قال اللهم انك قد علمت اني استسلفت فلانا الف دينار فسألني كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا فرضي بذلك وسألني شهيدا فقلت كفى بالله شهيدا فرضي بذلك واني قد جهدت ان أجد مركبا أبعث اليه بالذي أعطاني فلم أجد مركبا واني استودعتكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركبا الى بلده فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبا يجيئه بماله فاذا بالخشبة التي فيها المال فاخذها لاهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فاتاه بالف دينار وقال والله مازلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذي اتيت فيه قال هل كنت بعثت الى بشيء قال الم اخبرك اني لم أجد مركبا قبل هذا الذي جئت فيه قال فان الله ادى عنك الذي بعثت به في الخشبة فانصرف بالفك راشدا . هكذا رواه الامام احمد مسندا وقد علقه البخاري في غير موضع من صحيحه بصيغة الجزم عن الليث بن سعد واسنده في بعضها عن عبدالله بن صالح كاتب الليث عنه والعجب من الحافظ ابي بكر البزار كيف رواه في مسنده عن الحسن بن مدرك عن يحيى بن حماد عن أبي عوانة عن عمر بن سلمة عن ابيه عن أبي هريرة عن النبي (ص) بنحوه ثم قال لايروى الا من هذا الوجه بهذا الاسناد

قصة أخرى شبيهة بهذه القصة في الصدق والأمانة

قال البخاري حدثنا اسحاق بن نصر أخبرنا عبدالرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) اشترى رجل من رجل عقارا له فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب فقال له الذي اشترى العقار خذ ذهبك مني انما اشتريت منك الارض ولم ابتع منك الذهب وقال الذي له الارض انما بعتك الارض وما فيها فتحاكما الى رجل فقال الذي تحاكما اليه ألكما ولد قال احدهما لي غلام وقال الآخر لي جارية قال انكحوا الغلام الجارية وانفقوا على انفسهما منه وتصدقا هكذا روى البخاري هذا الحديث في اخبار بني اسرائيل واخرجه مسلم عن محمد بن رافع عن عبدالرزاق به وقد

روى ان هذه القصة وقعت فى زمن ذى القرنين . وقد كان قبل بنى اسرائيل بدهور متطاولة والله اعلم

قال اسحاق بن بشر فى كتابه المبتدأ عن سعيد بن ابى عروبة عن قتادة عن الحسن ان ذا القرنين كان يتفقد امور ملوكه وعماله بنفسه وكان لا يطلع على احد منهم خيانة الا انكر ذلك عليه وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه . قال فبينا هو يسير متنكرا فى بعض المدائن جلس الى قاض من قضاتهم اياما لا يختلف اليه احد فى خصومة فلما أن طال ذلك بذى القرنين ولم يطلع على شىء من أمر ذلك القاضى وهم بالانصراف اذا هو برجلين قد اختصما اليه فادعى احدهما فقال أيها القاضى انى اشتريت من هذا داراً وعمرتها ووجدت فيها كنزا وانى دعوته الى أخذه فابى على فقال له القاضى ماتقول قال مادفنت وماعلمت به فليس هو لى ولا أقبضه منه قال المدعى أيها القاضى مر من يقبضه فتضعه حيث احببت فقال القاضى تفر من الشر وتدخلنى فيه ما أنصفتنى وماأظن هذا فى قضاء الملك فقال القاضى هل لكما امرا نصف مما دعوتمانى اليه قالا نعم قال للمدعى الك ابن قال نعم وقال للآخر الك ابنة قال نعم قال اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا وجهزهما من هذا المال وادفعا فضل ما بقى اليهما يعيشان به فتكونا مليا بخير موشره فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك ثم قال القاضى ماظننت ان فى الارض احدا يفعل مثل هذا أو قاض يقضى بمثل هذا فقال القاضى وهو لا يعرفه وهل احد يفعل غير هذا قال ذو القرنين نعم قال القاضى فهل يمطرون فى بلادهم فعجب ذو القرنين من ذلك وقال بمثل هذا قامت السموات والارض

قصة اخرى

قال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن أبى عدى عن شعبة عن قتادة عن ابى الصديق الناجى عن ابى سعيد الخدرى عن النبى (ص) قال كان فى بنى اسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين انسانا ثم خرج يسأل فأتى راهبا فسأله فقال هل من توبة قال لا فقتله فجعل يسأل فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا فادركه الموت فناء بصدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فاوحى الله الى هذه ان تقربى وأوحى الى هذه ان تباعدى وقال قيسوا ما بينهما فوجد الى هذه اقرب بشبر فغفر له هكذا رواه ههنا مختصراً وقد رواه مسلم عن بندار به ومن حديث شعبة ومن وجه آخر عن قتادة به مطولا

حديث آخر

قال البخارى حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا ابو الزناد عن الاعرج عن ابى سلمة عن أبى هريرة قال صلى رسول الله (ص) صلاة الصبح ثم اقبل على الناس فقال بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها فقالت إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا للحرث فقال الناس سبحان الله بقرة تكلم فقال فانى أو من بهذا أنا وأبو بكر وعمر وماهما ثم (قال) وبينا رجل فى غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة فطلب

حتى كأنه استنقذها منه فقال له الذئب[1] هذا استنقذتها مني فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري قال الناس سبحان الله ذئب يتكلم قال فاني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم (قال) وحدثنا علي قال حدثنا سفيان عن مسعر عن سعد بن ابراهيم عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي (ص) بمثله . وقد أسنده البخاري في المزارعة عن علي بن المديني ومسلم عن محمد بن عباد كلاهما عن سفيان بن عيينة وأخرجاه من طريق شعبة كلاهما عن مسعر به . وقال الترمذي حسن صحيح وأخرج مسلم الطريق الأول من حديث سفيان بن عيينة وسفيان الثوري كلاهما عن أبي الزناد .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخاري حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا ابراهيم عن سعد عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال (إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه ان كان في أمتي هذه منهم فانه عمر بن الخطاب) لم يخرجه مسلم من هذا الوجه وقد روى عن ابراهيم بن سعد عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخاري حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حج على المنبر فتناول قُصة من شعر كانت في يدي حرسي قال يا أهل المدينة أين علماؤكم سمعت رسول الله (ص) ينهى عن مثل هذه ويقول إنما هلكت بنو اسرائيل حين اتخذها نساؤهم . وهكذا رواه مسلم وأبو داود من حديث مالك وكذا رواه معمر ويونس وسفيان بن عيينة عن الزهري بنحوه وقال الترمذي حديث صحيح . وقال البخاري حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة قال سمعت سعيد بن المسيب قال قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة آخر قدمة قدمها فخطبنا فأخرج من كبة شعر وقال ما كنت أرى أحداً يفعل هذا غير اليهود ان النبي (ص) سماه الزور يعني الوصال في الشعر تابعه غندر عن شعبة والعجب أن مسلما رواه من غير وجه عن غندر عن شعبة ومن حديث قتادة عن سعيد بن المسيب به .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخاري حدثنا سعيد بن تليد حدثنا ابن وهب قال أخبرني جرير بن حازم عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني اسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به ورواه مسلم عن أبي الطاهر بن السرح عن ابن وهب به .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخاري حدثنا عبد الله بن أسماء حدثنا جويرية عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله (ص) قال عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار فلا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض . وكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد بن أسماء به .

---

(١) قوله هذا أي يطغا

﴿ حديث آخر ﴾ قال الامام أحمد حدثنا عثمان بن عمر حدثنا المستمر بن الريان حدثنا أبو نضرة عن أبى سعيد أن رسول الله (ص) قال كان فى بنى اسرائيل امرأة قصيرة فصنعت رجلين من خشب فكانت تمشى بين امرأتين قصيرتين واتخذت خاتماً من ذهب وحشت تحت فصه أطيب الطيب والمسك فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفح ريحه رواه مسلم من حديث المستمر وخليد بن جعفر كلاهما عن أبى نضرة عن أبى سعيد مرفوعاً قريبا منه وقال الترمذى حديث صحيح .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخارى حدثنا آدم حدثنا شعبة عن منصور سمعت ربعى بن حراش يحدث عن ابن مسعود قال قال النبى (ص) إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى (إذا لم تستح فاصنع ماشئت) تفرد به البخارى دون مسلم وقد رواه بعضهم عن ربعى بن حراش عن حذيفة مرفوعا وموقوفاً أيضا والله أعلم .

﴿ حديث آخر ﴾ قال الامام أحمد حدثنا هاشم بن القسم حدثنا عبد الحميد يعنى بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب قال قال أبو هريرة قال قال رسول الله بينا رجل وامرأة له فى السلف الخالى لايقدران على شئ فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته سغبة شديدة فقال لامرأته عندك شئ قالت نعم ابشر أتاك رزق الله فاستحثها فقال ويحك ابتغى ان كان عندك شئ قالت نعم هنيئة نرجو رحمة الله حتى إذا طال عليه المطال قال ويحك قومى فابتغى ان كان عندك شئ فأتينى به فانى قد بلغت الجهد وجهدت فقالت نعم الآن ينضج التنور فلا تعجل فلما أن سكت عنها ساعة وتحينت أيضا أن يقول لها قالت من عند نفسها لو قمت فنظرت الى تنورى فقامت فوجدت تنورها ملآن من جنوب الغنم ورحاها تطحن فقامت إلى الرحى فنفضتها واستخرجت مافى تنورها من جنوب الغنم قال أبو هريرة فو الذى نفس أبى القاسم بيده عن قول محمد (ص) لو أخذت مافى رحيها ولم تنفضها لطحنت إلى يوم القيامة .

وقال أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا أبو بكر عن هشام عن محمد عن أبى هريرة قال دخل رجل على أهله فلما رأى مابهم من الحاجة خرج إلى البرية فلما رأت امرأته مالقى قامت الى الرحى فوضعتها والى التنور فسجرته ثم قالت اللهم ارزقنا فنظرت فاذا الجفنة قد امتلأت قال وذهبت الى التنور فوجدته ممتلئاً قال فرجع الزوج قال اصبتم بعد شيئاً قالت امرأته نعم من ربنا قرفعتها إلى الرحى ثم قامت فذكر ذلك النبى (ص) قال (اما أنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة) قال شهدت النبى (ص) وهو يقول (والله لأن يأتى أحدكم بحزمة حطب ثم يحمله فيبيعه فيستعف منه خير له من أن يأتى رجلا فيسأله .

قصة الحكيم الشايح

قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا المسعودى عن سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال بينا رجل فيمن كان قبلكم كان فى مملكته فتفكر فعلم أن ذلك منقطع عنه

وأن ماهو فيه قد شغله عن عبادة ربه فانساب ذات ليلة من قصره وأصبح في مملكة غيره وأتى ساحل البحر فكان به يضرب اللبن بالآجر فيأكل ويتصدق بالفضل ولم يزل كذلك حتى رقى أمره إلى ملكهم فأرسل اليه فأبى أن يأتيه فركب اليه الملك فلما رآه ولى هارباً فركض فى أثره فلم يدركه فناداه ياعبد الله انه ليس عليك منى بأس فقام حتى أدركه فقال له من أنت رحمك الله فقال أنا فلان بن فلان صاحب مملكة كذا وكذا فتفكرت فى أمرى فعلمت انما أنا فيه منقطع وأنه قد شغلنى عن عبادة ربى عز وجل فتركته وجئت ههنا أعبد ربى فقال له ما أنت بأحوج لما صنعت منى قال فنزل عن دابته فسيبها وتبعه فكانا جميعاً يعبدان الله عز وجل فدعوا الله أن يميتهما جميعاً فماتا . قال عبد الله فلو كنت برملية مصر لأريتكم قبورهما بالنعت الذى نعت لنا رسول الله (ص) .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن عقبة بن عبدالغافر عن أبى سعيد عن النبى (ص) إن رجلا كان قبلكم رغسه الله مالا فقال لبنيه لما حضر أى أب كنت لكم قالوا خير أب قال فانى لم أعمل خيراً قط فاذا مت فاحرقونى ثم اسحقونى ثم اذرونى فى يوم عاصف ففعلوا فجمعه الله عز وجل فقال ماحملك فقال مخافتك فتلقاه برحمته ورواه فى مواضع أخر ومسلم من طرق عن قتادة به . ثم رواه البخارى ومسلم من حديث ربعى بن حراش عن حذيفة عن النبى (ص) بنحوه ومن حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة عن النبى (ص) بنحوه .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخارى حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا ابراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا قال فلقى الله فتجاوز عنه وقد رواه فى مواضع أخر ومسلم من طريق الزهرى به .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخارى حدثنا عبد العزيز بن عبدالله حدثنى مالك عن محمد بن المنكدر عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول الله (ص) فى الطاعون قال أسامة قال رسول الله (ص) الطاعون رجس أرسل على طائفة من بنى اسرائيل وعلى من كان قبلكم فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه . قال أبو النضر لايخرجكم الا فرارا منه ورواه مسلم من حديث مالك ومن طرق أخر عن عامر بن سعد به حدثنا موسى بن اسماعيل حدثنا داود بن أبى الفرات حدثنا عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر عن عائشة قالت سألت رسول الله (ص) عن الطاعون أخبرنى أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء من عباده وأن الله جعله رحمة للمؤمنين ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث فى بلده صابرا محتسباً يعلم أنه لن يصيبه إلا ماكتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد تفرد به البخارى عن مسلم من هذا الوجه .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخاري حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله (ص) ، فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله (ص) فكلمه أسامة فقال أتشفع في حد من حدود الله ثم قام فخطب ثم قال إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها وأخرجه بقية الجماعة من طرق عن الليث بن سعد به .

﴿ حديث آخر ﴾ وقال البخاري حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عبد الملك بن ميسرة سمعت النزال بن سبرة الهلالي عن ابن مسعود قال سمعت رجلا قرأ وسمعت رسول الله (ص) يقرأ خلافها فجئت به إلى رسول الله (ص) فأخبرته فعرفت في وجهه الكراهية وقال كلاكما محسن ولا تختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا . تفرد به البخاري دون مسلم .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخاري حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا ابراهيم عن صالح عن ابن شهاب قال قال أبو سلمة بن عبد الرحمن إن أبا هريرة قال إن رسول الله (ص) قال إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم تفرد به دون مسلم وفي سنن أبي داود صلوا في نعالكم خالفوا اليهود .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن طاووس عن ابن عباس سمعت عمر يقول قاتل الله فلانا ألم يعلم أن رسول الله (ص) قال لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها رواه مسلم من حديث ابن عيينة . ومن حديث عمرو بن دينار به ثم قال البخاري تابعه جابر وأبو هريرة عن النبي (ص) ، ولهذا الحديث طرق كثيرة وسيأتي في باب الحيل من كتاب الأحكام إن شاء الله وبه الثقة .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخاري حدثنا عمران بن ميسرة حدثنا عبد الوارث حدثنا خالد عن أبي قلابة عن أنس بن مالك قال ذكروا النار والناقوس فذكروا اليهود والنصارى فأمر بلال أن يشفع الاذان وأن يوتر الاقامة وأخرجه بقية الجماعة من حديث أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي به . والمقصود من هذا مخالفة أهل الكتاب في جميع شعارهم فان رسول الله (ص) لما قدم المدينة كان المسلمون يتحينون وقت الصلاة بغير دعوة اليها . ثم أمر من ينادي فيهم وقت الصلاة (الصلاة جامعة) ثم أرادوا أن يدعوا اليها بشئ يعرفه الناس فقال قائل نضرب بالناقوس وقال آخر نوري نارا فكرهوا ذلك لمشابهة أهل الكتاب فأرى عبد الله بن زيد بن عبد ربه الانصاري في منامه الاذان فقصها على رسول الله (ص) فأمر بلالا فنادى كما هو مبسوط في موضعه من باب الاذان في كتاب الاحكام .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخاري حدثنا بشر بن محمد أنبأنا عبد الله أنبأنا معمر ويونس عن

الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عائشة وابن عباس قالا لما نُزل برسول الله (ص) طفق يطرح خميصة على وجهه فاذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا وهكذا رواه فى غير موضع ومسلم من طرق عن الزهرى به .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخارى حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا أبو غسان قال حدثنى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد أن النبى (ص) قال لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه فقلنا يارسول الله اليهود والنصارى قال النبى (ص) فمن وهكذا رواه مسلم من حديث زيد بن أسلم به .

والمقصود من هذا الاخبار عما يقع من الاقوال والأفعال المنهى عنها شرعاً مما يشابه أهل الكتاب قبلنا أن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم فى أقوالهم وأفعالهم حتى ولو كان قصد المؤمن خيراً لكنه تشبّه فعله فى الظاهر فعلهم وكما نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلا تشابه المشركين الذين يسجدون للشمس حينئذ وإن كان المؤمن لايخطر بباله شئ من ذلك بالكلية وهكذا قوله تعالى . (يأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) . فكان الكفار يقولون للنبى (ص) فى كلامهم معه راعنا أى انظر الينا ببصرك واسمع كلامنا ويقصدون بقولهم راعنا من الرعونة فنهى المؤمنين أن يقولوا ذلك وان كان لايخطر ببال أحد منهم هذا أبداً . فقد روى الامام أحمد والترمذى من حديث عبد الله بن عمر عن النبى (ص) أنه قال بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم فليس للمسلم أن يتشبه بهم لافى أعيادهم ولا مواسمهم ولا فى عباداتهم لأن الله تعالى شرف هذه الأمة بخاتم الأنبياء الذى شرع له الدين العظيم القويم الشامل الكامل الذى لو كان موسى بن عمران الذى أنزلت عليه التوراة وعيسى بن مريم الذى أنزل عليه الانجيل حيين لم يكن لهما شرع متبع بل لو كانا موجودين بل وكل الأنبياء لما ساغ لواحد منهم أن يكون على غير هذه الشريعة المطهرة المشرفة المكرمة المعظمة فاذا كان الله تعالى قد منّ علينا بأن جعلنا من أتباع محمد (ص) فكيف يليق بنا أن نتشبه بقوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل قد بدلوا دينهم وحرفوه وأولوه حتى صار كأنه غير ماشرع لهم أولا . ثم هو بعد ذلك كله منسوخ والتمسك بالمنسوخ حرام لايقبل الله منه قليلا ولا كثيراً ولا فرق بينه وبين الذى لم يشرع بالكلية والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

﴿ حديث آخر ﴾ قال البخارى حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله (ص) قال انما أجلكم فى أجل من خلا من قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس

وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين الا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر الى المغرب على قيراطين قيراطين الا لكم الأجر مرتين فغضب اليهود والنصارى فقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاء قال الله تعالى (هل ظلمتكم من حقكم شيئا فقالوا لا قال فانه فضلى أوتيه من أشاء) وهذا الحديث فيه دليل على أن مدة هذه الأمة قصيرة بالنسبة إلى مامضى من مدد الأمم قبلها لقوله إنما أجلكم فى أجل من خلا من الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس فالماضى لايعلمه إلا الله كما أن الآتى لايعلمه إلا هو ولكنه قصير بالنسبة إلى ماسبق ولا اطلاع لأحد على تحديد مابقى إلا الله عز وجل كما قال الله تعالى (لايجليها لوقتها إلا هو) وقال (يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها). وما تذكره بعض الناس من الحديث المشهور عند العامة من أنه عليه السلام لايؤلف تحت الأرض فليس له أصل فى كتب الحديث وورد فيه حديث أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة وفى صحته نظر. والمراد من هذا التشبيه بالعمال تفاوت أجورهم وأن ذلك ليس منوطا بكثرة العمل وقلته بل بأمور أخر معتبرة عند الله تعالى وكم من عمل قليل أجدى مالا يجديه العمل الكثير هذه ليلة القدر العمل فيها أفضل من عبادة الف شهر سواها وهؤلاء أصحاب محمد (ص) أنفقوا فى أوقات لو أنفق غيرهم من الذهب مثل أحد مابلغ من أحدهم ولا نصيفه من تمر وهذا رسول الله (ص) بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره وقبضه وهو ابن ثلاث وستين على المشهور وقد برز فى هذه المدة التى هى ثلاث وعشرون سنة فى العلوم النافعة والاعمال الصالحة على سائر الانبياء قبله حتى على نوح الذى لبث فى قومه الف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ويعمل بطاعة الله ليلا ونهارا صباحاً ومساء صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء أجمعين فهذه الامة انما شرفت وتضاعف ثوابها ببركة سيادة نبيها وشرفه وعظمته كما قال الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم • لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شئ من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) •

فصل

وأخبار بنى اسرائيل كثيرة جداً فى الكتاب والسنة النبوية ولو ذهبنا نتقصى ذلك لطال الكتاب ولكن ذكرنا ماذكره الامام أبو عبد الله البخارى فى هذا الكتاب ففيه مقنع وكفاية وهو تذكرة وانموذج

لهذا الباب والله أعلم * وأما الاخبار الاسرائيلية فيما يذكره كثير من المفسرين والمؤرخين فكثيرة جداً ومنها ماهو صحيح موافق لما وقع وكثير منها بل أكثرها مما يذكره القصاص مكذوب مفترى وضعه زنادقتهم وضلالهم وهي ثلاثة أقسام منها ماهو صحيح لموافقته ماقصه الله في كتابه أو أخبر به رسول الله (ص) ومنها ماهو معلوم البطلان لمخالفته كتاب الله وسنة رسوله ومنها مايحتمل الصدق والكذب فهذا الذي أمرنا بالتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه كما ثبت في الصحيح إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وانزل اليكم . وتجوز روايته مع هذا الحديث المتقدم (وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج)

تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدي موسى بن عمران عليه السلام وكانت كما قال الله تعالى (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلا لكل شئ) وقال تعالى (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) وقال تعالى (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين) وقال تعالى (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم) وقال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها برهة من الزمان ثم شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وابداء ماليس منها كما قال الله تعالى (وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) فأخبر تعالى أنهم يفسرونها ويتأولونها ويضعونها على غير مواضعها وهذا مالا خلاف فيه بين العلماء وهو أنهم يتصرفون في معانيها ويحملونها على غير المراد كما بدلوا حكم الرجم بالجلد والتحميم مع بقاء لفظ الرجم فيها وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد مع أنهم مأمورون باقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع . فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون بأنها جميعها بدلت وقال آخرون لم تبدل واحتجوا بقوله تعالى (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) وقوله (الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات الاية) وبقوله (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) وبقصة الرجم فانهم كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر وفي صحيح مسلم عن البراء بن عازب وجابر بن عبد الله وفي السنن عن أبي هريرة

وغيره لما تحاكموا إلى رسول الله (ص) في قصة اليهودي واليهودية اللذين زنيا فقال لهم ماتجدون في التوراة في شأن الرجم فقالوا نفضحهم ويجلدون فأمرهم رسول الله (ص) باحضار التوراة فلما جاؤا بها وجعلوا يقرؤنها ويكتمون آية الرجم التي فيها ووضع عبد الله بن صوريا يده على آية الرجم وقرأ ماقبلها وما بعدها فقال له رسول الله (ص) ارفع يدك ياأعور فرفع يده فاذا فيها اية الرجم فأمر رسول الله (ص) برجمها وقال (اللهم إني أول من أحيا أمرك اذ أماتوه) وعند أبي داود أنهم لما جاؤا بها نزع الوسادة من تحته فوضعها تحتها وقال امنت بك وبمن انزلك وذكر بعضهم انه قام لها ولم اقف على اسناده والله اعلم. وهذا كله يشكل على ما يقوله كثير من المتكلمين وغيرهم ان التوراة انقطع تواترها في زمن بخت نصر ولم يبق من يحفظها الا العزير ثم العزير ان كان نبياً فهو معصوم والتواتر الى المعصوم يكفي اللهم الا أن يقال انها لم تتواتر اليه لكن بعده زكريا ويحيى وعيسى وكلهم كانوا متمسكين بالتوراة فلو لم تكن صحيحة معمولا بها لما اعتمدوا عليها وهم انبياء معصومون. ثم قد قال الله تعالى فيما انزل على رسوله محمد خاتم الانبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الانبياء منكرا على اليهود في قصدهم الفاسد اذ عدلوا عما يعتقدون صحته عندهم وانهم مأمورون به حتما الى التحاكم الى رسول الله (ص) وهم يعاندون ما جاء به لكن لما كان في زعمهم ماقد يوافقهم على ماابتدعوه من الجلد والتحميم المصادم لما امر الله به حتما وقالوا ان حكم لكم بالجلد والتحميم فاقبلوه وتكونون قد اعتذرتم بحكم نبي لكم عندالله يوم القيمة وان لم يحكم لكم بهذا بل بالرجم فاحذروا ان تقبلوا منه فانكر الله تعالى عليهم في هذا القصد الفاسد الذي انما حملهم عليه الغرض الفاسد وموافقة الهوى لا الدين الحق فقال (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله الاية) ولهذا حكم بالرجم قال اللهم اني اول من احيا امرك اذ أماتوه وسألهم ماحملهم على هذا ولم تركوا امر الله الذي بايديهم فقالوا ان الزنا قد كثر في اشرافنا ولم يمكنا ان نقيمه عليهم وكنا نرجم من زنى من ضعفائنا فقلنا تعالوا الى أمر نصف نفعله مع الشريف والوضيع فاصطلحنا على الجلد والتحميم فهذا من جملة تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم وتأويلهم الباطل وهذا انما فعلوه في المعاني مع بقاء لفظ الرجم في كتابهم كما دل عليه الحديث المتفق عليه فلهذا قال من قال هذا من الناس انه لم يقع تبديلهم الا في المعاني وان الالفاظ باقية وهي حجة عليهم اذ لو أقاموا ما في كتابهم جميعه لقادهم ذلك الى اتباع الحق ومتابعة الرسول محمد (ص) كما قال الله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم الآية) وقال تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن

تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة الآية) وقال تعالى (قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم الآية) وهذا المذهب وهو القول بأن التبديل إنما وقع فى معانيها لافى ألفاظها حكاه البخارى عن ابن عباس فى آخر كتابه الصحيح وقرر عليه ولم يرده وحكاه العلامة فخر الدين الرازى فى تفسيره عن اكثر المتكلمين .

ليس للجنب مس التوراة

وذهب فقهاء الحنفية إلى أنه لايجوز للجنب مس التوراة وهو محدث وحكاه الحناطى فى فتاويه عن بعض أصحاب الشافعى وهو غريب جداً . وذهب آخرون من العلماء إلى التوسط فى هذين القولين منهم شيخنا الامام العلامة أبو العباس بن تيمية رحمه الله قال أما من ذهب إلى أنها كلها مبدلة من أولها إلى آخرها ولم يبق منها حرف إلا بدلوه فهذا بعيد وكذا من قال لم يبدل شئ منها بالكلية بعيد أيضاً والحق أنه دخلها تبديل وتغيير وتصرفوا فى بعض ألفاظها بالزيادة والنقص كما تصرفوا فى معانيها وهذا معلوم عند التأمل ولبسطه موضع آخر والله أعلم كما فى قوله فى قصة الذبيح اذبح ابنك وحيدك وفى نسخة بكرك اسحاق فلفظة اسحاق مقحمة مزيدة بلا مرية لأن الوحيد وهو البكر اسماعيل لأنه ولد قبل اسحاق بأربع عشر سنة فكيف يكون الوحيد البكر اسحاق . وانما حملهم على ذلك حسد العرب أن يكون اسماعيل غير الذبيح فأرادوا أن يذهبوا بهذه الفضيلة لهم فزادوا ذلك فى كتاب الله افتراء على الله وعلى رسوله (ص) وقد اغتر بهذه الزيادة خلق كثير من السلف والخلف ووافقوهم على أن الذبيح اسحاق والصحيح الذبيح اسماعيل كما قدمنا والله أعلم وهكذا فى توراة السامرة فى العشر الكلمات زيادة الأمر بالتوجه إلى الطور فى الصلاة وليس ذلك فى سائر نسخ اليهود والنصارى .

وهكذا يوجد فى الزبور المأثور عن داود عليه السلام مختلفاً كثيراً وفيه أشياء مزيدة ملحقة فيه وليست منه والله أعلم * قلت وأما مابأيديهم من التوراة المعربة فلا يشك عاقل فى تبديلها وتحريف كثير من ألفاظها وتغيير القصص والالفاظ والزيادات والنقص البين الواضح وفيها من الكذب البين والخطأ الفاحش شئ كثير جداً فأما مايتلونه بلسانهم ويكتبونه بأقلامهم فلا اطلاع لنا عليه والمظنون بهم أنهم كذبة خونة يكثرون الفرية على الله ورسله وكتبه .

وأما النصارى فأناجيلهم الأربعة من طريق مرقس ولوقا ومتى ويوحنا أشد اختلافا واكثر زيادة ونقصاً وأفحش تفاوتا من التوراة وقد خالفوا أحكام التوراة والانجيل فى غير ماشئ قد شرعوه لأنفسهم فمن ذلك صلاتهم إلى الشرق وليست منصوصاً عليها ولا مأموراً بها فى شئ من الأناجيل الاربعة وهكذا تصويرهم كنائسهم وتركهم الختان ونقلهم صيامهم إلى زمن الربيع وزيادته إلى خمسين يوما وأكلهم

الخنزير ووضعهم الأمانة الكبيرة وإنما هي الخيانة الحقيرة والرهبانية وهي ترك التزويج لمن أراد التعبد وتحريمه عليه وكتبهم القوانين التي وضعها لهم الاساقفة الثلاثمائة والثمانية عشر فكل هذه الاشياء ابتدعوها ووضعوها في أيام قسطنطين بن قسطن باني القسطنطينية وكان زمنه بعد المسيح بثلاثمائة سنة وكان أبوه أحد ملوك الروم وتزوج أمه هيلانة في بعض أسفاره للصيد من بلاد حران وكانت نصرانية على دين الرهابين المتقدمين فلما ولد لهما منه قسطنطين المذكور تعلم الفلسفة وبهر فيها وصار فيه ميل بعض الشيء إلى النصرانية التي أمه عليها فعظم القائمين بها بعض الشيء وهو على اعتقاد الفلاسفة فلما مات أبوه واستقل هو في المملكة سار في رعيته سيرة عادلة فأحبه الناس وساد فيهم وغلب على ملك الشام بأسره مع الجزيرة وعظم شأنه وكان أول القياصرة * ثم اتفق اختلاف في زمانه بين النصارى ومنازعة بين بترك الاسكندرية اكصندروس وبين رجل من علمائهم يقال له عبد الله بن أروس فذهب اكصندروس إلى أن عيسى بن الله تعالى الله عن قوله وذهب ابن أروس الى أن عيسى عبدالله ورسوله واتبعه على هذا طائفة من النصارى واتفق الأكثرون الأخسرون على قول بتركهم ومنع ابن أروس من دخول الكنيسة هو وأصحابه فذهب يستعدي على اكصندروس وأصحابه الى ملك قسطنطين فسأله الملك عن مقالته فعرض عليه عبد الله بن أروس مايقول في المسيح من أنه عبد الله ورسوله واحتج على ذلك فمال اليه وجنح إلى قوله فقال له قائلون فينبغي أن تبعث الى خصمه فتسمع كلامه فأمر الملك باحضاره وطلب من سائر الأقاليم كل أسقف وكل من عنده في دين النصرانية وجمع البتاركة الاربعة من القدس وانطاكية وورومية والاسكندرية فيقال انهم اجتمعوا في مدة سنة وشهرين مايزيد على الفي أسقف فجمعهم في مجلس واحد وهو المجمع الاول من مجالسهم الثلاثة المشهورة وهم مختلفون اختلافاً متبايناً منتشراً جداً . فمنهم الشرذمة على المقالة التي لايوافقهم أحد من الباقين عليها فهؤلاء خمسون على مقالة. وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى . وهؤلاء عشرة على مقالة وأربعون على أخرى ومائة على مقالة ومائتان على مقالة وطائفة على مقالة ابن أروس وجماعة على مقالة أخرى فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم حار فيهم الملك قسطنطين مع أنه سيء الظن بما عدا دين الصابئين من اسلافه اليونانيين فعمد إلى أكثر جماعة تتمسك على مقالة من مقالاتهم فوجدهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً قد اجتمعوا على مقالة اكصندروس ولم يجد طائفة بلغت عدتهم فقال هؤلاء أولى بنصر قولهم لأنهم اكثر الفرق فاجتمع بهم خصوصاً ووضع سيفه وخاتمه اليهم وقال انى رأيتكم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقالتكم هذه فانا أنصرها واذهب اليها فسجدوا له وطلب منهم أن يضعوا له كتاباً في الاحكام وأن تكون الصلاة إلى الشرق لأنها مطلع الكواكب النيرة وأن يصوروا في كنائسهم صوراً لها جثث فصالحوه على أن تكون في الحيطان فلما تواقفوا على ذلك أخذ في نصرهم واظهار كلمتهم واقامة مقالتهم وابعاد من خالفهم وتضعيف رأيه وقوله فظهر أصحابه

بجاهه على مخالفيهم وانتصروا عليهم وأمر ببناء الكنائس على دينهم وهم الملكية نسبة إلى دين الملك فبنى فى أيام قسطنطين بالشام وغيرها فى المدائن والقرى أزيد من اثنى عشر ألف كنيسة واعتنى الملك ببناء بيت لحم يعنى على مكان مولد المسيح وبنت أمه هيلانة قمامة بيت المقدس على مكان المصلوب الذى زعمت اليهود والنصارى بجهلهم وقلة علمهم أنه المسيح عليه الصلاة والسلام ويقال إنه قتل من أعداء أولئك وخد لهم الأخاديد فى الارض وأجج فيها النار وأحرقهم بها كما ذكرناه فى سورة البروج وعظم دين النصرانية وظهر أمره جداً بسبب الملك قسطنطين وقد أفسده عليهم فساداً لا اصلاح له ولا نجاح معه ولا فلاح عنده وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم وكثرت كنائسهم على اسماء عبادهم وتفاقم كفرهم وغلظت مصيبتهم وتخلد ضلالهم وعظم وبالهم ولم يهد الله قلوبهم ولا أصلح بالهم بل صرف قلوبهم عن الحق وامال عن الاستقامة ثم اجتمعوا بعد ذلك مجمعين فى قضية النسطورية واليعقوبية وكل فرقة من هؤلاء تكفر الأخرى وتعتقد تخليدهم فى نار جهنم ولا ترى بجامعتهم فى المعابد والكنائس وكلهم يقول بالاقانيم الثلاثة أقنوم الاب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة ولكن بينهم اختلاف فى الحلول والاتحاد فيما بين اللاهوت والناسوت هل تدرعه أو حل فيه أو اتحد به واختلافهم فى ذلك شديد وكفرهم بسببه غليظ وكلهم على الباطل إلا من قال من الاريوسية أصحاب عبد الله بن أريوس إن المسيح عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه كما يقول المسلمون فيه سواء ولكن لما استقر أمر الاريوسية على هذه المقالة تسلط عليهم الفرق الثلاثة بالابعاد والطرد حتى قلوا فلا يعرف اليوم منهم أحد فيما يعلم والله أعلم .

كتاب الجامع لأخبار الانبياء المتقدمين

قال الله تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس الآية) وقال تعالى (انا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابرهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) . وقد روى ابن حبان فى صحيحه وابن مردويه فى تفسيره وغيرهما من طريق ابراهيم بن هشام عن يحيى بن محمد الغساني الشامى وقد تكلموا فيه حدثنى أبى عن جدى عن أبى ادريس عن أبى ذر قال (قلت يارسول الله كم الأنبياء قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قلت يارسول الله كم الرسل منهم قال ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير قلت يارسول الله من كان أولهم قال آدم قلت يارسول الله

نبي مرسل قال نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا ثم قال ياأبا ذر أربعة سريانيون آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو ادريس وهو أول من خط بالقلم وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك ياأبا ذر وأول نبي من بني اسرائيل موسى وآخرهم عيسى وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك) . وقد أورد هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزي في الموضوعات وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال حدثنا محمد بن عوف حدثنا أبو المغيرة حدثنا معان بن رفاعة عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي امامة قال قلت يارسول الله كم الانبياء (قال مائة الف وأربعة وعشرون الفاً الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً) . وهذا أيضاً من هذا الوجه ضعيف فيه ثلاثة من الضعفاء معان وشيخه وشيخ شيخه وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا أحمد بن اسحاق أبو عبد الله الجوهري البصري حدثنا مكي بن ابراهيم حدثنا موسى بن عبيدة الزبذي عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (ص) (بعث الله ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف إلى بني اسرائيل وأربعة آلاف إلى سائر الناس) موسى وشيخه ضعيفان أيضا وقال أبو يعلى أيضا حدثنا أبو الربيع حدثنا محمد بن ثابت العبدي حدثنا معبد بن خالد الانصاري عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (ص) (كان فيمن خلا من اخواني من الانبياء ثمانية آلاف نبي ثم كان عيسى ثم كنت أنا . يزيد الرقاشي ضعيف . وقد رواه الحافظ أبو بكر الاسماعيلي عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق حدثنا مسلم بن خالد حدثنا زياد بن سعد عن محمد بن المنكدر عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (ص) (بعثت على أثر ثمانية آلاف نبي منهم أربعة آلاف من بني اسرائيل ، هذا اسناد لابأس به لكني لاأعرف حال أحمد بن طارق هذا والله أعلم .

﴿ حديث آخر ﴾ قال عبد الله بن الامام أحمد وجدت في كتاب أبي بخطه حدثني عبد المتعالي ابن عبد الوهاب حدثنا يحيى بن سعيد الاموي حدثنا مجالد عن أبي الوداك قال قال أبو سعيد هل تقر الخوارج بالدجال قال قلت لا فقال قال رسول الله (ص) (إني خاتم ألف نبي أو اكثر وما بعث الله نبياً يتبع إلا وحذر أمته منه واني قد بين لي فيه مالم يبين لاحد منهم وأنه أعور وأن ربكم ليس بأعور وعينه اليمنى عوراء جاحظة لاتخفى كأنها نخامة في حائط مجصص وعينه اليسرى كأنها كوكب دري معه من كل لسان ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء وصورة النار سوداء تدخن)وهذا حديث غريب وقد روى عن جابر بن عبد الله فقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن علي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر قال قال رسول الله (ص) (اني لخاتم الف نبي أو اكثر وانه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال وانه قد تبين لي فيه مالم يتبين لاحد منهم وانه أعور وان ربكم ليس بأعور . وهذا اسناد حسن وهو محمول على ذكر عدد من أنذر قومه الدجال من الانبياء لكن في الحديث

الآخر مامن نبي إلا وقد أنذر أمته الدجال فالله أعلم .

وقال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن فرات قال سمعت أبا حازم قال قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبي (ص) قال (كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وانه لا نبي بعدى وسيكون خلفاء فيكثرون قالوا فما تأمرنا يارسول الله قال فوا ببيعة الأول فالأول أعطوهم حقهم فان الله سائلهم عما استرعاهم . وهكذا رواه مسلم عن بندار ومن وجه آخر عن فرات به نحوه .

وقال البخارى حدثنا عمرو بن حفص حدثنا أبي حدثني الأعمش حدثني شقيق قال قال عبد الله هو ابن مسعود كأني أنظر إلى رسول الله (ص) يحكي نبياً من الانبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول اللهم اغفر لقومي فانهم لايعلمون رواه مسلم من حديث الاعمش به نحوه . وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم عن رجل عن أبي سعيد الخدرى قال وضع رجل يده ليمس على النبي (ص) فقال والله ماأطيق أن أضع يدى عليك من شدة حماك فقال النبي (ص) (إنا معشر الانبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الاجر ان كان النبي من الانبياء ليبتلى بالقمل حتى يقتله وان كان النبي من الانبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العباءة فيجوبها وان كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء) هكذا رواه الامام أحمد من طريق زيد بن أسلم عن رجل عن أبي سعيد وقد رواه بن ماجه عن دحيم عن ابن أبي فديك عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد فذكره .

وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان بن عاصم بن أبي النجود عن مصعب بن سعد عن أبيه قال قلت يارسول الله أي الناس أشد بلاء قال الانبياء . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالامثل من الناس يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلابة زيد في بلائه وان كان في دينه رقة خفف عليه ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة ورواه الترمذى والنسائي وابن ماجه من حديث عاصم بن أبي النجود . وقال الترمذى حسن صحيح وتقدم في الحديث (نحن معشر الانبياء أولاد علات ديننا واحد وأمهاتنا شتى) والمعنى أن شرائعهم وان اختلفت في الفروع ونسخ بعضها بعضاً حتى انتهى الجميع إلى ماشرع الله لمحمد (ص) وعليهم أجمعين الا أن كل نبي بعثه الله فانما دينه الاسلام وهو التوحيد أن يعبد الله وحده لاشريك له كما قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة الآية) . فأولاد العلات أن يكون الاب واحداً والامهات متفرقات فالاب بمنزلة الدين وهو التوحيد والامهات بمنزلة الشرائع في اختلاف أحكامها كما قال تعالى (لكل

جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وقال (لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) وقال (ولكل وجهة هو موليها) على أحد القولين فى تفسيرها .

والمقصود أن الشرائع وان تنوعت فى أوقاتها إلا أن الجميع آمرة بعبادة الله وحده لاشريك له وهو دين الاسلام الذى شرعه الله لجميع الانبياء وهو الدين الذى لايقبل الله غيره يوم القيامة كما قال تعالى (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقال تعالى (ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وقال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا الآية) . فدين الاسلام هو عبادة الله وحده لاشريك له وهو الاخلاص له وحده دون ماسواه والاحسان أن يكون على الوجه المشروع فى ذلك الوقت المأمور به ولهذا لايقبل الله من أحد عملا بعد أن بعث محمداً (ص) على ماشرعه له كما قال تعالى (قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعاً) وقال تعالى (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) وقال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده) . وقال رسول الله (ص) (بعثت إلى الأحمر والاسود) . قيل أراد العرب والعجم . وقيل الانس والجن وقال (ص) (والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم) والاحاديث فى هذا كثيرة جداً . والمقصود أن اخوة العلات أن يكونوا من أب واحد وأمهاتهم شتى مأخوذ من شرب العلل بعد النهل . وأما اخوة الاخياف فعكس هذا أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى . وأخوة الاعيان فهم الاشقاء من أب واحد وأم واحدة والله سبحانه وتعالى أعلم . وفى الحديث الآخر نحن معاشر الانبياء لانورث ماتركنا فهو صدقة وهذا من خصائص الانبياء انهم لايورثون وما ذاك إلا لان الدنيا أحقر عندهم من أن تكون مخلفة عنهم ولان توكلهم على الله عز وجل فى ذراريهم أعظم وأشد وآكد من أن يحتاجوا معه إلى أن يتركوا لورثتهم من بعدهم مالا يستأثرون به عن الناس بل يكون جميع ماتركوه صدقة لفقراء الناس ومحاويجهم وذوى خلتهم . وسنذكر جميع مايختص بالانبياء عليهم السلام مع خصائص نبينا (ص) وعليهم أجمعين فى أول كتاب النكاح من كتاب الاحكام الكبير حيث ذكره الأئمة من المصنفين اقتداء بالامام أبى عبد الله الشافعى رحمة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن أن عبد رب الكعبة قال انتهيت الى عبد الله بن عمرو وهو جالس فى ظل الكعبة فسمعته يقول بينا نحن مع رسول الله (ص) فى سفر إذ نزل منزلا فمنا من يضرب خباءه ومنا من هو فى جشره ومنا من ينتضل إذ نادى مناديه الصلاة جامعة قال فاجتمعنا قال فقام رسول الله (ص) فخطبنا فقال (إنه لم يكن نبى قبلى الا حل

أمته على خير مايعلمه لهم ويحذرهم مايعلمه شراً لهم وان أمتكم هذه جعلت عافيتها فى أولها وان آخرها سيصيبها بلاء شديد وأمور ينكرونها تجئ فتن يربق بعضها بعضا تجئ الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتى . ثم تنكشف . ثم تجئ الفتنة فيقول المؤمن هذه . ثم تنكشف فمن سره منكم أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه موتته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى اليه ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه مااستطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر . قال فأدخلت رأسى من بين الناس فقلت أنشدك الله أنت سمعت هذا من رسول الله (ص) قال فأشار بيده إلى أذنيه وقال سمعته أذناى ووعاه قلبى قال فقلت هذا ابن عمك يعنى معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل وأن نقتل أنفسنا وقد قال الله تعالى (يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)قال فجمع يديه فوضعهما على جبهته ثم نكس هنيهة . ثم رفع رأسه فقال أطعه فى طاعة الله واعصه فى معصية الله) ورواه أحمد أيضا عن وكيع عن الأعمش به وقال فيه أيها الناس انه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على مايعلمه خيراً لهم وينذره مايعلمه شراً لهم وذكر تمامه بنحوه . وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه من طرق عن الاعمش به ورواه مسلم أيضا من حديث الشعبى عن عبدالرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبدالله بن عمر عن النبى (ص) بنحوه(١)

آخر الجزء الثامن من خط المصنف رحمه الله تعالى يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أخبار العرب وكان الفراغ من تتمة هذا المجلد فى سابع عشر شوال سنة سبع وعشرين من الهجرة النبويه على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بدمشق المحروسة على يد أفقر عباد الله وأحوجهم إلى رحمته وعفوه وغفرانه ولطفه وكرمه اسماعيل المرعى الشافعى الانصارى غفر الله تعالى لهوختم له بخير ولأحبابه ولاخوانه ولمشايخه ولجميع المسلمين والصلاة والسلام على محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً الى يوم الدين .

---

(١) حاشية هكذا شكل أصل النسخة الحلبية أثبتناه كما هو .

ذكر أخبار العرب

قيل إن جميع العرب ينتسبون الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام والتحية والاكرام * والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل اسماعيل وقد قدمنا أن العرب العاربة منهم عاد وثمود وطسم وجديس واميم وجرهم والعماليق وامم آخرون لا يعلمهم الا الله كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام وفى زمانه أيضاً . فأما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فمن ذرية اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام . وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان واسمه مهزم قاله ابن ماكولا وذكروا أنهم كانوا اربعة اخوة قحطان وقاحط ومقحط وفالغ وقحطان بن هود ، وقيل هو هود . وقيل هود اخوه وقيل من ذريته وقيل ان قحطان من سلالة اسماعيل حكاه ابن اسحاق وغيره فقال بعضهم هو قحطان بن تيمن بن قيذر بن اسماعيل . وقيل غير ذلك فى نسبه الى اسماعيل والله أعلم

وقد ترجم البخارى فى صحيحه على ذلك فقال (باب نسبة اليمن الى اسماعيل عليه السلام) حدثنا مسدد حدثنا يحى عن يزيد بن ابى عبيد حدثنا سلمة رضى الله عنه قال خرج رسول الله ص على قوم من اسلم يتناضلون بالسيوف فقال ارموا بنى اسماعيل وأنا مع بنى فلان لأحد الفريقين فأمسكوا بأيديهم فقال مالكم قالوا وكيف نرمى وأنت مع بنى فلان فقال ارموا وأنا معكم كلكم . انفرد به البخارى وفى بعض الفاظه ارموا بنى إسماعيل فان أباكم كان رامياً ارموا وأنا مع ابن الأدرع فأمسك القوم فقال ارموا وأنا معكم كلكم * قال البخارى وأسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة يعنى وخزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين ارسل الله عليهم سيل العرم كما سيأتى بيانه وكانت الأوس والخزرج منهم وقد قال لهم عليه الصلاة والسلام ارموا بنى إسماعيل فدل على أنهم من سلالته وتأوله آخرون على أن المراد بذلك جنس العرب لكنه تأويل بعيد إذ هو خلاف الظاهر بلا دليل لكن الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من سلالة إسماعيل وعندهم أن جميع العرب ينقسمون الى قسمين قحطانية وعدنانية فالقحطانية شعبان سبأ وحضرموت والعدنانية شعبان أيضا ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان والشعب الخامس وهم قضاعة مختلف فيهم فقيل إنهم عدنانيون قال ابن عبد البر وعليه الاكثرون ويروى هذا عن ابن عباس وابن عمر وجبير بن مطعم وهو اختيار الزبير بن بكار وعمه مصعب الزبيرى وابن هشام وقد ورد فى حديث قضاعة بن معد ولكنه لا يصح قاله ابن عبد البر وغيره ويقال إنهم لم يزالوا فى جاهليتهم وصدر من الاسلام ينتسبون إلى عدنان فلما كان فى زمن خالد بن يزيد بن معاوية وكانوا أخواله انتسبوا إلى قحطان فقال فى ذلك أعشى بن ثعلبة فى قصيدة له :

أبلغ قضاعة في القرطاس إنهمُ • لولا خلائفُ آلِ الله ماعُتقوا
قالت قضاعةُ إنا من ذوي يمنٍ • والله يعلم ما بَرّوا وما صدقوا
قدِ ادّعوا والداً ماتال أُمّهم • قد يعلمون ولكن ذلكَ الفَرَق

وقد ذكر أبو عمرو السهيلي أيضاً من شعر العرب ما فيه إبداع في تعيير قضاعة في انتسابهم إلى اليمن والله أعلم . والقول الثاني أنهم من قحطان وهو قول ابن اسحاق والكلبي وطائفة من أهل النسب. قال ابن اسحاق وهو قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقد قال بعض شعرائهم وهو عمرو بن مرة صحابي له حديثان :

يأيها الداعي ادعُنا وأبشرِ • وكنْ قضاعياً ولا تُنزّرِ
نحنُ بنو الشيخ الهجانِ الأزهرِ • قضاعةَ بن مالكِ بن حِمْيَرِ
النسبُ المعروفُ غيرَ المنكرِ • في الحجَرِ المنقوشِ تحتَ المِنبرِ

قال بعض أهل النسب هو قضاعة بن مالك بن عمر بن مرة بن زيد بن حمير وقال ابن لهيعة عن معروف بن سويد عن أبي عشابة [1] محمد بن موسى عن عقبة بن عامر قال قلت يارسول الله أما نحن من معد قال لا قلت فمن نحن قال أنتم قضاعة بن مالك بن حمير قال أبو عمر بن عبد البر ولا يختلفون أن جهينة بن زيد بن أسود بن أسلم بن عمران بن إلحاف بن قضاعة قبيلة عقبة بن عامر الجهني فعلى هذا قضاعة في اليمن في حمير بن سبأ وقد جمع بعضهم بين هذين القولين بما ذكره الزبير بن بكار وغيره من أن قضاعة امرأة من جرهم تزوجها مالك بن حمير فولدت له قضاعة ثم خلف عليها معد بن عدنان وابنها صغير وزعم بعضهم أنه كان حملا فنسب إلى زوج أمه كما كانت عادة كثير منهم ينسبون الرجل إلى زوج أمه والله أعلم *

وقال محمد بن سلام البصرى النسابة : العرب ثلاثة جراثيم العدنانية والقحطانية وقضاعة . قيل له فأيهما اكثر العدنانية أو القحطانية فقال ماشاءت قضاعة أن تيامنت فالقحطانية اكثر وان تمددت فالعدنانية أكثر وهذا يدل على أنهم يتلومون في نسبهم فان صح حديث ابن لهيعة المتقدم فهو دليل على أنهم من القحطانية والله أعلم . وقد قال الله تعالى (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) قال علماء النسب يقال شعوب . ثم قبائل ثم عمائر . ثم بطون . ثم أفخاذ . ثم فصائل . ثم عشائر . والعشيرة أقرب الناس إلى الرجل وليس بعدها شيء . ولنبدأ أولا بذكر

(١) قوله أبي عشابة كذا بالأصل بياء بعد الألف وليس من الرجال من تكنى بهذه الكنية والموجود أبو عشانة بنون بعد الألف المعافرى المصرى واسمه حي بن يومن بن حجيل بن جريج وهو الراوى عن عقبة بن عامر وعمار بن

القحطانية ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز وهم العدنانية وما كان من أمر الجاهلية ليكون ذلك متصلا بسيرة رسول الله (ص) إن شاء الله تعالى وبه الثقة *

وقد قال البخارى ﴿ باب ذكر قحطان ﴾ حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبى الغيث عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه وكذا رواه مسلم عن قتيبة عن الدراوردى عن ثور بن زيد به * قال السهيلى وقحطان أول من قيل له أبيت اللعن وأول من قيل له أنعم صباحاً . وقال الامام أحمد حدثنا أبو المغيرة عن جرير حدثنى راشد بن سعد المقرائى عن أبى حى عن ذى مخمر أن رسول الله (ص) قال (كان هذا الأمر فى حمير فنزعه الله منهم فجعله فى قريش (و س ى ع ودال ى ه م) قال عبد الله كان هذا فى كتاب أبى وحيث حدثنا به تكلم به على الاستواء يعنى وسيعود اليهم .

قصة سبأ

قال الله تعالى (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور)

قال علماء النسب منهم محمد بن اسحاق اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا وكان أول من سبى من العرب فسمى سبأ لذلك وكان يقال له الرائش لأنه كان يعطى الناس الاموال من متاعه . قال السهيلى ويقال إنه أول من تتوج وذكر بعضهم أنه كان مسلماً وكان له شعر بشر فيه بوجود رسول الله (ص) فمن ذلك قوله

سيملكُ بعدَنا ملكاً عظيماً | نبيٌّ لا يرخِّص فى الحرام
ويملك بعدَه منهم ملوكٌ | يدينون العبادَ بغير ذام
ويملك بعدَهم منا ملوكٌ | يصير الملكُ فينا باقتسام
ويملك بعدَ قحطانٍ نبيٌّ | تقيٌّ جبينُه خيرُ الانام
يُسمى أحمداً ياليتَ أنى | أعمَّر بعدَ مبعثِه بعام
فأعضدُه وأحبوه بنصري | بكلِّ مدجَّج وبكلِّ رام
متى يظهرْ فكونوا ناصريه | ومَنْ يلقاهُ يُبلغه سلامي

حكاه ابن دحية فى كتابه التنوير فى مولد البشير النذير

وقال الامام احمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن دعلة سمعت عبد الله بن العباس يقول إن رجلا سأل النبى صـ عن سبأ ماهو أرجل أم امرأة أم أرض قال بل هو رجل ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة . فأما اليمانيون فمذحج وكندة والازد والأشعريون وأنمار وحمير . وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان وقد ذكرنا فى التفسير أن فروة بن مسيك الغطيفى هو السائل عن ذلك كما استقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه هناك ولله الحمد .

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن واحدهم تبع وكان لملوكهم تيجان يلبسونها وقت الحكم كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك وكانت العرب تسمى كل من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تبعاً كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة قيصر ومن ملك الفرس كسرى ومن ملك مصر فرعون ومن ملك الحبشة النجاشى ومن ملك الهند بطليموس وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس وقد قدمنا قصتها مع سليمان عليه السلام وقد كانوا فى غبطة عظيمة وأرزاق دارة وثمار وزروع كثيرة وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد فلما بدلوا نعمة الله كفراً أحلوا قومهم دار البوار .

قال محمد بن اسحاق عن وهب بن منبه أرسل الله اليهم ثلاثة عشر نبياً وزعم السدى أنه أرسل اليهم اثنى عشر ألف نبى فالله أعلم . والمقصود أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال وسجدوا الشمس من دون الله وكان ذلك فى زمان بلقيس وقبلها أيضاً واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم كما قال تعالى (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور)

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسرين وغيرهم أن سد مأرب كان صنعته ان المياه تجرى من بين جبلين فعمدوا فى قديم الزمان فسدوا مابينهما ببناء محكم جداً حتى ارتفع الماء فحكم على اعالى الجبلين وغرسوا فيها البساتين والاشجار المثمرة الأنيقة وزرعوا الزروع الكثيرة ويقال كان أول من بناه سبأ بن يعرب وسلط اليه سبعين واديا يفد اليه وجعل له ثلاثين فرضة يخرج منها الماء ومات ولم يكمل بناؤه فكمله حمير بعده وكان اتساعه فرسخاً فى فرسخ وكانوا فى غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة حتى ذكر قتادة وغيره أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها فتمتلىء من الثمار مايتساقط فيه من نضجه وكثرته وذكروا أنه لم يكن فى بلادهم شىء من البراغيث ولا الدواب المؤذية لصحة هوائهم وطيب فنائهم كما قال تعالى (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) وكما قال تعالى (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد)

فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته وسألوا بعد تقارب مابين قراهم وطيب مابينها من البساتين وامن الطرقات سألوا أن يباعد بين أسفارهم وأن يكون سفرهم فى مشاق وتعب وطلبوا أن يبدلوا بالخير شراً كما سأل بنو اسرائيل بدل المن والسلوى البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل فسلبوا تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد كما قال تعالى (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم) قال غير واحد أرسل الله على أصل السد الفار وهو الجرذ ويقال الخلد فلما فطنوا لذلك أرصدوا عندها السنانير فلم تغن شيئاً إذ قد حم القدر ولم ينفع الحذر كلا لاوزر فلما تحكم فى أصله الفساد سقط وانهار فسلك الماء القرار فقطعت تلك الجداول والأنهار وانقطعت تلك الثمار وبادت تلك الزروع والاشجار وتبدلوا بعدها بردىء الاشجار والأثمار كما قال العزيز الجبار (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد هو الأراك وثمره البرير وأثل وهو الطرفاء. وقيل يشبهه وهو حطب لاثمر له (وشىء من سدر قليل) وذلك لأنه لما كان يثمر النبق كان قليلا مع أنه ذو شوك كثير وثمره بالنسبة اليه كما يقال فى المثل لحم جمل غث على رأس جبل وعر لاسهل فيرتقى ولا سمين فينتقى ولهذا قال تعالى (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) أى إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا وكذب رسلنا وخالف أمرنا وانتهك محارمنا وقال تعالى (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا أن يرحلوا منها وينتقلوا عنها فتفرقوا فى غور البلاد ونجدها أيدى سبأ شذر مذر فنزلت طوائف منهم الحجاز ومنهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة وكان من أمرهم ماسنذكره ومنهم المدينة المنورة اليوم فكانوا أول من سكنها ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير فحالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم وكان من أمرهم ماسنذكره ونزلت طائفة أخرى منهم الشام وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام فى زمن الشيخين رضى الله عنهما.

قال محمد بن اسحاق حدثنى أبو عبيدة قال قال الأعشى بن قيس بن ثعلبة وهو ميمون بن قيس.

وفي ذاكَ للمؤتَسي أسوةٌ ... ومأربُ عفَّى عليها العَرِم
رُخامٌ بَنَتْه لهم حِمْيرٌ ... إذا جاءَ موّارُه لم يَرِم
فأَروى الزُّروعَ وأعنابَها ... على سعةٍ ماؤهم إذ قُسِم
فصاروا أيادِيَ لايقدِرو ... نَ على شُربِ طفلٍ إذا ما فُطِم

وقد ذكر محمد بن اسحاق فى كتاب السيرة أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم عمرو بن عامر اللخمى ولخم هو ابن عدى بن الحارث بن مرة بن ازد بن زيد بن مهع بن عمرو بن عريب بن يشجب

ابن زيد بن كهلان بن سبأ . ويقال لخم بن عدى بن عمرو بن سبأ قاله ابن هشام . قال ابن اسحاق وكان سبب خروجه من اليمن فيما حدثنى أبو زيد الانصارى أنه رأى جرذا يحفر فى سد مأرب الذى كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى وعرض أمواله فقال أشراف من أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وانتقل فى ولده وولد ولده وقالت الأزد لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ففى ذلك قال عباس بن مرداس.

وعكّ بن عدنانَ الّذين تلعّبوا بغسّانَ حتى طُرِدوا كلَّ مَطردِ

قال فارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلاد فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزل الاوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مرّاً ونزلت أزد السراة السراة ونزلت أزد عمان عمان ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه وفى ذلك أنزل الله هذه الآيات وقد روى عن السدى قريب من هذا وعن محمد بن اسحاق فى روايته أن عمرو بن عامر كان كاهنا وقال غيره كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة فأخبرت بقرب هلاك بلادهم وكأنهم رأوا شاهد ذلك فى الفأر الذى سلط على سدهم ففعلوا مافعلوا والله أعلم . وقد ذكرت قصته مطولة عن عكرمة فيما رواه ابن أبى حاتم فى التفسير .

فصل

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أصيبوا بسيل العرم بل أقام أكثرهم بها وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السد فتفرقوا فى البلاد وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن بل انما تشاءم منهم أربعة وبقى باليمن ستة وهم مذحج وكندة وأنمار والاشعريون وأنمار هو أبو خثعم وبجيلة وحمير فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن واستمر فيهم الملك والتبابعة حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذى بعثه صحبة أميريه أبرهة وارياط نحواً من سبعين سنة ثم استرجعه سيف ابن ذى يزن الحميرى وكان ذلك قبل مولد رسول الله (ص) بقليل كما سنذكره مفصلا قريبا ان شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ثم أرسل رسول الله (ص) الى أهل اليمن عليا وخالد بن الوليد ثم أبا موسى الاشعرى ومعاذ بن جبل وكانوا يدعون الى الله تعالى ويبينون لهم الحجج ثم تغلب على اليمن الاسود العنسى واخرج نواب رسول الله (ص) منها فلما قتل الاسود استقرت اليد الاسلامية عليها فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه كما سنبين ذلك بعد البعثة ان شاء الله تعالى

قصة ربيعة بن نصر بن ابى حارثة بن عمرو بن عامر

المتقدم ذكره اللخمى كذا ذكره ابن اسحاق وقال السهيلى ونساب اليمن تقول نصر بن ربيعة ابن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم وقال الزبير بن بكار ربيعة بن نصر بن مالك بن شعوذ بن مالك بن عجم بن عمرو بن نمارة بن لخم ولخم أخو جذام وسمى لخما لانه لخم اخاه أى لطمه أى لطمه فعضه الآخر فى يده فجذمها فسمى جذاما وكان ربيعة أحد ملوك حمير التبابعة وخبره مع شق وسطيح الكاهنين وإنذارهما بوجود رسول الله ص. أما سطيح فاسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن غسان وأما شق فهو ابن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قيس بن عبقر بن أنمار بن نزار ومنهم من يقول أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نابت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ويقال إن سطيحا كان لا أعضاء له وانما كان مثل السطيحة ووجهه فى صدره وكان اذا غضب انتفخ وجلس وكان شق نصف انسان ويقال ان خالد بن عبد الله بن القسرى كان سلالته وذكر السهيلى أنهما ولدا فى يوم واحد وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية ويقال انها تفلت فى فم كل منهما فورث الكهانة عنها وهى امرأة عمرو بن عامر المتقدم ذكره والله أعلم • قال محمد بن اسحاق وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين اضعاف ملوك التبابعة فرأى رؤيا هالته وفظع بها فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفا ولا منجما من أهل مملكته إلا جمعه إليه فقال لهم إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها فأخبرونى بها وبتأويلها فقالوا اقصصها علينا نخبرك بتأويلها فقال انى ان أخبرتكم بها لم أطمئن الى خبركم بتأويلها لانه لا يعرف تأويلها الا من عرفها قبل أن أخبره بها فقال له رجل منهم فان كان الملك يريد هذا فليبعث الى شق وسطيح فانه ليس أحد أعلم منهما فهما يخبرانه بما سأل عنه فبعث اليهما فقدم اليه سطيح قبل شق فقال له إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها فاخبرنى بها فانك ان أصبتها أصبت تأويلها فقال أفعل. رأيت حممة خرجت من ظلمة. فوقعت بأرض تهمة. فأكلت منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك ما اخطأت منها شيئا ياسطيح فما عندك فى تأويلها قال أحلف بما بين الحرتين من حنش لتهبطن أرضكم الحبش. فليملكن ما بين أبين الى جرش فقال له الملك يا سطيح ان هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن أفى زمانى أم بعده فقال لا وأبيك بل بعده بحين. أكثر من ستين أو سبعين. يمضين من السنين قال أفيدوم ذلك من سلطانهم أم ينقطع قال بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين قال ومن يلى ذلك من قتلهم واخراجهم قال يليهم إرم ذى يزن. يخرج عليهم من عدن. فلا يترك منهم احداً باليمن. قال أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع قال بل ينقطع قال ومن يقطعه قال نبى زكى. يأتيه الوحى من قبل العلى قال وممن هذا النبى قال رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر. يكون الملك فى قومه الى آخر الدهر. قال وهل

الدهر من آخر قال نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال أحق ما تخبرني قال نعم . والشفق والغسق والفلق إذا اتسق إن ما أنبأتك به لحق. قال ثم قدم عليه شق فقال له كقوله لسطيح وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان قال نعم رأيت حممة خرجت من ظلمة. فوقعت بين روضة وأكمة. فأكلت منها كل ذات نسمة. فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد إلا أن سطيحاً قال وقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة، وقال شق وقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة فقال له الملك ما أخطأت يا شق منها شيئا فما عندك في تأويلها فقال أحلف بما بين الحرتين من انسان. لينزلن أرضكم السودان فليغلبن على كل طفلة البنان وليملكن ما بين أبين الى نجران فقال له الملك وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن أفي زماني أم بعده قال لا بل بعده بزمان. ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان. ويذيقهم أشد الهوان. قال ومن هذا العظيم الشان قال غلام ليس بدني ولا مدن يخرج عليهم من بيت ذي يزن. قال أفيدوم سلطانه أم ينقطع قال بل ينقطع برسول مرسل يأتي بالحق والعدل من أهل الدين والفضل يكون الملك في قومه الى يوم الفصل قال وما يوم الفصل قال يوم يجزى فيه الولاة يدعى فيه من السماء بدعوات تسمع منها الاحياء والاموات ويجمع الناس فيه للميقات يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات . قال أحق ما تقول قال أي ورب السماء والارض، وما بينهما من رفع وخفض، ان ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض . قال ابن اسحق فوقع في نفس ربيعة بن نصر ماقالا فجهز بنيه وأهل بيته الى العراق وكتب لهم الى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرزاذ فأسكنهم الحيرة قال ابن اسحق فمن بقية ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى بن ربيعة بن نصر يعني الذي كان نائبا على الحيرة لملوك الا كاسرة وكانت العرب تفد اليه وتمتدحه وهذا الذي قاله محمد بن اسحاق من أن النعمان بن المنذر من سلالة ربيعة بن نصر قاله أكثر الناس . وقد روى ابن اسحاق ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جيء بسيف النعمان بن المنذر سأل جبير بن مطعم عنه ممن كان فقال من اشلاء قنص بن معد بن عدنان قال ابن اسحاق فالله أعلم أي ذلك كان

قِصّة تبع أبي كرب مع أهل المدينة

(وكيف أراد غزو البيت الحرام ثم شرفه وعظمه وكساه الحلل فكان أول من كساه)

قال ابن اسحاق فلما هلك ربيعة بن نصر رجع ملك اليمن كله الى حسان بن تبان أسعد أبي كرب وتبان أسعد تبع الآخر ابن كلكيكرب بن زيد وزيد تبع الأول بن عمرو ذي الاذعار بن أبرهة ذي المنار بن الرائش بن عدى بن صيفي بن سبأ الاصغر بن كعب كهف الظلم بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير

ابن أنس بن الهميسع بن المر يحبح والمريحبح هو حمير بن سبأ الاكبر بن يعرب بن يشجب بن قحطان. قال عبد الملك بن هشام سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قال ابن اسحاق وتبان أسعد أبو كرب هو الذى قدم المدينة وساق الحبرين من اليهود الى اليمن وعمر البيت الحرام وكساه وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن نصر وكان قد جعل طريقه حين رجع من غزوة بلاد المشرق على المدينة وكان قد مر بها فى بدأته فلم يهج أهلها وخلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع لاخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها فجمع له هذا الحى من الانصار ورئيسهم عمرو بن طلحة أخو بنى النجار ثم أحد بنى عمرو بن مبذول واسم مبذول عامر بن مالك بن النجار واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة عمرو بن عامر

وقال ابن هشام عمرو بن طلحة هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار وطلة امه وهى بنت عامر بن زريق الخزرجية .

قال ابن اسحاق وقد كان رجل من بنى عدى بن النجار يقال له أحمر عدا على رجل من اصحاب تبع وجده يجد عذقا له فضربه بمنجله فقتله وقال انما التمر لمن أبره فزاد ذلك تبعاً حنقا عليهم فاقتتلوا فتزعم الانصار انهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم ويقول والله ان قومنا لكرام وحكى ابن اسحاق عن الانصار ان تبعا انما كان حنقه على اليهود انهم منعوهم منه .

قال السهيلى ويقال انه انما جاء لنصرة الانصار أبناء عمه على اليهود الذين نزلوا عندهم فى المدينة على شروط فلم يفوا بها واستطالوا عليهم والله أعلم .

قال ابن اسحاق فبينا تبع على ذلك من قتالهم اذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بنى قريظة عالمان راسخان حين سمعا بما يريد من اهلاك المدينة وأهلها فقالوا له أيها الملك لا تفعل فانك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة فقال لهما ولم ذلك فقالا هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى اخر الزمان تكون داره وقراره فتناهى ورأى أن لهما علماً وأعجبه ماسمع منهما فانصرف عن المدينة وأتبعهما على دينهما . قال ابن اسحاق وكان تبع و قومه أصحاب أوثان يعبدونها فتوجه إلى مكة وهى طريقه الى اليمن حتى اذا كان بين عسفان وامج أتاه نفر من هذيل ابن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فقالوا له أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة قال بلى قالوا بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده وانما أراد الهذليون هلاكه بذلك لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك فقالا له ماأراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك مانعلم بيتاً لله عز وجل اتخذه فى الارض لنفسه غيره ولئن فعلت مادعوك اليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعاً قال

فإذا تأمرانى أن أصنع إذا أنا قدمت عليه قالا تصنع عنده مايصنع أهله تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذلل له حتى تخرج من عنده قال فما يمنعكما أنتما من ذلك قالا أما والله إنه لبيت أبينا ابراهيم عليه السلام وانه لكما اخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله وبالدماء التى يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك أو كما قالا له فعرف نصحهما وصدق حديثهما وقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها الناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل وأرى فى المنام أن يكسوا البيت فكساه الخصف ثم أرى فى المنام ان يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافر ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل وكان تبع فيما يزعمون أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره وأن لايقربوه دماً ولا ميتة ولا مئلاة وهى المحايض وجعل له باباً ومفتاحاً ففى ذلك قالت سبيعة بنت الأحب تذكر ابنها خالد بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب وتنهاه عن البغى بمكة وتذكر له ما كان من أمر تبع فيها .

أبنيّ لا تظلم بمـ   كة لا الصغيرَ ولا الكبير
واحفظْ محارمها بنيّ   ولا يغرّنْك الغَرور
أبنيّ من يظلم بمـ   كة يلقَ أطرافَ الشُّرور
أبنيّ يُضربْ وجهَه   ويلحْ بخديه السَّعير
أبنيّ قد جرَّبْتُها   فوجدتُ ظالمَها يَبور
اللهُ آمنَها وما   بُنيتْ بعرصتها قُصور
واللهُ آمنَ طيرَها   والعصمُ تأمنُ فى ثَبير
ولقدْ غزَاها تُبّعٌ   فكسَا بنيّتها الحبير
وأذلّ ربي ملكَه   فيها فأوفى بالنُّذور
يمشي إليها حافياً   بفنائها ألفا بعير
ويظلّ يُطعمُ أهلَها   لحمَ المهارَى والجزور
يسقيهمُ العسَلَ المصفّى   والرحيضَ من الشَّعير
والفيلَ أهلكَ جيشَه   يُرمون فيها بالصُّخور
والملكُ فى أقصَى البلا   د وفى الأعاجم والخُزور
فاسمعْ إذا حُدّثت وافهم   كيفَ عاقبةُ الأُمور

قال ابن اسحاق ثم خرج تبع متوجها الى اليمن بمن معه من الجنود وبالحبرين حتى اذا دخل اليمن

دعا قومه الى الدخول فيا دخل فيه فأبوا عليه حتى يحا كموه الى النار التى كانت باليمن قال ابن اسحاق حدثنى أبو مالك بن ثعلبة بن أبى مالك القرظى قال سمعت ابراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدث أن تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا فدعاهم الى دينه وقال انه خير من دينكم قالوا فحاكمنا الى النار قال نعم قال وكانت باليمن فيا يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيا يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما متقلديها حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه فخرجت النار اليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فزجرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما تعرق جباههما ولم تضرهما فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن .

قال ابن اسحاق وقد حدثنى محدث أن الحبرين ومن خرج من حمير انما اتبعوا النار ليردوها وقالوا من ردها فهو أولى بالحق فدنا منها رجال حمير بأوثانهم ليردوها فدنت منهم لتأكلهم فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردها فدنا منها الحبران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة وهى تنكص عنهما حتى ردّاها الى مخرجها الذى خرجت منه فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما والله أعلم أى ذلك كان . قال ابن اسحاق وكان رئام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون فيه اذ كانوا على شركهم فقال الحبران لتبع انما هو شيطان يفتنهم بذلك فخل بيننا وبينه قال فشأنكما به فاستخرجا منه فيا يزعم أهل اليمن كلباً أسود فذبحاه ثم هدما ذلك البيت فبقاياه اليوم كما ذكر لى بها آثار الدماء التى كانت تهراق عليه وقد ذكرنا فى التفسير الحديث الذى ورد عن النبى (ص) (لا تسبوا تبعاً فانه قد كان أسلم) قال السهيلى وروى معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال (لا تسبوا أسعد الحميرى فانه أول من كسى الكعبة) .

قال السهيلى وقد قال تبع حين اخبره الحبران عن رسول الله (ص) شعراً

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله بارى النسم

فلو مد عمرى الى عمره ... لكنت وزيراً له وابن عم

وجاهدت بالسيف أعداءه ... وفرجت عن صدره كل غم

قال ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الانصار ويحفظونه بينهم وكان عند أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه وأرضاه . قال السهيلى وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور أن قبراً حفر بصنعاء فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضة مكتوب بالذهب وفيه هذا قبر لميس وحبى ابنتى تبع ماتا وهما تشهد ان

ألا آله إلا الله وحده لا شريك له وعلى ذلك ملت الصالحون قبلهما .

ثم صار الملك فيا بعد الى حسان بن تبان أسعد وهو أخو اليمامة الزرقاء التى صلبت على باب مدينة جو فسميت من يومئذ اليمامة . قال ابن اسحاق فلما ملك ابنه حسان بن أبى كرب تبان أسعد سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الاعاجم حتى اذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير وقبائل اليمن السير معه وأرادوا الرجعة الى بلادهم وأهليهم فكلموا أخا له يقال له عمرو وكان معه فى جيشه فقالوا له أقتل أخاك حسان وتملكك علينا وترجع بنا الى بلادنا فأجابهم فاجتمعوا على ذلك إلا ذا رعين الحميرى فانه نهى عمراً عن ذلك فلم يقبل منه فكتب ذو رعين رقعة فيها هذان البيتان :

ألا مَن يشتري سَهَراً بنوم ... سعيدٌ مَن يبيتُ قريرَ عَيْن

فأما حِميَرٌ غدرتْ وخانَتْ ... فمعذرةُ الالَه لِذي رُعَين

ثم استودعها عمراً . فلما قتل عمرو أخاه حسان ورجع الى اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فسأل الاطباء والحذاق من الكهان والعرافين عما به فقيل له انه والله ما قتل رجل أخاه قط أو ذا رحم بغياً إلا ذهب نومه وسلط عليه السهر فعند ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه فلما خلص إلى ذى رعين قال له إن لى عندك براءة قال وما هى قال الكتاب الذى دفعته إليك فأخرجه فاذا فيه البيتان فتركه ورأى أنه قد نصحه وهلك عمرو فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا

وثوب لخنيعة(١) ذى شناتر على ملك اليمن

وقد ملكها سبعاً وعشرين سنة . قال ابن اسحق فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت الملك يقال له لخنيعة ينوف ذو شناتر فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم وكان مع ذلك أمرءا فاسقاً يعمل عمل قوم لوط فكان يرسل الى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه فى مشربة له قد صنعها لذلك لئلا يملك بعد ذلك ثم يطلع من شربته تلك الى حرسه ومن حضر من جنده قد أخذ مسواكا فجعله فى فيه ليعلمهم أنه قد فرغ منه حتى بعث إلى زرعة ذى نواس بن تبان أسعد أخى حسان وكان صبياً صغيراً حين قتل أخوه حسان ثم شب غلاماً جميلا وسيما ذا هيئة وعقل فلما أتاه رسوله عرف ما يريد منه فأخذ سكينا حديداً لطيفاً فخبأه بين قدميه ونعله ثم أتاه فلما خلا معه وثب اليه فواثبه ذو نواس فوجأه حتى قتله ثم حز رأسه فوضعه فى الكوة التى كان يشرف منها ووضع مسواكه فى فيه ثم خرج على الناس فقالوا له ذا نواس أرطب أم يباس فقال سل نخماس استرطبان ذو نواس استرطبان لا باس (٢) فنظروا الى الكوة

---

(١) قوله لخنيعة بالنون هو كذلك فى سيرة ابن هشام

(٢) قال ابوذر الخشنى قالوا فى تفسير استرطبان انه معناه اخذته النسار بالفارسيه اهـ وقال السهيلى وقوله

فاذا رأس لخنيعة مقطوع فخرجوا فى أثر ذى نواس حتى أدركوه فقالوا ما ينبغى أن يملكنا غيرك إذ أرحتنا من هذا الخبيث فملكوه عليهم واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن فكان آخر ملوك حمير وتسمى يوسف فأقام فى ملكه زمانا ، وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الانجيل أهل فضل واستقامة من أهل دينهم لهم رأس يقال له عبد الله بن الثامر. ثم ذكر ابن اسحاق سبب دخول أهل نجران فى دين النصارى وان ذلك كان على يدى رجل يقال له فيميون كان من عباد النصارى بأطراف الشام وكان مجاب الدعوة وصحبه رجل يقال له صالح فكان يتعبدان يوم الأحد ويعمل فيميون بقية الجمعة فى البناء وكان يدعوا للمرضى والزمنى وأهل العاهات فيشفون ثم استأسره وصاحبه بعض الاعراب فباعوهما بنجران فكان الذى اشترى فيميون يراه اذا قام فى مصلاه بالبيت الذى هو فيه فى الليل يمتلئ عليه البيت نوراً فأعجبه ذلك من أمره وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة يعلقون عليها حلى نسائهم ويعكفون عندها فقال فيميون لسيده أرأيت ان دعوت الله على هذه الشجرة فهلكت أتعلمون أن الذى أنتم عليه باطل . قال نعم فجمع له أهل نجران وقام فيميون الى مصلاه فدعا الله عليها فأرسل الله عليها قاصفاً فجعفها من أصلها ورماها الى الأرض فاتبعه أهل نجران على دين النصرانية وحملهم على شريعة الانجيل حتى حدثت فيهم الاحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض فمن هنالك كانت النصرانية بنجران من أرض العرب ثم ذكر ابن اسحاق قصة عبد الله بن الثامر حين تنصر على يدى فيميون وكيف قتله واصحابه ذو نواس وخدلهم الاخدود ، وقال ابن هشام وهو الحفر المستطيل فى الارض مثل الخندق وأجج فيه النار وحرقهم بها وقتل آخرين حتى قتل قريباً من عشرين ألفاً كما قدمنا ذلك مبسوطاً فى أخبار بنى إسرائيل وكما هو مستقصى فى تفسير سورة (والسماء ذات البروج) من كتابنا التفسير ولله الحمد .

خروج الملك باليمن من حمير الى الحبشة السودان

كما أخبر بذلك شق وسطيح الكاهنان وذلك انه لم ينج من أهل نجران إلا رجل واحد يقال

استرطبان الى آخر الكلام مشكل بغير ما ذكره ابو الفرج فى الاغانى قال كان الغلام اذا خرج من عند لخنيعة وقد لاط به قطعوا مشافر ناقته وذنبها وصاحوا به ارطب ام يباس فلما خرج ذو نواس من عنده وركب ناقة له يقال لها السراب قالوا . ذا نواس . ارطب أم يباس . فقال . ستعلم الاحراس است ذى نواس . است رطب أم يباس . فهذا اللفظ مفهوم والذى وقع فى الاصل يريد سيرة ابن هشام هذا معناه ولفظه قريب من هذا

له دوس ذو ثعلبان على فرس له، فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذى نواس وجنوده واخبره بما بلغ منهم ، وذلك لأنه نصرانى على دينهم .فقال له بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك الى ملك الحبشة فانه على هذا الدين وهو أقرب الى بلادك .فكتب اليه يأمره بنصره والطلب بثأره . فقدم دوس على النجاشى بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفا من الحبشة وامر عليهم رجلا منهم يقال له ارياط ومعه فى جنده ابرهة الاشرم فركب ارياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس وسار اليه ذو نواس فى حمير ومن اطاعه من قبائل اليمن. فلما التقوا انهزم ذو نواس واصحابه فلما رأى ذو نواس مانزل به وبقومه وجه فرسه فى البحر ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر حتى افضى به الى غمره فادخله فيها فكان آخر العهد به ودخل ارياط اليمن وملكها

وقد ذكر ابن اسحاق هاهنا اشعاراً للعرب فيما وقع من هذه الكائنة الغريبة وفيها فصاحة وحلاوة وبلاغة وطلاوة ولكن تركنا إيرادها خشية الاطالة وخوف الملالة وبالله المستعان

خروج أبرهة الأشرم على أرياط واختلافهما

قال ابن اسحاق فاقام ارياط بارض اليمن سنين فى سلطانه ذلك ثم نازعه ابرهة حتى تفرقت الحبشة عليهما . فانحاز الى كل منهما طائفة ثم سار أحدهما الى الآخر.فلما تقارب الناس أرسل أبرهة الى ارياط انك لن تصنع بان تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئا شيئا ، فابرز لى وابرزلك فاينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده، فارسل إليه ارياط انصفت فخرج إليه أبرهة وكان رجلا قصيراً لحيا وكان ذا دين فى النصرانية وخرج إليه أرياط وكان رجلا جميلا عظيما طويلا وفى يده حربة له. وخلف أبرهة غلام يقال له عتودة يمنع ظهره فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه. فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته فبذلك سمى أبرهة الأشرم. وحمل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله وانصرف جند أرياط إلى أبرهة . فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وودى أبرهة أرياط .فلما بلغ ذلك النجاشى ملك الحبشة الذى بعثهم إلى اليمن غضب غضباً شديداً على أبرهة وقال عدا على أميرى فقتله بغير أمرى ثم حلف لايدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته فحلق أبرهة رأسه وملأ جرابا من تراب اليمن ثم بعث به الى النجاشى ثم كتب اليه :أيها الملك إنما كان ارياط عبدك وأنا عبدك فاختلفنا فى أمرك وكل طاعتك إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة واضبط لها وأسوس منه . وقد حلقت رأسى كله حين بلغنى قسم الملك وبعثت إليه بجراب تراب من أرضى ليضعه تحت قدمه فيبر قسمه فى.فلما انتهى ذلك الى النجاشى رضى عنه وكتب إليه أن أثبت بارض اليمن حتى يأتيك أمرى فاقام أبرهة باليمن

سبب قصد ابرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيرا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول)

قيل أول من ذلل الفيلة إفريدون بن أثفيان الذى قتل الضحاك قاله الطبرى وهو أول من اتخذ للخيل السرج . وأما أول من سخر الخيل وركبها فطهمورث وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا ويقال إن أول من ركبها اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب والله تعالى أعلم

ويقال إن الفيل مع عظمة خلقه يفرق من الهر . وقد احتال بعض أمراء الحروب فى قتال الهنود باحضار سنانير الى حومة الوغى فنفرت الفيلة

قال ابن اسحاق ثم إن أبرهة بنى القليس بصنعاء كنيسة لم ير مثلها فى زمانها بشىء من الارض وكتب الى النجاشى إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب

فذكر السهيلى أن أبرهة استذل أهل اليمن فى بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخرهم فيها أنواعا من السخر . وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة . وجعل ينقل اليها من قصر بلقيس رخاماً واحجاراً وأمتعة عظيمة وركب فيها صلباناً من ذهب وفضة . وجعل فيها منابر من عاج وابنوس وجعل ارتفاعها عظيما جداً واتساعها باهراً فلما هلك بعد ذلك أبرهة وتفرقت الحبشة كان من يتعرض لاخذ شىء من بنائها وامتعتها اصابته الجن بسوء . وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين ـ كعيب وامرأته ـ وكان طول كل منهما ستون ذراعا . فتركها أهل اليمن على حالها . فلم تزل كذلك الى زمن السفاح أول خلفاء بنى العباس فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجراً حجراً ودرست آثارها إلى يومنا هذا .

قال ابن إسحاق فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة الى النجاشى غضب رجل من النسأة من كنانة الذين ينسئون شهر الحرام الى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عند قوله (إنما النسىء زيادة فى الكفر الآية) قال ابن إسحاق فخرج الكنانى حتى أتى القليس فقعد فيه أى أحدث حيث لا يراه أحد ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر أبرهة بذلك . فقال من صنع هذا . فقيل له صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا فغضب فجاء فقعد فيها أى أنه ليس لذلك بأهل . فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن الى البيت حتى يهدمه . ثم أمر الحبشة

فهيأت وتجهزت. ثم سار وخرج معه بالفيل وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر . فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب الى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وماير يده من هدمه واخرابه .فاجابه من أجابه الى ذلك . ثم عرض له فقاتله .فهزم ذو نفر واصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً. فلما أراد قتله قال له ذو نفر ياأيها الملك لا تقتلني فانه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من القتل .فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق وكان أبرهة رجلا حليما ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ماخرج له حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم وهما شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به فلما هم بقتله قال له نفيل أيها الملك لاتقتلني فأني دليلك بأرض العرب وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ـ شهران وناهس ـ بالسمع والطاعة . فخلى سبيله وخرج به معه يدله. حتى إذا مر بالطائف خرج اليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف فقالوا له أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف.وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم

قال ابن اسحاق واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة .قال فبعثوا معه أبارغال يدله على الطريق الى مكة. فخرج أبرهة ومعه ابورغال حتى أنزله بالمغمس . فلما أنزله به مات أبورغال هنالك فرجمت قبره العرب فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس وقد تقدم في قصة ثمود أن أبارغال كان رجلا منهم وكان يمتنع بالحرم فلما خرج منه أصابه حجر فقتله وان رسول الله (ص) قال لاصحابه « وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب » فحفروا فوجدوهما قال وهو أبو ثقيف

قلت والجمع بين هذا وبين ماذكر ابن اسحاق أن أبارغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضا والله أعلم . وقد قال جرير:

إذا ماتَ الفرَزدَقُ فارجُموهُ　　كرجمِكُمُ لقبرِ أبي رُغَالِ

الظاهر أنه الثاني

قال ابن اسحاق فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الاسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى الى مكة. فساق اليه أموال تهامة من قريش وغيرهم. واصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب ابن هاشم ـ وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ـ فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله. ثم عرفوا أنه لاطاقة لهم به فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حناطة الحميري الى مكة وقال له سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ثم قل له ان الملك يقول إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فان لم تتعرضوا

لنا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم، فان هو لم يرد حربى فائتنى به فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبدالمطلب بن هاشم . فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة. فقال له عبد المطلب والله ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ـ أو كما قال ـ فان يمنعه منه فهو حرمه وبيته وان يخل بينه وبينه فوالله ماعندنا دفع عنه. فقال له حناطة فانطلق معى اليه فانه قد أمرنى أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر وكان له صديقاً ـ حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدواً أوعشيا؟ ماعندى غناء فى شىء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لى . فأرسل اليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك واسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير ان قدر على ذلك . فقال حسبى. فبعث ذو نفر الى أنيس فقال له ان عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت. قال افعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو الذى يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال فأذن له عليك فليكلمك فى حاجته فأذن له أبرهة قال وكان عبدالمطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجلهم فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ثم قال لترجمانه قل له حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان فقال حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لاتكلمنى فيه؟ فقال له عبدالمطلب إنى أنا رب الابل وان للبيت رباً سيمنعه. فقال ما كان ليمتنع منى. قال أنت وذاك . فرد على عبدالمطلب إبله

قال ابن اسحاق ويقال إنه كان قد دخل مع عبدالمطلب على أبرهة يعمر بن نفاثة بن عدى بن الديل ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة سيد بنى بكر وخويلد بن واثلة سيد هذيل فعرضوا على ابرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولايهدم البيت فأبى عليهم ذلك فالله أعلم أكان ذلك أم لا

فلما انصرفوا عنه انصرف عبدالمطلب الى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى رؤوس الجبال . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . وقال عبدالمطلب ـ وهو آخذ بحلقة باب الكعبة ـ :

لاهُمَّ إنَّ العبدَ يَـ ... ـمنع رَحْلَهُ فامنعْ رِحَالَكْ

لا يَغلبنّ صَليبُهم ومحالُهم غدْواً مِحالَك
ان كنتَ تاركهم وقبلتنا فأمرٌ مابدالك

قال ابن هشام هـذا ماصح له منها . وقال ابن إسحاق ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ماأبرهة فاعل.فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبى جيشه ،وكان اسم الفيل محموداً . فلما وجهوا الفيل الى مكة أقبل نفيل ابن حبيب حتى قام الى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال أبرك محمود وارجع راشداً من حيث أتيت .فانك فى بلد الله الحرام وارسل اذنه. فبرك الفيل

قال السهيلى أى سقط الى الأرض وليس من شأن الفيلة أن تبرك وقد قيل إن منها مايبرك كالبعير فالله أعلم

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربو رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى فادخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول . ووجهوه الى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى مكة فبرك . وارسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان[1] مع كل طائر منها ثلاثة احجار يحملها حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لاتصيب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم اصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى منها جاءوا. ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن فقال نفيل فى ذلك:

ألا حُيّيتِ عنّا يارُدَينا نَعِمناكُم مَعَ الإصباحِ عَيْنا
ردينةُ لو رأيتِ فلا ترَيه لدى جنبِ المحَصّبِ مارأينا
إذاً لعذَرْتِنِي وحمدتِ أمري ولم تأسي على مافاتَ بينا
حَمِدتُ اللهَ إذْ أبصرتُ طيراً وخِفتُ حجارةً تلقَى علَينا
وكلّ القومِ يسألُ عن نفيل كأنّ عليّ للحُبْشانِ دَينا

قال ابن إسحاق فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل. وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر. فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون

قال ابن اسحاق حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول مارؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب. ذلك العام ،وأنه أول مارؤى بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام

قال ابن إسحاق فلما بعث الله محمداً (ص) كان مما يعدد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله

(١) كذا فى الأصل ولعله مصحف من البلشون فانه يشبه الخطاطيف

مارد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول)

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام يتكلمان على تفسير هذه السورة والتى بعدها وقد بسطنا القول فى ذلك فى كتابنا التفسير بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى وله الحمد والمنة

قال ابن هشام الأبابيل الجماعات ولم تتكلم لها العرب بواحد علمناه . قال وأما السجيل فاخبرنى يونس النحوى وأبو عبيدة أنه عند العرب الشديد الصلب . قال وزعم بعض المفسرين انهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة وانها سنج وجل [1] فالسنج الحجر والجل الطين . يقول الحجارة من هذين الجنسين الحجر والطين . قال والعصف ورق الزرع الذى لم يقصب . وقال الكسائى سمعت بعض النحويين يقول واحد الابابيل ابيل وقال كثيرون من السلف الابابيل الفرق من الطير التى يتبع بعضها بعضا من ههنا وههنا . وعن ابن عباس كان لها خراطيم كخراطيم الطير واكف كاكف الكلاب وعن عكرمة كانت رؤوسها كرؤوس السباع خرجت عليهم من البحر وكانت خضراً . وقال عبيد بن عمير كانت سوداً بحرية فى مناقيرها واكفها الحجارة . وعن ابن عباس كانت أشكالها كعنقاء مغرب وعن ابن عباس كان أصغر حجر منها كرأس الانسان ومنها ماهو كالابل . وهكذا ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق . وقيل كانت صغاراً والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا محمد بن عبد الله بن أبى شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن عبيد بن عمير قال لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار حجرين فى رجليه وحجراً فى منقاره قال فجاءت حتى صفت على رؤوسهم . ثم صاحت وألقت ما فى رجليها ومناقيرها . فما يقع حجر على رأس رجل الا خرج من دبره . ولا يقع على شئ من جسده الا خرج من الجانب الآخر . وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً

وقد تقدم أن ابن اسحاق قال وليس كلهم اصابته الحجارة يعنى بل رجع منهم راجعون إلى اليمن حتى أخبروا أهلهم بما حل بقومهم من النكال وذكروا أن ابرهة رجع وهو يتساقط أنملة أنملة فلما وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات لعنه الله . وروى ابن اسحاق قال حدثنى عبدالله بن أبى بكر عن عمرة عن عائشة قالت لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة اعمين مقعدين يستطعمان . وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه أنيسا فأما قائده فلم يسم والله أعلم .

وذكر النقاش فى تفسيره أن السيل احتمل جثثهم فألقاها فى البحر . قال السهيلى وكانت قصة الفيل

(١) أصله (سنك وكل) ولما لم تتلفظ العرب بالكاف بدلوها بالجيم فقالوا سنج وجل وركبوها كلمة واحدة فهى مستعربة اهـ

أول المحرم من سنة ست وثمانين وثمانمائة [١] من تاريخ ذي القرنين .

قلت وفي عامها ولد رسول الله (ص) على المشهور . وقيل كان قبل مولده بسنين كما سنذكر إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

ثم ذكر ابن اسحاق ما قالته العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة التي نصر الله فيها بيته الحرام الذي يريد أن يشرفه ويعظمه ويطهره ويوقره ببعثة محمد (ص) وما يشرع له من الدين القويم الذي أحد أركانه الصلاة بل عماد دينه وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرة ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة : فان الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركي قريش وإنما كان النصر للبيت الحرام وارهاصا وتوطئة لبعثة محمد (ص) فمن ذلك ما قاله عبد الله بن الزبعرى السهمي

تنكّلوا [٢] عن بطنِ مكّةَ إنها ... كانت قديماً لا يُرام حَريمُها
لم تُخلَق الشّعرى لياليَ حُرِّمت ... إذْ لا عزيزَ من الأنامِ يرومها
سائلْ أميرَ الجيشِ عنها ما رأى ... فلسوفَ يُنبي الجاهلينَ عليمُها
ستّون ألفاً لم يؤوبوا أرضَهم ... بل لم يعشْ بعدَ الإيابِ سقيمُها
كانتْ بها عادٌ وجُرهمُ قبلَهم ... والله من فوقِ العبادِ يُقيمها

ومن ذلك قول أبي قيس بن الاسلت الانصاري المدني :

ومنْ صُنعهِ يومَ فيلِ الحبو ... شِ إذْ كلّما بعثوه رَزَم
محاجنُهم تحتَ أقرابه ... وقدْ شرَّموا أنفَه فانخرم
وقد جعلوا سوطَه مِغْولاً ... إذا يمّموه قفاهُ كُلِم
فولّى وأدبرَ أدراجَه ... وقدْ باءَ بالظلم من كان ثَم
فأرسل من فوقهم حاصباً ... فلفّهمُ مثلَ لفّ القزَم
تحضّ على الصّبرِ أحبارُهم ... وقد ثأجوا كثؤاجِ الغنَم

ومن ذلك قول أبي الصلت ربيعة بن أبي ربيعة وهب بن علاج الثقفي قال ابن هشام ويروى لامية ابن أبي الصلت :

إن آياتِ ربّنا ثاقباتٌ ... ما يُماري فيهنّ الا الكَفُور
خلقَ الليلَ والنهارَ فكلٌّ ... مستبينٌ حسابُه مقدور

---

(١) كذا بالاصل والذي في السهيلي سنة اثنتين وثمانين الخ اه .

(٢) قوله تنكلوا كذا بالأصل وفي سيرة ابن هشام المطبوعة باللام. لكن في تفسير غريبها الخشني تنكبوا بالباء. قال أي ارجعوا خوفا منها. تقول نكبت فلانا عن الشيء إذا صرفته عنه صرف تنحية وخوف

ثم يجلو النهارَ رب رحيم ... بمهاةٍ شعاعها منشور
حبسَ الفيـلَ بالمغمس حتى ... صارَ يحبو كأنه معقور
لازماً حلقة الجران كما قـ ... ـد من صخرِ كبكبٍ محدور
حولهم من ملوك كندة أبطا ... ل ملاويث في الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً ... كلهم عظم ساقه مكسور
كل دينٍ يوم القيامة عند الـلـ ... ـه إلا دينَ الحنيفة بور

ومن ذلك قول أبي قيس بن الاسلت أيضاً :

فقوموا فصلّوا ربكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الاخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق ... غداة أبي يكسوم هادي الكتائب
كتيبته بالسهل تمشي ورَجله ... على القاذفات في رؤس المناقب
فلما أتاكم نصرُ ذي العرش ردهم ... جنود المليك بين سافٍ وحاصب
فولوا سراعاً هاربين ولم يؤب ... إلى أهله ملحبش غير عصائب

ومن ذلك قول عبيد الله بن قيس الرقيات في عظمة البيت وحمايته بهلاك من أراده بسوء :

كاده الأشرم الذي جاء بالفيـ ... ـل فولى وجيشه مهزوم
واستهلت عليهم الطير بالجنـ ... ـدل حتى كأنه مرجوم
ذاك من يغزه من الناس يرجـ ... ـع وهو فل من الجيوش ذميم

قال ابن اسحاق وغيره فلما هلك ابرهة ملك الحبشة بعده ابنه يكسوم . ثم من بعده أخوه مسروق ابن ابرهة وهو آخر ملوكهم . وهو الذي انتزع سيف بن ذي يزن الحميرى الملك من يده بالجيش الذين قدم بهم من عند كسرى أنو شروان كما سيأتي بيانه

وكانت قصة الفيل في المحرم سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين وهو الثاني اسكندر ابن فلبس المقدوني الذي يؤرخ له الروم ولما هلك ابرهة وابناه وزال ملك الحبشة عن اليمن هجر القليس الذي كان بناه ابرهة وأراد صرف حج العرب اليه لجهله وقلة عقله . وأصبح يباباً لا أنيس به . وكان قد بناه على صنمين وهما كعيب وامرأته وكانا من خشب طول كل منهما ستون ذراعا في السماء وكانا مصحوبين من الجان ولهذا كان لا يتعرض أحد الى أخذ شئ من بناء القليس وأمتعته الا أصابوه بسوء . فلم يزل كذلك الى أيام السفاح أول خلفاء بني العباس فذكر له أمره وما فيه من الامتعة والرخام الذي كان ابرهة نقله اليه من صرح بلقيس الذي كان باليمن فبعث اليه من خربه حجراً حجراً وأخذ جميع ما فيه من الامتعة والحواصل هكذا ذكره السهيلي والله أعلم .

خروج الملك عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذي يزن

قال محمد بن اسحاق رحمه الله : فلما هلك أبرهة ملك الحبشة يكسوم بن ابرهة وبه كان يكنى فلما هلك يكسوم ملك اليمن من الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة . قال : فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن الحميري وهو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو ابن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن ابن الهميسع بن العرنجج ، وهو حمير بن سبأ – وكان سيف يكنى أبا مرة – حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكى اليه ما هو فيه وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم هو ويخرج اليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن فلم يشكه . فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق ، فشكا اليه أمر الحبشة فقال له النعمان إن لى على كسرى وفادة فى كل عام فاقم عندى حتى يكون ذلك ففعل ثم خرج معه فأدخله على كسرى وكان كسرى يجلس فى ايوان مجلسه الذى فيه تاجه وكان تاجه مثل القنقل [١] العظيم فيما يزعمون يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة معلقا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجه إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك ثم يدخل رأسه فى تاجه فاذا استوى فى مجلسه كشف عنه الثياب فلا يراه أحد لم يره قبل ذلك الابرك هيبة له . فلما دخل عليه طأطأ رأسه فقال الملك : إن هذا الأحمق يدخل علىّ من هذا الباب الطويل ثم يطأطئ رأسه . فقيل ذلك لسيف فقال إنما فعلت هذا لهمى لأنه يضيق عنه كل شئ . ثم قال : أيها الملك غلبتنا على بلادنا الاغربة . قال كسرى أي الاغربة الحبشة أم السند قال بل الحبشة فجئتك لتنصرنى ويكون ملك بلادى لك فقال له كسرى بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض العرب لا حاجة لى بذلك ، ثم أجازه بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة فلما قبض ذلك منه سيف خرج فجعل ينثر تلك الورق للناس ، فبلغ ذلك الملك فقال إن لهذا لشأنا ثم بعث اليه فقال عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس قال وما أصنع بحباك ما جبال أرضى التى جئت منها الا ذهب وفضة يرغبه فيها ، فجمع كسرى مرازبته فقال لهم ما ترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له . فقال قائل : أيها الملك إن فى سجونك رجالا قد حبستهم للقتل فلو أنك بعثتهم معه فان يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم وإن ظفروا كان ملكا أزددته ، فبعث معه كسرى من كان فى

(١) القنقل : هو مكيال يسع ثلاثة وثلاثين منا .

سجونه وكانوا ثمانمائة رجل واستعمل عليهم وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسباً وبيتاً فخرجوا فى ثمان سفائن فغرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه وقال له رجلى ورجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً فقال له وهرز أنصفت وخرج اليه مسروق ابن أبرهة ملك اليمن وجمع اليه جنده فأرسل اليهم وهرز ابنا له ليقاتلهم فيختبر قتالهم ، فقتل ابن وهرز فزاده ذلك حنقا عليهم فلما تواقف الناس على مصافهم . قال : وهرز أرونى ملكهم فقالوا له أترى رجلا على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء . قال : نعم . قالوا ذلك ملكهم فقال اتركوه قال فوقفوا طويلا ثم قال علام هو؟ قالوا قد تحول على الفرس . قال اتركوه فتركوه طويلا ثم قال علام هو؟ قالوا على البغلة قال وهرز : بنت الحمار ذل وذل ملكه ، إنى سأرميه فان رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أوذنكم فانى قد أخطأت الرجل وإن رأيتم القوم قد استداروا به ولاذوا فقد أصبت الرجل فاحملوا عليهم . ثم وتر قوسه وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيره من شدتها وأمر بحاجبيه فعصبا له ثم رماه فصك الياقوتة التى بين عينيه وتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه ، ونكس عن دابته واستدارت الحبشة ولاثت به ، وحملت عليهم الفرس فانهزموا فقتلوا وهربوا فى كل وجه ، وأقبل وهرز ليدخل صنعاء حتى إذا أتى بابها قال لا تدخل رايتى منكسة أبداً اهدموا هذا الباب فهدم ، ثم دخلها ناصباً رايته فقال سيف بن ذى يزن الحميرى :

يظن الناس بالملكيـ ... ـن أنهما قد التأما

ومن يسمع بلأمهما ... فان الخطب قد فقما

قتلنا القيل مسروقا ... وروينا الكثيب دما

وإن القيل قيل النا ... س وهرز مقسم قسما

يذوق مشعشعاً حتى ... يفئ السبى والنعما

ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف يهنئونه بعود الملك اليه وامتدحوه . فكان من جملة من وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، فبشره سيف برسول الله (ص) وأخبره بما يعلم من أمره وسيأتى ذلك مفصلا فى باب البشارات به عليه الصلاة والسلام .

قال ابن اسحاق : وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى قال ابن هشام ويروى لامية بن أبى الصلت :

ليطلب الوتر أمثال ابن ذى يزن ... ريم فى البحر للأعداء أحوالا

يمم قيصراً لما حان رحلته ... فلم يجد عنده بعض الذى سالا

ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرة ... من السنين يهين النفس والمالا

حتى أتى ببنى الأحرار يحملهم ... إنك عمرى لقد أسرعت قلقالا

لله درهم من عصبة خرجوا ... ما إن أرى لهم في الناس أمثالا
غلباً مرازبة بيضاً أساورة ... أسداً تربب في الغيضات أشبالا
يرمون عن شدف كأنها غبط ... بزمخر يعجل المرمى إعجالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد ... أضحى شريدهم في الأرض فُلّالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقا ... في رأس غمدان دارا منك محلالا
واشرب هنيئاً فقد شالت نعامتهم ... وأسبل اليوم في برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

يقال - إن غمدان - قصر باليمن بناه يعرب بن قحطان وملكه بعده واحتله واثلة بن حمير بن سبأ ويقال كان ارتفاعه عشرين طبقة فالله أعلم.

قال ابن اسحاق: وقال عدى بن زيد الحيرى وكان أحد بنى تميم:

ما بعد صنعاء كان يعمرها ... ولاة ملك جزل مواهبها
رفعها من بنى لدى قزع الـ ... ـمزن وتندى مسكا محاربها
محفوفة بالجبال دون عرى الـ ... ـكائد ما ترتقى غواربها
يأنس فيها صوت النهام إذا ... جاوبها بالعشي قاصبها
ساقت إليها الأسباب جند بنى الـ ... أحرار فرسانها مواكبها
وفوزت بالبغال توسق بالحـ ... ـتف وتسعى بها توالبها
حتى رآها الأقوال من طرف المـ ... ـنقل مخضرة كتائبها
يوم ينادون آل بربر واليكـ ... ـسوم لا يفلحن هاربها
فكان يوما باقى الحديث وزا ... لت أمة ثابت مراتبها
وبدل الفيج بالزرافة والأ ... يام خون جم عجائبها
بعد بنى تبع نخاورة ... قد اطمأنت بها مرازبها

قال ابن هشام: وهذا الذى عنى سطيح بقوله يليه ارم ذى يزن يخرج عليهم من عدن، فلا يترك منهم أحداً باليمن. والذى عنى شق بقوله: غلام ليس بدنى ولا مدن يخرج من بيت ذى يزن.

قال ابن اسحاق: وأقام وهرز والفرس باليمن فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء الذين باليمن اليوم. وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها ارياط إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة وأخرجت الحبشة اثنتين وسبعين سنة توارث ذلك منهم أربعة: إرياط ثم أبرهة ثم يكسوم بن أبرهة ثم مسروق ابن أبرهة.

ما آل اليه أمر الفرس باليمن

قال ابن هشام : ثم مات وهرز فأمر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن ثم مات المرزبان فأمر كسرى ابنه التينجان ثم مات فأمر ابن التينجان ، ثم عزله عن اليمن وامر عليها باذان وفى زمنه بعث رسول الله (ص) . قال ابن هشام فبلغنى عن الزهرى انه قال كتب كسرى الى باذان إنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى فسر اليه فاستتبه فان تاب والا فابعث إلى برأسه ، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله (ص) فكتب اليه رسول الله (ص) ان الله قد وعدنى أن يقتل كسرى فى يوم كذا و كذا من شهر كذا ، فلما أتى باذان الكتاب وقف لينتظر وقال ان كان نبياً فسيكون ما قال فقتل الله كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله (ص) . قال ابن هشام : على يدى ابنه شيرويه . قلت : وقال بعضهم بنوه تمالئوا على قتله ، وكسرى هذا هو ابرويز بن هرمز بن أنوشروان بن قباذ ، وهو الذى غلب الروم فى قوله تعالى : (الم غلبت الروم فى أدنى الأرض) كما سيأتى بيانه . قال : السهيلى وكان قتله ليلة الثلاثاء لعشر خلون من جمادى الأولى سنة تسع من الهجرة . وكان والله أعلم لما كتب اليه رسول الله (ص) يدعوه إلى الاسلام فغضب ومزق كتابه ، كتب الى نائبه باليمن يقول له ما قال . وفى بعض الروايات أن رسول الله (ص) قال لرسول باذان إن ربى قد قتل الليلة ربك فكان كما قال رسول الله (ص) قتل تلك الليلة بعينها، قتله بنوه لظلمه بعد عدله بعد ما خلعوه وولوا ابنه شيرويه فلم يعش بعد قتله أباه الاستة أشهر أو دونها . وفى هذا يقول خالد بن حق الشيبانى :

وكسرى إذ تقسّمه بنوه ... بأسياف كما اقتسم اللحام

تمخضت المنون له بيوم ... ألا ولكلّ حاملة تمام

قال الزهرى : فلما بلغ ذلك باذان بعث باسلامه واسلام من معه من الفرس الى رسول الله (ص) فقالت الرسل : الى من نحن يارسول الله . قال أنتم منا والينا أهل البيت . قال : الزهرى ومن ثم قال رسول الله (ص) سلمان منا أهل البيت . قلت والظاهر أن هذا كان بعد ما هاجر رسول الله (ص) إلى المدينة ولهذا بعث الامراء الى اليمن لتعليم الناس الخير ودعوتهم الى الله عز وجل ، فبعث أولا خالد بن الوليد وعلى بن أبى طالب ، ثم اتبعهما أبا موسى الاشعرى ومعاذ بن جبل . ودانت اليمن واهلها للاسلام ومات باذان فقام بعده ولده شهر بن باذان ، وهو الذى قتله الاسود العنسى حين تنبأ وأخذ زوجته كما سيأتى بيانه واجلى عن اليمن نواب رسول الله (ص) فلما قتل الاسود عادت اليد الاسلامية عليها . وقال ابن هشام : وهذا هو الذى عنى به سطيح بقوله . نبى زكى يأتيه الوحى من قبل العلى . والذى عنى شق بقوله بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك فى قومه

الى يوم الفصل .

قال ابن إسحاق : وكان فى حجر باليمن فيما يزعمون كتاب بالزبور كتب بالزمان الاول : لمن ملك ذمار الحمير الاخيار ، لمن ملك ذمار للحبشة الاشرار . لمن ملك ذمار لفارس الاحرار ، لمن ملك ذمار لقريش التجار . وقد نظم بعض الشعراء هذا المعنى فيما ذكره المسعودى :

حين شِيدَتْ ذمارُ قيلَ لمنْ أنـ ـتِ فقالت لِحِمْيَرَ الأخيار
ثم سِيلتْ من بعد ذاك فقالـ ـتْ أنا للحُبْشِ أخبثِ الأشرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن أنـ ـتِ فقالت لفارسِ الأحرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن أنـ ـت فقالت إلى قريش التُّجار

ويقال إن هذا الكلام الذى ذكره محمد بن إسحاق ، وجد مكتوبا عند قبر هود عليه السلام حين كشفت الريح عن قبره بأرض اليمن وذلك قبل زمن بلقيس بيسير فى أيام مالك بن ذى المنار أخى عمرو ذى الاذعار بن ذى المنار ويقال كان مكتوبا على قبر هود أيضاً وهو من كلامه عليه السلام حكاه السهيلى والله أعلم .

قصة الساطرون صاحب الحضر

وقد ذكر قصته هاهنا عبد الملك بن هشام لاجل ماقاله بعض علماء النسب : ان النعمان بن المنذر الذى تقدم ذكره فى ورود سيف بن ذى يزن عليه وسؤاله فى مساعدة فى رد ملك اليمن اليه إنه من سلالة الساطرون صاحب الحضر وقد قدمنا عن ابن إسحاق ان النعمان بن المنذر من ذرية ربيعة بن نصر وانه روى عن جبير بن مطعم انه من أشلاء قيص بن معد بن عدنان فهذه ثلاثة أقوال فى نسبه فاستطرد ابن هشام فى ذكر صاحب الحضر . والحضر حصن عظيم بناه هذا الملك وهو الساطرون على حافة الفرات وهو منيف مرتفع البناء ، واسع الرحبة والفناء ، دوره بقدر مدينة عظيمة وهو فى غاية الاحكام والبهاء والحسن والسناء ، واليه يجبى ماحوله من الاقطار والارجاء . واسم الساطرون الضيزن ابن معاوية بن عبيد بن أجرم من بنى سليح بن حلوان بن الحاف بن قضاعة كذا نسبه ابن الكلبى . وقال غيره كان من الجرامقة وكان أحد ملوك الطوائف وكان يقدمهم إذا اجتمعوا لحرب عدو من غيرهم وكان حصنه بين دجلة والفرات .

قال ابن هشام : وكان كسرى سابور ذو الأكتاف غزا الساطرون ملك الحضر وقال غير ابن هشام : انما الذى غزا صاحب الحضر سابور بن أردشير بن بابك أول ملوك بنى ساسان اذل ملوك الطوائف ورد الملك الى الأكاسرة . واما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل والله

أعلم ذكره السهيلي .

قال ابن هشام : فحصره سنتين وقال غيره أربع سنين ، وذلك لأنه كان أغار على بلاد سابور فى غيبته بأرض العراق فأشرفت بنت الساطرون وكان اسمها النضيرة فنظرت الى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلا ، فدست اليه أتتزوجنى ان فتحت لك باب الحضر . فقال : نعم ! فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت الا سكران فاخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه وبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب ويقال بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع فولجوا منه الى الحضر ، ويقال بل دلتهم على طلسم كان فى الحضر وكان فى علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء وتخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء ثم ترسل فاذا وقعت على سور الحضر سقط ذلك الطلسم فيفتح الباب ففعل ذلك فانفتح الباب ، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخربه وسار بها معه فتزوجها فبينا هى نائمة على فراشها ليلا إذ جعلت تململ لا تنام فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس . فقال لها سابور أهذا الذى اسهرك ! قالت نعم ؟ قال فما كان أبوك يصنع بك قالت: كان يفرش لى الديباج ويلبسنى الحرير ويطعمنى المخ ويسقينى الخمر . قال : أفكان جزاؤه منك ما صنعت به . أنت الى بذلك اسرع ، فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها ففيه يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

أَلَمْ تَرَ لِلحضْرِ إذْ أَهلُه ... بنعمى وهلْ خالِدٌ مَنْ نَعِم(١)
أَقامَ به شاهبورُ الجنو ... دَحولَيْن تضربُ فيه القُدم
فلمّا دعا ربّه دعوةً ... أنابَ اليه فلم ينتقم
فهل زادَه ربه قوةً ... ومثل مجاوره لم يقم
وكانَ دعا قومَه دعوةً ... هلموا إلى أمركمْ قد صُرِم
فموتوا كراماً بأسيافكم ... أرى الموتَ يجشمه من جشم

وقال عدي بن زيد فى ذلك :

والحضرُ صابتْ عليه داهيةٌ ... مِن فوقِهِ أيدٌ مناكبها
ربّيةٌ لم توقَ والدَها ... لحينها إذ أضاعَ راقبها
اذ غبقته صهباء صافية ... والخمر وهل يَهيم شاربها
فأسلمتْ أهلَها بليلتها ... تظنّ أن الرئيسَ خاطبها

(١) كذا فى سيرة ابن هشام والذى فى معجم البلدان وهل خالد من سلم اه

فكأنَّ حظَّ العروسِ اذ جَشَرَ الـ ... صبحُ دماءٌ تجرى سبائبها
وخرّبَ الحضر واستبيح وقد ... أحرقَ فى خدرها مشاجبها

وقال عدى بن زيد أيضا :

أيها الشامت المعيّر بالدهـ ... ـر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأ ... يام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم ... من ذا عليه من أن يضام خفير
اين كسرى كسرى الملوك أنو ... شروان أم أين قبله سابور
وبنو الاصفر الكرامُ ملوك الـ ... روم لم يبقَ منهم مذكور
واخو الحضر اذ بناه واذ دجلـ ... ـة تجبى اليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلـ ... ـسا فللطير فى ذراه وكور
لم يهبه ريبُ المنون فبا ... نَ الملك عنه فبابه مهجور
وتذكر ربَّ الخورنق إذ ... أشرف يوما وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يـ ... ـلك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبـ ... ـطة حى الى الممات يصير
ثم اضحوا كأنهم ورق جـ ... ـف فألوت به الصبا والدبور

قلت : ورب الخورنق الذى ذكره فى شعره رجل من الملوك المتقدمين وعظه بعض علماء زمانه فى أمره الذى كان قد أسرف فيه وعتا وتمرد فيه واتبع نفسه هواها ولم يراقب فيها مولاها فوعظه بمن سلف قبله من الملوك والدول وكيف بادوا ولم يبق منهم أحد وأنه ما صار اليه عن غيره الا وهو منتقل عنه إلى من بعده ، فأخذته موعظته وبلغت منه كل مبلغ فارعوى لنفسه ، وفكر فى يومه وأمسه ، وخاف من ضيق رمسه . فتاب وأناب ونزع عما كان فيه وترك الملك ولبس ذى الفقراء وساح فى الفلوات وحظى بالخلوات وخرج عما كان الناس فيه من اتباع الشهوات وعصيان رب السموات وقد ذكر قصته مبسوطة الشيخ الأمام موفق بن قدامة المقدسى رحمه الله فى كتاب التوابين وكذلك أوردها باسناد متين الحافظ أبو القاسم السهيلى فى كتاب الروض الأنف المرتب أحسن ترتيب وأوضح تبيين :

خبر ملوك الطوائف

وأما صاحب الحضر وهو ساطرون فقد تقدم أنه كان مقدما على سائر ملوك الطوائف وكان من زمن اسكندر بن فليبس المقدونى اليونانى وذلك لانه لما غلب على ملك الفرس دارا بن دارا وأذل

مملكته وخرب بلاده واستباح بيضة قومه ونهب حواصله ومزق شمل الفرس شـذر مذر عزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل ولا يلتئم لهم أمر فجعل يقر كل ملك على طائفة من الناس فى أقليم من أقاليم الارض ما بين عربها وأعاجمها فاستمر كل ملك منهم يحمى حوزته ويحفظ حصته ويستغل محله فاذا هلك قام ولده من بعده أو أحد قومه فاستمر الأمر كذلك قريبا من خمسمائة سنة حتى كان ازدشير بن بابك من بنى ساسان بن بهمن بن أسفنديار بن يشتاسب بن لهراسب فأعاد ملكهم إلى ما كان عليه ورجعت الممالك برمتها اليه وأزال ممالك ملوك الطوائف ولم يبق منهم تالد ولا طارف وكان تأخر عليه حصار صاحب الحضر الذى كان أكبرهم وأشدهم وأعظمهم إذ كان رئيسهم ومقدمهم فلما مات أزدشير تصدى له ولده سابور فحاصره حتى أخذه كما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر بنى اسماعيل وما كان من أمور الجاهلية الى زمان البعثة

تقدم ذكر اسماعيل نفسه عليه السلام مع ذكر الأنبياء وكيف كان من أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع أمه هاجر فاسكنها بوادى مكة بين جبال فاران حيث لا أنيس به ولا حسيس وكان اسماعيل رضيعا ثم ذهب وتركهما هنالك عن أمر الله له بذلك ليس عند أمه سوى جراب فيه تمر وكاء فيه ماء فلما نفد ذلك أنبع الله لهاجر زمزم التى هى طعام طعم وشفاء سقم كما تقدم بيانه فى حديث ابن عباس الطويل التام رواه البخارى رحمه الله . ثم نزلت جرهم وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين عند هاجر بمكة على أن ليس لهم فى الماء شئ إلا ما يشربون منه وينتفعون به فاستأنست هاجر بهم وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرهم فى كل حين يقال انه كان يركب البراق من بلاد بيت المقدس فى ذهابه وإيابه ثم لما ترعرع الغلام وشب وبلغ مع أبيه السعى كانت قصة الذبح كما تقدم بيان أن الذبيح هو اسماعيل على الصحيح ثم لما كبر تزوج من جرهم امرأة ثم فارقها وتزوج غيرها وتزوج بالسيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى وجاءته بالبنين الاثنى عشر كما تقدم ذكرهم وهم : نابت وقيذر . ومنشا . ومسمع . وماشى . ودما . وأذر . ويطور . ونبشى . وطما . وقيذما[1] هكذا ذكره محمد

---

(١) كذا فى الاصل احدى عشر . قال ابن جرير الطبرى : وقد ينطق باسماء أولاد اسماعيل بغير الالفاظ التى ذكرت عن ابن اسحاق وقد ضبطهم زميلنا الفاضل محب الدين افندى الخطيب فى كتابه اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب بعد بحثه عن ذلك فى مختلف المصادر هكذا .
نابت ، قَيْدَار ، يَطُور ، نَبا ، دُومة ، ميسمَع ، قِدْمة ، ادبِ آيل ، نَفِيس ، مِبْسام ، المميسع ، حداد .

ابن اسحاق وغيره عن كتب أهل الكتاب وله ابنة واحدة اسمها نسمة وهى التى زوجها من ابن أخيه العيصو بن اسحاق بن ابراهيم فولدت له منها الروم وفارس والاشبان أيضا فى أحد القولين .

ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون فى أنسابهم الى ولديه نابت وقيذر ، وكان الرئيس بعده والقائم بالامور الحاكم فى مكة والناظر فى أمر البيت وزمزم نابت بن اسماعيل وهو ابن أخت الجرهميين ، ثم تغلبت جرهم على البيت طمعا فى بنى أختهم فحكموا بمكة وما والاها عوضا عن بنى اسماعيل مدة طويلة فكان أول من صار اليه أمر البيت بعد نابت مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب ابن عيبر[1] بن نبت بن جرهم ، وجرهم بن قحطان ويقال جرهم بن يقطن بن عيبر بن شالخ بن ارفخشد ابن سام بن نوح الجرهمى . وكان نازلا بأعلى مكة بقعيقعان وكان السميدع سيد قطوراء نازلا بقومه فى أسفل مكة وكل منهما يعشر من مر به مجتازاً الى مكة . ثم وقع بين جرهم وقطوراء فاقتتلوا فقتل السميدع واستوثق الأمر لمضاض وهو الحاكم بمكة والبيت لا ينازعه فى ذلك ولد اسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم بمكة وبغيرها وذلك لخؤلتهم له ولعظمة البيت الحرام . ثم صار الملك بعده الى ابنه الحارث ثم الى عمرو بن الحارث ثم بغت جرهم بمكة واكثرت فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام حتى ذكر أن رجلا منهم يقال له اساف بن بغى وامرأة يقال لها نائلة بنت وائل اجتمعا فى الكعبة فكان منه اليها الفاحشة فمسخهما الله حجرين فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما فلما طال المطال بعد ذلك بعدد عبدا من دون الله فى زمن خزاعة كما سيأتى بيانه فى موضعه. فكانا صنمين منصوبين يقال لهما إساف ونائلة . فلما اكثرت جرهم البغى بالبلد الحرام تمالأت عليهم خزاعة الذين كانوا نزلوا حول الحرم وكانوا من ذرية عمرو بن عامر الذى خرج من اليمن لاجل ما توقع من سيل العرم كما تقدم . وقيل ان خزاعة من بنى اسماعيل فالله أعلم .

والمقصود أنهم اجتمعوا لحربهم وآذنوهم بالحرب واقتتلوا واعتزل بنو اسماعيل كلا الفريقين فغلبت خزاعة وهم بنو بكر بن عبد مناة وغبشان واجلوهم عن البيت فعمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى وهو سيدهم الى غزالى الكعبة وهما من ذهب وحجر الركن وهو الحجر الأسود والى سيوف محلاة واشياء اخر فدفنها فى زمزم وعلم زمزم وارتحل بقومه فرجعوا الى اليمن . وفى ذلك يقول عمرو بن الحارث ابن مضاض :

وقائلة والدمع سكبٌ مبادر ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجر

كأنْ لم يكن بين الحجون الى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكةَ سامر

فقلت لها والقلب منى كأنما ... يُلجلجه بين الجناحين طائر

(١) وفى السهيلى : ابن حىّ فى الكاتبين .

بلى نحنُ كنّا أهلَهـا فأزالنـا صروفُ الليالي والجدودُ العواثر
وكنا ولاةَ البيت من بعد نابتٍ نطوّف بذاك البيت والخيرُ ظاهر
ونحن وَلينا البيتَ من بعد نابتٍ بعزّ فما يحظى لدينا المكاثر
ملَكنا فعززنا فأعظِمْ بملكنا فليس لحيٍّ غيرِنا ثَمَّ فاخر
ألم تنكحوا من خيرِ شخصٍ علمتُه فأبناؤه منا ونحنُ الأصاهر
فإن تنثنِ الدنيـا علينا بحالها فإنّ لها حالاً وفيها التشاجر
فأخرجَنا منهـا المليكُ بقـدرةٍ كذلك يالناسِ تجري المقادر
أقولُ إذا نام الخليّ ولم أنم أذا العرشُ لا يبعدْ سهيلٌ وعامر
وبُدِّلتُ منها أوجُهـاً لا أحبها قبـائل منها حمير ويحـابر
وصرْنا أحاديثاً وكُنا بغبطـةٍ بذلك عضَّتنا السـنونَ الغوابر
فسحّتْ دموعُ العين تبكي لبلدةٍ بها حَرَم أمْنٌ وفيها المشاعر
وتبكي لبيتٍ ليس يؤذَى حَمامه يظـلّ به أمناً وفيـه العصافر
وفيه وحوشٌ لا تُرام أنيسةٌ اذا خرجت منه فليست تغادر

قال ابن اسحاق: وقال عمرو بن الحارث بن مضاض أيضا يذكر بني بكر وغبشان الذين خلفوا بعدهم بمكة:

يا أيها الناسُ سِيروا إن قُصارَكم أن تصبحوا ذاتَ يومٍ لا تسيرونا
حُثوا المطيَّ وأرْخوا من أزمّتها قبلَ المماتِ وقضُّوا ما تقضونا
كنا أناساً كما كنتم فغيَّرنا دهر فأنتم كما صرنا تصيرونا

قال ابن هشام: هـذا ما صح له منها وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هـذه الأبيات أول شعر قيل في العرب وأنها وجـدت مكتوبة في حجر باليمن ولم يسم قائلها وذكر السهيلي لهذه الابيات أخوة وحكى عندها حكاية عجيبة وانشادات معربة . قال: وزاد أبو الوليـد الأزرقي في كتابه فضائل مكة على هذه الابيات المذكورة المنسوبة الى عمرو بن الحارث بن مضاض:

قد مالَ دهرٌ علينا ثم أهلـكنا بالبغي فينا وبزّ الناسَ ناسونا
واستخبِروا في صنيع الناس قبلكم كما استبانَ طريقٌ عنـده الهونا
كنا زماناً ملوكَ الناس قبلَكم بمسكنٍ في حَرامِ الله مسكونا

قصة خزاعة وعمرو بن لحي وعبادة العرب للأصنام

قال ابن اسحاق : ثم أن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بنى بكر بن عبد مناة ، وكان الذى يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى وقريش إذ ذاك حلول وصرم وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة . قالوا : وإنما سميت خزاعة خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمر الظهران فأقاموا به . قال عون بن أيوب الانصارى ثم الخزرجى فى ذلك :

فلما هبطنا بطن مرّ تخزّعت خزاعةُ منا فى حلولٍ كراكرِ
حمت كل وادٍ من تهامة واحتمت بصُمِّ القنا والمرهفاتِ البواترِ

وقال أبو المطهر اسماعيل بن رافع الأنصارى الاوسى :

فلما هبطنا بطن مكة أحمدت خزاعةُ دارَ الآكلِ المتحاملِ
فحلت أكاريسا وشتّت قنابلاً على كل حيٍّ بين نجدٍ وساحلِ
نفوا جرهماً عن بطن مكة واحتبوا بعزٍّ خزاعىٍّ شديدِ الكواهلِ

فوليت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر حتى كان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول ابن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعى الذى تزوج قصى بن كلاب ابنته حبى فولدت له بنيه الأربعة عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا ، ثم صار أمر البيت اليه كما سيأتى بيانه وتفصيله فى موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة . واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمائة سنة وقيل خمسمائة سنة والله أعلم . وكانوا سوس (١) فى ولايتهم وذلك لأن فى زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحى لعنه الله فانه أول من دعاهم إلى ذلك وكان ذا مال جزيل جداً . يقال : أنه فقأ أعين عشرين بعيراً وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف بعير وكان من عادة العرب أن من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها لانه يدفع بذلك العين عنها . وممن ذكر ذلك الأزرقى وذكر السهيلى : أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة وكسى عشرة آلاف حلة فى كل سنة يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ويلت لهم السويق . قالوا : وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم .

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة الى الشام فى بعض أموره

(١) كذا بالاصل ولعلها «وكانوا قوم سوء فى ولايتهم»

فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ويقال ولد عمليق بن لاوذ بن سام ابن نوح رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا . فقال : لهم ألا تعطونى منها صنما فأسير به الى أرض العرب فيعبدونه . فأعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه

قال ابن اسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل عليه السلام أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد الا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه .

وفى الصحيح عن أبى رجاء العطاردى . قال : كنا فى الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها .

قال ابن اسحاق : واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الامم قبلهم من الضلالات وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم عليه السلام يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفات والمزدلفة وهدى البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه . فكانت كنانة وقريش إذا هلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك ، الا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده . يقول الله تعالى لمحمد (ص) : (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) أى ما يوحدونى لمعرفة حقى الا جعلوا معى شريكا من خلقى .

وقد ذكر السهيلى وغيره : أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحى وأن ابليس تبدى له فى صورة شيخ فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ويقول كما يقول واتبعه العرب فى ذلك .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله (ص) كان إذا سمعهم يقولون لبيك لا شريك لك يقول: قد قد أى حسب حسب . وقد قال البخارى ثنا اسحاق بن ابراهيم حدثنا يحيى بن آدم ثنا اسرائيل عن أبى حفص ، عن أبى هريرة عن النبى (ص) . قال : إن أول من سيب السوائب وعبد الاصنام ، أبو خزاعة عمرو ابن عامر وإنى رأيته يجر أمعاءه فى النار . تفرد به احمد من هذا الوجه . وهذا يقتضى أن عمرو بن لحى هو أبو خزاعة الذى تنسب اليه القبيلة بكمالها كما زعمه بعضهم من أهل النسب فيما حكاه ابن اسحاق وغيره ولو تركنا بمجرد هذا لكان ظاهراً فى ذلك بل كالنص ولكن قد جاء ما يخالفه من بعض الوجوه فقال البخارى وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهرى . قال سمعت سعيد بن المسيب قال : البحيرة التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ـ والسائبة ـ التى كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها

شئ . قال وقال أبو هريرة . قال النبي (ص.): رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار . كان أول من سيب السوائب . وهكذا رواه البخاري أيضاً ومسلم من حديث صالح بن كيسان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة به . ثم قال البخاري ورواه ابن الهاد عن الزهري قال الحاكم أراد البخاري رواه ابن الهاد عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهري كذا قال .

وقد رواه احمد عن عمرو بن سلمة الخزاعي عن الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة سمعت رسول الله (ص.) يقول : رأيت عمرو بن عامر يجر قصبه في النار ، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة . ولم يذكر بينهما عبد الوهاب بن بخت كما قال الحاكم فالله أعلم .

وقال أحمد أيضا حدثنا عبد الرازق حدثنا معمر عن الزهري عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص.) رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، وهو أول من سيب السوائب . وهذا منقطع من هذا الوجه . والصحيح الزهري عن سعيد عنه كما تقدم وقوله في هذا الحديث والذي قبله الخزاعي يدل على أنه ليس والد القبيلة بل منتسب اليها مع ما وقع في الرواية من قوله أبوخزاعة تصحيف من الراوي من أخو خزاعة أو أنه كان يكنى بابي خزاعة ولا يكون ذلك من باب الاخبار بأنه أبوخزاعة كلهم والله أعلم

وقال محمد بن اسحاق : حدثني محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي أن أبا صالح السمان حدثه انه سمع أبا هريرة يقول سمعت رسول الله (ص.) يقول : لأكثم بن الجون الخزاعي يا أكثم رأيت عمرو بن لحى ابن قمة بن خندف يجر قصبة في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه . فقال أكثم :عسى أن يضرني شبهه يارسول الله قال :لا انك مؤمن وهو كافر، انه كان أول من غير دين اسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي . ليس في الكتب من هذا الوجه وقد رواه ابن جرير عن هناد بن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي (ص.) بنحوه أومثله وليس في الكتب أيضاً . وقال البخاري حدثني محمد بن أبي يعقوب أبوعبدالله الكرماني حدثنا حسان بن ابراهيم حدثنا يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله (ص.) رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمراً يجر قصبه وهوأول من سيب السوائب . تفرد به البخاري. وروى الطبراني من طريق صالح عن ابن عباس مرفوعا في ذلك . والمقصود أن عمرو بن لحى لعنه الله كان قد ابتدع لهم أشياء في الدين غير بها دين الخليل فاتبعه العرب في ذلك فضلوا بذلك ضلالا بعيدا بيناً فظيعاً شنيعاً وقد انكر الله تعالى عليهم في كتابه العزيز في غير ما آية منه فقال تعالى : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) الآية . وقال تعالى: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) وقد تكلمنا على هذا كله مبسوطاً وبينا اختلاف السلف في تفسير ذلك فمن أراده فليأخذه

من ثم ولله الحمد والمنة . وقال تعالى : (ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون) . وقال تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) (وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون). (وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم. قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) .

وقال البخاري فى صحيحه .

باب جهل العرب

حدثنا أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) وقد ذكرنا تفسير هذه الآية وما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التى ظنها كبيرهم عمرو بن لحى قبحه الله مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم وهو كاذب مفتر فى ذلك ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام فيه بل قد تابعوه فيما هو اطم من ذلك واعظم بكثير وهو عبادة الاوثان مع الله عز وجل وبدلوا ما كان الله بعث به ابراهيم خليله من الدين القويم والصراط المستقيم من توحيد عبادة الله وحده لاشريك له وتحريم الشرك وغيروا شعائر الحج ومعالم الدين بغير علم ولا برهان ولا دليل صحيح ولا ضعيف واتبعوا فى ذلك من كان قبلهم من الأمم المشركين وشابهوا قوم نوح وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام ولهذا بعث الله اليهم نوحا وكان أول رسول بعث ينهى عن عبادة الأصنام كما تقدم بيانه فى قصة نوح (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً) الآية قال ابن عباس كان هؤلاء قوما صالحين فى قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم فلما طال عليهم الأمد عبدوهم وقد بينا كيفية ما كان من أمرهم فى عبادتهم بما أغنى عن اعادته ههنا .

قال ابن اسحاق وغيره : ثم صارت هذه الأصنام فى العرب بعد تبديلهم دين اسماعيل فكان ود لبنى كلب بن مرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وكان منصوباً بدومة الجندل

وكان سواع لبنى هذيل بن الياس بن مدركة بن مضر . وكان منصوبا بمكان يقال له رهاط . وكان يغوث لبنى أنعم من طىء ولأهل جرش من مذحج وكان منصوباً بجرش . وكان يعوق منصوباً بأرض همدان من اليمن لبنى خيوان بطن من همدان . وكان نسر منصوباً بأرض حمير لقبيلة يقال لهم ذو الكلاع .

قال ابن اسحاق : وكان لخولان بأرضهم صنم يقال له عم أنس يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله فيما يزعمون فادخل فى حق عم أنس من حق الله الذى قسموه له تركوه له وما دخل فى حق الله من حق عم أنس ردوه عليه وفيهم أنزل الله (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً) قال : وكان لبنى ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة صنم يقال له سعد صخرة بفلاة من أرضهم طويلة فاقبل رجل منهم بابل له مؤبلة ليقفها عليه التماس بركته فيما يزعم فلما رأته الابل وكانت مرعية لا تركب وكان الصنم يهراق عليه الدماء نفرت منه فذهبت فى كل وجه وغضب ربها واخذ حجراً فرماه به ثم قال لا بارك الله فيك نفرت على ابلى ثم خرج فى طلبها فلما اجتمعت له قال :

أتينا الى سعدٍ ليجمعَ شملنا فشتّتنا سعدٌ فلا نحنُ من سعد
وهل سعدُ الا صخرةٌ بتنوفةٍ من الأرض لا يدعولغيٍّ ولا رُشد

قال ابن اسحاق : وكان فى دوس صنم لعمرو بن حممة الدوسى . قال وكانت قريش قد اتخذت صنما على بئر فى جوف الكعبة يقال له هبل وقد تقدم فيما ذكره ابن هشام انه أول صنم نصبه عمرو بن لحى لعنه الله .

قال ابن اسحاق : واتخذوا إسافا ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما ثم ذكر أنهما كانا رجلا وامرأة فوقع عليها فى الكعبة فمسخهما الله حجرين . ثم قال : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة أنها قالت سمعت عائشة تقول : ما زلنا نسمع أن اسافاً ونائلة كانا رجلا وامرأة من جرهم أحدثا فى الكعبة فمسخهما الله عز وجل حجرين والله أعلم . وقد قيل إن الله لم يمهلهما حتى فجرا فيها بل مسخهما قبل ذلك فعند ذلك نصبا عند الصفا والمروة فلما كان عمرو بن لحى نقلهما فوضعهما على زمزم وطاف الناس بهما وفى ذلك يقول أبو طالب :

وحيث يُنيخُ الأشعرونَ ركابَهم بمفضي السيولِ من أسافٍ ونائل

وقد ذكر الواقدى : أن رسول الله (ص) لما أمر بكسر نائلة يوم الفتح خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل والثبور . وقد ذكر السهيلى : أن أجا وسلمى وهما جبلان بأرض الحجاز انما سميا باسم رجل اسمه أجا ابن عبد الحى فجر بسلمى بنت حام فصلبا فى هذين الجبلين فعرفا بهما قال : وكان بين أجا وسلمى صنم لطى يقال له فلس .

قال ابن اسحاق : واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه فاذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به

حين يركب فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه الى سفره . وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل ان يدخل على أهله . قال فلما بعث الله محمداً (ص) بالتوحيد قالت قريش (أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيءٌ عجاب) .

قال ابن اسحاق : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب ، وتهدى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها . وهي مع ذلك تعرف فضل الكعبة عليها لأنها بناء ابراهيم الخليل عليه السلام ومسجده . وكانت لقريش وبنى كنانة العزى بنخلة وكانت سدنتها وحجابها بنو شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم وقد خربها خالد بن الوليد زمن الفتح كما سيأتى . قال : وكانت اللات لثقيف بالطائف وكانت سدنتها وحجابها بنى معتب من ثقيف وخربها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة بعد مجئ أهل الطائف كما سيأتى . قال : وكانت مناة للاوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد وقد خربها أبو سفيان أيضا وقيل على بن أبى طالب كما سيأتى . قال : وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة وكان يقال له الكعبة اليمانية ، ولبيت مكة الكعبة الشامية وقد خربه جرير بن عبد الله البجلى كما سيأتى قال . وكان قلس لطئ ومن يليها بجبلى طئ بين أجا وسلمى ، وهما جبلان مشهوران كما تقدم . قال : وكان رآم بيتا لحمير وأهل اليمن كما تقدم ذكره فى قصة تبع أحد ملوك حمير وقصة الحبرين حين خرباه وقتلا منه كلباً أسود . قال : وكانت رضاء بيتاً لبنى ربيعة بن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم ولها يقول المستوغر واسمه كعب بن ربيعة بن كعب :

ولقد شددت على رضاءٍ شَدةً　　فتركتُها قفراً بقاعٍ اسحما
واعان عبد الله فى مكروهها　　وبمثلِ عبد الله أغشى المحرما

ويقال إن المستوغر هذا عاش ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة وكان أطول مضر كلها عمراً وهو الذى يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها　　وعمرتُ من عدد السنين مئينا
مائة حَدَتْها بعدها مائتان لي　　وازددتُ من عدد الشهور سنينا
هل ما بقي الا كما قد فاتنا　　يومٌ يمرُّ وليلة تحدونا

قال ابن هشام : ويروى هذه الأبيات لزهير بن جناب بن هبل . قال السهيلى : ومن المعمرين الذين جازوا المائتين والثلاثمائة زهير هذا وعبيد بن شرية ودغفل بن حنظلة النسابة والربيع بن ضبع الفزارى وذو الأصبع العدوانى ونصر بن دهمان بن أشجع بن ريث بن غطفان ، وكان قد اسود شعره بعد ابيضاضه وتقوم ظهره بعد اعوجاجه . قال : وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب بن وائل وأياد بسنداد وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

بين الخورنق والسدير وبارق ... والبيتِ ذي الشرفاتِ من سنداد

وأول هذه القصيدة :

ولقد علمتُ وأنّ تطاولَ بي المدى ... أنّ السبيلَ سبيلُ ذي الأعوادِ

ماذا أؤمّل بعد آل محرّق ... تركوا منازلهم وبعد إياد

نزلوا بأنقرةٍ يسيل عليهمُ ... ماءُ الفرات يجيء من أطواد

أرض الخورنق والسدير وبارق ... والبيتِ ذي الكعبات من سنداد

جَرَت الرياحُ على محلِّ ديارهم ... فكأنّما كانوا على ميعاد

وأرى النعيمَ وكلّ ما يُلهى به ... يوماً يَصيرُ الى بِلى ونفاد

قال السهيلي : الخورنق قصر بناه النعمان الاكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له سنمار في عشرين سنة ولم يُر بناء أعجب منه فخشي النعمان أن يبني لغيره مثله فألقاه من أعلاه فقتله فى ذلك يقول الشاعر :

جزاني جزاه الله شرَّ جزائه ... جزاءَ سنمّارٍ وما كانَ ذا ذنْب

سوى رصْفه البنيانَ عشرين حجّةً ... يعدّ عليه بالقراميد والسكب

فلما انتهى البنيانُ يوماً تمامه ... وآضَ كمثل الطود والباذخ الصعْب

رمى بسنّمار على حُقّ رأسه ... وذاك لعمرُ الله من أقبح الخطب

قال السهيلي : أنشده الجاحظ في كتاب الحيوان والسنمار من أسماء القمر والمقصود أن هذه البيوت كلها هدمت . لما جاء الاسلام جهز رسول الله (ص) إلى كل بيت من هذه سرايا تخربه وإلى تلك الأصنام من كسرها حتى لم يبق الكعبة ما يضاهيها وعبد الله وحده لا شريك له كما سيأتي بيانه وتفصيله فى مواضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

خبر عدنان جد عرب الحجاز

لا خلاف أن عدنان من سلالة اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام واختلفوا فى عدة الآباء بينه وبين اسماعيل على أقوال كثيرة فأكثر ما قيل أربعون أبا وهو الموجود عند أهل الكتاب أخذوه من كتاب رخيا كاتب أرميا بن حلقيا على ما سنذكره وقيل بينهما ثلاثون وقيل عشرون وقيل خمسة عشر وقيل عشرة وقيل تسعة وقيل سبعة وقيل إن أقل ما قيل في ذلك أربعة لما رواه موسى بن يعقوب عن عبد الله بن وهب بن زمعة الزمعي عن عمته عن أم سلمة عن النبي (ص) أنه قال معد بن عدنان

ابن أدد بن زند بن اليرى بن اعراق الثرى . قالت : أم سلمة فزند هو الهميسع واليرى هو نابت واعراق الثرى هو اسماعيل لأنه ابن ابراهيم وابراهيم لم تأكله النار كما أن النار لا تأكل الثرى قال الدارقطنى لا نعرف زنداً الا فى هذا الحديث وزند بن الجون وهو أبو دلامة الشاعر

قال الحافظ أبو القاسم السهيلى وغيره من الأئمة : مدة ما بين عدنان إلى زمن اسماعيل أكثر من أن يكون بينهما أربعة آباء أو عشرة أو عشرون وذلك أن معد بن عدنان كان عمره زمن بخت نصر ثنتى عشرة سنة . وقد ذكر أبو جعفر الطبرى وغيره أن الله تعالى أوحى فى ذلك الزمان إلى أرمياء بن حلقيا أن اذهب إلى بخت نصر فأعلمه أنى قد سلطته على العرب وأمر الله أرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق كى لا تصيبه النقمة فيهم فانى مستخرج من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل ففعل أرميا ذلك واحتمل معدا على البراق إلى أرض الشام فنشأ مع بنى اسرائيل ممن بقى منهم بعد خراب بيت المقدس وتزوج هناك امرأة اسمها معانة بنت جوشن من بنى دب بن جرهم قبل أن يرجع إلى بلاده ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب وكان رخيا كاتب أرمياء قد كتب نسبه فى كتاب عنده ليكون فى خزانة أرمياء فيحفظ نسب معد كذلك والله أعلم . ولهذا كره مالك رحمه الله رفع النسب إلى ما بعد عدنان .

قال السهيلى : وإنما تكلمنا فى رفع هذه الانساب على مذهب من يرى ذلك ولم يكرهه كابن اسحاق والبخارى والزبير بن بكار والطبرى وغيرهم من العلماء ، وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك ، وقال له من أين له علم ذلك فقيل له فإلى اسماعيل فانكر ذلك أيضاً وقال ومن يخبره به وكره أيضا أن يرفع فى نسب الأنبياء مثل أن يقال ابراهيم بن فلان بن فلان هكذا ذكره المعيطى فى كتابه .

قال : وقول مالك هذا نحو مما روى عن عروة بن الزبير أنه قال ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان واسماعيل ، وعن ابن عباس أنه قال بين عدنان واسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وروى عن ابن عباس أيضا أنه كان إذا بلغ عدنان يقول كذب النسابون مرتين أو ثلاثا والأصح عن ابن مسعود مثله . وقال عمر بن الخطاب انما ننتسب الى عدنان ، وقال أبو عمر بن عبد البر فى كتابه الانباه فى معرفة قبائل الرواه روى ابن لهيعة عن أبى الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يقول ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان الا تخرصاً . وقال أبو الاسود : سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبى خيثمة وكان من أعلم قريش بأشعارهم وانسابهم يقول ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان فى شعر شاعر ولا علم عالم

قال أبو عمر : وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود وعمرو بن ميمون الأزدى ومحمد بن كعب القرظى إذا تلوا (والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله) قالوا كذب النسابون .

قال أبو عمر رحمه الله : والمعنى عندنا فى هـذا غير ما ذهبوا والمراد أن من ادعى احصاء بنى آدم فانهم لا يعلمهم الا الله الذى خلقهم وأما انساب العرب فان أهل العلم بأيامها وانسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهات قبائلها واختلفوا فى بعض فروع ذلك .

قال أبو عمر : والذى عليه أئمة هـذا الشأن فى نسب عدنان قالوا عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور ابن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن اسماعيـل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام وهكذا ذكره محمد بن اسحاق بن يسار فى السيرة .

قال ابن هشام : ويقال عـدنان بن أدبنى عدنان بن أد بن أدد ثم ساق أبو عمر بقية النسب إلى آدم كما قدمناه فى قصة الخليل عليه السلام . وأما الانساب إلى عـدنان من سائر قبائل العرب فمحفوظة شهيرة جداً لا يتمارى فيها اثنان والنسب النبوى اليه أظهر وأوضح من فلق الصبح وقـد ورد حديث مرفوع بالنص عليه كما سنورده فى موضعه بعـد الـكلام على قبائل العرب وذكر انسابها وانتظامها فى سلك النسب الشريف والأصـل المنيف إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العزيز الحكيم. وما أحسن مانظم النسب النبوى الامام أبو العباس عبدالله بن محمد الناشى فى قصيدته المشهورة المنسوبة اليه وهى قوله:

مدحتُ رسولَ الله أبغي بمدحه	وُفورَ حظوظي من كريم المآرب
مدحتُ امرءاً فاقَ[1] المديحَ موحّداً	بأوصافه عن مُبعِدٍ ومقارب
نبياً تسامى فى المشارق نورُه	فلاحتْ هواديه لأهل المغارب
أتتنا به الأنباءُ قبلَ مجيئه	وشاعتْ به الأخبارُ فى كلّ جانب
وأصبحتِ الكهّانُ تهتفُ باسمه	وتنفي به رجمَ الظنونِ الكواذب
وأُنطِقتِ الأصنامُ نطقاً تبرّأتْ	الى الله فيه من مقالِ الأكاذب
وقالت لأهـلِ الكفرِ قولاً مبيّناً	أتاكم نبيٌّ من لؤيِّ بن غالب
ورامَ استراقَ السمعِ جِنٌّ فزيّلتْ	مقاعدَهم منها رجومُ الكواكب
هدانا الى مالم نكنْ نهتدي له	لطولِ العمى من واضحاتِ المذاهب
وجاء بآياتٍ تبيّنَ أنها	دلائلُ جبّارٍ مثيبٍ معاقب
فمنها انشقاقُ البدرِ حين تعمّمت	شعوبُ الضياءِ منه رؤوسَ الاخاشب
ومنها نبوعُ الماءِ بينَ بنانه	وقد عدِمَ الورّادُ قربَ المشارب
فروّى به جمّاً غفيراً وأسهلت	بأعناقه طوعاً أكفُّ المذانب

(١) فى نسخة الانباه المطبوعة : فات

وبئرٍ طفتْ بالماء من مسّ سهمه   ومن قبلُ لم تسمح بمذقةِ شارب
وضرعٍ مراةٍ فاستدرّ ولم يكنْ   به درّةٌ تُصغي الى كفّ حالب
ونُطقِ فصيحٍ من ذراعٍ مبينةٍ   لكيدِ عدوٍّ للعداوة ناصب
واخبارِه بالأمر من قبل كونه   وعند بواديه بما في العواقب
ومن تلكم الآياتِ وحيٌ أتى به   قريب المآتي مستجمّ العجائب
تقاصرتِ الافكارُ عنه فلم يطقْ   بليغاً ولم يخطر على قلب خاطب
حوى كلَّ علمٍ واحتوى كلَّ حكمةٍ   وفاتَ مرامَ المستمرّ الموارب
أتانا به لا عن رويّةِ مرتئٍ   ولا صُحُفٍ مُستَمْلٍ ولا وصفِ كاتب
يواتيه طوراً في إجابةِ سائلٍ   وافتاء مستفتٍ ووعظ مخاطب
واتيان برهانٍ وفرضِ شرائعٍ   وقصِّ أحاديثٍ ونصِّ مآرب
وتصريفِ أمثالٍ وتثبيتِ حجّةٍ   وتعريفِ ذي جحدٍ وتوقيف كاذب
وفي مجمع النادي وفي حومةِ الوغى   وعند حدوث المعضِلات الغرائب
فيأتي على ما شئتَ من طُرقاته   قويمَ المعاني مستدرّ الضرائب
يصدّق منه البعضُ بعضاً كأنما   يلاحَظ معناه بعين المراقب
وعجزُ الورى عن ان يجيئوا بمثل ما   وصفناه معلومٌ بطول التجارب
تأتّى بعبدِ الله أكرم والدٍ   تبلّجَ منه عن كريمِ المناسب
وشيبةَ ذي الحمدِ الذي فخرتْ به   قريشُ على أهلِ العلى والمناصب
ومن كان يُستسقى الغمامُ بوجهه   ويُصدَرُ عن آرائه في النوائب
وهاشمٍ الباني مُشيِّد افتخاره   بغرّ المساعي وامتنانِ المواهب
وعبدِ مناف وهو علّم قومَه اشـ   تطاطَ الأماني واحتكامَ الرغائب
وإنّ قصيّاً من كريمِ غرابه   لفي مَنهلٍ لم يَدنُ من كفّ قاضب
به جمّع اللهُ القبائلَ بعدما   تقسّمها نهبُ الاكفِّ السوالب
وحلّ كلابٌ من ذرى المجدِ معقلاً   تقاصَرَ عنه كل دانٍ وغائب
ومرّة لم يحلل مريرةَ عزمه   سِفاهُ سفيهٍ أو مَحُوبةُ حائب
وكعب علا عن طالبِ المجدِ كعبُه   فنال بأدنى السعي أعلا المراتب
وألوى لؤيٌّ بالعُداة فطُوّعت   له همَمُ الشمّ الانوفِ الأغالب
وفي غالبٍ بأسٌ أبى البأس دونهم   يدافع عنهم كلّ قِرنٍ مغالب

وكانت لفهرٍ في قريشٍ خَطابةٌ ... يعوذُ بها عندَ اشتجارِ المخاطبِ
ومازالَ منهم مالكٌ خيرَ مالكٍ ... وأكرمَ مصحوبٍ وأكرمَ صاحبِ
وللنضر طولٌ يقصُرُ الطرْفُ دونَهُ ... بحيثُ التقى ضوءَ النجومِ الثواقبِ
لعمري لقد أبدى كنانةُ قبله ... محاسنَ تأبى إن تَطوعَ لغالبِ
ومن قبله أبقى خُزَيمةُ حَمْدَه ... تليدُ تُراثٍ عن حميدِ الأقاربِ
ومدركةٌ لم يدركِ الناسُ مثلَهُ ... أعفَّ وأعلى عن دنيّ المكاسبِ
وإلياسُ كان اليأسُ منه مُقارِناً ... لأعدائه قبلَ اعتدادِ الكتائبِ
وفى مُضَرٍ يُستجمعُ الفخرُ كله ... إذا اعتركت يوماً زحوفُ المقانبِ
وحلَّ نزارٌ من رياسة أهله ... محلاً تسامى عن عيونِ الرواقبِ
وكان معدٌّ عدةً لوليّهِ ... إذا خافَ من كيدِ العدوِّ المحاربِ
ومازال عدنانٌ إذا عُدَّ فضلُهُ ... توحَّدَ فيه عن قرينٍ وصاحبِ
وأدٌّ تأدّى الفضلُ منه بغايةٍ ... وإرثٍ حواهُ عن قُرومٍ اشايبِ
وفى أددٍ حلمٌ تزيَّنَ بالحِجا ... اذا الحلمُ أزهاهُ قطوبُ الحواجبِ
ومازال يَستعلي هميسعُ بالعلى ... ويتبعُ آمالَ البعيدِ المراغبِ
ونبتٌ بنتْهُ دوحةُ العزِّ وابتنى ... معاقلَهُ فى مشمخرِّ الأهاضبِ
وحيزتْ لقيذارٍ سماحةُ حاتمٍ ... وحكمةُ لقمانٍ وهمةُ حاجبِ
همُوا نسلُ اسماعيل صادقِ وعدِه ... فما بعده فى الفخرِ مسعىً لذاهبِ
وكان خليلُ اللهِ أكرمَ من عَنَت ... له الارضُ من ماشٍ عليها وراكبِ
وتارحُ مازالتْ له أريحيةٌ ... تُبيّنُ منه عن حميدِ المضاربِ
وناحورُ نحّارُ العدى حُفِظتْ له ... مآثرُ لما يُحصِها عدُّ حاسبِ
وأشرعُ فى الهيجاءِ ضيغمُ غابةٍ ... يقدُّ الطلى بالمرهفاتِ القواضبِ
وأرغو نابٌ فى الحروب محكّمٌ ... ضنينٌ على نفسِ المشحِّ المغالبِ
وما فالغٌ فى فضله تِلْوَ قومه ... ولا عابرٌ من دونهم فى المراتبِ
وشالخُ وارفخشذٌ وسامٌ سمتْ بهم ... سجايا حمتْهم كلَّ زارٍ وعائبِ
ومازال نوحٌ عند ذي العرش فاضلاً ... يعدّده فى المصطفَيْنَ الاطايبِ
ولمكُ أبوهُ كان فى الروعِ رائعاً ... جريئاً على نفسِ الكميِّ المضاربِ
ومن قبلِ لمكٍ لم يزل متوشلخ ... يذود العدى بالذائداتِ الشوازبِ

وكانت لادريسَ النبيّ منازلٌ ... منَ الله لم يُقرن بهمة راغب
ويارِدُ بعزٍّ عند آلٍ سراته ... أبَى الخزايا مستدقّ المآرب
وكانت لمهلاييل فيهمُ فضائلٌ ... مهذبةٌ من فاحشات المثالب
وقينان من قبلُ اقتنى مجدَ قومه ... وقفّا بشأوِ الفضل وخدَ الركائب
وكان أنوش ناشَ للمجد نفسَه ... ونزّهها عن مُرذِلات المطالب
ومازال شيثٌ بالفضائل فاضلاً ... شريفاً بريئاً من ذميم المعائب
وكلّهم من نور آدم أقبسوا ... وعن عوده أجنوا ثمار المناقب
وكان رسول الله أكرمَ منجَبٍ ... جرى في ظهور الطيّبين المناجب
مقابلةً آباؤه أمهاته ... مُبرّأة من فاضحات المثالب
عليه سلامُ الله في كل شارقٍ ... ألاحَ لنا ضوءاً وفي كلّ غارب

هكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البر وشيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى في تهذيبه من شعر الاستاذ أبي العباس عبد الله بن محمد الناشي المعروف بابن شرشير أصله من الانبار ورد بغداد ثم ارتحل الى مصر فأقام بها حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومائتين وكان متكلما معتزلياً يحكي عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه المقالات فيما يحكي عن المعتزلة وكان شاعراً مطبقاً حتى أن من جملة اقتداره على الشعر كان يعاكس الشعراء في المعاني فينظم في مخالفتهم ويبتكر مالا يطيقونه من المعاني البديعة والالفاظ البليغة حتى نسبه بعضهم إلى الهوس والاختلاط وذكر الخطيب البغدادي أن له قصيدة على قافية واحدة قريباً من أربعة آلاف بيت ذكرها الناجم وأرخ وفاته كما ذكرنا

قلت: وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته وعلمه وفهمه وحفظه وحسن لفظه واطلاعه واضطلاعه واقتداره على نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره فرحمه الله وأثابه وأحسن مصيره وإيابه.

أُصول أنساب عرب الحجاز الى عدنان

وذلك لأن عدنان ولد له ولدان معد وعك. قال السهيلي: ولعدنان أيضاً ابن اسمه الحارث وآخر يقال له المذهب. قال وقد ذكر أيضا في بنيه الضحاك. وقيل إن الضحاك ابن لمعد لا ابن عدنان. قال وقيل إن عدن التي تعرف به مدينة عدن وكذلك أبين كانا ابنين لعدنان حكاه الطبري فتزوج عك في الأشعريين وسكن في بلادهم من اليمن فصارت لغتهم واحدة فزعم بعض أهل اليمن أنهم منهم فيقولون عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد بن يغوث ويقال عك بن عدنان بن الذيب بن عبد الله

ابن الاسد ويقال الريث بدل الذيب والصحيح ما ذكرنا من أنهم من عدنان . قال عباس بن مرداس

وعكُّ بن عدنانَ الذين تلعّبوا ... بغسّانَ حتى طُرِّدوا كلَّ مَطرد

وأما معد فولد له أربعة نزار وقضاعة وقنص وإياد وكان قضاعة بكره وبه كان يكنى وقد قدمنا الخلاف في قضاعة ولكن هذا هو الصحيح عند ابن اسحاق وغيره والله أعلم .

وأما قنص فيقال انهم هلكوا ولم يبق لهم بقية إلا أن النعمان بن المنذر الذي كان نائبا لكسرى على الحيرة كان من سلالته على قول طائفة من السلف وقيل بل كان من حمير كما تقدم والله أعلم .

وأما نزار فولد له ربيعة ومضر وانمار قال ابن هشام واياد بن نزار كما قال الشاعر :

وفُتُوٍ حَسَنٌ أوجهُهم ... من إيادِ بن نزار بن معدّ

قال واياد ومضر شقيقان أمهما سودة بنت عك بن عدنان وأم ربيعة وانمار شقيقة بنت عك بن عدنان . ويقال جمعة بنت عك بن عدنان : قال ابن اسحاق فأما انمار فهو والد خثعم وبجيلة قبيلة جرير ابن عبدالله البجلى قال وقد تيامنت فلحقت باليمن . قال ابن هشام : وأهل اليمن يقولون انمار بن أراش ابن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ قلت والحديث المتقدم في ذكر سبأ يدل على هذا والله أعلم .

قالوا: وكان مضر أول من حدا وذلك لأنه كان حسن الصوت فسقط يوما عن بعيره فوثبت يده فجعل يقول وايدياه وايدياه فاعنقت الابل لذلك . قال ابن اسحاق : فولد مضر بن نزار رجلين الياس وعيلان وولد لالياس مدركة وطابخة وقمعة وأمهم خندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة قال ابن اسحاق وكان اسم مدركة عامراً واسم طابخة عمراً ولكن اصطاد صيداً فبيناهما يطبخانه إذ نفرت الابل فذهب عامر في طلبها حتى أدركها وجلس الآخر يطبخ فلما راحا على أبيهما ذكرا له ذلك فقال لعامر أنت مدركة وقال لعمرو أنت طابخة قال وأما قمعة فيزعم نساب مضر ان خزاعة من ولد عمرو ابن لحى بن قمعة بن الياس قلت والاظهر أنه منهم لا والدهم وأنهم من حمير كما تقدم والله أعلم .

قال ابن اسحاق : فولد مدركة خزيمة وهذيل وأمهما امرأة من قضاعة وولد خزيمة كنانة وأسدا وأسدة والهون وزاد أبو جعفر الطبرى [1] في أبناء كنانة على هؤلاء الأربعة عامراً والحارث والنضير

---

(١) قوله وزاد أبو جعفر الطبرى الخ كذا بالأصول وهى عبارة مختلة لأن التعبير بزاد يقتضى أن هذا المزيد ولد لمدركة وهو يناقض قوله في أبناء كنانة واليك عبارة أبي جعفر الطبرى اسم نضر قيس وأمه برة بنت مر بن أد بن طابخة واخوته لأبيه وأمه نضير ومالك وملكان وعامر والحارث وعمرو وسعد وعوف وغنم ومخرمة وجرول وغزوان وحدال وأخوهم من أبيهم عبد مناة وأمه فكيهة وقيل فكهة وهى الذفراء بنت هنىّ بن بلىّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ولعله سقط من الناسخ

وغنما وسعداً وعوفا وجرولا والحدال وغزوان . قال وولد كنانة النضر وملكا وعبد مناة وملكان

قريش نسباً واشتقاقاً وفضلاً وهم بنو النضر بن كنانة

قال ابن إسحاق : وأم النضر برة بنت مر بن أد بن طابخة وسائر بنيه لامرأة أخرى وخالفه ابن هشام فجعل برة بنت مر أم النضر ومالك وملكان . وأم عبد مناة هالة بنت سويد بن الغطريف من من أزد شنوءة . قال ابن هشام : النضر هو قريش فمن كان من ولده فهو قرشي ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وقال ويقال فهر بن مالك هو قريش فمن كان من ولده فهو قرشي ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وهذان القولان قد حكاهما غير واحد من أئمة النسب كالشيخ أبي عمر بن عبدالبر والزبير بن بكار ومصعب وغير واحد . قال أبو عبيد وابن عبد البر : والذى عليه الأكثرون أنه النضر بن كنانة لحديث الأشعث بن قيس قلت وهو الذى نص عليه هشام بن محمد بن السائب الكلبي وأبو عبيدة معمر بن المثنى وهو جادة مذهب الشافعي رضي الله عنه . ثم اختار أبو عمر أنه فهر بن مالك واحتج بأنه ليس أحد اليوم ممن ينتسب إلى قريش إلا وهو يرجع في نسبه إلى فهر بن مالك ثم حكى اختيار هذا القول عن الزبير بن بكار ومصعب الزبيري وعلي بن كيسان قال واليهم المرجع في هذا الشان وقد قال الزبير بن بكار وقد أجمع نساب قريش وغيرهم أن قريشاً إنما تفرقت من فهر بن مالك والذى عليه من أدركت من نساب قريش أن ولد فهر بن مالك قرشي وان من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس من قريش ثم نصر هذا القول نصراً عزيزاً وتحامى له بأنه ونحوه أعلم بانساب قومهم وأحفظ لما آثرهم وقد روى البخاري من حديث كليب بن وائل قال قلت لربيبة النبي (ص) يعني زينب في حديث ذكره أخبريني عن النبي (ص) أكان من مضر قالت فمن كان إلا من مضر من بني النضر بن كنانة . وقال الطبراني ثنا ابراهيم بن نائلة الاصبهاني حدثنا اسماعيل بن عمرو البجلي ثنا الحسن بن صالح عن أبيه عن الجشيش[1] الكندي قال جاء قوم من كندة إلى رسول الله (ص) فقالوا أنت منا وادعوه فقال لا ، نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من ابينا .

وقال الامام أبو عثمان سعيد بن يحيى بن سعيد ثنا أبي ثنا الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس

ما حكاه ابن هشام في سيرته ونصه قال ابن اسحاق فولد كنانة بن خزيمة أربعة نفر النضر بن كنانة ومالك بن كنانة وعبد مناة بن كنانة وملكان بن كنانة اهـ وبه يظهر قوله وزاد أبو جعفر الخ ولعل قوله فيما بعد وولد كنانة الخ مؤخر من تقديم من الناسخ عن محود الامام .

(١) كذا أورده هنا وفي أسد الغابة : ان ذلك غلط وإنما هو جفشيش

قال جاء رجل من كندة يقال له الجشيش الى النبى (ص) فقال يارسول الله إنا نزعم ان عبد مناف منا فاعرض عنه ثم عاد فقال مثل ذلك ثم أعرض عنه ثم عاد فقال مثل ذلك فقال النبى (ص) نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا فقال الاشعث ألا كنت سكت من المرة الاولى فابطل ذلك قولهم على لسان نبيه (ص) وهذا غريب أيضا من هذا الوجه والكلبى ضعيف والله أعلم .

وقد قال الامام احمد حدثنا بهز وعفان قالا ثنا حماد بن سلمة . قال ثنى عقيل بن أبى طلحة وقال عفان عقيل بن طلحة السلمى عن مسلم بن الهيصم عن الاشعث بن قيس أنه قال أتيت رسول الله (ص) فى وفد كندة . قال عفان لا يرونى أفضلهم قال فقلت يارسول الله إنا نزعم أنكم منا قال فقال رسول الله (ص) نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا . قال فقال الاشعث بن قيس فوالله لا أسمع أحداً نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد . وهكذا رواه ابن ماجه من طرق عن حماد ابن سلمة به وهذا إسناد جيد قوى وهو فيصل فى هذه المسألة فلا التفات الى قول من خالفه والله أعلم وله الحمد والمنة . وقد قال جرير بن عطية التميمى يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان :

فما الأمّ التى وَلَدت قريشاً ... بمُقْرِفة النّجار ولا عقيم
وما قَرْمٌ بأنجبَ من أبيكم ... ولا خالٌ بأكرمَ من تميم

قال ابن هشام : يعنى أم النضر بن كنانة وهى برة بنت مر أخت تميم بن مر .

وأما اشتقاق قريش فقيل من التقرش وهو التجمع بعد التفرق وذلك فى زمن قصى بن كلاب فانهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم كما سيأتى بيانه وقد قال حذافة بن غانم العدوى :

أبوكم قُصَيٌّ كان يُدعى مُجَمِّعا ... به جمّع اللهُ القبائلَ من فِهْر

وقال بعضهم : كان قصى يقال له قريش قيل من التجمع والتقرش التجمع كما قال أبو خلدة اليشكرى :

اخوةٌ قَرّشوا الذنوبَ علينا ... فى حديثٍ من دهرنا وقديم

وقيل سميت قريش من التقرش وهو التكسب والتجارة حكاه ابن هشام رحمه الله . وقال الجوهرى القرش الكسب والجمع وقد قرش يقرش قال الفراء وبه سميت قريش وهى قبيلة وأبوهم النضر بن كنانة فكل من كان من ولده فهو قرشى دون ولد كنانة فما فوقه . وقيل من التفتيش قال هشام بن الكلبى كان النضر بن كنانة تسمى قريشاً لأنه كان يقرش عن خلة الناس وحاجتهم فيسدها بماله والتقريش هو التفتيش وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم فسموا بذلك من فعلهم وقرشهم قريشاً وقد قال الحارث بن حلزة فى بيان أن التقرش التفتيش :

أيّها الناطقُ المقرّشُ عنّا ... عندَ عمروٍ فهل له إبقاء

حكى ذلك الزبير بن بكار وقيل قريش تصغير قرش وهو دابة فى البحر قال بعض الشعراء :

وقريشٌ هي التي تسكن البحـ ـرَ بهـا سُمِّيت قريشٌ قريشا

قال البيهقي : أخبرنا أبو نصر بن قتادة أنا أبو الحسن علي بن عيسى الماليني حدثنا محمد بن الحسن بن الخليل النسوي أن أبا كريب حدثهم حدثنا وكيع بن الجراح عن هشام بن عروة عن أبيه عن أبي ركانة العامري أن معاوية قال لابن عباس فلم سميت قريش قريشاً ؟ فقال لدابة تكون في البحر تكون أعظم دوابه فيقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته . قال فأنشدني في ذلك شيئاً فأنشده شعر الجمحي إذ يقول :

وقريشٌ هي التي تسكن البحـ ـر بهـا سميت قريش قريشا
تأكلُ الغثَّ والسمينَ ولا تتركُ لذي الجناحين ريشا
هكذا في البلادِ حيّ قريش يأكلون البلادَ أكلا كميشا
ولهم آخرَ الزمانِ نبيٌّ يُكثرُ القتلَ فيهمُ والخموشا

وقيل سموا بقريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة وكان دليل بني النضر وصاحب ميرتهم فكانت العرب تقول قد جاءت عير قريش قالوا وابن بدر بن قريش هو الذي حفر البئر المنسوبة اليه التي كانت عندها الوقعة العظمى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله أعلم .

ويقال في النسبة إلى قريش قرشي وقريشي قال الجوهري وهو القياس . قال الشاعر :

لكل قريشيّ عليه مهابةٌ سريعٌ إلى داعي النَّدا والتكرم

قال فاذا أردت بقريش الحي صرفته وإن أردت القبيلة منعته قال الشاعر في ترك الصرف :

• وكفى قريشُ المعضلاتِ وسادَها[(١)] •

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي عمر والاوزاعي قال حدثني شداد أبو عمار حدثني واثلة ابن الاسقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى هاشما من قريش واصطفاني من بني هاشم » . قال أبو عمر بن عبد البر يقال بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنو هاشم فخذه وبنو عبد مناف بطنه وقريش عمارته وبنو كنانة قبيلته ومضر شعبه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين .

ثم قال ابن اسحاق : فولد النضر بن كنانة مالكا ومخلداً قال ابن هشام والصلت وأمهم جميعا بنت سعد بن الظرب العدواني . قال كثير بن عبد الرحمن وهو كُثير عزَّة أحد بني مُليح بن عمرو من خزاعة :

---

(١) البيت لعدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك على ما في اللسان وأوله : غلب المساميح الوليد سماحة عن محمود الامام .

أليس أبي بالصلت أم ليس إخوتي   لكل هجان من بني النضر أزهرا
رأيت ثياب العصب مختلط السدى   بنا وبهم والحضرمي المخصرا
فإن لم تكونوا من بني النضر فاتركوا   أراكا بأذناب الفوائج أخضرا

قال ابن هشام : وبنو مليح بن عمرو يعزون إلى الصلت بن النضر .

قال ابن اسحاق : فولد مالك بن النضر فهر بن مالك وأمه جندلة بنت الحارث بن مضاض الاصغر وولد فهر غالبا ومحاربا والحارث وأسدا وأمهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة .

قال ابن هشام : وأختهم لأبيهم جندلة بنت فهر . قال ابن اسحاق : فولد غالب بن فهر لؤى بن غالب وتيم بن غالب وهم الذين يقال لهم بنو الأدرم وأمهما سلمى بنت عمرو الخزاعى . قال ابن هشام وقيس بن غالب وأمه سلمى بنت كعب بن عمرو الخزاعى وهى أم لؤى قال ابن اسحاق فولد لؤى بن غالب أربعة نفر كعبا وعامراً وسامة وعوفا . قال ابن هشام ويقال والحارث وهم جشم بن الحارث فى هزان من ربيعة وسعد بن لؤى وهم بنانة فى شيبان بن ثعلبة وبنانة حاضنة لهم وخزيمة بن لؤى وهم عائذة فى شيبان بن ثعلبة .

ثم ذكر ابن اسحاق خبر سامة بن لؤى وأنه خرج الى عمان فكان بها وذلك لشنآن كان بينه وبين أخيه عامر فأخافه عامر فخرج عنه هاربا الى عمان وأنه مات بها غريبا وذلك أنه كان يرعى [1] ناقته فعلقت حية بمشفرها فوقعت لشقها ثم نهشت الحية سامة حتى قتلته فيقال إنه كتب بأصبعه على الارض :

عين فابكي لسامة بن لؤي   علقت ما بسامة العلاقه
لا أرى مثل سامة بن لؤي   يوم حلوا به قتيلا لناقه
بلغا عامراً وكعبا رسولا   أن نفسي اليهما مشتاقه
إن تكن فى عمان داري فإني   غالبي خرجت من غير فاقه
رب كأس هرقت يا ابن لؤي   حذر الموت لم تكن مهراقه
رمت دفع الحتوف يا ابن لؤي   مالمن رام ذاك بالحتف طاقه
وخروس السرى تركت رذيا   بعد جد وجدة ورشاقه

قال ابن هشام : وبلغنى أن بعض ولده أتى رسول الله (ص) فانتسب الى سامة بن لؤى فقال له رسول الله (ص) : « آلشاعر فقال له بعض أصحابه كأنك يارسول الله أردت قوله » ؟

رب كأس هرقت يا ابن لؤي   حذر الموت لم تكن مهراقه

---

(١) كذا بالاصول والذى فى ابن اسحاق بينا هو يسير على ناقته إذ وضعت رأسها ترتع فاخذت حية بمشفرها فهصرتها حتى وقعت الناقة

قال أجل : وذكر السهيلي عن بعضهم أنه لم يعقب . وقال الزبير ولد أسامة بن لؤى غالبا والنبيت والحارث قالوا وكانت له ذرية بالعراق يبغضون عليا ومنهم على بن الجعد كان يشتم أباه لكونه سماه عليا ومن بنى سامة بن لؤى محمد بن عرعرة بن اليزيد شيخ البخارى .

وقال ابن اسحاق : وأما عوف بن لؤى فانه خرج فيا يزعمون فى ركب من قريش حتى اذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أبطئ به فانطلق من كان معه من قومه فأتاه ثعلبة بن سعد وهو أخوه فى نسب بنى ذبيان فحبسه وزوجه والتاطه وآخاه فشاع نسبه فى ذبيان وثعلبة فيا يزعمون .

قال ابن اسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين أن عمر بن الخطاب قال لو كنت مدعيا حيا من العرب أو ملحقهم بنا لادعيت بنى مرة بن عوف إنا لنعرف منهم الأشباه مع ما نعرف من موقع ذلك الرجل حيث وقع يعنى عوف بن لؤى .

قال ابن اسحاق : وحدثنى من لا أتهم أن عمر بن الخطاب قال لرجال منهم من بنى مرة إن شئتم أن ترجعوا الى نسبكم فارجعوا اليه . قال ابن اسحاق : وكان القوم أشرافا فى غطفان هم سادتهم وقادتهم قوم لهم صيت فى غطفان وقيس كلها فأقاموا على نسبهم قالوا وكانوا يقولون اذا ذكر لهم نسبهم ما ننكره وما نجحده وإنه لأحب النسب الينا ثم ذكر أشعارهم فى انتمائهم الى لؤى قال ابن اسحاق : وفيهم كان البسل وهو تحريم ثمانية أشهر لهم من كل سنة من بين العرب وكانت العرب تعرف لهم ذلك ويأمنونهم فيها ويؤمنونهم أيضا قلت : وكانت ربيعة ومضر إنما يحرمون أربعة أشهر من السنة وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم واختلفت ربيعة ومضر فى الرابع وهو رجب فقالت : مضر هو الذى بين جمادى وشعبان وقالت ربيعة هو الذى بين شعبان وشوال وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى بكرة أن رسول الله (ص) قال فى خطبة حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » فنص على ترجيح قول مضر لا ربيعة وقد قال الله عز وجل « إن عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم » فهذا رد على بنى عوف بن لؤى فى جعلهم الأشهر الحرم ثمانية فزادوا على حكم الله وأدخلوا فيه ما ليس منه وقوله فى الحديث ثلاث متواليات رد على أهل النسئ الذين كانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر . وقوله فيه ورجب مضر رد على ربيعة . قال ابن اسحاق : فولد كعب بن لؤى ثلاثة ، مرة ، وعديا ، وهصيصا وولد مرة ، ثلاثة أيضا كلاب بن مرة ، وتيم بن مرة ، ويقظة بن مرة من أمهات ثلاث . قال وولد كلاب رجلين قصى بن كلاب وزهرة بن كلاب وأمهما فاطمة بنت سعد بن سيل أحد الجدرة من جعثمة الأسد بن اليمن حلفاء بنى الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وفى أبيها يقول الشاعر :

ما نرى في الناس شخصاً واحداً　　مَن علمناه كحمد بن حمل
فارساً أضبط فيه عسرة　　واذا ما واقف القرنَ نزل
فارساً يستدرج الخيلَ كما　　تدرجَ الحرُ القطاميُّ الحجل

قال السهيلي : سمل اسمه منير بن جمالة وهو أول من حليت (١) له السيوف بالذهب والفضة .

قال ابن اسحاق : وانما سمو الجدرة لأن عامر بن عمرو بن خزيمة بن جشمة تزوج بنت الحارث بن مضاض الجرهمي وكانت جرهم إذ ذاك ولاة البيت فبنى للكعبة جداراً فسمى عامر بذلك الجادر فقيل لولده الجدرة لذلك .

خبر قصي بن كلاب وارتجاعه ولاية البيت لقريش وانتزاعه ذلك من خزاعة

وذلك أنه لما مات أبوه كلاب تزوج أمه ربيعة بن حرام من عذرة وخرج بها وبه الى بلاده ثم قدم قصي مكة وهو شاب فتزوج حبى ابنة رئيس خزاعة حليل بن حبشية (٢) . فاما خزاعة فزعم أن حليلا أوصى الى قصي بولاية البيت لما رأى من كثرة نسله من ابنته وقال أنت أحق بذلك مني . قال

(١) عبارة السهيلي وهو أول من حلى السيوف الخ :

(٢) عبارة ابن اسحاق هكذا : فولدت له عبدالدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا فلما انتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر وان قريشا قرعة اسماعيل بن ابراهيم وصريح ولده فكلم رجالا من قريش وبني كنانة ودعاهم الى اخراج خزاعة وبني بكر من مكة فأجابوه فلما أجابه قومه الى ما دعاهم اليه كتب الى أخيه من أمه رزاح ابن ربيعة يدعوه الى نصرته والقيام معه فخرج رزاح بن ربيعة ومعه أخوته حن بن ربيعة ومحمود بن ربيعة وجلهمة بن ربيعة وهم لغير أمه فاطمة فيمن تبعهم من قضاعة في حاج العرب وهم مجمعون لنصرة قصي وخزاعة تزعم أن حليل بن حبشية أوصى بذلك قصيا وأمره به حين انتشر له من ابنته من الولد ما انتشر وقال أنت أولى بالكعبة وبالقيام عليها وبأمر مكة من خزاعة فعند ذلك طلب قصي ما طلب ولم نسمع ذلك من غيره فالله أعلم أى ذلك كان اه عبارة بن اسحاق وبها يتبين لك ما في عبارة ابن كثير من الخطأ

ابن اسحاق : ولم نسمع ذلك إلا منهم وأما غيرهم فانهم يزعمون أنه استغاث باخوته من أمه وكان رئيسهم رزاح بن ربيعة وأخوته وبنى كنانة وقضاعة ومن حول مكة من قريش وغيرهم فاجلاهم عن البيت واستقل هو بولاية البيت لأن اجازة الحجيج كانت الى صوفة وهم بنو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر فكان الناس لا يرمون الجمار حتى يرموا ولا ينفرون من منى حتى ينفروا فلم يزل كذلك فيهم حتى إنقرضوا فورثهم ذلك بالقُعْدُد بنو سعد بن زيدمناة بن تميم فكان أولهم صفوان بن الحارث ابن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وكان ذلك فى بيته حتى قام على آخرهم الاسلام وهو كرب بن صفوان . وكانت الاجازة من المزدلفة فى عدوان حتى قام الاسلام على آخرهم وهو أبو سيارة عيلة بن الأعزل وقيل اسمه العاص واسم الأعزل خالد وكان يجيز بالناس على أتان له عوراء مكث يدفع عليها فى الموقف أربعين سنة وهو أول من جعل الدية مائة وأول من كان يقول أشرق ثبير كيما نغير حكاه السهيلى .

وكان عامر بن الظرب العدوانى لا يكون بين العرب نائرة الا تحاكموا اليه فيرضون بما يقضى به فتحاكموا اليه مرة فى ميراث خنثى فبات ليلته ساهرا يتروى ماذا يحكم به فرأته جارية له كانت ترعى عليه غنمه اسمها سخيلة فقالت له مالك لا أبالك الليلة ساهراً ؟ فذكر لها ما هو مفكر فيه وقال لعلها يكون عندها فى ذلك شئ فقالت اتبع القضاء المبال فقال فرجتها والله ياسخيلة وحكم بذلك .

قال السهيلى : وهذا الحكم من باب الاستدلال بالامارات والعلامات وله أصل فى الشرع قال الله تعالى (وجاءوا على قميصه بدم كذب) حيث لا أثر لانياب الذئب فيه وقال تعالى (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) . وفى الحديث أنظروها فان جاءت به أورق جعدا جماليا فهو الذى رميت به . قال ابن اسحاق : وكان النسئ فى بنى فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . قال ابن اسحاق : وكان أول من نسأ الشهور على العرب القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم ابن عدى ثم قام بعده ابنه عباد ثم قلع بن عباد ثم أمية بن قلع ثم عوف بن أمية ثم كان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن قلع بن عباد بن حذيفة وهو القلمس فعلى أبى ثمامة قام الاسلام وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه لتعظيمهم لحرم الاشهر الحرم فاذا أراد أن يحل منها شيئا أحل المحرم وجعل مكانه صفرا ليواطئوا عدة ما حرم الله فيقول : (اللهم إنى أحللت أحد الصفرين الصفر الأول وانسأت الآخر للعام المقبل) فتتبعه العرب فى ذلك ففى ذلك يقول عمير بن قيس أحد بنى فراس بن غنم ابن مالك بن كنانة ويعرف عمير بن قيس جذل الطعان :

قد علمتْ معدٌّ أن قومى   كرامُ الناس أن لهم كراما

فأي الناس فاتونا بوتر   وأي الناس لم نغلق لجاما
ألسنا الناسئين على معدّ   شهور الحلّ نجعلها حراما

وكان قصي في قومه سيدا رئيسا مطاعا معظما والمقصود أنه جمع قريشا من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب واستعان بمن اطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة واجلائهم عن البيت وتسليمه الى قصي فكان بينهم قتال كثيرة ودماء غزيرة ثم تداعوا الى التحكيم فتحاكموا الى يعمر بن عوف بن كعب ابن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فحكم بان قصيا أولى بالبيت من خزاعة وان كل دم أصابه قصي من خزاعة وبنى بكر موضوع يشدخه تحت قدميه وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة وأن يخلي بين قصي وبين مكة والكعبة فسمى يعمر يومئذ الشداخ .

قال ابن اسحاق : فولى قصي البيت وأمر مكة وجمع قومه من منازلهم الى مكة وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه الا أنه أقر العرب على ما كانوا عليه لانه يرى ذلك دينا في نفسه لا ينبغي تغييره فأقر آل صفوان وعدوان والنسأة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الاسلام فهدم الله به ذلك كله قال فكان قصي أول بني كعب أصاب ملكا أطاع له به قومه وكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله وقطع مكة رباعا بين قومه فانزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة .

قلت : فرجع الحق الى نصابه ، ورد شارد العدل بعد إبابه ، واستقرت بقريش الدار ، وقضت من خزاعة المراد والاوطار ، وتسلمت بيتهم العتيق القديم لكن بما أحدثت خزاعة من عبادة الاوثان ونصبها إياها حول الكعبة ونحرهم لها وتضرعهم عندها واستنصارهم بها وطلبهم الرزق منها وأنزل قصي قبائل قريش أباطح مكة وأنزل طائفة منهم ظواهرها فكان يقال قريش البطاح وقريش الظواهر .

فكانت لقصي بن كلاب جميع الرئاسة من حجابة البيت وسدانته واللواء وبنى دارا لازاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة اذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فاشتوروا فيها وفصلوها ولا يعقد عقد لواء ولا عقد نكاح الا بها ولا تبلغ جارية أن تدرع فتدرع الا بها وكان باب هذه الدار الى المسجد الحرام ثم صارت هذه الدار فيما بعد الى حكيم بن حزام بعد بني عبد الدار فباعها في زمن معاوية بمائة ألف درهم فلامه على بيعها معاوية ، وقال بعت شرف قومك بمائة ألف ؟ فقال انما الشرف اليوم بالتقوى والله لقد ابتعتها في الجاهلية بزق خمر وها أنا قد بعتها بمائة ألف وأشهدكم أن ثمنها صدقة في سبيل الله فأينا المغبون ذكره الدارقطني في أسماء رجال الموطأ وكانت اليه سقاية الحجيج فلا يشربون الا من ماء حياضه وكانت زمزم إذ ذاك مطموسة من زمن جرهم قد تناسوا أمرها من تقادم عهدها ولا يهتدون الى موضعها قال الواقدي : وكان قصي أول من أحدث وقيد النار بالمزدلفة ليهتدي اليها من يأتي من عرفات والرفادة وهي إطعام الحجيج أيام الموسم الى أن يخرجوا راجعين الى بلادهم .

قال ابن اسحاق : وذلك أن قصيا فرضه عليهم فقال لهم يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم وأن الحجاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق بالضيافة فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك في كل عام من أموالهم خرجا فيدفعونه اليه فيصنعه طعاما للناس أيام منى فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الاسلام ثم جرى في الاسلام الى يومك هذا فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضي الحج .

قلت : ثم انقطع هذا بعد ابن اسحاق ثم أمر باخراج طائفة من بيت المال فيصرف في حمل زاد وماء لأبناء السبيل القاصدين الى الحج وهذا صنيع حسن من وجوه يطول ذكرها ولكن الواجب أن يكون ذلك من خالص بيت المال من أحل ما فيه والاولى أن يكون من جوالى القمة لانهم لا يحجون البيت العتيق وقد جاء في الحديث « من استطاع الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا .

وقال قائلهم في مدح قصي وشرفه في قومه :

قصيّ لعمري كان يدعى مجمّعاً ... به جمع الله القبائلَ من فهر
هم ملؤا البطحاءَ مجداً وسؤدداً ... وهم طردوا عنا غُواة بني بكر

قال ابن اسحاق : ولما فرغ قصي من حربه انصرف أخوه رزاح بن ربيعة الى بلاده بمن معه واخوته من أبيه الثلاثة وهم حن ومحمود وجلهمة . قال رزاح في اجابته قصيا :

ولما أتى من قصيٍّ رسولٌ ... فقال الرسول أجيبوا الخليلا
نهضنا اليه نقودُ الجيا ... دَ ونطرح عنّا الملولَ الثقيلا
نسير بها الليلَ حتى الصبا ... ح ونكمي النهارَ لئلا نزولا
فهنّ سراعٌ كوِردِ القطا ... يُجِبْنَ بنا من قصيّ رسولا
جمعنا من السر من أشمذين[1] ... ومن كل حيٍّ جمعنا قبيلا
فيالك حلبة ما ليلة ... تزيد على الالف سيبا رسيلا
فلما مررْنَ على عسجر ... وأسهلنَ من مستناخٍ سبيلا
وجاوزنَ بالرُّكن من ورقا ... نَ وجاوزن بالعرج حيا حلولا
مررن على الحلي ما ذقنه ... وعالجنَ من مرّ ليلا طويلا
نُدني من العوذِ أفلاءها ... ارادةَ أن يسترقن الصهيلا
فلما انتهينا الى مكةٍ ... أبحنا الرجالَ قبيلا قبيلا
نعاورهم ثَمّ حدّ السيو ... ف وفي كل أوبٍ خلسنا العقولا

(١) في السهيلي : الاشمذان جبلان . ويقال اسم قبيلتين .

نخبّزهم (١) بصلابِ النسو ر خبز القويِّ العزيزِ الذليلا
قتلنا خزاعةَ في دارها وبكراً قتلنا وجيلاً فجيلا
نفيناهم من بلاد المليـ ـكِ كما لايحلّون أرضاً سهولا
فاصبح سبْيُهُمُ في الحديـ ـدِ ومن كل حيٍّ شَفَيْنا الغليلا

قال ابن إسحاق : فلما رجع رزاح الى بلاده نشره الله ونشر حناً، فهما قبيلا عذرة الى اليوم .

قال ابن اسحاق : وقال قصي بن كلاب في ذلك :

أنا ابن العاصمينَ بني لؤيٍ بمكة منزلي وبها ربيت
الى البطحاءِ قد علمتْ معدّ ومروتُها رضيتُ بها رضيت
فلست لغالبٍ إنْ لم تأثّل بها أولادُ قيذرَ والنبيت
رزاحٌ ناصري وبه أسامي فلستُ أخافُ ضيماً ماحييت

وقد ذكر الأموى عن الاشرم عن أبي عبيدة عن محمد بن حفص :أن رزاحا انما قدم بعدما نفى قصي خزاعة والله أعلم.

فصل

ثم لما كبر قصي فوض أمر هـذه الوظائف التى كانت اليه من رئاسات قريش وشرفها من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة الى ابنه عبد الدار وكان أكبر ولده . وانما خصصه بها كلها لأن بقية أخوته عبد مناف وعبدالشمس وعبدا كانوا قد شرفوا فى زمن أبيهم وبلغوا فى قومهم شرفاً كبيراً فأحب قصي أن يلحق بهم عبد الدار فى السؤدد فخصصه بذلك فكان أخوته لاينازعونه فى ذلك فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم فى ذلك وقالوا انما خصص قصي عبد الدار بذلك ليلحقه باخوته فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه وقال بنو عبد الدار هـذا أمر جعله لنا قصي فنحن أحق به واختلفوا اختلافا كثيراً وانقسمت بطون قريش فرقتين ففرقة بايعت عبدالدار وحالفتهم وفرقة بايعت بنى عبد مناف وحالفوهم على ذلك ووضعوا أيديهم عند الحلف فى جفنة فيها طيب ثم لما قاموا مسحوا أيديهم باركان الكعبة فسموا حلف المطيبين.وكان منهم من قبائل قريش بنو أسد بن عبدالعزى بن قصي وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن فهر وكان مع بنى عبد الدار بنو مخزوم و بنو سهم وبنو جمح وبنو عدى واعتزلت بنو عامر ابن لؤى ومحارب بن فهر الجميع فلم يكونوا مع واحد منهما ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبنى عبد مناف وان تستقر الحجابة واللواء والندوة فى بنى عبد الدار فانبرم الأمر على ذلك واستمر .

(١) قوله نخبزهم . قال السهيلى : أى نسوقهم سوقا شديدا.

وحكى الاموى عن الاشرم عن أبي عبيدة قال :وزعم قوم من خزاعة أن قصيا لما تزوج حبى بنت حليل و نقل حليل عن ولاية البيت جعلها الى ابنته حبى واستناب عنها أبا غبشان سليم بن عمرو بن لؤى ابن ملكان بن قصى بن حارثة بن عمرو بن عامر فاشترى قصى ولاية البيت منه بزق خمر وقعود فكان يقال (أخسر من صفقة أبي غبشان) ولما رأت خزاعة ذلك اشتدوا على قصى فاستنصر أخاه فقدم بمن معه وكان ما كان ثم فوض قصى هذه الجهات التى كانت اليه من السدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية الى ابنه عبد الدار كما سيأتى تفصيله وايضاحه واقر الاجازة من مزدلفة فى بنى عدوان واقر النسىء فى فقيم واقر الاجازة وهو النفر فى صوفة كما تقدم بيان ذلك كله مما كان بايديهم قبل ذلك .

قال ابن إسحاق:فولد قصى أربعة نفر وامرأتين عبد مناف وعبدالدار وعبد العزى وعبدا وتخمر وبرة، وأمهم كلهم حبى بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى وهو آخر من ولى البيت من خزاعة ومن يده أخذ البيت قصى بن كلاب. قال ابن هشام: فولد عبد مناف بن قصى أربعة نفر هاشماً وعبد شمس والمطلب وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال ونوفل بن عبدمناف وأمه واقدة بنت عمرو المازنية. قال ابن هشام :وولد لعبد مناف أيضا أبوعمرو وتماضر وقلابة وحية وريطة وأم الاخثم وأم سفيان. قال ابن هشام : وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة عبد المطلب واسداً وأبا صيفى ونضلة والشفا وخالدة وضعيفة ورقية وحية فأم عبدالمطلب ورقية سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش ابن عامر بن غنم بن عدى بن النجار من المدينة وذكر أمهات الباقين قال وولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة وهم العباس وحمزة وعبد الله وأبو طالب واسمه عبدمناف لاعراني والزبير والحارث وكان بكر أبيه وبه كان يكنى وجحل ومنهم من يقول حجل وكان يلقب بالغيداق لكثرة خيره والمقوم وضرار وأبو لهب واسمه عبد العزى وصفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأمية وأروى وبرة وذكر أمهاتهم الى أن قال وأم عبدالله وأبى طالب والزبير وجميع النساء الاصفية فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان قال فولد عبدالله محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ثم ذكر أمهاتها فاغرق الى أن قال فهو أشرف ولد آدم حسباً وافضلهم نسباً من قبل أبيه وأمه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين. وقد تقدم حديث الاوزاعى عن شداد أبى عمار عن واثلة بن الاسقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى هاشماً من قريش واصطفانى من بنى هاشم رواه مسلم وسيأتى بيان مولده الكريم وما ورد فيه من الاخبار والآثار وسنورد عند

سرد النسب الشريف فوائد اخر ليست هاهنا ان شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان .

ذكر جمل من الأحداث في الجاهلية

قد تقدم ماكان من أخذ جرهم ولاية البيت من بني اسماعيل طمعوا فيهم لأنهم أبناء بناتهم وما كان من توثب خزاعة على جرهم وانتزاعهم ولاية البيت منهم ثم ماكان من رجوع ذلك الى قصي وبنيه واستمرار ذلك في أيديهم إلى أن بعث الله رسوله (ص) فاقر تلك الوظائف على ماكانت عليه.

ذكر جماعة مشهورين في الجاهلية

خبر خالد بن سنان العبسي الذي كان في زمن الفترة وقد زعم بعضهم أنه كان كان نبياً والله أعلم

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور الرازي حدثنا محمد بن الصلت حدثنا قيس بن الربيع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبي (ص) فبسط لها ثوبه وقال بنت نبي ضيعه قومه . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يحيى بن المعلى بن منصور عن محمد بن الصلت عن قيس عن سالم عن سعيد عن ابن عباس. قال ذكر خالد بن سنان عند رسول الله (ص) فقال ذاك نبي ضيعه قومه . ثم قال ولا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه وكان قيس بن الربيع ثقة في نفسه إلا أنه كان رديء الحفظ وكان له ابن يدخل في أحاديثه ماليس منها والله أعلم.

قال البزار : وقد رواه الثوري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلا وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا المعلى بن مهدي الموصلي قال حدثنا أبو عوانة عن أبي يونس عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا من عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه : إني أطفئ عنكم نار الحرتين فقال له رجل من قومه والله يا خالد ماقلت لنا قط الاحقا فما شأنك وشأن نار الحرتين تزعم أنك تطفئها فخرج خالد ومعه أناس من قومه فيهم عمارة بن زياد[1] فأتوها فاذا هي تخرج من شق جبل فخط لهم خالد خطة فأجلسهم فيها فقال إن أبطأت عليكم فلا تدعوني باسمي فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضا فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعصاه وهو يقول: بدا بدا بدا كل هدى زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي بيدي حتى دخل معها الشق فأبطأ عليهم فقال لهم عمارة بن زياد والله إن صاحبكم لو كان حياً لقد خرج اليكم بعد قالوا فادعوه باسمه . قال فقالوا إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه فدعوه باسمه فخرج وهو آخذ برأسه فقال ألم أنهكم أن تدعوني باسمي فقد والله قتلتموني فادفنوني فاذا مرت بكم الحمر فيها حمار أبتر فانبشوني فانكم تجدوني حياً فدفنوه فمرت بهم الحمر فيها حمار أبتر فقلنا انبشوه فانه أمرنا

(١) هو عمارة بن زياد كما صرح به الحاكم في المستدرك اهـ(٢) عدتهم ثلاثون .

أن تنبشه فقال لهم عمارة لا تنبشوه لا والله لا تحدث مضر أنا نبش موتانا وقد كان قال لهم خالد إن في عكن امرأته لوحين فان أشكل عليكم أمر فانظروا فيهما فانكم ستجدون ما تسألون عنه قال ولا يمسهما حائض فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنهما فاخرجتهما اليهم وهي حائض فذهب ما كان فيهما من علم .

قال أبو يونس: قال سماك بن حرب سئل عنه النبي (ص) فقال :ذاك نبي اضاعه قومه قال : أبو يونس : قال سماك بن حرب إن ابن خالد بن سنان أتى النبي (ص) فقال : مرحباً بابن أخي فهذا السياق موقوف على ابن عباس وليس فيه أنه كان نبيا والمرسلات التي فيها أنه نبي لا يحتج بها هاهنا والأشبه أنه كان رجلا صالحا له أحوال وكرامات فانه إن كان في زمن الفترة فقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله (ص) أنه قال : إن أولى الناس بعيسى بن مريم أنا لأنه ليس بيني وبينه نبي . وان كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً لأن الله تعالى قال (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) وقد قال غير واحد من العلماء إن الله تعالى لم يبعث بعد اسماعيل نبياً في العرب إلا محمداً (ص) خاتم الأنبياء الذي دعا به إبراهيم الخليل باني الكعبة المكرمة التي جعلها الله قبلة لاهل الارض شرعا وبشرت به الانبياء قومهم حتى كان آخر من بشر به عيسى بن مريم عليه السلام وبهذا المسلك بعينه يرد ماذكره السهيلي وغيره من إرسال نبي من العرب يقال له شعيب بن ذي مهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين وبعث الى العرب أيضا حنظلة بن صفوان فكذبوهما فسلط الله على العرب بخت نصر فنال منهم من القتل والسبي نحو ما نال من بني إسرائيل وذلك في زمن معد بن عدنان والظاهر أن هؤلاء كانوا قوما صالحين يدعون إلى الخير والله أعلم . وقد تقدم ذكر عمرو بن لحي بن قمة بن خندف في أخبار خزاعة بعد جرهم .

حاتم الطائي أحد اجواد الجاهلية

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي بن أخزم بن أبي أخزم[1] واسمه هرومة بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء أبو سفانة الطائي أبو العدي بن حاتم الصحابي كان جواداً ممدحاً في الجاهلية وكذلك كان ابنه في الاسلام وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة واخبار مستغربة في كرمه يطول ذكرها ولكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة وانما كان قصده السمعة والذكر قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا محمد بن معمر حدثنا عبيد بن واقد القيسي حدثنا أبو نصر هو الناجي عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال ذكر حاتم عند النبي (ص) فقال ذاك أراد أمراً فأدركه (حديث غريب) قال الدارقطني تفرد به عبيد بن واقد عن أبي نصر الناجي ويقال إن اسمه حماد قال ابن عساكر :وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين أبي نصر الناجي وبين أبي نصر حماد ولم يسم الناجي

---

(١) كذا بالاصول وبلوغ الارب للآلوسي .

ووقع فى بعض روايات الحافظ ابن عساكر عن أبى نصر شيبة الناجى والله أعلم

وقال الامام أحمد حدثنا يزيد بن اسماعيل حدثنا سفيان عن سماك بن حرب عن مرى بن قطرى عن عدى بن حاتم قال قلت لرسول الله (ص): ان أبى كان يصل الرحم ويفعل ويفعل فهل له فى ذلك يعنى من أجر قال ان أباك طلب شيئا فاصابه . وهكذا رواه أبو يعلى عن القواريرى عن غندر عن شعبة عن سماك به. وقال : ان أباك أراد أمراً فادركه يعنى الذكر وهكذا رواه أبو القاسم البغوى عن على بن الجعد عن شعبة به سواء وقد ثبت فى الصحيح فى الثلاثة الذين تسعر بهم جهنم منهم الرجل الذى ينفق ليقال إنه كريم فيكون جزاؤه أن يقال ذلك فى الدنيا وكذا فى العالم والمجاهد وفى الحديث الآخر فى الصحيح أنهم سألوا رسول الله (ص) عن عبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة قالوا انه كان يقرى الضيف ويعتق ويتصدق فهل ينفعه ذلك فقال انه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفرلى خطيئتى يوم الدين هذا وقد كان من الاجواد المشهورين ايضاً المطعمين فى السنين الممحلة والاوقات المرملة. وقال الحافظ أبو بكر البيهقى أنبأنا أبو عبدالله الحافظ حدثنى أبو بكر محمد بن عبدالله بن يوسف العمانى حدثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبدالواحد الكوفى حدثنا ضرار بن صرد حدثنا عاصم بن حميد عن أبى حمزة الثمالى عن عبدالرحمن بن جندب عن كميل بن زياد النخعى قال قال على بن أبى طالب: يا سبحان الله ما أزهد كثيراً من الناس فى خير عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا لكان ينبغى له أن يسارع فى مكارم الاخلاق فانها تدل على سبيل النجاح .فقام اليه رجل وقال: فداك أبى وأمى يا أمير المؤمنين أسمعته من رسول الله (ص). قال نعم وما هو خير منه لما أتى بسبايا طىء وقعت جارية حمراء لعساء زلفاء عيطاء شماء الأنف معتدلة القامة والهامة درماء الكعبين خدلجة الساقين لفاء الفخذين خميصة الخصرين ضامرة الكشحين مصقولة المتنين . قال فلما رأيتها أعجبت بها وقلت لأطلبن الى رسول الله (ص) فيجعلها فى فيئى فلما تكلمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها فقالت يا محمد ان رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فانى ابنة سيد قومى وان أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويكسو العارى ويقرى الضيف ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط وأنا ابنة حاتم طىء. فقال النبى (ص): ياجارية هذه صفة المؤمنين حقاً لو كان أبوك مؤمنا لترحمنا عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الاخلاق والله تعالى يحب مكارم الاخلاق .فقام أبو بردة بن نيار فقال يا رسول الله ، والله يحب مكارم الاخلاق؟ فقال رسول الله (ص) والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا :حدثنى عمر بن بكر عن أبى عبد الرحمن الطائى – هو القاسم بن عدى – بن عثمان عن عمر كى بن حليس الطائى عن أبيه عن جده وكان أخا عدى بن حاتم لامه قال قيل لنوار امرأة

حاتم حدثينا عن حاتم قالت كل أمره كان عجباً اصابتنا سنة حصت كل شئ فاقشعرت لها الارض واغبرت لها السماء وضنت المراضع على أولادها وراحت الابل حدباً حدابير ماتبض بقطرة وحلقت المال وانا لفي ليلة صنّبر بعيدة مابين الطرفين إذ تضاغى الأصبية من الجوع عبدالله وعدى وسفانة فوالله إن وجدنا شيئاً نعللهم به فقام الى أحد الصبيان فحمله وقت الى الصبية فعللتها فوالله إن سكتا الا بعد هدأة من الليل ثم عدنا الى الصبي الآخر فعللناه حتى سكت وما كاد ثم افترشنا قطيفة لنا شامية ذات خمل فاضجعنا الصبيان عليها ونمت أنا وهو في حجرة والصبيان بيننا ثم اقبل علىّ يعللني لأنام وعرفت مايريد فتناومت فقال مالك أنمت فسكت فقال ماأراها إلا قد نامت ومابي نوم فلما أدلهم الليل وتهورت النجوم وهدأت الأصوات وسكنت الرجل إذ جانب البيت قد رفع فقال من هذا فولى حتى قلت اذاً قد اسحرنا أو كدنا عاد فقال من هذا ؟ قالت جارتك فلانة يا أبا عدى ماوجدت على أحد معولا غيرك أتيتك من عند اصبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع قال أعجليهم علي قالت النوار فوثبت فقلت ماذا صنعت أضطجع والله لقد تضاغى اصيبتك فاوجدت ماتعللهم فكيف بهذه وبولدها فقال أسكتي فوالله لأشبعنك ان شاء الله قالت فاقبلت تحمل اثنين وتمشى جنبتيها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها فقام الى فرسه فوجأ بحربته في لبته ثم قدح زنده وأورى ناره ثم جاء بمدية فكشط عن جلده ثم دفع المدية الى المرأة ثم قال دونك ثم قال ابعثي صبيانك فبعثتهم ثم قال سوءة أتأكلون شيئا دون أهل الصرم فجعل يطوف فيهم حتى هبوا واقبلوا عليه والتفع في ثوبه ثم اضطجع ناحية ينظر الينا والله ماذاق مزعة وانه لاحوجهم اليه فاصبحنا وما على الارض منه الاعظم وحافر .

وقال الدار قطني : حدثني القاضي أبو عبد الله المحاملي حدثنا عبدالله بن أبي سعد وحدثنا عثيم بن ثوابة بن حاتم الطائي عن أبيه عن جده قال قالت امرأة حاتم لحاتم يا أبا سفانة اشتهي ان آكل أنا وانت طعاما وحدنا ليس عليه أحد فامرها فحولت خيمتها من الجماعة على فرسخ وأمر بالطعام فهيئ وهي مرخاة ستورها عليه وعليها فلما قارب نضج الطعام كشف عن رأسه ثم قال :

فلاتطبخي قدري وسترك دونها ... علىّ اذنْ ما تطبخين حرام

ولكن بهذاك اليفاع فأوقدي ... بجزل إذا أوقدتْ لابضرام

قال ثم كشف الستور وقدم الطعام ودعى الناس فاكل واكلوا فقالت ما أتممت لي ماقلت فاجابها انى لاتطاوعني نفسي ونفسي أكرم علي من أن يثنى علي هذا وقد سبق لي السخاء ثم أنشأ يقول :

أمارسُ نفسي البخلَ حتى أعزّها ... وأتركُ نفسَ الجود ما أستثيرها

ولاتشتكيني جارتي غيرُ أنها ... إذا غاب عنها بعلُها لا أزورها

سيبلغها خيري ويرجع بعلُها ... إليها ولم تقصر عليها ستورها

ومن شعر حاتم :

إذا ما بتّ أشربُ فوق ريّ ... لسكرٍ فى الشراب فلا رويت

إذا ما بت أختلُ عرسَ جاري ... ليخفيني الظلامُ فلا خفيت

أأفضح جارتي وأخونُ جارى ... فلا والله أفعلُ ما حييت

ومن شعره أيضاً :

ماضرّ جاراً لي أجاوره ... أن لا يكونَ لبابِه سِترُ

أُغضي إذا ما جارتى بَرَزَت ... حتى يواريَ جارتي الخِدْرُ

ومن شعر حاتم أيضاً :

وما من شيمتى شتمُ ابن عمي ... وما أنا مُخلِفٌ مَن يرتجيني

وكلمة حاسدٍ من غير جرمٍ ... سمعتُ وقلتُ مرّي فانفذيني

وعابوها عليّ فلم تَعِبْني ... ولم يعرَقْ لها يوما جبيني

وذي وجهين يلقاني طليقاً ... وليس إذا تغيّب يأتسيني

ظفرتُ بعيبه فكففتُ عنه ... محافظةً على حَسَبي وديني

ومن شعره :

سلي البائسَ المقرورَ يا أمّ مالكٍ ... إذا ما أتاني بين ناري ومجزري

أأبسط وجهي إنه أولُ القِرى ... وأبذلُ معروفي له دون مُنكَري

وقال أيضاً :

وإنك ان أعطيتَ بطنك سُؤلهُ ... وفرجَك نالا منتهى الذمّ أجمعا

وقال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريرى حدثنا الحسين بن القاسم الكوكبى حدثنا أبو العباس المبرد أخبرنى الثورى عن أبى عبيدة . قال لما بلغ حاتم طيئ قول المتلمس :

قليلُ المالِ تُصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثيرُ على الفساد

وحفظُ المال خيرٌ من فَناه ... وعسفٍ فى البلادِ بغير زاد

قال ماله قطع الله لسانه حمل الناس على البخل فهلا قال :

فلا الجودُ يُفني المال قبلَ فنائه ... ولا البخلُ فى مال الشحيح يزيد

فلا تلتمسْ مالاً بعيش مقتّرٍ ... لكلّ غدٍ رزقٌ يعود جديد

ألم تَرَ أنّ المالَ غادٍ ورائحٌ ... وانّ الذي يُعطيك غيرُ بعيد

قال القاضى أبو الفرج ولقد أحسن فى قوله : وأن الذى يعطيك غير بعيد . ولو كان مسلما لرجى

له الخير في معاده وقد قال الله في كتابه: (واسألوا الله من فضله). وقال تعالى: (واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعاني). وعن الوضاح بن معبد الطائي قال: وفد حاتم الطائي على النعمان ابن المنذر فاكرمه وادناه ثم زوده عند انصرافه جملين ذهبا وورقا غير ما اعطاه من طرائف بلده فرحل، فلما أشرف على أهله تلقته أعاريب طيء. فقالت: ياحاتم أتيت من عند الملك واتينامن عند أهالينا بالفقر فقال: حاتم هلم فخذوا مابين يدى فتوزعوه فوثبوا الى ما بين يديه من حباء النعمان فاقتسموه. فخرجت الى حاتم طريفة جاريته فقالت له اتق الله وأبق على نفسك، فمايدع هؤلاء دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا. فانشأ يقول:

قالت طريفة ماتبقى دراهمنا ... ومابنا سرف فيها ولا خرق

إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا ... ممن سوانا ولسنا نحن نرتزق

مايألف الدرهم الكاري خرقتنا ... الا يمر عليها ثم ينطلق

انا إذا اجتمعت يوماً دراهمنا ... ظلت الى سُبُل المعروف تستبق

وقال أبو بكر بن عياش: قيل لحاتم هل في العرب أجود منك. فقال: كل العرب أجود مني ثم انشأ يحدث. قال: نزلت على غلام من العرب يتيم ذات ليلة وكانت له مائة من الغنم فذبح لي شاة منها وأتاني بها فلما قرب الى دماغها قلت: ما أطيب هذا الدماغ قال فذهب فلم يزل يأتيني منه حتى قلت قد اكتفيت، فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المائة شاة وبقي لاشيء له؟ فقيل فاصنعت به فقال: ومتى أبلغ شكره ولو صنعت به كل شيء. قال: على كل حال فقال أعطيته مائة ناقة من خيار ابلي. وقال محمد بن جعفر الخرائطي في كتاب مكارم الاخلاق حدثنا العباس بن الفضل الربعي حدثنا إسحاق بن ابراهيم حدثني حماد الراوية وشيخة من مشيخة طيء. قالوا: كانت عنترة[1] بنت عفيف بن عمرو بن امرئ القيس أم حاتم طيء لا تمسك شيئا سخاء وجوداً، وكان اخوتها يمنعونها فتأبى وكانت امرأة موسرة فحبسوها في بيت سنة يطعمونها قوتها لعلها تكف عما تصنع. ثم اخرجوها بعد سنة وقد ظنوا أنها قد تركت ذلك الخلق فدفعوا اليها صرمة من مالها وقالوا استمتعي بها، فأتتها امرأة من هوازن وكانت تغشاها فسألتها فقالت: دونك هذه الصرمة فقد والله مسني من الجوع ما آليت ان لا أمنع سائلا ثم أنشأت تقول:

لعمري لقدماً عضني الجوع عضة ... فآليت ان لا أمنع الدهر جائعا

فقولا لهذا اللائمي اليوم أعفني ... وان أنت لم تفعل فعض الأصابعا

فماذا عساكم ان تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا

وماذا ترون اليوم إلا طبيعة ... فكيف بتركي يا ابن أمي الطبائعا

(١) كذا في الاصل. وفي مكارم الاخلاق للخرائطي: غنية بنت عفيف.

وقال الهيثم بن عدى عن ملحان بن عركى بن عدى بن حاتم عن أبيه عن جده . قال : شهدت حاتما يكيد بنفسه فقال لى أى بنى إنى أعهد من نفسى ثلاث خصال والله ماخاتلت جارة لريبة قط ، ولا أوتمنت على أمانة إلا أديتها ، ولا أوتي أحد من قبلى بسوء . وقال أبوبكر الخرائطى : حدثنا على بن حرب حدثنا عبد الرحمن بن يحيى العدوى حدثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبى مسكين ـ يعنى جعفر بن المحرر بن الوليد ـ عن المحرر مولى أبى هريرة قال : مر نفر من عبد القيس بقبر حاتم طيء فنزلوا قريبا منه فقام اليه بعضهم يقال له أبو الخيبرى فجعل يركض قبره برجله . ويقول : ياأبا جعد أقرنا فقال له بعض أصحابه : ما تخاطب من رمة وقد بليت واجنهم الليل فناموا فقام صاحب القول فزعاً يقول ياقوم عليكم بمطيكم فان حاتما أتانى فى النوم وانشدنى شعراً وقد حفظته يقول :

أبا الخيبريّ وانتَ امرؤ ظلومُ العشيرة شتّامُها
أتيتَ بصحبكَ تبغي القِرى لدى حفرةٍ قد صَدَت هامُها
أتبغي لي الذنبَ عندَ المبيـ ـتِ وحولَك طيّءٌ وانعامُها
وإنا لَنُشْبِعُ أضيافَنا وتأتي المطيَّ فنعتامُها

قال وإذا ناقة صاحب القول تكوس عقيراً فنحروها وقاموا يشتوون ويأكلون . وقالوا والله لقد أضافنا حاتم حيا وميتا . قال : واصبح القوم واردفوا صاحبهم وساروا فاذا رجل ينوه بهم راكبا جملا ويقود آخر . فقال : ايكم أبو الخيبرى قال أنا قال إن حاتما أتانى فى النوم فاخبرنى أنه قرى أصحابك ناقتك وامرنى أن أحملك وهذا بعير فخذه ودفعه اليه .

شيء من أخبار عبد الله بن جدعان

هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة سيد بنى تيم وهو ابن عم والد أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وكان من الكرماء الاجواد فى الجاهلية المطعمين للمسنتين وكان فى بدء امره فقيراً مملقاً وكان شريرا يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته وأبغضوه حتى أبوه فخرج ذات يوم فى شعاب مكة حائرا بائرا فرأى شقا فى جبل فظن أن يكون به شيئا يؤذى فقصده لعله يموت فيستريح مما هو فيه فلما اقترب منه اذا ثعبان يخرج اليه ويثب عليه فجعل يحيد عنه ويثب فلا يغنى شيئا فلما دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقوتتان فكسره وأخذه ودخل الغار فاذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم ومنهم الحارث بن مضاض التى طالت غيبته فلا يدرى أين ذهب ووجد عند رؤسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدد ولايتهم وإذا عندهم من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة شىء كثير فأخذ منه حاجته ثم خرج وعلم باب الغار ثم انصرف الى قومه فاعطاهم حتى أحبوه وسادهم وجعل يطعم الناس وكلما قل مافى يده ذهب الى ذلك الغار فأخذ حاجته ثم رجع فمن ذكر هذا

عبد الملك بن هشام فى كتاب التيجان وذكره أحمد بن عمار فى كتاب رى العاطش وأنس الواحش وكانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره ووقع فيها صغير فغرق وذكر ابن قتيبة وغيره أن رسول الله (ص.) قال لقد كنت استظل بظل جفنة عبدالله بن جدعان صكة عُمَىٍّ أى وقت الظهيرة . وفى حديث مقتل أبى جهل أن رسول الله (ص.) قال لاصحابه تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشجة فى ركبته فانى تزاحمت أنا وهو على مأدبة لابن جدعان فدفعته فسقط على ركبته فانهشمت فأثرها باق فى ركبته فوجدوه كذلك . وذكروا أنه كان يطعم التمر والسويق ويسقى اللبن حتى سمع قول أمية بن أبى الصلت :

ولقد رأيتُ الفاعلين وفعلَهم ... فرأيتُ أكرمَهم بني الديَّان

البرَّ يلبكُ بالشهادِ طعامهم ... لا ما يعللنا بنو جدعان

فارسل ابن جدعان الى الشام الفى بعير تحمل البر والشهد والسمن وجعل مناديا ينادى كل ليلة على ظهر الكعبة أن هلموا الى جفنة ابن جدعان . فقال امية فى ذلك :

له داعٍ بمكةَ مشمعلٌّ ... وآخرُ فوق كعبتها ينادي

الى ردح من الشيزى ملاءٍ ... لباب البر يلبك بالشهاد

ومع هذا كله فقد ثبت فى الصحيح لمسلم أن عائشة قالت: يارسول الله ان ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة . فقال: لا إنه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين .

امرؤ القيس بن حجر الكندي صاحب احدى المعلقات

وهى أفخرهن واشهرهن التى أولها :

• قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل •

قال الامام أحمد: حدثنا هشام حدثنا أبو الجهم عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص.): أمرؤ القيس صاحب لواء الشعراء الى النار وقد روى هذا الحديث عن هشام جماعة كثيرون منهم بشر بن الحكم ، والحسن بن عرفة وعبدالله بن هارون أمير المؤمنين المأمون أخو الامين ويحيى بن معين ، واخرجه ابن عدى من طريق عبدالرزاق عن الزهرى به وهذا منقطع وردىء من وجه آخر عن أبى هريرة ولا يصح من غير هذا الوجه

وقال الحافظ ابن عساكر : هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة . أبو يزيد ويقال أبو وهب

ويقال أبو الحارث الكندى . كان باعمال دمشق وقد ذكر مواضع منها فى شعره فى ذلك قوله :

قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللوى بينَ الدخول فحَوْمَلِ
فتوضحَ فالمقراةَ لم يعفُ رسمُها لما نسجتْها من جَنوبٍ وشَمْأَلِ

قال وهذه مواضع معروفة بحوران . ثم روى من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبى حدثنى فروة بن سعيد بن عفيف بن معدى كرب عن أبيه عن جده. قال: بينا نحن عند رسول الله (ص) إذ أقبل وفد من اليمن فقالوا يارسول الله لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرىء القيس . قال : وكيف ذاك؟ قالوا أقبلنا نريدك حتى إذا كنا ببعض الطريق اخطأنا الطريق فمكثنا ثلاثا لا نقدر على الماء فتفرقنا الى أصول طلح وسمر ليموت كل رجل منا فى ظل شجرة فبينا نحن بآخر رمق إذا راكب يوضع على بعير فلما رآه بعضنا قال والراكب يسمع :

ولما رأتْ أنّ الشريعةَ همُّها وان البياضَ منْ فرائصها دامي
تيمّمتِ العينَ التي عند ضارجٍ يفيءُ عليها الظلّ عرمضُها طامي

فقال الراكب: ومن يقول هذا الشعر وقد رأى ما بنا من الجهد؟ قال قلنا امرؤ القيس بن حُجر قال والله ما كذب هذا ضارج عندكم فنظرنا فاذا بيننا وبين الماء نحو من خمسين ذراعا فحبونا اليه على الركب فاذا هو كما قال امرؤ القيس عليه العرمض يفيء عليه الظل فقال رسول الله (ص) : «ذاك رجل مذكور فى الدنيا منسى فى الآخرة ، شريف فى الدنيا خامل فى الآخرة ، بيده لواء الشعراء يقودهم الى النار».

وذكر الكلبى: أن امرأ القيس أقبل براياته يريد قتال بنى أسد حين قتلوا أباه فمر بتبالة وبها ذو الخلصة وهو صنم وكانت العرب تستقسم عنده فاستقسم فخرج القدح الناهى ثم الثانية ثم الثالثة كذلك فكسر القداح وضرب بها وجه ذى الخلصة وقال عضضت بأير ابيك لو كان ابوك المقتول لما عوقتنى. ثم اغار على بنى أسد فقتلهم قتلا ذريعا قال ابن الكلبى : فلم يستقسم عند ذى الخلصة حتى جاء الاسلام وذكر بعضهم أنه امتدح قيصر ملك الروم يستنجده فى بعض الحروب ويسترفده فلم يجد مايؤمله عنده فهجاه بعد ذلك فيقال إنه سقاه سما فقتله فألجأه الموت الى جنب قبر امرأة عند جبل يقال له عسيب فكتب هنالك :

أجارتَنا إنّ المزارَ قريبُ وإنّى مقيمٌ ما اقامَ عسيبُ
أجارتَنا إنّا غريبان ههنا وكلّ غريبٍ للغريب نسيبُ

وذكروا أن المعلقات السبع كانت معلقة بالكعبة ، وذلك أن العرب كانوا اذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش فان أجازوها علقوها على الكعبة تعظيما لشأنها فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع فالأولى لامرىء القيس بن حجر الكندى كما تقدم واولها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

والثانية للنابغة الذبياني : واسمه زياد بن معاوية ويقال زياد بن عمرو بن معاوية بن ضباب بن جابر ابن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض وأولها :

يا دارَ ميّةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ　　أقوتْ وطالَ عليها سالفُ الأبدِ

والثالثة لزهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رياح المزنى وأولها:

أمن أمّ أوفى دمنةٌ لم تَكَلَّمِ　　بِحَوْمانةِ الدَّرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

والرابعة لطَرَفَةَ بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل وأولها :

لخولةَ أطلالٌ ببُرْقَةِ ثَهْمدِ　　تلوحُ كباقي الوشْمِ في ظاهر اليد

والخامسة لعنترة بن شداد بن معاوية بن قُراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قُطَيعةَ ابن عبس العبسي وأولها:

هل غادرَ الشعراءُ من مُتردَّمِ　　أم هل عَرَفتَ الدار بعد توهم

والسادسة لعلقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس أحد بني تميم وأولها:

طحا بكَ قلبٌ في الحسان طروبُ　　بُعَيد الشباب عصرَ حانَ مشيب

والسابعة ـ ومنهم من لا يثبتها في المعلقات وهو قول الاصمعي وغيره ـ وهي للبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر وأولها:

عفتِ الديارُ محلُّها فمُقامُها　　بِمِنىً تأبد غَوْلُها فرِجامُها

فأما القصيدة التي لا يعرف قائلها فيما ذكره أبو عبيدة والاصمعي والمبرد وغيرهم فهي قوله:

هل بالطلولِ لسائلٍ ردٌّ　　أم هل لها بتكلُّمٍ عهدُ

وهي مطولة وفيها معانٍ حسنة كثيرة .

أخبار أمية بن أبي الصلت الثقفي

قال الحافظ ابن عساكر: هو أمية بن أبي الصلت عبدالله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عزة ابن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان ويقال أبو الحكم الثقفي شاعر جاهلي قدم

دمشق قبل الاسلام وقيل انه كان مستقيما[1] وانه كان فى أول أمره على الايمان ثم زاغ عنه وانه هو الذى أراده الله تعالى بقوله (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين).

قال الزبير بن بكار: فولدت رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف أمية الشاعر ابن أبى الصلت واسم أبى الصلت ربيعة بن وهب بن علاج بن أبى سلمة بن ثقيف وقال غيره كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف وكان أمية أشعرهم.

وقال عبد الرزاق قال الثورى: أخبرنى حبيب بن أبى ثابت أن عبد الله بن عمرو قال فى قوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) هو أمية بن أبى الصلت وكذا رواه أبو بكر بن مردويه عن أبى بكر الشافعى عن معاذ بن المثنى عن مسدد عن أبى عوانة عن عبد الملك بن عمير عن نافع بن عاصم بن مسعود. قال: انى لفى حلقة فيها عبد الله بن عمرو فقرأ رجل من القوم الآية التى فى الاعراف (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) فقال هل تدرون من هو؟ فقال بعضهم: هو صيفى بن الراهب. وقال آخر: بل هو بلعم رجل من بنى اسرائيل فقال لا قال فمن؟ قال هو أمية بن أبى الصلت وهكذا قال أبو صالح والكلبى وحكاه قتادة عن بعضهم. وقال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن شبيب الربعى حدثنا محمد بن مسلمة بن هشام المخزومى حدثنا اسماعيل ابن الطريح بن اسماعيل الثقفى حدثنى أبى عن أبيه عن مروان بن الحكم عن معاوية بن أبى سفيان عن أبيه. قال: خرجت أنا وأمية بن أبى الصلت الثقفى تجاراً الى الشام فكلما نزلنا منزلا أخذ أمية سفراً له يقرؤه علينا فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فجاؤوا أكرموه واهدوا له وذهب معهم الى بيوتهم ثم رجع فى وسط النهار فطرح ثوبيه واخذ ثوبين له أسودين فلبسهما وقال لى هل لك يا أبا سفيان فى عالم من علماء النصارى اليه يتناهى علم الكتاب تسأله. قلت: لا إرب لى فيه والله لئن حدثنى بما أحب لا أثق به ولئن حدثنى بما أكره لاجدن منه. قال فذهب وخالفه شيخ من النصارى فدخل على فقال ما يمنعك أن تذهب الى هذا الشيخ قلت لست على دينه قال وإن فانك تسمع منه عجباً وتراه. ثم قال لى أثقفى أنت قلت لا ولكن قرشى؟ قال فما يمنعك من الشيخ فوالله انه ليحبكم ويوصى بكم. قال فخرج من عندنا ومكث أمية عندهم حتى جاءنا بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح كئيباً حزينا ساقطا غبوقه على صبوحه ما يكلمنا ولا نكلمه. ثم قال: ألا ترحل. قلت وهل بك من رحيل؟ قال نعم! فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين ثم قال فى الليلة الثالثة ألا تحدث يا أبا سفيان قلت وهل بك من حديث والله ما رأيت[2] مثل الذى رجعت به من عند صاحبك قال أما ان ذلك لشئ لست فيه انما ذلك لشئ

---

(١) الذى فى ابن عساكر وقيل انه كان نبيا.

(٢) (لفظ ما رأيت) ليست موجودة فى تاريخ ابن عساكر.

وجلت منه من منقلبي قلت وهل لك من منقلب . قال : أي والله لاموتن ثم لأحيين قال قلت هل أنت قابل أمانتي قال على ماذا قلت على أنك لا تبعث ولا تحاسب قال فضحك ثم قال : بلى ! والله يا أباسفيان لنبعثن ثم لنحاسبن وليدخلن فريق الجنة وفريق النار . قلت: ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك قال لا علم لصاحبي بذلك لا فيّ ولا في نفسه قال فكنا في ذلك ليلتين يعجب مني وأضحك منه حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا واقتنا بها شهرين فارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فلما رأوه جاؤه واهدوا له وذهب معهم الى بيعتهم[1] فلما جاء الابعد منتصف النهار فلبس ثوبيه وذهب اليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه فوالله ما نام ولا قام واصبح حزينا كئيبا لا يكلمنا ولا نكلمه . ثم قال: الا ترحل قلت بلى ان شئت فرحلنا كذلك من بثه وحزنه ليالي[2] . ثم قال لي : يا أباسفيان هل لك في المسير لنتقدم اصحابنا قلت هل لك فيه قال نعم ! فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة ثم قال: هيا صخر . قلت : ماتشاء ؟ قال حدثني عن عتبة بن ربيعة ايجتنب المظالم والمحارم قلت : إي والله قال : ويصل الرحم ويأمر بصلتها . قلت إي والله ! قال وكريم الطرفين وسط في العشيرة قلت نعم ! قال فهل تعلم قرشياً اشرف منه ؟ قلت لا والله لا أعلم قال امحوج هو قلت لا بل هو ذو مال كثير قال وكم أتى عليه من السن قلت قد زاد على المائة قال فالشرف والسن والمال أزرين به قلت ولم ذاك يزرى به لا والله بل يزيده خيراً قال هو ذاك . هل لك في المبيت قلت لي فيه قال فاضطجعنا حتى مر الثقل قال فسرنا حتى نزلنا في المنزل وبتنا به ثم ارتحلنا منه فلما كان الليل قال لي يا أباسفيان قلت ماتشاء قال هل لك في مثل البارحة قلت هل لك فيه قال : نعم فسرنا على ناقتين بختيتين حتى إذا برزنا قال: هيا صخر، هيه عن عتبة بن ربيعة قال قلت هيها فيه قال ايجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها قلت إي والله انه ليفعل قال وذو مال قلت وذو مال قال أتعلم قرشياً أسود منه قلت :لا والله ما أعلم قال كم أتى له من السن قلت قد زاد على المائة قال فان السن والشرف والمال أزرين به قلت كلا والله ما أزرى به ذلك وانت قائل شيئا فقله . قال لا تذكر حديثي يأتي منه ما هو آت ثم قال فان الذي رأيت أصابني أني جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ثم قلت أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر قال هو رجل من العرب قلت قد علمت أنه من العرب فمن أي العرب هو قال من أهل بيت تحجه العرب قلت وفينا بيت تحجه العرب قال هو من اخوانكم من قريش فاصابني والله شيء ما اصابني مثله قط وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو ان أكون إياه قلت فاذا كان ما كان فصفه لي قال رجل شاب حين دخل في الكهولة . بدوّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة قلت وما آية ذلك قال قد رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم عليه السلام ثمانين رجفة كلها

(١) في ابن عساكر الى بيوتهم (٢) كذا في الاصل : ولعلها : فرحلنا كذلك وهو في بثه الخ .

فيها مصيبة وبعثت رجفة عامة فيها مصائب . قال أبو سفيان : فقلت هذا والله الباطل لئن بعث الله رسولا لا يأخذه إلا مسنا شريفا . قال أمية : والذى حلفت به ان هذا لهكذا يا أبا سفيان تقول إن قول النصرانى حق . هل لك فى المبيت ؟ قلت نعم لى فيه قال فبتنا حتى جاءنا الثقل ثم خرجنا حتى اذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان ليلتان [١] أدركنا راكب من خلفنا فسألناه فاذا هو يقول أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها واصابتهم فيها مصائب عظيمة . قال أبو سفيان فاقبل على أمية فقال كيف ترى قول النصرانى يا أبا سفيان قلت أرى وأظن والله ان ما حدثك به صاحبك حق قال أبو سفيان فقدمنا مكة فقضيت ما كان معى ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً فكنت بها خمسة أشهر ثم قدمت مكة فبينا انا فى منزلى جاءنى الناس يسلمون علىّ ويسألون عن بضائعهم حتى جاءنى محمد بن عبد الله وهند عندى تلاعب صبيانها فسلم علىّ ورحب بى وسألنى عن سفرى ومقامى ولم يسألنى عن بضاعته ثم قام . فقلت لهند والله ان هذا ليعجبنى ما من احد من قريش له معى بضاعة الا وقد سألنى عنها وما سألنى هذا عن بضاعته . فقالت لى هند : أو ما علمت شأنه فقلت وأنا فزع ما شأنه قالت يزعم أنه رسول الله فوقذتنى وتذكرت قول النصرانى فرجفت حتى قالت لى هند مالك ؟ فانتبهت فقلت إن هذا لهو الباطل لهو أعقل من أن يقول هذا قالت بلى والله انه ليقولن ذلك ويدعو اليه وان له لصحابة على دينه قلت هذا هو الباطل قال وخرجت فبينا انا أطوف بالبيت إذ بى قد لقيته فقلت له ان بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومى فأبى علىّ . وقال اذن لا آخذها قلت فأرسل فخذها وانا آخذ منك مثل ما آخذ من قومى فأرسل الى بضاعته فاخذها واخذت منه ما كنت آخذ من غيره .

قال أبو سفيان : فلم أنشب أن خرجت الى اليمن ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبى الصلت فقال لى يا أبا سفيان ما تشاء هل تذكر قول النصرانى فقلت أذكره وقد كان فقال : ومن ؟ قلت محمد بن عبد الله قال ابن عبد المطلب قلت ابن عبد المطلب ثم قصصت عليه خبر هند قال فالله يعلم ؟ واخذ يتصبب عرقا . ثم قال : والله يا أبا سفيان لعله . إن صفته لهى ولئن ظهر وأنا حى لاطلبن من الله عز وجل فى نصره عذرا قال : ومضيت الى اليمن فلم أنشب ان جاءنى هنالك استهلاله وأقبلت حتى نزلت على أمية ابن أبى الصلت بالطائف فقلت يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته فقال قد كان لعمرى قلت فأين أنت منه يا أبا عثمان فقال والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف ابدا قال أبو سفيان واقبلت الى مكة فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يضربون ويحقرون قال أبو سفيان فجعلت أقول فأين جنده من الملائكة قال فدخلنى ما يدخل الناس من النفاسة وقد رواه الحافظ البيهقى فى كتاب الدلائل من حديث اسماعيل بن طريح به ولكن سياق الطبرانى الذى أوردناه أتم وأطول والله أعلم .

---

(١) عبارة ابن عساكر وبين المدينة اهـ .

وقال الطبراني: حدثنا بكر بن احمد بن نفيل حدثنا عبدالله بن شيبب حدثنا يعقوب بن محمد الزهري حدثنا مجاشع بن عمرو الاسدي حدثنا ليث بن سعد عن أبي الاسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة بن الزبير عن معاوية بن أبي سفيان عن ابي سفيان بن حرب أن أمية بن أبي الصلت كان بغزة أو بايلياء فلما قفلنا قال لي أمية يا أبا سفيان هل لك ان يتقدم على الرفقة فنتحدث قلت نعم اقال ففعلنا فقال لي يا أبا سفيان إيه عن عتبة بن ربيعة قلت : كريم الطرفين ويجتنب المحارم والمظالم قلت نعم قال وشريف مسن قلت وشريف مسن قال السن والشرف ازرياه فقلت له كذبت ما ازداد سنا الا ازداد شرفا قال يا أبا سفيان انها كلة ما سمعت احداً يقولها لى منذ تبصرت فلا تعجل علىّ حتى أخبرك قال قلت هات قال انى كنت اجد فى كتبى نبيا يبعث من حرتنا هذه فكنت أظن بل كنت لا اشك انى أنا هو فلما دارست اهل العلم اذا هو من بنى عبد مناف فنظرت فى بنى عبد مناف فلم أجد أحدا يصلح لهذا الامر غير عتبة بن ربيعة فلما أخبرتنى بسنه عرفت انه ليس به حين جاوز الاربعين ولم يوح اليه قال ابو سفيان فضرب الدهر ضربه فاوحى الى رسول الله ص. وخرجت فى ركب من قريش اريد اليمن فى تجارة فمررت بامية فقلت له كالمستهزىء به يا امية قد خرج النبى الذى كنت تنعته قال أما انه حق فاتبعه قلت ما يمنعك من اتباعه قال ما يمنعنى إلا الاستحياء من نساء ثقيف إنى كنت احدثهن أنى هو ثم يريننى تابعا لغلام من بنى عبد مناف ثم قال امية كأنى بك يا اباسفيان قد خالفته ثم قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك اليه فيحكم فيك بما يريد.

وقال عبد الرازق: اخبرنا معمر عن الكلبى قال بينا أمية راقد ومعه ابنتان له اذ فزعت احداهما فصاحت عليه فقال لها ما شأنك قالت رأيت نسرين كشطا سقف البيت فنزل احدهما اليك فشق بطنك والآخر واقف على ظهر البيت فناداه فقال أوعى قال نعم قال ازكى قال لا فقال ذاك خير اريد بأبيكما فلم يفعله وقد روى من وجه آخر بسياق آخر فقال اسحاق بن بشر عن محمد بن اسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله ص. بعد فتح مكة[1] وكانت ذات لب وعقل وجمال وكان رسول الله ص. بها معجبا فقال لها ذات يوم يا فارعة هل تحفظين من شعر أخيك شيئا فقالت نعم واعجب من ذلك ما قد رأيت قالت كان أخى فى سفر فلما انصرف بدأنى فدخل على فرقد على سريرى وأنا أحلق ادما فى يدى إذ أقبل طائران أبيضان أو كالطيرين أبيضين فوقع على الكوة احدهما ودخل الآخر فوقع عليه فشق الواقع عليه ما بين قصه الى عانته ثم ادخل يده فى جوفه فاخرج قلبه فوضعه فى كفه ثم شمه فقال له الطائر الآخر أوعى قال وعى قال ازكى قال أبى ثم رد القلب الى مكانه فالتأم الجرح اسرع من طرفة عين ثم ذهبا فلما رأيت ذلك

(١) التى فى اسد الغابة والاصابة والاستيعاب بعد فتح الطائف.

دنوت منه فحركته فقلت هل تجد شيئا. قال : لا إلا توعينا في جسدي ـ وقد كنت ارتعبت مما رأيت ـ فقال مالي أراك مرتاعة . قالت فاخبرته الخبر فقال خير أريد بي ثم صرف عني ثم انشأ يقول:

باتت هموميتسري طوارقها　　أكفّ عيني والدمعُ سابقُها

مما أتاني من اليقين ولم　　أوتَ براةً يقص ناطقها[1]

أمجن تلظّى عليه واقدة الـ　　ـنار محيطٌ بهم سرادقها

أم أسكن الجنة التي وعد الـ　　ـأبرار مصفوفة نمارقها

لا يستوي المنزلان ثم ولا الـ　　ـأعمال لا تستوي طرائقها

هما فريقان فرقة تدخل الجـ　　ـنة حفت بهم حدائقها

وفرقة منهم قد أدخلت النـ　　ـار فساءتهم مرافقها

تعاهدتْ هذه القلوبُ اذا　　همت بخير عاقتْ عوائقُها

وصدّها للشقاء عن طلب الـ　　ـجنة دنيا ألله ماحقُها

عبدٌ دعا نفسه فعاتبها　　يعلم أن البصير رامقُها

ما رغّب النفس في الحياة وان　　تحيى قليلاً فالموتُ لاحقها

يوشك من فرّ من منيّته　　يوماً على غرّة يوافقها

ان لم تمتْ غبطةً تمتْ هرماً　　للموتِ كأسٌ والمرء ذائقها

قال ثم انصرف الى رحله فلم يلبث الايسيراً حتى طعن في خيارته[1] فأتاني الخبر فانصرفت اليه فوجدته منعوشا قد سجي عليه فدنوت منه فشهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف ورفع صوته . وقال: لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما ، لا ذو مال فيفديني ولا ذو أهل فتحميني. ثم أغمي عليه اذ شهق شهقة فقلت قد هلك الرجل . فشق بصره نحو السقف فرفع صوته . فقال : لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما ، لا ذو براءة فاعتذر ، ولا ذو عشيرة فانتصر . ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف . فقال: لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما ، بالنعم محفود وبالذنب محصود ، ثم أغمي عليه اذ شهق شهقة . فقال : لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكا

إنْ تغفرِ اللهمَّ تغفرْ جمّاً　　وأي عبدٍ لكَ لا ألمّا

ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة فقال:

كل عيشٍ وان تطاولَ دهراً　　صائرٌ مرة[2] الى أن يزولا

ليتني كنتُ قبلَ ما قد بدالي　　في قلالِ الجبالِ أرعى الوعولا

(١ـ١) كذا في النسختين ولم يظهر لنا المعنى . (٢) في شعراء النصرانية : منتهى امره الى ان يزولا

قالت : ثم مات . فقال رسول الله (ص) يا فارعة إن مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها . الآية وقد تكلم الخطابي على غريب هذا الحديث . وروى الحافظ ابن عساكر عن الزهري انه قال قال أمية ابن أبي الصلت :

ألا رسولٌ لنا منّا يخبّرنا   ما بعدُ غايتِنا منْ رأسِ مجرانا (١)

قال ثم خرج أمية بن أبي الصلت الى البحرين وتنبأ رسول الله (ص) واقام أمية بالبحرين ثماني سنين ثم قدم الطائف فقال لهم : ما يقول محمد بن عبد الله قالوا يزعم أنه نبي هو الذي كنت تتمنى . قال : فخرج حتى قدم عليه مكة فلقيه . فقال : يا ابن عبد المطلب ما هذا الذي تقول قال أقول : إني رسول الله وان لا إله إلا هو . قال : اني أريد أن أكلمك فعدني غداً قال فموعدك غدا قال فتحب ان آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك فقال رسول الله (ص) أي ذلك شئت قال فاني آتيك في جماعة فأت في جماعة قال فلما كان الغد غدا أمية في جماعة من قريش قال وغدا رسول الله (ص) معه نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل الكعبة . قال : فبدأ أمية فخطب ثم سجع ثم أنشد الشعر حتى اذا فرغ الشعر قال أجبني يا ابن عبد المطلب . فقال رسول الله (ص) : (بسم الله الرحمن الرحيم . يس والقرآن الحكيم) حتى اذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه قال فتبعته قريش يقولون ما تقول يا أمية قال اشهد انه على الحق . فقالوا : هل تتبعه قال حتى أنظر في أمره قال ثم خرج أمية الى الشام وقدم رسول الله (ص) المدينة فلما قتل أهل بدر قدم أمية من الشام حتى نزل بدراً ثم ترحل يريد رسول الله (ص) فقال قائل : يا أبا الصلت ما تريد ؟ قال أريد محمدا قال وما تصنع ؟ قال أومن به والقي اليه مقاليد هذا الأمر قال : أتدري من في القليب ؟ قال لا قال : فيه عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما ابنا خالك ـ وأمه ربيعة بنت عبد شمس ـ قال فجدع أذني ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب يقول :

ما ذا ببدرٍ فالعقنقل منْ مرازبةٍ جَحاجح

القصيدة إلى آخرها كما سيأتي ذكرها بتمامها في قصة بدر ان شاء الله . ثم رجع الى مكة والطائف وترك الاسلام . ثم ذكر قصة الطيرين وقصة وفاته كما تقدم وانشد شعره عند الوفاة :

كل عيشٍ وان تطاول دهرا   صائرٌ مرةً الى أن يزولا
ليتني كنت قبلَ ما قد بدا لي   في قلالِ الجبال أرعى الوعولا
فاجعل الموتَ نصبَ عينيك واحذر   غَوْلةَ الدهرِ انَّ للدهر غولا
نائلاً ظفرُها القساورَ والصدعان والطفلَ في المنار الشكيلا
وبناتَ النياقِ والنغرَ النا   فزَ والموهجَ البوامَ الضئيلا

(١) في شعراء النصرانية : ألا نبي لنا منا فيخبرنا   ما بعد غايتنا من رأس مجرانا

قوله: القساور جمع قسورة وهو الأسد. والد عان ثيران الوحش واحدها صدع. والطفل الشكل من حمرة العين، والبغاث الرخم، والنياف الجبال، والبعفر الظبى، والدوهج ولد النعامة. يعني أن الموت لا ينجو منه الوحوش في البرارى ولا الرخم الساكنة في رؤس الجبال ولا يترك صغيرا لصغره ولا كبيرا لكبره. وقد تكلم الخطابى وغيره على غريب هذه الأحاديث. وقد ذكر السهيلى في كتابه التعريف والاعلام: أن امية بن أبي الصلت أول من قال باسمك اللهم، وذكر عند ذلك قصة غريبة وهو أنهم خرجوا في جماعة من قريش في سفر فيهم حرب بن أمية والد أبي سفيان قال فمروا في مسيرهم بحية فقتلوها فلما امسوا جاءتهم امرأة من الجان فعاتبتهم في قتل تلك الحية ومعها قضيب فضربت به الأرض ضربة نفرت الابل عن آخرها فذهبت وشردت كل مذهب وقاموا فلم يزالوا في طلبها حتى ردوها فلما اجتمعوا جاءتهم أيضا فضربت الارض بقضيبها فنفرت الابل فذهبوا في طلبها فلما أعياهم ذلك قالوا والله هل عندك لما نحن فيه من مخرج فقال لا والله ولكن سأنظر في ذلك قال فساروا في تلك المحلة لعلهم يجدون احدا يسألونه عما قد حل بهم من العناء اذا نار تلوح على بعد فجاؤها فاذا شيخ على باب خيمة يوقد نارا واذا هو من الجان في غاية الضآلة والدمامة فسلموا عليه فسألهم عام فيه فقال اذا جاءتكم فقل بسمك اللهم فانها تهرب فلما اجتمعوا وجاءتهم الثالثة او الرابعة قال في وجهها أمية بسمك اللهم فشردت ولم يقر لها قرار لكن عدت الجن على حرب بن أمية فقتلوه بتلك الحية فقبره اصحابه هنالك حيث لاجار ولادار ففي ذلك يقول الجان:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٌ وليس قُربَ قبرِ حربٍ قبرُ

وذكر بعضهم: انه كان يتفرس في بعض الاحيان في لغات الحيوانات فكان يمر في السفر على الطير فيقول لاصحابه: إن هذا يقول كذا وكذا فيقولون لا نعلم صدق ما يقول حتى مروا على قطيع غنم قد انقطعت منه شاة ومعها ولدها فالتفتت اليه فثغت كأنها تستحثه. فقال: اتدرون ما تقول له قالوا لا قال انها تقول أسرع بنا لا يجئ الذئب فيأكلك كما أكل الذئب أخاك عام أول فاسرعوا حتى سألوا الراعى هل أكل له الذئب عام أول حملا بتلك البقعة فقال نعم. قال: ومر يوما على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه اليها ويرغو. فقال: انه يقول لها انك رحلتني وفي الحداجة مخيط فانزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرحل فاذا فيه مخيط كما قال

وذكر ابن السكيت: ان أمية بن أبي الصلت بينا هو يشرب يوما إذ نعب غراب. فقال: له بفيك الترابُ مرتين. فقيل له مايقول؟ فقال: انه يقول إنك تشرب هذا الكأس الذى في يدك ثم تموت. ثم نعب الغراب فقال انه يقول وآية ذلك أنى أنزل على هذه المزبلة فآكل منها فيعلق عظم في حلقي فأموت. ثم نزل الغراب على تلك المزبلة فأكل شيئاً فعلق في حلقه عظم فمات. فقال: أمية أما هذا فقد صدق في

نفسه ولكن سأنظر هل صدق فى أم لا ثم شرب ذلك الكأس الذى فى يده ثم اتكأ فات . وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مهدى عن الثورى عن عبد الملك بن عمير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله (ص): إن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد * ألا كل شيء ماخلا الله باطل * وكاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم

فقال الامام أحمد: حدثنا روح حدثنا زكرياء بن إسحاق حدثنا إبراهيم بن ميسرة انه سمع عمرو بن الشريد يقول قال الشريد: كنت ردفا لرسول الله (ص). فقال لى: أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت شيء ؟ قلت نعم! قال فأنشدنى فأنشدته بيتاً فلم يزل يقول لى كلما أنشدته بيتاً ايه حتى أنشدته مائة بيت قال ثم سكت النبى (ص). وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة عن أبى تميم بن ميسرة به. ومن غير وجه عن عمرو بن الشريد عن أبيه الشريد بن سويد الثقفى عن النبى (ص). وفى بعض الروايات فقال رسول الله ان كاد يسلم . وقال يحيى بن محمد بن صاعد حدثنا ابراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا أبو أسامة حدثنا حاتم بن أبى صغيرة عن سماك بن حرب عن عمرو بن نافع عن الشريد الهمدانى واخواله ثقيف قال خرجنا مع رسول الله (ص) فى حجة الوداع فبينما أنا أمشى ذات يوم اذا وقع ناقة خلفى فاذا رسول الله (ص) فقال الشريد فقلت نعم: قال الا أحملك قلت بلى وما من إعياء ولكنى اردت البركة فى ركوبى مع رسول الله (ص) فأناخ فحملنى فقال: أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت فقلت نعم! قال هات فأنشدته قال أظنه قال مائة بيت فقال عندالله علم أمية بن أبى الصلت ثم قال ابن صاعد هذا حديث غريب فأما الذى يروى أن رسول الله (ص) قال فى أمية آمن شعره وكفر قلبه فلا أعرفه والله أعلم

وقال الامام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو أبو بكر بن أبى شيبة ـ حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن اسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس: أن رسول الله (ص) صدق أمية فى شيء من شعره قال:

زحلٌ وثورٌ تحتَ رِجلِ يمينه والنَّسر للأخرى وليثٌ مُرصد
والشمس تبدو كلَّ آخرِ ليلةٍ حمراءَ يُصبح لونها يتورَّد
تأبى فما تَطلعُ لنا فى رِسلها إلا معذَّبة وإلا تُجلد

. فقال رسول الله (ص) صدق . وفى رواية أبى بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس انه قال: إن الشمس لا تطلع حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقول لها اطلعى اطلعى فتقول لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله فاذا همت بالطلوع أتاها شيطان يريد أن يثبطها فتطلع بين قرنيه وتحرقه فاذا تضيفت الغروب عزمت لله عز وجل فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود فتغرب من قرنيه وتحرقه . أورده ابن عساكر مطولا. ومن شعره فى حملة العرش:

فمن حامل إحدى قوائم عرشه ولولا إله الخلق كلّوا وأبلدوا
قيامٌ على الأقدام عانونَ تحته فرائصهم من شدّة الخوف ترعد

رواه ابن عساكر وروى عن الاصمعى انه كان ينشد من شعر أمية :

مجّدوا الله فهو للمجد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلى الذي سبق النـ ـاسَ وسوّى فوقَ السماء سريرا
شرجعاً[1] يناله بصرُ العيـ ـن ترى دونه الملائكُ صورا

ثم يقول الاصمعى: الملائك جمع ملك والصور جمع أصور وهو المائل العنق وهؤلاء حملة العرش.
ومن شعر أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جدعان التيمى.

أأذكر حاجتي أم قد كفانى حياؤكَ إن شيمتك الحياءُ
وعلمك بالحقوق وانتَ فرعٌ لك الحسَبُ المهذّبُ والسناء
كريمٌ لا يغيّره صباح عن الخُلُق الجميل ولا مساء
يبارى الريحَ مكرمةً وجودا إذا ما الكلبُ أحجره الشتاء
وارضُك ارضُ مكرمةٍ بنتها بنو تيمٍ وانتَ لها سماء
إذا أثنى عليك المرءُ يوما كفاه من تعرّضه الثناء

وله فيه مدائح أخر .وقد كان عبدالله بن جدعان هذا من الكرماء الاجواد الممدحين المشهورين وكان له جفنة يأكل الراكب منها وهو على بعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها ، وكان يملأها لباب البر يلبك بالشهد والسمن، وكان يعتق الرقاب ويعين على النوائب وقد سألت عائشة النبى ص. أينفعه ذلك ؟ فقال انه لم يقل يوما من الدهر (رب اغفرلى خطيئتى يوم الدين) ومن شعر أمية البديع :

لا ينكتون الارض عند سؤالهم كتطلّب العلاّت بالعيدان
بل يُسفرون وجوهَهم فترى لها عند السؤال كأحسن الألوان
واذا المقلّ أقام وسْط رحالهم ردّوه ربَّ صواهلٍ وقيان
واذا دعوتَهمُ لكلّ مُلمّةٍ سدّوا شعاعَ الشمس بالفرسان

آخر ترجمة أمية بن أبى الصلت . .

بحيرا الراهب

الذى توسم فى رسول الله ص. النبوة وهو مع عمه أبى طالب حين قدم الشام فى تجار من أهل مكة وعمره إذ ذاك اثنى عشرة سنة فرأى التهامة تظله من بينهم .فصنع لهم طعاما ضيافة واستدعاهم كما

(١) الشرجع : الطويل.

سيأتي بيان ذلك في السيرة وقد روى الترمذي في ذلك حديثاً بسطنا الكلام عليه هنالك وقد أورد له الحافظ ابن عساكر شواهد وسائغات في ترجمة بحيرا ولم يورد مارواه الترمذي وهذا عجب وذكر ابن عساكر ان بحيرا كان يسكن قرية يقال لها الكفر[1] بينها وبين بصرى ستة أميال وهي التي يقال لها (دير بحيرا) قال ويقال: انه كان يسكن قرية يقال لها منفعة بالبلقاء وراء زيرا والله أعلم.

ذكر قس بن ساعدة الإيادي

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب هواتف الجان: حدثنا داود القنطرى حدثنا عبد الله بن صالح حدثني أبو عبد الله المشرقي عن أبي الحارث الوراق عن ثور بن يزيد عن مورق العجلي عن عبادة بن الصامت. قال: لما قدم وفد اياد على النبي (ص) قال: يامعشر وفد اياد مافعل قس بن ساعدة الايادي. قالوا: هلك يارسول الله. قال: لقد شهدته يوماً بسوق عكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدني أحفظه. فقام اليه اعرابي من أقاصي القوم فقال: أنا أحفظه يارسول الله. قال: فسر النبي (ص) بذلك قال: فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: يا معشر الناس اجتمعوا فكل من فات فات، وكل شيء آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية، ان في السماء لخبرا، وان في الارض لعبرا، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالاقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا. أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه. ان لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيتُ موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيتُ قومي نحوها ... يمضي الاصاغرُ والأكابر
لا من مضى يأتي اليك ... ولا من الباقين غابر
أيقنتُ أني لا محا ... لةَ حيثُ صار القومُ صائر

وهذا اسناد غريب من هذا الوجه وقد رواه الطبراني من وجه آخر فقال في كتابه المعجم الكبير: حدثنا محمد بن السري بن مهران بن الناقد البغدادي حدثنا محمد بن حسان السهمي حدثنا محمد بن الحجاج عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس. قال: قدم وفد عبد القيس على النبي (ص) فقال: أيكم

---

(١) كذا في الأصلين. وفي معجم البلدان: كفرية من قرى الشام. ولم نعثر على (المنفعة، وزيرا) في معاجم الأمكنة.

يعرف القس بن ساعدة الايادى. قالوا: كلنا يعرفه يارسول الله. قال: فما فعل؟ قالوا هلك قال فما أنساه بعكاظ فى الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس وهو يقول: يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن فى السماء لخبراً، وإن فى الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. وأقسم قس قسما حقاً لئن كان فى الأمر رضى ليكونن بعده سخط. ان لله لديناً هو أحب اليه من دينكم الذى أنتم عليه. مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون. أرضوا بالمقام فأقاموا. أم تركوا فناموا. ثم قال رسول الله (ص): أفيكم من يروى شعره؟ فأنشده بعضهم:

في الذاهبين الأولـ ين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردآً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلى ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر

وهكذ اورده الحافظ البيهقى فى كتابه دلائل النبوة من طريق محمد بن حسان السلمى به. وهكذا رويناه فى الجزء الذى جمعه الاستاذ أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه فى أخبار قس قال حدثنا عبد الكريم بن الهيثم الديرعا قولى عن سعيد بن شبيب عن محمد بن الحجاج عن ابراهيم الواسطى نزيل بغداد ويعرف بصاحب الهريسة. وقد كذبه يحيى بن معين وأبو حاتم الرازى والدارقطنى واتهمه غير واحد منهم ابن عدى بوضع الحديث وقد رواه البزار وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج هذا ورواه ابن درستويه وأبو نعيم من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس وهذه الطريق أمثل من التى قبلها وفيه إن أبا بكر هو الذى أورد القصة بكمالها نظمها ونثرها بين يدى رسول الله (ص): ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث احمد بن موسى بن اسحاق الخطمى. حدثنا على بن الحسين بن محمد المخزومى حدثنا أبو حاتم السجستانى حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن اسحاق عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس. قال قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله (ص) فقال لهم: ما فعل حليف لكم يقال له قس بن ساعدة الايادى وذكر القصة مطولة. وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة احمد بن أبى طالب الحجار إجازة ان لم يكن سماعا قال أجاز لنا جعفر بن على الهمدانى قال أخبرنا الحافظ أبو طاهر احمد بن محمد بن احمد بن ابراهيم السلفى سماعا وقرأت على شيخنا الحافظ أبى عبد الله الذهبى أخبرنا أبو على الحسن بن على بن أبى بكر الخلال سماعا قال أنا جعفر بن على سماعا قال أنا السلفى سماعا أنا أبو عبد الله محمد بن احمد بن ابراهيم الرازى أنا أبو الفضل محمد بن احمد بن عيسى السعدى أنا أبو القاسم عبيد الله

ابن احمد بن علي المقرىء حدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي قال حدثنا اسماعيل بن ابراهيم بن احمد السعدي ـ قاضي فارس ـ حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائي من أهل حران حدثنا أبو عمرو سعيد بن ربيع عن محمد بن اسحاق حدثني بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه قال : كان الجارود بن المعلى بن حنش بن معلى العبدي نصرانياً حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها عالماً بسير الفرس وأقاويلها بصيراً بالفلسفة والطب ظاهر الدهاء والأدب كامل الجمال ذا ثروة ومال وانه قدم على النبي (ص) وافداً في رجال من عبدالقيس ذوي آراء واسنان وفصاحة وبيان وحجج وبرهان فلما قدم على النبي (ص) وقف بين يديه وأشار اليه وأنشأ يقول :

يانبيّ الهدى أتتك رجالٌ قطعت فدفداً وآلا فآلا
وطوتْ نحوك الصحاصحَ تهوى لاتعدّ الكلالَ فيك كلالا
كل بهماء قصّر الطرفُ عنها أرقلتها قِلاصُنا ارقالا
وطوتها العتاقُ يجمح فيها بكماةٍ كأنجم تتلالا
تبتغي دفعَ بأسِ يومٍ عظيم هائل أوجعَ القلوبَ وهالا
ومزاداً لمحشر الخلق طُراً وفراقاً لمن تمادى ضلالا
نحو نورٍ من الاله وبرهـا نٍ وبِرٍّ ونعمةٍ أن تنالا
خصّكَ الله يا ابن آمنةَ الخـ ـير بها اذ أتتْ سجالا سجالا
فاجعل الحظ منكَ ياحجة الـ لـه جزيلاً لاحظَّ خلف أحالا

قال فأدناه النبي (ص) وقرب مجلسه وقال له . ياجارود لقد تأخر الموعود بك وبقومك . فقال الجارود : فداك أبي وأمي أما من تأخر عنك فقد فاته حظه وتلك أعظم حوبة واغلظ عقوبة وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتبع سواك واني الآن على دين قد علمت به قد جئتك وها أنا تاركه لدينك أفذلك مما يمحص الذنوب والمآثم والحوب؟ ويرضي الرب عن المربوب فقال له رسول الله (ص) : أنا ضامن لك ذلك واخلص الآن لله بالواحدنية ودع عنك دين النصرانية . فقال الجارود : فداك أبي وأمي مد يدك فانا اشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له واشهد انك محمد عبده ورسوله . قال: فاسلم واسلم معه أناس من قومه فسر النبي (ص) باسلامهم واظهر من اكرامهم ماسروا به وابتهجوا به . ثم اقبل عليهم رسول الله (ص) فقال: أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الايادي فقال الجارود فداك أبي وأمي كلنا نعرفه واني من بينهم لعالم بخبره واقف على أمره كان قس يارسول الله سبطا من أسباط العرب عمر ستمائة سنة تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار يضج بالتسبيح على مثال المسيح لا يقره قرار ولا تكنه دار ولا يستمتع به جار . كان يلبس الامساح ويفوق السياح ، ولا يفتر من رهبانيته يتحسى في سياحته بيض النعام

ويأنس بالهوام، ويستمتع بالظلام، يبصر فيعتبر، ويفكر فيختبر، فصار لذلك واحداً تضرب بحكمته الامثال، وتكشف به الاهوال. أدرك رأس الحواريين سمعان، وهو أول رجل تأله من العرب ووحد، وأقر وتعبد، وأيقن بالبعث والحساب، وحذر سوء المآب، وأمر بالعمل قبل الفوت، ووعظ بالموت وسلم بالقضا، على السخط والرضا، وزار القبور، وذكر النشور، وندب بالاشعار، وفكر فى الاقدار، وأنبأ عن السماء والنماء، وذكر النجوم وكشف الماء، ووصف البحار، وعرف الآثار، وخطب راكباً، ووعظ دائبا، وحذر من الكرب، ومن شدة الغضب، ورسَّل الرسائل، وذكر كل هائل، وأرغم فى خطبه، وبين فى كتبه، وخوف الدهر، وحذر الأزر، وعظم الأمر، وجنب الكفر، وشوق الى الحنيفية، ودعا الى اللاهوتية. وهو القائل فى يوم عكاظ: شرق وغرب، ويتم وحزب، وسلم وحرب، ويابس ورطب، واجاج وعذب، وشموس واقمار، ورياح وأمطار، وليل ونهار، وأنث وذكور، وبرار وبحور، وحب ونبات، وآباء وأمهات، وجمع واشتات، وآيات فى إثرها آيات، ونور وظلام، ويسر واعدام، ورب وأصنام، لقد ضل الانام، نشوّ مولود، ووأد مفقود، وتربية محصود، وفقير وغنى، ومحسن ومسىء، تباً لأرباب الغفلة، ليصلحن العامل عمله، وليفقدن الآمل امله، كلا بل هو إله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وابدى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثى، رب الآخرة والاولى. أما بعد: فيامعشر إياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ وأين العليل والعواد؟ كل له معاد يقسم قس برب العباد، وساطح المهاد، لتحشرن على الانفراد، فى يوم التناد، إذا نفخ فى الصور، ونقر فى الناقور، واشرقت الأرض، ووعظ الواعظ، فانتبذ القانط وابصر اللاحظ، فويل لمن صدف عن الحق الاشهر، والنور الازهر، والعرض الأكبر، فى يوم الفصل، وميزان العدل، إذا حكم القدير، وشهد النذير، وبعد النصير، وظهر التقصير، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير. وهو القائل:

ذكّر القلبَ من جواه ادّكارُ   وليالٍ خلالهنّ نهار
وسجال هواطل من غمام   ثرن ماء وفى جواهنّ نار
ضوءها يطمس العيون وأرعا   دشداد فى الخافقين تطار
وقصور مشيدة حوت الخـ   ـير واخرى خلت بهن قفار
وجبال شوامخ راسيات   وبحار مياههن غزار
ونجوم تلوح فى ظلم اللـ   ـيل نراها فى كل يوم تدار
ثم شمس يحثها قمر الليـ   ـل وكل متابع موّار
وصغير وأشمط وكبير   كلهم فى الصعيد يوما مزار
[illegible]   ...التى لا يحار

فالذى قد ذكرت دل على الا ٥ غوساً لها هدى واعتبار

قال فقال رسول الله (ص): مها نسيت فلست انساه بسوق عكاظ ، واقفاً على جمل احمر يخطب الناس : اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، واحياء وأموات ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام وليل وأيام ، وبر وآثام ، إن فى السماء خبرا ، وان فى الارض عبرا ، يحار فيهن البصرا ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحار لا تغور ، ومنايا دوان ، ودهر خوان ، كحد القسطاس ، ووزن القسطاس . اقسم قس قسما ، لا كاذبا فيه ولا آثما ، لئن كان فى هذا الأمر رضى ، ليكونن سخط . ثم قال : أيها الناس ان لله دينا هو أحب اليه من دينكم هذا الذى أنتم عليه وهذا زمانه واوانه . ثم قال مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، ارضوا بالمقام فاقاموا؟ أم تركوا فناموا . والتفت رسول الله (ص) الى بعض أصحابه فقال : أيكم يروي شعره لنا؟ فقال أبو بكر الصديق : فداك أبى وأمى أنا شاهد له فى ذلك اليوم حيث يقول :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يمضى الأصاغر والاكابر
لا يرجع الماضى الى ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر

قال : فقام الى رسول الله (ص) شيخ من عبد القيس عظيم الهامة ، طويل القامة ، بعيد ما بين المنكبين فقال : فداك أبى وأمى وأنا رأيت من قس عجبا . فقال له رسول الله (ص) : ما الذى رأيت يا أخا بنى عبد القيس؟ فقال : خرجت فى شبيبتى أربع بعيراً لى ندعنى أقفو أثره فى تنائف قفاف ذات ضغابيس وعرصات جثجاث بين صدور جذعان ، وغمير حوذان ، ومهمه ظلمان ، ورصيع ليهقان ، فبينا أنا فى تلك الفلوات أجول بسبسها وارنق فدفدها إذا أنا بهضبة فى نشزاتها أراك كباث مخضوضلة واغصانها متهدلة كأن بريرها حب الفلفل وبواسق اقحوان ، وإذا بين خرارة وروضة مدهامة ، وشجرة عارمة ، وإذا أنا بقس بن ساعدة فى أصل تلك الشجرة وبيده قضيب . فدنوت منه وقلت له : أنعم صباحا فقال : وانت فنعم صباحك ، وقد وردت العين سباع كثيرة فكان كلما ذهب سبع منها يشرب من العين قبل صاحبه ضربه قس بالقضيب الذى بيده . وقال : اصبر حتى يشرب الذى قبلك فذعرت من ذلك ذعراً شديداً ، ثم نظر الى فقال لا تخف . واذا بقبرين بينهما مسجد فقلت : ما هذان القبران؟ قال قبرا أخوين كانا يعبدان الله عز وجل بهذا الموضع فانا مقيم بين قبريهما أعبد الله حتى ألحق بهما . فقلت له : أفلا تلحق بقومك فتكون معهم فى خيرهم وتباينهم على

شرم؟ فقال لي: ثكلتك أمك أو ما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم واتبعوا الأضداد وعظموا الأنداد ثم أقبل على القبرين وانشأ يقول:

خليليّ هُبّا طالما قد رقدتُما | أجدّ كما لا تقضيان كَرا كما
أرى النومَ بين الجلدِ والعَظْمِ منكما | كأنّ الذي يسقي العُقارَ سقاكما
أمِن طولِ نومٍ لا تُجيبان داعياً | كأنّ الذي يسقي العُقارَ سقاكما
ألم تعلما أني بنجرانَ مفرداً | وما ليَ فيه من حبيبٍ سواكما
مقيمٌ على قبريكما لستُ بارحاً | إيابَ الليالي أو يجيبَ صَدا كما
أأبكيكما طولَ الحياةِ وما الذي | يردّ على ذي لوعةٍ أن بكاكما
فلو جُعِلتْ نفسٌ لنفسِ امرىءٍ فدىً | لجدتُ بنفسي أن تكونَ فِدا كما
كأنكما والموتَ أقربُ غايةٍ | بروحيَ في قبريكما قد أتاكما

قال فقال رسول الله ﷺ: رحمه الله قس أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة واحدة. وهذا الحديث غريب جداً من هذا الوجه وهو مرسل الا ان يكون الحسن سمعه من الجارود والله أعلم.

وقد رواه البيهقي: والحافظ أبو القاسم ابن عساكر من وجه آخر من حديث محمد بن عيسى بن محمد ابن سعيد القرشي الاخباري ثنا أبي ثنا علي بن سليمان بن علي عن علي بن عبد الله عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما. قال: قدم الجارود بن عبد الله [1] فذكر مثله أو نحوه مطولا بزيادات كثيرة في نظمه ونثره، وفيه ما ذكره عن الذي ضل بعيره فذهب في طلبه قال فبت في واد لا آمن فيه حتفي ولا أركن إلى غير سيفي، أرقب الكوكب، وأرمق الغيهب، حتى إذا الليل عسعس، وكاد الصبح أن يتنفس، هتف بي هاتف يقول:

يا أيها الراقدُ في الليلِ الأجمّ | قد بعثَ اللهُ نبياً في الحَرَم
من هاشمٍ أهلِ الوفاءِ والكرمْ | يجلو دجيّاتِ الدياجي والبُهَم

قال فأدرت طرفي فما رأيت له شخصاً ولا سمعت له فحصاً، قال فانشأت أقول:

يا أيها الهاتفُ في داجي الظُّلَمْ | أهلاً وسهلاً بك من طيفٍ ألَمّ
بيّن هَداك اللهُ في لحنِ الكلِمْ | ماذا الذي تدعو إليه يُغتنَم

قال فاذا أنا بنحنحة وقائلا يقول: ظهر النور، وبطل الزور، وبعث الله محمداً بالحبور، صاحب النجيب الاحمر، والتاج والمغفر، والوجه الازهر، والحاجب الاقمر، والطرف الاحور، صاحب قول شهادة أن لا اله الا الله وذلك محمد المبعوث إلى الاسود والابيض أهل المدر والوبر ثم أنشأ يقول:

(١) تقدم: انه الجارود بن المعلى واختلف في اسم أبيه كما في أسد الغابة وليس في آبائه عبدالله فلينظر

الحمدُ للهِ الّذي لم يخلقِ الخلقَ عبثْ
لم يُخلِنا يوماً سُدى من بعدِ عيسى واكترثْ
أرسلَ فينا أحمداً خيرَ نبيٍّ قد بُعثْ
صلى عليه الله ما حجّ له ركبٌ وحثّ

وفيه من إنشاد قس بن ساعدة :

يا ناعيَ الموتِ والملحودِ فى جدثٍ عليهمُ من بقايا قولِهمْ خِرَقُ
دَعْهم فإنّ لهم يوماً يصاح بهم فهم إذا انتبهوا من نومهم أرِقوا
حتى يعودوا بحالٍ غيرِ حالهمُ خَلقاً جديداً كما من قبله خُلقوا
منهم عُراةٌ ومنهم فى ثيابهمُ منها الجديدُ ومنها المنهجُ الخَلِقُ

ثم رواه البيهقى عن محمد بن عبد الله بن يوسف بن احمد الاصبهانى حدثنا أبو بكر احمد بن سعيد ابن فرضخ الاخميمى بمكة ثنا القاسم بن عبد الله بن مهدى ثنا أبو عبيد الله سعيد بن عبد الرحمن المخزومى ثنا سفيان بن عيينة عن أبى حمزة الثمالى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . فذكر القصة وذكر الانشاد قال فوجد واعند رأسه صحيفة فيها :

يا ناعيَ الموتِ والاموات فى جَدَثٍ عليهم من بقايا نومهم خرق
دعهم فان لهم يوماً يُصاح بهم كما يُنَبَّهُ من نوماته الصعِق
منهم عراةٌ وموتى فى ثيابهمُ منها الجديدُ ومنها الازرَق الخَلِق

فقال رسول الله (ص) : والذى بعثنى بالحق لقد آمن قس بالبعث . واصله مشهور وهذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على اثبات أصل القصة وقد تكلم أبو محمد بن درستوية على غريب ما وقع فى هذا الحديث واكثره ظاهر إن شاء الله تعالى وما كان فيه غرابة شديدة نبهنا عليه فى الحواشى[1]

وقال البيهقى : أنا أبو سعيد بن محمد بن احمد الشعيثى ثنا أبو عمرو بن أبى طاهر المحمد آباذى لفظاً ثنا أبو لبابة محمد بن المهدى الابيوردى[2] ثنا أبى ثنا سعيد بن هبيرة ثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن انس ابن مالك قال قدم وفد اياد على النبى (ص) فقال : ما فعل قس بن ساعدة ؟ قالوا هلك . قال أما إنى سمعت منه كلاماً أرى انى احفظه فقال بعض القوم نحن نحفظه يا رسول الله قال هاتوا : فقال قائلهم انه وافق بسوق عكاظ فقال : يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا ، كل من عاش مات ، وكل من مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات ابراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرسية وأنهار مجرية إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الارض لعبرا ، مالى ارى الناس يموتون ولا يرجعون ارضوا بالاقامة فاقاموا ، أم تركوا فناموا ، أقسم

(١) لم تصل الينا هذه الحواشى التى نبه عليها المصنف فى النسخ التى بأيدينا . (٢) كذا فى الاصلين

قس قسماً بالله لا آثم فيه ، إن لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مصادراً للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر
أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر

ثم ساقه البيهقي من طرق أخر قد نبهنا عليها فيا تقدم ثم قال بعد ذلك كله وقد روى هذا الحديث عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بزيادة ونقصان . وروي من وجه آخر عن الحسن البصري منقطعاً وروى مختصراً من حديث سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة . قلت : وعبادة بن الصامت كما تقدم وعبد الله بن مسعود كما رواه ابو نعيم في كتاب الدلائل عن عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطي عن أبي الوليد طريف بن عبيد الله مولى علي بن أبي طالب بالموصل عن يحيى بن عبد الحميد الحماني عن أبي معاوية عن الاعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود فذكره . وروى أبو نعيم أيضاً حديث عبادة المتقدم وسعد بن أبي وقاص . ثم قال البيهقي واذا روى الحديث من أوجه أخر وان كان بعضها ضعيفاً دل على أن للحديث أصلا والله أعلم

زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي . وكان الخطاب والد عمر بن الخطاب عمه وأخاه لأمه . وذلك لأن عمرو ابن نفيل كان قد خلف على امرأة ابيه بعد ابيه وكان لها من نفيل أخوه الخطاب قاله الزبير بن بكار ومحمد ابن اسحاق . وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الاوثان وفارق دينهم وكان لا يأكل الا ما ذبح على اسم الله وحده قال يونس بن بكير عن محمد بن اسحاق حدثني هشام بن عروة عن ابيه عن اسماء بنت ابي بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره الى الكعبة يقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما اصبح احد منكم على دين ابراهيم غيري . ثم يقول : اللهم اني لو أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به ولكني لا أعلم ثم يسجد على راحلته وكذا رواه أبو اسامة عن هشام به وزاد وكان يصلي الى الكعبة ويقول إلهي إله ابراهيم ، وديني دين ابراهيم . وكان يحيي الموؤدة ويقول للرجل اذا اراد ان يقتل ابنته لا تقتلها ادفعها الي اكفلها فاذا ترعرعت فان شئت فخذها وان شئت فادفعها . أخرجه النسائي من طريق أبي أسامة وعلقه البخاري فقال : وقال الليث كتب الي هشام بن عروة عن أبيه به وقال يونس ابن بكير عن محمد بن اسحاق : وقد كان نفر من قريش زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل بن أسد بن

عبدالعزى وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى وعبدالله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن اسعد بن اسد بن خزيمة . وأمه أميمة بنت عبدالمطلب . واخته زينب بنت جحش التى تزوجها رسول الله (ص) بعد مولاه زيد بن حارثة كما سيأتى بيانه. حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر الى بعض وقالوا تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض . فقال قائلهم تعلمن والله ما قومكم على شىء لقد أخطئوا دين ابراهيم وخالفوه ما وثن يعبد ؟ لا يضر ولا ينفع فابتغوا لانفسكم فخرجوا يطلبون ويسيرون فى الارض يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلها. الحنيفية دين ابراهيم ، فأما ورقة بن نوفل فتنصر واستحكم فى النصرانية وابتغى الكتب من أهلها حتى علم علما كثيراً من أهل الكتاب ولم يكن فيهم أعدل امراً واعدل ثباتاً من زيد بن عمرو بن نفيل اعتزل الاوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين الحنيفية دين ابراهيم يوحد الله ويخلع من دونه ولا يأكل ذبائح قومه فاذاهم بالفراق لما هم فيه. قال : وكان الخطاب قد آذاه أذى كثيراً حتى خرج منه إلى أعلى مكة ووكل به الخطاب شباباً من قريش وسفهاء من سفهائهم فقال لا تتركوه يدخل فكان لا يدخلها إلا سراً منهم فاذا علموا به اخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه . وقال موسى بن عقبة سمعت من أرضى يحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض لم تذبحونها على غير اسم الله. انكاراً لذلك واعظاما له ؟ وقال يونس عن ابن اسحاق وقد كان زيد بن عمرو بن نفيل قد عزم على الخروج من مكة فضرب فى الأرض يطلب الحنيفية دين ابراهيم وكانت امرأته صفية بنت الحضرمى كلما أبصرته قد نهض للخروج وأراده آذنت الخطاب بن نفيل فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب فى أهل الكتاب الأول دين ابراهيم ويسأل عنه ولم يزل فى ذلك فيما يزعمون حتى أتى الموصل والجزيرة كلها ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها حتى أتى راهباً بميعة من أرض البلقاء كان ينتهى اليه علم النصرانية فيما يزعمون فسأله عن الحنيفية دين ابراهيم فقال له الراهب إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه ، ولكنه قد أظل خروج نبى وهذا زمانه . وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منها فخرج سريعاً حين قال له الراهب ما قال يريد مكة حتى إذا كان بأرض لخم عدوا عليه فقتلوه فقال ورقة يرثيه :

رشدت وأنعمت ابنَ عمرو وإنما ... تجنبتَ تنوراً من النارِ حاميا
بدينك رباً ليس ربٌّ كمثله ... وتركك أوثانَ الطواغي كما هيا
وقد تُدرِك الانسانَ رحمةُ ربه ... ولو كان تحتَ الأرض ستين واديا[1]

---

(١) كذا فى الحلبية ، وفى الأزهرية (سبعين)

وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة : حدثنا احمد بن طارق الوابشي ثنا عمرو بن عطية عن أبيه عن ابن عمر عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يتأله في الجاهلية فانطلق حتى أتى رجلا من اليهود فقال له أحب أن تدخلني معك في دينك . فقال له اليهودي لا أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من غضب الله . فقال من غضب الله أفر . فانطلق حتى أتى نصرانياً فقال له أحب أن تدخلني معك في دينك ، فقال لست أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من الضلالة . فقال من الضلالة أفر . قال له النصراني فاني أدلك على دين ان تبعته اهتديت . قال أي دين ؟ قال دين ابراهيم قال فقال اللهم إني أشهدك أني على دين ابراهيم عليه أحيي وعليه أموت . قال فذكر شأنه للنبي (ص) فقال : هو أمة وحده يوم القيامة . وقد روى موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر نحو هذا وقال محمد بن سعد حدثنا علي بن محمد بن عبدالله بن سيف القرشي عن اسماعيل عن مجالد عن الشعبي عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال قال زيد بن عمرو بن نفيل: شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما فكنت بالشام وما والاها حتى أتيت راهبا في صومعة فذكرت له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية . فقال له: أراك تريد دين ابراهيم يا أخا أهل مكة انك لتطلب دينا ما يوجد اليوم (احد يدين) به وهو دين أبيك ابراهيم كان حنيفا لم يكن يهوديا ولا نصرانيا كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك فالحق ببلدك فان الله يبعث من قومك في بلدك من يأتي بدين ابراهيم الحنيفية وهو أكرم الخلق على الله . وقال يونس عن ابن اسحاق حدثني بعض آل زيد بن عمرو بن نفيل : إن زيداً كان إذا دخل الكعبة قال لبيك حقا حقا ، تعبداً ورقا ، عذت بما عاذ به ابراهيم وهو قائم ، إذ قال الهي انفي لك عان راغم ، مهما تجشمني فاني جاشم ، البر أبغي لا الخال ، ليس مهجر كمن قال . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا المسعودي عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل العدوي عن أبيه عن جده أن زيد بن عمرو وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل ؛ فقال لزيد بن عمرو من أين أقبلت ياصاحب البعير ؟ فقال من بنية ابراهيم ، فقال وما تلتمس قال ألتمس الدين قال ارجع فانه يوشك أن يظهر في أرضك . قال

فأما ورقة فتنصر وأما أنا فعزمت على النصرانية فلم يوافقني فرجع وهو يقول :

لبيكَ حقّاً حقا تعبُّداً ورقّا البر أبغي لا الخالْ فهل مهجرٌ كمَن قال(١)

آمنت بما آمن به ابراهيم وهو يقول : انفي لك عان راغم ، مهما تجشمني فاني جاشم ، ثم يخر فيسجد قال وجاء ابنه يعني سعيد بن زيد أحد العشرة رضي الله عنه فقال : يارسول الله إن أبي كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له ، قال نعم فانه يبعث يوم القيامة أمة واحدة . قال وأتى زيد بن عمرو بن زيد على رسول الله (ص) ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما ، فدعواه لطعامهما فقال زيد بن عمرو : يا ابن

(١) في هامش الحلبية : المهجر من الهجر وهي شدة الحر . وقال: من القيلولة.

أخي أنا لا آكل مما ذبح على النصب. وقال محمد بن سعد حدثنا محمد بن عمرو حدثني أبو بكر بن أبي سبرة عن موسى بن ميسرة عن ابن أبي مليكة عن حجير بن أبي أهاب. قال: رأيت زيد بن عمرو وأنا عند صنم بوانة بعد مارجع من الشام وهو يراقب الشمس فاذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة سجدتين ثم يقول هذه قبلة ابراهيم واسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلي له ولا آكل ماذبح له ولا استقسم الأزلام وانما أصلي لهذا البيت حتى أموت. وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبي فيقول: لبيك لا شريك لك ولا ند لك ثم يدفع من عرفة ماشيا وهو يقول لبيك متعبداً مرقوقا.

وقال الواقدي: حدثني علي بن عيسى الحكمي عن أبيه عن عامر بن ربيعة قال سمعت زيد بن عمرو ابن نفيل يقول: أنا انتظر نبياً من ولد اسماعيل ثم من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه وانا أومن به واصدقه واشهد انه نبي فان طالت بك مدة فرأيته فاقرئه مني السلام وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك قلت: نعم! قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله وليست تفارق عينه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد وهذا البلد مولده ومبعثه ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ماجاء به حتى يهاجر الى يثرب فيظهر أمره، فاياك أن تخدع عنه فاني طفت البلاد كلها أطلب دين ابراهيم فكان من اسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه مثل ما نعته لك ويقولون لم يبق نبي غيره. قال عامر بن ربيعة: فلما اسلمت أخبرت رسول الله (ص) قول زيد بن عمرو واقرائه منه السلام فرد عليه السلام وترحم عليه وقال قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا

وقال البخاري في صحيحه: ذكر زيد بن عمرو بن نفيل. حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا فضيل بن سليمان حدثنا موسى بن عقبة حدثني سالم عن عبد الله بن عمر ان النبي (ص) لقي زيد بن عمرو بن نفيل باسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي (ص) الوحي فقدمت الى النبي (ص) سفرة فابى أن ياكل منها. ثم قال زيد إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل الا ماذكر اسم الله عليه وان زيد بن عمرو يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وانزل لها من السماء ماء وانبت لها من الأرض ثم يذبحونها على غير اسم الله انكاراً لذلك واعظاما له.

قال موسى بن عقبة: وحدثني سالم بن عبدالله ولا أعلمه الا يحدث به عن ابن عمر أن زيد بن عمرو ابن نفيل خرج الى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال اني لعلي أن أدين دينكم فاخبرني فقال انك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله قال زيد وما أفر الا من غضب الله تعالى ولا احمل من غضب الله شيئا ولا استطيعه فهل تدلني على غيره؟ قال ما اعلمه الا أن تكون حنيفا قال زيد وما الحنيف؟ قال دين ابراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من

على غيره قال ما أعلمه الا أن تكون حنيفا قال وما الحنيف ؟ قال دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله فلما رأى زيد قولهم في ابراهيم خرج فلما برز رفع يديه فقال اللهم إني أشهدك اني على دين ابراهيم . قال وقال الليث : كتب الى هشام بن عروة عن أبيه عن اسماء بنت أبي بكر قالت رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره الى الكعبة يقول يامعشر قريش والله ما منكم على دين ابراهيم غيري وكان يحيي الموؤدة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها فاذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها اليك وان شئت كفيتك مؤنتها انتهى ما ذكره البخاري

وهذا الحديث الاخير قد أسنده الحافظ ابن عساكر من طريق أبي بكر بن أبي داود عن عيسى ابن حماد عن الليث عن هشام عن أبيه عن اسماء فذكر نحوه . وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام ابن عروة عن أبيه عن اسماء قالت سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره الى الكعبة يقول : يامعشر قريش إياكم والزنا فانه يورث الفقر . وقد ساق ابن عساكر هاهنا أحاديث غريبة جدا وفي بعضها نكارة شديدة ، ثم أورد من طرق متعددة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: يبعث يوم القيامة أمة واحدة . فمن ذلك مارواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدثنا يحيى بن سعيد الأموي عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيد بن عمرو بن نفيل انه كان يستقبل القبلة في الجاهلية ويقول الهي اله ابراهيم وديني دين ابراهيم ويسجد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى بن مريم. اسناده جيد حسن . وقال الواقدي: حدثني موسى بن شيبة عن خارجة ابن عبد الله بن كعب بن مالك قال سمعت سعيد بن المسيب يذكر زيد بن عمرو بن نفيل قال توفي وقريش تبني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين، ولقد نزل به وانه ليقول انا على دين ابراهيم فاسلم ابنه سعيد بن زيد واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال: غفر الله له ورحمه فانه مات على دين ابراهيم قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لايذكره ذاكرهم الا ترحم عليه واستغفر له، ثم يقول سعيد بن المسيب رحمه الله وغفر له . وقال محمد بن سعد عن الواقدي حدثني زكريا بن يحيى السعدي عن أبيه قال مات زيد بن عمرو بن نفيل بمكة ودفن بأصل حراء، وقد تقدم انه مات بأرض البلقاء من الشام لما عدا عليه قوم من بني لخم فقتلوه بمكان يقال له ميفعة والله أعلم .

وقال الباغندي عن أبي سعيد الأشج عن أبي معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين . وهذا اسناد جيد وليس هو في شيء من الكتب. ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ماقدمناه في بدء الخلق من تلك القصيدة

الى الله أهدي مِدْحتي وثنائيا وقولاً رضيّاً لايني الدهرَ باقيا

الى الملكِ الأعلى الذي ليس فوقَه   إلَهٌ ولا ربٌّ يكونُ مدانيا

وقد قيل إنها لامية بن أبي الصلت والله أعلم. ومن شعره في التوحيد ماحكاه محمد بن اسحاق والزبير بن بكار وغيرهما.

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ   له الارضُ تحملُ صخراً ثِقالا
دَحاها فلمّا استوتْ شدّها   سواءً وأرسى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ   له المُزْنُ تحملُ عَذْباً زلالا[1]
إذا هيَ سِيقت الى بلدةٍ   أطاعتْ فصبّت عليها سِجالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ   له الريحُ تُصرَّف حالاً فحالا

وقال محمد بن اسحاق حدثني هشام بن عروة قال روى أبي أن زيد بن عمرو قال:

أربّاً واحداً أم ألفُ ربٍّ   أدينُ إذا تقسّمتِ الامور
عزلْتُ اللاتَ والعزّى جميعاً   كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصبور
فلا العزّى أدينُ ولا ابنتيها   ولا صنمَيْ بني عمروٍ أزور
ولا غُنْماً أدين وكانَ ربّاً   لنا في الدهر إذْ حِلمي يسير
عجبتُ وفي الليالي مُعجباتٌ   وفي الأيامِ يعرفُها البصير
بأنّ اللهَ قد أفنى رجالا   كثيراً كانَ شأنهمُ الفُجور
وأبقى آخرينَ ببِرِّ قوم   فَيَربلُ[2] منهمُ الطفلُ الصغير
وبينا المرءُ يعثرُ ثابَ يوماً   كما يتروّح الغُصن النضير
ولكنْ أعبدُ الرحمنَ ربي   ليغفرَ ذنبيَ الربُّ الغفور
فتقوى اللهِ ربِّكمُ احفظوها   متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرارَ دارُهم جِنانٌ   وللكفّارِ حاميةٌ سعير
وخزيٌ في الحياةِ وإن يموتوا   يُلاقوا ماتضيقُ به الصدور

هذا تمام ماذكره محمد بن اسحاق من هذه القصيدة. وقد رواه أبو القاسم البغوي عن مصعب بن عبدالله عن الضحاك بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال قال هشام بن عروة عن أبيه عن اسماء بنت أبي بكر قالت قال زيد بن عمرو بن نفيل:

عزلتُ الجنَّ والجنّانَ عني   كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصبور
فلا العزّى أدينُ ولا ابنتيها   ولا صنمَي بني طَسْمٍ أدير

---

(١) هذا البيت عن المصرية (٢) كذا فيربل بمعنى ينمو .وهي رواية ابن هشام.

ولا صنما أدين وكان ربا   لنا في الدهر إذ حلمي صغير
أربا واحداً أم ألف رب   أدين إذا تقسمت الأمور
ألم تعلم بأن الله أفنى   رجالا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم   فيربو منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوما   كما يتروح الغصن النضير

قالت فقال ورقة بن نوفل:

رشدتَ وأنعمتَ ابنَ عمرو وإنما   تجنبتَ تنوراً من النار حاميا
لدينك رباً ليس رب كمثله   وتركك جنان الجبال كما هيا
أقول إذا أهبطتَ أرضاً مخوفةً   حنانيكَ لا تظهر عليّ الأعاديا
حنانيكَ ان الجن كانت رجاءهم   وانتَ إلهي ربنا ورجائيا
لتدركنَّ المرءَ رحمةُ ربه   وان كان تحتَ الأرض سبعين واديا
أدين لرب يستجيبُ ولا أرى   أدينُ لمن لا يسمع الدهر واعيا
أقول إذا صليتَ في كل بيعةٍ   تباركتَ قد أكثرتُ باسمِك داعيا

تقدم أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام هو وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيدالله ابن جحش فتنصروا إلا زيداً فإنه لم يدخل في شيء من الأديان بل بقي على فطرته من عبادة الله وحده لا شريك له متبعاً ما أمكنه من دين ابراهيم على ما ذكرناه. وأما ورقة بن نوفل فسيأتي خبره في أول المبعث. وأما عثمان بن الحويرث فأقام بالشام حتى مات فيها عند قيصر. وله خبر عجيب ذكره الأموي ومختصره أنه لما قدم على قيصر فشكى اليه مالقى من قومه كتب له إلى ابن جفنة ملك عرب الشام ليجهز معه جيشاً لحرب قريش فعزم على ذلك فكتبت اليه الاعراب تنهاه عن ذلك لما رأوا من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل، فكساه ابن جفنة قميصاً مصبوغاً مسموماً فمات من سمه فرثاه زيد بن عمرو بن نفيل بشعر ذكره الأموي تركناه اختصاراً وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها والله سبحانه وتعالى أعلم.

شيء من الحوادث في زمن الفترة

فمن ذلك بنيان الكعبة

وقد قيل: إن أول من بناه آدم وجاء في ذلك حديث مرفوع عن عبدالله بن عمرو وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف، وأقوى الأقوال أن أول من بناه الخليل عليه السلام. كما تقدم وكذلك رواه

سماك بن حزب عن خالد بن عرعرة عن علي بن أبي طالب قال: ثم تهدم فبنته العمالقة ثم تهدم فبنته جرهم ثم تهدم فبنته قريش . قلت : سيأتي بناء قريش له وذلك قبل المبعث بخمس سنين وقيل بخمس عشرة سنة وقال الزهري كان رسول الله (ص) قد بلغ الحلم . وسيأتي ذلك كله في موضعه إن شاء الله وبه الثقة

كعب بن لؤي

روى أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن بن زبالة عن محمد بن طلحة التيمي عن محمد بن ابراهيم بن الحارث عن أبي سلمة. قال: كان كعب بن لؤي يجمع قومه يوم الجمعة وكانت قريش تسميه العروبة فيخطبهم فيقول : أما بعد فاسمعوا وتعلموا، وافهموا واعلموا ، ليل ساج ، ونهار ضاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم اعلام ، والأولون كالآخرين ، والأنثى والذكر [والروح وما يهيج الى بلى] فصلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم . فهل رأيتم من هالك رجع ? أو ميت نشر ? الدار أمامكم ، والظن غير ما تقولون ، حرمكم زينوه وعظموه ، وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم ، ثم يقول :

نهارٌ وليلٌ كلَّ يوم بحادثٍ   سواءٌ علينا ليلُها ونهارها
يؤوبان بالأحداث حتى تأوَّبا   وبالنعم الضافي علينا ستورها
على غفلةٍ يأتي النبيُّ محمد   فيخبر أخباراً صدوقٌ خبيرها

ثم يقول : والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر، ويد ورجل، لتنصبت فيها تنصب الجمل، ولأرقلت بها إرقال العجل . ثم يقول :

ياليتني شاهداً نجواءَ دعوته   حينَ العشيرةُ تبغي الحقَّ خذلانا

قال وكان بين موت كعب بن لؤي ومبعث رسول الله (ص) خمسمائة عام وستون سنة .

تجديد حفر زمزم

على يدي عبد المطلب بن هاشم التي كان قد درس رسمها بعد طم جرهم لها الى زمانه

قال محمد بن اسحاق : ثم إن عبد المطلب بينا هو نائم في الحجر وكان أول ما ابتدىء به عبد المطلب من حفرها كما حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري عن مرثد بن عبد الله المزني عن عبد الله بن رزين الغافقي أنه سمع علي بن أبي طالب يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها . قال قال عبد المطلب إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال لي احفر طيبة. قال قلت وما طيبة ? قال ثم ذهب عني قال فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني فقال احفر برة. قال قلت وما برة ? قال ثم ذهب عني فلما كان الغد

رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني فقال احفر المضنونة قال قلت وما المضنونة ؟ قال ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني قال احفر زمزم . قال قلت وما زمزم ؟ قال : لا تنزف أبداً ولا تزم ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل . قال : فلما بين لي شأنها ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبدالمطلب وليس له يومئذ ولد غيره فحفر فلما بدا لعبد المطلب الطي كبر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته . فقاموا اليه فقالوا : ياعبد المطلب انها بئر ابينا اسماعيل وان لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها . قال : ما أنا بفاعل إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم قالوا له فانصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها . قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم اليه قالوا كاهنة بني سعد بن هذيم قال : نعم وكانت بأشراف الشام فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أمية وركب من كل قبيلة من قريش نفر فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز حتى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتى استيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم فأبوا عليهم وقالوا إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم فقال عبدالمطلب إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخرهم رجلا واحداً فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه . فقالوا : نعما أمرت به فحفر كل رجل لنفسه حفرة ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه ألقينا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض لا نبتغي لأنفسنا لعجز فعسى أن يرزقنا ماء ببعض البلاد فارتحلوا حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبدالمطلب وكبر أصحابه ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم ثم دعا قبائل قريش وهم ينظرون اليهم في جميع هذه الأحوال فقال هلموا إلى الماء فقد سقانا الله فجاؤا فشربوا واستقوا كلهم ثم قالوا قد والله قضى لك علينا والله ما نخاصمك في زمزم أبداً إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشداً فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم

قال ابن اسحاق فهذا ما بلغني عن علي بن أبي طالب في زمزم قال ابن اسحاق وقد سمعت من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم :

ثم ادع بالماء الروى غير الكدر　　يسقي حجيجَ الله في كل مبر

ليسَ يخافُ منه شيءٌ ما عمر

قال فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش فقال تعلموا أني قد أمرت أن أحفر زمزم قالوا فهل بُيّن لك أين هي ؟ قال : لا ! قالوا فارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه ما رأيت فإن يك حقا من الله

يبين لك وإن يك من الشيطان فلن يعود اليك فرجع ونام فأتى فقيل له :

احفر زمزم . إنك إن حفرتها لن تندم . وهي تراث من أبيك الأعظم . لاتنزف أبداً ولاتزم . تسقي الحجيج الأعظم . مثل نعام جافل لم يقسم . ينذر فيها ناذر بمنعم . تكون ميراثا وعقداً محكم . ليست لبعض ما قد تعلم . وهي بين الفرث والدم .

قال ابن اسحاق : فزعموا أن عبد المطلب حين قيل له ذلك قال وأين هي ؟ قيل له عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غداً . فالله أعلم أي ذلك كان . قال فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره . زاد الاموي ومولاه أصرم فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين أساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر فقامت اليه قريش وقالت والله لا نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما فقال عبد المطلب لابنه الحارث: ذُدْ عني حتى احفر فوالله لأمضين لما أمرت به فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطمي فكبر وعرف أنه قد صدق فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالتين من ذهب اللتين كانت جرهم قد دفنتهم ووجد فيها أسيافا قلعية وأدرعا . فقالت له قريش: ياعبد المطلب لنا معك في هذا شرك وحق قال لا ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم نضرب عليها بالقداح قالوا وكيف نصنع قال اجعل للكعبة قدحين ولي قدحين ولكم قدحين فمن خرج قدحاه على شئ كان له ومن تخلف قدحاه فلا شئ له . قالوا: أنصفت فجعل للكعبة قدحين أصفرين وله اسودين ولهم أبيضين ثم أعطوا القداح الذي يضرب عند هبل وهبل أكبر أصنامهم ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد : أعل هبل . يعني هذا الصنم . وقام عبد المطلب يدعو الله . وذكر يونس بن بكير عن محمد بن اسحاق أن عبد المطلب جعل يقول :

اللهم أنتَ الملكُ المحمود — ربّي أنتَ المبديُ المعيد
وممسك الراسيةِ الجلمودِ — من عندك الطارفُ والتليد
إن شئتَ ألهمتَ كما تريد — لموضع الحليةِ والحديدِ
فبيِّن اليوم لما تريد — إني نذرتُ العاهدَ المعهودا
أجعله ربِّ لي فلا أعودُ

قال وضرب صاحب القداح فخرج الاصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الاسودان على الاسياف والادراع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش . فضرب عبد المطلب الاسياف بابا للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين من ذهب فكان أول ذهب حلية للكعبة فيما يزعمون. ثم ان عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحاج وذكر ابن اسحاق وغيره أن مكة كان فيها أبيار كثيرة قبل ظهور زمزم في زمن عبد المطلب ثم عددها ابن اسحاق وسماها وذكر أماكنها من مكة وحافريها الى أن قال فعفت زمزم على البئار كانها

وانصرف الناس كلهم اليها لمكانها من المسجد الحرام ولفضلها على ماسواها من المياه ولانها بئر اسماعيل ابن ابراهيم وافتخرت بها بنو عبدمناف على قريش كلها وعلى سائر العرب وقد ثبت فى صحيح مسلم فى حديث اسلام أبى ذر ان رسول الله (ص) قال فى زمزم : انها لطعام طعم ، وشفاء سقم . وقال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن الوليد عن عبد الله بن المؤمل عن أبى الزبير عن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله (ص) : ماء زمزم لما شرب منه . وقد رواه ابن ملجة من حديث عبد الله بن المؤمل وقد تكلموا فيه ولفظه ماء زمزم لما شرب له . ورواه سويد بن سعيد عن عبدالله بن المبارك عن عبدالرحمن بن أبى الموالى عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبى (ص) قال: ماء زمزم لما شرب له . ولكن سويد بن سعيد ضعيف والمحفوظ عن ابن المبارك عن عبد الله بن المؤمل كما تقدم وقد رواه الحاكم عن ابن عباس مرفوعا ماء زمزم لما شرب له وفيه نظر والله أعلم . وهكذا روى ابن ماجه أيضا والحاكم عن ابن عباس انه قال لرجل اذا شربت من زمزم فاستقبل الكعبة واذكر اسم الله وتنفس ثلاثا وتضلع منها فاذا فرغت فاحمد الله فان رسول الله (ص) قال : إن آية ما بيننا وبين المنافقين لا يتضلعون من ماء زمزم . وقد ذكر عن عبد المطلب انه قال : اللهم انى لا احلها لمغتسل وهى لشارب حل وبل . وقد ذكره بعض الفقهاء عن العباس بن عبد المطلب ، والصحيح انه عن عبدالمطلب نفسه فانه هو الذى جدد حفر زمزم كما قدمنا والله أعلم . وقد قال الاموى فى مغازيه : حدثنا أبو عبيد أخبرنى يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن حرملة سمعت سعيد بن المسيب يحدث أن عبدالمطلب بن هاشم حين احتفر زمزم قال: لا احلها لمغتسل وهى لشارب حل وبل . وذلك انه جعل لها حوضين حوضا للشرب ، وحوضا للوضوء . فعند ذلك قال : لا أحلها لمغتسل لينزه المسجد عن ان يغتسل فيه قال أبو عبيد قال الاصمعى : قوله وبل اتباع قال أبو عبيد والاتباع لا يكون بواو العطف وانما هو كما قال معتمر بن سليمان ان بل هنا حمير مباح ثم قال أبو عبيد حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود انه سمع زرا انه سمع العباس يقول: لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حل وبل . وحدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن عبد الرحمن بن علقمة انه سمع ابن عباس يقول ذلك وهذا صحيح اليهما ، وكأنهما يقولان ذلك فى أيامهما على سبيل التبليغ والاعلام بما اشترطه عبد المطلب عند حفره لها فلا ينافى ما تقدم والله أعلم . وقد كانت السقاية الى عبد المطلب أيام حياته ثم صارت الى ابنه أبى طالب مدة ثم اتفق انه املق فى بعض السنين فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف الى الموسم الآخر وصرفها أبو طالب فى الحجيج فى عامه فيما يتعلق بالسقاية فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبى طالب شىء فقال لاخيه العباس اسلفنى أربعة عشر الفا ايضا الى العام المقبل أعطيك جميع مالك فقال له العباس: بشرط ان لم تعطنى تترك السقاية لى اكفكها فقال: نعم فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبى طالب ما يعطى العباس فترك له السقاية فصارت اليه ثم من بعده صارت الى عبد الله ولده

ثم الى على بن عبد الله بن عباس ثم الى داود بن على ثم الى سليمان بن على ثم الى عيسى بن على ثم أخذها المنصور واستتاب عليها مولاه أبا رزين ذكره الاموى .

نذر عبد المطلب ذبح ولده

قال ابن اسحاق : وكان عبد المطلب فيما يزعمون نذر حين لقى من قريش مالقى عند حفر زمزم لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة . فلما تكامل بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه وهم . الحارث . والزبير . وحجل . وضرار . والمقوم . وأبو لهب . والعباس . وحمزة . وأبو طالب . وعبد الله . جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم الى الوفاء لله عز وجل بذلك فأطاعوه وقالوا كيف نصنع ؟ قال ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتونى ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على هبل فى جوف الكعبة وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها مايهدى للكعبة .وكان عند هبل قداح سبعة وهى الازلام التى يتحاكمون اليها إذا أعضل عليهم أمر من عقل أو نسب أو أمر من الأمور جاؤه فاستقسموا بها فما أمرتهم به أو نهتهم عنه امتثلوه .والمقصود ان عبد المطلب لما جاء يستقسم بالقداح عند هبل خرج القدح على ابنه عبد الله وكان اصغر ولده واحبهم اليه، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله واخذ الشفرة ثم اقبل به الى اساف ونائلة ليذبحه فقامت اليه قريش من أنديتها فقالوا: ماتريد ياعبد المطلب؟ قال اذبحه فقالت له قريش وبنوه أخوة عبد الله والله لاتذبحه أبدا حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا .وذكر يونس بن بكير عن ابن اسحاق ان العباس هو الذى اجتذب عبد الله من تحت رجل ابيه حين وضعها عليه ليذبحه فيقال انه شج وجهه شجا لم يزل فى وجهه الى أن مات ثم اشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب الى الحجاز فان بها عرافة لها تابع فيسألها عن ذلك ثم أنت على رأس امرك ان امرتك بذبحه فاذبحه وان امرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته فانطلقوا حتى أتوا المدينة فوجدوا العرافة وهى سجاح فيما ذكره يونس بن بكير عن ابن اسحاق بخيبر فركبوا حتى جاؤها فسألوها وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه فقالت لهم ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله فرجعوا من عندها فلما خرجوا قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها فقالت لهم قد جاءنى الخبر ، كم الدية فيكم ؟ قالوا عشر من الابل وكانت كذلك قالت فارجعوا الى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم وان خرجت على الابل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا حتى قدموا مكة فلما اجمعوا على ذلك الامر قام عبد المطلب يدعو الله ثم قربوا عبد الله وعشراً من الابل ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشراً ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشراً فلم

يزالوا يزيدون عشراً عشراً ويخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الابل مائة . ثم ضربوا فخرج القدح على الابل فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب. وهو قائم عند هبل يدعو الله قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب . فعندها زعموا انه قال لا حتى اضرب عليها بالقداح ثلاث مرات فضربوا ثلاثا ويقع القدح فيها على الابل فنحرت ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا يمنع . قال ابن هشام ويقال ولا سبع وقد روى انه لما بلغت الابل مائة خرج على عبد الله أيضا فزادوا مائة أخرى حتى بلغت مائتين فخرج القدح على عبد الله فزادوا مائة أخرى فصارت الابل ثلاثمائة .ثم ضربوا فخرج القدح على الابل فنحرها عند ذلك عبد المطلب والصحيح الاول والله أعلم . وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الاعلى عن ابن وهب عن يونس بن يزيد عن الزهرى عن قبيصة بن ذؤيب أن ابن عباس سألته امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فامرها بذبح مائة من الابل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب . وسألت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشيء بل توقف . فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال انهما لم يصيبا الفتيا ثم امر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الابل، واخذ الناس بقول مروان بذلك والله أعلم .

تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب الزهرية

قال ابن اسحاق : ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله فمر به ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى وهى أم قتال أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى وهى عند الكعبة فنظرت إلى وجهه فقالت أين تذهب يا عبد الله ؟ قال مع أبى قالت لك مثل الابل التى نحرت عنك وقع على الآن . قال أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه فخرج به عبد المطلب حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر وهو يومئذ سيد بنى زهرة سنا وشرفاً فزوجه ابنته آمنة بنت وهب وهى يومئذ سيدة نساء قومها فزعموا أنه دخل عليها حين أملكها مكانه فوقع عليها فحملت منه برسول الله ﷺ ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت بالأمس؟ قالت له فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى بك حاجة . وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ـ وكان قد تنصر واتبع الكتب ـ أنه كائن فى هذه الأمة نبى فطمعت أن يكون منها فجعله الله تعالى فى أشرف عنصر وأكرم محتد وأطيب أصل كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) وسنذكر المولد مفصلا ومما قالت أم قتال بنت نوفل من الشعر تتأسف على ما فاتها من الأمر الذى رامته وذلك فيما رواه

البيهقي من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق رحمه الله :

عليكَ بآلِ زهرةَ حيثُ كانوا   وآمنةَ التي حَملت غلاما
ترى المهديَّ حينَ نزا عليها   ونوراً قد تقدّمه أماما

[إلى أن قالت] :

فكلُّ الخلْقِ يرجوهُ جميعاً   يسودُ الناسَ مهتدياً إماما
براه اللهُ من نورٍ صفّاه   فأذهبَ نورُه عنا الظلاما
وذلكَ صُنعُ ربكَ إذ حَباهُ   إذا ماسارَ يوماً أو أقاما
فيهدي أهلَ مكةَ بعدَ كفرٍ   ويفرضُ بعدَ ذلكمُ الصياما

وقال أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي : حدثنا علي بن حرب حدثنا محمد بن عمارة القرشي حدثنا مسلم بن خالد الزنجي حدثنا ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : لما انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب ، يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت يا فتى هل لك أن تقع علي الآن وأعطيك مائة من الابل ؟ فقال عبد الله :

أما الحرامُ فالمماتُ دونَهُ   والحل لا حِلَّ فأستبينه
فكيفَ بالأمرِ الذي تبغينَه   يحمي الكريمُ عرضَه ودينه [(١)]

ثم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فأقام عندها ثلاثاً . ثم إن نفسه دعته إلى ما دعته اليه الكاهنة فأتاها فقالت : ماصنعت بعدي ؟ فأخبرها . فقالت والله ما أنا بصاحبة ريبة ولكني رأيت في وجهك نوراً فاردت أن يكون في . وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد . ثم أنشأت فاطمة تقول :

إني رأيتُ مخيلةً لمعت   فتلألأت بحناتم [(٢)] القطْرِ
فلمأْتُها نوراً يضيء له   ما حولَهُ كإضاءةِ البدرِ
ورجوتُها فخراً أبوءُ به   ما كل قادحِ زندِه يُوري
لله ما زُهريةٌ سلبت   ثوبيكَ ما استلبتْ وما تدري

وقالت فاطمة أيضاً :

بني هاشمٍ قد غادرتْ من أخيكمُ   أمينةُ إذ للباهِ يعتركانِ

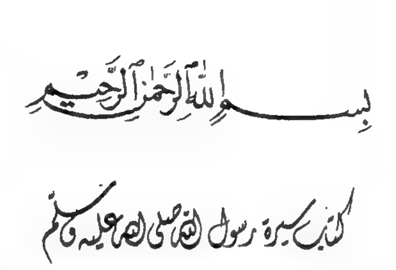
(١) زدنا هذه الشطرة من الروض الانف للسهيلي . وليس في المصرية جميع البيت . ولا ما بعده إلى قوله : زهرة . (٢) في الاصل بخيائم . وصححناه من السهيلي والحناتم السحائب السود كما في القاموس .

كما غادرَ المصباحُ بعد خُمودِه ... فتائلَ قد مِيثَت له بدِهان
وما كل ما يحوي الفتى من تِلادِهِ ... بحزمٍ ولا ما فاتَهُ لتَواني
فأَجمِلْ إذا طالبتَ أمراً فإنّه ... سيكفيكَهُ جَدّانِ يعتلِجان
سيكفيكه إما يد مُقفَلّةٌ ... وإما يدٌ مبسوطةٌ ببَنانِ[1]
ولما حوت منه أمينة ما حوت ... حوت منه فخراً ما لذلك ثانِ

وروى الامام أبو نعيم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة من طريق يعقوب بن محمد الزهرى عن عبد العزيز بن عمران عن عبد الله بن جعفر عن ابن عون عن المسور بن مخرمة عن ابن عباس قال إن عبد المطلب قدم اليمن فى رحلة الشتاء فنزل على حبر من اليهود قال فقال لى رجل من أهل الديور ـ يعنى أهل الكتاب يا عبد المطلب أتأذن لى أن انظر إلى بعضك ؟ قال نعم إذا لم يكن عورة . قال ففتح إحدى منخرى فنظر فيه ثم نظر فى الآخر فقال أشهد أن فى إحدى يديك ملكاً وفى الأخرى نبوة وإنا نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك ؟ قلت لا أدرى قال هل لك من شاغة ؟ قلت وما الشاغة ؟ قال زوجة . قلت أما اليوم فلا قال فاذا رجعت فتزوج فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله (ص) ، فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة فلج أى فاز وغلب عبد الله على أبيه عبد المطلب .



(١) كذا فى الحلبية . وفى المصرية مقفلة والاقفال التنحية والاستنفاض كما فى القاموس .



قال الله تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) ولما سأل هرقل ملك الروم لابي سفيان تلك الاسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام قال كيف نسبه فيكم ؟ قال هو فينا ذو نسب قال كذلك الرسل تبعث فى انساب قومها يعنى فى أكرمها احسابا وا كثرها قبيلة صلوات الله عليهم أجمعين .

فهو سيد ولد آدم وفخرهم فى الدنيا والآخرة . أبو القاسم . وأبو ابراهيم . محمد . واحمد . والماحى الذى يمحى به الكفر . والعاقب الذى ما بعده نبى . والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه . والمقفى . ونبى الرحمة . ونبى التوبة . ونبى الملحمة . وخاتم النبيين . والفاتح . وطه . ويس . وعبد الله .

قال البيهقى : وزاد بعض العلماء فقال سماه الله فى القرآن رسولا . نبيا . أمينا . شاهداً . مبشراً . نذيراً ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيراً . ورؤفاً رحيماً . ومذكراً . وجعله رحمة ونعمة وهاديا .

وسنورد الاحاديث المروية فى اسمائه عليه الصلاة والسلام فى باب نعقده بعد فراغ السيرة . فانه قد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك اعتنى بجمعها الحافظان الكبيران أبو بكر البيهقى وأبو القاسم بن عساكر وافرد الناس فى ذلك مؤلفات حتى رام بعضهم أن يجمع له عليه الصلاة والسلام ألف اسم . واما الفقيه الكبير أبوبكر بن العربى المالكى شارح الترمذى بكتابه الذى سماه الاحوذى فانه ذكر من ذلك أربعة وستين اسما والله أعلم .

وهوابن عبد الله وكان اصغر ولد أبيه عبد المطلب وهو الذبيح الثانى المفدى بمائة من الابل كما تقدم

قال الزهرى : وكان اجمل رجال قريش وهو أخو الحارث والزبير وحمزة وضرار وأبى طالب ــ واسمه عبد مناف ــ وأبى لهب ــ واسمه عبدالعزى ــ والمقوم ــ واسمه عبدالكعبة ــ وقيل هما اثنان وحجل واسمه المغيرة والغيداق وهو كبير الجود ــ واسمه نوفل ــ ويقال انه حجل . فهؤلاء اعمامه عليه الصلاة

والسلام . وعماته ست وهن أروى . وبرة . وأميمة . وصفية . وعاتكة . وام حكيم – وهى البيضاء – وسنتكلم على كل منهم فيما بعد انْ شاء الله تعالى . كلهم أولاد عبد المطلب – واسمه شيبة – يقال لشيبة كانت فى رأسه ويقال له شيبة الحمد لجوده . وانما قيل له عبد المطلب لان أباه هاشما لما مر بالمدينة فى تجارته الى الشام نزل على عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن خندف بن عدى بن النجار الخزرجى النجارى وكان سيد قومه فاعجبته ابنته سلمى فخطبها الى أبيها فزوجها منه واشترط عليه مقامها عنده وقيل بل اشترط عليه أن لا تلد إلا عنده بالمدينة فلما رجع من الشام بنى بها واخذها معه الى مكة فلما خرج فى تجارة أخذها معه وهى حبلى فتركها بالمدينة ودخل الشام فمات بغزة ووضعت سلمى ولدها فسمته شيبة فاقام عند اخواله بنى عدى بن النجار سبع سنين ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف فاخذه خفية من أمه فذهب به الى مكة . فلما رآه الناس ورأوه على الراحلة قالوا من هذا معك ؟ فقال عبدى ثم جاؤا فهنؤه به وجعلوا يقولون له عبد المطلب لذلك فغلب عليه وساد فى قريش سيادة عظيمة وذهب بشرفهم ورآستهم . فكان جماع أمرهم عليه وكانت اليه السقاية والرفادة بعد المطلب وهو الذى جدد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جرهم وهو أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابها من تينك الغزالتين اللتين من ذهب وجدهما فى زمزم مع تلك الاسياف القلعية قال ابن هشام : وعبد المطلب أخو أسد وفضلة وأبى صيفى وحية وخالدة ورقية والشفاء وضعيفة . كلهم أولاد هاشم واسمه عمرو وانما سمى هاشما لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى سنى المحل كما قال مطرود بن كعب الخزاعى فى قصيدته وقيل للزبعرى والد عبد الله :

عمرو الذي هَشَمَ الثريدَ لقومه ورجالُ مكةَ مُسْنِتون عِجافُ

سُنَّتْ اليه الرحلتان كلاهما سَفَرُ الشتاءِ ورحلةُ الأصياف

وذلك لانه أول من سن رحلتى الشتاء والصيف وكان أكبر ولد أبيه. وحكى ابن جرير انه كان توأم أخيه عبد شمس وان هاشما خرج ورجله ملتصقة برأس عبد شمس فما تخلصت حتى سال بينهما دم فقال الناس بذلك يكون بين أولادهما حروب فكانت وقعة بنى العباس مع بنى أمية بن عبد شمس سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة. وشقيقهم الثالث المطلب وكان المطلب أصغر ولد أبيه وأمهم عاتكة بنت مرة ابن هلال . ورابعهم نوفل من أم أخرى وهى واقدة بنت عمرو المازنية وكانوا قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت اليهم الرياسة وكان يقال لهم المجيرون وذلك لانهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم ليدخلوا فى التجارات الى بلادهم فكان هاشم قد أخذ امانا من ملوك الشام والروم وغسان واخذ لهم عبد شمس من النجاشى الأكبر ملك الحبشة ، واخذ لهم نوفل من الاكاسرة ، واخذ لهم المطلب أمانا من ملوك حمير . ولهم يقول الشاعر :

يا أيها الرجل المحوّل رحله ... ألا نزلت بآل عبد مناف

وكان الى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه ، واليه والى أخيه المطلب نسب ذوى القربى ، وقد كانوا شيئاً واحداً فى حالتى الجاهلية والاسلام لم يفترقوا ، ودخلوا معهم فى الشعب ، وانخذل عنهم بنو عبد شمس ونوفل . ولهذا يقول أبو طالب فى قصيدته :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً ... عقوبة شرٍّ عاجلاً غير آجل

ولا يعرف بنو أب تباينوا فى الوفاة مثلهم ، فان هاشماً مات بغزة من أرض الشام ، وعبد شمس مات بمكة ، ونوفل مات بسلامان من أرض العراق ، ومات المطلب — وكان يقال له القمر لحسنه — بردمان من طريق اليمن . فهؤلاء الاخوة الأربعة المشاهير وهم هاشم ، وعبد شمس ، ونوفل ، والمطلب . ولهم أخ خامس ليس بمشهور وهو أبو عمرو واسمه عبد ، واصل اسمه عبد قصى . فقال الناس عبد بن قصى درج ولا عقب له . قاله الزبير بن بكار وغيره . والاخوات ست وهن ، تماضر ، وحية ، وريطة ، وقلابة ، وام الاخثم ، وام سفيان . كل هؤلاء أولاد عبد مناف ومناف اسم صنم واصل اسم عبد مناف المغيرة . وكان قد رأس فى زمن والده ، وذهب به الشرف كل مذهب . وهو أخو عبد الدار الذى كان أكبر ولد ابيه واليه أوصى بالمناصب كما تقدم . وعبد العزى وعبد وبرة وتخمر وامهم كلهم حبى بنت حليل بن حبشى بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى وأبوها آخر ملوك خزاعة وولاة البيت منهم ، وكلهم أولاد قصى واسمه زيد . وانما سمى بذلك لأن أمه تزوجت بعد أبيه بربيعة بن حزام بن عذرة فسافر بها الى بلاده وابنها صغير فسمى قصياً لذلك . ثم عاد الى مكة وهو كبير ولم شعث قريش وجمعها من متفرقات البلاد ، وازاح يد خزاعة عن البيت ، واجلاهم عن مكة ورجع الحق إلى نصابه وصار رئيس قريش على الاطلاق وكانت اليه الوفادة والسقاية — وهو سنّها — والسدانة والحجابة واللواء وداره دار الندوة كما تقدم بسط ذلك كله — ولهذا قال الشاعر :

قُصَيٌّ لعمري كان يُدعى مُجمِّعاً ... به جمَّعَ اللهُ القبائلَ من فِهْرِ

وهو أخو زهرة كلاهما ابنا كلاب أخى تيم ويقظة أبى مخزوم ثلاثتهم ابناء مرة أخى عدى وهصيص وهم أبناء كعب وهو الذى كان يخطب قومه كل جمعة ويبشرهم بمبعث رسول الله (ص) ، وينشد فى ذلك اشعاراً كما قدمنا ، وهو أخو عامر وسامة وخزيمة وسعد والحارث وعوف سبعتهم أبناء لؤى أخى تيم الأدرم وهما ابناء غالب أخى الحارث ومحارب ثلاثتهم ابناء فهر ، وهو أخو الحارث وكلاهما ابن مالك وهو أخو الصلت ويخلد ، وهم بنو النضر الذى اليه جماع قريش على الصحيح كما قدمنا الدليل عليه ، وهو أخو مالك وملكان وعبد مناة وغيرهم كلهم أولاد كنانة أخى أسد واسدة والهون أولاد خزيمة ، وهو أخو هذيل وهما ابنا مدركة — واسمه عمرو أخو طابخة واسمه عامر وقمعة ثلاثتهم أبناء الياس

وأخي الياس هو غيلان والد قيس كلها وعاولدا مضر أخي ربيعة . ويقال لهما الصريحان من ولد اسماعيل واخواهما أنمار وإياد تيامنا، اربعتهم ابناء نزار أخي قضاعة ـ في قول طائفة ممن ذهب الى أن قضاعة حجازية عدنانية ـ وقد تقدم بيانه كلاهما ابناء معد بن عدنان .

وهذا النسب بهذه الصفة لا خلاف فيه بين العلماء فجميع قبائل عرب الحجاز ينتهون الى هذا النسب ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله تعالى . (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) لم يكن بطن من بطون قريش الا ولرسول الله (ص) نسب يتصل بهم . وصدق ابن عباس رضي الله عنه فيما قال وازيد مما قال ، وذلك أن جميع قبائل العرب العدنانية تنتهي اليه بالآباء وكثير منهم بالامهات أيضاً كما ذكره محمد بن اسحاق وغيره في أمهاته وأمهات آبائه وأمهاتهم مما يطول ذكره . وقد حرره ابن اسحاق رحمه الله والحافظ ابن عساكر وقد ذكرنا في ترجمة عدنان نسبه وما قيل فيه وانه من ولد اسماعيل لا محالة وان اختلف في كم بينهما أباً؟ على أقوال قد بسطناها فيما تقدم والله أعلم .

وقد ذكرنا بقية النسب من عدنان الى آدم وأوردنا قصيدة أبي العباس الناشيء المتضمنة ذلك ، كل ذلك في أخبار عرب الحجاز ولله الحمد .

وقد تكلم الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في أول تاريخه على ذلك كلاما مبسوطا جيدا محرراً نافعاً . وقد ورد حديث في انتسابه عليه السلام الى عدنان وهو على المنبر ولكن الله أعلم بصحته كما قال الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر بن حفص المقرىء ـ ببغداد ـ حدثنا أبو عيسى بكار بن احمد بن بكار حدثنا أبو جعفر احمد بن موسى بن سعد ـ املاء سنة ست وتسعين ومئتين ـ حدثنا أبو جعفر محمد بن ابان القلانسي حدثنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن ربيعة القدامي حدثنا مالك بن أنس عن الزهري عن أنس وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام . قال : بلغ النبي (ص) أن رجالا من كندة يزعمون أنهم منه وانه منهم فقال « انما كان يقول ذلك العباس وأبو سفيان بن حرب فيأمنا بذلك . وانا لن ننتفي من آبائنا ، نحن بنو النضر بن كنانة » قال : وخطب النبي (ص) فقال « أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما فاخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية . وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت الى أبي وأمي ، فانا خيركم نفسا ، وخيركم أباً » وهذا حديث غريب جدا من حديث مالك . تفرد به القدامي وهو ضعيف . ولكن سنذكر له شواهد من وجوه أخر . فمن ذلك قوله « خرجت من نكاح لا من سفاح » قال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه أبي جعفر الباقر في قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال لم يصبه شيء

من ولادة الجاهلية قال وقال رسول الله (ص): « إني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وهذا مرسل جيد . وهكذا رواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن محمد بن اسحاق الصنعاني عن يحيى بن أبي بكير عن عبد الغفار بن القاسم عن جعفر بن محمد عن أبيه . قال قال رسول الله (ص): « ان الله أخرجني من النكاح ولم يخرجني من السفاح » وقد رواه ابن عدي موصولا فقال حدثنا أحمد بن حفص حدثنا محمد بن أبي عمرو العدني المكي حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال اشهد على أبي حدثني عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب أن النبي (ص) قال : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم الى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء » هذا غريب من هذا الوجه ولا يكاد يصح . وقال هشيم حدثنا المديني عن أبي الحويرث عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص): « ماولدني من نكاح أهل الجاهلية شيء ، ماولدني إلا نكاح كنكاح الاسلام » وهذا أيضاً غريب أورده الحافظ ابن عساكر ثم اسنده من حديث أبي هريرة وفي اسناده ضعف والله أعلم . وقال محمد بن سعد أخبرنا محمد بن عمر حدثني محمد بن عبد الله بن مسلم عن عمه الزهري عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله (ص): « ولدت من نكاح غير سفاح » ثم أورد ابن عساكر من حديث أبي عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى (وتقلبك في الساجدين) قال من نبي الى نبي حتى اخرجت نبياً . ورواه عن عطاء . وقال محمد بن سعد أخبرنا هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال كتبت للنبي (ص) خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئا مما كان من أمر الجاهلية . وثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص): « بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه » وفي صحيح مسلم من حديث الاوزاعي عن شداد أبي عمار عن واثلة بن الإسقع ان رسول الله (ص) قال : « أن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل واصطفى من بني اسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » وقال الامام احمد حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبي وداعة قال قال العباس بلغه (ص) بعض ما يقول الناس « فصعد المنبر فقال : من أنا ؟ » قالوا أنت رسول الله قال « أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً . فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفسا » صلوات الله وسلامه عليه دائماً أبداً الى يوم الدين . وقال يعقوب بن سفيان حدثنا عبيدالله بن موسى عن اسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن العباس بن عبد المطلب قال قلت يارسول الله ان قريشا اذا التقوا لقي بعضهم بعضا بالبشاشة ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها . . فغضب

رسول الله (ص) عند ذلك غضبا شديدا ثم قال: «والذى نفس محمد بيده لا يدخل قلب رجل الايمان حتى يحبكم لله ولرسوله» فقلت يارسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كبوة من الارض . فقال رسول الله (ص) : «إن الله يوم خلق الخلق جعلنى فى خيرهم ، ثم لما فرقهم [قبائل] جعلنى فى خيرهم قبيلة. ثم حين جعل البيوت جعلنى فى خير بيوتهم فانا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً».

ورواه أبو بكر بن أبى شيبة عن ابن فضيل عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث عن ربيعة ابن الحارث قال بلغ النبى (ص) فذكره بنحو ما تقدم ولم يذكر العباس. وقال يعقوب بن سفيان حدثنى يحيى بن عبد الحميد حدثنى قيس بن عبد الله عن الاعمش عن عباية بن ربعى عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) : « إن الله قسم الخلق قسمين فجعلنى فى خيرهما قسماً ، فذلك قوله وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، فانا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلنى فى خيرها ثلثاً ، فذلك قوله وأصحاب الميمنة والسابقون السابقون فانا من السابقين ، وأنا خير السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة فذلك قوله وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلنى فى خيرها بيتاً وذلك قوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، فانا وأهل بيتى مطهرون من الذنوب». وهذا الحديث فيه غرابة ونكارة . وروى الحاكم والبيهقى من حديث محمد بن ذكوان خال ولد حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر قال: إنا لقعود بفناء النبى (ص) إذ مرت به امرأة ، فقال بعض القوم هذه ابنة رسول الله (ص) . فقال أبو سفيان: مثل محمد فى بنى هاشم مثل الريحانة فى وسط النتن . فانطلقت المرأة فأخبرت النبى (ص) فجاء رسول الله (ص) يعرف فى وجهه الغضب . فقال : « ما بال أقوال تبلغنى عن أقوام إن الله خلق السماوات سبعاً فاختار العلياء منها فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم فانا خيار من خيار ، فمن أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم» هذا أيضاً حديث غريب . وثبت فى الصحيح أن رسول الله (ص) قال: « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»

وروى الحاكم والبيهقى أيضاً من حديث موسى بن عبيدة حدثنا عمرو بن عبد الله بن نوفل عن الزهرى عن أبى أسامة أو أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله (ص) : «قال لى جبريل قلبت الارض من مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد ، وقلبت الارض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم » قال الحافظ البيهقى وهذه الاحاديث وإن كان فى رواتها من لا يحتج به فبعضها يؤكد بعضاً ومعنى جميعها يرجع الى حديث واثلة بن الاسقع والله أعلم

قلت وفى هذا المعنى يقول أبو طالب يمتدح النبى (ص):

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها
فإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها
ونحمى حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذواء وإنما ... بأكنافنا تندى وتنمى أرومها

وقال أبو السكن زكريا بن يحيى الطائى فى الجزء المنسوب اليه المشهور: حدثنى عمر بن أبى زحر بن حصين عن جده حميد بن منهب قال قال جدى خريم بن أوس هاجرت إلى رسول الله (ص) فقدمت عليه منصرفا من تبوك ، فاسلمت فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول يا رسول الله إنى أريد أن أمتدحك ، فقال رسول الله (ص) قل لا يفضض الله فاك فانشأ يقول:

من قبلها طبت فى الظلال وفى ... مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنـ ... ـت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسراً وأهله الغرق
تنقل من صلب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من ... خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأ ... رض وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النـ ... ـور وسبل الرشاد نخترق

وقد روى هذا الشعر لحسان بن ثابت فروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر من طريق أبى الحسن ابن أبى الحديد أخبرنا محمد بن أبى نصر أنا عبد السلام بن محمد بن احمد القرشى حدثنا أبو حصين محمد ابن اسماعيل بن محمد التميمى حدثنا محمد بن عبدالله الزاهد الخراسانى حدثنى اسحاق بن ابراهيم بن سنان حدثنا سلام بن سليمان أبو العباس المكفوف المدائنى حدثنا ورقاء بن عمر عن ابن أبى نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس قال سألت رسول الله (ص) فقلت فداك أبى وأمى أين كنت وآدم فى الجنة ؟ قال فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال: «كنت فى صلبه وركب بى السفينة فى صلب أبى نوح وقذف بى فى صلب أبى ابراهيم لم يلتق أبواى على سفاح قط لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة صفى مهدى لا ينشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما وقد أخذ الله بالنبوة ميثاق وبالاسلام عهدى

ونشر فى التوراة والانجيل ذكرى وبين كل نبى صنى تشرق الارض بنورى والغام بوجهى وعلمنى كتابه وزادنى [شرفا] فى سمائه وشق لى اسماً من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد واحمد ووعدنى أن يحبونى بالحوض والكوثر وأن يجعلنى أول شافع وأول مشفع ثم أخرجنى من خير قرن لامتى ، وهم الحادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » قال ابن عباس فقال حسان بن ثابت فى النبى (ص) :

قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع يوم يخصف الورق

ثم سكنت البلاد لا بشر أنـ ـت ولا نطفة ولا علق

مطهر تركب السفين وقد ألجم نسراً وأهله الغرق

تنقل من صلب إلى رحم إذا مضى طبق بدا طبق

قال النبى (ص) : « يرحم الله حسانا » فقال على بن أبى طالب وجبت الجنة لحسان ورب الكعبة ثم قال الحافظ ابن عساكر هذا حديث غريب جداً

قلت : بل منكر جداً والمحفوظ أن هذه الأبيات للعباس رضى الله عنه ثم أوردها من حديث أبى السكن زكريا بن يحيى الطائى كما تقدم

قلت : ومن الناس من يزعم أنها للعباس بن مرداس السلمى فالله أعلم .

تنبيه . قال القاضى عياض ـ فى كتابه الشفاء ـ وأما احمد الذى أتى فى الكتب وبشرت به الانبياء فنع الله بحكمته أن يسمى به أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله ، حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أوشك . وكذلك محمد لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد . فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو (والله أعلم حيث يجعل رسالاته) وهم : محمد بن احيحة بن الجلاح الأوسى . ومحمد بن مسلمة الأنصارى . ومحمد بن البراء الكندى . ومحمد بن سفيان بن مجاشع . ومحمد بن حمران الجعفى . ومحمد بن خزاعى السلمى لا سابع لهم . ويقال إن أول من سمى محمداً محمد بن سفيان بن مجاشع . واليمن تقول بل محمد بن ليحمد من الازد . ثم إن الله حمى كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه سبب يشكل أحدا فى أمره حتى تحققت الشيمتان له (ص) لم ينازع فيهما . هذا لفظه .

باب مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولد صلوات الله عليه وسلامه يوم الاثنين . لما رواه مسلم فى صحيحه من حديث غيلان بن جرير بن عبد الله بن معبد الزمانى عن أبى قتادة أن اعرابيا قال يارسول الله ، ما تقول فى صوم يوم الاثنين فقال « ذاك يوم ولدت فيه وانزل على فيه » . وقال الامام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن

خالد بن أبي عمران عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال : ولد رسول الله (ص) يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وخرج مهاجرا من مكة الى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، ورفع الحجر الاسود يوم الاثنين . تفرد به أحمد ورواه عمرو بن بكير عن ابن لهيعة وزاد نزلت سورة المائدة يوم الاثنين (اليوم أكملت لكم دينكم). وهكذا رواه بعضهم عن موسى بن داود به وزاد أيضا وكانت وقعة بدر يوم الاثنين. وممن قال هذا يزيد بن حبيب وهذا منكر جداً. قال ابن عساكر والمحفوظ ان بدراً ونزول (اليوم أكملت لكم دينكم) يوم الجمعة وصدق ابن عساكر . وروى عبد الله بن عمر عن كريب عن ابن عباس ولد رسول الله (ص) يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين. وهكذا روى من غير هذا الوجه عن ابن عباس انه ولد يوم الاثنين . وهذا مالا خلاف فيه انه ولد (ص) يوم الاثنين . وأبعد بل اخطأ من قال ولد يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من ربيع الأول نقله الحافظ ابن دحية فيما قرأه في كتاب أعلام الورى بأعلام الهدى لبعض الشيعة. ثم شرع ابن دحية في تضعيفه وهو جدير بالتضعيف إذ هو خلاف النص . ثم الجمهور على أن ذلك كان في شهر ربيع الأول فقيل لليلتين خلتا منه قاله ابن عبد البر في الاستيعاب ورواه الواقدي عن أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني . وقيل لثمان خلون منه حكاه الحميدي عن ابن حزم . ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم ونقل ابن عبد البر عن أصحاب التاريخ انهم صححوه وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي ورجحه الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه التنوير في مولد البشير النذير وقيل لعشر خلون منه نقله ابن دحية في كتابه ورواه ابن عساكر عن أبي جعفر الباقر ورواه مجالد عن الشعبي كما مر. وقيل لثنتي عشرة خلت منه نص عليه ابن اسحاق ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عفان عن سعيد بن ميناء عن جابر وابن عباس انهما قالا : ولد رسول الله (ص) عام الفيل يوم الاثنين الثامن عشر [1] من شهر ربيع الاول وفيه بعث وفيه عرج به الى السماء وفيه هاجر وفيه مات . وهذا هو المشهور عند الجمهور والله أعلم . وقيل لسبعة عشر خلت منه كما نقله ابن دحية عن بعض الشيعة . وقيل لثمان بقين منه نقله ابن دحية من خط الوزير أبي رافع بن الحافظ أبي محمد بن حزم عن أبيه والصحيح عن ابن حزم الاول انه لثمان مضين منه كما نقله عنه الحميدي وهو اثبت . والقول الثاني انه ولد في رمضان نقله ابن عبد البر عن الزبير بن بكار وهو قول غريب جداً وكان مستنده انه عليه الصلاة والسلام أوحي اليه في رمضان بلا خلاف وذلك على رأس أربعين سنة من عمره فيكون مولده في رمضان وهذا فيه نظر والله اعلم . وقد روى خيثمة بن سليمان الحافظ عن خلف بن محمد كردوس الواسطي عن المعلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن

---

(١) بهامش المصرية : قال مؤلفه : كذا رأيته الثامن عشر . وصوابه الثاني عشر

ابن عباس قال ولد رسول الله (ص) يوم الاثنين في ربيع الاول وانزلت عليه النبوة يوم الاثنين في أول شهر ربيع الأول وانزلت عليه البقرة يوم الاثنين في ربيع الاول . وهذا غريب جداً رواه ابن عساكر . قال الزبير بن بكار حملت به أمه في أيام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى . وولد بمكة بالدار المعروفة بمحمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان. ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عثمان بن عقبة بن مكرم عن المسيب بن شريك عن شعيب بن شعيب عن ابيه عن جده قال حمل برسول الله (ص) في يوم عاشوراء في المحرم وولد يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة اصحاب الفيل . وذكر غيره ان الخيزران وهي أم هارون الرشيد لما حجت امرت ببناء هذه الدار مسجداً. فهو يعرف بها اليوم . وذكر السهيلي أن مولده عليه الصلاة والسلام كان في العشرين من نيسان . وهذا أعدل الزمان والفصول وذلك لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة لذي القرنين فيما ذكر أصحاب الزيج . وزعموا ان الطالع كان لعشرين درجة من الجدي وكان المشترى و زحل مقترنين في ثلاث درج من العقرب وهي درجة وسط السماء . وكان موافقا من البروج الحمل وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل نقله كله ابن دحية والله أعلم .

قال ابن اسحاق : وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل وهذا هو المشهور عن الجمهور . قال ابراهيم بن المنذر الحزامي : وهو الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا انه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل . وقد رواه البيهقي من حديث أبي اسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : ولد رسول الله (ص) عام الفيل وقال محمد بن اسحاق حدثني المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قيس بن مخرمة قال ولدت انا ورسول الله (ص) عام الفيل ، كنا لدين . قال وسأل عثمان رضي الله عنه قباث بن اشيم أخا بني يعمر بن ليث أنت أكبر أم رسول الله (ص)؟ فقال: رسول الله (ص) أكبر مني وانا اقدم منه في الميلاد . ورأيت خزق الفيل اخضر محيلا . ورواه الترمذي والحاكم من حديث محمد بن اسحاق به .

قال ابن اسحاق : وكان رسول الله (ص) عام عكاظ ابن عشرين سنة .

وقال ابن اسحاق : كان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة ، وكان بناء الكعبة بعد الفجار بخمسة عشر سنة ، والمبعث بعد بنائها بخمس سنين . وقال محمد بن جبير بن مطعم : كانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، وبناء الكعبة بعد عكاظ بعشر سنين ، والمبعث بعد بنائها بخمس عشرة سنة . و روى الحافظ البيهقي من حديث عبد العزيز بن أبي ثابت المديني حدثنا الزبير بن موسى عن أبي الحويرث قال سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن اشيم الكناني ثم الليثي : ياقباث انت أكبر أم رسول الله

(ص) ، قال: رسول الله (ص) أكبر مني ، وانا اسن . ولد رسول الله (ص) عام الفيل ، ووقفت بي أمي على روث الفيل محيلا اعقله . وتنبأ رسول الله (ص) على رأس أربعين سنة . وقال يعقوب بن سفيان حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنا نعيم يعني ابن ميسرة – عن بعضهم عن سويد بن غفلة انه قال انا لدة رسول الله (ص) ، ولدت عام الفيل . قال البيهقي وقد روى عن سويد بن غفلة انه قال أنا أصغر من رسول الله (ص) بسنتين . قال يعقوب وحدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عبد العزيز بن ابي ثابت حدثني عبد الله بن عثمان بن ابي سليمان النوفلي عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم . قال ولد رسول الله (ص) عام الفيل ، وكانت بعده عكاظ بخمس عشرة سنة ، وبني البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل ، وتنبأ رسول الله (ص) على رأس أربعين سنة من الفيل .

والمقصود أن رسول الله (ص) ولد عام الفيل على قول الجمهور فقيل بعده بشهر ، وقيل بأربعين يوما ، وقيل بخمسين يوما – وهو أشهر – وعن أبي جعفر الباقر كان قدوم الفيل للنصف من المحرم ، ومولد رسول الله (ص) بعده بخمس وخمسين ليلة ، وقال آخرون بل كان عام الفيل قبل مولد رسول الله (ص) بعشر سنين . قاله ابن أبزى . وقيل بثلاث وعشرين سنة رواه شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده كما تقدم وقيل بعد الفيل بثلاثين سنة . قاله موسى بن عقبة عن الزهري رحمه الله . واختاره موسى بن عقبة أيضا رحمه الله . وقال أبو زكريا العجلاني : بعد الفيل بأربعين عاما ، رواه ابن عساكر وهذا غريب جدا ، واغرب منه ما قال خليفة بن خياط حدثني شعيب بن حبان عن عبد الواحد بن أبي عمرو عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، قال : ولد رسول الله (ص) قبل الفيل بخمس عشرة سنة وهذا حديث غريب ومنكر وضعيف أيضا . قال خليفة بن خياط والمجتمع عليه انه عليه السلام ولد عام الفيل .

صفة مولده الشريف عليه الصلاة والسلام

قد تقدم ان عبد المطلب لما ذبح تلك الابل المائة عن ولده عبد الله حين كان نذر ذبحه فسلمه الله تعالى لما كان قدر في الازل من ظهور النبي الامي (ص) خاتم الرسل وسيد ولد آدم من صلبه ، فذهب كما تقدم فزوجه اشرف عقيلة في قريش آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة الزهرية ، فحين دخل بها وافضى اليها حملت برسول الله (ص) ، وقد كانت أم قتال رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل توسمت ما كان بين عيني عبد الله قبل أن يجامع آمنة من النور ، فودت أن يكون ذلك متصلا بها لما كانت تسمع من اخيها من البشارات بوجود محمد (ص) ، وانه قد أزف زمانه فعرضت نفسها عليه . قال بعضهم ليتزوجها وهو أظهر والله اعلم ، فامتنع عليها فلما انتقل ذلك النور الباهر إلى آمنة بمواقعته

أياما كأنه تندم على ما كانت عرضت عليه . فتعرض لها لتراوده . فقالت لا حاجة لى فيك وتأسفت على ما فاتها من ذلك وأنشدت فى ذلك ما قدمناه من الشعر الفصيح البليغ . وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هى لرسول الله (ص)، فانه كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) وقد تقدم الحديث المروى من طريق جيد أنه قال عليه الصلاة والسلام : « ولدت من نكاح لا من سفاح »

والمقصود أن أمه حين حملت به توفى أبوه عبدالله وهو حمل فى بطن أمه على المشهور . قال محمد ابن سعد حدثنا محمد بن عمر - هو الواقدى - حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدى . وحدثنا سعيد بن أبى زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة . قال : خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة فى عير من عيران قريش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا فنزلوا بالمدينة وعبدالله ابن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله فقالوا خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار وهو مريض . فبعث اليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث . فوجده قد توفى ودفن فى دار النابغة فرجع إلى ابيه فأخبره ، فوجد عليه عبدالمطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً ، ورسول الله (ص) يومئذ حمل . ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفى خمس وعشرون سنة .

قال الواقدى : هذا هو أثبت الاقاويل فى وفاة عبدالله وسنه عندنا . قال الواقدى : وحدثنى معمر عن الزهرى أن عبد المطلب بعث عبد الله الى المدينة يمتار لهم تمراً فمات . قال محمد بن سعد وقد انبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه وعن عوانة بن الحكم . قالا : توفى عبد الله بن عبد المطلب بعد ما أتى على رسول الله (ص) ثمانية وعشرين شهراً ، وقيل سبعة أشهر . وقال محمد بن سعد : والأول أثبت أنه توفى ورسول الله (ص) حمل . وقال الزبير بن بكار : حدثنى محمد بن حسن عن عبد السلام عن ابن خربوذ . قال : توفى عبد الله بالمدينة ورسول الله (ص) ابن شهرين ، وماتت أمه وهو ابن أربع سنين ، ومات جده وهو ابن ثمان سنين ، فأوصى به إلى عمه أبى طالب . والذى رجحه الواقدى وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصلاة والسلام توفى أبوه وهو جنين فى بطن أمه وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه . وقد تقدم فى الحديث « ورؤيا أمى التى رأت حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » وقال محمد بن اسحاق فكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله (ص) تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله (ص) فقيل لها إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فاذا وقع إلى الأرض فقولى: أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، من كل بر عاهد (١) وكل عبد رائد ، يذود عنى ذائد ، فانه عند الحميد الماجد ، حتى أراه قد أتى المشاهد . وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام ، فاذا وقع فسميه محمداً . فان اسمه فى التوراة احمد يحمده أهل السماء وأهل

(١) كذا فى الاصلين ولم نقف عليه ولم يظهر لنا معناه .

الارض، واسمه في الانجيل احمد يحمده أهل السماء وأهل الارض، واسمه في القرآن محمد. وهذا وذلك يقتضي أنها رأت حين حملت به عليه السلام كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام. ثم لما وضعته رأت عياناً تأويل ذلك كما رأته قبل ذلك ها هنا والله أعلم.

وقال محمد بن سعد: أنبأنا محمد بن عمر – هو الواقدي – حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهري. وقال الواقدي: حدثنا موسى بن عبدة عن أخيه ومحمد بن كعب القرظي. وحدثني عبد الله ابن جعفر الزهري عن عمته أم بكر بنت المسور عن أبيها. وحدثنا عبد الرحمن بن ابراهيم المزني وزياد ابن حشرج عن أبي وجزة. وحدثنا معمر عن أبي نجيح عن مجاهد. وحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس: دخل حديث بعضهم في حديث بعض. أن آمنة بنت وهب قالت لقد علقت به – تعني رسول الله (ص) – فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق الى المغرب، ثم وقع الى الارض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه الى السماء. وقال بعضهم وقع جاثياً على ركبتيه، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رؤيت أعناق الابل ببصرى، رافعاً رأسه الى السماء. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا محمد بن عبد الله الحافظ أنبأنا محمد بن اسماعيل أنبأنا محمد بن اسحاق حدثنا يونس بن مبشر بن الحسن حدثنا يعقوب بن محمد الزهري حدثنا عبد العزيز بن عمران حدثنا عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان ابن جبير بن مطعم عن أبيه عن ابن أبي سويد الثقفي عن عثمان بن أبي العاص حدثتني أمي أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله (ص) ليلة ولدته، قالت فما شيء أنظره في البيت إلا نور وإني أنظر الى النجوم تدنو حتى إني لأقول ليقعن علي.

وذكر القاضي عياض عن الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف أنها كانت قابلته وأنها أخبرت به حين سقط على يديها واستهل سمعت قائلا يقول يرحمك الله، وإنه سطع منه نور رؤيت منه قصور الروم.

قال محمد بن اسحاق: فلما وضعته بعثت الى عبد المطلب جاريتها – وقد هلك أبوه وهي حبلى ويقال إن عبد الله هلك والنبي (ص) ابن ثمانية وعشرين شهراً فالله أعلم أي ذلك كان – فقالت قد ولد لك غلام فانظر اليه، فلما جاءها أخبرته وحدثته بما كانت رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسميه. فاخذه عبد المطلب فادخله على هبل في جوف الكعبة، فقام عبد المطلب يدعو ويشكر الله عز وجل ويقول:

الحمدُ للهِ الذي أعطاني ... هذا الغلامَ الطيّبَ الأردانِ
قد سادَ في المهدِ على الغِلمانِ ... أعيذُه بالبيتِ ذي الأركانِ
حتى يكونَ بُلغةَ الفتيانِ ... حتى أراه بالغَ البنيانِ

أعيذه من كل ذي شنآن   من حاسدٍ مضطرب العنان
ذي همّةٍ ليس له عينان   حتى أراه رافعَ اللسان [1]
أنتَ الذي سُمّيتَ في القرآن   في كتبٍ ثابتة المثاني

* احمدُ مكتوبٌ على اللسان *

وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو بكر محمد بن احمد بن حاتم الداودى [2] ـ بمرو ـ حدثنا أبو عبدالله البوشنجى حدثنا أبو أيوب سليان بن سلمة الخبائرى حدثنا يونس بن عطاء بن عثمان ابن ربيعة بن زياد بن الحارث الصدائى ـ بمصر ـ حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه . قال : ولد رسول الله(ص) مختونا مسرورا ، قال فأعجب جده عبد المطلب وحظى عنده . وقال : ليكونن لابنى هذا شأن فكان له شأن . وهذا الحديث فى صحته نظر وقد رواه الحافظ ابن عساكر من حديث سفيان بن محمد المصيصى عن هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن عن أنس . قال قال رسول الله(ص) : من كرامتى على الله أنى ولدت مختونا ولم ير سوأتى أحد ثم أورده من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به . ثم أورده من طريق محمد بن محمد بن سليان ـ هو الباغندى ـ حدثنا عبد الرحمن بن أيوب الحمصى حدثنا موسى بن أبى موسى المقدسى حدثنى خالد بن سلمة عن نافع عن ابن عمر . قال : ولد رسول الله(ص) مسرورا مختونا . وقال أبو نعيم: حدثنا أبو أحمد محمد بن احمد الغطريفى حدثنا الحسين بن أحمد بن عبد الله المالكى حدثنا سليان بن سلمة الخبائرى حدثنا يونس بن عطاء حدثنا الحكم بن أبان حدثنا عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس . قال : ولد رسول الله (ص) مختونا مسرورا ، فأعجب ذلك جده عبد المطلب وحظى عنده ، وقال ليكونن لابنى هذا شأن ، فكان له شأن . وقد ادعى بعضهم صحته لما ورد له من الطرق حتى زعم بعضهم أنه متواتر وفى هذا كله نظر ، ومعنى مختونا أى مقطوع الختان ، ومسرورا أى مقطوع السرة من بطن أمه . وقد روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن عيينة البصرى حدثنا على بن محمد المدائنى السلمى حدثنا سلمة بن محارب بن مسلم بن زياد عن أبيه عن أبى بكرة أن جبريل ختن النبى (ص) حين طهر قلبه وهذا غريب جدا . وقد روى أن جده عبدالمطلب ختنه وعمل له دعوة جمع قريشا عليها والله أعلم .

وقال البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنى محمد بن كامل القاضى ـ شفاها ـ أن محمد بن اسماعيل حدثه ـ يعنى السلمى ـ حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح حدثنى معاوية بن صالح عن أبى الحكم التنوخى . قال : كان المولود اذا ولد فى قريش دفعوه الى نسوة من قريش الى الصبح يكفئن عليه برمة ، فلما ولد

(١) كذا فى الاصلين . وفى السهيلى : رافع اللسان : ولعلها : حتى أرى منه رفيع الشان .
(٢) كذا فى المصرية . وفى الحلبية: الدراوردى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعه عبد المطلب الى نسوة فكفأن عليه برمة ، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه باثنتين ووجدنه مفتوح العينين شاخصاً ببصره الى السماء . فأتاهن عبد المطلب فقلن له ما رأينا مولودا مثله، وجدناه قد انفلقت عنه البرمة ، ووجدناه مفتوحا عينيه شاخصا ببصره الى السماء . فقال احفظنه فاني أرجو أن يكون له شأن ، أوأن يصيب خيرا ، فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ودعا له قريشا فلما أكلوا قالوا ياعبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ما سميته ؟ قال سميته محمدا ، قالوا فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال أردت أن يحمده الله فى السماء وخلقه فى الارض قال أهل اللغة : كل جامع لصفات الخير يسمى محمدا كما قال بعضهم :

إليك ـ أبيتَ اللعنَ ـ أعملتُ ناقتى　　إلى الماجدِ القرمِ الكريمِ المحمَّدِ

وقال بعض العلماء : ألهمهم الله عز وجل أن سموه محمدا لما فيه من الصفات الحميدة ليلتقى الاسم والفعل ، ويتطابق الاسم والمسمى فى الصورة والمعنى ، كما قال عمه أبو طالب ويروى لحسان :

وشقَّ له من اسمه ليجله　　فذو العرشِ محمود وهذا محمد

وسنذكر أسماءه عليه الصلاة والسلام وشمائله وهى صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة ودلائل نبوته وفضائل منزلته فى آخر السيرة إن شاء الله .

قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا احمد ابن شيبان الرملى حدثنا احمد بن ابراهيم الحبلى حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا زهير عن محارب بن دثار عن عمرو بن يثربى عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يارسول الله ! دعانى الى الدخول فى دينك أمارة لنبوتك ، رأيتك فى المهد تناغى القمر وتشير اليه باصبعك ، فحيث اشرت اليه مال قال : « إنى كنت أحدثه ويحدثنى ويلهينى عن البكاء ، واسمع وجبته حين يسجد تحت العرش » . ثم قال تفرد به الحلبى وهو مجهول .

فصل

﴿ فيما وقع من الآيات ليلة مولده عليه الصلاة والسلام ﴾

قد ذكرنا فى باب هواتف الجان ما تقدم من خرور كثير من الأصنام ليلتئذ لوجوهها وسقوطها عن اماكنها ، ومارآه النجاشى ملك الحبشة ، وظهور النور معه حتى أضاءت له قصور الشام حين ولد ، وما كان من سقوطه جاثيا رافعاً رأسه الى السماء ، وانفلاق تلك البرمة عن وجهه الكريم ، وماشوهد من النور فى المنزل الذى ولد فيه ودنو النجوم منهم وغير ذلك .

حكى السهيلى عن تفسير بقى بن مخلد الحافظ أن ابليس رن أربع رنات : حين لعن ، وحين أهبط ،

وحين ولد رسول الله (ص) ، وحين انزلت الفاتحة . قال محمد بن اسحاق : وكان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت : كان يهودي قد سكن مكة يتجر بها فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله (ص) قال في مجلس من قريش : يامعشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم والله ما نعلمه فقال الله أكبر ، أما اذا أخطأكم فلا بأس انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد هذه الليلة نبي هذه الامة الاخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس : لا يرضع ليلتين وذلك أن عفريتا من الجن ادخل أصبعه في فمه فمنعه الرضاع فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه فلما صاروا الى منازلهم أخبر كل انسان منهم أهله فقالوا قد والله ولد لعبدالله بن عبدالمطلب غلام سموه محمدا فالتقى القوم فقالوا هل سمعتم حديث اليهودي وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟ فانطلقوا حتى جاءوا اليهودي فاخبروه الخبر . قال فاذهبوا معي حتى أنظر اليه . فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقالوا اخرجي الينا ابنك فاخرجته وكشفوا له عن ظهره . فرأى تلك الشامة . فوقع اليهودي مغشيا عليه . فلما أفاق قالوا له مالك ويلك ؟ قال قد ذهبت والله النبوة من بني اسرائيل ، فرحتم بها يامعشر قريش . والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب .

وقال محمد بن اسحاق: حدثني صالح بن ابراهيم عن يحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال حدثني من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسان بن ثابت . قال : إني لغلام يفعة ابن سبع سنين ـ أو ثمان سنين ـ أعقل ما رأيت وسمعت اذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غداة يامعشر يهود فاجتمعوا اليه ـ وأنا أسمع ـ قالوا ويلك مالك ؟ قال قد طلع نجم احمد الذي يولد به في هذه الليلة . وروى الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة من حديث أبي بكر بن عبد الله العامري عن سليمان بن سحيم وذريح بن عبد الرحمن كلاهما عن عبدالرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال سمعت أبي مالك بن سنان يقول جئت بني عبد الاشهل يوما لا تحدث فيهم ونحن يومئذ في هدنة من الحرب ، فسمعت يوشع اليهودي يقول : أظل خروج نبي يقال له أحمد يخرج من الحرم . فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي ـ كالمستهزئ به ما صفته ؟ فقال رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حمرة يلبس الشملة ويركب الحمار ، سيفه على عاتقه وهذا البلد مهاجره . قال فرجعت الى قومي بني خدرة وأنا يومئذ أتعجب مما يقول يوشع فاسمع رجلا منا يقول ويوشع يقول هذا وحده!! كل يهود يثرب يقولون هذا . قال أبي مالك بن سنان فخرجت حتى جئت بني قريظة فأجد جمعاً فتذاكروا النبي (ص) . فقال الزبير بن باطا : قد طلع الكوكب الاحمر الذي لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره ولم يبق أحد إلا احمد وهذا مهاجره . قال أبو سعيد فلما قدم النبي (ص) أخبره أبي هذا الخبر فقال رسول الله (ص) : « لو أسلم الزبير لأسلم ذووه من رؤساء اليهود انما هم له تبع » وقال أبو نعيم: حدثنا عمر بن محمد حدثنا ابراهيم بن السندي حدثنا النضر بن سلمة حدثنا

اسماعيل بن قيس بن سليمان بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع سمعت زيد بن ثابت يقول :كان أحبار يهود بنى قريظة والنضير يذكرون صفة النبى (ص) فلما طلع الكوكب الاحمر أخبروا أنه نبى وأنه لا نبى بعده . واسمه احمد ومهاجره الى يثرب فلما قدم رسول الله (ص) المدينة أنكروا وحسدوا وكفروا . وقد أورد هذه القصة الحافظ أبو نعيم فى كتابه من طرق أخرى ولله الحمد .

وقال أبو نعيم ومحمد بن حبان : حدثنا أبو بكر بن أبى عاصم حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد ، قال قال زيد بن عمرو ابن نفيل قال لى حبر من أحبار الشام : قد خرج فى بلدك نبى ـ أو هو خارج ـ قد خرج نجمه فارجع فصدقه واتبعه .

ذكر ارتجاس ايوان كسرى

﴿ وسقوط الشرفات وخمود النيران ورؤيا الموبذان وغير ذلك من الدلالات ﴾

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب هواتف الجان : حدثنا على بن حرب حدثنا أبو أيوب يعلى بن عمران ـ من آل جرير بن عبد الله البجلى ـ حدثنى مخزوم بن هانى المخزومى عن أبيه ـ وأتت عليه خمسون ومائة سنة ـ قال : لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله (ص) ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى الموبذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها ، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فصبر عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره . ثم بعث اليهم فلما اجتمعوا عنده . قال : أتدرون فيم بعثت اليكم قالوا لا إلا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران فازداد غماً إلى غمه ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله ، فقال الموبذان وأنا ـ أصلح الله الملك ـ قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا ثم قص عليه رؤياه فى الابل ، فقال أى شىء يكون هذا ياموبذان ؟ قال حدث يكون فى ناحية العرب ـ وكان أعلمهم من أنفسهم ـ فكتب عند ذلك : من كسرى ملك الملوك الى النعمان بن المنذر ، أما بعد فوجه الىّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه ، فوجه اليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغسانى ، فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال لتخبرنى أو ليسألنى الملك عما أحب ، فان كان عندى منه علم وإلا أخبرته بمن يعلم . فأخبره بالذى وجه به اليه فيه . قال علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له سطيح ، قال فأته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتنى بتفسيره . فخرج عبد المسيح

حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى على الضريح . فسلم عليه وكلمه فلم يرد اليه سطيح جواباً فانشأ يقول :

أصمٌ أم يسمع غطريف اليمن   أم فادَ فازلَمَّ بهِ شأو العنن
يا فاصل الخطة أعيت من ومن   أتاك شيخ الحي من آل سنن
وأمه من آل ذئب بن حجن   أزرق نهم الناب صرار الاذن
أبيض فضفاض الرداء والبدن   رسول قيل العجم يسري للوسن
يجوب بي الارض علنداة شزن   لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن
ترفعني وجنا وتهوي بي وجن   حتى أتى عاري الجآجي والقطن
تلفه في الريح بوغاء الدمن   كأنما حثحث من حضني ثكن[1]

قال فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أتى سطيح ، وقد أو في على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلا صعاباً ، تقود خيلا عراباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها ، ياعبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادي السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً . يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات وكلما هو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول :

شمر فإنك ماضي العزم شمير   لا يفزعنك تفريق وتغيير
إن يمس ملك بني ساسان أفرطهم   فإن ذا الدهر أطوار دهارير
فربما ربما أضحوا بمنزلة   يخاف صولهم الأسد المهاصير
منهم أخو الصرح بهرام وإخوته   والهرمزان وشابور وسابور
والناس أولاد علات فمن علموا   أن قد أقل فمحقور ومهجور
ورب قوم لهم صحبان ذي أذن   بدت تلهيهم فيه المزامير
وهم بنو الام إما إن رأوا نشبا   فذاك بالغيب محفوظ ومنصور
والخير والشر مقرونان في قرن   فالخير متبع والشر محذور

قال فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال له سطيح ، فقال كسرى إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور ، فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه . ورواه البيهقي من حديث عبد الرحمن بن محمد بن إدريس عن علي بن حرب الموصلي بنحوه .

---

(١) راجعنا كثيراً من مظان هذه القصة فوجدنا فيها اختلافاً كبيراً بزيادة ونقص وقد اعتمدنا في تصحيحها على لسان العرب في مادة سطح ج ٣ ص ٣١٢ نقلا عن عمود الامام

قلت : كان آخر ملوكهم ــ الذى سلب منه الملك يزدجرد بن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان وهو الذى انشق الايوان فى زمانه . وكان لاسلافه فى الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة . وكان أول ملوكهم خيومرت بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح [١] .

أما سطيح هذا فقال الحافظ ابن عساكر فى تاريخه هو الربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب ابن عدى بن مازن بن الازد . ويقال الربيع بن مسعود وامه ردعا بنت سعد بن الحارث الحجورى وذكر غير ذلك فى نسبه . قال وكان يسكن الجابية ثم روى عن أبى حاتم السجستانى قال سمعت المشيخة منهم أبو عبيدة وغيره قالوا وكان من بعد لقمان بن عاد . ولد فى زمن سيل العرم وعاش إلى ملك ذى نواس وذلك نحو من ثلاثين قرناً وكان مسكنه البحرين وزعمت عبد القيس أنه منهم وتزعم الازد أنه منهم وأكثر المحدثين يقولون هو من الازد ولا ندرى ممن هو غير أن ولده يقولون إنه من الازد . وروى عن ابن عباس أنه قال : لم يكن شىء من بنى آدم يشبه سطيحاً إنما كان لحما على وضم ليس فيه عظم ولا عصب إلا فى رأسه وعينيه وكفيه وكان يطوى كما يطوى الثوب من رجليه إلى عنقه . ولم يكن فيه شىء يتحرك إلا لسانه . وقال غيره إنه كان إذا غضب انتفخ وجلس . ثم ذكر ابن عباس أنه قدم مكة فتلقاه جماعة من رؤسائهم منهم عبد شمس وعبد مناف أبناء قصى فامتحنوه فى أشياء فأجابهم فيها بالصدق ، فسألوه عما يكون فى آخر الزمان . فقال خذوا منى ومن الهام الله إياى : أنتم الآن يامعشر العرب فى زمان الهرم سواء بصائركم وبصائر العجم ، لا علم عندكم ولا فهم ، وينشو من عقبكم ذوو فهم ، يطلبون أنواع العلم فيكسرون الصنم ، ويتبعون الردم ، ويقتلون العجم ، يطلبون الغنم . ثم قال والباقى الابد ، والبالغ الامد ليخرجن من ذا البلد ، نبى مهتد ، يهدى الى الرشد ، يرفض يغوث والفند ، يبرأ عن عبادة الضدد ، يعبد رباً انفرد ، ثم يتوفاه الله بخير دار محمودا ، من الأرض مفقوداً ، وفى السماء مشهوداً ، ثم يلى أمره الصديق إذا قضى صدق ، وفى رد الحقوق لا خرق ولا نزق ، ثم يلى أمره الحنيف ، مجرب غطريف ، قد أضاف المضيف ، وأحكم التحنيف . ثم ذكر عثمان ومقتله وما يكون بعد ذلك من أيام بنى أمية ثم بنى العباس . وما بعد ذلك من الفتن والملاحم ساقه ابن عساكر بسنده عن ابن عباس بطوله . وقد قدمنا قوله لربيعة بن نصر ملك اليمن حين أخبره برؤياه قبل أن يخبره بها ثم ما يكون فى بلاد اليمن من الفتن وتغيير الدول حتى يعود إلى سيف بن ذى يزن فقال له : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال بل ينقطع . قال ومن يقطعه ؟ قال نبى زكى يأتيه الوحى من قبل العلى قال وممن هذا النبى ؟ قال من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك فى قومه الى آخر الدهر قال وهل للدهر من آخر ؟ قال نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون. قال أحق ما تخبرنى ؟

(١) من هنا إلى قوله وقال أبو نعيم فى صفحة ٢٧٢ مكتوب بحاشية الحلبية لم يرد فى المصرية .

قال نعم والشفق والغسق والقمر إذا اتسق إن ما أنبأتك عليه لحق . ووافقه على ذلك شق سواء بسواء بعبارة أخرى كما تقدم . ومن شعر سطيح قوله :

عليكم بتقوى الله فى السرّ والجهْرِ ولا تلبسوا صدْقَ الامانة بالغدْر
وكونوا لجار الجنب حِصناً وجنة إذا ما عرَتْهُ النائباتُ مِنَ الدهر

وروى ذلك الحافظ ابن عساكر ثم أورد ذلك المعافى بن زكريا الجريرى فقال : وأخبار سطيح كثيرة وقد جمعها غير واحد من أهل العلم . والمشهور أنه كان كاهناً وقد أخبر عن النبى (ص) وعن نعته ومبعثه . وروى لنا بإسناد الله به أعلم أن النبى (ص) سئل عن سطيح فقال : « نبى ضيعه قومه » .

قلت : أما هذا الحديث فلا أصل له فى شىء من كتب الاسلام المعهودة ولم أره بإسناد أصلا . ويروى مثله فى خبر خالد بن سنان العبسى ولا يصح أيضاً وظاهر هذه العبارات تدل على علم جيد لسطيح وفيها روائح التصديق لكنه لم يدرك الاسلام كما قال الجريرى . فانه قد ذكرنا فى هذا الاثر أنه قال لابن أخته : يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت ثم قضى سطيح مكانه وكان ذلك بعد مولد رسول الله (ص) بشهر ــ أو شبه ــ أى أقل منه ــ وكانت وفاته بأطراف الشام مما يلى أرض العراق فالله أعلم بأمره وما صار اليه . وذكر ابن طرار الجريرى[1] أنه عاش سبعمائة سنة . وقال غيره خمسمائة سنة ، وقيل ثلاثمائة سنة فالله أعلم . وقد روى ابن عساكر أن ملكا سأل سطيحاً عن نسب غلام اختلف فيه فأخبره على الجلية فى كلام طويل مليح فصيح . فقال له الملك ياسطيح ألا تخبرنى عن علمك هذا ؟ فقال إن علمى هذا ليس منى ولا بجزم ولا بظن ولكن أخذته عن أخ لى قد سمع الوحى بطور سيناء . فقال له أرأيت أخاك هذا الجنى أهو معك لا يفارقك ، فقال انه ليزول حيث أزول ، ولا أنطق إلا بما يقول . وتقدم أنه ولد هو وشق بن مصعب بن يشكر بن رهم بن بسر بن عقبة الكاهن الآخر ولدا فى يوم واحد ، فحملا إلى الكاهنة طريفة بنت الحسين الحميدية فتفلت فى أفواههما فورثا منها الكهانة وماتت من يومها . وكان نصف إنسان ويقال إن خالد بن عبد الله القسرى من سلالته ، وقد مات شق قبل سطيح بدهر .

وأما عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن نفيلة الغسانى النصرانى فكان من المعمرين وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه وقال هو الذى صالح خالد بن الوليد على[2] .. وذكر له معه قصة طويلة وأنه أكل من يده سم ساعة فلم يصبه سوء لانه لما أخذه قال : بسم الله وبالله رب الارض والسماء الذى لا يضر مع اسمه أذى . ثم أكله فعلته غشية فضرب بيديه على صدره ثم عرق وأفاق رضى الله عنه

(١) هكذا بالاصل ولعله المعافى بن زكريا الجريرى . (٢) كذا فى الاصل بياض

وذكر لعبد المسيح أشعاراً غير ما تقدم(١)

وقال ابو نعيم: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن ، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبه حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا المسيب بن شريك حدثنا محمد بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده . قال: كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصا من أهل الشام وكان متخفرا بالعاص بن وائل وكان الله قد آتاه علما كثيراً وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طيب ورفق وعلم . وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فى كل سنة فيلقى الناس ويقول إنه يوشك ان يولد فيكم مولود يا اهل مكة يدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه ومن أدركه واتبعه اصاب حاجته ومن أدركه فخالفه اخطأ حاجتـه وبالله ما تركت أرض الخمر والخمير والأمن ، لا حاجت لى عن الجوع والبؤس والخوف الا فى طلبه ، وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول ما جاء بعد . فيقال له فصفه فيقول لا . ويكتم ذلك للذي قد علم انه لاق من قومه مخافة على نفسه ان يكون ذلك داعية الى ادنى ما يكون اليه من الاذى يوماً . ولما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول الله (ص) خرج عبدالله بن عبدالمطلب حتى أتى عيصا فوقف فى أصل صومعته ثم نادى : ياعيصاه . فناداه من هذا ؟ فقال انا عبد الله فاشرف عليه فقال كن ابعقد ولد المولود الذى كنت احدثكم عنه يوم الاثنين ويبعث يوم الاثنين ويموت يوم الاثنين قال فانه قد ولد لى مع الصبح مولود . قال فما سميته ؟ قال محمداً قال والله لقد كنت اشتهى أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال نعرفه بها منها أن نجمه طلع البارحة وانه ولد اليوم وان اسمه محمد . انطلق اليه فان الذي كنت أخبركم عنه ابنك . قال فما يدريك انه ابنى ولعله أن يولد فى هذا اليوم مولود غيره ؟ قال قد وافق ابنك الاسم ولم يكن الله ليشبه علمه على العلماء فانه حجة . وآية ذلك أنه الآن وجع فيشتكى أياماً ثلاثة فيظهر به الجوع ثلاثاً ثم يعافى . فاحفظ لسانك فانه لم يحسد أحد حسده قط ولم يبغ على أحد كما يبغى عليه . ان تعش حتى يبدو مقاله ثم يدعو لظهر لك من قومك مالا تحتمله الا على صبر وعلى ذل فاحفظ لسانك ودار عنه قال فما عمره ؟ قال ان طال عمره وان قصر لم يبلغ السبعين ، يموت فى وتر دونها من الستين فى احدى وستين او ثلاث وستين فى اعمار جل امته . قال وحمل برسول الله (ص) فى عاشر المحرم ، وولد يوم الاثنين لثنتى عشرة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة اصحاب الفيل هكذا رواه أبو نعيم وفيه غرابة .

حواضنه ومراضعه عليه الصلاة والسلام

كانت ام أيمن واسمها بركة تحضنه ، وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من ابيه فلما كبر اعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة بن زيد رضى الله عنهم . وارضعته مع امه عليه الصلاة والسلام مولاة عمه ابى لهب ثويبة قبل حليمة السعدية . اخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث

---

(١) إلى هنا آخر الحاشية التى بالحلبية .

الزهرى عن عروة بن الزبير عن زينب بنت ام سلمة عن أم حبيبة بنت ابى سفيان . قالت: يارسول الله انكح اختى بنت أبى سفيان ـ ولمسلم عزة بنت أبى سفيان ـ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو تحبين ذلك ؟ » قلت نعم ! لست لك بمخلية ، واحب من شاركنى فى خير اختى . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « فان ذلك لايحل لى » قالت فانا نحدث انك تريد أن تنكح بنت أبى سلمة ـ وفى رواية درة بنت أبى سلمة قال « بنت أم سلمة »؟ قالت نعم قال « انها لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ما حلت لى. انها لابنة أخى من الرضاعة . ارضعتنى واباسلمة ثويبة . فلا تعرضن على بناتكن ولا اخواتكن » زاد البخارى قال عروة . وثويبة مولاة لابى لهب اعتقها فارضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما مات ابو لهب أريه بعض أهله بشر خيبة . فقال له ماذا لقيت ؟ فقال أبو لهب لم ألق بعدكم خيراً غير أنى سقيت فى هذه بعتاقتى ثويبة ـ وأشار الى النقرة التى بين الابهام والتى تليها من الاصابع ـ .

وذكر السهيلى وغيره : ان الرائى له هو اخوه العباس . وكان ذلك بعد سنة من وفاة ابى لهب بعد وقعة بدر . وفيه ان أبالهب قال للعباس انه ليخفف علىّ فى مثل يوم الاثنين . قالوا لانه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبدالله أعتقها من ساعته فجوزى بذلك لذلك .

رضاعه عليه الصلاة والسلام

من حليمة بنت ابى ذؤيب السعدية وماظهر عليه من البركة وآيات النبوة

قال محمد بن اسحاق : فاسترضع له عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبى ذؤيب ، واسمه عبدالله ابن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر (١) قال واسم ابى رسول الله ـ ـ الذى أرضعه ـ يعنى زوج حليمة الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن. وأخوته عليه الصلاة والسلام ـ يعنى من الرضاعة ـ عبدالله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وحذافة بنت الحارث وهى الشيماء وذكروا انهـا كانت تحضن رسول الله ـ ـ مع امه اذ كان عندهم .

قال ابن اسحاق: حدثنى جهم بن أبى جهم مولى لامرأة من بنى تميم كانت عند الحارث بن حاطب ، ويقال له مولى الحارث بن حاطب . قال حدثنى من سمع عبد الله بن جعفر بن ابى طالب قال حدثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت ! قدمت مكة فى نسوة (وذكر الواقدى باسناده انهن كن عشرة نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمسن بها الرضعاء) من بنى سعد نلتمس بها الرضعاء فى سنة شهباء فقدمت

(١) والذى فى ابن هشام : ابن ناصرة بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر الخ وفى السهيلى فصية بالفاء تصغير فصاة. وهى النواة . ووقع فى جميع نسخ ابن هشام قصية بالقاف .

على أتان لي قراء كانت أذمّت بالركب (١) ومعي صبي لنا وشارف لنا والله ما تبض بقطرة . وما ننام ليلتنا ذلك أجمع (٢) مع صبينا ذاك ما نجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج . فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً . فقدمنا مكة فوالله ماعلمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ص فتأباه إذا قيل إنه يتيم تركناه . قلنا ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ، فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري . فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع . لا نطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . فقال لا عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة . فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره ، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن . فشرب حتى روى وشرب أخوه حتى روى . وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل ، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا . فبتنا بخير ليلة فقال صاحبي حين أصبحنا يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة . ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه . فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً . ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار حتى أن صواحبي ليقلن ويلك يا بنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا ؟ فأقول [illegible] لي فقلن والله إن لها لشأناً . حتى قدمنا أرض بني سعد . وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فنحلب ما شئنا وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى إنهم ليقولون لرعاتهم ـ أو لرعيانهم ـ ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم . فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن وتروح أغنامي شباعاً لبناً نحلب ما شئنا . فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شباباً لا تشبه الغلمان . فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً (٣) فقدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة . فلما رأته أمه قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه وباء مكة . فوالله ما زلنا بها حتى قالت نعم . فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة فبينا هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بهم لنا جاء أخوه ذلك يشتد فقال ذاك أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاه فشقا بطنه . فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعاً لونه . فاعتنقه أبوه وقال يا بني

---

(١) أي جاءت بما تذم عليه . أو يكون من قولهم بئر ذمة أي قليلة الماء . ويروى حتى أذمت أي حبستهم وكأنه من الماء الدائم (٢) النص في ابن هشام : وما نام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع . (٣) استجفر الصبي إذا قوى على الأكل فصلا عن عمود الامام

ما شأنك ؟ قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض أضجعاني وشقا بطني ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان فرجعنا به معنا فقال أبوه ياحليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف . قالت حليمة فاحتملناه فلم ترع أمه إلا به . فقدمنا به عليها فقالت ما رد كما به ياظئر فقد كنتما عليه حريصين ؟ فقالا لا والله الا أن الله قد أدى عنا وقضينا الذي علينا وقلنا نخشى الاتلاف والاحداث نرده إلى أهله . فقالت ماذاك بكما فاصدقاني شأنكما ؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ، فقالت أخشيتما عليه الشيطان ، كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل . والله إنه لكائن لابني هذا شأن ألا أخبركما خبره ؟ قلنا بلى ! قالت حملت به فما حملت حملا قط أخف منه فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود ، معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء ، فدعاه عنكما . وهذا الحديث قد روى من طرق أخر وهو من الاحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي .

وقال الواقدي: حدثني معاذ بن محمد عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال خرجت حليمة تطلب النبي (ص) وقد وجدت البهم تقيل فوجدته مع أخته فقالت في هذا الحر؟ فقالت اخته يا أمه ما وجد أخي حراً ،رأيت غمامة تظلل عليه اذا وقف وقفت واذا سار سارت حتى انتهى الى هذا الموضع .

وقال ابن اسحاق: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله (ص) أنهم قالوا له أخبرنا عن نفسك .قال : « نعم أنا دعوة أبي ابراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فاضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فاخرجا منه علقة سوداء فالقياها .ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج ، حتى اذا انقياه رداه كما كان ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم ، ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم .ثم قال زنه بالف من أمته فوزنني بالف فوزنتهم ، فقال دعه عنك فلو وزنته بامته لوزنتهم » وهذا اسناد جيد قوي .

وقد روى أبو نعيم الحافظ في الدلائل من طريق عمر بن الصبح وهو أبو نعيم عن ثور بن يزيد عن مكحول عن شداد بن اوس هذه القصة مطولة جداً ولكن عمر بن صبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع . فلهذا لم نذكر لفظ الحديث اذ لا يفرح به ثم قال : وحدثنا أبو عمرو بن حمدان حدثنا الحسن بن نفير حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا بقية بن الوليد عن بحير بن سعيد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن ابن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد الله أنه حدثه أن رجلا سأل النبي (ص) فقال: كيف كان أول شأنك يارسول الله ؟ قال: « كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ

معنا زاداً فقلت يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند امنا فانطلق أخي ومكثت عند البهم فاقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه أهو هو ؟ قال نعم فاقبلا يبتدراني فاخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه . فاخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ثم قال ائتني بماء برد فغسلا به قلبي ثم قال ائتني بالسكينة فذرها في قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه حطه فخاطه وختم على قلبي بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة ، فاذا أنا أنظر الى الالف فوقي اشفق أن يخر على بعضهم . فقال لوأن أمته وزنت به لمال بهم ثم انطلقا فتركاني وفرقت فرقاً شديداً ، ثم انطلقت الى أمي فاخبرتها بالذي لقيت فاشفقت أن يكون قد لبس بي فقالت أعيذك بالله . فرحلت بعيراً لها وحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا الى أمي ، فقالت أديت أمانتي وذمتي وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها . وقالت إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام » ورواه أحمد من حديث بقية بن الوليد به . وهكذا رواه عبد الله بن المبارك وغيره عن بقية بن الوليد به . وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي داود الطيالسي حدثنا جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي أخبرني عمير بن عمر بن عروة بن الزبير . قال سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري قال قلت يارسول الله كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي ؟ قال: « يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوقع أحدهما على الارض ، وكان الآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه أهو هو ؟ قال هوهو . قال زنه برجل فوزنني برجل فرجحته » وذكر تمامه ، وذكر شق صدره وخياطته وجعل الخاتم بين كتفيه قال « فما هو الا أن وليا عني فكأنما أعاين الأمر معاينة » ثم أورد ابن عساكر عن أبي بن كعب بنحو ذلك . ومن حديث شداد بن أوس بابسط من ذلك . وثبت في صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله (ص) أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فاخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء فقال هذا حظ الشيطان ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون الى أمه ــ يعني ظئره ــ فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره . وقد رواه ابن عساكر من طريق ابن وهب عن عمرو ابن الحارث عن عبد ربه بن سعيد عن ثابت البناني عن أنس أن الصلاة فرضت بالمدينة ، وأن ملكين أتيا رسول الله (ص) فذهبا به الى زمزم فشقا بطنه فاخرجا حشوته في طست من ذهب فغسلاه بماء زمزم ثم لبسا جوفه حكمة وعلماً . ومن طريق ابن وهب أيضاً عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن عبد الرحمن بن عامر بن عتبة بن أبي وقاص عن أنس قال : أتي رسول الله (ص) ثلاث ليال قال خذوا خيرهم وسيدهم ، فأخذوا رسول (ص) فعمد به إلى زمزم فشق جوفه ثم أتي بتور من ذهب فغسل

جوفه ثم ملئ حكمة وإيمانا . وثبت من رواية سليان بن المغيرة عن ثابت عن أنس . وفى الصحيحين من طريق شريك بن أبي نمر عن أنس وعن الزهرى عن أنس عن أبي ذر وقتادة عن أنس وعن مالك بن صعصعة عن النبي (ص) فى حديث الاسراء كما سيأتى قصة شرح الصدر ليلتئذ وإنه غسل بماء زمزم ، ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين مرة وهو صغير ومرة ليلة الاسراء ليتأهب للوفود إلى الملأ الأعلى ولمناجاة الرب عز وجل والمثول بين يديه تبارك وتعالى .

وقال ابن اسحاق : وكان رسول الله (ص) يقول لأصحابه : « أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » وذكر ابن اسحاق: أن حليمة لما أرجعته إلى أمه بعد فطامه مرت به على ركب من النصارى فقاموا اليه عليه الصلاة والسلام فقلبوه وقالوا إنا سنذهب بهذا الغلام إلى ملكنا فانه كائن له شأن فلم تكد تنفلت منهم إلا بعد جهد. وذكر أنها لما ردته حين تخوفت عليه أن يكون أصابه عارض ، فلما قربت من مكة افتقدته فلم تجده فجاءت جده عبد المطلب فخرج هو وجماعة فى طلبه ، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به جده ، فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له ثم رده إلى أمه آمنة .

وذكر الأموى من طريق عثمان بن عبد الرحمن الوقاصى ـ وهو ضعيف ـ عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قصة مولده عليه الصلاة والسلام ورضاعه من حليمة على غير سياق محمد بن اسحاق . وذكر أن عبد المطلب أمر ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به فى أحياء العرب ليتخذ له مرضعة فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه وذكر أنه أقام عندها ست سنين تزيره جده فى كل عام فلما كان من شق صدره عندهم ما كان ردته اليهم فأقام عند أمه حتى كان عمره ثمانى سنين ماتت فكفله جده عبد المطلب فمات وله عليه الصلاة والسلام عشر سنين ، فكفله عماه شقيقا أبيه الزبير وأبو طالب ، فلما كان له بضع عشرة سنة خرج مع عمه الزبير الى اليمن . فذكر أنهم رأوا منه آيات فى تلك السفرة منها أن فحلا من الابل كان قد قطع بعض الطريق فى واد ممرهم عليه فلما رأى رسول الله (ص) برك حتى حك بكلكله الأرض فركبه عليه الصلاة والسلام . ومنها أنه خاض بهم سيلا عرما فأيبسه الله تعالى حتى جاوزوه ثم مات عمه الزبير وله أربع عشرة سنة فانفرد به أبو طالب .

والمقصود أن بركته عليه الصلاة والسلام حلت على حليمة السعدية وأهلها وهو صغير ثم عادت على هوازن بكمالهم فواضله حين أسرهم بعد وقعتهم ، وذلك بعد فتح مكة بشهر . فمتوا اليه برضاعه فاعتقهم وتحنن عليهم وأحسن اليهم كما سيأتى مفصلا فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قال محمد بن اسحاق : فى وقعة هوازن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . قال : كنا مع رسول الله (ص) بحنين فلما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة وقد أسلموا ، فقالوا يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا منّ الله عليك . وقام

خطبهم زهير بن صرد فقال : يارسول الله إن ما فى الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، فلو أنا ملحنا (١) ابن أبى شمر ، أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذى أصابنا منك وجونا عائدتهما وعطفهما ، وأنت خير المكفولين . ثم أنشد :

أُمنن علينا رسولَ الله فى كَرَم ... فإنك المرءُ نرجوهُ وندَّخر

امنن على بيضة قد عاقها قَدَر ... ممزق شملها فى دهرها غِيَر

أبقت لنا الدهرَ هتافاً على حَزَن ... على قلوبهم الغماءُ والغمر

إن لم تَدار كها نعماءُ تنشرُها ... يا أرجحَ الناسِ حِلماً حين يُختبر

امنن على نسوة قد كنتَ تَرضعُها ... إذ فوكَ يملؤه من محضها دُرر

امنن على نسوة قد كنتَ تَرضَعها ... وإذ يَزينُك ما تأتى وما تذَر

لا تجعلَنَّا كمن شالت نعامتُه ... واستبقِ منّا فإنا معشر زُهُر

إنا لنشكر النُّعمى وإن كفرتْ ... وعندنا بعدَ هذا اليوم مدَّخر

وقد رويت هذه القصة من طريق عبيد الله بن رماحس الكلبى الرملى عن زياد بن طارق الجشمى عن أبى صرد زهير بن جرول ـ وكان رئيس قومه ـ قال لما أسرنا رسول الله (ص) يوم حنين فبينا هو يميز بين الرجال والنساء وثبتُ حتى قعدت بين يديه وأسمعته شعراً ، أُذكره حين شب ونشأ فى هوازن حيث أرضعوه :

امننْ علينا رسولَ الله فى دعة ... فانك المرءُ نرجوهُ وننتظر

امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها فى دهرها غير

أبقت لنا الحرب هتافاً على حزن ... على قلوبهم الغماء والغمر

إن لم تداركها نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلماً حين يختبر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملؤه من محضها الدرر

إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتى وما تذر

لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فإنا معشر زهر

إنا لنشكر النعمى وإن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فألبس العفوَ من قد كنتَ تَرضَعه ... من أمهاتك إن العفوَ مشتهر

إنّا نؤمِّل عفواً منك تُلبسه ... هذى البريةَ إذ تعفو وتنتصر

فاغفرْ عفا الله عما أنتَ راهبُه ... يومَ القيامة إذ يُهدى لك الظفَر

(١) يعنى أرضعنا . وابن أبى شمر هو الحارث الغسانى .

قال فقال رسول الله (ص): « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لله ولكم » فقالت الانصار : وما كان لنا فهو لله ولرسوله (ص). وسيأتى أنه عليه الصلاة والسلام أطلق لهم الذرية وكانت ستة آلاف ما بين صبى وامرأة ، وأعطاهم أنعاماً وأناسى كثيرا . حتى قال أبو الحسين بن فارس فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذ خمسمائة ألف ألف درهم . فهذا كله من بركته العاجلة فى الدنيا ، فكيف ببركته على من اتبعه فى الدار الآخرة .

فصل

قال ابن اسحاق : بعد ذكر رجوعه عليه الصلاة والسلام إلى أمه آمنة بعد رضاعة حليمة له . فكان رسول الله (ص) مع أمه آمنة بنت وهب ، وجده عبد المطلب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب .

قال ابن اسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أم رسول الله (ص) آمنة توفيت وهو ابن ست سنين بالابواء بين مكة والمدينة ، كانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى بن النجار تزيره إياهم . فماتت وهى راجعة به إلى مكة . وذكر الواقدى باسانيده أن النبى (ص) خرجت به أمه إلى المدينة ومعها أم أيمن وله ست سنين ، فزارت اخواله . قالت أم أيمن فجاءنى ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لى أخرجى الينا أحمد ننظر اليه ، فنظرا اليه وقلباه فقال أحدهما لصاحبه هذا نبى هذه الأمة وهذه دار هجرته ، وسيكون بها من القتل والسبى أمر عظيم . فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به ، فماتت بالابواء وهى راجعة » وقد قال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا أيوب ابن جابر عن سماك عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابن بريدة عن أبيه قال : خرجنا مع رسول الله (ص) حتى إذا كنا بودّان قال « مكانكم حتى آتيكم » فانطلق ثم جاءنا وهو ثقيل ، فقال : « إنى أتيت قبر أم محمد فسألت ربى الشفاعة ـ يعنى لها ـ فمنعنيها ، وانى كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، وكنت نهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاثة أيام فكلوا وامسكوا ما بدا لكم ، ونهيتكم عن الاشربة فى هذه الاوعية فاشربوا ما بدا لكم » وقد رواه البيهقى من طريق سفيان الثورى عن علقمة بن يزيد عن سليمان ابن بريدة عن أبيه قال : انتهى النبى (ص) إلى رسم قبر فجلس وجلس الناس حوله ، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ثم بكى فاستقبله عمر فقال ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى أن أزور قبرها فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فأبى على ، وأدركتنى رقتها فبكيت » . قال فما رؤيت ساعة أكثر باكيا من تلك الساعة . تابعه محارب بن دثار عن بريدة عن أبيه . ثم روى البيهقى عن الحاكم عن الاصم عن بحر بن نصر عن عبد الله بن وهب حدثنا ابن جريج عن أيوب بن هانى عن

مسروق بن الاجدع عن عبد الله بن مسعود . قال : خرج رسول الله (ص) ينظر فى المقابر ، وخرجنا معه ، فامرنا فجلسنا ثم تخطى القبور حتى انتهى الى قبر منها ـ فناجاه طويلا ثم ارتفع نحيب رسول الله (ص) باكياً فبكينا لبكاء رسول الله (ص) ثم ان رسول الله (ص) اقبل علينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال يارسول الله ما الذى ابكاك ؟ لقد أبكانا وافزعنا . فجاء فجلس الينا فقال : « افزعكم بكائى » ؟ قلنا نعم ! قال : « ان القبر الذى رأيتمونى انجى قبر آمنة بنت وهب ، وانى استأذنت ربى فى زيارتها فاذن لى ، واستأذنت ربى فى الاستغفار لها فلم يأذن لى فيه ، ونزل على (ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم اصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لاواه حليم) فاخذنى مايأخذ الولد للوالدة من الرقة فذلك الذى ابكانى » غريب ولم يخرجوه . وروى مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن محمد بن عبيد عن يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال: زار النبى (ص) قبر أمه فبكى وابكى من حوله ثم قال :«استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى ، فزوروا القبور تذكركم الموت » . وروى مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلا قال : يارسول الله أين أبى ؟ قال : « فى النار » فلما قفا دعاه فقال : « إن أبى وأباك فى النار » . وقد روى البيهقى من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين عن ابراهيم بن سعد عن الزهرى عن عامر بن سعد عن أبيه . قال : جاء أعرابى الى النبى (ص) فقال إن أبى كان يصل الرحم ، وكان ، وكان ، فأين هو ؟ قال : « فى النار » قال فكأن الأعرابى وجد من ذلك ، فقال يارسول الله أين أبوك ؟ قال : « حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار » قال فاسلم الاعرابى بعد ذلك . فقال : لقد كلفنى رسول الله (ص) تعباً ، مامررت بقبر كافر الا بشرته بالنار . غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه . وقال الامام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا سعيد ـ هو ابن أبى أيوب ـ حدثنا ربيعة بن سيف المعافرى عن ابى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو . قال بينما نحن نمشى مع رسول الله (ص) إذ بصر بامرأة لايظن أنه عرفها ، فلما توسط الطريق وقف حتى انتهت اليه ، فاذا فاطمة بنت رسول الله (ص) فقال : « ما أخرجك من بيتك يافاطمة ؟ » فقالت أتيت اهل هذا البيت فترحمت اليهم ميتهم وعزيتهم . قال: « لعلك بلغت معهم الكدى [1]» قالت معاذ الله أن أكون بلغتها معهم وقد سمعتك تذكر فى ذلك ما تذكر [2] . قال : « لو بلغتها معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك» ثم رواه أحمد وأبو داود والنسائى والبيهقى من حديث ربيعة بن سيف بن مانع المعافرى الصنمى

(١) أراد بها المقابر وذلك لأنها كانت مقابرهم فى مواضع صلبة . وهى جمع كدية القطعة الغليظة من الأرض

(٢) هو مارواه أصحاب السنن من قوله (ص) « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج »

الاسكندرى وقد قال البخارى عنـده مناكير . وقال النسائى : ليس به بأس وقال مرة صدوق ، وفى نسخة ضعيف . وذكره ابن حبان فى الثقات وقال كان يخطئ كثيراً . وقال الدارقطنى صالح . وقال ابن يونس فى تاريخ مصر فى حديثه مناكير توفى قريبا من سنة عشرين ومائة ، والمزاد بالكدى القبور - وقيل النوح -

والمقصود أن عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية خلافا لفرقة الشيعة فيه وفى ابنه أبى طالب على ما سيأتى فى وفاة أبى طالب ، وقد قال البيهقى - بعد روايته هذه الاحاديث فى كتابه دلائل النبوة : وكيف لا يكون أبواه وجده عليه الصلاة والسلام بهذه الصفة فى الآخرة وقد كانوا يعبـدون الوثن ، حتى ماتوا ولم يدينوا دين عيسى بن مريم عليه السلام ، وكفرهم لا يقدح فى نسبه عليه الصلاة والسلام لأن انكحة الكفار صحيحة. الاترام يسلمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد ولا مفارقتهن إذا كان مثله يجوز فى الاسلام وبالله التوفيق . انتهى كلامه .

قلت : واخباره (ص) عن أبويه وجده عبد المطلب بانهم من أهل النار لا ينافى الحديث الوارد عنه من طرق متعددة أن أهل الفترة والاطفال والمجانين والصم يمتحنون فى العرصات يوم القيامة كما بسطناه سنداً ومتناً [فى تفسيرنا] عند قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فيكون منهم من يجيب ومنهم من لا يجيب . فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب فلا منافاة ولله الحمد والمنة .

وأما الحديث الذى ذكره السهيلى وذكر أن فى اسناده مجهولين الى ابن أبى الزناد عن عروة عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله (ص) سأل ربه أن يحيى أبويه، فاحياهما وآمنا به ، فانه حديث منكر جداً ، وان كان ممكنا بالنظر الى قدرة الله تعالى . لـكن الذى ثبت فى الصحيح يعارضه والله أعلم .

فصل

قال ابن اسحاق : وكان رسول الله (ص) مع جده عبـد المطلب بن هاشم - يعنى بعد موت أمه آمنة بنت وهب - فكان يوضع لعبـد المطلب فراش فى ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له . قال فكان رسول الله (ص) يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه. فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه .فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا إبنى فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معـه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع . وقال الواقدى : حدثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى وحدثنا عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله . وحدثنا هاشم بن عاصم الاسلمى عن المنذر بن جهم . وحـدثنا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد . وحدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبى الحويرث . وحدثنا ابن أبى سبرة عن سليمان بن

سجيم عن نافع عن ابن جبير ـ دخل حديث بعضهم فى بعض ـ قالوا : كان رسول الله (ص) يكون مع أمه آمنة بنت وهب ، فلما توفيت قبضه اليه جده عبد المطلب وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ويدخل عليه اذا خلا وإذا نام . وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك دعوا ابنى إنه يؤنس ملكاً .

وقال قوم من بنى مدلج لعبد المطلب احتفظ به فانا لم نر قدماً أشبه بالقدم التى فى المقام منه . فقال عبد المطلب لأبى طالب : اسمع ما يقول هؤلاء ! فكان أبو طالب يحتفظ به . وقال عبد المطلب لأم أيمن ـ وكانت تحضنه ـ يا بركة لا تغفلى عن ابنى فانى وجدته مع غلمان قريب من السدرة ، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة . وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول على بابنى فيؤتى به اليه .

فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله (ص) وحياطته ثم مات عبد المطلب ودفن بالحجون .

وقال ابن اسحاق : فلما بلغ رسول الله (ص) ثمانى سنين هلك جده عبد المطلب بن هاشم . ثم ذكر جمعه بناته وأمره إياهن أن يرثينه . وهن ، أروى وأميمة ، وبرة ، وصفية ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء وذكر أشعارهن وما قلن فى رثاء أبيهن وهو يسمع قبل موته وهذا أبلغ النوح . وبسط القول فى ذلك وقد قال ابن هشام ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر .

قال ابن اسحاق : فلما هلك عبد المطلب بن هاشم ولى السقاية وزمزم بعده ابنه العباس ، وهو من أحدث إخوته سناً فلم تزل اليه حتى قام الاسلام وأقرها فى يده رسول الله (ص) . وكان رسول الله (ص) بعد جده عبد المطلب مع عمه أبى طالب لوصية عبد المطلب له به ، ولأنه كان شقيق أبيه عبد الله أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم . قال فكان أبو طالب هو الذى يلى أمر رسول الله (ص) ، وكان اليه ومعه . وقال الواقدى : أخبرنا معمر عن ابن نجيح عن مجاهد . وحدثنا معاذ بن محمد الانصارى عن عطاء عن ابن عباس . وحدثنا محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وابراهيم بن اسماعيل بن أبى حبيبة ـ دخل حديث بعضهم فى حديث بعض ـ قالوا : لما توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله (ص) فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه . وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشئ قط . وكان يخصه بالطعام وكان إذا أكل عيال أبى طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله (ص) شبعوا . فكان اذا أراد أن يغديهم قال كما أنتم حتى يأتى ولدى . فيأتى رسول الله (ص) فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم وإن لم يكن معهم لم يشبعوا فيقول أبو طالب إنك

لمبارك . وكان الصبيان يصبحون رمصا شعثاً ويصبح رسول الله (ص) دهينا كحيلا .

وقال الحسن بن عرفة حدثنا على بن ثابت عن طلحة بن عمرو سمعت عطاء بن أبي رباح سمعت ابن عباس يقول : كان بنو أبي طالب يصبحون رمصا عمصاً ويصبح رسول الله (ص) صقيلا دهيناً وكان أبو طالب يقرب الى الصبيان صفحتهم أول البكرة ، فيجلسون وينتهبون ويكف رسول الله (ص) يده فلا ينتهب معهم . فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة .

وقال ابن اسحاق : حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن اباه حدثه أن رجلا من لهب كان عائفاً فكان اذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر اليهم ويعتاف لهم فيهم . قال فأتى أبو طالب برسول الله (ص) وهو غلام مع من يأتيه قال فنظر الى رسول الله (ص) ثم شغله عنه شيء . فلما فرغ قال : الغلام على به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل يقول ويلكم ردوا على الغلام الذى رأيته آنفاً فوالله ليكونن له شأن . قال وانطلق به أبو طالب .

فصل

﴿ فى خروجه عليه الصلاة والسلام مع عمه أبى طالب إلى الشام وقصته مع بحيرى الراهب ﴾

قال ابن اسحاق : ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجراً إلى الشام . فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير صب به رسول الله (ص) ـ فيما يزعمون ـ فرق له أبو طالب وقال والله لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً ـ أو كما قال ـ فخرج به. فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له . وكان اليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب فيها. اليه يصير علمهم عن كتاب فيما يزعمون . يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ـ وكانوا كثيراً ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ـ حتى كان ذلك العام . فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو فى صومعته ، يزعمون أنه رأى رسول الله (ص) فى الركب حتى أقبل وغمامة تظلله من بين القوم . ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً منه . فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله (ص) حتى استظل تحتها . فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع . ثم أرسل اليهم . فقال إنى صنعت لكم طعاماً يامعشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، كبيركم وصغيركم ، وعبدكم وحركم . فقال له رجل منهم والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم . ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرى صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم فاجتمعوا اليه وتخلف رسول الله (ص) من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم تحت الشجرة

فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التي يعرف ويجده عنده فقال يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي قالوا يا بحيرى ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدثنا سناً . فتخلف في رحالنا . قال لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم . قال فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى إن كان للوم بنا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا . ثم قام اليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم ، فلما رآى بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر الى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرى وقال له يا غلام : أسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما أسألك عنه . وانما قال له بحيرى ذلك لانه سمع قومه يحلفون بهما . فزعموا أن رسول الله (ص) قال له : لا تسألني باللات والعزى شيئاً . فوالله ما ابغضت شيئا قط بغضهما . فقال له بحيرى : فبالله الا ما أخبرتني عما أسألك عنه ؟ فقال له سلني عما بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره . فجعل رسول الله (ص) يخبره . فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعه من صفته التي عنده ، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال ما هذا الغلام منك ؟ قال ابني قال بحيرى ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال فانه ابن أخي . قال فما فعل أبوه ؟ قال مات وأمه حبلى به قال صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود . فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فاسرع به إلى بلاده ، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام .

قال ابن اسحاق : فزعموا فيما روى الناس أن زريراً ، وتماما ، ودريسا ـ وهم نفر من أهل الكتاب ـ قد كانوا رأوا رسول الله (ص) مثلما رأى بحيرى في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب فارادوه فردهم عنه بحيرى . فذكرهم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته وأنهم اجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا اليه حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال فتركوه وانصرفوا عنه . وقد ذكر يونس بن بكير عن ابن اسحاق أن أبا طالب قال في ذلك ثلاث قصائد . هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير اسناد منه . وقد ورد نحوه من طريق مسند مرفوع .

فقال الحافظ أبو بكر الخرائطي حدثنا عباس بن محمد الدوري حدثنا قراد أبو نوح حدثنا يونس عن أبي اسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال خرج أبو طالب الى الشام ومعه رسول الله (ص) في أشياخ من قريش . فلما أشرفوا على الراهب ـ يعني بحيرى ـ هبطوا فحلوا رحالهم فخرج اليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت اليهم قال فنزل وهم يحلون رحالهم . فجعل يتخللهم حتى جاء فاخذ بيد النبي (ص) فقال هذا سيد العالمين . وفي رواية البيهقي زيادة هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال له أشياخ من قريش : وما علمك ؟ فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق

شجرة ولا حجر الا خر ساجداً، ولا يسجدون الا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه. ثم رجع فصنع لهم طعاما فلما أتاهم به ـ وكان هو في رعية الابل ـ فقال أرسلوا اليه فأقبل وغمامة تظله. فلما دنا من القوم قال انظروا اليه عليه غمامة فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه الى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه. قال انظروا الى فيء الشجرة مال عليه قال فبينا هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به الى الروم فان الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه فالتفت فاذا هو بسبعة نفر من الروم قد اقبلوا. قال فاستقبلهم فقال ماجاء بكم؟ قالوا جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق الا بعث اليه ناس وإنا أخبرنا خبره الى طريقك هذه. قال فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا لا إنما اخبرنا خبره الى طريقك هذه. قال أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ فقالوا لا. قال فبايعوه وأقاموا معه عنده. قال فقال الراهب أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبو بكر بلالا وزوده الراهب من الكعك والزيت. هكذا رواه الترمذي عن أبي العباس الفضل بن سهل الاعرج عن قراد أبي نوح به. والحاكم والبيهقي وابن عساكر من طريق أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم عن عباس بن محمد الدوري به. وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي مولاهم، ويقال له الضبي ويعرف بقراد. سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخاري، ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أر احداً جرحه ومع هذا في حديثه هذا غرابة، قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه. وقال عباس الدوري ليس في الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبي نوح وقد سمعه منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده. حكاه البيهقي وابن عساكر.

قلت: فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فان أبا موسى الأشعري إنما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة. ولا يلتفت إلى قول ابن اسحاق في جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة وعلى كل تقدير فهو مرسل. فان هذه القصة كانت ولرسول الله (ص) من العمر فيما ذكره بعضهم ثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي (ص) فيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة.

الثاني: أن الغمامة لم تذكر في حديث اصح من هذا.

الثالث. أن قوله وبعث معه أبو بكر بلالا إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك ثنتي عشرة سنة فقد كان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشرة، وعمر بلال أقل من ذلك، فأين كان أبو بكر إذ ذاك؟ ثم أين كان بلال؟ كلاهما غريب اللهم إلا أن يقال إن هذا كان ورسول الله (ص) كبيراً. إما بأن يكون سفره بعد هذا أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك ثنتي عشرة سنة غير محفوظ، فانه إنما

ذكره مقيداً بهذا الواقدي . وحكى السهيلي عن بعضهم أنه كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك تسع سنين والله أعلم . قال الواقدي : حدثني محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وابراهيم بن اسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين . قالوا : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة خرج به عمه أبو طالب إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة ونزلوا بالراهب بحيرى . فقال لأبي طالب بالسر ما قال . وأمره أن يحتفظ به فرده معه أبو طالب إلى مكة .

وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريد من كرامته حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً وأمانة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأذى . ما رؤى ملاحياً ولا ممارياً أحداً ، حتى سماه قومه الأمين . لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة فكان أبو طالب يحفظه ويحوطه وينصره ويعضده حتى مات .

وقال محمد بن سعد : أخبرنا خالد بن معدان حدثنا معتمر بن سليمان سمعت أبي يحدث عن أبي مجلز أن عبد المطلب ـ أو أبا طالب شك خالد ـ قال لما مات عبد الله عطف على محمد فكان لا يسافر سفراً إلا كان معه فيه ، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزلا فأتاه فيه راهب . فقال إن فيكم رجلا صالحاً : ثم قال أين أبو هذا الغلام ؟ قال فقال ها أنا ذا وليه ـ أو قيل هذا وليه ـ قال احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام إن اليهود حسد وإني أخشاهم عليه . قال ما أنت تقول ذلك ، ولكن الله يقوله . فرده وقال اللهم إني أستودعك محمداً ثم إنه مات

قصة بحيرا

حكى السهيلي عن سير الزهري أن بحيرى كان حبراً من أحبار يهود .

قلت : والذي يظهر من سياق القصة أنه كان راهباً نصرانياً والله أعلم . وعن المسعودي أنه كان من عبد القيس وكان اسمه جرجيس . وفي كتاب المعارف لابن قتيبة سمع هاتف في الجاهلية قبل الاسلام بقليل يهتف ويقول : ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة ، بحيرى ، ورئاب بن البراء الشني ، والثالث المنتظر . وكان الثالث المنتظر هو الرسول صلى الله عليه وسلم . قال ابن قتيبة وكان قبر رئاب الشني وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طش ، وهو المطر الخفيف .

فصل

في منشئه عليه الصلاة والسلام ومرباه وكفاية الله له ، وحياطته ، وكيف كان يتيماً فآواه وعائلا فأغناه

قال محمد بن اسحاق : فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما

يريد من كرامته ورسالته حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والاخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً ، حتى ما اسمه في قومه إلا الامين ، لما جمع الله فيه من الامور الصالحة وكان رسول الله (ص) فيما ذكر لي يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال : « لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فاني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة ، ثم قال شد عليك إزارك . قال فأخذته فشددته علي ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري على من بين أصحابي » . وهذه القصة شبيهة بما في الصحيح عند بناء الكعبة حين كان ينقل هو وعمه العباس فان لم تكنها فهي متقدمة عليها كالتوطئة لها والله أعلم .

قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله (ص) ينقل الحجارة . فقال العباس لرسول الله (ص) إجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم قام فقال : « ازاري » فشد عليه إزاره أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق . وأخرجاه أيضاً من حديث روح بن عبادة عن زكريا بن أبي اسحاق عن عمرو بن دينار عن جابر بنحوه .

وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن اسحاق الصاغاني حدثنا محمد بن بكير الحضرمي حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكي حدثنا عمرو بن أبي قيس عن سماك عن عكرمة حدثني ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت ، قال وأفردت قريش رجلين رجلين ، الرجال ينقلون الحجارة ، وكانت النساء تنقل الشيد . قال فكنت أنا وابن أخي وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة ، فاذا غشينا الناس أتزرنا . فبينا أنا أمشي ومحمد أمامي قال فخر وانبطح على وجهه ، فجئت أسعى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء فقلت ما شأنك ؟ فقام وأخذ إزاره قال « إني نهيت أن أمشي عرياناً » . قال وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون . وروى البيهقي من حديث يونس بن بكير عن محمد بن اسحاق حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب . قال سمعت رسول الله (ص) يقول « ماهممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء الا ليلتين كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما . قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان فقال بلى . قال فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير فقلت ماهذا

قالوا تزوج فلان فلانة . فجلست أنظر وضرب الله على أذنى فوالله ما أيقظنى الامس الشمس ، فرجعت الى صاحبى ، فقال ما فعلت ؟ فقلت ما فعلت شيئا ثم أخبرته بالذى رأيت ، ثم قلت له ليلة أخرى أبصر لى غنمى حتى اسمر ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة . فسألت فقيل نكح فلان فلانة ، فجلست أنظر وضرب الله على أذنى فوالله ما أيقظنى الامس الشمس ، فرجعت الى صاحبى فقال ما فعلت ؟ فقلت لا شىء ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشىء من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته » وهذا حديث غريب جدا وقد يكون عن على نفسه ويكون قوله فى آخره « حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته » مقحما والله أعلم .

وشيخ ابن اسحاق هذا ذكره ابن حبان فى الثقات . وزعم بعضهم أنه من رجال الصحيح . قال شيخنا فى تهذيبه ولم أقف على ذلك والله أعلم .

وقال الحافظ البيهقى : حدثنى أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا الحسن ابن على بن عفان العامرى حدثنا أبو أسامة حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة ، ويحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب عن أسامة بن زيد عن زيد بن حارثة . قال : كان صنم من نحاس يقال له اساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا . فطاف رسول الله (ص) وطفت معه ، فلما مررت مسحت به فقال رسول الله (ص) « لا تمسه » . قال زيد فطفنا فقلت فى نفسى لأمسنه حتى أنظر ما يكون ، فمسحته فقال رسول الله (ص) « ألم تنه » قال البيهقى : زاد غيره عن محمد بن عمرو باسناده قال زيد فوالذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما قط حتى أكرمه الله تعالى بالذى أكرمه وأنزل عليه .

وتقدم قوله عليه الصلاة والسلام لبحيرى حين سأله باللات والعزى « لا تسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما » فاما الحديث الذى قاله الحافظ أبو بكر البيهقى أخبرنا أبو سعد الماليني . أنبأنا أبو احمد بن عدى الحافظ حدثنا ابراهيم بن اسباط حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن سفيان الثورى عن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال كان النبى (ص) يشهد مع المشركين مشاهدهم قال فسمع ملكين خلفه وأحدهما يقول لصاحبه : اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله (ص) . قال كيف نقوم خلفه وانما عهده باستلام الاصنام ؟ . قال فلم يعد بعد ذلك ان يشهد مع المشركين مشاهدهم .فهو حديث أنكره غير واحد من الأئمة على عثمان بن أبى شيبة حتى قال الامام احمد فيه لم يكن أخوه يتلفظ بشىء من هذا . وقد حكى البيهقى عن بعضهم أن معناه أنه شهد مع من يستلم الأصنام وذلك قبل أن يوحى اليه والله أعلم . وقد تقدم فى حديث زيد بن حارثة أنه اعتزل شهود مشاهد المشركين حتى أكرمه الله برسالته . وثبت فى الحديث أنه كان لا يقف بالمزدلفة ليلة عرفة بل كان يقف مع الناس بعرفات كما قال يونس بن بكير عن محمد بن اسحاق « حدثنى عبدالله بن أبى بكر

عن عثمان بن أبي سليمان عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير . قال : لقد رأيت رسول الله (ص) وهو على دين قومه ، وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم، توفيقا من الله عز وجل له .

قال البيهقي : معنى قوله على دين قومه ما كان بقي من ارث ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائما .

قلت : ويفهم من قوله هذا أيضا انه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى اليه. وهذا توفيق من الله له . ورواه الامام أحمد عن يعقوب عن محمد بن اسحاق به . ولفظه رأيت رسول الله (ص) قبل ان ينزل عليه وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم توفيقاً من الله . وقال الامام احمد : حدثنا سفيان عن عمرو عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : أضللت بعيرا لى بعرفة فذهبت اطلبه فاذا النبى (ص) واقف فقلت إن هذا من الحمس [1] ماشأنه ههنا ؟ واخرجاه من حديث سفيان بن عيينة به .

شهوده عليه الصلاة والسلام حرب الفجار

قال ابن اسحاق : هاجت حرب الفجار ورسول الله (ص) ابن عشرين سنة ، وانما سمى يوم الفجار ، بما استحل فيه هذان الحيان ـ كنانة وقيس عيلان ـ من المحارم بينهم. وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس . وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة . حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس .

وقال ابن هشام : فلما بلغ رسول الله (ص) أربع عشرة سنة ـ أو خمس عشرة سنة ـ فيما حدثنى به أبو عبيدة النحوى عن أبي عمرو بن العلاء هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان . وكان الذى هاجها ان عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن أجاز لطيمة ـ أى تجارة ـ النعمان بن المنذر . فقال البراض بن قيس ـ أحد بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ـ أتجيزها على كنانة ؟ قال نعم وعلى الخلق . فخرج فيها عروة الرحال وخرج البراض يطلب غفلته . حتى اذا كان بتيمن ذى طلال بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض فقتله فى الشهر الحرام . فلذلك سمى الفجار ، وقال البراض فى ذلك :

ودَاهِيَةٍ تُهِمّ النَّاسَ قبلي ... شددتُ لها بني بَكْرٍ ضلوعي
هدمتُ بها بيوتَ بني كلابٍ ... وأرضعتُ الموالِيَ بالضروعِ

(١) الحمس جمع أحمس . وهم قريش ومن ولدت ، وكنانة ، وجديلة سموا حمسا ، لانهم تحمسوا فى دينهم أى تشددوا . والحماسة الشجاعة كانوا يقفون فى المزدلفة ، ويقولون : نحن اهل الله فلا نخرج من الحرم

رفعتُ له بذي طلالَ كفّي   فخرّ يميد كالجِذْع الصريع

وقال لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب :

وأبلغ ـ إن عرضتَ ـ بني كلاب   وعامرَ والخطوبُ لها موالي

وأبلغ ـ ان عرضتَ ـ بني نُمَيْرٍ   واخوالَ القتيلِ بني هلال

بأنّ الوافدَ الرحّال أمسى   مقيماً عند تيمَنَ ذي طلال

قال ابن هشام : فأتى آت قريشاً فقال :ان البراض قد قتل عروة، وهو في الشهر الحرام بعكاظ . فارتحلوا وهوازن لاتشعر بهم . ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فادركوهم قبل أن يدخلوا الحرم . فاقتتلوا حتى جاء الليل فدخلوا الحرم فامسكت هوازن عنهم ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياما والقوم متساندون على كل قبيل من قريش وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم . قال وشهد رسول الله (ص) بعض ايامهم . أخرجه اعمامه معهم وقال رسول الله (ص) « كنت أُنَبِّل على أعمامى » أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

قال ابن هشام : وحديث الفجار طويل هو أطول مما ذكرت وانما منعني من استقصائه قطعه حديث سيرة رسول الله (ص) .

وقال السهيلي : والفجار بكسر الفاء على وزن قتال . وكانت الفجارات في العرب أربعة ذكرهن المسعودي . وآخرهن ، فجار البراض هذا . وكان القتال فيه في أربعة أيام ، يوم شمطة ، ويوم العبلاء ، وهما عند عكاظ ، ويوم الشرب ـ وهو أعظمها يوما ـ وهو الذى حضره رسول الله (ص) وفيه قيدا رئيس قريش وبني كنانة وهما حرب بن أمية وأخوه سفيان أنفسهما لئلا يفروا . وانهزمت يومئذ قيس إلا بنى نضر فانهم ثبتوا . ويوم الحريرة عند نخلة . ثم تواعدوا من العام المقبل الى عكاظ . فلما توافوا الموعد ركب عتبة بن ربيعة جمله ونادى يا معشر مضر علام تقاتلون ؟ فقالت له هوازن:ما تدعو اليه ؟ قال الصلح ، قالوا وكيف ؟ قال ندى قتلاكم ونرهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دياتنا . قالوا ومن لنا بذلك قال أنا ، قالوا ومن أنت ؟ قال عتبة بن ربيعة فوقع الصلح على ذلك وبعثوا اليهم أربعين رجلا فيهم حكيم بن حزام فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عفوا عن دياتهم وانقضت حرب الفجار . وقد ذكر الاموى حروب الفجار وأيامها واستقصاها مطولا فيما رواه عن الأثرم . وهو المغيرة ابن على عن أبي عبيدة معمر بن المثنى فذكر ذلك .

فصل

قال الحافظ البيهقي : أخبرنا أبو سعد الماليني أنبأنا أبو احمد بن عدى الحافظ حدثنا يحيى بن على

ابن هاشم الخفاف حدثنا أبو عبد الرحمن الازدى حدثنا اسماعيل بن علية عن عبد الرحمن بن اسحاق عن الزهرى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه . قال قال رسول الله (ص) : « شهدت مع عمومتى حلف المطيبين فأحب أن أنكثه - أو كلمة نحوها - وإن لى حمر النعم » . قال وكذلك رواه بشر بن المفضل عن عبد الرحمن . قال وأخبرنا أبو نصر بن قتادة حدثنا أبو عمرو بن مطر حدثنا أبو بكر بن احمد بن داود السمنانى حدثنا معلى بن مهدى حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة . قال قال رسول الله (ص) : « ماشهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين ، وما أحب أن لى حمر النعم وأنى كنت نقضته » قال : والمطيبون هاشم ، وأمية ، وزهرة ، ومخزوم ، قال البيهقى : كذا روى هذا التفسير مدرجاً فى الحديث ولا أدرى قائله ، وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول فان النبى (ص) لم يدرك حلف المطيبين .

قلت : هذا لا شك فيه ، وذلك أن قريشاً تحالفوا بعد موت قصى وتنازعوا فى الذى كان جعله قصى لابنه عبد الدار من السقاية ، والرفادة ، واللواء ، والندوة ، والحجابة ، ونازعهم فيه بنو عبد مناف . وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش وتحالفوا على النصرة لحزبهم فأحضر أصحاب بنى عبد مناف جفنة فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا . فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت.فسموا المطيبين كما تقدم وكان هذا قديما ولكن المراد بهذا الحلف حلف الفضول وكان فى دار عبد الله بن جدعان كما رواه الحميدى عن سفيان بن عيينة عن عبدالله عن محمد وعبدالرحمن ابنى أبى بكر قالا قال رسول الله (ص): « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به فى الاسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعد[1] ظالم مظلوماً » . قالوا : وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة فى شهر ذى القعدة ، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر . وذلك لأن الفجار كان فى شعبان من هذه السنة ، وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه فى العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا اليه الزبير بن عبد المطلب وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدى الاحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمحا وسهماً وعدى بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وزبروه - أى انتهروه - فلما رأى الزبيدى الشر أوفى على أبى قبيس عند طلوع الشمس - وقريش فى أنديتهم حول الكعبة - فنادى بأعلى صوته :

يا آلَ فِهْرٍ لمظلومٍ بضاعتُه ... ببطنِ مكةَ نائي الدارِ والنَفَرِ
ومحرمٍ أشعثٍ لم يقضِ عمرتَه ... يالَلرجالِ وبين الحِجرِ والحَجَرِ
إنّ الحرامَ لمن تَمّت كرامتُه ... ولا حرامَ لثوبِ الفاجرِ الغُدَرِ

---

(١) كذا بالأصلين . والذى فى السهيلى : يعز ظالم مظلوماً .

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه ما بلّ بحر صوفة . وما رسى ثبير وحراء مكنهما . وعلى التأسى فى المعاش . فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، وقالوا لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر . ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها اليه . وقال الزبير بن عبد المطلب فى ذلك :

حلفتُ لَنعقِدَنْ حِلْفاً عليهم   وإنْ كُنا جميعاً أهلَ دار
نسمّيه الفُضولَ إذا عَقَدْنا   يَعزبه الغريبُ لذي الجِوار
ويعلم مَن حوالى البيتِ أنا   أباةُ الضيْمِ نمنعُ كلّ عار

وقال الزبير أيضاً :

إن الفضولَ تعاقدوا وتحالفوا   ألا يُقيم ببطنِ مكةَ ظالم
أمرٌ عليه تعاقدوا وتواثقوا   فالجارُ والمُعْتَرُّ فيهم سالم

وذكر قاسم بن ثابت — فى غريب الحديث — : أن رجلا من خثعم قدم مكة حاجاً — أو معتمراً — ومعه ابنة له يقال لها القتول من أوضأ نساء العالمين ، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها عنه . فقال الخثعمى : من يعديني على هذا الرجل ؟ فقيل له عليك بحلف الفضول . فوقف عند الكعبة ونادى يال حلف الفضول : فاذا هم يعنقون اليه من كل جانب ؛ وقد انتضوا أسيافهم يقولون : جاءك الغوث فما لك ؟ فقال إن نبيهاً ظلمنى فى بنتى وانتزعها منى قسراً فساروا معه حتى وقفوا على باب داره ، فخرج اليهم فقالوا له أخرج الجارية ويحك فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه ، فقال أفعل ، ولكن متعونى بها الليلة ، فقالوا لا والله ولا شخب لقحة فأخرجها اليهم وهو يقول :

راحَ صحبى ولم أحيّ القَتولا   لم أودّعهمُ وَداعاً جميلا
إذ أجدّ الفضولَ أنْ يمنعوها   قد أراني ولا أخافُ الفُضولا
لا تخالى أنى عشية راحَ الركْ   بُ هُنتم عليَّ أنْ لا تزولا [(١)]

وذكر أبياتاً أخر غير هذه . وقد قيل إنما سمى هذا حلف الفضول لأنه أشبه حلفاً تحالفته جرهم على مثل هذا من نصر المظلوم على ظالمه . وكان الداعى اليه ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم فضل : وهم الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث . هذا قول ابن قتيبة . وقال غيره

(١) كذا فى الحلبية ، والمصرية : ان لا تزولا . وفى السهيلى : ان لا أقولا .

الفضل بن شراعة ، والفضل بن بضاعة ، والفضل بن قضاعة [1] وقد أورد السهيلي هذا رحمه الله .

وقال محمد بن اسحاق بن يسار : وتداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله ابن جدعان لشرفه وسنه . وكان حلفهم عنده بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة . فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا كانوا معه وكانوا على من ظلمه حتى يرد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول .

قال محمد بن اسحاق : فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول قال رسول الله : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الاسلام لأجبت » .

قال ابن اسحاق : وحدثني يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي أن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي حدثه أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ـ والوليد يومئذ أمير المدينة ، أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان ـ منازعة في مال كان بينهما بذي المروة فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه ، فقال له الحسين : أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ، ثم لأدعون بحلف الفضول . قال فقال عبد الله بن الزبير ـ وهو عند الوليد حين قال له الحسين ما قال ـ وأنا أحلف بالله لئن دعانا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً . قال وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك . وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيدالله التيمي فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليد ابن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي .

تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة بنت خويلد

قال ابن اسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال على مالها مضاربة . فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت اليه فعرضت عليه أن يخرج لها في مال تاجراً الى الشام وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار . مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله منها وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى

(١) كذا في الحلبية . وفي المصرية : الفضل بن شراعة ، والفضل بن قضاعة . ولم يذكر الثالث . وفي السهيلي والنهاية : الفضل بن شراعة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن قضاعة .

نزل الشام ، فنزل رسول الله (ص) في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة . فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة ؟ فقال ميسرة هذا رجل من قريش من أهل الحرم فقال له الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة الا نبي ثم باع رسول الله (ص) سلعته - يعني تجارته - التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشترى . ثم اقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره ، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فاضعف أو قريبا ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من اظلال الملائكة إياه وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من كرامتها . فلما أخبرها ميسرة ما أخبرها بعثت إلى رسول الله (ص) فقالت له - فيما يزعمون - - يا ابن عم أني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك [1] في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ثم عرضت نفسها عليه وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا ، كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه ، فلما قالت ذلك لرسول الله (ص) ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها اليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام .

قال ابن هشام : فأصدقها عشرين بكرة وكانت أول امرأة تزوجها ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

قال ابن اسحاق : فولدت لرسول الله (ص) ولده كلهم إلا إبراهيم : القاسم وكان به يكنى ، والطيب والطاهر ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

قال ابن هشام : أكبرهم القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر . وأكبر بناته رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة .

قال البيهقي عن الحاكم : قرأت بخط أبي بكر بن أبي خيثمة حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري قال أكبر ولده عليه الصلاة والسلام القاسم ، ثم زينب ، ثم عبدالله ، ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية . وكان أول من مات من ولده القاسم ، ثم عبد الله . وبلغت خديجة خمساً وستين سنة ، ويقال خمسين . وهو أصح . وقال غيره بلغ القاسم أن يركب الدابة والنجيبة ثم مات بعد النبوة ، وقيل مات وهو رضيع فقال رسول الله (ص) : « إن له مرضعاً في الجنة يستكمل رضاعه » والمعروف ان هذا في حق إبراهيم

وقال يونس بن بكير: حدثنا إبراهيم بن عثمان عن القاسم عن ابن عباس قال ولدت خديجة لرسول الله (ص) غلامين واربع نسوة: القاسم ، وعبد الله ، وفاطمة ، وأم كلثوم ، وزينب ، ورقية . وقال الزبير بن بكار عبد الله هو الطيب وهو الطاهر ، سمي بذلك لانه ولد بعد النبوة فماتوا قبل البعثة .

(١) قوله : وسطتك فسره السهيلي من الوسط . وقال فلان أوسط القبيلة اعرقها واولاها بالصميم .

وأما بناته فادركن البعثة ودخلن في الاسلام وهاجرن معه (ص) قال ابن هشام: واما ابراهيم فمن مارية القبطية التي أهداها المقوقس صاحب اسكندرية من كورة انصنا[1] وسنتكلم على أزواجه وأولاده عليه الصلاة والسلام في باب مفرد لذلك في آخر السيرة ان شاء الله تعالى وبه الثقة.

قال ابن هشام: وكان عمر رسول الله (ص) حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة فيما حدثني غير واحد من أهل العلم، منهم أبو عمرو المدني، وقال يعقوب بن سفيان كتبت عن ابراهيم بن المنذر حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي حدثني غير واحد أن عمرو بن أسد زوّج خديجة من رسول الله (ص) وعمره خمساً وعشرين سنة وقريش تبني الكعبة. وهكذا نقل البيهقي عن الحاكم أنه كان عمر رسول الله (ص) حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة وكان عمرها إذ ذاك خمساً وثلاثين - وقيل خمساً وعشرين سنة -

وقال البيهقي: ﴿ باب ما كان يشتغل به رسول الله (ص) قبل أن يتزوج خديجة ﴾

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو بكر بن عبد الله أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا سويد بن سعيد حدثنا عمرو بن أبي يحيى بن سعيد القرشي عن جده سعيد عن أبي هريرة. قال قال رسول الله (ص): « ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم » فقال له أصحابه وانت يا رسول الله ؟ قال: « وانا رعيتها لاهل مكة بالقراريط » رواه البخاري عن أحمد بن محمد المكي عن عمرو بن يحيى به. ثم روى البيهقي من طريق الربيع بن بدر - وهو ضعيف - عن أبي الزبير عن جابر. قال قال رسول الله (ص): « آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص » وروى البيهقي من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس: أن أبا خديجة زوج رسول الله (ص) وهو - اظنه - قال سكران. ثم قال البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان قال حدثني إبراهيم بن المنذر حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي حدثني عبد الله بن أبي عبيد بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن مقسم بن أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل أن عبدالله بن الحارث حدثه ان عمار ابن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله (ص) خديجة وما يكثرون فيه يقول: انا أعلم الناس بتزويجه اياها، اني كنت له ترباً وكنت له إلفاً وخدناً. وإني خرجت مع رسول الله (ص) ذات يوم حتى اذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على ادم تبيعها، فنادتني فانصرفت اليها ووقف لي رسول الله (ص). فقالت: اما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة ؟ قال عمار فرجعت اليه فاخبرته فقال « بلى لعمري » فذكرت لها قول رسول الله (ص) فقالت اغدوا علينا إذا أصبحنا فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة والبسوا أبا خديجة حلة، وصفرت لحيته، وكلمت أخاها فكلم أباه وقد

---

(١) أنصنا: بالفتح ثم السكون مدينة أزلية من نواحي الصعيد بشرق النيل.

سق خمراً فذكر له رسول (ص) ومكانه وسألته أن يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقرة طعاما فأكلنا منه ونام أبوها ثم استيقظ صاحيا . فقال: ماهذه الحلة وماهذه الصفرة وهذا الطعام فقالت له ابنته التى كانت قد كلمت عمارا هذه حلة كسا كها محمد بن عبدالله ختنك وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة ، فانكر ان يكون زوجه ، وخرج يصيح حتى جاء الحجر ، وخرج بنو هاشم برسول الله (ص) فجاؤه فكلموه . فقال أين صاحبكم الذى تزعمون أنى زوجته خديجة ؟ فبرز له رسول الله (ص) فلما نظر اليه قال إن كنت زوجته فسبيل ذاك وإن لم أكن فعلت فقد زوجته .

وقد ذكر الزهرى فى سيره ان أباها زوجها منه وهو سكران وذكر نحو ماتقدم حكاه السهيلى .

قال المؤملى : المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذى زوجها منه وهذا هو الذى رجحه السهيلى . وحكاه عن ابن عباس وعائشة قالت وكان خويلد مات قبل الفجار ، وهو الذى نزع تبعاً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن ، فقام فى ذلك خويلد وقام معه جماعة من قريش ثم رأى تبع فى منامه ماروعه ، فنزع عن ذلك وترك الحجر الاسود مكانه .

وذكر ابن اسحاق : فى آخر السيرة أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذى زوجها رسول الله (ص) فالله أعلم .

فصل

قال ابن اسحاق : وقد كانت خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن قصى - وكان ابن عمها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه - فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً ياخديجة إن محمداً لنبى هذه الأمة ، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه - أو كما قال - فجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول حتى متى ؟ وقال فى ذلك :

لججتُ وكنتُ فى الذكرى لجوجاً ... لِهَمٍّ طالما بعثَ النَّشيجا
ووصفٍ من خديجةَ بعدَ وصفٍ ... فقد طالَ انتظاري ياخديجا
ببطنِ المكَّتين على رجائي ... حديثكِ أن أرى منهُ خروجا
بما خبَّرتنا من قولِ قسٍّ ... منَ الرهبانِ أكرهُ أن يعوجا
بأنَّ محمداً سيسودُ قوماً ... ويخصمُ مَن يكونُ له حجيجا
ويُظهرُ فى البلادِ ضياءَ نورٍ ... يقومُ به البريَّةَ أنْ تموجا
فيلقَى مَن يحاربُه خساراً ... ويَلقى من يُسالمُهُ فُلوجا
فياليتي إذا ما كانَ ذاكمْ ... شهدتُ وكنتُ أوَّلهم وُلوجا

وُلوجاً فى الذى كرهتْ قُريشٌ ... ولو عجَّتْ بمكّتها عجيجا
أُرجّي بالذى كرِهوا جميعاً ... إلى ذي العرش إن سَفلوا عُروجا
وهل أمرُ السفالة غيرُ كفرٍ ... بمن يختارُ من سَمَكَ البروجا
فإن يبقوا وأبقَ يكنْ أمورٌ ... يَضجّ الكافرونَ لها ضجيجا
وإن أهلِكْ فكلُّ فتى سيلقى ... منَ الأقدار متلفةً خروجا

وقال ورقة أيضا فيما رواه يونس بن بكير عن ابن اسحاق عنه :

أتبكرُ أمْ أنتَ العشيّةَ رائحُ ... وفي الصدرِ من إضمارِك الحزنَ قادح؟
لفُرقةِ قومٍ لا أحبُّ فِراقَهم ... كأنكَ عنهم بعدَ يومين نازحُ
وأخبارِ صدقٍ خُبّرتْ عن محمد ... يخبّرها عنهُ إذا غابَ ناصح
أتاكَ الذي وجّهتِ يا خيرَ حُرة ... بغورٍ وبالنجدَيْن حيثُ الصَحاصح
إلى سوقِ بُصرى في الركابِ التي غدتْ ... وهنّ من الأحمال قُعصٌ دوالح[1]
فيخبرُنا عن كل خيرٍ بعلمِهِ ... وللحقِّ أبوابٌ لهنّ مفاتح
بأن ابنَ عبدِ الله احمدَ مرسَلٌ ... إلى كل من ضمّتْ عليه الأباطح
وظني به أنْ سوف يبعث صادقاً ... كما أُرسل العبدان هودٌ وصالح
وموسى وابراهيمُ حتى يُرى له ... بهاءٌ ومنشورٌ منَ الذِّكر واضح
ويتبعه حيّا لؤيٍّ وغالبٍ ... شبابُهم والأشيَبون الجحاجح
فإن أبقَ حتى يُدركَ الناسَ دهرُه ... فإني به مستبشرُ الودِّ فارح
وإلا فإني يا خديجةُ فاعلمي ... عن ارضِكِ في الأرضِ العريضة سائح

وزاد الأموى :

فمتبعٌ دينَ الذي أسّس البنا ... وكانَ له فضلٌ على الناس راجح
وأسّسَ بنياناً بمكّةَ ثابتاً ... تلألأُ فيه بالظلامِ المصابح
مَثاباً لأفناء القبائل كلِّها ... تخبُّ إليه اليَعْمَلات الطلائح
حراجيجُ[2] أمثالُ القِداحِ منَ السُّرى ... يعلّقُ في أرساغهنّ السرائح

ومن شعره فيما أورده أبو القاسم السهيلي فى روضه :

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم ... أنا النذيرُ فلا يغرُرْكُمُ أحدُ

---

(١) الدلح : أن يمشى البعير بالحمل وقد أثقله (٢) الحراجيج جمع حرجيج ، وهى الناقة الطويلة

لا تعبدنّ إلهاً غيرَ خالقِكم ... فإن دعوكم فقولوا بيننا حَدَد
سُبْحانَ ذي العرش سبحاناً يدومُ له ... وقبلَنا سبَّح الجوديّ والجَمَد
مسخَّرٌ كلّ ما تحتَ السماءِ له ... لا ينبغي أن يناوِي ملكَه أحد
لا شيءَ مما نَرى تبقى بشاشتُه ... يبقى الإلهُ ويودي المالُ والولد
لم تُغنِ عن هرمزٍ يوماً خزائنُه ... والخلدَ قد حاولتْ عادٌ فما خلدوا
ولا سليمانُ إذ تجري الرياحُ به ... والجنُّ والانسُ فيما بينها مَرَد
أينَ الملوكُ التي كانت لعزّتها ... من كلّ أوبٍ إليها وافدٌ يَفِد
حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كَذِبٍ ... لابدّ من وِردِه يوماً كما وَرَدوا

ثم قال هكذا نسبه أبو الفرج إلى ورقة، قال وفيه أبيات تنسب إلى أمية بن أبي الصلت

قلت: وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يستشهد فى بعض الأحيان بشيء من هذه الأبيات والله أعلم.

فصل

فى تجديد قريش بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنين

ذكر البيهقى بناء الكعبة قبل تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة. والمشهور أن بناء قريش الكعبة بعد تزويج خديجة كما ذكرناه بعشر سنين. ثم شرع البيهقى فى ذكر بناء الكعبة فى زمن ابراهيم كما قدمناه فى قصته، وأورد حديث ابن عباس المتقدم فى صحيح البخارى وذكر ماورد من الاسرائيليات فى بنائه فى زمن آدم ولا يصح ذلك، فان ظاهر القرآن يقتضى أن ابراهيم أول من بناه مبتدئاً وأول من أسسه، وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها مشرفة فى سائر الأعصار والأوقات قال الله تعالى ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا﴾ وثبت فى الصحيحين عن أبى ذر قال قلت يارسول الله أى مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت ثم أى؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» وقد تكلمنا على هذا فيما تقدم، وإن المسجد الأقصى أسسه اسرائيل وهو يعقوب عليه السلام. وفى الصحيحين أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وقال البيهقى أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو عبد الله الصفار حدثنا احمد بن مهران حدثنا عبيدالله حدثنا اسرائيل عن أبى يحيى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو. قال: كان البيت قبل الارض بألفى سنة، (وإذا الارض مدت) قال من تحته مدت. قال وقد تابعه منصور عن مجاهد.

قلت : وهذا غريب جداً وكأنه من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك وكان فيهما اسرائيليات يحدث منها وفيهما منكرات وغرائب .

ثم قال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو جعفر محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله البغدادي حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح حدثنا أبو صالح الجهني حدثني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص . قال قال رسول الله (ص) : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما ابنيا لي بيتاً ، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل ، حتى أجابه الماء نودي من تحته حسبك يا آدم ، فلما بنيا أوحى الله تعالى اليه أن يطوف به وقيل له أنت أول الناس ، وهذا أول بيت ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون حتى رفع ابراهيم القواعد منه » .

قال البيهقي : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً .

قلت : وهو ضعيف ، ووقفه على عبد الله بن عمرو أقوى وأثبت والله أعلم .

وقال الربيع : أنبأنا الشافعي أنبأنا سفيان عن ابن أبي لبيد عن محمد بن كعب القرظي - أو غيره - قال : حج آدم فلقيته الملائكة فقالوا بر نسكك يا آدم لقد حججنا قبلك بألفي عام . وقال يونس بن بكير عن ابن اسحاق حدثني بقية - أو قال ثقة - من أهل المدينة عن عروة بن الزبير أنه قال : ما من نبي إلا وقد حج البيت إلا ما كان من هود وصالح .

قلت : وقد قدمنا حجهما اليه . والمقصود الحج إلى محله وبقعته وإن لم يكن ثم بناء والله أعلم .

ثم أورد البيهقي حديث ابن عباس المتقدم في قصة ابراهيم عليه السلام بطوله وتمامه وهو في صحيح البخاري .

ثم روى البيهقي من حديث سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة قال سأل رجل علياً عن قوله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين) أهو أول بيت بني في الارض ؟ قال لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة للناس والهدى ومقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً . وإن شئت نبأتك كيف بناؤه . إن الله تعالى أوحى إلى ابراهيم أن ابن لي بيتاً في الأرض فضاق به ذرعا فارسل اليه السكينة وهي ريح خجوج لها رأس فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت ثم تطوقت في موضع البيت تطوق الحية ، فبنى ابراهيم حتى بلغ مكان الحجر قال لابنه أبغني حجراً فالتمس حجراً حتى أتاه به فوجد الحجر الأسود قد ركب فقال لأبيه من أين لك هذا ؟ قال جاء به من لا يتكل على بنائك ، جاء به جبريل من السماء فأتمه . قال فمر عليه الدهر فانهدم فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش ورسول الله (ص) يومئذ رجل شاب . فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله (ص) أول من خرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوه في مرط ثم ترفعه جميع القبائل كلهم . وقال أبو داود الطيالسي حدثنا حماد بن سلمة وقيس وسلام كلهم عن سماك

ابن حرب عن خالد بن عرعرة عن على بن أبى طالب . قال : لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب فدخل رسول الله (ص) من باب بنى شيبة فأمر بثوب فوضع الحجر فى وسطه وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فرفعوه وأخذه رسول الله (ص) فوضعه ، قال يعقوب بن سفيان أخبرنى أصبغ بن فرج أخبرنى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال لما بلغ رسول الله (ص) الحلم جمرت امرأة الكعبة فطارت شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة فاحترقت فهدموها حتى إذا بنوها فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش فى الركن أى القبائل تلى رفعه . فقالوا : تعالوا نحكم أول من يطلع علينا ، فطلع عليهم رسول الله (ص) ، وهو غلام عليه وشاح نمرة فحكموه فأمر بالركن فوضع فى ثوب ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ثم ارتقى هو فرفعوا اليه الركن فكان هو يضعه فكان لا يزداد على السن الارضى حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحى ، فطفقوا لا ينحرون جزوراً الا التمسوه فيدعو لهم فيها ، وهذا سياق حسن ، وهو من سير الزهرى ، وفيه من الغرابة قوله : فلما بلغ الحلم . والمشهور أن هذا كان ورسول الله (ص) عمره خمس وثلاثون سنة ، وهو الذى نص عليه محمد بن اسحاق بن يسار رحمه الله .

وقال موسى بن عقبة : كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة . وهكذا قال مجاهد ، وعروة ، و محمد بن جبير بن مطعم ، و غيرهم . فالله اعلم .

وقال موسى بن عقبة : كان بين الفجار و بين بناء الكعبة خمس عشرة سنة .

قلت : وكان الفجار وحلف الفضول فى سنة واحدة اذ كان عمر رسول الله (ص) عشرون سنة . وهذا يؤيد ماقال محمد بن اسحاق و الله اعلم .

قال موسى بن عقبة : وانما حمل قريشاً على بنائها ان السيول كانت تأتى من فوقها ، من فوق الردم الذى صنعوه فخر به فخافوا ان يدخلها الماء . وكان رجل يقال له مليح سرق طيب الكعبة . فأرادوا ان يشيدوا بنيانها وان يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا فاعدوا لذلك نفقة وعمالا ثم غدوا اليها ليهدموها على شفق وحذر أن يمنعهم الذى ارادوا . فكان اول رجل طلعها وهدم منها شيئاً الوليد بن المغيرة فلما رأوا الذى فعل الوليد تتابعوا فوضعوها فأعجبهم ذلك . فلما ارادوا أن يأخذوا فى بنيانها احضروا عمالهم فلم يقدر رجل منهم أن يمضى امامه موضع قدم فزعموا انهم رأوا حية قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبها . فأشفقوا منها شفقة شديدة ، وخشوا ان يكونوا قد وقعوا مما عملوا فى هلكة . وكانت الكعبة حرزهم ومنعتهم من الناس وشرفا لهم . فلما سقط فى ايديهم والتبس عليهم امرهم قام فيهم المغيرة ابن عبدالله بن عمرو بن مخزوم فذكر ماكان من نصحه لهم وامره إياهم ان لايتشاجروا ولا يتحاسدوا فى فى بنائها . وأن يقتسموها ارباعا . وان لايدخلوا فى بنائها مالا حراما . وذكر انهم لما عزموا على ذلك

ذهبت الحية فى السماء وتغيبت عنهم ورأوا ان ذلك من الله عز وجل . قال : ويقول بعض الناس إنه اختطفها طائر وألقاها نحو أجياد .

وقال محمد بن اسحاق بن يسار : فلما بلغ رسول (ص) خمسا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها . وإنما كانت رضما فوق القامة . فأرادوا رفعها وتسقيفها وذلك ان نفراً سرقوا كنز الكعبة ، وانما كان فى بئر فى جوف الكعبة . وكان الذى وجد عنده الكنز دويك مولى لبنى مليح بن عمرو بن خزاعة . فقطعت قريش يده وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك . وكان البحر قد رمى بسفينة الى جدة لرجل من تجار الروم . فتحطمت . فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها . قال الاموى : كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد سرحها قيصر مع باقوم الرومى الى الكنيسة التى احرقها الفرس للحبشة فلما بلغت مرساها من جدة بعث الله عليها ريحا فحطمتها .

قال ابن اسحاق : وكان بمكة رجل قبطى نجار فتهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها . وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كانت تطرح فيها ما يهدى اليها كل يوم . فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت [1] وكشت وفتحت فاها ، فكانوا يهابونها ، فبينا هى يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله عليها طائراً فاختطفها فذهب بها . فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضى ما أردنا ، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية .

وحكى السهيلى : عن رزين أن سارقاً دخل الكعبة فى أيام جرهم ليسرق كنزها . فانهار البئر عليه حتى جاءوا فأخرجوه وأخذوا منه ما كان أخذه ، ثم سكنت هذا البئر حية رأسها كرأس الجدى وبطنها أبيض وظهرها أسود فأقامت فيها خمسمائة عام وهى التى ذكرها محمد بن اسحاق .

قال محمد بن اسحاق : فلما أجمعوا أمرهم لهدمها وبنائها قام أبو وهب عمرو بن عايذ بن عبد بن عمران بن مخزوم ـ وقال ابن هشام عايذ بن عمران بن مخزوم ـ فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه . فقال : يامعشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً . لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس ـ والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة ابن عبد الله بن عمرو بن مخزوم . ثم رجع ابن اسحاق أن قائل ذلك أبو وهب بن عمرو ـ قال وكان خال أبى النبى (ص) وكان شريفاً ممدحاً .

وقال ابن اسحاق : ثم ان قريشاً تجزأت الكعبة . فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وما

(١) احزألت : أى اجتمعت تريد الوثوب .

بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم . وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم . وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى ولبني عدي بن كعب ، وهو الحطيم . ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه . فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع اللهم إنا لا نريد إلا الخير . ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا : ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا من هدمها . فأصبح الوليد غدياً على عمله فهدم وهدم الناس معه ـ حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ـ أساس ابراهيم عليه السلام ـ أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً ـ ووقع في صحيح البخاري عن يزيد بن رومان كأسنمة الابل ـ قال السهيلي وأرى رواية السيرة كالأسنة وهماً والله أعلم .

قال ابن اسحاق : فحدثني بعض من يروى الحديث أن رجلا من قريش ممن كان يهدمها ادخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها . فانتهوا عن ذلك الأساس .

وقال موسى بن عقبة : وزعم عبد الله بن عباس أن أولية قريش كانوا يحدثون أن رجلا من قريش لما اجتمعوا لينزعوا الحجارة إلى تأسيس ابراهيم واسماعيل عليهما السلام عمد رجل منهم إلى حجر من الأساس الأول فرفعه وهو لا يدرى أنه من الأساس الأول ، فأبصر القوم برقة تحت الحجر كادت تلتمع بصر الرجل ، ونزا الحجر من يده فوقع في موضعه وفزع الرجل والبناة . فلما ستر الحجر عنهم ما تحته إلى مكانه عادوا إلى بنيانهم وقالوا لا تحركوا هذا الحجر ولا شيئا بحذائه .

قال ابن اسحاق : وحدثت أن قريشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريانية فلم يعرفوا ما هو ، حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فاذا هو : أنا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض ، وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها ـ قال ابن هشام يعني جبلاها ـ مبارك لأهلها في الماء واللبن .

قال ابن اسحاق : وحدثت أنهم وجدوا في المقام كتاباً فيه : مكة الله الحرام ، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل ، لا يحلها أول من أهلها . قال وزعم ليث بن أبي سليم أنهم وجدوا في الكعبة قبل مبعث النبي (ص) بأربعين سنة ـ إن كان ما ذكر حقاً ـ مكتوباً فيه : من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يزرع شراً يحصد ندامة . يعملون السيئات ويجزون الحسنات ؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب .

وقال سعيد بن يحيى الأموي : حدثنا المعتمر بن سليمان الرقي عن عبد الله بن بشر الزهري ـ يرفع الحديث إلى النبي (ص) ـ قال : « وجد في المقام ثلاثة أصفح ، في الصفح الأول : إني أنا الله

ذو بكة ، صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، وبارکت لأهلها فى الماء واللبن وفى الصفح الثانى : إنى أنا الله ذو بكة خلقت الرحم . . . . لها من اسمى . فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته ؛ وفى الصفح الثالث : إنى أنا الله ذو بكة ، خلقت الخير والشر وقدرته . فطوبى لمن أجريت الخير على يديه وويل لمن أجريت الشر على يديه .

قال ابن اسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة . ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى . حتى تحاوروا أو تحالفوا ، وأعدوا القتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً . ثم تعاقدوا هم وبنو عدى ابن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة . فسموا لعقة الدم . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم انهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا . فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ـ وكان عامئذ أسن قريش كلها قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه . ففعلوا . فكان أول داخل دخل رسول الله (ص) . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد . فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال رسول الله (ص) : « هلموا إلى ثوباً » فأتى به وأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب . ثم ارفعوه جميعاً » ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده (ص) ، ثم بنى عليه . وكانت قريش تسمى رسول الله (ص) بالأمين .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الصمد حدثنا ثابت ـ يعنى أبا يزيد ـ حدثنا هلال يعنى ابن حبان عن مجاهد عن مولاه ـ وهو السائب بن عبد الله ـ انه حدثه انه كان ممن بنى الكعبة فى الجاهلية قال : وكان لى حجر ـ انا نحته أعبده من دون الله ـ قال: وكنت أجيء باللبن الخاثر الذى آنفه على نفسى فاصبه عليه فيجيء الكلب فيلحسه ثم يشغر فيبول عليه قال : فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر ولا يرى الحجر أحد . فاذا هو وسط أحجارنا مثل رأس الرجل يكاد يتراءا منه وجه الرجل . فقال بطن من قريش : نحن نضعه وقال آخرون نحن نضعه فقالوا اجعلوا بينكم حكما . قالوا أول رجل يطلع من الفج . فجاء رسول الله (ص) فقالوا أتاكم الامين . فقالوا له فوضعه فى ثوب . ثم دعا بطونهم فرفعوا نواحيه فوضعه هو (ص) .

قال ابن اسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبى (ص) ثمانى عشرة ذراعا وكانت تكسى القباطى . ثم كسيت بعد البرود . وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف .

قلت: وقد كانوا أخرجوا منها الحجر ـ وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام ـ قصرت بهم النفقة أى لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد ابراهيم . وجعلوا الكعبة بابا واحداً من ناحية الشرق . وجعلوه

مرتفعاً لئلا يدخل اليها كل أحد فيدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله (ص) قال لها : « ألم ترَي أن قومك قصرت بهم النفقة . ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابا شرقياً وبابا غربياً ، وأدخلت فيها الحجر » ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما اشار اليه رسول الله (ص) وجاءت فى غاية البهاء والحسن والسناء كاملة على قواعد الخليل . لها بابان ملتصقان بالارض شرقيا وغربيا . يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر . فلما قتل الحجاج ابن الزبير كتب الى عبد الملك بن مروان ـ وهو الخليفة يومئذ ـ فيما صنعه ابن الزبير واعتقدوا انه فعل ذلك من تلقاء نفسه . فأمر باعادتها الى ما كانت عليه فعمدوا الى الحائط الشامى فحصوه واخرجوا منه الحجر ورصوا حجارته فى أرض الكعبة . فارتفع بابها وسدوا الغربى واستمر الشرقى على ما كان عليه فلما كان فى زمن المهدى ـ أو ابنه المنصور ـ استشار مالكا فى اعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير . فقال مالك رحمه الله : إنى أكره أن يتخذها الملوك ملعبة . فتركها على ما هى عليه . فهى الى الآن كذلك .

وأما المسجد الحرام : فأول من أخر البيوت من حول الكعبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، اشتراها من أهلها وهدمها فلما كان عثمان اشترى دوراً وزادها فيه . فلما ولى ابن الزبير أحكم بنيانه ، وحسن جدرانه وأكثر ابوابه . ولم يوسعه شيئا آخر . فلما استبد بالأمر عبد الملك بن مروان زاد فى ارتفاع جدرانه وامر بالكعبة فكسيت الديباج . وكان الذى تولى ذلك بامره الحجاج بن يوسف . وقد ذكرنا قصة بناء البيت والاحاديث الواردة فى ذلك فى تفسير سورة البقرة عند قوله (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل) وذكرنا ذلك مطولا مستقصى فمن شاء كتبه هاهنا ولله الحمد والمنة .

قال ابن اسحاق : فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا قال الزبير بن عبد المطلب ، فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها :

عجبتُ لِمَا تصوَّبتِ العقابُ ... الى الثعبانِ وهي لها اضطرابُ
وقد كانتْ تكونُ لها كشيشٌ ... واحياناً يكونُ لها وثاب
اذا قُمنا الى التأسيسِ شدَّتْ ... تُهيِّبُنا البناءَ وقد تُهاب
فلما أن خَشينا الزجرَ جاءتْ ... عُقابٌ تتلئبُّ لها انصباب
فضمَّتْها إليها ثم خلَّتْ ... لنا البنيانَ ليسَ لها حِجاب
فقمنا حاشِدينَ الى بناءٍ ... لنا منهُ القواعدُ والتراب
غداةَ نرفِّعُ التأسيسَ منه ... وليسَ على مُساوينا ثياب
أعزَّ به المليكُ بني لؤيٍّ ... فليسَ لأصلِهِ منهم ذهاب
وقد حشَدتْ هناك بنو عَديٍّ ... ومُرَّةُ قد تقدَّمها كلاب

فبوّأنا المليكُ بذاك عزّاً وعند الله يُلتمس الثواب

وقد قدمنا في فصل ما كان الله يحوط به رسول(ص) من أقذار الجاهلية ، أنه كان هو والعباس عمه ينقلان الحجارة ، وأنه عليه الصلاة والسلام لما وضع إزاره تحت الحجارة على كتفه نهي عن خلع إزاره فأعاده إلى سيرته الاولى .

فصل

وذكر ابن اسحاق ما كانت قريش ابتدعوه في تسميتهم الحمس ، وهو الشدة في الدين والصلابة . وذلك لأنهم عظموا الحرم تعظيما زائداً بحيث التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلة عرفة ... وكانوا يقولون نحن أبناء الحرم وقطان بيت الله . فكانوا لا يقفون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر ابراهيم عليه السلام ، حتى لا يخرجوا عن نظام ماكانوا قرروه من البدعة الفاسدة . وكانوا لا يدخرون من اللبن أقطا ولا سمنا ولا يسلون شحما وهم حرم . ولا يدخلون بيتا من شعر ولا يستظلون ان استظلوا الا بيت من أدم . وكانوا يمنعون الحجيج والعمار - ماداموا محرمين - أن يأكلوا إلا من طعام قريش ، ولا يطوفوا الا في ثياب قريش ، فان لم يجد احد منهم ثوب أحد من الحمس وهم قريش وما ولدوا ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة طاف عريانا ولو كانت امرأة ولهذا كانت المرأة اذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فرجها وتقول :

اليومَ يبدو بعضُه أو كلّه وبعدَ هذا اليوم لا أحلّه (١)

فان تكرم أحد ممن يجد ثوب أحمسي فطاف في ثياب نفسه فعليه إذا فرغ من الطواف ان يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك . وليس له ولا لغيره أن يمسها . وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى قال بعض الشعراء :

كفى حزنا كرى عليه كأنه لقى بين أيدى الطائفين حريم

قال ابن اسحاق : فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً (ص) ، وأنزل عليه القرآن رداً عليهم فيما ابتدعوه فقال (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) أي جمهور العرب من عرفات (واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيم) وقد قدمنا أن رسول الله (ص) كان يقف بعرفات قبل أن ينزل عليه توفيقاً من الله له ، وأنزل الله عليه رداً عليهم فيما كانوا حرموا من اللباس والطعام على الناس (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) الآية . وقال زياد البكائي عن ابن اسحاق : ولا أدرى أكان ابتداعهم لذلك قبل الفيل أو بعده .

---

(١) وفي المصرية وابن هشام : وما بدا منه فلا أحله .

مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

تسليما كثيراً . وذكر شيء من البشارات بذلك

قال محمد بن اسحاق رحمه الله : وكانت الأحبار من اليهود والكهان من النصارى ومن العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله (ص) قبل مبعثه لما تقارب زمانه ، أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فبما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه . قال الله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل) الآية وقال الله تعالى (وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل إنى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد) . وقال الله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل) الآية . وقال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : « ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنه » يعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا وأمروا باتباعه .

وقد قال إبراهيم عليه السلام فيما دعا به لأهل مكة : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) الآية .

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج بن فضالة حدثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال قلت يارسول الله ، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى ابراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » وقد روى محمد بن اسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله (ص) عنه مثله ومعنى هذا أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره فذكر دعوة ابراهيم الذى تنسب اليه العرب ، ثم بشرى عيسى الذى هو خاتم أنبياء بنى اسرائيل كما تقدم . يدل هذا على أن من بينهما من الأنبياء بشروا به أيضا .

أما فى الملأ الاعلى فقد كان أمره مشهوراً مذكورا معلوما من قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كما قال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى

عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية . قال قال رسول الله (ص) : « إنى عبد الله خاتم النبيين ، وان آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبى ابراهيم ، وبشارة عيسى بى ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين » . وقد رواه الليث عن معاوية بن صالح وقال : ان أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام . وقال الامام احمد أيضا حدثنا عبدالرحمن حدثنا منصور بن سعد عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال: قلت يا رسول الله ، متى كنت نبيا ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » تفرد بهن احمد .

وقد رواه عمر بن احمد بن شاهين فى كتاب دلائل النبوة من حديث أبى هريرة فقال حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ـ يعنى أبا القاسم البغوى ـ حدثنا أبو همام الوليد بن مسلم عن الاوزاعى حدثنى يحيى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله (ص) متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » ورواه من وجه آخر عن الاوزاعى به . وقال : « وآدم منجدل فى طينته » . وروى عن البغوى أيضاً عن احمد بن المقدام عن بقية بن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبى هريرة ـ مرفوعاً ـ فى قول الله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) قال رسول الله (ص) : « كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » ومن حديث أبى مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر عن الشعبى عن ابن عباس قيل يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وأما الكهان من العرب فاتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع ، إذ كانت وهى لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم ، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما بعض ذكر أموره ولا يلقى العرب لذلك فيه بالا . حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها ، فلما تقارب أمر رسول الله (ص) وحضر زمان مبعثه حجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم فعرفت الشياطين أن ذلك لأمر حدث من أمر الله عز وجل . قال وفى ذلك أنزل الله على رسوله (ص) (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً) إلى آخر السورة . وقد ذكرنا تفسير ذلك كله فى كتابنا التفسير ، وكذا قوله تعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) الآيات ، ذكرنا تفسير ذلك كله هناك .

قال محمد بن اسحاق : حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الاخنس أنه حدث أن أول العرب فزع للرمى بالنجوم حين رمى بها ـ هذا الحى من ثقيف ـ وإنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية

أحد بني علاج وكان أدهى العرب وأمكرها ، فقالوا له يا عمرو ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ، لما يصلح الناس في معايشهم هي التي يرمى بها ،فهو والله طي الدنيا ، وهلاك هذا الخلق وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق فما هو ؟ .

قال ابن اسحاق : وحدثني بعض أهل العلم أن امرأة من بني سهم ـ يقال لها الغيطلة ـ كانت كاهنة في الجاهلية جاءها صاحبها ليلة من الليالي فانقض تحتها ، ثم قال : أدر ما أدر ، يوم عقر ونحر ، فقالت قريش حين بلغها ذلك ما يريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها ثم قال : شعوب ماشعوب ؟ تصرع فيه كعب الجنوب . فلما بلغ ذلك قريشا قالوا ماذا يريد ؟ إن هذا لأمر هو كائن فانظروا ما هو ، فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب فعرفوا أنه كان الذي جاء به إلى صاحبته .

قال ابن اسحاق : وحدثني علي بن نافع الجرشي أن جنبا ـ بطنا من اليمن ـ كان لهم كاهن في الجاهلية، فلما ذكر أمر رسول الله (ص) وانتشر في العرب : قالت له جنب انظر لنا في أمر هذا الرجل واجتمعوا له في أسفل جبله . فنزل اليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له ، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً ثم جعل ينزو ، ثم قال : أيها الناس إن الله أكرم محمداً واصطفاه وطهر قلبه وحشاه ومكثه فيكم أيها الناس قليل . ثم اشتد في جبله راجعاً من حيث جاء ، ثم ذكر ابن اسحاق قصة سواد بن قارب وقد أخرناها إلى هواتف الجان .

فصل

قال ابن اسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا إن مما دعانا إلى الاسلام ـ مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ـ أن كنا نسمع من رجال من يهود ـ وكنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسول الله (ص) أجبناه حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به . فبادرناهم اليه ، فآمنا به وكفروا به . ففينا وفيهم نزلت هذه الآية .(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين).

وقال ورقاء عن ابن أبي نجيح عن علي الازدي : كانت اليهود تقول اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس يستفتحون به ـ أي يستنصرون به ـ رواه البيهقي . ثم روى من طريق عبد الملك ابن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : كانت اليهود بخيبر

تقاتل غطفان فكلما التقوا هزمت يهود خيبر ، فعاذت اليهود بهذا الدعاء فقالوا : اللهم نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم ، قال فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان ، فلما بعث النبي (ص) كفروا به . فأنزل الله عز وجل (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) الآية . وروى عطية عن ابن عباس نحوه . وروى عن عكرمة من قوله نحو ذلك أيضاً .

وقال ابن اسحاق : وحدثني صالح بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد عن سلمة بن سلام بن وقش ـ وكان من أهل بدر ـ قال كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل ، قال فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل . قال سلمة وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً على فروة لي مضطجع فيها بفناء أهلي ؛ فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار . قال فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت ، فقالوا له ويحك يا فلان أو ترى هذا كائناً ؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟ قال نعم ، والذي يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه ثم يدخلونه اياه فيطبقونه عليه وأن ينجون من تلك النار غداً قالوا له ويحك يا فلان فما آية ذلك ؟ قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد . وأشار بيده الى نحو مكة واليمن قالوا ومتى نراه ؟ قال ـ فنظر الي وأنا من أحدثهم سناً ـ فقال أن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه . قال سلمة فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله (ص) وهو حي بين أظهرنا ، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً . قال فقلنا له ويحك يا فلان ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال بلى ولكن ليس به . رواه احمد عن يعقوب عن ابيه عن ابن عباس . ورواه البيهقي عن الحاكم باسناده من طريق يونس بن بكير .

وروى أبو نعيم في الدلائل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن محمد بن سلمة قال : لم يكن في بني عبد الأشهل الا يهودي واحد يقال له يوشع ، فسمعته يقول ـ وإني لغلام في ازار ـ قد اظلكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت . ثم اشار بيده الى بيت الله ، فمن ادركه فليصدقه . فبعث رسول الله (ص) ، فاسلمنا وهو بين أظهرنا لم يسلم حسداً وبغياً . وقد قدمنا حديث ابي سعيد عن أبيه في اخبار يوشع هذا عن خروج رسول الله (ص) وصفته ونعته واخبار الزبير بن باطا عن ظهور كوكب مولد رسول الله (ص) ورواه الحاكم عن البيهقي باسناده من طريق يونس بن بكير عنه .

قال ابن اسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال قال لي : هل تدري عم كان اسلام ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية ، وأسد بن عبيد ـ نفر من بني هدل ، اخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم ، ثم كانوا سادتهم في الاسلام ـ قال قلت لا ، قال فان رجلاً من اليهود من ارض

الشام يقال له ابن الهيبان قدم علينا قبل الاسلام بسنين فحل بين اظهرنا لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلي الخمس افضل منه ، فاقام عندنا فكنا اذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا ، فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة ، فنقول له كم ؟ فيقول صاعا من تمر ، أو مدين من شعير . قال فنخرجها ، ثم يخرج بنا الى ظاهر حرتنا فيستسقي لنا ، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقي . قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثا . قال ثم حضرته الوفاة عندنا ، فلما عرف أنه ميت قال يامعشر يهود ، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير الى أرض البؤس والجوع ؟ قال قلنا أنت أعلم قال فاني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه ، هذه البلدة مهاجره فكنت ارجو ان يبعث فاتبعه ، وقد أظلكم زمانه فلا تسبقن اليه يامعشر يهود ، فانه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري فيمن خالفه فلا يمنعنكم ذلك منه . فلما بعث رسول الله (ص) وحاصر بني قريظة قال هؤلاء الفتية — وكانوا شبابا أحداثا — : يا بني قريظة والله إنه النبي الذي عهد اليكم فيه ابن الهيبان . قالوا ليس به قالوا بلى والله إنه لهو بصفته . فنزلوا فاسلموا فاحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم

قال ابن إسحاق فهذا ما بلغنا عن اخبار يهود .

قلت : وقد قدمنا في قدوم تبع اليماني وهو أبو كرب تبان أسعد إلى المدينة ومحاصرته إياها وانه خرج اليه ذانك الحبران من اليهود فقالا له إنه لاسبيل لك عليها ، أنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان فثناه ذلك عنها . وقد روى أبو نعيم في الدلائل من طريق الوليد بن مسلم حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده . قال قال عبد الله بن سلام : ان الله لما أراد هدى زيد ابن سعية قال زيد لم يبق شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه محمد (ص) حين نظرت اليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما . قال فكنت أتلطف له لأن أخالطه فاعرف حلمه وجهله ، فذكر قصة إسلافه النبي (ص) مالا في ثمرة ، قال فلما حل الأجل أتيته فاخذت بمجامع قميصه وردائه — وهو في جنازة مع أصحابه — ونظرت اليه بوجه غليظ ، وقلت : يامحمد ألا تقضيني حقي ؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطل ، قال فنظر إلى عمر وعيناه يدوران في وجهه كالفلك المستدير . ثم قال يا عدو الله أتقول لرسول الله (ص) ما أسمع ، وتفعل ما أرى ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله (ص) ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم . ثم قال : « أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك ياعمر ، أن تأمرني بحسن الاداء ، وتأمره بحسن التباعة ، اذهب به ياعمر فاقضه حقه . وزده عشرين صاعاً من تمر » فأسلم زيد بن سعية رضي الله عنه . وشهد بقية المشاهد مع رسول الله (ص) وتوفي عام تبوك رحمه الله .

ثم ذكر ابن اسحاق رحمه الله : اسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه فقال حدثني عاصم بن

عمر بن قتادة الأنصارى عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس . قال حدثنى سلمان الفارسى ـ من فيه ـ قال كنت رجلا فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها جى وكان أبى دهقان قريته وكنت أحب خلق الله إليه ، فلم يزل حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية ، حتى كنت قطن النار التى يوقدها لا يتركها تخبو ساعة قال وكانت لأبى ضيعة عظيمة ، قال فشغل فى بنيان له يوماً فقال لى يا بنى إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى ، فاذهب إليها فاطلعها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد . ثم قال لى ولا تحتبس عنى فانك إن احتبست عنى كنت أهم إلى من ضيعتى وشغلتنى عن كل شىء من أمرى . قال فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون . وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبى إياى فى بيته ، فلما سمعت اصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ورغبت فى أمرهم . وقلت هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبى فلم آتها . ثم قلت لهم أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن أمره كله . فلما جئت قال أى بنى أين كنت ألم أكن أعهد اليك ما عهدته ؟ قال قلت يا أبة مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى ما رأيت من دينهم فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس قال أى بنى ، ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه . قال قلت كلا والله إنه لخير من ديننا . قال فخافنى فجعل فى رجلى قيداً ثم حبسنى فى بيته ؛ قال وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم . قال فقدم عليهم ركب من الشام فجاؤنى النصارى فأخبرونى بهم . فقلت إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى قال فلما أرادوا الرجعة الى بلادهم أخبرونى بهم فألقيت الحديد من رجلى ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت من أفضل أهل هذا الدين علماً ؟ قالوا الأسقف فى الكنيسة . قال فجئته فقلت له إنى قد رغبت فى هذا الدين وأحببت أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك وأتعلم منك فأصلى معك . قال ادخل فدخلت معه فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فاذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ، قال وابغضته بغضا شديداً لما رأيته يصنع . ثم مات فاجتمعت له النصارى ليدفنوه . فقلت لهم إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فاذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا . قال فقالوا لى وماعلمك بذلك ؟ قال فقلت لهم أنا أدلكم على كنزه ، قالوا فدلنا . قال فاريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقا ، فلما رأوها قالوا لا ندفنه أبداً قال فصلبوه ورجموه بالحجارة . وجاؤا برجل آخر فوضعوه مكانه . قال سلمان فما رأيت رجلا لا يصلى الخمس أرى أنه أفضل منه أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أدأب ليلا ونهاراً . قال فاحببته حبا

لم احب شيئاً قبله مثله. قال فاقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له إني قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فالى من توصي بي ؟ وبم تأمرني به ؟ قال أي بني والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه . لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه الا رجلا بالموصل وهو فلان وهو على ما كنت عليه فالحق به . قال فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل . فقلت يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره ، فقال لي أقم عندي . فاقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له يا فلان إن فلاناً أوصى بي اليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فالى من توصي بي وبم تأمرني ؟ قال يا بني والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه الا رجلا بنصيبين وهو فلان فالحق به ، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فاخبرته خبري وما أمرني به صاحباي . فقال أقم عندي فاقمت عنده . فوجدته على أمر صاحبيه فاقمت مع خير رجل ، فوالله مالبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له يا فلان ان فلاناً كان أوصى بي الى فلان ثم أوصى بي فلان الى فلان ثم أوصى بي فلان اليك فالى من توصي بي وبم تأمرني ؟ قال يابني والله ما اعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك ان تأتيه الا رجل بعمورية من أرض الروم فانه على مثل مانحن عليه . فان أحببت فأته فانه على امرنا . فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فاخبرته خبري فقال أقم عندي فاقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وامرهم . قال واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة ، قال ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له يا فلان اني كنت مع فلان فاوصى بي الى فلان ثم أوصى بي فلان الى فلان ثم أوصى بي فلان الى فلان . ثم أوصى بي فلان اليك فالى من توصي بي وبم تأمرني ؟ قال أي بني والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك ان تأتيه ، ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب مهاجره الى الارض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فان استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل قال ثم مات وغيب ومكثت بعمورية ماشاء الله ان امكث . ثم مر بي نفر من كلب تجار فقلت لهم احملوني الى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه قالوا نعم فاعطيتهموها وحملوني معهم حتى اذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبدا ، فكنت عنده ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ، ولم يحق في نفسي . فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة ، فابتاعني منه فاحتملني الى المدينة ، فوالله ما هو الا ان رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها ، فاقمت بها وبعث رسول الله (ص) فاقام بمكة ما أقام ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر الى المدينة فوالله اني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل . وسيدي جالس تحتي اذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال يا فلان قاتل الله بني قيلة . والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على

رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي . قال سلمان فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننت اني ساقط على سيدي فنزلت عن النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ قال فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة . ثم قال مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك ، قال فقلت لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال . قال وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته . ثم ذهبت به إلى رسول الله (ص) ـ وهو بقباء ـ فدخلت عليه فقلت له إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة ، فرأيتكم أحق به من غيركم . قال فقربته اليه فقال رسول الله (ص) لأصحابه « كلوا » وأمسك يده فلم يأكل ، فقلت في نفسي هذه واحدة ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله (ص) إلى المدينة . ثم جئته فقلت له إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها . قال فأكل رسول الله (ص) منها وأمر أصحابه فأكلوا معه ، قال فقلت في نفسي هاتان ثنتان . قال ثم جئت رسول الله (ص) وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه . ثم استدرته أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ؟ فلما رآني رسول الله (ص) استدرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي . فألقى رداءه عن ظهره فنظرت الى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكي فقال لي رسول الله (ص) : « تحول » فتحولت بين يديه ، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس . فأعجب رسول الله (ص) أن يسمع ذاك أصحابه . ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله (ص) بدر وأحد . قال سلمان : ثم قال لي رسول الله (ص) « كاتب يا سلمان » فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير [1] وأربعين أوقية . فقال رسول الله (ص) لأصحابه « أعينوا أخاكم » فأعانوني في النخل : الرجل بثلاثين ودية ، والرجل بعشرين ودية ، والرجل بخمس عشرة ودية والرجل بعشرة . يعين الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية . فقال لي رسول الله (ص) « اذهب يا سلمان ففقر لها ، فاذا فرغت فائتني أكن أنا أضعها بيدي » . قال : ففقرت ، وأعانني أصحابي ، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته . فخرج رسول الله (ص) معي اليها . فجعلنا نقرب اليه الودي ، ويضعه رسول الله (ص) بيده حتى اذا فرغنا فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة . فأديت النخل وبقي علي المال . فأتي رسول الله (ص) بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن . فقال « ما فعل الفارسي المكاتب ؟ » قال فدعيت له قال « خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان » قال قلت : وأين تقع هذه مما علي يا رسول الله ؟ قال « خذها فان الله سيؤدي بها عنك » قال فأخذتها فوزنت لهم منها ـ والذي نفس سلمان بيده ـ أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم وعتق سلمان . فشهدت مع رسول الله (ص) الخندق حرا ثم لم يفتني معه مشهد .

---

(١) فقير النخلة : حفرة تحفر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها . من النهاية .

قال ابن اسحاق : وحدثنى يزيد بن أبى حبيب عن رجل من عبد القيس عن سلمان أنه قال لما قلت وأين تقع هذه من الذى على يارسول الله ؟ أخذها رسول الله (ص) فقلبها على لسانه ، ثم قال : « خذها فأوفهم منها » فأخذتها فأوفيتهم منها حقهم كله أربعين أوقية .

وقال محمد بن اسحاق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة حدثنى من لا أتهم عن عمر بن عبد العزيز ابن مروان قال حدثت عن سلمان انه قال لرسول الله (ص) حين اخبره أن صاحب عمورية قال له : إيت كذا وكذا من أرض الشام ، فان بها رجلا بين غيضتين يخرج كل سنة من هذه الغيضه مستجيزا يعترضه ذوو الاسقام فلا يدعو لاحد منهم الاشفى فاسأله عن هذا الدين الذى تبتغى فهو يخبرك عنه قال سلمان فخرجت حتى جئت حيث وصف لى فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هنالك حتى يخرج لهم تلك الليلة مستجيزا من احدى الغيضتين الى الاخرى . فغشيه الناس بمرضاهم لا يدعو لمريض الاشفى وغلبونى عليه فلم أخلص اليه حتى دخل الغيضة التى يريد ان يدخل الا منكبه . قال فتناولته فقال من هذا ؟ والتفت الى قال قلت يرحمك الله أخبرنى عن الحنيفية دين ابراهيم ، قال انك لتسأل عن شئ ما يسأل عنه الناس اليوم ، قد أظلك زمان نبى يبعث بهذا الدين من أهل الحرم ، فأته فهو يحملك عليه . ثم دخل فقال رسول الله (ص) لسلمان : « لئن كنت صدقتنى يا سلمان لقد لقيت عيسى بن مريم » هكذا وقع فى هذه الرواية . وفيها رجل مبهم وهو شيخ عاصم بن عمر بن قتادة . وقد قيل إنه الحسن ابن عمارة ثم هو منقطع بل معضل بين عمر بن عبد العزيز وسلمان رضى الله عنه . قوله لئن كنت صدقتنى يا سلمان لقد لقيت عيسى بن مريم غريب جداً بل منكر . فان الفترة أقل ما قيل فيها انها أربعمائة سنة ، وقيل ستمائة سنة بالشمسية ، وسلمان أكثر ما قيل انه عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة . وحكى العباس ابن يزيد البحرانى اجماع مشايخه على أنه عاش مائتين وخمسين سنة . واختلفوا فيما زاد الى ثلاثمائة وخمسين سنة والله أعلم . والظاهر أنه قال لقد لقيت وصى عيسى بن مريم فهذا ممكن بالصواب .

وقال السهيلى : الرجل المبهم هو الحسن بن عمارة وهو ضعيف وإن صح لم يكن فيه نكارة . لان ابن جرير ذكر أن المسيح نزل من السماء بعد مارفع فوجد أمه وامرأة أخرى يبكيان عند جذع المصلوب فأخبرهما أنه لم يقتل وبعث الحواريين بعد ذلك . قال وإذا جاز نزوله مرة جاز نزوله مراراً ثم يكون نزوله الظاهر حين يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويتزوج حينئذ امرأة من بنى جذام وإذا مات دفن فى حجرة روضة رسول الله (ص) .

وقد روى البيهقى فى كتاب دلائل النبوة قصة سلمان هذه من طريق يونس بن بكير عن محمد بن اسحاق كما تقدم ورواها أيضاً عن الحاكم عن الاصم عن يحيى بن أبى طالب . حدثنا على بن عاصم حدثنا حاتم بن أبى صفرة عن سماك بن حرب عن يزيد بن صوحان أنه سمع سلمان يحدث كيف كان أول

إسلامه . فذكر قصة طويلة وذكر أنه كان من رامهرمز وكان له أخ أكبر منه غني وكان سلمان فقيراً في كنف أخيه ، وأن ابن دهقانها كان صاحباً له وكان يختلف معه إلى معلم لهم وأنه كان يختلف ذلك الغلام إلى عباد من النصارى في كهف لهم فسأله سلمان أن يذهب به معه اليهم فقال له إنك غلام وأخشى أن تنم عليهم فيقتلهم أبي ، فالتزم له أن لا يكون منه شيء يكرهه فذهب به معه فاذا هم ستة ـ أو سبعة ـ كأن الروح قد خرجت منهم من العبادة يصومون النهار ويقومون الليل يأكلون الشجر وما وجدوا فذكر عنهم أنهم يؤمنون بالرسل المتقدمين وأن عيسى عبدالله ورسوله وابن أمته أيده بالمعجزات . وقالوا له يا غلام إن لك رباً وإن لك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة لا يرضى الله بما يصنعون وليسوا على دينه . ثم جعل يتردد مع ذلك الغلام اليهم ثم لزمهم سلمان بالكلية ثم أجلاهم ملك تلك البلاد وهو أبو ذلك الغلام الذي صحبه سلمان اليهم عن أرضه واحتبس الملك ابنه عنده وعرض سلمان دينهم على أخيه الذي هو أكبر منه فقال إني مشتغل بنفسي في طلب المعيشة فارتحل معهم سلمان حتى دخلوا كنيسة الموصل فسلم عليهم أهلها ثم أرادوا أن يتركوني عندهم فأبيت الا صحبتهم فخرجوا حتى أتوا وادياً بين جبال فتحدر اليهم رهبان تلك الناحية يسلمون عليهم واجتمعوا اليهم وجعلوا يسألونهم عن غيبتهم عنهم ويسألونهم عني فيثنون علي خيراً ، وجاء رجل معظم فيهم فخطبهم فأثنى على الله بما هو أهله وذكر الرسل وما أيدوا به وذكر عيسى بن مريم وأنه كان عبدالله ورسوله وأمرهم بالخير ونهاهم عن الشر ، ثم لما أرادوا الانصراف تبعه سلمان ولزمه قال فكان يصوم النهار ويقوم الليل من الاحد إلى الاحد فيخرج اليهم ويعظهم ويأمرهم وينهاهم فمكث على ذلك مدة طويلة ، ثم أراد أن يزور بيت المقدس فصحبه سلمان اليه قال فكان فيما يمشي يلتفت الي ويقبل علي فيعظني ويخبرني أن لي رباً وأن بين يدي جنة وناراً وحساباً ويعلمني ويذكرني نحو ما كان يذكر القوم يوم الأحد قال فيما يقول لي : ياسلمان إن الله سوف يبعث رسولا اسمه احمد يخرج من تهامة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم [النبوة] وهذا زمانه الذي يخرج فيه قد تقارب فأما أنا فاني شيخ كبير ولا أحسبني أدركه فان أدركته أنت فصدقه واتبعه ، قلت له وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه قال وإن أمرك فان الحق فيما يجيء به ورضى الرحمن فيما قال . ثم ذكر قدومهما إلى بيت المقدس وأن صاحبه صلى فيه ههنا وههنا ثم نام وقد أوصاه أنه إذا بلغ الظل مكان كذا أن يوقظه فتركه سلمان حيناً آخر أزيد مما قال ليستريح ، فلما استيقظ ذكر الله ولام سلمان على ترك ما أمره من ذلك ثم خرجا من بيت المقدس فسأله مقعد فقال يا عبدالله سألتك حين وصلت فلم تعطني شيئاً وها أنا أسألك فنظر فلم يجد أحداً فأخذ بيده وقال قم بسم الله فقام وليس به بأس ولا قلبة [1] كأنما نشط من عقال . فقال لي يا عبد الله

---

(١) القلبة محركة : داء وألم من علة .

احمل على متاعي حتى أذهب إلى أهلي فأبشرهم ، فاشتغلت به ثم أدركت الرجل فلم ألحقه ولم أدر أين ذهب وكلما سألت عنه قوماً قالوا أمامك حتى لقيني ركب من العرب من بني كلب فسألتهم فلما سمعوا لغتي أناخ رجل منهم بعيره فحملني خلفه حتى أتوا بي بلادهم . فباعوني فاشترتني امرأة من الانصار فجعلتني في حائط لها وقدم رسول الله (ص) ، ثم ذكر ذهابه اليه بالصدقة والهدية ليستعلم ما قال صاحبه ، ثم تطلب النظر إلى خاتم النبوة فلما رآه آمن من ساعته . وأخبر رسول الله (ص) خبره الذي جرى له قال فأمر رسول الله (ص) أبا بكر الصديق فاشتراه من سيدته فاعتقه ، قال ثم سألته يوماً عن دين النصارى فقال : لا خير فيهم . قال فوقع في نفسي من أولئك الذين صحبتهم ومن ذلك الرجل الصالح الذي كان معي ببيت المقدس فدخلني من ذلك أمر عظيم حتى أنزل الله على رسول الله (ص) (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) فدعاني رسول الله (ص) فجئت وأنا خائف فجلست بين يديه فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) الآيات . ثم قال هيا سلمان أولئك الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى كانوا مسلمين » فقلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق لهو أمرني باتباعك . فقلت له فإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه ؟ قال نعم فاتركه فإن الحق وما يرضي الله فيما يأمرك . وفي هذا السياق غرابة كثيرة وفيه بعض المخالفة لسياق محمد بن اسحاق وطريق محمد بن اسحاق أقوى إسناداً وأحسن اقتصاصاً وأقرب إلى ما رواه البخاري في صحيحه من حديث معتمر بن سليمان بن طرخان التيمي عن أبيه عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي أنه تداوله بضعة عشر ، من رب إلى رب ، اي من معلم إلى معلم ومرب إلى مثله والله أعلم .

قال السهيلي : تداوله ثلاثون سيداً من سيد إلى سيد ، فالله أعلم . وكذلك استقصى قصة إسلامه الحافظ ابو نعيم في الدلائل وأورد لها أسانيد وألفاظاً كثيرة ، وفي بعضها أن اسم سيدته التي كاتبته حليسة فالله أعلم .

ذكر أخبار غريبة في ذلك

قال أبو نعيم في الدلائل : حدثنا سليمان بن احمد حدثنا محمد بن زكريا الغلابي حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبي السوية المنقري حدثنا عباد بن كسيب عن أبيه عن أبي عتوارة الخزاعي عن سعير بن سوادة العامري [1] قال كنت عشيقاً لعقيلة من عقائل الحي ، أركب لها الصعب والذلول لا أبقي من البلاد مسرحا أرجو ربحا في متجر إلا أتيته ، فانصرفت من الشام بحرث وأثاث أريد به كبة الموسم

(١) قد تصفحت الدلائل . فلم أقف على هذا الخبر . فليحرر .

ودهاه العرب، فدخلت مكة بليل مسغف فأقمت حتى تمرى عنى قيص الليل فرفعت رأسى فاذا قباب مسامتة شعف الجبال، مضروبة بأنطاع الطائف وإذا جزر تنحر وأخرى تساق، وإذا أكلة وحثثة على الطهاة يقولون: الا عجلوا الا عجلوا، وإذا رجل يجهر على نشز من الارض، ينادى ياوفد الله ميلوا إلى الغداء. وأنيسان على مدرجة يقول: يا وفد الله من طعم فليرح إلى العشاء، فجهرنى ما رأيت فأقبلت أريد عميد القوم، فعرف رجل الذى بى، فقال أمامك، وإذا شيخ كأن فى خديه الأساريع، وكأن الشعرى توقد من جبينه، قد لاث على رأسه عمامة سوداء قد أبرز من ملاثها جمة فينانة كأنها سماسم.
قال فى بعض الروايات تحته كرسى سماسم[1] ومن دونها نمرقة بيده قضيب متخصر به حوله مشايخ جلس نواكس الأذقان ما منهم أحد يفيض بكلمة. وقد كان نمى إلى خبر من أخبار الشام أن النبى الأمى هذا أوان نجومه، فلما رأيته ظننته ذلك. فقلت السلام عليك يارسول الله. فقال: مه مه، كلا وكأن قد وليتنى إياه فقلت من هذا الشيخ؟ فقالوا هذا أبو نضلة، هذا هاشم بن عبد مناف، فوليت وأنا أقول هذا والله المجد لا مجد آل جفنة ـ يعنى ملوك عرب الشام من غسان كان يقال لهم آل جفنة ـ. وهذه الوظيفة التى حكاها عن هاشم هى الرفادة يعنى إطعام الحجيج زمن الموسم.

وقال أبو نعيم: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدثنا محمد بن احمد بن أبى يحيى حدثنا سعيد بن عثمان حدثنا على بن قتيبة الخراسانى حدثنا خالد بن الياس عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى الجهم عن أبيه عن جده. قال سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال: بينا أنا نائم فى الحجر إذ رأيت رؤيا هالتنى ففزعت منها فزعاً شديداً، فأتيت كاهنة قريش وعلى مطرف خز وجمتى تضرب منكبى فلما نظرت إلىّ عرفت فى وجهى التغيير وأنا يومئذ سيد قومى فقالت: ما بال سيدنا قد أتانا متغير اللون؟ هل رابه من حدثان الدهر شىء؟ فقلت لها بلى! وكان لا يكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى، ثم يضع يده على أم رأسها ثم يذكر حاجته ولم أفعل لأنى كبير قومى. فجلست فقلت إنى رأيت الليلة وأنا نائم فى الحجر كأن شجرة تنبت قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب، وما رأيت نوراً أزهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً. ورأيت العرب والعجم ساجدين لها وهى تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً ساعة تخفى وساعة تزهر، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها. فاذا دنوا منها أخذهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم. فرفعت يدى لأتناول منها نصيباً، فمنعنى الشاب فقلت لمن النصيب؟ فقال النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك اليها. فانتبهت مذعوراً فزعاً فرأيت وجه الكاهنة قد تغير، ثم قالت لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ويدين له الناس

(١) سماسم: الأولى عيدان السمسم. والثانية خشب أسود كالأبنوس

ثم قال ـ يعني عبد المطلب ـ لأبي طالب ، لعلك تكون هذا المولود قال فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعد ما ولد رسول الله (ص) ، وبعد ما بعث . ثم قال كانت الشجرة والله أعلم أبا القاسم الأمين . فيقال لأبي طالب ألا تؤمن ؟ فيقول السبة والعار .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن احمد حدثنا محمد بن زكرياء الغلابي حدثنا العباس بن بكار الضبي حدثنا أبو بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن عباس . قال قال العباس : خرجت في تجارة إلى اليمن في ركب ـ منهم أبو سفيان بن حرب ، فقدمت اليمن فكنت أصنع يوماً طعاماً وانصرف بأبي سفيان وبالنفر ويصنع أبو سفيان يوماً ، ويفعل مثل ذلك ، فقال لي في يومي الذي كنت أصنع فيه : هل لك يا أبا الفضل أن تنصرف إلى بيتي وترسل إلىّ غداءك ؟ فقلت نعم . فانصرفت أنا والنفر إلى بيته وأرسلت إلى الغداء فلما تغدى القوم قاموا واحتبسني فقال هل علمت يا أبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله فقلت أيّ بني أخي ؟ فقال أبو سفيان اياي تكتم ؟ وأي بني أخيك ينبغي أن يقول هذا الا رجل واحد ؟ قلت وأيهم على ذلك ؟ قال : هو محمد بن عبد الله ، فقلت قد فعل ؟ قال بل قد فعل . واخرج كتابا باسمه من ابنه حنظلة بن أبي سفيان فيه : أخبرك ان محمداً قام بالابطح فقال : انا رسول ادعوكم الى الله عز وجل ؟ قال العباس قلت أجده يا أبا حنظلة صادق . قال مهلا يا أبا الفضل فوالله ما أحب أن يقول مثل هذا ، إني لأخشى أن يكون على ضير من هذا الحديث يا بني عبد المطلب ، إنه والله مابرحت قريش تزعم ان لكم هنة وهنة ، كل واحدة منهما غاية . لنشدتك يا أبا الفضل هل سمعت ذلك ؟ قلت نعم قد سمعت . قال فهذه والله شؤمتكم . قلت فلعلها يمنتنا ، قال فما كان بعد ذلك الا ليال حتى قدم عبد الله بن حذافة بالخبر وهو مؤمن ، ففشا ذلك في مجالس اليمن ، وكان أبو سفيان يجلس مجلساً باليمن يتحدث فيه حبر من أحبار اليهود ، فقال له اليهودي ما هذا الخبر ؟ بلغني أن فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال ؟ قال أبو سفيان صدقوا وانا عمه ، فقال اليهودي أخو أبيه ؟ قال نعم ! قال فحدثني عنه قال لا تسألني ما أحب ان يدعي هذا الأمر ابدا ، وما أحب ان أعيبه وغيره خير منه ، فرأى اليهودي انه لا يغمس عليه ولا يحب ان يعيبه . فقال اليهودي ليس به بأس على اليهود ، وتوراة موسى . قال العباس فناداني الحبر ، فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد ، وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر ، فقلت للحبر بلغني انك سألت ابن عمي عن رجل منا زعم انه رسول الله (ص) ، وأخبرك أنه عمه ، وليس بعمه . ولكن ابن عمه وانا عمه واخو ابيه . قال أخو أبيه ؟ قلت أخو أبيه ، فاقبل على أبي سفيان فقال صدق ؟ قال نعم صدق ، فقلت سلني فان كذبت فليرد علي ، فاقبل علي فقال نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة ؟ قلت لا وإله عبد المطلب ولا كذب ولا خان ، وانه كان اسمه عند قريش الامين . قال فهل كتب بيده ؟ قال العباس فظننت انه خير له ان يكتب بيده فاردت ان أقولها ثم ذكرت مكان أبي سفيان يكذبني ويرد علي

فقلت لا يكتب فوثب الحبر ونزل ردائه وقال ذبحت يهود ، وقلت يهود. قال العباس فلما رجعنا الى منزلنا ، قال أبو سفيان يأبا الفضل إن اليهود تفزع من ابن أخيك ، قلت قد رأيت ما رأيت ، فهل لك يأبا سفيان ان تؤمن به ، فان كان حقا كنت قد سبقت وان كان باطلا فمعك غيرك من اكفائك؟ قال لا أؤمن به حتى أرى الخيل في كداء ، قلت ماتقول؟ قال كلمة جاءت على فمي الا اني اعلم أن الله لا يترك خيلا تطلع من كداء . قال العباس فلما استفتح رسول الله (ص) مكة ونظرنا الى الخيل وقد طلعت من كداء ، قلت يأبا سفيان تذكر الكلمة ؟ قال لى والله إني لذاكرها فالحمد لله الذي هداني للاسلام . وهذا سياق حسن عليه البهاء والنور وضياء الصدق وان كان في رجاله من هو متكلم فيه والله أعلم .

وقد تقدم ما ذكرناه في قصة أبي سفيان مع أمية بن أبي الصلت ، وهو شبيه بهذا الباب وهو من أغرب الاخبار واحسن السياقات وعليه النور . وسيأتي أيضا قصة أبي سفيان مع هرقل ملك الروم حين سأله عن صفات رسول الله (ص) ، واحواله ، واستدلاله بذلك على صدقه ونبوته ورسالته . وقال له : كنت أعلم انه خارج ، ولكن لم أكن أظن انه فيكم ؛ ولو أعلم اني اخلص اليه لتجشمت لقيه . ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه . ولئن كان ماتقول حقا ليملكن موضع قدمي هاتين . وكذلك وقع ولله الحمد والمنة .

وقد أكثر الحافظ أبو نعيم من ايراد الآثار والاخبار عن الرهبان والاحبار والعرب . فاكثر وأطنب واحسن وأطيب رحمه الله ورضي عنه .

قصة عمرو بن مرة الجهني

قال الطبراني : حدثنا علي بن ابراهيم الخزاعي الأهوازي حدثنا عبد الله بن داود بن دلهاث بن اسماعيل بن عبد الله بن شريح بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله (ص) حدثنا أبي عن أبيه دلهاث عن أبيه اسماعيل أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه أن أباه ياسر بن سويد حدثه عن عمرو بن مرة الجهني قال : خرجت حاجا في جماعة من قومي في الجاهلية ، فرأيت في نومي وأنا بمكة ، نورا ساطعا من الكعبة حتى وصل الى جبل يثرب . واشعر جهينة . فسمعت صوتا بين النور وهو يقول : انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وبعث خاتم الانبياء . ثم اضاء اضاءة أخرى ، حتى نظرت الى قصور الحيرة وأبيض المدائن ، وسمعت صوتا من النور وهو يقول : ظهر الاسلام ، وكسرت الاصنام ، ووصلت الارحام ، فانتبهت فزعا فقلت لقومي : والله ليحدثن لهذا الحي من قريش حدث . واخبرتهم بما رأيت فلما انتهينا الى بلادنا جاءني رجل يقال له أحمد قد بعث فأتيته فاخبرته بما رأيت . فقال : ياعمرو بن مرة أنا النبي المرسل الى العباد كافة . أدعوهم الى الاسلام ، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام ، وعبادة الله

ورفض الأصنام ، وحج البيت وصيام شهر رمضان من اثنى عشر شهرا . فمن اجاب فله الجنة ، ومن عصى فله النار . فآمن ياعمرو يؤمنك الله من هول جهنم » فقلت اشهد ان لا إله الا الله وانك رسول الله آمنت بما جئت من حلال وحرام ، وان رغم ذلك كثيرا من الأقوام . ثم أنشدته أبياتا قلتها حين سمعت به . وكان لنا صنم . وكان أبى سادناً له فقمت اليه فكسرته . ثم لحقت بالنبى (ص) وانا أقول :

شهدتُ بأنّ الله حقٌّ وانني   لآلهة الأحجار أولُ تارك
وشمّرتُ عن ساق الإزار مُهاجراً   اليكَ أجوبُ القفرَ بعد الدكادك
لأصحبَ خيرَ الناس نفساً ووالداً   رسولَ مليكِ الناس فوقَ الحبائك

فقال النبى (ص) : « مرحبا بك ياعمرو بن مرة » فقلت يارسول الله ابعثنى الى قومى . لعل الله يمن عليهم بى كما من على بك فبعثنى اليهم . وقال : « عليك بالرفق والقول السديد . ولا تكن فظاً . ولا متكبراً ولا حسوداً » فذكر انه أتى قومه ، فدعاهم الى ما دعاه اليه رسول الله (ص) ، فاسلموا كلهم . الا رجلا واحداً منهم ، وانه وفد بهم الى رسول الله (ص) . فرحب بهم وحياهم . وكتب لهم كتابا هذه نسخته « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من الله على لسان رسول الله (ص) بكتاب صادق ، وحق ناطق مع عمرو بن مرة الجهنى لجهينة بن زيد : ان لكم بطون الأرض وسهولها ، وتلاع الأودية وظهورها ، تزرعون نباته وتشربون صافيه ، على ان تقروا بالخمس ، وتصلوا صلاة الخمس وفى التبيعة والصريمة ان اجتمعا وان تفرقا شاة شاة ، ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة اللبقة (١) وشهد على نبينا (ص) من حضر من المسلمين بكتاب قيس بن شماس » . وذكر شعرا قاله عمرو بن مرة فى ذلك كما هو مبسوط فى المسند الكبير وبالله الثقة وعليه التكلان .

وقال الله تعالى : (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً) قال كثيرون من السلف : لما أخذ الله ميثاق بنى آدم يوم (ألست بربكم ؟) أخذ من النبيين ميثاقا خاصاً ، وأكده مع هؤلاء الخمسة أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار الذين أولهم نوح وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد روى الحافظ أبو نعيم فى كتاب دلائل النبوة من طرق عن الوليد بن مسلم حدثنا الاوزاعى حدثنا يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة : سئل النبى (ص) متى وجبت لك النبوة ؟ قال « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » وهكذا رواه الترمذى من طريق الوليد بن مسلم . وقال حسن غريب من حديث أبى هريرة ، لا نعرفه الا من هذا الوجه .

وقال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن احمد حدثنا يعقوب بن اسحاق بن الزبير الحلبى حدثنا أبو جعفر

(١) اللبقة . كذا فى الاصل ولعلها يريد أنه لا يؤخذ فى الصدقة كرائم الاموال

النفيلي حدثنا عمرو بن واقد عن عروة بن رويم عن الصنابحي . قال قال عمر : يارسول الله ، متى جعلت نبياً ؟ قال : « وآدم منجدل في الطين » ثم رواه من حديث نصر بن مزاحم عن قيس بن الربيع عن جابر الجعفي عن الشعبي عن ابن عباس قال : قيل يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » وفي الحديث الذي أوردناه في قصة آدم حين استخرج الله من صلبه ذريته خص الانبياء بنور بين أعينهم . والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه كان على قدر منازلهم ورتبهم عند الله . وإذا كان الأمر كذلك فنور محمد (ص) كان أظهر وأكبر وأعظم منهم كلهم . وهذا تنويه عظيم وتنبيه ظاهر على شرفه وعلو قدره . وفي هذا المعنى الحديث الذي قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الاعلى بن هلال السلمي عن العرباض بن سارية . قال قال رسول الله (ص) : « اني عند الله لخاتم النبيين وان آدم لَمُنْجَدِلٌ في طينته وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبي ابراهيم وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت . وكذلك أمهات المؤمنين يرين » ورواه الليث وابن وهب عن عبد الرحمن بن مهدي ، وعبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وزاد « إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام » وقال الامام أحمد حدثنا عبدالرحمن حدثنا منصور بن سعيد عن بديل عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال قلت يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » إسناده جيد أيضاً وهكذا رواه ابراهيم بن طهمان وحماد ابن زيد وخالد الحذاء عن بديل بن ميسرة به . ورواه أبو نعيم عن محمد بن عمر بن أسلم عن محمد بن بكر بن عمرو الباهلي عن شيبان عن الحسن بن دينار عن عبدالله بن سفيان عن ميسرة الفجر قال : قلت يارسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » .

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة : حدثنا أبو عمرو بن حمدان حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم عن خليد بن دعلج وسعيد عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي (ص) في قوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) قال « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث » ثم رواه من طريق هشام بن عمار عن بقية عن سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعا مثله . وقد رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة وشيبان عن قتادة قال ذكر لنا أن رسول الله (ص) قال مثله . وهذا أثبت وأصح والله أعلم .

وهذا إخبار عن التنويه بذكره في الملأ الأعلى وانه معروف بذلك بينهم بأنه خاتم النبيين وآدم لم ينفخ فيه الروح ، لأن علم الله تعالى بذلك سابق قبل خلق السموات والارض لا محالة فلم يبق الا هذا الذي ذكرناه من الاعلام به في الملأ الاعلى والله أعلم .

وقد أورد أبو نعيم من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة الحديث المتفق عليه

« نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » وزاد أبو نعيم فى آخره : فكان (ص) آخرهم فى البعث وبه ختمت النبوة . وهو السابق يوم القيامة . لأنه أول مكتوب فى النبوة والعهد . ثم قال : ففى هذا الحديث الفضيلة لرسول الله (ص) لما أوجب الله له النبوة قبل تمام خلق آدم . ويحتمل أن يكون هذا الايجاب هو ما أعلم الله ملائكته ما سبق فى علمه وقضائه من بعثته له فى آخر الزمان وهذا الكلام يوافق ما ذكرناه ولله الحمد

وروى الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - وفيه كلام - عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال قال رسول الله (ص) : « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لى ، فقال الله : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد ؟ فقال يارب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك رفعت رأسى ، فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعلمت أنك لم تضف الى اسمك الا احب الخلق اليك . فقال الله صدقت يا آدم انه لاحب الخلق الىّ واذ قد سألتنى بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك » قال البيهقى : تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف والله أعلم .

وقد قال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرُنّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولىّ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) قال على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما : ما بعث الله نبياً من الانبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد (ص) وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه [وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه](١) وهذا تنويه وتنبيه على شرفه وعظمته فى سائر الملل وعلى ألسنة الانبياء وإعلام لهم ومنهم برسالته فى آخر الزمان . وإنه أكرم المرسلين وخاتم النبيين . وقد أوضح أمره وكشف خبره وبين سره ، وجلى مجده ومولده وبلده ابراهيم الخليل فى قوله عليه السلام حين فرغ من بناء البيت (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) فكان أول بيان أمره على الجلية والوضوح بين أهل الأرض على لسان ابراهيم الخليل أكرم الأنبياء على الله بعد محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهما وعلى سائر الانبياء . ولهذا قال الامام احمد حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج - يعنى ابن فضالة - حدثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال قلت يا نبى الله ما كان بدء امرك ؟ قال « دعوة أبى ابراهيم ، وبُشرى عيسى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام » تفرد به الامام احمد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة . وروى الحافظ أبو بكر بن أبى عاصم فى كتاب

(١) هذه الجملة ليست فى المصرية نقلا عن محمود الامام .

الموك من طريق بقية عن صفوان بن عمرو عن حبير بن حجر عن أبي مريم أن أعرابياً قال يارسول الله أي شيء كان أول أمر نبوتك ؟ قال « أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم ورأت أم رسول الله (ص) في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام »[1] . وقال الامام محمد بن اسحاق بن يسار : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله (ص) أنهم قالوا : يارسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال « دعوة أبي ابراهيم ، وبشرى عيسى . ورأت أمي حين حملت كأنه خرج منها نور أضاءت له بصرى من أرض الشام » إسناده جيد أيضاً . وفيه بشارة لأهل محلتنا أرض بصرى وأنها أول بقعة من أرض الشام خلص اليها نور النبوة ، ولله الحمد والمنة ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام وكان فتحها صلحاً في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، كما سيأتي بيانه . وقد قدمها رسول الله (ص) مرتين في صحبة عمه أبي طالب وهو ابن اثنتي عشرة سنة وكانت عندها قصة بحيرى الراهب كما بيناه . والثانية ومعه ميسرة مولى خديجة في تجارة لها . وبها مبرك الناقة التي يقال لها ناقة رسول الله (ص) بركت عليه فأثر ذلك فيها فيما يذكر . ثم نقل وبنى عليه مسجد مشهور اليوم . وهي المدينة التي أضاءت أعناق الابل عندها من نور النار التي خرجت من أرض الحجاز سنة أربع وخمسين وستمائة وفق ما أخبر به رسول الله (ص) في قوله « تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الابل ببصرى » وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقال الله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) الآية . قال الامام أحمد حدثنا اسماعيل عن الجريري عن أبي صخر العقيلي حدثني رجل من الأعراب قال : جلبت جلوبة الى المدينة في حياة رسول الله (ص) . فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه . قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله . فقال رسول الله (ص) « أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجدني في كتابك ذا صفتي ومخرجي ؟ » فقال برأسه هكذا ـ أي لا ـ فقال ابنه : إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فقال : « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم ولي كفنه والصلاة عليه . هذا إسناد جيد وله شواهد في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه . وقال أبو القاسم البغوي حدثنا عبد الواحد ابن غياث ـ أبو بحر ـ حدثنا عبدالعزيز بن مسلم حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه عن الفلتان بن عاصم

(١) هذه الجملة ليست في المصرية .

وذكر أن خالد قال : كنت جالساً عند النبي (ص) إذ شخص بصره إلى رجل فإذا يهودي عليه قميص وسراويل ونعلان . قال فجعل النبي (ص) يكلمه وهو يقول : يا رسول الله . فقال رسول الله (ص) « أتشهد أني رسول الله ؟ » قال لا . قال رسول الله (ص) « أتقرأ التوراة ؟ » قال نعم قال « أتقرأ الانجيل ؟ » قال نعم . قال « والقرآن ؟ » قال لا . ولو تشاء قرأته . فقال النبي (ص) « فيم تقرأ التوراة والانجيل ، أتجدني نبياً ؟ » قال إنا نجد نعتك ومخرجك . فلما خرجت رجونا أن تكون فينا . فلما رأيناك عرفناك انك لست به . قال رسول الله (ص) « ولم يا يهودي ؟ » قال : إنا نجده مكتوباً ، يدخل من أمته الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، ولا نرى معك إلا نفراً يسيراً . فقال رسول الله (ص) « إن أمتي لأكثر من سبعين ألفاً وسبعين ألفاً » . هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجوه .

وقال محمد بن اسحاق عن سالم مولى عبد الله بن مطيع عن أبي هريرة قال : أتى رسول الله (ص) [يهود] فقال « أخرجوا أعلمكم » فقالوا عبد الله بن صوريا ، فخلا به رسول الله (ص) ، فناشده بدينه ، وما أنعم الله به عليهم ، وأطعمهم من المن والسلوى ، وظللهم به من الغمام « أتعلمني رسول الله ؟ » قال اللهم نعم . وان القوم ليعرفون ما أعرف ، وأن صفتك ونعتك لمبين في التوراة . ولكنهم حسدوك . قال « فما يمنعك أنت ؟ » قال أكره خلاف قومي . وعسى أن يتبعوك ويسلموا فاسلم . وقال سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول كتب رسول الله (ص) إلى يهود خيبر « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صاحب موسى ، وأخيه ، والمصدق بما جاء به موسى ، ألا إن الله قال لكم يا معشر يهود وأهل التوراة ، إنكم تجدون ذلك في كتابكم : إن محمداً (رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما) . وإني أنشدكم بالله وبالذي أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسلافكم وأسباطكم المن والسلوى ، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاكم من فرعون وعمله إلا أخبرتمونا هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فان كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم ، قد تبين الرشد من الغي . وأدعوكم إلى الله وإلى نبيه (ص) » .

وقد ذكر محمد بن اسحاق بن يسار في كتاب المبتدا عن سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب الأحبار ، وروى غيره عن وهب بن منبه أن بختنصر بعد أن خرب بيت المقدس واستذل بني اسرائيل بسبع سنين رأى في المنام رؤيا عظيمة هالته فجمع الكهنة والحزار ، وسألهم عن رؤياه تلك . فقالوا ليقصها الملك حتى نخبره بتأويلها . فقال : إني نسيتها ، وإن لم تخبروني بها إلى ثلاثة أيام قتلتكم عن آخركم . فذهبوا

خائفين وجلين من وعيده . فسمع بذلك دانيال عليه السلام وهو فى سجنه . فقال السجان : اذهب اليه فقل له إن هاهنا رجلا عنده علم رؤياك وتأويلها . فذهب اليه فأعلمه فطلبه ، فلما دخل عليه لم يسجد له . فقال له ما منعك من السجود لى ؟ فقال : إن الله آتانى علماً وعلمنى وأمرنى أن لا أسجد لغيره . فقال له بختنصر إنى أحب الذين يوفون لأربابهم بالعهود . فأخبرنى عن رؤياى . قال له دانيال : رأيت صنماً عظيماً رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء ، أعلاه من ذهب ووسطه من فضة ، وأسفله من نحاس ، وساقاه من حديد ، ورجلاه من فخار ، فبينا أنت تنظر اليه قد أعجبك حسنه وإحكام صنعته قذفه الله بحجر من السماء . فوقع على قمة رأسه حتى طحنه واختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده وفخاره حتى تخيل لك أنه لو اجتمع الانس والجن على أن يميزوا بعضه من بعض لم يقدروا على ذلك . ونظرت الى الحجر الذى قذف به يربو ويعظم وينتشر حتى ملأ الأرض كلها فصرت لا ترى الا الحجر والسماء . فقال له بختنصر صدقت هذه الرؤيا التى رأيتها فما تأويلها ؟ فقال دانيال أما الصنم فأمم مختلفة فى أول الزمان وفى وسطه وفى آخره ، وأما الحجر الذى قذف به الصنم فدين يقذف الله به هذه الامم فى آخر الزمان فيظهره عليها فيبعث الله نبياً أمياً من العرب فيدوخ به الأمم والأديان كما رأيت الحجر دوخ أصناف الصنم ويظهر على الاديان والامم كما رأيت الحجر ظهر على الأرض كلها ، فيمحص الله به الحق ويزهق به الباطل ويهدى به أهل الضلالة ويعلم به الأميين ويقوى به الضعفة ويعز به الاذلة وينصر به المستضعفين . وذكر تمام القصة فى اطلاق بختنصر بنى اسرائيل على يدى دانيال عليه السلام ، وذكر الواقدى بأسانيده عن المغيرة بن شعبة فى قصة وفوده على المقوقس ملك الاسكندرية وسؤاله له عن صفات رسول الله (ص) قريباً من سؤال هرقل لابى سفيان صخر بن حرب ، وذكر أنه سأل اساقفة النصارى فى الكنائس عن صفة رسول الله (ص) وأخبروه عن ذلك وهى قصة طويلة ذكرها الحافظ أبو نعيم فى الدلائل . وثبت فى الصحيح أن رسول الله (ص) مر بمدارس اليهود فقال لهم « يامعشر اليهود اسلموا فوالذى نفسى بيده إنكم لتجدون صفتى فى كتبكم » الحديث . وقال الامام أحمد : حدثنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرنى عن صفات رسول الله (ص) فى التوراة فقال أجل والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » وحرزاً للاميين ، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل لا فظ ولا غليظ ولا صخاب فى الاسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيموا الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله الا الله يفتح به أعينا عمياً وآذانا صما وقلوبا غلفا . ورواه البخارى عن محمد بن سنان العوفى عن فليح به . ورواه أيضاً عن عبد الله ــ قيل ابن رجاء ، وقيل ابن صالح ــ عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال بن على به ولفظه قريب

من هذا وفيه زيادة . ورواه ابن جرير من حديث فليح عن هلال عن عطاء وزاد قال عطاء فلقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً ، وقال في البيوع . وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله ابن سلام قال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال ابن أسامة عن عطاء بن يسار عن ابن سلام انه كان يقول : إنا لنجد صفة رسول الله (ص) ، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا يجزي السيئة بمثلها ولكن يعفو ويتجاوز ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله يفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً . وقال عطاء بن يسار : وأخبرني الليثي أنه سمع كعب الاحبار يقول مثل ما قال ابن سلام .

قلت : وهذا عن عبد الله بن سلام اشبه ولكن الرواية عن عبد الله بن عمرو أكثر ، مع أنه كان قد وجد يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب وكان يحدث عنهما كثيراً ، وليعلم أن كثيراً من السلف كانوا يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب فهي عندهم أعم من التي انزلها الله على موسى وقد ثبت شاهد ذلك من الحديث . وقال يونس عن محمد بن اسحاق حدثني محمد بن ثابت بن شرحبيل عن ابن أبي أوفى عن أم الدرداء قالت قلت لكعب الاحبار كيف تجدون صفة رسول الله (ص) في التوراة قال نجده محمد رسول الله اسمه المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق واعطي المفاتيح فيبصر الله به أعيناً عوراً ويسمع آذاناً وقراً ويقيم به ألسناً معوجة حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يعين به المظلوم ويمنعه . وقد روي عن كعب من غير هذا الوجه . وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي الوليد الفقيه عن الحسن بن سفيان حدثنا عبدة بن مكرم حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم حدثنا حمزة بن الزيات عن سليمان الاعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) قال نودوا يا أمة محمد استجبت لكم قبل أن تدعوني واعطيتكم قبل أن تسألوني .

وذكر وهب بن منبه أن الله تعالى أوحى الى داود في الزبور يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد صادقاً سيداً لا أغضب عليه أبداً ، ولا يغضبني أبداً وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما اعطيت الانبياء ، وفرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الانبياء . الى أن قال : يا داود إني فضلت محمداً وأمته على الامم كلها . والعلم بأنه موجود في كتب أهل الكتاب معلوم من الدين ضرورة وقد دل على ذلك آيات كثيرة في الكتاب العزيز تكلمنا عليها في مواضعها ولله الحمد . فمن ذلك قوله (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من

ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) وقال تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) أي ان كان وعدنا ربنا بوجود محمد وارساله لكائن لا محالة فسبحان القدير على ما يشاء لا يعجزه شيء . وقال تعالى اخباراً عن القسيسين والرهبان (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) وفي قصة النجاشي وسلمان وعبد الله بن سلام وغيرهم كما سيأتي شواهد كثيرة لهذا المعنى ولله الحمد والمنة .

وذكرنا في تضاعيف قصص الانبياء ما تقدم الاشارة اليه من وصفهم لبعثة رسول الله (ص) ونعته وبلد مولده ودار مهاجره ونعت أمته في قصة موسى وشعيا وأرمياء ودانيال وغيرهم وقد أخبر الله تعالى عن آخر أنبياء بني اسرائيل وخاتمهم عيسى بن مريم انه قام في بني اسرائيل خطيبا قائلا لهم (إني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) . وفي الانجيل البشارة بالفارقليط والمراد محمد (ص) . وروى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن العيزار بن حرب عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله (ص) قال « مكتوب في الانجيل لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها بل يعفو ويصفح » وقال يعقوب بن سفيان حدثنا فيض البجلي حدثنا سلام بن مسكين عن مقاتل ابن حيان قال : أوحى الله عز وجل الى عيسى بن مريم جد في أمري واسمع واطع يا ابن الطاهرة البكر البتول – أنا خلقتك من غير فحل فجعلتك آية للعالمين فاياي فاعبد فبين لاهل سوران بالسريانية ؛ بلغ من بين يديك اني أنا الحق القائم الذي لا أزول صدقوا بالنبي الأمي العربي صاحب الجمل والمدرعة والعمامة – وهي التاج – والنعلين والهراوة – وهي القضيب – الجعد الرأس الصلت الجبين المقرون الحاجبين الأنجل العينين الاهدب الاشفار الأدعج العينين الاقنى الانف الواضح الخدين الكث اللحية عرقه في وجهه كاللؤلؤ ريح المسك ينضح منه كأن عنقه ابريق فضة وكان الذهب يجري في تراقيه له شعرات من لبته الى سرته تجري كالقضيب ليس في بطنه شعر غيره شثن الكف والقدم اذا جاء مع الناس غمرهم واذا مشى كأنما يتقلع من الصخر وينحدر من صبب ذو النسل القليل – وكأنه أراد الذكور من صلبه – هكذا رواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق يعقوب بن سفيان . وروى البيهقي عن عثمان بن الحكم بن رافع بن سنان حدثني بعض عمومتي وآبائي أنهم كانت عندهم ورقة يتوارثونها في الجاهلية حتى جاء الله بالاسلام وبقيت عندهم فلما قدم رسول الله (ص) المدينة ذكروها وأتوه بها مكتوب فيها بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب . هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان يبلون أطرافهم ويأتزرون على

أوساطهم ويخوضون البحور الى أعدائهم فيهم صلاة لو كانت فى قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان ، وفى عاد ما أهلكوا بالريح ، وفى ثمود ما أهلكوا بالصيحة : بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين فى تباب .
ثم ذكر قصة أخرى قال فيجب رسول الله (ص) فلما قرأت عليه فيها .

وذكرنا عند قوله تعالى فى سورة الأعراف (الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) قصة هشام بن العاص الاموى حين بعثه الصديق فى سرية الى هرقل يدعوه الى الله عز وجل . فذكر أنه أخرج لهم صور الانبياء فى رقعة من آدم الى محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهم أجمعين على النعت والشكل الذى كانوا عليه . ثم ذكر أنه لما أخرج صورة رسول الله (ص) قام قائما إكراما له . ثم جلس وجعل ينظر إليها ويتأملها . قال فقلنا له من أين لك هذه الصورة ؟ فقال : إن آدم سأل ربه أن يريه جميع الانبياء من ذلك ، فانزل عليه صورهم ، فكان فى خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين ، فدفعها الى دانيال . ثم قال : اما والله إن نفسي قد طابت بالخروج من ملكى وأنى كنت عبداً لاشركم ملكة حتى أموت . ثم أجازنا فاحسن جائزتنا وسرحنا . فلما أتينا أبا بكر الصديق فحدثناه بما رأينا وما أجازنا وما قال لنا ، قال فبكى وقال : مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ثم قال أخبرنا رسول الله (ص) أنهم واليهود يجدون نعت محمد عندهم . رواه الحاكم بطوله فليكتب ها هنا من التفسير . ورواه البيهقى فى دلائل النبوة .

وقال الأموى : حدثنا عبد الله بن زياد عن ابن اسحاق . قال وحدثنى يعقوب بن عبد الله بن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه عن جده عمرو بن أمية قال : قدمت برقيق من عند النجاشى أعطانيهم فقالوا لى ياعمرو لو رأينا رسول الله لعرفناه من غير أن تخبرنا ، فمر أبو بكر فقلت أهو هذا ؟ قالوا لا ، فمر عمر فقلت أهو هذا ؟ قالوا لا فدخلنا الدار فمر رسول الله (ص) فنادونى ياعمرو هذا رسول الله (ص) فنظرت فاذا هو هو من غير أن يخبرهم به أحد ، عرفوه بما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم وقد تقدم انذار سبأ لقومه وبشارته لهم بوجود رسول الله (ص) فى شعر أسلفناه فى ترجمته فأغنى عن إعادته ، وتقدم قول الحبرين من اليهود لتبع اليمانى حين حاصر أهل المدينة إنها مهاجر نبى يكون فى آخر الزمان فرجع عنها ونظم شعراً يتضمن السلام على النبى (ص) .

قصة سيف بن ذى يزن وبشارته بالنبى

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتابه هواتف الجان : حدثنا على بن حرب حدثنا احمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عمرو بن بكر - هو ابن بكار القعنبى - عن احمد بن القاسم عن محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن عبد الله بن عباس . قال : لما ظهر سيف بن ذى يزن قال ابن المنذر - واسمه النعمان بن قيس - على الحبشة وذلك بعد مولد رسول الله (ص) بسنتين أتاه وفود

العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من حسن بلائه ، وأتاه فيمن أتاه وفود قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس أبى عبد الله [1] وعبد الله بن جدعان ، وخويلد بن أسد فى أناس من وجوه قريش فقدموا عليه صنعاء ، فاذا هو فى رأس غمدان الذى ذكره أمية أبى الصلت :

واشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مرتفعاً　　فى رأسِ غُمدانَ داراً منك محلالا

فدخل عليه الآذن ، فاخبره بمكانهم فأذن لهم ، فدنا عبد المطلب فاستأذنه فى الكلام فقال له ان كنت ممن يتكلم بين يدى فقد أذنا لك ، فقال له عبد المطلب ان الله قد أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعباً منيعا ، شامخا باذخا ، وانبتك منبتا طابت أرومته، وعذبت جرثومته ، وثبت اصله ، وبسق فرعه فى اكرم موطن واطيب معدن فأنت ـ ابيت اللعن ـ ملك العرب وربيعها الذى تخصب به البلاد ، ورأس العرب الذى له تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى يلجأ اليه العباد . وسلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف . فلن يخمد من هم سلفه ولن يهلك من أنت خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، اشخصنا اليك الذى أبهجك من كشف الكرب الذى قد فدحنا ، وفد التهنئة لا وفد المرزئة . قال: وايهم أنت أيها المتكلم ؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم . قال ابن أختنا ؟ قال نعم ، قال ادن فادناه ، ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال مرحبا وأهلا وناقة ورحلا ، ومستناخا سهلا ، وملكا ربحلا [2] يعطى عطاء جزلا . قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فانتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما اقمتم والحباء إذا ظعنتم ، ثم نهضوا الى دار الكرامة والوفود ، فاقاموا شهراً لا يصلون اليه ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه لهم انتباهة فارسل الى عبد المطلب فادنى مجلسه واخلاه ثم قال: يا عبد المطلب إنى مفض اليك من سر علمى ما لو يكون غيرك لم أبح به . ولكنى رأيتك معدنه فاطلعتك طلعه فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه ، فان الله بالغ أمره ، انى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اخترناه لانفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبراً عظيما ، وخطراً جسيما فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة . فقال عبد المطلب أيها الملك مثلك سر وبر ، فما هو فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر ؟ قال إذا ولد بتهامة ، غلام به علامة ، بين كتفيه شامة كانت له الامامة ، ولكم به الزعامة الى يوم القيامة . قال عبد المطلب ـ ابيت اللعن ـ لقد أبت بخير ما آب به وافد ، ولولا هيبة الملك واجلاله واعظامه لسألته من بشارته إياى ما ازداد به سرورا . قال ابن ذى يزن هذا حينه الذى يولد فيه أوقد ولد واسمه محمد . يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه . والدناه مراراً والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا انصاراً يعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستبيح بهم كرائم الأرض ، يكسر الأوثان ويخمد النيران ، يعبد الرحمن ويدحر

---

(١) كلمة أبى عبد الله . غير موجودة فى الملاحل . (٢) الرجل الكثير العطاء .

الشيطان ، قوله فصل وحكمه عدل يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله . فقال عبد المطلب أيها الملك ـ عز جدك وعلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمرك . فهذا نجارى فهل الملك سارلى بافصاح فقد أوضح لى بعض الايضاح . فقال ابن ذى يزن : والبيت ذى الحجب والعلامات على النقب انك ياعبد المطلب لجده غير كذب ، فخر عبد المطلب ساجداً فقال ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك . فقال أيها الملك كان لى ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقا فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب فجاءت بغلام سميته محمداً فمات أبوه وأمه وكفلته انا وعمه . قال ابن ذى يزن إن الذى قلت لك كما قلت فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود فانهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فانى لست آمن ان تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة فيطلبون له الغوائل وينصبون له الحبائل فهم فاعلون أو ابناؤهم ولولا انى اعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى اصير بيثرب دار مملكته فانى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق ان بيثرب استحكام امره وأهل نصرته وموضع قبره ولولا انى أقيه الآفات واحذر عليه العاهات لاعلنت على حداثة سنه أمره ولأوطأت اسنان العرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك اليك عن غير تقصير بمن معك . قال ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشرة اماء وبمائة من الابل وحلتين من البرود وبخمسة ارطال من الذهب وعشرة ارطال فضة وكرش مملوء عنبراً وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له : اذا حال الحول فأتنى فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحول ، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك فانه الى نفاد ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذكره وفخره وشرفه ، فاذا قيل له متى ذلك قال سيعلم ولو بعد حين قال وفى ذلك يقول أمية بن عبد شمس :

جَلبْنا النُّصحَ تحقُبه المطايا ... على أكوارِ أجمالٍ ونُوقِ
مغلْغَلةٌ مراتعُها تعالَى ... إلى صنعاءَ من فجّ عميقِ (١)
تؤمُّ بنا ابنَ ذي يَزَنٍ وتُفرى ... بذاتِ بُطونها ذمَّ الطريقِ
وترعَى من مَخَايله بُروقا ... مُواصِلةَ الوميضِ الى بُروقِ
فلمّا واصلتْ صَنعاءَ حلّتْ ... بدارِ الملْكِ والحسَبِ العريقِ

وهكذا رواه الحافظ ابو نعيم فى الدلائل من طريق عمرو بن بكير بن بكار القعنبى ثم قال أبو نعيم أخبرت عن أبى الحسن على بن ابراهيم بن عبد ربه بن محمد بن عبد العزيز بن عفير بن عبد العزيز بن السفر بن عفير بن زرعة بن سيف بن ذى يزن حدثنى أبى أبو يزن ابراهيم حدثنا عمى احمد بن محمد ابو

(١) كذا بالاصول ولم نجد هذا الشعر فى الدلائل ولا فى غيره من المراجع .

رواه به حدثنا عمى محمد بن عبد العزيز حدثنى عبد العزيز بن عمير عن أبيه عن زرعة بن سيف بن ذى يزن الحميرى قال لما ظهر جدى سيف بن ذى يزن على الحبشة . وذكره بطوله . وقال أبو بكر الخرائطى حدثنا أبو يوسف يعقوب بن اسحاق القلوسى حدثنا العلاء بن الفضل بن أبى سوية أخبرنى أبى عن أبيه عبد الملك بن أبى سوية عن جده أبى سوية عن أبيه خليفة قال سألت محمد بن عثمان بن ربيعة بن سواة ابن خثعم بن سعد فقلت كيف سماك أبوك محمداً ؟ فقال سألت أبى عما سألتنى عنه ، فقال خرجت رابع أربعة من بنى تميم أنا منهم ، وسفيان بن مجاشع بن دارم ، وأسامة بن مالك بن جندب بن العقيد ، ويزيد ابن ربيعة بن كنانة بن حرقوص بن مازن ، ونحن نريد ابن جفنة ملك غسان فلما شارفنا الشام نزلنا على غدير عليه شجرات فتحدثنا فسمع كلامنا راهب ، فأشرف علينا فقال إن هذه لغة ما هى بلغة هذه البلاد فقلنا نعم نحن قوم من مضر ، قال من أى المضرين ؟ قلنا من خندف قال أما إنه سيبعث وشيكا نبى خاتم النبيين ، فسارعوا اليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا . فقلنا له ما اسمه ؟ قال : اسمه محمد . قال فرجعنا من عند ابن جفنة فولد لكل واحد منا ابن فسماه محمداً . يعنى ان كل واحد منهم طمع فى أن يكون هذا النبى المبشر به ولده .

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطى : حدثنا عبد الله بن أبى سعد حدثنا حازم بن عقال بن الزهر بن حبيب بن المنذر بن أبى الحصين بن السموأل بن عاديا حدثنى جابر بن جدان بن جميع بن عثمان بن سماك بن الحصين بن السموأل بن عاديا . قال لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر الوفاة اجتمع اليه قومه من غسان فقالوا إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى وكنا نأمرك بالتزوج فى شبابك فتأبى وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين، وليس لك ولد غير مالك فقال : لن يهلك هالك ترك مثل مالك إن الذى يخرج النار من الوثيمة [1] قادر أن يجعل لمالك نسلا ورجالا بسلا وكل إلى الموت ثم أقبل على مالك وقال : أى بنى المنية ولا الدنية ، العقاب ولا العتاب ، التجلد ولا التلدد [2] القبر خير من الفقر ؛ إنه من قل ذل ، ومن كر فر ، من كرم الكريم الدفع عن الحريم . والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك ، فاذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصطبر ، وكلاهما سينحسر ، ليس يثبت منهما الملك المتوج ، ولا اللئيم المعلهج ، سلم ليومك حياك ربك ، ثم أنشأ يقول :

شهدتُ السبايا يومَ آلِ محرّقٍ ... وأدركَ أمرى صيحةَ الله بالحِجْر
فلم أرَ ذا مُلكٍ من الناسِ واحداً ... ولا سُوقةً إلا إلى الموتِ والقبر
فعلّ الذى أردى ثموداً وجُرهماً ... سيعقِبُ لى نَسْلاً على آخرِ الدهر

---

(١) الوثيمة الحجارة ، يريد ما يكون من شرر إذا قدحت الحجارة بالزند .

(٢) فى الامالى لابى على القالى هذه القصة بسياق غير هذا وزيادة ونقصان .

تقرّبهم من آل عمرو بن عامرٍ · عيونٌ لدى الداعي إلى طَلَب الوِتْر
فإن لم تكُ الايام أبلين جِدّتي · وشيّبن رأسي والمشيبُ مع العُمر
فإنّ لنا رباً علا فوقَ عرشه · عليماً بما يأتي من الخير والشر
ألم يأتِ قومي أن لله دعوةً · يفوزُ بها أهلُ السعادة والبر
إذا بُعثَ المبعوثُ من آل غالبٍ · بمكةَ فيما بين مكةَ والحِجْر
هنالك فابغوا نَصرَهُ ببلادكم · بني عامرٍ إن السعادةَ في النصر

قال ثم قضى من ساعته .

باب في هواتف الجان

وقد تقدم كلام شق وسطيح لربيعة بن نصر ملك اليمن في البشارة بوجود رسول الله (ص)، رسول ذكي يأتي اليه الوحي من قبل العلي . وسيأتي في المولد قول سطيح لعبد المسيح : إذا كثرت التلاوة وغاضت بحيرة ساوة وجاء صاحب الهراوة يعني بذلك رسول الله (ص) كما سيأتي بيانه مفصلا (١)

وقال البخاري حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي حدثني ابن وهب حدثني عمرو -هو محمد بن زيد- أن سالماً حدثه عن عبدالله بن عمر قال ما سمعت عمر يقول لشيء قط إني لأظنه إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس إذ مر به رجل جميل ، فقال لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم ، عليّ الرجل ، فدعي به فقال له ذلك فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجلا مسلماً . قال فاني أعزم عليك إلا ما أخبرتني قال كنت كاهنهم في الجاهلية ، قال فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال بينما أنا في السوق يوماً جاءتني أعرف فيها الفزع . فقالت :

ألم ترَ الجنّ وإبلاسَها · ويأسَها من بعدِ أنكاسِها؟
ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر صدق بينا أنا نائم عند آلهتهم جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول : ياجليح أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول لا إله إلا الله فوثب القوم ، فقلت لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا . ثم نادى ياجليح أمر نجيح ، رجل فصيح يقول لا إله إلا الله ، فقمت فما نشبنا أن قيل هذا نبي . تفرد به البخاري .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب الأزدي . ويقال السدوسي من أهل السراة من جبال البلقاء

(١) من أول الباب إلى هنا كله تفردت به النسخة الحلبية ولم ترد في المصرية .

له صحبة ووفادة . قال أبو حاتم وابن منده روى عنه سعيد بن جبير ، وأبو جعفر محمد بن علي ، وقال البخاري له صحبة . وهكذا ذكره في أسماء الصحابة احمد بن روح البرذعي الحافظ ، والدارقطني ، وغيرهما وقال الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري سواد بن قارب بالتخفيف وقال عثمان الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي كان من أشراف أهل اليمن ذكره أبو نعيم في الدلائل . وقد روى حديثه من وجوه أخر مطولة بالبسط من رواية البخاري .

وقال محمد بن اسحاق : حدثني من لا أتهم عن عبد الله بن كعب مولى عثمان بن عفان انه حدث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينا هو جالس في الناس في مسجد رسول الله «ص» اذ أقبل رجل من العرب داخل المسجد يريد عمر بن الخطاب . فلما نظر اليه عمر قال ان الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد أو لقد كان كاهنا في الجاهلية فسلم عليه الرجل ثم جلس ، فقال له عمر : هل اسلمت ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . قال فهل كنت كاهنا في الجاهلية ؟ فقال الرجل سبحان الله يا أمير المؤمنين ، لقد خلت فيّ واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت ما وليت . فقال عمر : اللهم غفرا قد كنا في الجاهلية على شر من هذا نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان حتى أكرمنا الله برسوله وبالاسلام . قال نعم والله يا أمير المؤمنين لقد كنت كاهنا في الجاهلية قال فاخبرني ما جاءك به صاحبك . قال جاءني قبل الاسلام بشهر أو شيعه [1] فقال : ألم تر الى الجن وابلاسها ، وإياسها من دينها ، ولحوقها بالقلاص واحلاسها .

قال ابن اسحاق : هذا الكلام سجع ليس بشعر . [قال عبد الله بن كعب] .

فقال عمر عند ذلك يحدث الناس : والله اني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش قد ذبح له رجل من العرب عجلا ، فنحن ننتظر قسمه ان يقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتا ما سمعت صوتا قط أشد منه ، وذلك قبل الاسلام بشهر أو شيعه يقول : يا ذريح أمر نجيح رجل يصيح يقول لا إله إلا الله . قال ابن هشام ويقال رجل يصيح بلسان فصيح يقول لا إله إلا الله قال وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر :

عجبت للجنّ وابلاسها ... وشدّها العيسَ بأحلاسها

تهوي الى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنو الجنّ كأنجاسها

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا يحيى بن حجر بن النعمان الشامي حدثنا علي بن منصور الأنباري عن محمد بن عبد الرحمن الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي . قال بينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم جالس إذ مر به رجل . فقيل يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار ؟ قال ومن هذا ؟ قالوا هذا سواد بن قارب الذي أتاه رئيه بظهور رسول الله «ص» ، قال فارسل اليه عمر . فقال له أنت سواد

(١) أي دونه بقليل ، وشيع كل شيء ما هو له تبع .

بن قارب قال نعم . قال فأنت على ما كنت عليه من كهانتك ؟ قال فغضب . وقال ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين ، فقال عمر ياسبحان الله ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، فأخبرني ما أنبأك رئيك بظهور رسول الله (ص) ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني رئيي فضربني برجله وقال قم ياسواد بن قارب ، واسمع مقالتي واعقل ان كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ثم أنشأ يقول :

عجبتُ للجنّ وتطلابها   وشدّها العيسَ بأقتابها
تهوي إلى مكةَ تبغي الهدى   ما صادقُ الجنّ ككذّابها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ   ليسَ قُدّامها كأذنابها

قال قلت دعني أنام فأني أمسيت ناعساً . قال فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال قم ياسواد بن قارب واسمع مقالتي ، واعقل إن كنت تعقل ، إنه بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبتُ للجنّ وتجبارها   وشدّها العيسَ بأكوارها
تهوي الى مكةَ تبغي الهدى   مامؤمنو الجنّ ككفّارها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ   بينَ روابيها وأحجارها

قال قلت دعني أنام ، فاني أمسيت ناعساً ، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله . وقال : قم ياسواد بن قارب ، فاسمع مقالتي ، واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو الى الله والى عبادته ثم أنشأ يقول :

عجبتُ للجنّ وتحساسها   وشدّها العيسَ بأحلاسها
تهوي إلى مكةَ تبغي الهدى   ما خيّرُ الجنّ كأنجاسها
فارحلْ إلى الصفوة من هاشمٍ   واسمُ بعينيكَ إلى راسها

قال فقمت وقلت : قد امتحن الله قلبي ، فرحلت ناقتي ثم أتيت المدينة ـ يعني مكة ـ فاذا رسول الله (ص) في أصحابه فدنوت فقلت : اسمع مقالتي يارسول الله . قال هات فأنشأت أقول :

أتاني نجيي بعدَ هَدْءٍ ورقدةٍ   ولم يكُ فيما قد تلوتُ بكاذبِ
ثلاثَ ليالٍ قولُه كلّ ليلةٍ   أتاكَ رسولٌ من لؤيّ بن غالبِ
فشمّرتُ عن ذيلي الازارَ ووسّطتْ   بيَ الدعلبُ الوجناءُ غبرَ السباسبِ
فأشهدُ أنَّ الله لا شيءَ غيرُه   وأنكَ مأمونٌ على كلّ غائبِ
وأنكَ أدنى المرسلين وسيلةً   إلى الله يابنَ الأكرمين الأطايبِ

فَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لاذُو شَفَاعَةٍ ... وإن كان فيما جاء شَيْبُ الذوائب

وكُنْ لى شفيعاً يومَ لاذو شفاعةٍ ... سواكَ بمغنٍ عن سوادِ بن قارب

قال ففرح رسول الله (ص) وأصحابه بمقالتى فرحاً شديداً ، حتى رؤى الفرح فى وجوههم . قال فوثب اليه عمر بن الخطاب فالتزمه وقال قد كنت أشتهى أن أسمع هذا الحديث منك فهل يأتيك رئيك اليوم ؟ قال أما منذ قرأت القرآن فلا ونعم العوض كتاب الله من الجن . ثم قال عمر : كنا يوماً فى حى من قريش يقال لهم آل ذريح وقد ذبحوا عجلالهم والجزار يعالجه ، إذ سمعنا صوتا من جوف العجل – ولا نرى شيئا – قال يا آل ذريح ، أمر نجيح صائح يصيح بلسان فصيح يشهد أن لا إله إلا الله ، وهذا منقطع من هذا الوجه ويشهد له رواية البخارى . وقد تساعدوا على أن السامع الصوت من العجل هو عمر بن الخطاب والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتابه الذى جمعه فى هواتف الجان : حدثنا أبو موسى عمران بن موسى المؤدب حدثنا محمد بن عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى حدثنا سعيد بن عبيد الله الوصابى عن أبيه عن أبى جعفر محمد بن على . قال : دخل سواد بن قارب السدوسى على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال نشدتك بالله ياسواد بن قارب ، هل تحسن اليوم من كهانتك شيئاً ؟ فقال : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل ما استقبلتنى به قال سبحان الله ياسواد ما كنا عليه من شركنا أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، والله ياسواد لقد بلغنى عنك حديث إنه لعجيب من العجب ، قال إى والله يا أمير المؤمنين إنه لعجب من العجب . قال فحدثنيه قال كنت كاهناً فى الجاهلية ، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ أتانى نجيى فضربنى برجله . ثم قال ياسواد اسمع أقل لك ، قلت هات قال :

عجبتُ للجنّ وأنجاسها [(١)] ... ورَحْلِها العيسَ بأحلاسها

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... مامؤمنوها مثلُ أرجاسها

فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشم ... واسمُ بعينيكَ إلى رأسها

قال فنمت ولم أحفل بقوله شيئاً ، فلما كانت الليلة الثانية أتانى فضربنى برجله ثم قال لى قم ياسواد ابن قارب اسمع أقل لك ، قلت هات . قال :

عجبتُ للجنّ وتطلابها ... وشدّها العيسَ بأقتابها

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما صادقُ الجنّ ككذابها

فارحلْ إلى الصفوة من هاشم ... ليس المقاديمُ كأذنابها

(١) وفى المصرية وإبحاسها . وفى ابن هشام وإبلاسها .

قال فحرك قوله منى شيئاً ونمت فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فضربنى برجله ثم قال يا سواد بن قارب أتعقل أم لا تعقل ؟ قلت وما ذاك ؟ قال ظهر بمكة نبى يدعو إلى عبادة ربه فالحق به ، اسمع اقل لك . قلت هات قال :

عجبتُ للجنّ وتنفارها ورَحْلها العيسَ بأكوارها
تهوي إلى مكةَ تبغي الهدى ما مؤمنو الجنّ ككفارها
فارْحل إلى الصفوةِ من هاشمٍ بينَ روابيها وأحجارها

قال فعلمت أن الله قد أراد بي خيراً . فقمت إلى بردة لى ففتقتها ولبستها ووضعت رجلى فى غرز ركاب الناقة . وأقبلت حتى انتهيت إلى النبى (ص) فعرض على الاسلام فأسلمت ، وأخبرته الخبر فقال « إذا اجتمع المسلمون فأخبرهم » فلما اجتمع المسلمون قمت فقلت :

أتاني نجيّي بعدَ هَدْءٍ ورَقْدةٍ ولم يكُ فيما قد بَلَوْتُ بكاذب
ثلاثَ ليالٍ قولُه كلَّ ليلةٍ أتاكَ رسولٌ من لؤيِّ بن غالب
فشمرتُ عن ذيلي الازارَ ووسَّطت بيَ الدعلبُ الوجناءُ غُبْرَ السباسب[1]
وأعلم أن اللهَ لا ربَّ غيرُه وأنكَ مأمونٌ على كلِّ غائب
وأنكَ أدنى المرسَلين وسيلةً إلى الله يا ابنَ الأكرمينَ الاطايب
فمُرنا بما يأتيكَ يا خيرَ مرسَلٍ وإن كانَ فيما جاءَ شَيْبُ الذوائب[2]

قال فسر المسلمون بذلك ، فقال عمر هل تحس اليوم منها بشيء ؟ قال أما اذ علمنى الله القرآن فلا وقد رواه محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن عمر بن حفص . قال لما ورد سواد بن قارب على عمر قال : يا سواد بن قارب ما بقى من كهانتك ؟ فغضب وقال ما أظنك يا أمير المؤمنين استقبلت أحداً من العرب بمثل هذا ، فلما رأى ما فى وجهه من الغضب ، قال : أفطر سوّاد للذى كنا عليه قبل اليوم من الشرك أعظم . ثم قال يا سواد حدثنى حديثاً كنت أشتهى أسمعه منك ، قال نعم ، بين أنا فى ابل لى بالسراة ليلا وأنا نائم وكان لى نجيى من الجن أتانى فضربنى برجله فقال لى قم يا سواد بن قارب فقد ظهر بتهامة نبى يدعو الى الحق والى طريق مستقيم ، فذكر القصة كما تقدم وزاد فى آخر الشعر :

وكن لى شفيعا يوم لا ذو قرابة سواك بمغن عن سواد بن قارب[3]

---

(١) كذا فى الأصلين . والذى فى السهيلى :
فرفّعتُ اذيالَ الإزارِ وشمّرتْ بيَ العِرمِسُ الوَجْناءُ هَولَ السَّباسِبِ
(٢) فى السهيلى: فمرنا بما يأتيكَ من وَحْيِ رَبِنا وانْ كانَ فيما جئتَ شَيْبُ الذوائب
(٣) فى السهيلى: بمغن فتيلاً عن سواد بن قارب .

فقال رسول الله (ص.ع): « سر في قومك وقل هذا الشعر فيهم » ..

ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن الحكم بن يعلى بن عطاء المحاربي عن عباد بن عبدالصمد عن سعيد بن جبير قال أخبرني سواد بن قارب الازدي . قال : كنت نائما على جبل من جبال السراة فأتاني آت فضربني برجله ـ وذكر القصة أيضاً .

ورواه أيضا من طريق محمد بن البراء عن أبي بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن البراء . قال قال سواد بن قارب : كنت نازلا بالهند فجاءني رئيي ذات ليلة فذكر القصة . وقال بعد انشاد الشعر الأخير فضحك رسول الله (ص.) حتى بدت نواجذه وقال : « أفلحت يا سواد » .

وقال أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة [1] حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدثنا عبد الرحمن بن الحسن حدثنا علي بن حرب حدثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب عن أبيه عن عبد الله العماني . قال كان منا رجل يقال له مازن بن الغضوب يسدن صنما بقرية يقال لها سمايا ، من عمان ، وكانت تعظمه بنو الصامت وبنو حطامة ومهرة وهم اخوال مازن . أمه زينب بنت عبد الله بن ربيعة بن خويص [2] أحد بني نمران قال مازن : فعترنا يوما عند الصنم عتيرة ـ وهي الذبيحة [3] ـ فسمعت صوتا من الصنم يقول : يامازن اسمع تسر ، ظهر خير وبطن شر ، بعث نبي من مضر ، بدين الله الاكبر ، فدع نحيتا من حجر . تسلم من حر سقر . قال ففزعت لذلك فزعاً شديداً. ثم عترنا بعد أيام عتيرة أخرى ، فسمعت صوتا من الصنم يقول : اقبل الى اقبل ، تسمع مالا تجهل ، هـذا نبي مرسل ، جاء بحق منزل ، فآمن به كي تعدل عن حر نار تشعل وقودها الجندل . قال مازن : فقلت إن هذا لعجب وان هذا لخير يراد بي وقدم علينا رجل من الحجاز فقلت ما الخبر وراءك ؟ فقال ظهر رجل يقال له أحمد ، يقول لمن أتاه أجيبوا داعي الله ، فقلت هـذا نبأ ما سمعت ، فثرت الى الصنم فكسرته جـذاذا وركبت راحلتي حتى قدمت على رسول الله (ص.) فشرح الله صدري للاسلام ، فأسلمت ، وقلت :

كسَرتُ بَاجِرَ[4] أجذاذاً وكانَ لنا ... رَبّاً نُطيفُ به ضلاً بتضلال

فالهاشميّ هَدانا مِن ضَلالتنا ... ولم يكنْ دينُه مني على بال

يا راكباً بلّغنْ عَمراً وإخوتَها ... إني لِمَنْ قالَ ربّي باجرٌ قالي

يعني بعمرو الصامت واخوتها حطامة . فقلت يا رسول الله إني امرؤ مولع بالطرب وبالهلوك من النساء وشرب الخمر . وألحت علينا السنون فاذهبن الأموال واهزلن السراري وليس لي ولد ، فادعو

(١) هذه القصة كانت مؤخرة في الحلبية . (٢) في الدلائل لابي نعيم حويص بالحاء المهملة .

(٣) شاة تذبح في رجب أو ذبيحة تذبح للاصنام فيصب دمها على رأسها . من النهاية .

(٤) وفي الدلائل : بلعرا بالحاء . نقلا عن عمود الامام .

الله أن يذهب عنى ما أجد ويأتينا بالحيا ، ويهب لى ولدا فقال النبي (ص) : « اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن ، وبالحرام الحلال وبالاثم وبالعهر عفة وآته بالحيا وهب له ولدا » قال فاذهب الله عنى ما أجد واخصبت عمان وتزوجت أربع حرائر وحفظت شطر القرآن : ووهب لى حيان بن مازن وأنشأ يقول :

اليـكَ رسولَ الله خبّتْ مطيتي ... تجوبُ الفيافي من عمان الى العرج
لتشفع لي ياخير من وطئ الحصى ... فيغفرلي ربي فأرجعَ بالفَلَج
الى معشرٍ خالفتُ في الله دينَهم ... فلا رأيهم رأيي ولا شَرْجُهم شرجي
وكنتُ امرءا بالخمر والعهر مولعاً ... شبابيَ حتى آذنَ الجسمَ بالنهج .
فبدَّلني بالخمر خوفاً وخشيةً ... وبالعهر إحصاناً فحصَّن لى فرجي
فاصبحت همي في الجهاد ونيّتي ... فلله ماصومي ولله ما حجّي

قال فلما أتيت قومى انبونى وشتمونى ، وأمروا شاعرا لهم فهجانى ، فقلت إن رددت عليـه فانما اهجو نفسى . فرحلت عنهم فأتتنى منهم زلفة عظيمة وكنت القيم بامورهم فقالوا يا ابن عم : عبنا عليك أمرا وكرهنا ذلك فان أبيت ذلك فارجع وقم بأمورنا وشأنك وما تدين به . فرجعت معهم وقلت :

لَبُغضكمُ عندنا مرّ مذاقته ... وبغضنا عندكم يا قومَنا لَبَنُ
لا يفطن الدهرُ ان بثّتْ معائبكم ... وكلّكم حينَ يُثْنى عيبُنا فطن
شاعرنا مفحَم عنكمْ وشاعركمْ ... في حـدبنا مبلغٌ في شتمنا لَسِن
ما في القلوب عليـكم فاعلموا وغر ... وفي قلوبكمُ البغضاءُ والإحَن

قال مازن : فهداهم الله بعد الى الاسلام جميعا .

وروى الحافظ أبونعيم من حديث عبدالله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال إن أول خبر كان بالمدينة بمبعث رسول الله (ص) ان امرأة بالمدينة كان لها تابع من الجن ، فجاء فى صورة طائر أبيض فوقع على حائط لهم ، فقالت له لم لا تنزل الينا فتحدثنا ونحدثك ، وتخبرنا ونخبرك ؟ فقال لها إنه قد بعث نبي بمكة حرم الزنا ومنع منا القرار .

وقال الواقدى : حدثنى عبدالرحمن بن عبدالعزيز عن الزهرى عن على بن الحسين . قال : ان أول خبر قدم المدينة عن رسول الله (ص) ان امرأة تدعى فاطمة كان لها تابع ، فجاءها ذات يوم ، فقام على الجدار فقالت ألا تنزل ؟ فقال لا انه قد بعث الرسول الذى حرم الزنا .

وارسله بعض التابعين أيضاً وسماه بابن لوذان وذكر انه كان قد غاب عنها مدة ، ثم لما قدم عاتبته فقال انى جئت الرسول فسمعته يحرم الزنا فعليك السلام .

وقال الواقدى : حدثنى محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة . قال قال عثمان بن عفان :

خرجنا فى عير الى الشام - قبل أن يبعث رسول الله ص - فلما كنا بأفواه الشام - وبها كاهنة - فتعرضتنا ، فقالت أتانى صاحبى فوقف على بابى : فقلت ألا تدخل فقال لا سبيل الى ذلك ، خرج أحمد وجاء أمر لا يطاق ، ثم انصرفت فرجعت الى مكة فوجدت رسول الله ص ، قد خرج بمكة يدعو الى الله عز وجل

وقال الواقدى : حدثنى محمد بن عبد الله الزهرى . قال : كان الوحى يسمع فلما كان الاسلام منعوا وكانت امرأة من بنى أسد يقال لها سعيرة لها تابع من الجن ، فلما رأى الوحى لا يستطاع أتاها فدخل فى صدرها فضج فى صدرها فذهب عقلها فجعل يقول من صدرها : وضع العناق ومنع الرفاق وجاء أمر لا يطاق واحمد حرم الزنا .

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطى : حدثنا عبد الله بن محمد البلوى - بمصر - حدثنا عمارة بن زيد حدثنا عيسى بن يزيد عن صالح بن كيسان عن حدثه عن مرداس بن قيس الدوسى قال حضرت النبى ص - وقد ذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه - فقلت يا رسول الله قد كان عندنا فى ذلك شيء أخبرك أن جارية منا يقال لها الخلصة لم يعلم عليها إلا خيراً ، إذ جاءتنا فقالت يا معشر دوس العجب العجب لما أصابنى ، هل علمتم إلا خيراً ؟ قلنا وما ذاك ؟ قالت انى لفى غنمى إذ غشيتنى ظلمة ووجدت كحس الرجل مع المرأة فقد خشيت أن أكون قد حبلت . حتى إذا دنت ولادتها وضعت غلاما أغضف له أذنان كأذنى الكلب فمكث فينا حتى انه ليلعب مع الغلمان اذ وثب وثبة وألقى إزاره وصاح بأعلى صوته وجعل يقول : يا ويلة يا ويلة : يا عولة يا عولة ، يا ويل غنم ، يا ويل فهم ، من قابس النار . الخيل والله وراء العقبة ، فيهن فتيان حسان نجبة . قال فركبنا وأخذنا للاداة وقلنا يا ويلك ما ترى قال [هل] من جارية طامث فقلنا ومن لنا بها ؟ فقال شيخ منا هى والله عندى عفيفة الأم فقلنا فعجلها فأتى بالجارية وطلع الجبل وقال للجارية اطرحى ثوبك واخرجى فى وجوههم ، وقال للقوم اتبعوا أثرها ، وقال لرجل منا يقال له احمد بن حابس يا احمد بن حابس عليك أول فارس . فحمل احمد فطعن أول فارس فصرعه وانهزموا فغنمناهم . قال فابتنينا عليهم بيتاً وسميناه ذا الخلصة ، وكان لا يقول لنا شيئاً إلا كان كما يقول حتى إذا كان مبعثك يا رسول الله قال لنا يوماً يا معشر دوس نزلت بنوا الحارث بن كعب فركبنا فقال لنا أكدسوا الخيل كدساً ، أحشوا القوم رسا ، أغدوهم غدية واشربوا الخمر عشية . قال فلقيناهم فهزمونا وغلبونا فرجعنا اليه فقلنا ما حالك وما الذى صنعت بنا فنظرنا اليه وقد احمرت عيناه وانتصبت أذناه وانبرم غضباناً حتى كاد أن ينفطر وقام فركبنا واغتفرنا هذه له ومكثنا بعد ذلك حينا ثم دعانا فقال هل لكم فى غزوة تهب لكم عزا وتجعل لكم حرزاً ويكون فى أيديكم كنزاً ؟ فقلنا ما أحوجنا إلى ذلك فقال اركبوا فركبنا فقلنا ما تقول فقال بنو الحارث بن مسلمة ، ثم قال قفوا فوقفنا

ثم قال عليكم بفهم ، ثم قال ليس لكم فيهم دم،عليكم بعضرهم أرباب خيل وفهم ثم قال لا ، رهط دريد ابن الصمة قليل العدد وفى الذمة ثم قال لا ، ولكن عليكم بكعب بن ربيعة وأسكنوها ضيعة عامر بن صعصعة فليكن بهم الوقيعة قال فلقيناهم فهزمونا وفضحونا فرجعنا وقلنا ويلك ماذا تصنع بنا قال ما أدرى كذبنى الذى كان يصدقنى . أسجنونى فى بيتى ثلاثا ثم ائتونى ففعلنا به ذلك ثم أتيناه بعد ثلاثة ففتحنا عنه فاذا هو كأنه جمرة نار ، فقال يا معشر دوس حرست السماء وخرج خير الأنبياء قلنا أين ؟ قال بمكة وأنا ميت فادفنونى فى رأس جبل فانى سوف أضطرم ناراً وإن تركتمونى كنت عليكم عاراً فاذا رأيتم اضطرامى وتلهبى فاقذفونى بثلاثة أحجار ثم قولوا مع كل حجر بسمك اللهم فانى أهدى وأطفى . قال وإنه مات فاشتعل ناراً ففعلنا به ما أمر وقد قذفناه بثلاثة أحجار تقول مع كل حجر بسمك اللهم فخمد وطفى وأقمنا حتى قدم علينا الحاج فأخبرونا بمبعثك يا رسول الله . غريب جداً . وروى الواقدى عن أبيه عن ابن أبى ذئب عن مسلم بن جندب عن النضر بن سفيان الهذلى عن أبيه . قال : خرجنا فى عير لنا الى الشام فلما كنا بين الزرقا ومعان قد عرسنا من الليل فاذا بفارس يقول وهو بين السماء والأرض : أيها النيام هبوا فليس هذا بحين رقاد قد خرج أحمد فطردت الجن كل مطرد ففزعنا ونحن رفقة حزورة كلهم قد سمع بهذا فرجعنا إلى أهلنا فاذا هم يذكرون اختلافاً بمكة بين قريش فى نبى قد خرج فيهم من بنى عبد المطلب اسمه احمد . ذكره أبو نعيم . وقال الخرائطى : حدثنا عبد الله بن محمد البلوى ـ بمصر ـ حدثنا عمارة بن زيد حدثنى عبد الله بن العلاء حدثنى يحيى بن عروة عن أبيه أن نفراً من قريش منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله بن جحش بن رئاب وعثمان بن الحويرث كانوا عند صنم لهم يجتمعون اليه قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً كانوا يعظمونه وينحرون له الجزور ثم يأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عليه فدخلوا عليه فى الليل فرأوه مكبوباً على وجهه ، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه الى حاله ، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً ، فأخذوه فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة فلما رأوا ذلك اغتموا له وأعظموا ذلك . فقال عثمان بن الحويرث ماله قد أكثر التنكس إن هذا لامر قد حدث وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله ص، فجعل عثمان يقول :

أيا صنمَ العيدِ الذي صُفَّ حولَهُ ... صَناديدُ وَفدٍ من بعيدٍ ومن قُرْبِ
تنكّستَ مغلوباً فما ذاكَ قُلْ لنا ... أذاكَ سفيهٌ أم تنكَّستَ للعَتْبِ
فإن كانَ من ذَنبٍ أتينا فإنّنا ... نَبوءُ بإقرارٍ ونَلوِي عَنِ الذَّنْبِ
وإنْ كنتَ مغلوباً ونُكِّستَ صاغراً ... فما أنتَ في الأوثانِ بالسيّدِ الربِّ

قال فأخذوا الصنم فردوه إلى حاله فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول :

تردّى لمولودٍ أضاءت بنوره جميعُ فجاج الأرض في الشرق والغرب
وخرّت له الأوثانُ طرّاً وأُرعدتْ قلوبُ ملوك الأرض طرّاً من الرعب
ونارُ جميع الفُرْس باخت وأظلمت وقد بات شاهُ الفرس في أعظم الكَرْب
وصُدّتْ عن الكهان بالغيب جنّها فلا مخبرٌ عنهم بحقٍّ ولا كذب
فيا لقُصَيٍّ ارجعوا عن ضلالكم وهبّوا إلى الإسلام والمنزل الرحب

قال فلما سمعوا ذلك خلصوا نجيا فقـال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، فقالوا أجل ، فقال لهم ورقة بن نوفل تعلمون والله ما قومكم على دين ولقد اخطئوا الحجة وتركوا دين ابراهيم ما حجر تطيفون به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين . قال فخرجوا عند ذلك يضربون في الأرض ويسألون عن الحنيفية دين ابراهيم عليـه السلام فأما ورقة بن نوفل فتنصر وقرأ الـكتب حتى علم علماً وأما عثمان بن الحويرث فسار إلى قيصر فتنصر وحسنت منزلته عنده وأما زيد بن عمرو بن نفيل فأراد الخروج فحبس ثم إنه خرج بعـد ذلك فضرب في الأرض حتى بلغ الرقة من أرض الجزيرة فلقي بها راهباً عالمـا فأخبره بالذي يطلب فقال له الراهب إنك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه ، ولـكن قـد أظلك زمان نبي يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفية فلما قال له ذلك رجع يريد مكة فغارت عليه لخم فقتلوه ، وأما عبـد الله بن جحش فأقام بمكة حتى بعث النبي ﷺ ثم خرج مع من خرج إلى أرض الحبشة ، فلما صار بها تنصر وفارق الاسلام فـكان بها حتى هلك هنالك نصرانياً . تقدم في ترجمة زيد بن عمر بن نفيل له شاهد .

وقد قال الخرائطي : حدثنا أحمد بن اسحاق بن صالح أبو بكر الوزان حدثنا عمرو بن عثمان حدثني أبي حدثنا عبد الله بن عبد العزيز حدثني محمد بن عبدالعزيز عن الزهري عن عبدالرحمن بن أنس السلمي عن العباس بن مرداس انه كان يعر في لقاح له نصف النهار إذ طلعت عليه نعامة بيضاء عليها راكب عليه ثياب بياض مثل اللبن فقال : ياعباس بن مرداس ألم تر أن السماء قـد كفت احراسها ، وان الحرب تجرعت انفاسها ، وان الخيل وضعت احلاسها ، وان الذي نزل بالبر والتقوى ، يوم الاثنين ليلة الثلاثاء ، صاحب الناقة القصوى قال فرجعت مرعوباً قد راعني ما رأيت وسمعت حتى جئت وثناً لنا يدعى الضماد وكنا نعبده ونكلم من جوفه فكنست ماحوله ثم تمسحت به وقبلته فاذا صائح من جوفه يقول :

قـلْ للقبائل من سـليمٍ كلّها هلكَ الضماد وفازَ أهلُ المسجد
هلك الضماد وكان يُعبَدُ مرّةً قبلَ الصلاة مع النبيِّ محمد
إن الذي ورث النبوّة والهدى بعد ابن مريمَ من قريشٍ مهتد

قال فخرجت مرعوباً حتى أتيت قومي فقصصت عليهم القصة واخبرتهم الخبر وخرجت في ثلاثمائة

من قومي بني حارثة الى رسول الله (ص) وهو بالمدينة فدخلنا المسجد فلما رآني رسول الله (ص) قال لي: « ياعباس كيف كان اسلامك » ؟ فقصصت عليه القصة . قال فسر بذلك واسلمت أنا وقومي. ورواه الحافظ أبو نعيم في الدلائل من حديث أبي بكر بن أبي عاصم عن عمرو بن عثمان به . ثم رواه أيضا من طريق الاصمعي حدثني الوصافي عن منصور بن المعتمر عن قبيصة بن عمرو بن اسحاق الخزاعي عن العباس بن مرداس السلمي . قال: أول اسلامي ان مرداساً أبي لما حضرته الوفاة أوصاني بصنم له يقال ضماد فجعلته في بيت وجعلت آتيه كل يوم مرة فلما ظهر النبي (ص) سمعت صوتا مرسلا في جوف الليل راعني فوثبت الى ضماد مستغيثا وإذا بالصوت من جوفه وهو يقول :

قل للقبيلة من سليم كلها ... هلك الانيس وعاش أهل المسجد
أودى ضماد وكان يعبد مرة ... قبل الكتاب الى النبي محمد
ان الذي ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهتد

قال فكتمته الناس فلما رجع الناس من الأحزاب بينا انا في ابلي بطرف العقيق من ذات عرق راقداً سمعت صوتا واذا برجل على جناح نعامة وهو يقول: النور الذي وقع ليلة الثلاثاء مع صاحب الناقة العضباء في ديار اخوان بني العنقاء ، فاجابه هاتف من شماله وهو يقول :

بَشّر الجنّ وابلاسَها ... أن وضعت المطيّ أحلاسَها
وكلأت السماءُ أحراسَها

قال فوثبت مذعوراً وعلمت ان محمداً مرسل ، فركبت فرسي واحتثثت السير حتى انتهيت اليه فبايعته ثم انصرفت الى ضماد فاحرقته بالنار ثم رجعت الى رسول الله (ص) فانشدته شعراً أقول فيه :

لعمرُك اني يومَ أجعلُ جاهلاً ... ضماداً لرب العالمين مشاركا
وتركي رسولَ الله والأوسَ حوله ... أولئك أنصارٌ له ما أولئكا
كتاركِ سهلِ الارض والحزنَ يبتغي ... ليسلكَ في وعثِ الامور المسالكا
فآمنتُ بالله الذي أنا عبدهُ ... وخالفتُ من أمسى يريد المهالكا
ووجّهتُ وجهي نحو مكةَ قاصداً ... أبايع نبيّ الاكرمين المباركا
نبيّ أتانا بعدَ عيسى بناطقٍ ... من الحقّ فيه الفصلُ فيه كذلكا
أمينٌ على القرآنِ أولُ شافعٍ ... وأولُ مبعوثٍ يجيبُ الملائكا
تلافى عُرى الاسلام بعدَ انتقاضِها ... فأحكمَها حتى أقام المناسكا
عنيتُكَ ياخيرَ البريةِ كلّها ... توسطتَ في القرعينِ والمجدِ مالكا
وانتَ المصفّى من قريشٍ اذا سمَت ... على ضمرها تبقى القرون المباركا

إذا انتسب الحيّان كعبٌ ومالكٌ وجدناك محضاً والنساءَ العواركا

قال الخرائطي : وحدثنا عبد الله بن محمد البلوي بمصر حدثنا عمارة بن زيد حدثنا إسحاق بن بشر وسلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق حدثني شيخ من الانصار يقال له عبد الله بن محمود من آل محمد ابن مسلمة قال بلغني أن رجالا من خثعم كانوا يقولون ان مما دعانا الى الاسلام انا كنا قوما نعبد الاوثان فبينا نحن ذات يوم عند وثن لنا إذ أقبل نفر يتقاضون اليه يرجون الفرج من عنده لشيءٍ شجر بينهم إذ هتف بهم هاتف يقول :

يا أيها الناسُ ذوو الاجسام ... من بين اشياخٍ الى غلام
ما أنتمُ وطائشُ الأحلام ... ومسندُ الحُكمِ الى الاصنام
أ كلُّكم في حيرةٍ نيام ... أم لا تَرَوْن ما الذي أمامي
من ساطعٍ يجلو دُجى الظلام ... قد لاحَ للناظر من تِهام
ذاك نبيٌّ سيّدُ الأنام ... قد جاء بعد الكفرِ بالاسلام
أكرمه الرحمنُ من امام ... ومن رسولٍ صادق الكلام
أعدلُ ذي حكمٍ من الاحكام ... يأمرُ بالصلاة والصيام
والبِر والصِّلات للأرحام ... ويزجُرُ الناسَ عن الآثام
والرجسِ والاوثانِ والحرام ... من هاشمٍ في ذِرْوة السَّنام

مستعلنا في البلد الحرام

قال فلما سمعنا ذلك تفرقنا عنه وأتينا النبي (ص) فأسلمنا .

وقال الخرائطي : حدثنا عبدالله البلوي حدثنا عمارة حدثني عبيدالله بن العلاء حدثنا محمد بن عكبر عن سعيد بن جبير أن رجلا من بني تميم يقال له رافع بن عمير ـ وكان أهدى الناس للطريق وأسرام بليل ، وأهجمهم على هول ، وكانت العرب تسميه لذلك دعوص العرب لهدايته وجراءته على السير ـ فذكر عن بدء إسلامه قال إني لأسير برمل عالج ذات ليلة إذ غلبني النوم فنزلت عن راحلتي و نختها وتوسدت ذراعها ونمت وقد تعوذت قبل نومي فقلت أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن من أن أوذى أو أهاج فرأيت في منامي رجلا شاباً يرصد ناقتي وبيده حربة يريد أن يضعها في نحرها ، فانتبهت لذلك فزعاً فنظرت يميناً وشمالا فلم أر شيئاً ، فقلت هذا حلم ثم عدت فغفوت فرأيت في منامي مثل رؤياي الأولى فانتبهت فدرت حول ناقتي فلم أر شيئاً وإذا ناقتي ترعد ، ثم غفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب والتفت فاذا أنا برجل شاب كالذي رأيت في المنام بيده حربة ورجل شيخ ممسك بيده يرده عنها وهو يقول :

يامالكَ بنَ مُهلهلٍ بنِ دِثَارٍ ... مهلاً فمنيَّ لكَ مئزري وإزاري
عن ناقة الانسيّ لا تَعرِض لها ... واختَر بها ما شئتَ من أثواري
ولقد بَدا ليَ منكَ ما لم أحتسِبْ ... ألا رَعَيتَ قرابتي وذِماري
تسمو إليه بحَربةٍ مسمومةٍ ... تَبّاً لِفِعلِكَ يا أبا الغفّار
لولا الحياءُ وأنَّ أهلَكَ جيرةٌ ... لَعَلِمتَ ما كشّفتَ من أخباري

قال فأجابه الشاب وهو يقول :

أأردتَ أن تعلو وتخفضَ ذِكرَنا ... في غير مُرزِيةٍ أبا العيزار
ما كانَ فيهم سيد فيما مضى ... إنَّ الخيارَ همو بنو الأخيار
فاقصِدْ لقصدِكَ يا معكبرُ إنما ... كانَ الجيرُ مُهلهلَ بنَ دثار

قال فبينا هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش فقال الشيخ للفتى قم يابن أخت فخذ أيها شئت فداء لناقة جارى الانسى، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً وانصرف . ثم التفت الى الشيخ فقال يا هذا إذا نزلت واديا من الاودية فخفت هوله فقل أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادى ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها قال فقلت له ومن محمد هذا ؟ قال نبى عربى لا شرق ولا غربى بعث يوم الاثنين . قلت وأين مسكنه قال يثرب ذات النخل . قال فركبت راحلتي حين برق لي الصبح وجددت السير حتى تقحمت المدينة فرآني رسول الله (ص) ، فحدثني بحديثي قبل ان أذكر له منه شيئا ودعاني الى الاسلام فأسلمت . قال سعيد بن جبير وكنا نرى أنه هو الذى أنزل الله فيه (وإنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) وروى الخرائطى من طريق ابراهيم بن اسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس عن على . قال : إذا كنت بواد تخاف السبع فقل أعوذ بدانيال والجب ، من شر الأسد . وروى البلوى عن عمارة بن زيد عن ابراهيم بن سعد عن محمد بن اسحاق حدثنى يحيى بن عبد الله بن الحارث عن أبيه عن ابن عباس قصة قتال على الجن بالبئر ذات العلم التى بالجحفة حين بعثه رسول الله (ص) يستقى لهم الماء فارادوا منعه وقطعوا الدلو فنزل اليهم ، وهى قصة مطولة منكرة جدا والله أعلم .

وقال الخرائطى : حدثنى أبو الحارث محمد بن مصعب الدمشقى وغيره حدثنا سليمان ابن بنت شرحبيل الدمشقى حدثنا عبد القدوس بن الحجاج حدثنا خالد بن سعيد عن الشعبى عن رجل قال كنت فى مجلس عمر بن الخطاب وعنده جماعة من أصحاب النبى (ص) ، يتذاكرون فضائل القرآن فقال بعضهم خواتيم سورة النحل ، وقال بعضهم سورة يس ، وقال على فأين أنتم عن فضيلة آية الكرسى أما إنها سبعون كلمة فى كل كلمة بركة . قال وفى القوم عمرو بن معدى كرب لا يحير جوابا ، فقال أين أنتم عن

بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال عمر حدثنا يا أبا ثور . قال بينا أنا فى الجاهلية إذ جهدنى الجوع فأقحمت فرسى فى البرية فــا أصبت الابيض النعام ، فبينا أنا أسير اذا أنا بشيخ عربى فى خيمة ، والى جانبه جارية كأنها شمس طالعة ومعــه غنيات له ، فقلت له استأسر ثكلتك أمك. فرفع رأسه الى وقال يا فتى ان أردت قرى فانزل وان أردت معونة اعناك . فقلت له استأسر فقال :

عَرَضْنا عَلَيْكَ النُّزْلَ مِنّا تَكَرُّماً　　فَلَمْ تَرْعَوِي جَهْلاً كَفِعْلِ الأشائِمِ

وَجِئْتَ بِبُهْتانٍ وَزُورٍ ودونَ ما　　تُمَنِّيهِ بالبِيضِ حَزُّ الغَلاصِمِ

قال ووثب الى وثبةوهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم . فـكأنى مثلت تحته . ثم قال اقتلك أم أخلى عنك ؟ قلت بل خـل عنى قال فخلى عنى . ثم ان نفسى جاذبتنى بالمعاودة . فقلت استأسر ثـكلتك أمك فقال :

بِبِسمِ اللهِ والرَّحمنِ فُزْنا　　هُنالِكَ والرَّحيمُ بِهِ قَهَرْنا

وما تُغْني جَلادَةُ ذي حِفاظٍ　　اذا يوماً لِمَعْرَكَةٍ بَرَزْنا

ثم وثب لى وثبة كأنى مثلت تحته . فقال أقتلك أم اخلى عنك ؟ قال قلت بل خل عنى. فخلى عنى فانطلقت غير بعيد . ثم قلت فى نفسى يا عمرو أيقهرك هذا الشيخ . والله للموت خـير لك من الحياة ، فرجعت اليه فقلت له استأسر ثكلتك أمك . فوثب الىّ وثبة وهو يقول بسم الله الرحمن الرحيم فـكأنى مثلت تحته ، فقال أقتلك أم أخلى عنك ؟ قلت بل خل عنى فقال هيهات ، ياجارية إئتينى بالمدية فأتته بالمدية فجز ناصيتى وكانت العرب إذا ظفرت برجل فجزت ناصيته استعبدته ، فكنت معه أخدمه مدة. ثم انه قال يا عمرو أريد أن تركب معى البرية وليس بى منك وجل ، فانى ببسم الله الرحمن الرحيم لواثق قال فسرنا حتى أتينا واديا أشبا مهولا مغولا . فنادى باعلى صوته بسم الله الرحمن الرحيم . فلم يبق طير فى وكره الا طار . ثم أعاد القول فلم يبق سبع فى مربضه الا هرب ، ثم أعاد الصوت فاذا نحن بحبشى قـد خرج علينا من الوادى كالنخلة السحوق ، فقال لى يا عمرو اذا رأيتنا قـد اتحدنا فقل غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم . قال فلما رأيتهما قد اتحدا قلت غلبه صاحبى باللات والعزى فلم يصنع الشيخ شيئاً ، فرجع الى وقال قد علمت انك قـد خالفت قولى . قلت أجل ولست بعائد ، فقال إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم ، فقلت أجل فلمـا رأيتهما قـد اتحدا قلت غلبه صاحبى ببسم الله الرحمن الرحيم ، فاتـكأ عليه الشيخ فبعجه بسيفه فاشتق بطنه فاستخرج منه شيئاً كهيئة القنديل الاسود ثم قال ياعمرو هذا غشه وغله . ثم قال أتدرى من تلك الجارية ؟ قلت لا ، قال تلك الفارعة بنت السليل الجرهمى من خيار الجن . وهؤلاء أهلها بنو عمها يغزونى منهم كل عام رجل ينصرنى الله عليه ببسم الله الرحمن الرحيم . ثم قال قد رأيت ما كان منى الى الحبشى . وقـد غلب على الجوع فأتنى بشيء آكله ،

فاقحمت بفرسي البرية فما اصبت الابيض النعام ، فاتيته به فوجدته نائما ، واذا تحت رأسه شيء كهيئة الخشبة ، فاستللته فاذا هو سيف عرضه شبر في سبعة أشبار ، فضربت ساقيه ضربة أبنت الساقين مع القدمين ، فاستوى على قفا ظهره وهو يقول قاتلك الله ما اغدرك ياغدار . قال عمر : ثم ماذا صنعت ؟ قلت فلم أزل أضربه بسيفي حتى قطعته إربا إربا . قال فوجم لذلك ثم أنشأ يقول :

بالغدر نلتَ أخا الإسلام عن كَثَبٍ ... ما إنْ سمعتُ كذا في سالفِ العَرَبِ
والعُجْمُ تأنفُ مما جئتَه كَرَماً ... تباً لما جئتَه في السيّدِ الأربِ
اني لأعجبُ أني نلتُ قتلتَهُ ... أم كيفَ جازاكَ عندَالذنبِ لم تنبِ ؟
قرمٌ عفا عنكَ مرّاتٍ وقد عَلِقت ... بالجسمِ منكَ يداهُ موضعَ العَطَبِ
لو كنتَ آخذ في الاسلام ما فعلوا ... في الجاهلية أهلُ الشِّركِ والصُّلُبِ
اذاً لنالتْكَ من عدلٍ مُشَطَّبة ... تدعو لذائقِها بالويلِ والحَرَبِ

قال ثم ما كان من حال الجارية ؟ قلت ثم إني أتيت الجارية . فلما رأتني قالت ما فعل الشيخ قلت قتله الحبشي ، فقالت كذبت بل قتلته أنت بغدرك ثم انشأت تقول :

ياعينُ جُودي للفارسِ المِغوارِ ... ثم جُودي بواكفاتٍ غِزارِ
لا تَمَلّي البكاءَ إذ خانكِ الدهـ ... ـرُ بوافٍ حقيقةٍ صبّارِ
وتقيٍّ وذي وَقارٍ وحِلْمٍ ... وعديلِ الفَخارِ يومَ الفَخارِ
لهفَ نفسي على بقائِكَ عمرو ... أسلمَتْكَ الأعمارُ للأقدارِ
ولعمري لولم تَرُمْهُ بغدرٍ ... رُمتَ ليثاً كصارمٍ بتّارِ

قال فأحفظني قولها فاستللت سيفي ودخلت الخيمة لا قتلها فلم أر في الخيمة أحداً فاستقت الماشية وجئت الى أهلي . وهذا أثر عجيب . والظاهر أن الشيخ كان من الجان وكان ممن أسلم وتعلم القرآن ، وفيما تعلمه بسم الله الرحمن الرحيم . وكان يتعوذ بها .

وقال الخرائطي : حدثنا عبد الله بن محمد البلوى حدثنا عمارة بن زيد قال حدثني عبد الله بن العلاء عن هشام بن عروة عن أبيه عن جدته اسماء بنت أبي بكر قالت : كان زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل يذكران أنهما اتيا النجاشي بعد رجوع أبرهة من مكة ، قالا فلما دخلنا عليه قال لنا أصدقاني أيها القرشيان هل ولد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه فضرب عليه بالقداح فسلم ونحرت عنه ابل كثيرة ؟ قلنا نعم . قال فهل لكما علم به ما فعل ؟ قلنا تزوج امرأة يقال لها آمنة بنت وهب تركها حاملا وخرج قال فهل تعلمان ولد أم لا ؟ قال ورقة بن نوفل أخبرك أيها الملك أني ليلة قد بت عند وثن لنا كنا نطيف به ، ونعبده إذ سمعت من جوفه هاتفا يقول :

وُلِد النبيّ فقلّت الأملاك   وولّى الضلالُ وأدبر الإشراك

ثم انتكس الصنم على وجهه . فقال زيد بن عمرو بن نفيل عندى كخبره أيها الملك . قال هات قال أنا فى مثل هذه الليلة التى ذكر فيها حديثه خرجت من عند أهلى وهم يذكرون حمل آمنة حتى أتيت جبل أبى قبيس أريد الخلو فيه لأمر رابنى إذ رأيت رجلا نزل من السماء له جناحان أخضران ، فوقف على أبى قبيس ثم أشرف على مكة فقال : ذل الشيطان وبطلت الأوثان ولد الأمين . ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب فرأيته قد جلل ما تحت السماء وسطع نور كاد أن يختطف بصرى وهالنى ما رأيت . وخفق الهاتف بجناحيه حتى سقط على الكعبة . فسطع له نور أشرقت له تهامة ، وقال : ذكت الأرض وأدت ربيعها . وأومأ إلى الأصنام التى كانت على الكعبة فسقطت كلها . قال النجاشى ويحكم أخبر كما عما أصابنى ، إنى لنائم فى الليلة التى ذكرتما فى قبة وقت خلوتى ، إذ خرج على من الأرض عنق ورأس ، وهو يقول حل الويل بأصحاب الفيل ، رمتهم طير أبابيل ، بحجارة من سجيل هلك الأشرم المعتدى المجرم ، وولد النبى الأمى ، المكى الحرمى ، من أجابه سعد ، ومن أباه عند . ثم دخل الارض فغاب فذهبت أصيح فلم أطق الكلام ، ورمت القيام فلم أطق القيام ، فصرعت القبة بيدى ؟ فسمع بذلك أهلى فجاؤنى فقلت احجبوا عنى الحبشة فحجبوهم عنى ثم أطلق عن لسانى ورجلى .

وسيأتى إن شاء الله تعالى فى قصة المولد رؤيا كسرى فى سقوط أربع عشرة شرافة من إيوانه ، وخمود نيرانه ورؤيا موبذانه ، وتفسير سطيح لذلك على يدى عبد المسيح . وروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه فى ترجمة الحارث بن هانى بن المدلج بن المقداد بن زمل بن عمرو العذرى عن أبيه عن جده عن أبيه عن زمل بن عمرو العذرى قال : كان لبنى عذرة صنم يقال له حمام وكانوا يعظمونه وكان فى بنى هند بن حرام بن ضبة بن عبد بن كثير بن عذرة وكان سادنه رجلا يقال له طارق وكانوا يعترون عنده . فلما ظهر رسول الله (ص) سمعنا صوتاً يقول يا بنى هند بن حرام . ظهر الحق وأودى حمام ودفع الشرك الاسلام . قال ففزعنا لذلك وهالنا فمكثنا أياماً . ثم سمعنا صوتاً وهو يقول : ياطارق يا طارق . بعث النبى الصادق ، بوحى ناطق ، صدع صادع بأرض تهامة ، لناصريه السلامة ، ولخاذليه الندامة ، هذا الوداع منى إلى يوم القيامة . قال زمل فوقع الصنم لوجهه . قال فابتعت راحلة ورحلت حتى أتيت النبى (ص) مع نفر من قومى وأنشدته شعراً قلته :

إليكَ رسولَ الله أعملتُ نصَّها   وكلّفتُها حَزْناً وغَوراً من الرمل

لأنصرَ خيرَ الناس نصراً مؤزّراً   وأعقدَ حبلاً من حبالك فى حبلى

وأشهدَ أن الله لا شيءَ غيره   أدينُ به ما أثقلتْ قدمي نعلى

قال فأسلمت وبايعته . وأخبرناه بما سمعنا فقال : « ذاك من كلام الجن » . ثم قال : « يا معشر العرب إني رسول الله إليكم وإلى الأنام كافة ، أدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وإني رسوله وعبده ، وأن تحجوا البيت وتصوموا شهراً من إثني عشر شهراً وهو شهر رمضان ، فمن أجابني فله الجنة نزلا ، ومن عصاني كانت النار له منقلبا » . قال فأسلمنا وعقد لنا لواء . وكتب لنا كتاباً نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله لزمل بن عمرو ومن أسلم معه خاصة إني بعثته إلى قومه عامداً فمن أسلم ففي حزب الله ورسوله . ومن أبى فله أمان شهرين . شهد علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري » ثم قال ابن عساكر : غريب جداً

وقال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه : حدثني محمد بن سعيد ـ يعني عمه ـ . قال قال محمد بن المنكدر إنه ذكر لي عن ابن عباس قال هتف هاتف من الجن على أبي قبيس فقال :

قَبَّحَ اللهُ رأيَكم آلَ فِهرٍ ما أدقَّ العقولَ والأفهام
حينَ تُعصى لِمَن يعيبُ عَلَيها دِينَ آبائِها الحماةِ الكرام
حالفَ الجنَّ جِنَّ بُصرى عليكم ورجالُ النَّخيلِ والآطام
توشِكُ الخيلُ أن تردَّها تهادى تقتلُ القومَ في حَرامٍ بِهام
هل كريمٌ منكم لَهُ نفسُ حرٍّ ماجِدِ الوالدَيْنِ والأعمام
ضاربٌ ضربةً تكونُ نكالاً ورَواحاً من كُربةٍ واغتمام

قال ابن عباس فأصبح هذا الشعر حديثا لأهل مكة يتناشدونه بينهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا شيطان يكلم الناس في الأوثان يقال له مسعر ، والله مخزيه » فمكثوا ثلاثة أيام فإذا هاتف يهتف على الجبل يقول :

نحنُ قتلْنا في ثلاثٍ مِسْعَرا إذْ سفَّهَ الجنَّ وسنَّ المنكَرا
قنَّعْتُه سيفاً حُساماً مُشهَرا بشتمِهِ نبيَّنا المطهَّرا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا عفريت من الجن اسمه سمج آمن بي سميته عبد الله أخبرني أنه في طلبه ثلاثة أيام » فقال علي جزاه الله خيراً يا رسول الله .

وقد روى الحافظ أبو نعيم في الدلائل قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن أبي حرب الصفار حدثنا عباس بن الفرج الرياشي حدثنا سليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت عن أبيه عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس عن سعد بن عبادة قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حضر موت في حاجة قبل الهجرة ، حتى إذا كنت في بعض الطريق ساعة من الليل فسمعت هاتفا يقول :

أبا عَمرٍو تأوبَني السُّهودُ وراحَ النومُ وامتنع الهجودُ
لذكرِ عِصابةٍ سلفوا وبادوا وكلُّ الخلقِ قصرُهم يبيد
تولَّوا واردينَ إلى المنايا حِياضاً ليسَ مَنهلُها الورود
مضَوا لسبيلهمْ وبقيتُ خلفاً وحيداً ليسَ يُسعفني وحيد
سُدى لا أستطيع علاجَ أمرٍ إذا ما عالجَ الطفلُ الوليد
فلأياً مابقيتُ الى أناسٍ وقد باتت بمُهلِكها ثمود
وعادٌ والقرونُ بذي شعوبٍ سَواءٌ كلُّهم إرَمٌ حصيد

قال ثم صاح به آخر : يا خرعب ذهب بك العجب . ان العجب كل العجب بين زهرة ويثرب . قال وما ذاك يا شاحب ؟ قال نبي السلام ، بعث بخير الكلام الى جميع الأنام ، فاخرج من البلد الحرام الى نخيل وآطام . قال ما هذا النبي المرسل والكتاب المنزل ، والامي المفضل ؟ قال رجل من ولد لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . قال هيهات فات عن هذا سنى ، وذهب عنه زمنى لقد رأيتني والنضر بن كنانة نرمى غرضا واحداً ، ونشرب حلبا بارداً ، ولقد خرجت به من دوحة فى غداة شبمة وطلع مع الشمس وغرب معها ، يروى ما يسمع ويثبت ما يبصر . ولئن كان هذا من ولده لقد سل السيف وذهب الخوف ، ودحض الزنا ، وهلك الربا . قال فاخبرنى ما يكون ؟ قال ذهبت الضراء والبؤس والمجاعة ، والشدة والشجاعة ، الا بقية فى خزاعة . وذهبت الضراء والبؤس ، والخلق المنفوس الا بقية من الخزرج والأوس . وذهبت الخيلاء والفخر ، والنميمة والغدر ، إلا بقية فى بنى بكر . يعنى ابن هوازن . وذهب الفعل المندم والعمل المؤثم ، إلا بقية فى خثعم . قال أخبرنى ما يكون ؟ قال إذا غلبت البرة ، وكظمت الحرة ، فاخرج من بلاد الهجرة ، واذا كف السلام ، وقطعت الارحام فاخرج من البلد الحرام . قال أخبرنى ما يكون ؟ قال لولا أذن تسمع ، وعين تلمع لاخبرتك بما تفزع . ثم قال :

لا منامٌ هدأتَه بنعيمٍ يا ابنَ غوطٍ ولا صباحٌ أتانا

قال ثم صرصر صرصرة كأنها صرصرة حبلى ، فذهب الفجر فذهبت لا نظر فاذا عظاية وثعبان ميتان . قال فما علمت أن رسول الله (ص.) هاجر الى المدينة إلا بهذا الحديث . ثم رواه عن محمد بن جعفر عن إبراهيم بن على عن النضر بن سلمة عن حسان بن عبادة بن موسى عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر عن ابن عباس عن سعد بن عبادة . قال : لما بايعنا رسول الله (ص.) ليلة العقبة خرجت الى حضر موت لبعض الحاج ، قال فقضيت حاجتى ثم أقبلت حتى اذا كنت ببعض الطريق نمت ، ففزعت من الليل بصائح يقول :

أبا عمرو تأوبني السّهودُ وراحَ النومُ وانقطعَ الهجودُ

وذكر مثله بطوله .

وقال أبو نعيم: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا ابراهيم بن علي حدثنا النضر بن سلمة حدثنا أبو غزية محمد بن موسى عن العطاف بن خالد الوصابي عن خالد بن سعيد عن أبيه قال سمعت تميما الدارى يقول : كنت بالشام حين بعث النبي (ص.) ، فخرجت لبعض حاجتي فادركني الليل . فقلت أنا في جوار عظيم هذا الوادى الليلة . قال فلما أخذت مضجعي إذا أنا بمناد ينادي ـ لا أراه ـ عذبا لله فان الجن لا تجير أحداً على الله فقلت أيم الله تقول ؟ فقال قد خرج رسول الاميين رسول الله وصلينا خلفه بالحجون . فاسلمنا واتبعناه وذهب كيد الجن ورميت بالشهب . فانطلق الى محمد رسول رب العالمين فاسلم . قال تميم فلما أصبحت ذهبت الى دير أيوب فسألت راهبا واخبرته الخبر . فقال الراهب قد صدقوك يخرج من الحرم ومهاجره الحرم وهو خير الانبياء فلا تسبق اليه . قال تميم فتكلفت الشخوص حتى جئت رسول الله (ص.) فاسلمت .

وقال حاتم بن اسماعيل عن عبد الله بن يزيد الهذلي عن عبد الله بن ساعدة الهذلي عن أبيه قال كنا عند صنمنا سواع ، وقد جلبنا اليه غنما لنا مائتي شاة قد أصابها جرب ، فادنيناها منه لنطلب بركته فسمعت مناديا من جوف الصنم ينادي قد ذهب كيد الجن ورمينا بالشهب لنبي اسمه أحمد . قال فقلت غويت والله ، فصدفت وجه غنمي منحدراً الى أهلي فرأيت رجلا ، فخبرني بظهور النبي (ص.) . ذكره أبو نعيم هكذا معلقا ثم قال : حدثنا عمر بن محمد بن جعفر حدثنا إبراهيم بن السندى حدثنا النضر بن سلمة حدثنا محمد بن مسلمة المخزومى حدثنا يحيى بن سليمان عن حكيم بن عطاء الظفرى ـ من بني سليم من ولد راشد بن عبد ربه ـ عن أبيه عن جده عن راشد بن عبد ربه قال كان الصنم الذى يقال له سواع بالمعلاة من رهط تدين له هذيل وبنو ظفر بن سليم فارسلت بنو ظفر راشد بن عبد ربه بهدية من سليم الى سواع قال راشد فالفيت مع الفجر الى صنم قبل صنم سواع ، فاذا صارخ يصرخ من جوفه : العجب كل العجب من خروج نبي من بني عبد المطلب ، يحرم الزنا والربا والذبح للاصنام ، وحرست السماء ورمينا بالشهب العجب كل العجب . ثم هتف صنم آخر من جوفه ترك الضمار وكان يعبد، خرج النبي أحمد ، يصلي الصلاة ويأمر بالزكاة والصيام ، والبر والصلات للارحام . ثم هتف من جوف صنم آخر هاتف يقول :

ان الذي ورثَ النبوّةَ والهدى بعد ابنِ مريمَ من قريشٍ مهتد
نبيٌّ أتى يخبر بما سبق وبما يكون اليوم حقا أو غد (١)

(١) كذا في الأصول وهذا البيت لم يرد في السيرة الشامية (سبل الهدى والرشاد) وورد قبل البيت الاول

قل للقبائلِ من سليمٍ كلها هلكَ الأنيسُ وعاشَ أهلُ المسجد
اودى ضِمادٌ وكان يُعبد مرّة قبلَ الكتابِ الى النبيِّ محمدِ

قال راشد : فألفيت سواعاً مع الثعبر وثعلبان يلحسان ما حوله ، ويأكلان ما يهدى له ، ثم يعوجان عليه يبولها ، فعند ذلك يقول راشد بن عبد ربه :

أربٌ يبولُ الثُّعلبانُ برأسِهِ   لقد ذَلَّ من بالَتْ عليه الثعالب

وذلك عند مخرج النبي (ص) ومهاجره إلى المدينة وتسامع الناس به فخرج راشد حتى أتى النبي (ص) المدينة ومعه كلبيه ، واسم راشد يومئذ ظالم ، واسم كلبه راشد فقال النبي (ص) : « ما اسمك ؟ » قال ظالم . قال : « فما اسم كلبك ؟ » قال راشد ، قال « اسمك راشد ، واسم كلبك ظالم » وضحك النبي (ص) . وبايع النبي (ص) وأقام بمكة معه ثم طلب من رسول الله (ص) . قطيعة برهاط ـ ووصفها له ـ فاقطعه رسول الله (ص) بالمعلاة من رهاط شأو الفرس ، ورميته ثلاث مرات بحجر ، وأعطاه إداوة مملوءة من ماء وتفل فيها وقال له « فرغها في أعلا القطيعة ولا تمنع الناس فضلها » ففعل فجعل الماء معينا يجري إلى اليوم فغرس عليها النخل . ويقال ان رهاط كلها تشرب منه فسماها الناس ماء الرسول (ص) . وأهل رهاط يغتسلون بها وبلغت رمية راشد الركب الذي يقال له ركب الحجر ، وغدا راشد على سواع فكسره .

وقال أبو نعيم: حدثنا سليمان بن احمد حدثنا علي بن ابراهيم الخزاعي الاهوازي حدثنا أبو محمد عبد الله بن داود بن دلهاث بن اسماعيل بن مسرع بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله (ص) حدثنا أبي عن أبيه دلهاث عن أبيه اسماعيل أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه مسرع بن ياسر أن أباه ياسر حدثه عن عمرو بن مرة الجهني أنه كان يحدث قال : خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية ، فرأيت في المنام وأنا بمكة نوراً ساطعاً من الكعبة حتى أضاء في جبل يثرب وأشعر جهينة . فسمعت صوتاً في النور وهو يقول : انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وبعث خاتم الأنبياء ، ثم أضاء إضاءة أخرى حتى نظرت إلى قصور الحيرة وابيض المدائن . فسمعت صوتاً في النور وهو يقول: ظهر الاسلام ، وكسرت الأصنام ، ووصلت الأرحام ، فانتبهت فزعاً ، فقلت لقومي والله ليحدثن في هذا الحي من قريش حدث ، وأخبرتهم بما رأيت . فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا رجل فأخبرنا أن رجلا يقال له احمد قد بعث فأتيته فأخبرته بما رأيت فقال « ياعمرو بن مرة إني المرسل إلى العباد كافة أدعوهم إلى الاسلام ، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام ، وعبادة الله ورفض الأصنام ، وحج البيت . وصيام شهر من اثني عشر شهراً وهو شهر رمضان ، فمن أجاب فله الجنة . ومن عصى فله النار ، فآمن ياعمرو بن مرة يؤمنك الله من نار جهنم » فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . آمنت بكل ما جئت به من حلال وحرام ، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام ، ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به وكان لنا صنم وكان أبي سادنا له فقمت اليه فكسرته ثم لحقت النبي (ص) وأنا أقول :

شهدتُ بأنّ اللهَ حقٌّ وأنني　　لِآلهةِ الأحجارِ أولُ تاركِ
فشمَّرتُ عنْ ساقي إزارَ مهاجرٍ　　اليكَ أدبُّ النَّوْزَ بعدَ الدكادكِ
لأصحبَ خيرَ الناس نفساً ووالداً　　رسولَ مليكِ الناسِ فوقَ الحبائكِ

فقال النبي (ص) : «مرحباً بك يا عمرو بن مرة» . فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي إبعث بي الى قومي ، لعل الله أن يمن بي عليهم كما من بك علي ، فبعثني اليهم وقال : «عليك بالقول السديد ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً» فأتيت قومي فقلت لهم : يا بني رفاعة ثم يا بني جهينة إني رسول من رسول الله اليكم أدعوكم إلى الجنة ، وأحذركم النار ، وآمركم بحقن الدماء ، وصلة الأرحام ، وعبادة الله ، ورفض الأصنام ، وحج البيت ، وصيام شهر رمضان ، شهر من إثني عشر شهراً . فمن أجاب فله الجنة . ومن عصى فله النار . يا معشر جهينة إن الله ـ وله الحمد ـ جعلكم خيار من أنتم منه وبغض اليكم في جاهليتكم ما حبب إلى غيركم من الرفث ، لأنهم كانوا يجمعون بين الأختين ، ويخلف الرجل على امرأة أبيه ، والترات في الشهر الحرام . فأجيبوا هذا النبي المرسل (ص) من بني لؤي بن غالب . تنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة ، سارعوا سارعوا في ذلك يكون لكم فضيلة عند الله . فأجابوا إلا رجلا منهم قام فقال : يا عمرو بن مرة أمر الله عليك عيشك ، أتأمرنا أن نرفض آلهتنا ونفرق جماعتنا بمخالفة دين آبائنا إلى ما يدعو هذا القرشي من أهل تهامة ؟ لا ولا مرحباً ولا كرامة ، ثم أنشأ يقول :

إن ابنَ مَرّةَ قد أتى بمقالةٍ　　ليستْ مقالةَ من يُريدُ صَلاحا
إني لأحسَبُ قولَه وفَعالَهُ　　يوماً وإنْ طالَ الزمانُ رياحا
أتسفهُ الأشياخَ ممن قدْ مضى　　مَن رامَ ذلكَ لا أصابَ فَلاحا

فقال عمرو بن مرة : الكاذب مني ومنك أمر الله عيشه ، وأبكم لسانه ، وأكمه بصره . قال عمرو ابن مرة والله ما مات حتى سقط فوه وكان لا يجد طعم الطعام ، وعمي وخرس . وخرج عمرو بن مرة ومن أسلم من قومه حتى أتوا النبي (ص) ، فرحب بهم وحياهم وكتب لهم كتاباً هذه نسخته : «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله على لسان رسول الله بكتاب صادق ، وحق ناطق ، مع عمرو ابن مُرة الجهني لجهينة بن زيد إن لكم بطون الارض وسهولها ، وتلاع الاودية وظهورها ، ترعون نباته وتشربون صافيه . على ان تقروا بالخمس ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وفي التيعة والصريمة شاتان ان اجتمعتا ، وان تفرقتا فشاة شاة . ليس على أهل الميرة صدقة ، ليس الوردة اللبقه» . وشهد من حضرنا من المسلمين بكتاب قيس بن شماس رضي الله عنهم . وذلك حين يقول عمرو بن مرة :

ألم ترَ أنّ اللهَ أظهرَ دينَه　　وبيَّنَ برهانَ القُرآنِ لعامرِ
ككتابٌ منَ الرحمنِ نورٌ لجمعِنا　　وأحلافِنا في كلِّ بادٍ وحاضِرِ

الى خير من يمشي على الارض كلها — وأفضلها عند اعتكار الضرائر
أطعنا رسول الله لما تقطعت — بطون الاعادي بالقنا والخواطر
فنحن قبيل قد بني المجد حولنا — اذا اجتليت في الحرب هام الاكابر
بنو الحرب نفريها بأيد طويلة — وبيض تلالا في أكف المغاور
ترى حوله الانصار تحمي أميرهم — بسمر العوالي والصفاح البواتر
إذا الحرب دارت عند كل عظيمة — ودارت رحاها بالليوث الهواصر
تبلج منه اللون وازداد وجهه — كمثل ضياء البدر بين الزواهر

وقال أبو عثمان سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه : حدثنا عبدالله حدثنا أبو عبد الله حدثنا المجالد ابن سعيد والاجلح عن الشعبي حدثني شيخ من جهينة قال : مرض منا رجل مرضا شديداً فثقل حتى حفرنا له قبره وهيأنا أمره فاغمي عليه ثم فتح عينيه وافاق فقال أحفرتم لي؟ قالوا نعم، قال فما فعل الفصل — وهو ابن عم له — قلنا صالح مر آنفا يسأل عنك، قال أما إنه يوشك أن يجعل في حفرتي انه أتاني آت حين أغمي علي فقال ابك هبل؟ أما ترى حفرتك تنتثل، وأمك قد كادت تثكل؟ أرأيتك أن حولناها عنك بالمحول، ثم ملأناها بالجندل، وقذفنا فيها الفصل، الذي مضى فاجزألك، وظن أن لن يفعل. أتشكر لربك، وتصل وتدع دين من أشرك وضل؟ قال قلت نعم. قال قم قد برئت. قال فبرىء الرجل. ومات الفصل فجعل في حفرته. قال الجهني : فرأيت الجهني بعد ذلك يصلي ويسب الأوثان ويقع فيها.

وقال الأموي : حدثنا عبدالله قال بينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجلس يتحدثون عن الجن، فقال خريم بن فاتك الاسدي : الا أحدثك كيف كان اسلامي؟ قال بلى، قال إني يوما في طلب ذود لي أنا منها على أثر تنصب وتصعد، حتى إذا كنت بأبرق العراق أنخت راحلتي وقلت أعوذ بعظيم هذه البلدة أعوذ برئيس هذا الوادي، فاذا بهاتف يهتف بي :

ويحك، عذ بالله ذي الجلال — والمجد والعلياء والإفضال
ثم اتل آيات من الأنفال — ووحد الله ولا تبالي

قال فذعرت ذعراً شديدا ثم رجعت الى نفسي فقلت :

يا أيها الهاتف ما تقول — أرشد عندك أم تضليل؟
بين هداك الله ما الحويل

قال فقال :

هذا رسول الله ذو الخيرات — بيثرب يدعو الى النجاة
يأمر بالبر وبالصلاة — ويزع الناس عن الهنات

قال قلت له : والله لا أبرح حتى آتيه وأومن به ، فنصبت رجلي في غرز راحلتي وقلت :

أرشدني أرشدني هديتا لا جعت ما عشت ولا عريتا
ولا برحت سيداً مقيتا لا تؤثر الخير التي أتيتا
• على جميع الجن ما بقيتا •

قال :

صاحبك الله وأدى رحلكا وعظم الأجر وعافا نفسكا
آمن به أفلج ربي حقكا وانصره نصراً عزيزاً نصركا

قال قلت من أنت عافاك الله ، حتى أخبره إذا قدمت عليه ؟ فقال أنا ملك بن ملك ، وأنا نقيبه على جن نصيبين . وكفيت ابلك حتى اضمها الى أهلك ان شاء الله . قال فخرجت حتى أتيت المدينة يوم الجمعة والناس ارسال الى المسجد والنبي (ص) على المنبر كأنه البدر يخطب الناس ، فقلت انيخ على باب المسجد حتى يصلي وادخل عليه فأسلم واخبره عن إسلامي ، فلما انخت خرج الى أبوذر فقال مرحبا واهلا وسهلا قد بلغنا اسلامك ، فادخل فصل ، ففعلت ، ثم جئت إلى رسول الله (ص) فاخبرني باسلامي . فقلت الحمد لله . قال « أما إن صاحبك قد وفى لك وهو أهل ذلك ، وادى ابلك الى أهلك ».[1]

وقد رواه الطبراني في ترجمة خريم بن فاتك من معجمه الكبير قالا حدثنا الحسين بن اسحاق التسترى حدثنا محمد بن إبراهيم الشامي حدثنا عبدالله بن موسى الاسكندرى حدثنا محمد بن اسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبرى عن أبي هريرة قال قال خريم بن فاتك لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين ألا أخبرك كيف كان بدء اسلامى ، قال بلى ! فذكره غير أنه قال فخرج الى أبو بكر الصديق فقال أدخل ، فقد بلغنا اسلامك ، فقلت لا أحسن الطهور ، فعلمني فدخلت المسجد فرأيت رسول الله (ص) كأنه البدر وهو يقول « ما من مسلم توضأ فاحسن الوضوء ثم صلى صلاة يحفظها ويعقلها إلا دخل الجنة » فقال لي عمر لتأتيني على هذا بينة أو لأنكلن بك ، فشهد لى شيخ قريش عثمان بن عفان فاجاز شهادته . ثم رواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن محمد بن تميم عن محمد بن خليفة عن محمد بن الحسن عن أبيه قال قال عمر بن الخطاب لخريم بن فاتك حدثني بحديث يعجبني فذكر مثل السياق الأول سواء .

وقال أبو نعيم :حدثنا سليمان بن احمد حدثنا أبو عبدالملك احمد بن ابراهيم القرشي الدمشقي حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ابن بنت شرحبيل حدثنا اسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني عن عبد الله بن الديلمي قال أتى رجل ابن عباس فقال بلغنا أنك تذكر سطيحا تزعم أن الله خلقه ، لم يخلق من بني آدم شيئا يشبهه ؟ قال قال نعم إن الله خلق سطيحاً الغساني لحماً على وضم[2] ولم يكن فيه عظم ولا

(١) رواية الطبراني ليست في المصرية . (٢) الوضم شرائح من جريد النخل .

عصب إلا الجمجمة ، والسكفان . وكان يطوى من رجليه إلى ترقوته كما يطوى الثوب ، ولم يكن فيه شيء يتحرك إلا لسانه . فلما أراد الخروج إلى مكة حمل على وضمة فأتى به مكة ، فخرج اليه أربعة من قريش عبد شمس ، وهاشم ابنا عبد مناف بن قصي ، والاحوص بن فهر ، وعقيل بن أبي وقاص فانتموا إلى غير نسبهم وقالوا نحن أناس من جمح أتيناك بلغنا قدومك ، فرأينا أن إتياننا إياك حق لك واجب علينا وأهدى اليه عقيل صفيحة هندية ، وصعدة ردينية ، فوضعت على باب البيت الحرام لينظروا ، أهل يراها سطيح أم لا . فقال : ياعقيل ناولنى يدك فناوله يده فقال : ياعقيل والعالم الخفية ، والغافر الخطية ، والذمة الوفية ، والكعبة المبنية ، إنك الجائى بالهدية ، الصفيحة الهندية ، والصعدة الردينية . قالوا صدقت يا سطيح ، فقال والآتى بالفرح ، وقوس قزح ، وسائر الفرح ، والطلع المنبطح ، والنخل والرطب والبلح ، إن الغراب حيث مر سنح ، فأخبر أن القوم ليسوا من جمح ، وإن نسبهم من قريش ذى البطح قالوا صدقت ياسطيح نحن أهل البيت الحرام ، أتيناك لنزورك لما بلغنا من علمك . فأخبرنا عما يكون فى زماننا هذا ومايكون بعده فلعل أن يكون عندك فى ذلك علم قال : الآن صدقتم ، خذوا منى ومن إلهام الله إلى ، أنتم يامعشر العرب فى زمان الهرم ، سواء بصائركم وبصائر العجم ، لا علم عندكم ولا فهم ، وينشو من عقبكم ذوو فهم ، يطلبون أنواع العلم ، فيكسرون الصنم ، ويبلغون الردم ، ويقتلون العجم ، يطلبون الغنم ، قالوا ياسطيح فمن يكون أولئك ؟ فقال لهم : والبيت ذى الأركان ، والامن والسكان لينشؤن من عقبكم ولدان يكسرون الاوثان ، وينكرون عبادة الشيطان ، ويوحدون الرحمن ، وينشرون دين الديان ، يشرفون البنيان ، ويستفتون الفتيان ، قالوا ياسطيح من نسل من يكون أولئك ؟ قال : وأشرف الاشراف ، والمفضى للاشراف ، والمزعزع الاحقاف ، والمضعف لاضعاف ، لينشؤن الآلاف من عبد شمس وعبد مناف ، نشوءا يكون فيه اختلاف . قالوا ياسوءتاه ياسطيح مما تخبرنا من العلم بأمرهم ومن أى بلد يخرج أولئك ؟ فقال والباقى الأبد ، والبالغ الأمد ، ليخرجن من ذا البلد ، فتى يهدى إلى الرشد يرفض يغوث والفند ، يبرأ من عبادة الضدد ، يعبد رباً انفرد ، ثم يتوفاه الله محموداً ، من الارض مفقوداً ، وفى السماء مشهوداً . ثم يلى أمره الصديق إذا قضى صدق ، فى رد الحقوق لا خرق ولا نزق ثم يلى أمره الحنيف ، مجرب غطريف ، ويترك قول العنيف . قد ضاف المضيف . وأحكم التحنيف . ثم يلى أمره داعياً لأمره مجرباً ، فتجتمع له جموعاً وعصباً ، فيقتلونه نقمة عليه وغضباً ، فيؤخذ الشيخ فيذبح أربا فيقوم به رجال خطباء ثم يلى أمره الناصر يخلط الرأى برأى المناكر يظهر فى الارض العساكر ثم يلى بعده ابنه يأخذ جمعه ويقل حمده . ويأخذ المال ويأكل وحده ، ويكثر المال بعقبه من بعده ، ثم يلى من بعده عدة ملوك لا شك الدم فيهم مسفوك ، ثم بعدهم الصعلوك يطويهم كطى الدرنوك . ثم يلى من بعده عظهور يقصى الحق ويدنى مصر يفتتح الارض افتتاحاً منكراً ، ثم يلى قصير القامة ، بظهره علامة

يموت موتاً وسلامة . ثم يلي قليلا باكر ، يترك الملك باثر يلي أخوه بسنته ساير ، يختص بالأموال والمنابر ثم يلي من بعده أهوج ، صاحب دنيا ونعيم مختلج ، يتشاوره معاشره وذووه ، ينهضون اليه يخلعونه بأخذ الملك ويقتلونه ، ثم يلي أمره من بعده السابع ، يترك الملك محلا ضائع ، بنوه في ملكه كالمشوه جامع ؛ عند ذلك يطمع في الملك كل عريان ، ويلي أمره اللهفان . يرضى نزاراً جمع قحطان ، إذا التقيا بدمشق جمعان بين بنيان ولبنان ، يصنف اليمن يومئذ صنفان . صنف المشورة ، وصنف المخذول . لا ترى الاحياء محلول . وأسيراً مغلول . بين القراب والخيول . عند ذلك تخرب المنازل وتسلب الأرامل ، وتسقط الحوامل وتظهر الزلازل ، وتطلب الخلافة وائل ، فتغضب نزار فتدني العبيد والأشرار ، وتقصي الامثال والأخيار . وتغلو الاسعار في صفر الاصفار يقتل كل حيا منه ، ثم يسيرون إلى خنادق وإنها ذات أشعار وأشجار تصد له الأنهار ويهزمهم أول النهار ، تظهر الأخيار فلا ينفعهم نوم ولا قرار . حتى يدخل مصراً من الأمصار ، فيدركه القضاء والأقدار . ثم يجيء الرماة تلف مشاة ، لقتل الكماة ، وأسر الحماة . وتهلك الغواة هنالك يدرك في أعلى المياه . ثم يبور الدين ، وتقلب الأمور ، وتكفر الزبور ، وتقطع الجسور ، فلا يفلت إلا من كان في جزائر البحور ، ثم تبور الحبوب ، وتظهر الأعاريب ليس فيهم معيب على أهل الفسوق والريب في زمان عصيب ، لو كان للقوم حيا ، وما تغنى المنى . قالوا ثم ماذا يا سطيح ؟ قال ثم يظهر رجل من أهل اليمن كالشطن ، يذهب الله على رأسه الفتن. وهذا أثر غريب كتبناه لغرابته وما تضمن من الفتن والملاحم . وقد تقدم قصة شق وسطيح مع ربيعة ابن نصر ملك اليمن ، وكيف بشر بوجود رسول الله (ص) ، وكذلك تقدم قصة سطيح مع ابن أخته عبد المسيح حين أرسله ملك بني ساسان ، لارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . وذلك ليلة مولد الذي نسخ بشريعته سائر الأديان .

تم الجزء الثاني من البداية والنهاية ويليه الجزء الثالث وأوله

﴿ باب كيفية بدء الوحي الى رسول الله (ص) ﴾

فهرست
الجزء الثاني
من كتاب البداية والنهاية

صفحة

صفحة

